

١٩٨٤

التاريخ لا تحركه الصد



قراءة في فكر

الاسد

تأليف

عادل رضا

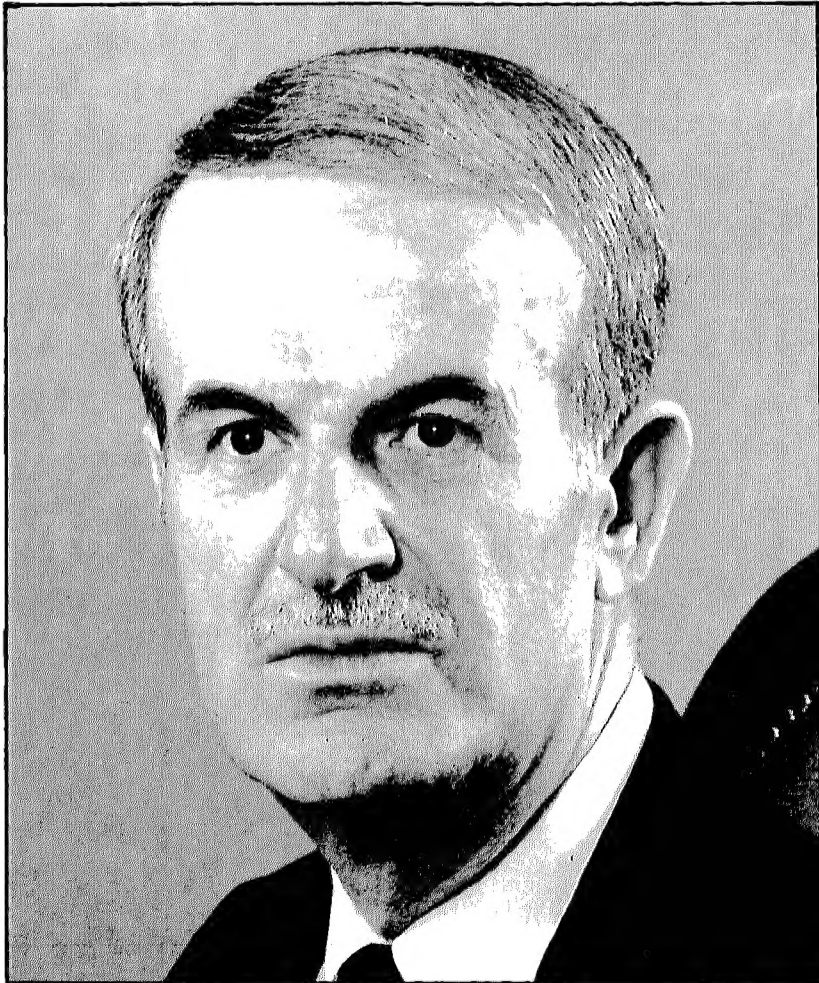
ابراهيم سعده





الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	956.91C42
رقم التسجيل	ع. ١٩٤

التاريخ لا تحركه الصدفة



قراءة في فكر الأسد

عادل رضا

تصميم الغلاف والاخراج الفني

أحمد السعيد

٢ - قراءة في فكر الأسد

■ ■ الإهداء ■ ■

□□ إلى الشعب العربى الشقيق فى سورية الحبيبة ، الصامدة ، فى وجه التحدى .. أقدم هذه الاطلالة فى فكر قائد عربى كبير ، له تجربته الخصبة ، الثرية فى مجالات العمل الوطنى والقومى ، وهى تجربة جديرة بالرصد ، والتحليل المتعمق ، لأنها تجربة القائد المفكر ، والمناضل الشجاع ، المؤمن بربه ، وبأمته ، وبأنه لا وجود لمستحيلات .. لم ترهبه الظروف ، ولم يخضع للعواصف ، ولم يرض فى حال من الأحوال أن يجاوز ثوابته ومبادئه ، التقط فيض ضمير شعبه ، وحرك تاريخ أمته ، ووضع شعبه فى المسار المحقق للتطور المنشود والمأمول دون اخلال بالمبادئ ، ودون خروج على المفاهيم القومية ، وبقي فى كل الأحوال رائد مدرسة الوضوح السياسى ، وصاحب الفكر الواضح الذى تنعدم فيه المسافة الفاصلة بين الوسيلة ، والهدف ، فما تستر على هدفه إلا بالوضوح ، ولا استعان على تحقيقه إلا بالعلانية ، والتى تجرده من احتمالات التأويل والتفسير ، وبالوضوح وبالعلانية صنع لوطنه تاريخه الحديث وهو تاريخ مترابط الأواصر مع الماضى المشرق ، المجيد حتى أصبحت سورية فى الطليعة بين الأشقاء العرب ، وبين دول العالم الثالث دون اخلال بالمبادئ أو خروج على المفاهيم الوطنية ، وبغير تحد للأفكار التى حملها الشعب السورى فى تاريخه النضالى الحافل ، ولهذا استقطب محبة الجماهير وقلوبها لأنه خاطب الضمائر ، وقدم براهين صدقه وشرف حمله للمسئولية .

تحية للرجل الذى يجعل كل أيامه بصمات فى تاريخ وطنه وأمته العربية .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾
صدق الله العظيم

هذا

الكتاب



بقلم : إبراهيم سعدة

اختلفت

مع الرئيس حافظ الأسد أكثر من مرة . كنت - مثل كل جيل من المصريين - مبهورا بالرئيس السوري الذي تولى الحكم في دمشق ، وأعاد الأمن والاستقرار بعد أن عاشت سورية الشقيقة سلسلة من الانقلابات العسكرية الفاشلة ، الواحد بعد الآخر ، مما دفع ضابط الطيران الشاب حافظ الأسد إلى أن يقوم بحركته التي عبر بها عن رغبة شعبه في أن يعود للبلاد أمنها واستقرارها ، بعد أن أرفقها صراع « الجنرالات » الذي لا ينتهى إلا ليبدأ من جديد !

وبنفس الانبهار .. تابعنا . في مصر . ما قام ويقوم به الطيار الشاب حافظ الأسد لإعادة بناء بلاده اجتماعيا ، واقتصاديا ، وعسكريا . رأينا فيه الشاب الوطنى الذى يشتعل قلبه بحتمية الوحدة العربية ، كأساس لا بد منه لإعادة الصحة العربية المفقودة ، ليكون للأمة العربية - من المحيط إلى الخليج - مكانها المرموق تحت الشمس . ورأينا فيه - أيضا - البطل

الشجاع الذى يحرص فى كل خطبه ، وكل تصريحاته ، وكل اتصالاته ، على ضرورة التصدى للخطر الاسرائيلى الذى لن يكتفى بالتهام دولة فلسطين ورفع اسمها وحدودها من فوق خريطة الشرق الاوسط ، وإنما يخطط لالتهام باقى اراضى أمتنا العربية القريبة منه والبعيدة عنه تحت سمع وبصر الدول الكبرى وبتأييدها المعلن ، مرة ، والمستتر ، مرة أخرى !

وكان الرئيس حافظ الأسد عند حسن ظننا عندما خطط مع الرئيس المصرى الراحل أنور السادات لمعركة الثأر ، حرب استرداد الأراضى العربية المحتلة التى اغتصبها الصهاينة فى حروبنا السابقة معهم .

ونشب الحرب فى العاشر من رمضان سنة ١٩٧٣ .

وكانت ملحمة وطنية ، وعسكرية ، وبكل المقاييس المتعارف عليها . التحم المقاتل السوري مع شقيقه المقاتل المصرى وقدموا معا أروع وأعظم انتصار عسكرى حققه العرب فى العصر الحديث . قبل هذه الحرب الخالدة كنا - كعرب - لا نستطيع النظر فى عيون الآخرين خجلا والمأ وحسرة بعد هزيمتنا فى حرب الأيام الستة - من عام ١٩٦٧ - والتى اختطف العدو الاسرائيلى نصرها وثمارها بعد أن دفعنا - بواسطة الدول العظمى - الى خوضها قبل أن نحسن الاستعداد لها !

فى تلك الحرب الخاطفة فقدت مصر أرضها فى سيناء ، وفقدت سورية أرضها فى مرتفعات الجولان ، وأعلنت اسرائيل - بكل صفاقتها - ضم الضفة الغربية العربية الى أراضيها ! هذا كله حدث فى ستة أيام من بداية شهريونيو الحزين ، والذى سيظل كذلك - فى قلوبنا - لأجيال طويلة قادمة .

ومما ساعد على زيادة « الهول » فى عقولنا وقلوبنا ما قامت به أجهزة الاعلام الغربية من دعاية للمغتصب المنتصر الاسرائيلى ، وأظهرته أمام الدنيا كلها فى صورة « الشعب الذى لا يقهر ! » ، كما هللت للجيش الاسرائيلى « الذى لا يهزم ! » .

ويخطئ من يظن أن الشعب العربى - من المحيط إلى الخليج - لم يتأثر بتلك الدعاية الصهيونية التى نجحت - وربما لأول مرة - فى إقناع الرأى العام العالمى « بوحشية » المجنى عليه ، و« ببراءة » الجانى والمعتدى !

سنوات وسنوات مرت على حرب ١٩٦٧ ، ولم نستطع - كشعب عربى - أن ننساها أو أن نتسامح مع من أوقعونا فيها . والاهم من هذا .. أننا فقلنا الثقة . وربما لأول مرة . فى قدراتنا السياسية وإمكاناتنا العسكرية فى نفس الوقت ! لم نعد نصدق أى تصريح من قادتنا يبشرنا فيه باقترب معركة الثأر من العدو المغتصب ! لم نعد نتحمس لما يذاع وينشر عن عملية إعادة بناء القوة العسكرية العربية من الصفر ، ولم نعد نهلل لتدفق الأسلحة المتطورة على

□ هذا الكتاب

قواتنا المسلحة ، ولسان حالنا يتساءل بسخرية مؤلمة : « وهذه الأسلحة ستتخطم هي الأخرى في أول معركة قادمة ! » .

زعيمان عربيان فقط هما اللذان كانا يتألمان من عدم تصديق الشعب العربي لما يقال ويتردد عن حتمية معركة الثأر المنتظرة . الزعيمان هما : الرئيس الراحل أنور السادات ، والرئيس السوري حافظ الأسد . لم يحدث أن اهتزت ثقة الزعيمين العربيين - السوري والمصري - في قدرات المقاتل العربي . على العكس من ذلك كانا يؤمنان بشجاعة وبطولة المقاتل العربي ، وبشرط أن تتاح له الفرصة الكاملة للتدريب ، والاستيعاب ، والأهم من ذلك أن تخطط له المعركة القادمة تخطيطاً سليماً ودقيقاً ، حتى يمكنه أن يثبت ذاته ويفزع عدوه .

كان التفاهم كاملاً بين الزعيمين العربيين حول ضرورة توفير كافة الاستعدادات والضمانات من أجل معركة الثأر التي لا بديل عن النصر فيها ! وهذا ما تحقق - بالفعل - في حرب العاشر من رمضان التي انتصر فيها السوريون والمصريون على جيش الغدر الذي زعموا - ذات يوم - أنه الجيش الذي لا يهزم ! لم يكن الشعب العربي وحده الذي أدهشه هذا الانتصار العربي الكبير - واليقيم في نفس الوقت - وإنما العالم كله شاركنا في تلك الدهشة !

لقد أجبرت هذه الهزيمة الرأي العام العالمي على أن يعيد النظر في أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يهزم ! فلقد ظهر هذا الجيش - الذي كان يتباهى بأنه يسمع « دبيب النمل » في قاعات وغرف نوم القادة العرب (!) في صورة الزوج الذي هو آخر من يعلم عندما حانت ساعة الصفر وبدأ الجيشان العربيان - السوري والمصري - يزحفان لدك واقتلاع التواجد الإسرائيلي المسلح من الأراضي العربية المحتلة !

كانت تلك الحرب بمثابة مفاجأة أذهلت العدو والصدى في نفس الوقت ، كما أكدت ثقة - الأسد والسادات - في المقاتل العربي الذي ظلم ، وتحمل أخطاء وخطايا الآخرين في صمت والم عميقين .

لقد كان الشعب المصري فخوراً بالأبطال السوريين بنفس فخره بالأبطال المصريين ، كما أن شعبية الرئيس حافظ الأسد - بين المصريين - ارتفعت وتوهجت باعتباره الشريك في تحقيق أمل الأمة العربية في الثأر من العدو ، والذي استغل نقاط ضعفنا وحقق نصراً لم يكن من الممكن تحقيقه لو اختلفت الظروف ، واختلف الأشخاص . إن حب الشعب المصري لشقيقه الشعب السوري ليس بالجديد ، ولكنه - أي هذا الحب - تضاعف بعد أن اختلط الدم السوري بالدم المصري في أشرف معركة وأقدس حرب .

وعشنا - سورية ومصر - أزهى وأحلى فترة في تاريخنا .

وكان يمكن أن تستمر تلك الفترة حتى هذه اللحظة لولا الجديد الذى طرأ على الساحة السياسية ، واختلفنا حوله !

ذات يوم .. فاجأ الرئيس الراحل أنور السادات العالم كله بعزمه الذهاب الى تل أبيب ومواجهة العدو في عقر داره ! كان القرار مذهلا ، وصاعقا ، وانقسمنا حوله - في مصر ذاتها - بين مصدق مذعور ، ومكذب مغزوع ، يرددان معا سؤالاً واحداً يقول :

« هل يجزئ مواطن عربى - وليس رئيسا لأكبر دولة عربية - أن يذهب الى عاصمة « الدولة » المحظور عربيا وقوميا الاعتراف بها أو السلام معها ؟! وهل يمكن أن تتبدد شعاراتنا ومواقفنا وأهدافنا التى تجمع كلها على حتمية الحرب المقدسة ضد العدو وإنهاء دولته واسترداد أرضنا وكرامتنا وحقوقنا منه ، يمثل هذه البساطة وبقرار لا يمكن أن يمر مرور الكرام على فكر أو خيال أى مواطن عربى ؟! » .

قبل أن يعلن الرئيس السادات هذا القرار المذهل ، حرص على أن يطير للتشاور مع الملوك والرؤساء العرب ويطرح عليهم مبادرته وليؤكد لهم أنه وحده الذى يتحمل نتائجها في حالة فشلها . وكان الرئيس حافظ الأسد على رأس قائمة هؤلاء الملوك والرؤساء العرب الذين رأى الرئيس المصرى أن من واجبه القومى تجاههم أن يحاطوا علما بمبادرته وبأهدافها . وكلنا نعرف ماذا حدث بعد ذلك .

رفض الملوك والرؤساء العرب تلك المبادرة وحاول الرئيس حافظ الأسد إقناع الرئيس السادات بعدم القيام بها لأنه « لا جدوى من وراء أى اتصال مع العدو الاسرائيلى الذى لا يريد سلاما إلا على انقراض الأمة العربية » . ولم يقتنع الرئيس الراحل السادات بهذه الاعتراضات كلها وغيرها ، بل صمم على المضى في تنفيذ قراره التاريخى ، في نفس الوقت الذى تفهم وجهة نظر الملوك والرؤساء العرب وبالذات الرئيس السورى حافظ الأسد الذى يكن له اطلب وأصدق المشاعر والمودة .

ومن المبالغة أن نقول : أن الشعب المصرى « كله » - من الاسكندرية حتى أسوان - كان مؤيدا لمبادرة السادات أو موافقا على توقيع اتفاقية سلام مع عدونا اللدود قبل أن تعود دولة فلسطين ، وتعود الحقوق المغتصبة للفلسطينيين . كان هناك من بين المصريين من يرفض تلك المبادرة ، ويرفض قرار الرئيس المصرى بزيارة العدو في عقر داره ، ويندد أكثر بتوقيع اتفاقية السلام مع اسرائيل .

□ هذا الكتاب

الذين رفضوا السلام مع اسرائيل - من المصريين - لم يتعرض أحد لهم ، فهذا حقهم لأن الخلاف في الرأي - وبالذات بالنسبة للقضايا الكبرى والمصرية - هو ألف باء الديمقراطية كما نفهمها ونطبقها . والذين أيدوا المبادرة وطلوا لاتفاقية تعيد كل شبر من الاراضى المصرية المحتلة ، كانوا على ثقة في أن الزمن وحده هو الذى يمكنه أن يحكم لصالحهم أو لصالح الجانب الآخر الذى رفض ، وندد ، بالمبادرة وينتأجها .

وعلى الصعيد العربى .. كانت الصورة قاتمة ومؤسفة خاصة بعد قمة بغداد ! التى أصدرت عدة قرارات أخطرها قطع جميع العلاقات مع مضر عقابا لها على توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل والتى بمقتضاها استردت مصر كل شبر كان تحت الاحتلال . واستمرت المقاطعة سنوات وسنوات ، كما شهدنا فترة ألّيمة تحوّل فيها الخلاف في الرأي الى عداة شخصى استخدم فيه الطرفان كل ما يخطر وكل ما لا يخطر على البال من أسلحة الكلام الذى تهاوى وتدنى بشكل لم نعهده منذ زمن بعيد !

ولست هنا في مجال تحديد من الذى بدأ ، أو من الذى أخطأ .. وإنما الذى يهمنى هو أنه أن الأوان - ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين - أن نعيد النظر في تعاملنا مع من يخالفنا في الرأي .

اننى أعترف بأن مبادرة الرئيس السادات وقراره بالسفر إلى عاصمة العدو ، كانا بمثابة صدمة كبرى للجميع .. وبلا استثناء ، ومازلت أذكر اننى كنت مذهولا فور سماعى بهذا الخبر الجلل ! كنت متشائما الى أبعد حدود التشاؤم .. لا لأننى ضد حل القضايا السياسية والدولية المعلقة حول مائدة المفاوضات ، ولكن لثقتى في أن هذا التفاوض يمكن أن ينجح مع أى بلد ومع أى شعب ما عدا اسرائيل ويهود اسرائيل . فتجاربنا المريعة مع الاسرائيليين - على مدى عقود الصراع والحروب معها - أكدت وأثبتت أنه لا فائدة ولا جدوى من وراء أى تفاوض معهم .

وسرعان ما تغير رأيى عندما أكدت الأيام نجاح تلك المبادرة ، وكما كان من الممكن جدا أن يتضاعف حجم المكاسب التى حصل عليها العرب بدلا من أن تعود تلك المكاسب على مصر وحدها التى استردت أرضها المحتلة دون إراقة قطرة دم واحدة .

جميع الرؤساء والملوك والشيوخ العرب هاجموا اتفاقية كامب ديفيد ونددوا بعملية السلام بين مصر واسرائيل . وهذا حقهم بالقطع . وكما كنت أتمنى أن تشارك سورية شقيقتها مصر في عملية السلام بعد أن شاركتها في معارك الحرب . كنت أتمنى لو أن يظل حرب أكتوبر الرئيس حافظ الأسد . شارك في تلك المفاوضات بنفس البسالة التى خاض بها الحرب .

لو حدث هذا لأمكن زيادة الحصار حول اسرائيل لنتزع منها المزيد والمزيد من حقوقنا المقتضية .

لهذا السبب وحده اختلفت مع الرئيس حافظ الأسد وقتذاك . لم اهتم بمعارضة الآخرين الذين لم يشاركوا في حرب ولم يفقدوا أرضا ، وبالتالي لا يضيرهم أن تظل القضية ، معلقة ومجمدة الى أجل غير مسمى ! ولكن الأمر يختلف بالنسبة للرئيس حافظ الأسد الذي حررنا من ثقله الدولي الكبير ، ومن حنكته السياسية المميزة ، ومن شفافيته المعروفة عنه في استطلاع مستقبل الأحداث ، ووجدنا أنفسنا نواجه عدوا جشعا يحتمى بقوى عظمى هائلة ! ولا أذيع سرا إذا قلت إن هذا كان نفس رأى الرئيس الراحل أنور السادات في شخص الرئيس حافظ الأسد . فبعد سنوات من المقاطعة الشاملة بين العرب ومصر ، ظل الرئيس الراحل يذكر الرئيس الأسد بكل الحب وبكل الأسف لأنه لم يشاركه في معركة السلام التي لم تكن سهلة مع خصم يقبل باستقطاع لحمه بدلا من التفريط فيما يعتقد أنها أرضه !

وما كان السادات يقول عن الرئيس الأسد .. قال مثله وأكثر منه الرئيس محمد حسنى مبارك . فالصداقة بين الأسد ومبارك قييمة ، وطيدة ، ولم تتأثر أو تتوقف الاتصالات بينهما حتى خلال سنوات القطيعة التي لا أعادها الله مرة أخرى . لقد جمعت العسكرية بينهما ، كما اشتركا في تخطيط وتنفيذ حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وتحملا في ذلك مسئولية هائلة لا يقدر على تحملها غير الرجال .. وای رجال .. مازلت أذكر الزيارة الأولى التي قام بها الرئيس حسنى مبارك لدمشق بعد عودة العرب الى مصر وعودة مصر الى العرب . كانت السعادة بادية وواضحة على وجهى الزعيمين العربيين الشقيقين ، وهى السعادة التي انتقلت بدورها إلى كل الوجوه التي اتاحت لها فرصة مشاهدته هذا اللقاء الحار الذى أسعد الشعبين الشقيقين سعادة كانت مفتقدة لسنوات وسنوات .

وبعد انتهاء المباحثات بين الزعيمين العربيين الكبيرين ، وافق الرئيس حافظ الأسد على لقاء رؤساء تحرير الصحف المصرية المرافقين للرئيس حسنى مبارك . كانت هذه هى أول مرة أرى فيها الرئيس الأسد وأستمع اليه . بساطته المتناهية لفتت نظرى على الفور . كما شغنى اليه حديثه الهادىء ، السلس ، والصريح لأبعد حدود الصراحة . حدثنا عن القضايا العربية بكل أبعادها . صارحنا برأيه وتوقعاته لمستقبل الاتحاد السوفيتى وكان جورباتشوف مايزال - وقتذاك - رئيسا لهذه الدولة العظمى التي تمزقت وتفتت بعد ذلك ! ولم يكتف الرئيس حافظ الأسد بذلك ، وإنما تحدث عن العالم الجديد الذى بدأ الحديث يتردد عنه

□ هذا الكتاب

هنا وهناك . توقعات الرئيس الأسد لهذا العالم الذي لم تكن معاملته واضحة حتى تلك اللحظة . كانت دقيقة ومحددة بلا مبالغات أو تحفظات .

ومضى الوقت سريعا ، ونحن نستمع لى الرئيس حافظ الأسد وهو يستعرض أحوال الدنيا القريبة منا والبعيدة عنا ، بأكبركم من المعلومات ، وبأكبر حجم من الصراحة والوضوح . وبعدها فتح لنا الرئيس الأسد صدره ليحيب عن أسئلتنا . ولم يكن من المعقول أن نتاح لنا هذه الفرصة الكبيرة للقاء الزعيم العربى الكبيردون أن نسأله عن موقفه من زيارة الرئيس الراحل السادات لتل أبيب ، وموقفه - أيضا - مما حدث بعد تلك الزيارة انتهاء باتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل والتي شاركتها فيها الولايات المتحدة الأمريكية .

وبنفس البساطة ، وبنفس الوضوح ، أعاد الرئيس الأسد الى أذهاننا تفاصيل ما دار بينه وبين السادات قبل أن يقوم بزيارته لإسرائيل . كان حريصا على أن ينسب إلى السادات كل ما قاله له في محاولة إقناعه بالموافقة على مبادرته ، دون إهمال جزئية أو تجاهل نص عبارة قالها الرئيس المصرى ، ثم انتقل الرئيس الأسد - بعد ذلك - ليكشف لنا نص ما قاله للسادات ردا على ما سمعه منه ، وهو الرد الذى حمل رفض سورية لتلك المبادرة لأسباب عديدة لم يتردد الرئيس الأسد في مصارحتها بها .

لقد أعجبني أن الرئيس الأسد - طوال الفترة التي تحدث فيها عن أسرار العلاقات السورية المصرية في تلك الفترة - التي لا تنسى - أنه لم يقل كلمة واحدة يفهم منها من بعيد أو قريب أنه ينتقد الرئيس المصرى الراحل أويشكك في وطنيته وعروبته . كان أمينا كل الأمانة وهو يستعرض وجهة نظر السادات ، كما كان واضحا كل الوضوح وهو يعدد لنا الأسباب التي جعلته يرفض تلك المبادرة ، وهذا الموقف النبيل من الرئيس حافظ الأسد ضاعف من احترامي له كرجل دولة لا يقبل أن يتحول الخلاف في الرأي إلى عداوة شخصي !

لقد انتهى اللقاء الطويل مع الرئيس الأسد ، وتوجهنا بعده لتلحق بطائرة الرئيس مبارك في طريق عودتنا إلى القاهرة ، ولا حديث لنا - طوال رحلة العودة - إلا حول ما دار في هذا اللقاء ، من جهة ، والإجماع على انبهارنا واحترامنا للزعيم العربى الكبير .



وتوطدت العلاقات بين دمشق والقاهرة ، كما تعددت الزيارات المتبادلة بين الزعيمين العربيين الكبيرين : الأسد ومبارك . ومع تعدد هذه الزيارات ، ومع تكرار الفرصة أمامنا للقاء الرئيس السورى والاستماع الى إجاباته عن أسئلتنا ، ازدادت اقتناعا بضرورة أن نقدم للقارئ المصرى - بصفة خاصة - وللقارئ العربى - بصفة عامة - كتابا يروى السيرة

□ هذا الكتاب

الذاتية للرئيس الأسد ، ويكشف من خلالها ما لا يعرفه القارئ العادي عن هذه الشخصية القيادية الفذة في عالمنا العربي .

لقد طلبت من زميلي وصديقي الأستاذ عادل رضا أن يتولى مسئولية هذا الكتاب ، لما أعرفه عن حماسه وإعجابه الشديدتين بشخص الرئيس حافظ الأسد ، من جهة ، وخبرته الطويلة في الشئون العربية - بصفة عامة والشئون السورية بصفة خاصة - وكما توقعت .. كان عادل رضا سعيدا بهذا التكليف ، وسعيدا - أكثر - بتلك الفرصة التي أتاحت له ليكتب كتابا عن الزعيم العربي الكبير .

لقد رأى المؤلف أن يتفرغ تماما لهذا العمل الكبير الذي تحمس له ، واقتنع بأهميته وضرورته ، ولولا هذا الاقتناع لما نجح الأستاذ عادل رضا في أن ينتهي من هذا الكتاب في أسرع وقت مستطاع ، ولما خرج الكتاب في صورته النهائية التي تفخر دار « أخبار اليوم » بصدوره عنها .

إبراهيم سعده

□□ بداية □□

(١)

□□ في البداية لابد من الإشارة إلى أن صاحب الفضل في إصدار هذا الكتاب هو كاتبنا الكبير الأستاذ إبراهيم سعده رئيس مجلس الإدارة ورئيس تحرير « أخبار اليوم » ، الذي تفضل ذات صباح بدعوتي إلى مكتبه ليشرح فكرة هذا الكتاب والهدف منه ، والذي لخصه في ضرورة توثيق الصلة بين شعوب بلداننا العربية من خلال عرض قصص كفاح هذه الشعوب ، وتاريخ قادتها الحافل ، والمليء بالعظات والعبر ، وايضا من خلال تتبع العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر مع شقيقاتها الدول العربية .

وفي عبارات رشيقة ، سريعة الايقاع تلطف الأستاذ إبراهيم سعده مُعرباً عن أمله - وهو يُسند إلى مهمة اعداد هذا الكتاب - في أن يجيء على النحو المأمول وفي زمن وجيز تاركاً لي مهمة التنقيب والبحث والدراسة فيما يتعلق بفصول هذا المؤلف .

ولقد شاءت المصادفة أن يتزامن هذا التكليف مع انشغالي بكتاب كنت قد بدأت العمل فيه حول قضايا مصرية سورية ، شديدة الشبه مع فكرة الكتاب المقترح ، وكان الموعد المحدد لإصدار هذا الكتاب في ذكرى قيام الوحدة السورية المصرية في فبراير المقبل ، وكان عنوان هذا الكتاب « مهددات الأمن القومي العربى في التسعينات » .

ولقد وافقت على الفور على فكرة هذا الكتاب ، وكان لدى من الأسباب والشواهد والمسوغات ما يجعلنى أرحب ترحيباً شديداً بإعداده .. فالرئيس حافظ الأسد في مقدمة

الزعماء العرب الذين أعتز بمعرفتهم اعتزازاً شديداً ، ولقد اتاحت لي ظروف عملى الصحفى أن التقى به مرات عدة قبل انتخابه رئيساً للجمهورية وأيضاً بعد انتخابه ، وأن أتعرف على أفكاره وآرائه عن قرب ، وعبر حوارات اتصلت لوقت غير قصير ، وعلى الرغم من كثرة اللقاءات الخاصة والعامة مع الرئيس حافظ الأسد ، فإن ذكريات أول لقاء معه مازالت ماثلة أمام مخيلتي بكل تفاصيلها ، وكأنها وقعت بالأمس القريب .

كان اللقاء الأول مع الرئيس الأسد ضمن وفد صحفى سورى محدود للغاية ، وكنت الصحفى الوحيد غير السورى الموجود ضمن الوفد ، وكانت الزيارة لمنطقة الجولان .. خلال هذه الزيارة أتيت لي أن أعرف الكثير عن أفكاره وعن تصوراتهِ وعلى الرغم من أن موقعه وقتئذ كوزير للدفاع كان يفرض المقدمات بحثاً عن الشكل المناسب للسؤال المناسب ، إلا أن وضوحه وبساطته ، وصراحته ، وعمق تحليله ، واقتحامه فوراً إلى لبِّ الحديث ، تعالياً على المقدمات ، إصراراً على النتائج ، دفعنى إلى طرح عشرات الاسئلة عليه . وقد ظل الرجل بصبوره الطويل مستمعا لأسئلتى العديدة والمتنوعة ، وبصوته العميق بدأ يجيب ، ويحلل ويستزيد .

وعندما عدت إلى أوراقى القديمة عن ذكريات هذا اللقاء الأول لي مع الرئيس حافظ الأسد وجدت الكثير مما يمكن أن يُروى عنه ، ووجدت أيضاً أنه كان كمن يستشف بعمق تحليله لما سيحدث ..

حدثنا الرئيس الأسد في هذا اللقاء عن الجيش العربى السورى ، ونشأته ، وعاد بنا إلى تاريخ هذه النشأة في أغسطس - آب ١٩٤٦ ، مؤكداً أن ولادة هذا الجيش كان نصراً أكيداً حققه الشعب السورى لانتصار ارادته وفى تحقيق مطلبه في أن يكون الجيش ، جيش الشعب المؤمن بقضايا الشعب ، والمدافع عن أرض الوطن ، وإرادة الشعب ، ولقد روى لنا الكثير عن ولادة الجيش العربى السورى مع الاستقلال ، وجلاء القوات الأجنبية ، باعتباره ، الثمرة الأولى لنضال قاسٍ وطويل خاضه الشعب السورى مدة تزيد على ربع القرن ، كان طابعه المميز التضحيات الكبيرة والبطولات الرائعة مما وضع الشعب السورى في مكانه الطبيعي كجزء من الأمة العربية ، وفى مكانه اللائق وسط الأسرة الدولية .

روى لنا الرئيس الأسد كيف كان قيام جيش عربى التكوين ، والفكر والعقيدة مطلباً يُعبر عن إرادة الشعب ، ولكنه في الوقت نفسه كان أمراً مفزَعاً للاستعمار إلى أبعد الحدود ، حتى إذا أدرك الاستعمار أن ارادة الشعب لا بد أن تنتصر حاول بشتى السبل والأساليب أن يحتفظ بسيطرته على الجيش العربى السورى ، كما حاول في كل قطر عربى آخر مثل هذه المحاولة عن طريق تطعيم أية قوة عربية مسلحة ناشئة بالقيادات والعناصر الأجنبية ، وبالأفكار والاتجاهات الغربية عن أمتنا العربية ، ولكن الشعب

■ بداية

العربي السوري قاوم تلك المحاولات وانتصر عليها ، ومضى الرئيس الأسد في كلمات صدق نطق بها لسانه ، وعبرت عنها عيناه مؤكداً أن فترة تأسيس الجيش العربي السوري كانت حافلة بالأحداث الجسام ، فقبل انقضاء عامين على نشوء الجيش العربي السوري داهمته الهجمة الصهيونية لاغتصاب فلسطين ، ووجد نفسه يخوض معركة فلسطين عام ١٩٤٨ قبل أن يكمل استعداداته وتسليحه وفي جو مشحون بالتآمر والتنافس بين من كان بيدهم الأمر في الوطن العربي ، ومع ذلك فقد أبلى بلاءً حسناً ، وكانت حرب فلسطين التي خاضها الجيش السوري مع بقية الجيوش العربية عام ١٩٤٨ والتي كان مُقدراً لها أن تحقق هدفها الكبير ، هدف التحرير الكامل ، تحولت بفعل التآمر الاستعماري الصهيوني إلى معركة أولى في حرب طويلة ما تزال مستمرة .

لقد واجهت الجيوش العربية حرباً كان ظاهرها صراعاً مع إسرائيل فقط ، وحقيقتها صراع مع قوى عالمية رهيبة أيضاً .

وما زلت أتذكر أن الرئيس الأسد في هذا اللقاء ، والذي تواصل لعدة ساعات حدثنا عن بطولات هذا الجيش .. حدثنا عن معركة التوافيق في مارس - آذار عام ١٩٥٨ ، ومعركة التوافيق الكبرى التي استمرت أربعة أيام في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٠ ، والاشتباك البري والجوي في منطقة النخيلة في تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٦٤ ، والمعركة الجوية فوق بحيرة طبرية ومنشآت تحويل الأردن في يوليو - تموز ١٩٦٦ ، ومعارك نيسان الجوية في السابع من نيسان - أبريل عام ١٩٦٧ .

وفي خلال عدوان يونيو - حزيران عام ١٩٦٧ كان للجيش السوري مواقفه البطولية التي ستبقى مسجلة بكل الاعتزاز مثل معركة تل الفخار ، ومعركة الجليبيته ، وهي معارك استمرت باستمرار أيام العدوان فكان منها بطولات النسر الشجعان في صد الهجوم الجوي على ميسلون ، والهامة في فبراير - شباط ١٩٦٩ ، وفي قذف مواقع العدو على جبل الشيخ وموقعه في القنيطرة في نهاية يوليو - تموز من العام نفسه واختراق حاجز الصوت فوق حيفا في ٢٩ كانون الثاني - يناير ١٩٧٠ والمعارك الجوية في الثاني من شباط - فبراير ١٩٧٠ وعبور القوات السورية خط وقف إطلاق النار لتدمير مواقع العدو في ١٣ و ٢٤ مارس - آذار عام ١٩٧٠ ، وتدمير المنشآت والتحصينات الهندسية للعدو في ٢٨ مارس - آذار ١٩٧٠ ، وكذلك في الاشتباكات العنيفة على طول الجبهة في الثاني من نيسان ١٩٧٠ ، وفي معارك حزيران عام ١٩٧٠ .. إلخ .

ولقد مضى الأسد مؤكداً أن النصر على إسرائيل لا بد أن يتحقق وهو ما حدث بالفعل عام ١٩٧٣ .

وأذكر أنني همست في أذن العماد مصطفى طلاس وقتها وكان رئيساً للأركان - وهو

أول من قدمنى للرئيس الأسد - بأن شواهد الحال تؤكد أن وزير الدفاع حافظ الأسد هو فيما يبدو لنا القادر على إنقاذ السفينة السورية ، والوصول بها إلى بر الأمان ، أذكر أنه أيدنى بشدة ، وعندما قلت له مبدئياً : إن هذه - على أية حال - مجرد تحليلات فابتنس مؤكداً أن التحليل الجيد هو معلومات مؤكدة ، ومنذ ذلك الوقت توثقت علاقتى بالعماد طلاس ، ولم تعض أشهر قليلة حتى قامت الحركة التصحيحية بقيادة الرئيس الأسد .

(٢)

□□ وكان لقائى الثانى بالرئيس حافظ الأسد فى الرياض ، وكنت قد سافرت إليها موفداً من مؤسسة « أخبار اليوم » لتغطية مؤتمر القمة السداسى الذى انعقد بشأن الأزمة اللبنانية ، ولقد نشر هذا الحديث فى جريدة الأخبار فى عددها الصادر بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٧٦ ، ولقد تم فى ظروف أعتز بها حيث لم يكن أمام الرئيس حافظ الأسد كما كتبت وقتئذ سوى نصف الساعة لينتج إلى الطائرة التى ستقله إلى بلاده عندما نقل له المرحوم أحمد اسكندر وزير الاعلام السورى وقتئذ رغبتى فى مقابلته ، وعلى الفور جاء الوزير ليصحبنى فوراً لمقابلة الرئيس الأسد ، وفور أن رأيته بادرنى قائلاً : أعرف أنك تريد حديثاً طويلاً . كما قيل لى . وليس أمامنا سوى نصف الساعة الباقية وهى لك ، وبسرعة بدأت أدون ما قاله لى عن نتائج مقابلته للرئيس السادات كما طلب إلى وقتئذ أن أنقل عبر صحيفة الأخبار تحياته للشعب المصرى الشقيق الذى ارتبط مع الشعب السورى منذ فجر التاريخ بعلاقات وثيقة ثم عمدتها حرب أكتوبر بالدماء الغالية التى سقطت دفاعاً عن أشرف الأهداف ، ثم حدثنى الرئيس الأسد عن تقويمه لنتائج مؤتمر القمة السداسى ، وكيفية تنفيذ قراراته ، وشمل الحديث أيضاً رأيه بصراحة عن سبب تدخل الجيش السورى فى لبنان ، وكان مما قاله لى :

« أود أنؤكد لك أننا لو كنا ننظر إلى مصلحتنا القطرية السورية فقط لكان من المفروض ألا نتدخل لأن هذا التدخل ضد مصلحتنا ، ولقد كنا نتمنى لو اشترك معنا كل الأشقاء العرب ، ولقد كان قرارنا فى التدخل السريع لمواجهة الأخطار التى قدرنا أنها تعيط بالأمة العربية ، وتحملنا تضحيات كثيرة لمجابهة الخطر الذى يصيبنا جميعاً .. جميعاً .. »

لقد كانت هناك مؤامرة ضخمة تنتظر لبنان .. حاولت اسرائيل أن تظهر أنها تحمى بعض الطوائف لتقيم دويلات طائفية فى لبنان وتدخلنا لندافع عن القيم العربية والاسلامية ، وكانت أحداث لبنان تهدد بكارثة أخطر من كارثة اسرائيل .. إلخ .. إلخ .

■ بداية

ولقد اثبتت الايام صحة كل ما قاله الرئيس حافظ الاسد .

□□ ثم كان لقائى الثالث بالرئيس حافظ الأسد عندما كلفتني مؤسسة « أخبار اليوم » أيضا بتغطية المباحثات التاريخية التي جرت بين الرئيسين مبارك والأسد في ٣ مايو ١٩٩٠ ، وأذكر أنني طلبت في أعقاب لقاء شارك فيه رؤساء تحرير الصحف المصرية ، طلبت اللقاء المنفرد بالرئيس الأسد وعندما تفضل بالموافقة أجريت معه حديثا بالغ الأهمية حول الخطوات المرتقبة بعد عودة العلاقات المصرية - السورية إلى وضعها الطبيعي ، ولقد نُشر هذا الحديث في صحيفة « أخبار اليوم » في عددها الصادر بتاريخ ٥ مايو ١٩٩٠ ، وكان حديثا بالغ الأهمية حيث أكد فيه أن لقاءه بالرئيس مبارك ستكون له أهميته القصوى سواء في الوقت الراهن أو المستقبل ، وأنه - أي الرئيس الأسد - مع الذين يرون في عودة العلاقات المصرية - السورية إلى قديم عهدهما وإلى وضعها الطبيعي بشائر لأحداث عظيمة ومقدمة لتحولات على طريق تحقيق التضامن العربي المطلوب والمأمول .

وأكد لي الرئيس الأسد أنه اتفق مع الرئيس حسنى مبارك على الاسراع في تعميق العلاقات المصرية السورية لمجابهة الأخطار المحدقة بالأمة العربية ، ولتعويض ما فات وباقي سرعة ممكنة ، وكان بالغ الوضوح والصراحة عندما قال لي إن السدج وحدهم هم الذين يتصورون أن مردود ما اتفقنا عليه سوف يقتصر على مصر وسورية ، وإنما سوف يمتد تأثيره الايجابى لمصلحة كل العرب .

وقال أيضا : إننا في مصر وسوريا ندرك ما وراء المتغيرات الدولية ، ونعطىها الأهمية الاولى ، وندرك ما وراء خطر الهجرة المفتوحة على مصراعيها لليهود السوفييت إلى فلسطين ، ولقد تضاعف حجم هذا الخطر رغم إبداء الجانب العربى حسن النوايا لاقامة السلام في المنطقة .

وأذكر أنه قبل هذا اللقاء ببوم واحد كنت قد سألت الرئيس حافظ الأسد في لقاء جمعه مع رؤساء تحرير الصحف المصرية الذين رافقوا الرئيس مبارك في زيارته لسورية وقتئذ سألته عما إذا كان سيشارك في مؤتمر القمة العربى الذى سيعقد في بغداد ، وهو المؤتمر الذى سبق الغزو العراقى للكويت بأسابيع قليلة ، وهل سيستجيب للوساطة العربية لحضور هذا المؤتمر ، فأجابنى بالحسم أنه لن يشارك في هذه المؤتمر لانه يعرف أن حكومة بغداد غير صادقة في إقامة علاقات حسن الجوار ، وغير صادقة في دعم التضامن العربى ، وإن للرئيس صدام حسين أهدافه الخاصة من وراء انعقاد المؤتمر .

والغريب أن الأيام أثبتت أن الرئيس حافظ الأسد كان الاسبق في فهم مقصد صدام حسين من وراء عقد هذا المؤتمر إذ لم تمض أشهر قليلة حتى وقع الغزو العراقى للكويت ، ولاشك أننا لتفسير هذه الرؤية المستقبلية للرئيس الأسد بالنسبة لعدم مشاركته

في مؤتمر القمة العربي الذي عُقد في بغداد في شهر مايو / ١٩٩٠ ، لابد أن نعود قليلاً إلى الوراء لنقول أن الموقف السوري كان منبعثاً من أن القيادة العراقية ليست مخلصاً في موقفها وفي فكرها القومي العربي بالرغم من ادعائها ذلك ، والرئيس الأسد كان يعرف ويدرك أن فكر الرئيس صدام حسين لم يكن قط قومياً في صلبه وفي جوهره ، وإنما كان يتلبس اللباس القومي دون أن يكون مؤمناً به ، ومن هنا رفضت سورية الاشتراك في مؤتمر لا تتوافر في قيادته المسئولية القومية ، أو الفكر القومي السليم الذي ينظر إلى القضايا القومية بمنظار قومي ، وليس بمنظار قطري ضيق أو بالأصح بمنظار شخصي ، وذي مظامع شخصية ضيقة ، منافية لمبادئ القومية العربية وللأصابع القومية العربية ، ولصلحة الجماهير العربية .

ولقد تعددت اللقاءات مع الرئيس حافظ الأسد وتنوعت ، وهي على تعددها وتنوعها كانت تعمق اقتناعي بأن الرئيس حافظ الأسد كواحد من أبرز رجال الاستراتيجية الشاملة له من بعد النظر وعمق التحليل في القضايا السياسية والقضايا القومية ما يجعله في مقدمة الاستراتيجيين العرب في الوقت الحاضر .. ينظر دائماً إلى الأمور نظرة تحليلية عميقة يأخذها بالهدوء والحكمة والصبر على التعمق في التحليل حتى يشمل في تحليله جميع عناصر القضية التي يحللها ثم يرتب بعد ذلك العناصر التي حللها ليخرج منها برؤية مستقبلية لهذه القضية أو تلك .

(٣)

□□ ربما يتساءل الكثيرون عن السبب أو الأسباب التي تدعو القائلين على مؤسسة « أخبار اليوم » إلى إصدار هذا الكتاب ، وهذا التساؤل له أسبابه ودواعيه ، وللإجابة يمكن أن نطرح الحقائق التالية والتي قد تشكل في مجملها محاولة للإجابة عليه :

أولاً : أن الرئيس حافظ الأسد هو أحد القادة العظام الذين غيروا فعلاً الكثير ، وصنعوا تاريخاً جديداً لسورية ، تاريخاً ليس منبت الأواصر مع ماضيها ، ولكنه يجاوز بها مراحل التخلف التي كانت تتخبط فيها .

قبل الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ كانت سورية تعاني من المشكلات والأزمات الداخلية التي تجسدت في بعض الأحيان في انقلابات عسكرية أو في اختلافات سياسية عميقة بين مختلف القوى السياسية أو في الاختلافات بين اتجاهات متضاربة داخل مؤسسة حزبية واحدة ، وهذه الاختلافات والاضطرابات أدت إلى ضعف الوضع السوري

■ بداية

العام سواء من حيث دور سورية القومي المعروف تاريخياً أو من حيث الوضع الاقتصادي الداخلي ، وأقصد بذلك التنمية ومشاريع التنمية وخططها .

ولقد تعرضت سورية لمؤامرات استعمارية ، وكان للقوى الوطنية والتقدمية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي دور أساسي في النضال ضد المؤامرات الاستعمارية والتفت ، الجماهير السورية حول الحزب وسائر القوى الوطنية ، والتقدمية الأخرى ، والتي ساهمت جميعها في قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، وكان مقدراً لهذه الوحدة الاستمرار والتقدم ، إلا أن التآمر عليها كان كبيراً من أعداء الأمة العربية من الداخل والخارج ، والتي نجحت في فك عرى الوحدة بين سورية ومصر في ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٦١ ، ولكن ثورة ٨ (آذار) مارس ١٩٦٣ ، أعادت إلى سورية وجهها الوحدوي العربي الأصيل بادئة في ذلك عهداً جديداً في تاريخ سورية المعاصر ، ولقد تحققت خلال تلك الفترة منجزات اقتصادية واجتماعية شاملة .

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال المرحلة الممتدة من عام ١٩٦٣ وقيام ثورة الثامن من آذار في العام نفسه وحتى قيام الحركة التصحيحية في عام ١٩٧٠ مرت سورية بفترة عصيبة للغاية حيث انعكس الخلاف بين الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والبعث على سورية داخلياً وعربياً ودولياً ، الأمر الذي أثر على الجبهة الداخلية في سورية ، وأدى إلى أن تنصرف سورية عن الاهتمام بتحسين البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية ، والبنية التنظيمية ، وشهدت الساحة السورية صراعات هامشية بين قوى وطنية وتقدمية عديدة حيث كانت الصراعات بين الأحزاب القومية كالقوميين العرب أو الناصريين الذين تشكلت حركتهم أثناء الانفصال وبعده أو بين الأحزاب العقائدية كالحزب الشيوعي السوري .

وقد تفاقم الصراعات الداخلية داخل حزب البعث بصورة لافتة للنظر الأمر الذي دفع الرئيس حافظ الأسد إلى المشاركة بحركة تصحيح أولية في الثالث والعشرين من فبراير شباط ١٩٦٦ وكان الرئيس الأسد آنذاك وزيراً للدفاع ، وفي عام ١٩٦٧ شنت إسرائيل عدوانها ، وهو العدوان الذي ساندتها فيه القوى الامبريالية وانتهى باحتلال سيناء والقسم الأكبر من مرتفعات الجولان والجزء الباقي من فلسطين .

في هذه الفترة قامت سورية بعدة محاولات للتقارب مع مصر ، ولكن للأسف الشديد كان هناك رأي في قيادة الحزب يعارض كل صور التقارب مع مصر ، وهو عقل مناوئ كاد أن يحرف الحزب والثورة عن خطيهما الرئيسيين فافتعل معارك مع الأردن ومعارك مع لبنان ومعارك مع الدول العربية ، ومعارك مع الدول الأوروبية ، إلى جانب ذلك كله فقد كانت هناك علاقة مد وجزر بين سورية والاتحاد السوفيتي ، وهذا الوضع الداخلي والعربي والدولي إلى جانب آثار عدوان ١٩٦٧ دفع بالرئيس حافظ الأسد إلى القيام

■ بداية

بالحركة التصحيحية التي قادها في ١٦ تشرين ثاني نوفمبر ١٩٧٠ . وهي الحركة التي أعادت لحزب البعث وجهه الجماهيري الاصيل وأعادت بناء الجسور المهدمة بين الحزب وجماهيره ، وخلقت الثقة بين الحاكم والشعب ، وأعادت سورية من جديد إلى موقعها الريادي في حركة التحرر العربي ، ومكنتها من القيام بدورها القيادي في الوطن العربي ، وقبل ذلك كله كان للحركة التصحيحية الدور الرئيسي في الاعداد لحرب أكتوبر .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت سورية تمضي في طريق البناء والتنمية بتطوير الاقتصاد الوطني والقفز به خطوات واسعة إلى الامام في ظل أوضاع سياسية مستقرة وديمقراطية حيث عملت الحركة التصحيحية على إصدار الدستور الدائم ، وتشكيل الجبهة الوطنية التقدمية ، وانتخاب مجلس الشعب ، وإرساء قواعد نظام ديمقراطي رئاسي متطور . وعلى الصعيد العربي سعت الحركة التصحيحية لتحقيق التضامن العربي ودفعه إلى الامام .

وعلى الصعيد الدولي قامت سورية بدور بارز في إظهار عنصرية إسرائيل وعدوانيتها ، وهو الدور الذي برز بشكل خاص عبر مقررات مؤتمرات عدم الانحياز وغيرها ، مما جعل لسورية مكانة مرموقة ووزنا سياسيا معتبرا . وكان لشخصية الرئيس حافظ الأسد الحكمة والشجاعة أثرها الحاسم في تحقيق المرونة والانفتاح والتحرك الايجابي لصالح القضية العربية ، وخاصة قضية العرب المركزية - قضية فلسطين .

حينما قام الرئيس حافظ الأسد بحركته التصحيحية ، فإنه قصد أن يجنب وأن يزيل جميع الاسباب التي كانت متوافرة على الساحة السياسية الداخلية ويركز دعائم الاستقرار من خلال تأسيس مؤسسات الدولة لكي تقوم بدورها فيما يتعلق بالتنمية والتطور وتأمين وتوفير عوامل وعناصر الدفاع القومي عن سورية ، ومن هذين الخطتين ، خط تجسيد الآمال والطامح للشعب العربي في سورية ومن خلال ترسيخ مؤسسات الدولة عمل الرئيس حافظ الأسد على نشر الاستقرار ، وبالتالي على تجميع القوى الوطنية ، في الجبهة الوطنية التقدمية التي تجمع مختلف العناصر العاملة في الميدان القومي في سورية سياسيا واقتصاديا وتنمويا .

وهذان الخططان اللذان بدأ مع قيام الحركة التصحيحية لايزالان مستمرين بالحسم نفسه ، والقوة ذاتها وخاصة في التعامل الراهن مع المستجدات الدولية الجديدة . والذين يراجعون البيان التاريخي الذي صدر في أعقاب حركة السادس عشر من تشرين الثاني من نوفمبر ١٩٧٠ وهو بيان هام عالج الأوضاع الداخلية والعربية والدولية ، يجدون أن الرئيس حافظ الأسد انطلق بسورية من الناحية النظرية الفوغائية

■ بداية

الفوقية الى الناحية العقلانية التنظيمية والتي قربت سياسة سورية ، وسياسة الحزب من التطبيق الواقعي أو اقتران النظرية بالممارسة .

في عام ١٩٧٠ دعا البيان إلى إعادة بناء الحزب وفعلا أعيد بناء الحزب ، وأعيدت اللحمة ، والاتصال بين الحزب وقواعده الجماهيرية ، لأن أي حزب من غير جماهير ليس سوى تسلط فئة حاكمة مهما ادعت غير ذلك .. وفرق كبير بين التسلط على الجماهير وقيادة الجماهير نحو أهدافها ، فكرت الحركة التصحيحية أيضا في وسائل دعم الجبهة الداخلية فشكلت جبهة وطنية تقدمية تمثل تحالفا في أروع صورة بين جميع الشرفاء في الوطن لبناء مرحلة من مراحل التطور الضروري سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو الدفاعي .

ولقد وضعت الحركة التصحيحية دستورا دائما لسورية بعد أن كانت تعيش في ظل دساتير مؤقتة ، وحددت في هذا الدستور العلاقة بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وحددت أيضا دور الحزب باعتباره الحزب القائد في المجتمع والدولة من خلال جبهة وطنية تقدمية ، أي أن الحزب انتقل من مجال الحزب الواحد إلى الحزب القائد الذي يقود من خلال تحالف جبهوي .

وهذه أول مرة ينص فيها على التعددية السياسية في سورية وفي هذا كانت سورية سابقة للدول الشيوعية أو الدول التي تدور في الفلك الشيوعي والتي تأخرت سنوات عديدة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، واقتربت من الانهيار أو انهيارت لأنها لم تقم بفهم الواقع وتحليله تحليلاً يؤدي إلى تدارك الأخطاء وإلى الوقاية منها .

من ناحية ثانية صار هناك بعد الحركة التصحيحية بناء شعبي ، بمعنى آخر برلمان منتخب ومجالس شعبية منتخبة في كل قرية وفي كل مدينة ، وهذه المجالس الشعبية تمثل أيضا تحالفا للشعب وتحالفا وطنيا عريضا تشارك فيه جميع الجهات في تجربة الحكم المحلي .

ومجلس الشعب أو البرلمان أو السلطة التشريعية لا يعكس سلطة حزب واحد فقط ، وإنما هو تحالف يوجد فيه الحزب الذي يقود ، وأحزاب الجبهة الوطنية التقدمية جميعها ، وعدد من المستقلين في البرلمان الحالي يقترب من نصف عدد الأعضاء جميعا والباقي يتوزعون على الحزب وباقي أحزاب الجبهة .

من الناحية الاقتصادية جاءت الحركة التصحيحية بمنهج اقتصادي جديد .. هذا المنهج يعتمد على فلسفة تعتبر الأولى بالنسبة للعالم الثالث وهي التعددية الاقتصادية أي أنه لا بد من تجسيد لارادة الجماهير أن يكون هناك قطاع عام قوى ، وهذا القطاع العام القوى ليس في معناه القطاع المهيمن والمسيطر على كل شيء ، وإنما القطاع المنتج الذي

يساعد القطاعات الأخرى في تنشيط العمليات الأخرى وفي تطويرها أيضا ، بمعنى أن هناك عمودا فقريا للاقتصاد ولا بد أن تقوم الدولة بالاشراف عليه باعتبار أن القطاع الخاص في العالم الثالث لا يستطيع أن يعي مدخرات قادرة على أن تؤدي الى تراكمات معينة للانطلاق الى مرحلة النمو الاقتصادي وتحقيق العدالة الاجتماعية أيضا لأنه لا يمكن اطلاقا أن يكون هناك نمو اقتصادي على حساب الجماهير ومعيشتها ، وأيضا لا بد أن يراعى تعليمها وثقافتها وتربيتها التربية التي تليق بمجتمع نام يسعى نحو التحرر والانطلاق والتقدم نحو الأفضل ، فكان هناك القطاع العام والقطاع المختلط الذي يمثل المساهمة بين الرأسمال الوطني والرأسمال الحكومي والذي تساهم الدولة فيه بـ ٢٥٪ والقطاع الخاص بـ ٧٥٪ لكي تساعد الدولة على خلق قطاع مختلط قوى يقف بين القطاعين العام والخاص ، وهناك قطاع خاص له حرية كاملة في القطاعات المختلفة .

وعلى سبيل المثال فإن القطاع الزراعي ٩٧,٩٪ منه في يد القطاع الخاص .. الدولة لم تقم إلا بإنشاء مزارع نموذجية للمساعدة في تقديم الخدمات للمزارعين والفلاحين ، أما الملكية فهي ملكية خاصة للمواطن لم تدخل الدولة في قطاع تجارة التجزئة بل تركت القسم الأكبر من التجارة الداخلية في يد القطاع الخاص .. الدولة لم تقم إلا ببناء بعض المجمعات الاستهلاكية للطبقات الشعبية: الفقيرة لكي تستطيع أن تجد حاجتها فيما يلزمها ولكي تستطيع أن تقوم بدور مثبت ومراقب للأسعار بالنسبة للتجارة الداخلية ، الملكية العقارية بقيت في يد القطاع الخاص .

ولقد استطاعت سورية بفضل التعددية الاقتصادية أن تصمد في وجه الأزمات الاقتصادية .. وهذا الوضع الداخلي رتب على سورية أن تنطلق في النطاق الخارجي منطلقا يؤدي الى التحاور .. حوار بين الدول العربية الشقيقة نحو المصالحة العربية العليا ممثلة في بيت العرب في الجامعة العربية ، ومحاولة الاتفاق حول الحد الأدنى في القضايا العربية ونزع فتيل أي تفجر في العلاقات العربية - العربية - أيضا التعاون في جميع المنظمات المنبثقة عن الجامعة العربية ومحاولة بناء سوق عربية مشتركة ، وتعزيز الموارد الاقتصادية العربية ، وتعزيز ميثاق الدفاع العربي المشترك ، وما الى ذلك .

وفي النطاق العربي كانت سورية كدولة تعمل ضمن ثلاث دوائر : الدائرة العربية وقد اشرنا اليها ، والدائرة الاسلامية باعتبارها عضوا فعالا في منظمة المؤتمر الاسلامي ، وفي المجال الدولي كانت سورية تعمل في كتلة عدم الانحياز باعتبارها عضوا مؤسسا ونشطاً في مجموعة دول عدم الانحياز ، وأيضا تقيم علاقات جيدة مع جميع دول العالم .

لم يكن لسورية بقيادة الرئيس الأسد هدف إلا الرغبة في بناء علاقات قائمة على الوحدة والاحترام وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد ، ولكن كان هناك اصرار وتصميم

■ بداية

سورى على أن تعكس السياسة المصالح من جهة وتعكس الحق من جهة ثانية باعتبار أن مصلحة سورية ومصلحة العرب يجب أن تكون مصونة في الدرجة الاولى في العلاقات الدولية .. حاولت سورية أن تقيم علاقاتها مع الدول الأكثر اقترابا من المصالح العربية، ولذلك كان لها علاقات مع مجموعة الكتلة الاشتراكية ، ومجموعة عدم الانحياز ، ومع مجموعة الدول الاسلامية ، ولكن سورية لم تطلب ولم تغال في طلبها في الاقتراب من المصالح أن يكون على حساب حقوق الآخرين ، بالعكس انطلقت من ايمانها بميثاق الأمم المتحدة وبمبادئ القانون الدولي ، وبمبادئ الشرعية الدولية ، ودعت ومازالت تدعو منذ الخامس من يونيو حزيران ١٩٦٧ وحتى يومنا هذا إلى تطبيق القرار ٢٤٢ الذى يقضى بانسحاب اسرائيل من الاراضى العربية المحتلة وتطبيق قرارات الأمم المتحدة على القضية الفلسطينية ، ولذلك كانت علاقاتها ، وحتى خلافاتها تنطلق من الحفاظ على المصالح العربية من جهة ، ومن مدى اقتراب هذه الدول أو تلك من الاعتراف بالحق العربى .

هذه السياسة جعلت سورية تحتل مكانة كبيرة على خارطة الشرق الأوسط لأنها انتهجت سياسة تتميز بالفاعلية والواقعية ، وأصبح الرئيس الأسد مميزا بسياسة اقليمية بعيدة عن التهور والمغالاة وتنطلق من الحفاظ على المصالح الوطنية لسورية وللأمة العربية من جهة ، وإلى الاقتراب والحفاظ على الحق الذى أقرته الشرائع الدولية سواء كان في الأمم المتحدة أو في مواد القانون الدولى لكى لا تظلم أحدًا ولا ترضى بالظلم ، وهذا ما جعل الكثير من الشهادات لصالح هذه الواقعية التى امتازت بها السياسة السورية في ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد ، ولقد اعترف زعماء العالم بهذه الحقيقة ويكفى أن نعود الى ما قاله الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون عندما أعرب عن إعجابه الشديد بجهود الرئيس حافظ الأسد في سبيل تحقيق السلام. وقول سيروس هانسي وزير خارجية امريكا الأسبق: (بأن الرئيس الأسد هو من أوائل القادة في العالم ، وأن سورية شغلت دورا بناء في الشرق الأوسط) وقول الرئيس الفرنسى الأسبق فاليرى جيسكار

ديستان: «الرئيس الأسد شخصية قوية دوليا وله سمعة عظيمة» ، وقول الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر: «الرئيس حافظ الأسد رجل قوى وحازم وذكى ولا يخاف .. الخ» .

ولقد ظل الرئيس حافظ الأسد محتفظا باستقلالية القرار السورى ، وكانت القضايا العربية هى محور العمل الدبلوماسى والعلاقات الخارجية السورية مع مختلف الكتل التى كانت قائمة وقتذاك وبخاصة قبل التطورات التى حدثت في دول الكتلة الشرقية ، وبقيت سورية محافظة على مسيرتها في عدم الانحياز ، وفيه ، محافظة على علاقاتها مع مختلف الكتل الدولية. وحينما ظهرت المتغيرات العاصفة على الساحة العالمية

بقيت سورية محافظة على علاقاتها الودية مع الجميع بالرغم من تغيير أشكال التكتلات وبخاصة بعد اختفاء الكتلة الشرقية .

نانيا : كان الرئيس حافظ الأسد هو الأسبق في فهم متغيرات الصراع الدولي ، وفي التعامل الذكي مع هذه المتغيرات محافظا في الوقت نفسه على استقلال القرار الوطني ، لقد أدرك حافظ الأسد خلال تجربته السياسية منذ مطلع شبابه ونشأته مع جيله الذي نما وعيه بعد الحرب الكونية الثانية ، وبعد نشوب الحرب الباردة ، وفي وطن كان محتلا من قبل الاستعمار الفرنسي واستقل عام ١٩٤٦ ليواجه بعد سنتين من استقلاله احتلال إسرائيل لفلسطين ، بينما يخضع قسم كبير من الوطن العربي للاستعمار ، وأن الحلفاء الذين انتصروا في الحرب الكونية الثانية والذين تحالف العرب معهم ضد النازية كثفوا جهودهم ولم يحققوا الاستقلال كما وعدوا به ، وبالإسلوب نفسه الذي اتبعوه للتحلل من وعودهم بعد الحرب الكونية الأولى وبعد اتفاقيات سايكس - بيكو ، هذا الرجل الذي عاش مشاكل الأمة كلها ، ووجد أن وطنه يقع فريسة استعمار غاشم وأن الحرب الباردة بعد الحرب الكونية الثانية أفرزت قوتين كبيرتين هما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة أو المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ، أدرك أن هذا الصراع الذي يدور بين الدول الكبيرة يشد بين رياحه الدول الصغيرة ، وأدرك - أيضا - أنه لا مصلحة لبلد كسورية أن تكون طرفا في حرب باردة بين نظامين يتصارعان لفرض السيطرة على العالم ، ووجد أن مصلحة سورية ، ومصلحة الاقطار العربية الشقيقة الأخرى أن تقف على الحياد في ظل هذا الصراع ، ولكن مع اشتداد الصراع الصهيوني ضد الأمة العربية ، والدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل ومؤامرة حلف بغداد ثم العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ثم عدوان ١٩٦٧ ، كل هذا جعل الرئيس حافظ الأسد يدرك أنه لا بد من التفرقة بين العدو والصديق .. ولذلك انطلقت سورية في سياستها من احترام جميع الدول والأمم ضمن مبادئ السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، وبقي الاقترب مع المعسكر الاشتراكي الذي كان المعسكر الوحيد الذي يقدم الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري اقترابا لا يجعل سورية دولة تابعة أو دائرة في فلك المعسكر الشيوعي ، وظل قرارها قرارا وطنيا مستقلا ، بل ظلت تدعو الى ضرورة تحقيق الاستقلال لكل الدول وبناء الشخصية القومية والتخلص من التبعية الأجنبية وهي الشعارات التي طرحتها الدول المستقلة حديثا أو ما يسمى بدول عدم الانحياز ، أو بلدان العالم الثالث ، كانت تقترب السياسة السورية مع الأهداف المعلنة للدول الاشتراكية في مقاومة الاستعمار ومساندة حركات التحرر الوطني ، ولكن دون التخلي عن شخصيتها الوطنية ، أو القيادة الوطنية .. كانت تقول بأن لها طريقها الخاص في بناء الاقتصاد وهو طريق يختلف عن الطريق الشيوعي ، وكانت تقول بأن لها طريقها في بناء الوحدة الوطنية وهي

■ بداية

طريقة تتعارض مع النظرية الشيوعية ، وكانت لها خياراتها الوطنية المتباينة مع خيارات الاتحاد السوفيتي .

ولقد أرادت سورية في المرحلة التاريخية التي كانت تطرح فيها الدول الاشتراكية شعارات الاستقلال الوطني والتحرر من الاستعمار والتقدم الاجتماعي والاقتصادي والعدالة الاجتماعية .. الخ ، أرادت أن توظف هذه الشعارات التي تلتقي مع سياستها دون أن تدور في فلك الاتحاد السوفيتي ودون أن تكون تابعة لدول المنظومة الاشتراكية ، ولذلك فقد بقيت سوريا فترة طويلة بعيدة عن توقيع أى معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي .

وكان الرئيس حافظ الأسد يقول : « ليس المهم أن نوقع اتفاقا على الورق ، ولكن يجب أن يكون لدينا اقتناع مشترك بأننا متفقون فيما نقوم به ، ولدينا أهداف مشتركة نسعى إليها ، ولكن عندما اشتد الدعم الأمريكي لاسرائيل ، وبدأ التحالف الاستراتيجي معها ، ونقل الأسلحة المتقدمة الى اسرائيل ، وجدت سورية انه لابد من تحقيق التوازن الاستراتيجي ، فكان توقيع معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتي دون أن تتخلى عن خياراتها الوطنية المستقلة أو عن عقيدتها القومية أو عن الطريق الذي رسمته في توجيهها العربي ، وتوجهها كدولة من دول عدم الانحياز .

ولقد ظل الغرب ينظر الى سورية في البداية على انها دولة منحازة وكان يعتبر أن أى حزب يطرح قضايا التحرر الوطني لابد أن يصبح في يوم من الأيام حزبا شيوعيا ، ولكن عندما تسلم الرئيس الأسد قيادة سورية ووجد أن هناك تصرفات تعكس الإرادة المستقلة والتي تتعارض في معظم الاحيان مع تصرفات الدولة السوفيتية ، أدرك الغرب ان سورية بقيادة الأسد لها قرارها الوطني المستقل .. والأمثلة على ذلك كثيرة . يكفى أن نشير الى أنه عندما طلب لبنان من سورية التدخل عام ١٩٧٦ لانقاذه من الحرب الأهلية لم يوافق الاتحاد السوفيتي على دخول سورية ولم يوافق على التصدي لمجموعة أحزاب يسارية كانت تحاول السيطرة على القرار اللبناني متحالفة مع منظمة التحرير الفلسطينية لأن سورية كانت تعرف أن لبنان البلد المستقل العضو في الجامعة العربية يجب أن يكون له خياره الشعبى وليس الخيار الذى يفرض عليه بقوة السلاح سواء كان مدعوما من الفلسطينيين أو من أحزاب أخرى لمجرد أن الوضع جعلها تحمل السلاح في هذا الجزء من الوطن العربي ، كانت سورية تؤمن بالقرار اللبناني وباحترام القرار اللبناني ، وبعد ذلك أدرك الاتحاد السوفيتي أن سورية أكانت على حق .

مثال آخر : الأردن كدولة كانت محسوبة على الغرب ، اقتربت منها سورية وحاولت أن تقيم وحدة على الرغم من أنها دولة ملكية ، وهذا يخالف الأدبيات الشيوعية إذ كيف لدولة

جمهورية يحكمها حزب تقدمي ، وجبهة تضم أحزابا وطنية واشتراكية وفيها حزب شيوعي ان تقيم تحالفا مع دولة يصفونها بأنها دولة رجعية .

كانت سورية تقول نحن عندما نسلك طريق الوحدة العربية لا نسلكها حسب المفهوم الماركسي ومفهوم البروليتاريا ، وانما كانت النظرة انه يجب الارتقاء بالعمل الوحدوي مع اى دولة عربية تتوافر فيها المقومات اللازمة لاقامة وحدة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو عسكرية ، علينا أن نقدم دون أن نجعل الفلسفة الماركسية هي المعيار .

هناك مواقف سياسية ثابتة تحدد جوهر ومسار القرار القومي لسورية الذي يحظى بالاحترام لان قرارها ينبع دائما من المصلحة الوطنية ، ولمصلحة الأمة العربية وبالممارسة لم تتعهد سورية بأى شيء إلا كان هذا الشيء محترما ومُحقاً .

على سبيل المثال، عندما وقفت تستنكر الحرب بين العراق وإيران .. العراق دولة تقيم معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي وتعتبر من الدول التقدمية ، ووفقا للمفهوم الماركسي ، فإن إيران دولة إسلامية والدين يعتبره الماركسيون موقفا رجعيا ، ومع ذلك فقد وقفت سورية ضد حرب العراق مع ايران ، وهذا القرار لم يؤثر على علاقتها مع الاتحاد السوفيتي كما لم يؤثر أيضا انتقادها لمشكلة الرهائن في لبنان ، ومحاولتها الجادة لتحرير هؤلاء الرهائن على صداقتها مع إيران ، بالعكس كانت تطالب دائما بأن يُترك هؤلاء الرهائن وكانت تنتقد الحركات التي تُقدم على مثل هذه المواقف ، بل عندما تطلب الأمر أن تقاوم عسكرة بعض المنظمات التي كانت تقدم على هذه المسالك ، لم تراع الدول التي تقف خلف هذه المنظمات وإنما كانت تريد أن تثبت للعالم أن القرار السوري هو قرار لكل العرب ، وضد العدوان على الآخرين ، وضد احتلال أراضي الغير بالقوة ، وهذا ما جعل سورية تُبادر إلى نصرته شعب الكويت ، والدفاع عن المملكة العربية السعودية الشقيقة مع مصر عندما وقع الغزو العراقي على الكويت واشتلت مع دول الائتلاف الدولي تطبيقا لقرارات الشرعية الدولية لأن هذا الشيء هو ما تقوم به سورية في ظل قيادة الرئيس الأسد الآن وما أكدته هذه السياسة في جميع المحافل الدولية من عام ١٩٧٠ حتى يومنا هذا لأنها تقف مع مبادئ الشرعية .. مع قواعد القانون الدولي .. مع احترام سيادة الدول على أراضيها .. مع حق تقرير المصير .. مع نبذ الارهاب .. ومع كل المبادئ التي يدافع عنها المجتمع المتحضر .

هذا الموقف في حد ذاته يستند إلى أساسين هما : أساس قومي ، وأساس فكري ينبع من العقيدة الفكرية التي تتبناها سورية في ظل قيادة الرئيس الأسد وهو انسجام الواقع التطبيقي مع الفكر النظري ، اى عندما تقول شيئا تجسده واقعا ، وهذا ما جعل سورية موضع احترام الآخرين .

■ بداية

ملخص : كانت سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد أيضا هي الأسبق في فهم حقيقة أن الحرب الباردة في طريقها إلى الانتهاء بعد التقارب الكبير الذي جرى من خلال لقاءات القمة بين الدولتين العظميين ، أدركت سورية بقيادة الرئيس الأسد أن العالم يتجه نحو الحوار والتفاهم ، واقتسام المصالح ، أي بتعبير آخر أصبح يسود هذا العالم ما يُسمى بدبلوماسية المنافع المتبادلة .. في فترة من الفترات طرحت سورية توازنا استراتيجيا مع العدو الاسرائيلي الذي يحتل الارض ، وكانت تعرف تمام المعرفة أن اسرائيل يستحيل أن تتنازل عن الأراضي المحتلة إلا مرغمة بالقوة ، وكانت تدرك أن اسرائيل بعقيدتها العدوانية لا ترمى فقط إلى احتلال الأراضي التي في حوزتها وإنما تستعد لاحتلال أراض أخرى ، وكان لهذا أكثر من شاهد عليه سواء بالنسبة لتكتل الليكود بقيادة بيجين وشامير ، أو سياسة حزب العمل في المرحلة السابقة لحرب يونيو ١٩٦٧ عندما كان بن جوريون يردد باستمرار أن حدود اسرائيل حيث يقف الجيش الاسرائيلي ، وبالإضافة للعقيدة الدينية التوراتية التي تقول أن إسرائيل يجب أن تمتد من النيل للفرات .

بعد إدراك سورية لهذه المتغيرات وجدت أنها يجب أن تستعد لمواجهة التطورات الجنيبة في العالم ، وهذه التطورات الجديدة في العالم استبقتها سورية منذ سنوات عديدة وقد سبق أن أشرنا إلى أنه قبل أن يتحول العالم إلى التكتلات الاقتصادية والتحدث عن الحافز الفردي واقتصاد السوق والانتاجية والديمقراطية والعدالة ، وما إلى ذلك ، وضعت سورية خططا للسير في هذا الاتجاه قبل وقوع الأزمة في دول المعسكر الشيوعي بسنوات عديدة .. فيما يتعلق بأثر هذه المتغيرات على القرار السوري ، أدركت سورية أن هذا الاتجاه إلى عالم جديد يُعطى أو يُغير في الأشياء وإعطاء الأولوية للقانون والمصالح والمنافع المتبادلة بدلاً من الصراع والقوة العسكرية والوصول إلى حافة الحرب أو شفا الهاوية .

.. عندما أدركت سورية هذه المتغيرات انسجمت مع الواقع السياسي الدولي والذي يقول : إن الأمم المتحدة يجب **تُعمل** دوراً في إنهاء الصراعات العالمية للوصول إلى مجتمع عالمي يسوده الحوار والسلام ، وكانت تقول دائماً : ان الديمقراطية بين دول العالم ليست مطبقة .. في الماضي كان هناك احتكار ثنائي للعلاقات السياسية الدولية يتمحور بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وكان هناك مجموعة من الدول الصغيرة لا تستطيع أن تفرض رأيا على مجلس الأمن ، وكان مجلس الأمن في أغلب الأوقات يعطل قرارات بعض الدول وفي الحقبة الممتدة من الحرب الكورية وحتى مرحلة احتلال اسرائيل للأراضي العربية عام ١٩٦٧ لم يستطع مجلس الأمن أن يقدم قرارات إلزامية يستطيع أن ينفذها في حفظ السلام والأمن الدولي على غرار ما حدث في حرب الخليج مثلا ..

وفقا للتوجه العالمي الجديد اتجهت سورية على أساس مساندة اعطاء الدور للأمم

■ بداية

المتحدة ، وعلى أساس احترام الشرعية الدولية وعلى أساس حق تقرير المصير واحترام حقوق الانسان اتجهت متخلفة عن فكرة ما كانت تقول به في الماضي إلى توازن جديد يقوم على قوة القانون الدولي ، وقوة الشرعية الدولية ، شاركت في الدفاع عن المملكة العربية السعودية ضد التهديد بالعدوان ووقفت من أجل تحرير الكويت انسجاما مع قرارات الشرعية العربية والشرعية الدولية ، وفي الوقت نفسه طالبت بأن تطبق قرارات مجلس الأمن بالمعيار نفسه والمكيال نفسه الذي طبقت في حرب الخليج على الصراع العربي الاسرائيلي ، مؤكدة أنه يجب أن ينتهي وفق مبادئ القانون الدولي ، ووفق قرارات الأمم المتحدة التي طبقت على الغزو العراقي .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية : عندما طالبت بهذا الامر ، لم يكن هناك شيء جديد فهي - اى سورية - تطالب منذ عام ١٩٦٧ بعقد مؤتمر دولي للأمم المتحدة تشارك فيه الدول دائمة العضوية مع اطراف الصراع بالاضافة إلى مشاركة الأمم المتحدة لانهاء هذا الصراع ، ولكن عندما أرادت الادارة الأمريكية أن تكون هي رائدة هذا المؤتمر مع الاتحاد السوفيتي - روسيا الآن - فهي أيضا دعت إلى ضرورة أن يطبق هذا التغيير على مشكلة الشرق الأوسط بحيث ينتهي هذا الصراع الذي مضى عليه أكثر من أربعين عاما بطريقة عادلة ووفق مبادئ القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة .

أدركت سورية أن انتهاء الحرب الباردة لابد أن يؤدي إلى خلق واقع جديد في السياسة الدولية واستعدت لهذا تمام الاستعداد ، وهي مع استعدادها لتقبل هذا الواقع لم ولن نتنازل عن حقوقها المشروعة في الأرض والسياسة .

النقطة الثالثة : ان هذا التغيير الجديد لم يشكل أمراً طارئاً على السياسة السورية المحبة للعدالة والسلم وإنما كان تتمة لها ، وكما أشرنا فقد طرحت فكرة المؤتمر الدولي منذ البداية وطلبت تطبيق قرارات الشرعية الدولية على الصراع العربي الاسرائيلي وعلى قضية فلسطين ، ومع إيمان سورية بهذه المتغيرات واستعدادها للتعامل معها لمعرفة مدى مصداقيتها في حل المشاكل دون أن يكون هذا الشيء على حساب مصالحها وحقوقها والحقوق العربية .

إن النظام الدولي الجديد وإن كان قد أفرز افرازات معينة فإن سورية ترى أن هذه الافرازات شيء عابر ، ومصلحة الشعوب لابد أن تفرض ذاتها ، طال الزمن أم قصر لأن ارادة الشعوب لا يمكن أن تقهر ، ولابد للشعوب المظلومة والمقهورة أن تعبر عن ذاتها في يوم من الايام ، وأن تنتهي القوى المتعسفة الظالمة . وقد شهد التاريخ انهيار الكثير من الامبراطوريات ، والكثير من الدول التي مارست الاستبداد وقهر الشعوب .

باختصار ، فإن سورية تتعامل بنظرة واقعية للوضع الراهن ، وتتطلع أيضا بنظرة متفائلة مستقبلياً بإمكان تحقيق السلم والعدالة الدوليين ، وهي ترقب محادثات السلام

■ بداية

الجارية الآن ، وتأمل في التظلب على جميع المصاعب من منطلق إيمانها بحقها ، وعدم التخل عنه من جهة ، ومن جهة ثانية من خلال إيمانها بالسلام الدائم والعدل الذي أمنت به . وستظل تسعى من أجل الوصول إليه .

رابعاً : إن جوانب الشموخ في شخصية حافظ الأسد كثيرة ، ومتعددة ، شموخه كقائد ، وكمفكر استراتيجي ، ومناضل ، وكريس دولة ، استطاع أن يجعل من كل أيامه صفحات مشرقة في تاريخ بلاده منذ كان طالباً ، كان يمتلك الشخصية القيادية ، وكان استعداداته القيادية متوافراً ، وهو مازال طالباً في الثانوي ، وهو قارئ جيد جداً ومثقف لا يبدل عن الاستماع لوجهات نظره ، وهو يعد - من وجهة نظر محايدة - شخصية لها مكانتها ، ولقد كانت المرحلة التي شب فيها حافظ الأسد تمثل زخماً بالنسبة لسورية ، وهي مرحلة الأربعينات حيث التطلع إلى الاستقلال والتحرر من فرنسا ، وحيث تشكل الشخصية الوطنية لأول مرة بعد أكثر من أربعمائة عام من الاستبداد العثماني والاستعمار الفرنسي .

كل هذه الأمور وغيرها ، رتبت فكر حافظ الأسد ترتيباً قيادياً مُعيناً بالإضافة إلى البيئة التي عاش فيها في قريته وبين أهله ، وهو ينتمي إلى أسرة وطنية تمتد إلى أعرق القبائل العربية نسباً ، ولذلك كان من الطبيعي أن تتجسد في هذا الرجل الشخصية القومية في عنفوانها وفي تطلعها إلى الحرية ، وإلى المجد ، وإلى البناء .

ولقد تحمل حافظ الأسد الكثير من المصاعب من أجل تغيير الواقع الذي رأى بلاده فيه ، تحمل الغربة ، وتحمل البرد ، وتحمل الألم وكان مُبشراً بأفكار كبيرة لها قيمتها في التاريخ الانساني .

عندما انتسب حافظ الأسد إلى حزب البعث أصبح خلية فاعلة ، وعندما انتسب إلى الجيش أصبح شخصية قيادية فيه .

ولقد روى لي بعض زملاء الرئيس حافظ الأسد المصريين أنه عندما كان ضابطاً طياراً في جيش الجمهورية العربية المتحدة في زمن الوحدة ، كان دوره قيادياً بين زملائه بالرغم من أن رتبته كانت صغيرة ، وبعد الانفصال عندما عاد إلى سورية سُرح من الخدمة ، وحُول إلى وظيفة مدنية بسيطة ، ومع ذلك استطاع أن ينظم ثورة الثامن من آذار التي أنهت حكم الانفصال في سورية ، عندما عاد إلى الجيش والقوات المسلحة وأسندت إليه قيادة سلاح الطيران استطاع أن يعيد تنظيمه واستطاع أن يساهم مساهمة كبيرة في بناء الحزب وبناء فكره سواء في التنظيم أو في الاعداد أو في الممارسة الفكرية .

هذه الخلفية النضالية ، والخلفية التاريخية ، والخلفية الفكرية لحافظ الأسد جعلت منه قائداً مفكراً ، لأنه لم يكن قائداً مفروضاً ، وإنما تدرج في سلم القيادة منذ كان طالباً في

المرحلة الثانوية ، وحتى أصبح رئيسا للجمهورية العربية السورية وأمينا عاما للحزب ، تدرج في العضوية الحزبية ، من عضو في خلية ، إلى عضو في فرع ، إلى عضو في قيادة قطرية ، إلى عضو في قيادة قومية ، إلى أمين عام الحزب ، واستطاع بنضاله وتمرسه وقدرته على أن يجسد فكرة المثل الأعلى ، والقوة لرفاقه أن يُختار قائداً لهم .

الجوانب الانسانية في شخصية الرئيس حافظ الأسد أكبر من أن تُعد ، لأنه لا يمكن لمن يريد أن يتحدث عن هذه الجوانب أن يلم بكل المشاعر النبيلة والانسانية التي يمتلكها الرئيس حافظ الأسد تجاه شعبه ، وتجاه زملائه ، لازل يحفظ أسماء جميع زملاء الدراسة الذين كان معهم ، ويسأل عليهم ، ويتصل بهم ، ويقف منهم موقف الأخ مع أخيه ، وكذلك الحال مع زملاء الدراسة في الكلية الجوية . والضباط الذين درس معهم في الاتحاد السوفيتي أثناء البعثة العسكرية ، وجميع رفاق السلاح في مصر الذين وقفوا معه أو حوله لا يهمل رسالة من أي مواطن ، أب لكل ابن شهيد من خلال مدارس الشهداء التي أنشأها في سورية ، يُقيم لهم الولائم السنوية ويسأل عنهم ، ويرعاهم ، لا يدع مناسبة تمر إلا ويجتمع مع العلماء ، ويبحث معهم الامكانيات المبدعة في الوطن ، يناقش رجال الدين ، ويلبى مطالبهم .. اللمسات الانسانية في شخصية حافظ الأسد كبيرة جدا .. إنه يضرب المثل في احترامه لاهله ، ولذويه ، ولأخوته .

المثل العليا موجودة في شخصية الرئيس حافظ الأسد سواء في الممارسة الطلابية أو في الممارسة العسكرية أو في الممارسة الحزبية أو في الممارسة السياسية أو في الممارسة الانسانية .

كان ولا يزال هو القائد القدوة ، هو المثل . في سورية يتبارون بشأن من يحفظ أكثر من فكر الرئيس ، ومن يقترب في سلوكه من الرئيس ومن يستطيع أن يجسد فكر الرئيس في الواقع .

لقد استطاع حافظ الأسد بالصفات التي يمتلكها أن يكسب ثقة شعبه ، وهذا الكلام ليس من الكلام الذي يطلق على عوامته ، وإنما الأحداث دلت عليه ، فقلما يوجد رئيس أو قائد يتظاهر مليون إنسان ويحملونه إلى مسافات كبيرة دون ضغط أو إكراه ودون حراسة أو تنظيم وكأنه أصبح هو الشعب ، والشعب هو .

وقد روى لي أفراد حرس الرئيس أنه في فترة من الفترات كان حراس الرئيس يخافون عليه ، وكانوا كلما اقتربوا منه يقول لهم اذهبوا فإن الشعب بعد الله هو حارسي .. ثقة في الشعب لا مثيل لها .

وكما سيلي فإن حافظ الأسد كمفكر استراتيجي يقوم فكره على معطيات أساسية ، أولا قراءة التاريخ ، ومن يقرأ التاريخ يستطيع أن يرى لمسافة زمنية كبيرة جدا ، والثاني أن الرئيس حافظ الأسد درس الاستراتيجيات كلها بكونه عسكريا أيضا ، وتكوين

■ بداية

الرئيس الأسد القومي جعل نظريته للأمور نظرة استراتيجية .. هذه العوامل الثلاثة : التاريخ ، والسياسة التي مارسها ، والفكر العسكري الذي امتهنته ، والنظرة القومية والبعد القومي ذو الأبعاد العالمية باعتبار أن الوطن العربي في وضعه الراهن لم ولن ينفصل عن الاستراتيجيات العالمية التي وضعت في الماضي والحاضر .. كل هذه الأشياء جعلت من الرئيس الأسد مفكرا استراتيجيا عالميا ، يزن الأمور بموازينها ، يدرس ما بين النقلة والنقلة وما بين الخطوة والخطوة ، يعرف طبيعة الأشياء التي يمكن أن تكون تكتيكية في خدمة الاستراتيجية العامة ، ويضع دائما نصب عينيه أنه لا يجوز إطلاقا الانغلاق على الذات إلى موقف قطري أو موقف تراجمي ، لم يكن هناك في سياسة الرئيس حافظ الأسد موقفا انتهازيا يجعله يفضل ذاته على المجموع ، بل أن من يستقرى بدراسة سياسية موضوعية فكر الرئيس حافظ الأسد وممارسته العملية يرى أن جميع هذه الخطوات كانت تنطلق من منطلق استراتيجي قومي أي ارتكاز هذا الفكر على الناحية الاستراتيجية القومية للأمة العربية .. ونستطيع أن نضرب أمثلة على ذلك : هو لم يقف موقف العدو من الذين حاولوا التصدي للجيش السوري في لبنان بل بالعكس حاول أن يكون أخا كبيرا للجميع ، لأنه يدرك أن لبنان لجميع أبنائه وأن أبناء لبنان هم للأمة العربية ، وفي النهاية فإن سورية ولبنان هما شعب واحد من شعوب هذه الأمة العظيمة ، لم يؤثر خلافه مع صدام حسين عليه عندما أرسل له رسالة قبل بدء العمليات القتالية يدعوه فيها أن يسحب جيشه من الكويت حرصا على العراق ، وعلى شعب العراق ، وعلى جيش العراق لأنه يعرف بنظريته الاستراتيجية أن خسارة جيش العراق هي خسارة للأمة العربية .. لم يقف موقفا من الذين حاولوا أن يقفوا ضده في المؤتمرات العربية أو الدولية شامتين أو منتقدين وإنما حاورهم الحوار الأخوي ، وجعلهم يقررون في النهاية أن رأيه هو الرأي الحكيم ، وهو الرأي الحصيف لأنه لم ينطلق من مصلحة قطرية ذاتية ، وإنما ينطلق من مصلحة قومية رائدها الحرص على الأمة وعلى الشعب العربي ..

عندما قامت الحرب العراقية الإيرانية مثلا كان يدرك أنه لا يجوز أن يكون هناك تناقض بين العروبة والإسلام ، وكان يرى أن الدول الإسلامية هي عمق استراتيجي للبلاد العربية ، وكان يرى أن مقولة « أن العرب يحاربون المسلمين ، والمسلمون يحاربون العرب » .. هذا شيء خاطيء وخطير ، فالعرب هم العمق الاستراتيجي للمسلمين وهم حملة الرسالة الإسلامية ، والمسلمون هم العمق الاستراتيجي للعرب .. ولذلك اكتشف منتقدو الرئيس الأسد في موقفه من الحرب العراقية الإيرانية بعد نظره وصدق نظريته بأن هذه الحرب لن تحقق أي منفعة لأي طرف وستعود بالضرر على كافة الأطراف .. كان هناك كثير من القضايا التي حاول الرئيس حافظ الأسد أن

يعالجها بحكمته وبسرعة لأنه رأى ان استمرارها فيه ضرر على مصالح العرب وعلى مصالح دول عدم الانحياز ، ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك بمحاولته تحسين العلاقة المتوترة بين باكستان والهند أو بين الهند والصين ، ... الخ . كانت نظريته دائما هي النظرة الفاحصة التي تأخذ بالحق وتدافع عنه .

خاتمة : لقد التقت الجماهير السورية مع الرئيس حافظ الأسد وأيدته لأنها شعرت انه يعبر عن أفكارها ومشاعرها ويعطيها الصيغة الأمثل لرجل دولة يستطيع أن يحقق على أرض الواقع ما كان يبدر خيالا ، ولقد أثبتت تجربة حافظ الأسد على امتداد اثنين وعشرين عاما انها تجربة المفكر الشجاع والمناضل الذي لا يهاب ، والمؤمن بشعبه وبأنه لا وجود لمستحيلات ، وأن بإمكانه أن يجتاز بشعبه الكثير من الصعاب والعقبات ، وأن يحقق على المدى الطويل وبالنفس الطويل العديد من الطموحات التي كان يطمح اليها الشعب ، وقد حمل الامانة وأدى الرسالة بصبر وقوة وبعزيمة ، ولم ترهبه الظروف ، ولم يخضع للعواصف ، ولم يرض بأى حال من الأحوال أن يتجاوز ثوابته ومبادئه .

استطاع الرئيس حافظ الأسد منذ بداية عهده أن يستقطب محبة الناس وقلوب الناس لأنه خاطب الضمائر وقدم البراهين على صدقه وعلى شرف حمله للمسئولية وعلى أنه يحمى المبادئ التي يؤمن بها ، تعامل مع الناس بكثير من المحبة .. أحب الناس فأحبوه ، وكان الاستفتاء لولاية دستورية رابعة مقياسا شعبيا لتجربته على امتداد اثنين وعشرين عاما .. كان استفتاء شعبيا عفويا وطبيعيا خرج الناس نساء ورجالا وأطفالا من بيوتهم ليعلنوا تأييدهم بشتى الأساليب ، بعد سنوات حكمه أطمأنت القلوب الى أن ما يفعله هو الأمر السليم والرأى الصائب ، والقرار الحكيم . فالأسد لا يساوم ، يعيش حياة الشعب ، ويهتم به .. حياته في بيته وبين أسرته مثالية للغاية .. البساطة .. التواضع .. الصدق ، الحياة الطبيعية جدا .. الخلق الرفيع .. وإذا كان الرجال العظام يحركون التاريخ ، وتكمن عظمتهم دوما حين يلتقطون فيض ضمائر الشعب الذي يعيشون بينه فإن هذا هو ما فعله حافظ الأسد بالشعب السوري ، وبعض القيادات التاريخية ، تحرك أيضا التاريخ ولكن ليس في الاتجاه السليم الذي يريده الشعب .. الانسان الذي يستطيع أن يحرك التاريخ حقا هو الذي يستطيع أن يسير بشعبه في المسار الصحيح المحقق للتطور الذي ينتقل به نقلة نوعية كبيرة كما فعل ويفعل الرئيس حافظ الأسد في سورية .

ملاحظة : بين القضايا التي أثارت وتثير دائما دهشة عدد كبير من المراقبين انه بينما يحكم سورية حزب البعث ، فإن العراق أيضا يحكمه حزب يحمل الاسم نفسه ويعلم الأهداف نفسها ويرفع الشعارات نفسها ، إلا أن العلاقة بين الحزبين ليست على الصورة المتوقعة .

وواقع الأمر ان الرد على هذا السؤال يثير تساؤلا هاما .. أين هي عقيدة حزب البعث في العراق ؟ اذا أردنا أن نستقرئ ذلك من عام ١٩٦٨ ، وحتى أيامنا هذه نرى أن الفكر

■ بداية

في العراق يصنعه انسان واحد ، فما يقوله هذا الزعيم هو الذي ينفذ ، وهذا سبب التخبط الفكري في فكر البعث في العراق ، ليس هو الفكر البعثي المعروف .

القومية العربية مثلاً هي قومية انسانية ، وهي ليست قومية اشوفينية . متعصبة لأن الفكر الانساني يقول : بأنه لا ضرر اطلاقاً من رؤية زهور متعددة الالوان في حديقة معينة لأن هذه الزهور باختلاف ألوانها تعطى جمالا من حيث المنظر ، وتعطى شذى من كأمة عربية حيث الرائحة ، ولذلك نحن لا نرى أنفسنا مستغلين أو شوفينيين متعصبين ، للأسف الشديد نحا فكر صدام حسين في العراق منحى شوفينيا ، فهو تارة يعلن الحرب على الاكراد بدعوى العرقية والعنصرية ، وتارة على الفرس بدعوى أنهم أعداء العرب التاريخيين ومن المعروف أن فكر البعث يقوم على الاقناع الجماهيري في مسألة الوحدة وينبذ فكرة الضم واللاحاق بالقوة كما حدث في غزو العراق للكويت .

البعث يقول : ان الوحدة عمل جماهيري يتم عبر الممارسة الديمقراطية وعلى إدراك أي قطر بأن مصلحته أن يتحد مع القطر الآخر دون إكراه أو إجبار وفي نطاق المصلحة المتبادلة ، ولكننا رأينا أن فكر البعث العراقي فكر استعلائي يقوم على الضم واللاحاق .

من الامثلة الصارخة على تناقض الفكر البعثي في العراق أنه يقول دائما ان فكره اشتراكي يقوم على التقارب مع المعسكر الاشتراكي بينما هو يذبح الشيوعيين ، وينصب لهم المشائق في العراق ، ويدير ظهره غالبا للمعسكر الاشتراكي ويشترى كل أسلحته من الغرب ..

يقول انه يؤمن بالقضية الفلسطينية ثم نراه ينسحب من الاراضي الاردنية بعد عام ١٩٦٧ ويترك المقاومة الفلسطينية مكشوفة لجيش الملك حسين لكي تقوم مذبحه ايلول الكبرى آنذاك .. نراه يقول انه يريد أن يقيم وحدة عربية ، ثم ينقض على ميثاق ١٧ نيسان ١٩٦٣ ثم يبدأ هجومه بعد عام ١٩٦٨ على عبدالناصر ويتهمة بالخيانة ، وبعد وفاة عبدالناصر يتمسح في الناصرية وجمال عبدالناصر ، وبعد حرب ١٩٧٣ ، يحاول أن يرسل جيشا للمساعدة بعد أن حقق الجيش المصري انجازه في عبور القناة وحقق الجيش السوري اجتياحه للجولان ، وعندما رأى بعد مساعدة امريكا أن الكفة بدأت تميل لغير صالح العرب اعطى الانسحاب قبل وقف اطلاق النار وترك سورية في حرب استنزاف دامت أربعة أشهر بعد وقف اطلاق النار على الجبهة المصرية ..

يتحدث البعث العراقي عن ضرورة التعاون العربي ثم يطلق مضخات النفط مع سورية ، ويمد خطوط النفط العراقي إلى الاراضي السورية المقتضية من قبل تركيا . إذن ففكر البعث العراقي فكر متناقض مع التوجه القومي .. فكر البعث الاصيل لا يقوم على الاغتيال أو على القتل ، لأن الاغتيال ليس من أخلاق أو افكار البعث ، ولكن البعث في العراق يعتمد على تصفية خصومه في الداخل والخارج بالاغتيال ، ولقد كان احتضان

النظام العراقي للقيادة اليمينية للحزب والتي برزت في فترة الخمسينيات ، مثار استياء القواعد البعثية الحقيقية ، لأن هذه القيادات ساهمت في حكم الانفصال ، ومعروف أن أفكار البعث تقوم على الوحدة ، وعلى الحوار لتصحيح الأخطاء ، لقد دافعت القيادة اليمينية ممثلة في ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني عن الانفصال ، وأعطته مسوغاته، الأمر الذي شكل أثرا كبيرا على القواعد الحزبية في سوريا ، وعندما قامت ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ في سورية وجاء ميشيل عفلق أمينا عاما للحزب وصلاح البيطار رئيسا للوزراء حاولا أن ينقضا على المكاسب الجماهيرية وأن يلغيا التأميم والتنكر لكل ما جاء في دستور البعث ومنطلقاته حول العدالة الاجتماعية ، وعندما استلم الحزب الحكم في العراق عام ١٩٦٨ لم يصحح هذه الأفكار بل زادها انحرافا ، وعندما حاول البعثيون في سورية اجراء حوار مع العراق لخلق فكر وحدوي أصيل متطور يستوعب التجربة في القطرين الشقيقين رأينا كيف كان النظام العراقي يفتعل الأزمات داخل العراق ، وخارج العراق ، ليس مع سورية فحسب ولكن مع الكويت في السبعينات بالاعتداء الذي وقع على مخفر الصامته على الحدود ، وهو الحادث الذي أسفر عن قتل عدد كبير من الجنود ، ثم كان هناك الخلاف مع منظمة التحرير والاعتداءات المتبادلة ، ثم كان هناك الخلاف مع اليمن الجنوبي والذي أسفر عن اغتياالات عديدة لمناضلين عرب داخل اليمن الجنوبي وخارجه ، وأيضا مع المعارضة العراقية ، ثم رأينا ينقض أحيانا على الفكر نفسه الذي يؤمن به ، كان يقول بأن بعض الأحزاب في لبنان تعاملت مع اسرائيل ، وتحاول أن تفصل لبنان عن الكيان العربي ، ولكن بانتهازية واضحة وجدنا هذه الفئات تتلقى الدعم من العراق كما حدث مع المنشق ميشيل عون وعصابات الاخوان المسلمين التي نفذت جرائم بشعة كجريمة الأزيكية في دمشق .

باختصار، فإن النتائج التي تمخضت عن الوضع في العراق دليل على الانحرافات الحزبية لأنها انتقلت من فكر الجماهير الى فكر الفرد أو الزعيم ، كما حدث في النازية وفي أحزاب فاشستية كثيرة ولذلك لا يمكن للفرد أن يكون نائبا عن الشعب في الفكر لأن الفكر حصيلة تفاعل الجماهير مع الحزب ، والحزب مع الجماهير ، وهو حصيلة جميع الآراء ، ولذلك فإن البعث الذي وجد في العراق لا يمثل حقيقة البعث وأصالته بوجهه الوحدوي الاصيل .

الفروق شديدة جداً بين حزب البعث العربي الاشتراكي وبين ما يُسمى بحزب البعث في العراق ، لأن حزب البعث في سورية ملتزم بالنشأة ومستمر على الأصول الحزبية التي كانت متوازنة من تأسيس الحزب في المؤتمر القومي الأول التأسيسي عام ١٩٤٧ ، وقد سلك حزب البعث في العراق سلوكا مغايرا لما نصت عليه أسس حزب البعث من حيث الممارسة داخل الحزب ، ومن حيث انعدام الديمقراطية ، ومن حيث التصفيات الجسدية

■ بداية

لأغلب الذين يُبدون رأيهم داخل الحزب .. والتصفيات التي حدثت معروفة فأغلب الذين ناصروا قضية الوحدة العربية ، وناصروا الاتفاق مع سورية قُضى عليهم ، وبالنسبة للقضية الفلسطينية وهي محور النضال بالنسبة لحزب البعث العربي الاشتراكي ظل الالتزام العراقي بها محدودا ، وكانت مجرد شعارات وألفاظ فقط ، وعلى صعيد الممارسة لا يوجد أى شيء قدموه لهذه القضية ، وكل المعارك التي خاضوها منذ عام ١٩٧٠ ، وحتى الآن أضرت بهذه القضية مثل الحرب العراقية الايرانية ، والغزو العراقي للكويت .

حقيقة أن هناك محاولات كثيرة جرت للتصالح بين الحزبين وبين الدولتين وكانت الخطوات الايجابية تأتي دائما من سورية ، وكان الشعار الذي أطلقه الرئيس حافظ الأسد « أنه لا شرط لنا على قيام الوحدة إلا قيامها » .

كانت المحاولات السورية مع العراق إيجابية إلى أبعد الحدود ، والاتفاق الذي حدث قبل الحرب العراقية الايرانية حيث كان هناك ما يُسمى بميثاق العمل القومي ، وافق النظام العراقي عليه في البداية ثم انقلب عليه ، ولم يكتف النظام العراقي بالانقلاب على هذا الميثاق ، وإنما راح حاكم العراق يُصفي جسديا كل من تحمس للوحدة ولميثاق العمل القومي مع سورية ، ومن المعروف أنه أعدم كل زملائه الذين عملوا معه في القيادة والذين وصل عددهم - كما ذكرت - إلى أكثر من ٢٢ عضوا لأنهم كانوا متحمسين لتطبيق هذا الميثاق ولخلق معادلة في الشرق العربي .. معادلة قادرة على الفعل والتأثير في الصراع العربي الاسرائيلي .

سابعاً : يرى الرئيس حافظ الأسد أن تاريخ العرب في قديمه وحديثه كان مرتكنا بالتعاون المصري السوري ، وهو يرى أن الأمن القومي العربي لا يكتمل إلا بجناحيه في مصر وسورية وأن مصر وسورية هما رافعة العمل العربي أو هما جناحا الأمة العربية التي لا يمكن للأمة العربية أن تُخلق بغيرهما ..

الرئيس الأسد ينظر في التاريخ بعمق ويرى أن أمن مصر يبقى منقوصا بدون سورية ، وأن أمن سورية يبقى منقوصا بدون أمن مصر ، وأن الأمة العربية أو الاسلامية لم تتعرض لأى خطر من الأخطار إلا تصدت له مصر وسورية ، وأجهزت عليه ، وعادت الأمور إلى وضعها الطبيعي لننظر مثلا إلى الحروب الصليبية .. لقد دام الاحتلال الصليبي للبيت المقدس عشرات السنين ، وكانت غزواته مستمرة لسواحل شرق المتوسط ، وكانت مصر وسورية تنهضان بمسئولية الدفاع عن البلاد العربية والاسلامية آنذاك حتى جاء صلاح الدين الأيوبي ، ووحد مصر وسورية ، وأنهى الغزو الصليبي للبلاد العربية بعد أن دام هذه الفترة الطويلة .. ثم نرى أنه عندما جاء المغول بقيادة هولاكو ودمروا بغداد ثم اجتاحتها أجزاء كبيرة من بلاد الشام كان أن تصدت له مصر

وسورية بقيادة الظاهر بيبرس ، وكان توحيد مصر وسورية سبب هزيمة المغول في معركة عين جالوت ، وحجب الخطر المغولي عن بقية أجزاء الوطن العربى وعن شعوب حوض البحر المتوسط جميعا .

إذا نظرنا للتاريخ الحديث ، كان محمد على يرى أنه لا يمكن أن يقيم دولة عربية لها وجود في المنطقة وهى قوة كبرى إلا إذا كانت مصر وبلاد الشام موحدة ، ولذلك ذهب إبراهيم باشا إلى سورية ، وحاول أن يُنهى الاحتلال العثمانى لبلاد الشام ومصر لكى تقوم هذه الدولة العربية ، ومع ذلك تكالبت القوى الاستعمارية على هذه الدولة ، ولم يسمح لها بالاستمرار .

في العصر الحديث عندما كان هناك احتلال بريطانى لمصر ، وكانت مصر تحت الحماية البريطانية ، ثم بعد الحرب العالمية الأولى ، واتفاقية « سايكس بيكو » واحتلال الانجليز لفلسطين ، واحتلال فرنسا لسورية ولبنان كان في الوثائق البريطانية آنذاك ما يؤكد أنه لكى تستمر سيطرة بريطانيا على شرق قناة السويس لابد من السيطرة على قناة السويس ولكى لا تكون هناك دولة عربية قوية تشمل مصر وبلاد الشام يجب أن يُخلق كيان يحول دون لقاء بلاد الشام مع مصر ويؤمن مصالح الامبراطورية شرق السويس ، ولذلك أقيم الكيان الاسرائيل على وعد بلفور ١٩١٧ .

وعندما نقول إن الرئيس حافظ الأسد يقرأ التاريخ جيداً نقول أيضاً إنه يعرف **صلات القرى ..** يعرف حركة الشعبين المصرى والسورى ، يعرف مقدار العبء النضالى الذى تحمله الشعبان في سبيل الأمة العربية والاسلامية ، وكجندى في القوات المسلحة السورية عاش الاحداث الكبرى في العصر الحديث ، فمصر وسورية قاتلتا عام ١٩٤٨ جنباً إلى جنب وقاتلتا عام ١٩٥٦ حيث وقفت سورية إلى جانب مصر ، وذهب احد ضباط البحرية (جول جمال) شهيداً في إحدى المعارك دفاعاً عن مصر وهو من محافظة اللاذقية المدينة التى ينتمى إليها الرئيس الأسد ، كما أن مصر وسورية قاتلتا في حرب ١٩٦٧ ، وفي حرب ١٩٧٣ .

ولذلك طبيعى جداً أن تكون العلاقة مع مصر لها مساحة كبيرة في قلب الرئيس **حافظ الأسد وفكره وهو ما يتجلى بوضوح في اللقاءات التى تتم بين الرئيسين مبارك والأسد ، وفي الحركة المستمرة بين الشعبين ، لتحقيق الحلم الوحدوى .**

ومثل هذه المساحة الكبيرة موجودة في قلب الرئيس مبارك الذى وصف علاقته مع الرئيس الأسد **بقوله : إن الرئيس حافظ الأسد هو أخى وزميل وصديق ، وقد عشنا في سلاح واحد وتربطنا ذكريات** **الأخوة والزمانة والصداقة .**

■ بداية

وإذا أردنا أن نتحدث عن العلاقة بين الرئيس حسنى مبارك وأخيه الرئيس حافظ الأسد ، لابد أن نعود إلى البدايات الأولى لنشوء هذه العلاقة ، حيث تعود إلى زمن الوحدة المصرية السورية ، والتي كان يعمل بها كل من الرئيس حسنى مبارك والرئيس حافظ الأسد .. كانا طيارين في سلاح الجو العربى في الجمهورية العربية المتحدة .. كان الرئيس الأسد في المقاتلات الليلية ، وكان الرئيس مبارك في القاذفات ، وكان أحدهما في مطار « المازة » والآخر في مطار أنشاص ، واستطاعت رفقة السلاح أن تقرب كلا منهما من الآخر .. وتعرف كلا منهما على الفكر الوطنى والقومى للآخر ..

المرحلة الثانية بدأت عندما كان الرئيس حسنى مبارك في بعثة عسكرية للاتحاد السوفيتى - سابقا - وكان في نفس الدورة ضباط من سلاح الجو السورى ، وكان هؤلاء الضباط على اتصال دائم مع الرئيس حسنى مبارك ونظرا لأن الرئيس حافظ الأسد كان له دور كبير جدا منذ عام ١٩٦٢ في قيادة سلاح الجو السورى ، فقد كان في مقدمة الضباط الذين ظلوا على اتصال مستمر مع الرئيس مبارك ، ولقد تعززت الصلات بين القائدين الكبيرين في مرحلتها الثالثة ، وتعمقت عندما كان الرئيس حسنى مبارك قائدا لسلاح الجو في جمهورية مصر العربية إبان التحضير لحرب أكتوبر تشرين المجيدة ، حيث كان التنسيق بين القيادتين السياسيتين في سورية ومصر في أعلى صوره ، وعندما تولى الرئيس حافظ الأسد قيادة سورية منذ عام ١٩٧٠ وكان كثير الاجتماع مع الرئيس الراحل أنور السادات للتحضير لحرب أكتوبر ، فقد ظلت الاجتماعات مستمرة بين القيادات العسكرية في البلدين ، ومن المعروف أن الرئيس مبارك كان له دور كبير في الحرب الجوية في أكتوبر ومن خلال الزيارات المتبادلة للتحضير للحرب زاد قرب الرئيس مبارك مع الرئيس حافظ الأسد ، وشاعت الأقدار بعد عام ١٩٧٢ أن يتولى الرئيس مبارك منصب نائب رئيس الجمهورية ، وكان كثير الزيارات لسورية موقدا من الرئيس السادات لمقابلة الرئيس الأسد ، وكان هذا أيضا من العوامل التي زادتتهما معرفة ، وبعد تولى الرئيس حسنى مبارك قيادة مصر ؛ ورغم ظروف فترة القطيعة بين سورية ومصر ، فإن الشيء الذى لا تعرفه الجماهير أن الرئيس حسنى مبارك كان يثنى بشكل كبير على زميل السلاح أخيه وصديقه الرئيس حافظ الأسد ، وكان الرئيس الأسد يشيد بشعب مصر ، ورئيس مصر ، وتاريخ مصر ، ودور مصر القومى في جميع المعارك القومية التى دارت بين العرب وأعدائهم عبر التاريخ من « حطين » « وعين جالوت » ، وفى ظل وجود إبراهيم باشا فى سورية ، وبعد ذلك فى الحروب التى حاضتها مصر بعد عام ١٩٤٨ ، وحتى أكتوبر العظيم ، وكان الرئيس حافظ الأسد فى كل مناسبة حريصا على أن يعطى لأخيه الرئيس مبارك ما يستحقه من تقدير

واحترام ، يثنى على أخلاقياته وعروبته ، ووطنيته كما كان الرئيس مبارك يشيد دوماً بصديقه القديم الرئيس حافظ الأسد ، وقد روى عن الرئيس مبارك أنه رغم ظروف القطيعة ، وعندما سمع في إحدى المرات أن الرئيس حافظ الأسد قد مرض ، وكان ذلك في عام ١٩٨٤ حيث لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين مصر وسورية هم أكثر من مرة في أن يذهب إلى دمشق ليطمئن بنفسه على صحة أخيه ، وكان حريصاً على أن يتابع أخباره متمنياً له الشفاء ، ويروي عن الرئيس مبارك أيضاً أنه عندما التقى بالرئيس حافظ الأسد في المؤتمر الاسلامي في الكويت بادره بالتحية ، وطلب منه أن يزوره ، ورد الرئيس الأسد بنفس التحية .

ويروي عن الرئيس حافظ الأسد أنه خلال دورة البحر الأبيض المتوسط في اللاذقية والتي عقدت عام ١٩٨٧ عندما كان شباب مصر يمر أمام المنصة الرئيسية وقف الرئيس حافظ الأسد يحيى علم مصر ، وشعب مصر وقائد مصر ، ولقد وقفت الجماهير التي كانت تزيد على الخمسين ألف مواطن آنذاك مع الرئيس حافظ الأسد والدموع في مآقيها لأنها استذكرت من خلال قائدها الرئيس الأسد ، وعلاقته الحميمة مع الرئيس مبارك ، وشعب مصر ، استذكرت جميع البطولات ، والمعارك المشرفة التي خاضها الشعبان في التاريخ من أجل العروبة ، ومن أجل رفع راية الأمة العربية عالية خفاقة ، وعندما زار دمشق وفد المحامين المصريين المشارك في اتحاد المحامين العرب في عام ١٩٨٩ وقبل استئناف العلاقات الدبلوماسية أصر الرئيس الأسد أن يعود الوفد المصري على طائفة الرئاسة تحية لشعب مصر ، ولقائد مصر الرئيس حسنى مبارك .. ولقد ظل الاتصال بين الزعيمين قائماً وقوياً .. وأذكر اننى عندما رافقت الرئيس مبارك الى سورية في أول زيارة له بعد عودة العلاقات الدبلوماسية كنت أرى الفرحه في عيون الرئيس الأسد ولدى الشعب السورى ، وكانت الهاتفات والأغاني والأهازيج تعبر فعلاً عن حقيقة المحبة القائمة بين الشعبين .

ومن المؤكد أن العلاقة بين الرئيسين مبارك والأسد هي تجسيد للعلاقة بين الشعبين عبر التاريخ ، وإذا كان من الصعوبة بمكان أن نوجز أبعاد هذه العلاقة فإننا نؤكد أن في كل زيارة من الزيارات التي قام بها الزعيمان للقاهرة أو دمشق أو اللقاءات التي كانت تتم بينهما ؛ كنا نكتشف شيئاً جديداً حتى في العلاقات ذات الطابع الخصوصي .. التي يحمل منها الرئيس مبارك الشيء الكثير كما يحمل الرئيس الأسد من هذه الخصوصية في العلاقات بينه وبين أخيه الرئيس مبارك أشياء كثيرة ..

الرئيس الأسد يرى أن الرئيس مبارك يمتلك الحكمة والشجاعة في آن واحد ، والرئيس حسنى مبارك يثنى دوماً على حكمة الرئيس الأسد وقدرته على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب بحكمة وروية ودراسة وتامل تستطيع أن تصل إلى الهدف بدون أن يكون أى رأى من الآراء متسرعاً أو اتخذ بغير دراسة أو ادراك لمدى

■ نهاية

الآثار التي يمكن أن تؤثر في هذا القرار .. الرئيس الأسد يرى في القرارات التي يتخذها الرئيس مبارك المصلحة العربية القومية ، والرئيس هبارك يرى أن التعامل مع الرئيس الأسد يرتاح لما يتعهد به؛ لأن الأسد .. لم يتعهد بشيء في تاريخه إلا واحترم هذا التعهد سواء كان الأمر متصلاً بقضية عربية أو قضية دولية .

الرئيس الأسد يرى في الرئيس هبارك أنه يحرص أشد الحرص على أن يقدم كل ما يمكن أن يكون في سبيل المصلحة القومية العربية العليا ، ولم الشمل العربي ، والرئيس هبارك يرى في الرئيس الأسد أنه واسع الاطلاع عميق الثقافة فضلاً عن أنه عامل استقرار وأمن في المنطقة العربية واستطاع أن يجعل لسورية دوراً كبيراً ومؤثراً في المجالين العربي والدولي ، والشئ الأهم من هذا كله أن الرئيس الأسد يرى في الرئيس مبارك صديقاً وأخاً لسورية ولشعب سورية ، وأيضاً يرى فيه احتراماً لدور سورية ، وذلك انطلاقاً من الاحترام البالغ من قبل الرئيس مبارك للعلاقة المصرية السورية ، ودورها في عملية النهوض القومي للأمة العربية والرئيس هبارك يرى أن ثمة ضرورة وطنية قومية لوجود علاقة مميزة بين سورية ومصر لبناء نهضة عربية قومية شاملة كما يؤمن بقدرة الشعبين في سورية ومصر على تحدي المحن التي يمكن أن تكون موضوعاً أو مفروضة ليس على الشعبين الشقيقين وإنما على الأمة العربية .

خاتمة : إن الرئيس حافظ الأسد في مقدمة القادة العرب الذين يرون امكانية حل قضايا العرب في ظل الشرعية الدولية ، ومن هنا فقد دخل في مبادرة السلام ، واستجاب

لمسعى إحلال السلام ، ويمكن القول إن موقف سورية من مسعى السلام لا يعود إلى عام ١٩٩١ وإنما يعود إلى عام ١٩٧٣ أي بعد حرب أكتوبر المجيدة ، فلقد اعترفت سورية بالقرار ٢٤٢ وقبلت به ، وفسرته التفسير المستند إلى مبادئ ميثاق الأمم المتحدة ، وإلى نص القرار نفسه وهو الانسحاب الكلي والشامل للقوات الاسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، والحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني، وبالرغم من كل التطورات والمتغيرات الدولية ، وخاصة زوال الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى ومعها الكتلة الاشتراكية ، بالرغم من كل هذه المتغيرات وخاصة حرب الكويت ، وما نتج عنها فقد بقيت سورية محتفظة بهذا الموقف الذي عبرت عنه في عام ١٩٧٣ ، ومن يقرأ ما كتب في المذكرة السورية التي قُدمت إلى الوفد الاسرائيلي في أواخر الجولة السادسة من المفاوضات الثانية يدرك أن موقف سورية بقي مستمراً وواحد وثابتاً منذ عام ١٩٧٣ حتى اليوم ، جوهره واحد ، والسبب في هذا الاستمرار والثبات هو أن سورية قرأت القرار ٢٤٢ بناء على نتائج حرب ١٩٧٣ ، واستناداً إلى ميثاق الأمم المتحدة ، وإلى مضمون

■ بداية

ونصوص وروح القرار نفسه ، هذه الاستمرارية متولدة من هذه العوامل ، ومن هذه المسوغات أيضا ، ولا تزال سورية متمسكة بهذا الموقف ، وبالربط بتقدم المفاوضات على سائر الجبهات بحيث لا تتقدم جبهة بشكل وتسير الأخرى بشكل آخر .

تاسعا : ولعل صفحات هذا الكتاب كما سيلي تدحض المقولة الظالمة التي راحت تصور حزب البعث وعلمانيته وكأنها رديف لعدم الايمان .

ومن المعروف أن بعض الجهات المعادية تفقرى على حزب البعث العربى الاشتراكى بهذه الفرية ، فرية أن علمانية الحزب منافية لكلمة الايمان ، والواقع أنه سواء في حزب البعث أو في غيره من الاحزاب الوطنية السورية الأخرى لا يوجد أحد ملحد وإنما يعتزون كل الاعتزاز بالديانات السماوية ويعتبرون أن الاسلام والعروبة صنوان ، وأن العلاقات الأخوية التي تربط بين العرب المسلمين ، والعرب المسيحيين هي في أوج حالتها صحة وعافية ، وحسن أخوة وتعاون ، فالعلمانية هنا تعنى العلم ، ولا تعنى الالحاد كما اصطلح على تسميتها بعض المشككين وبعض الذين يريدون سوءاً بالاحزاب الوطنية التي تعتز بالتراث الروحي وتؤمن إيماناً مطلقاً بالديانات السماوية وكل ما جاءت به من خير وبركة لصالح الأمة العربية والعالم كله ، وهم يعتزون بأنهم أحفاد أولئك العظماء الذين حملوا الراية وقاتلوا من أجلها ، ونشروا الاسلام الحنيف في مختلف بقاع الأرض ، ولم تشهد سورية أى حادثة في هذا الاتجاه ، فالشعب كله يرفض الالحاد ، ويرفض أيضا التعصب الذي يعطل العقل ، فالمقصود بالعلمانية التعامل مع العلم وليس التعامل مع الالحاد ، والالحاد أمر مرفوض في حزب البعث ، ومرفوض أيضا في كل الاحزاب الوطنية ، وهو من صنع من يحاولون أن يفتروا على هذه الاحزاب الوطنية القومية والتقدمية .

مباشرة : لقد ظهر الرئيس حافظ الأسد في مرحلة تاريخية جعلت منه قائداً ملهماً ومنقذاً لشعبه ، فمنحه الشعب حبه الجارف ، كما منحه السلطة اللازمة لقيادة عملية التحول الاجتماعى ، وكما يقول المفكر العربى الدكتور هيثم الكيلانى « فإن هذه المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة العربية كلها هي مرحلة انتقالية خاصة فيما يتعلق بالصراع العربى الاسرائيلى ، والامن القومى العربى ، والتحديات التي تواجه هذا الامن ، وفي يقينى - والكلام على لسان الدكتور الكيلانى - أن ما يتعلق بالامن القومى العربى هو ما يشغل بال الرئيس حافظ الأسد وفكره ويركز عليه جهوده لكى يضمن لهذا الامن كل ما يوفر له القدرة على مقاومة التحديات والمخاطر ، ولكن إن لم تكن الظروف قد سنحت أو تسنح فهو دائم الانشغال في هذا الموضوع الذى يشكل محور اهتمامه .

وبعد :

لقد اثمرت جهود الرئيس حافظ الأسد في ترسيخ الاستقرار والامن والامان للشعب

■ بداية

العربي في سورية ، وهذا الاستقرار هو الذي أدى إلى مضي خطة التنمية في مسارها السليم والذي أعطى الدعامة القوية لقيام اقتصاد سورى قادر على الوقوف بشموخ وقوة ، وقادر على أن يتحدى الصعاب والمشكلات التي قد تهب اقتصاديات دول عديدة .

كذلك فقد أثمرت جهود الرئيس الأسد على الصعيد العربى نتائج إيجابية حافظت على كيان هذه الأمة وتوجهاتها القومية ، وعلى الصعيد الدولى كان للرئيس حافظ الأسد تلك السمعة المشهود بها ، والتي جعلت قادة الدول الكبرى يقدرون بعد اجتماعهم به أنهم يلتقون مع قائد حكيم ومتزن ذى نظرة عميقة في التحليل السياسى لمختلف القضايا ونظرة شمولية في السياسة الدولية .

وإذا كان يعلو لبعضهم المقارنة بين صلاح الدين الأيوبي ، وحافظ الأسد . كما سيلي . في الفصل الأول من هذا الكتاب ، فإن هذه المقارنة تجيء بالقياس ، إلى أن صلاح الدين الأيوبي كان شخصية إسلامية عظيمة وكان له دوره العظيم في إنهاء الغزو الصليبي وتحرير بيت المقدس ، ووضع حد وخاتمة لحروب الصليبيين ، كذلك فإن الرئيس حافظ الأسد شخصية لها أثرها الكبير في تاريخ العرب ، وفي تاريخ سورية ، وكما كان صلاح الدين الأيوبي قدوة بين الرجال الذين حاولوا أن يتصدوا لهذا الغزو فإن الرئيس حافظ الأسد هو كذلك بالنسبة لشعبه الذى يتصدى بكل الشجاعة والبسالة للمؤامرات المستهدفة سورية ويسعى لدمج الصهيونية وتحرير فلسطين بالسياسة والسلاح وبكل وسيلة مجدية وممكنة .

وجه المقارنة يأتى أيضا من أن صلاح الدين الأيوبي كان في فترة البلدان الإسلامية المجزأة يدرك أنه لا يستطيع قطر إسلامى بمفرده أن يضع حدا للغزو الصليبي ولذلك كان يحاول دائما أن يُقيم الأحلاف ويستنهض الأمم ، ويُزكى الايمان في النفوس بأن التحرير قادم لا محالة .. وعندما يقترب الانسان من الدعوة التى يدعو إليها الرئيس حافظ الأسد نحو تضامن عربى ينبذ الأحقاد ويعبئ الطاقات ضد العدو المتربص بالعرب ، الذى احتل أراضينا ولا بد أن يتركها ، يستطيع من يقترب من هذه الدعوة أن يلمس مدى التشابه بين شخصيتى صلاح الدين الأيوبي ، وحافظ الأسد .. والرئيس حافظ الأسد يستشهد دائما بالمرحلة التاريخية التى نشأ فيها صلاح الدين الأيوبي ، فالصليبيون عاشوا قرابة المائة عام في بيت المقدس وقرابة قرنين في أرض الشام ومع ذلك أرغمهم الشعب في نضاله على الرحيل ، ولذلك فإن الرئيس الأسد يقول: إنه قد لا تكون القوة لصالح العرب الآن بالنسبة لتحرير أراضيه من الاحتلال الإسرائيلى ولكن باعتبار أن إسرائيل قامت على العدوان باحتلال الاراضى العربية، وسلب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، فلا بد لشعب يقاوم الاحتلال وشعب يصر على حقه أن ينال هذا الحق ، فما ضاع حق وراثة مناضل ، والعبرة ليست فقط في المرحلة الزمنية التى يمكن أن يبقى فيها

أين هي هذه الامبراطوريات الآن؟

إذن هذه الشخصية العظيمة التي تستوعب التاريخ من جهة ، وتؤمن بحيوية وقدرة الأمة على تجاوز الصعاب ، من جهة أخرى ، على سطوع الحق ، ووضوحه لأن هذا الحق لا يمكن أن يموت ووراءه من يطالب به .. يجعل الرئيس حافظ الأسد متماثلاً كل التماثل شخصية صلاح الدين الأيوبي .

□ □ □

□□ ويتبقى بعد ذلك أن أشير إلى الملاحظات التالية :

● أولاً : أن شمول تجربة الرئيس حافظ الأسد لا يتيح لجهد منفرد مهما أخلص أن يلم بكل جوانبها ، وإن استطاع فإن قدرته على العرض والتحليل تظل مقصورة على ربط المقدمات بالنتائج ، والمسببات بالأسباب لأن حجم التغيير الذي تحقق في سورية حتى الآن لا يمكن قياسه بانجازات تحققت أو مشروعات أقيمت أو سياسات تبدلت أو ارتباطات دولية أو اقليمية اتخذت شكلاً جديداً .. التغيير الذي حدث في سورية منذ فجر الحركة التصحيحية وحتى الآن استهدف هذا كله كوسائل وليس غايات ، وما جرى منذ الحركة التصحيحية حتى الآن كان في حقيقته ثورة حضارية أكثر منها ثورة لها أبعادها التقليدية المعروفة في مجالات السياسة والاقتصاد ، وكل أمل في لقاء قريب مع القارئ ، وفي قراءة أخرى في فكر هذا الزعيم العربي الكبير ، أكثر عمقا ، وأكثر شمولا ، نستكمل بها تقديم الصورة الكاملة لفكر هذا القائد الذي يقصر كل جهد منفرد مهما كبر عن إيفائه حقه من البيان .

● ثانياً : لست أزعم بأنني في هذا الكتاب قد جئت بالقول الفصل أو أنني قمت بالبحث العلمي المستقصى عن فكر الرئيس حافظ الأسد والذي ليس بعده زيادة لمستزيد ، كما أنني لا أزعم أنني وفقت للاحاطة الشاملة بهذا الفكر من كل جوانبه ، حيث لم أنفق لهذا الكتاب من الوقت إلا ما قضت به الحاجة لاعداده ، ولذلك فلشد ما يبهجنى لو مهد هذا الكتاب أيضاً لبحوث أخرى أقرب إلى الدقة في تقديم هذا الفكر .

● ثالثاً : بقيت كلمات شكر أراها واجبة ، ومن الحق أن أقدم عرفاني بالفضل لكثيرين لولاهم ما أمكن أن يصدر هذا الكتاب في هذا الزمن القياسي .

أقدم الشكر أولاً لصاحب الفكرة الكاتب الصحفي الكبير إبراهيم سعدة وأمل أن يكون هذا الكتاب قد حقق الهدف الذي توخاه منه ، ولنن أصبت فيما قدمت ، فذلك من فضل ربي ، وإذا ما قصر جهدي دون غاية فتلك حدود اجتهادي ، وما توفيقي إلا بالله .

كما أقدم شكرى وتقديرى للأستاذ محمود الزعبي رئيس وزراء سورية على صادق تعاونه معي وكذلك العماد مصطفى طلاس .. كما أن عرفاني بغير حدود لوزير الاعلام

■ بداية

الدكتور محمد سلمان الذي احتضن فكرة الكتاب منذ اللحظة الأولى وقدم وأشرف على ترتيب الوثائق التي طلبتها بحرص شديد وكفاءة عالية . وأعطى بحيويته وحماسه لفكرة الكتاب الكثير من المعلومات ومن الوقت .

كذلك فإنني أقدم عميق التقدير لفخامة الرئيس اللبناني الأستاذ إلياس الهراوي الذي منحني من وقته الكثير في رحلة اعداد هذا الكتاب ، وكذلك دولة رئيس المجلس النيابي الأستاذ نبيه بري ، ودولة الأستاذ حسين الحسيني رئيس مجلس النواب السابق ، ودولة الأستاذ رشيد الصلح رئيس وزراء لبنان السابق ، وقادة الفكر السياسي والعمل الحزبي والصحفي .

والحقيقة أنني لا أعرف كيف أشكر كل من قبلوا برضى ومحبية معاونتي في اعداد هذا الكتاب وبينهم اطراف الجبهة الوطنية التقدمية وخاصة الأساتذة خالد بكداش وصفوان قدسي وأحمد الأسعد ، كما أخص بالشكر المؤرخ السورى الدكتور سهيل زكار ولا بد أن أشير إلى جهد كبير قدمه كل العاملين في مؤسسات وزارة الاعلام وأخص بالذكر الأستاذين مازن صباغ ويوسف مقدسي مستشاري وزير الاعلام ، كما أتقدم بالشكر لرئيس جبهة الانقاذ الفلسطينية السيد خالد الفاهوم ، وزعماء المعارضة العراقية .

وأشكر أيضا هؤلاء الذين جعلوا كتابة هذا المؤلف ممكنة بالنسبة لى عن طريق عملهم على جمع أوراق المتناثرة وخاصة الأخوة في مركز الميكرو فيلم بمؤسستي الأهرام وأخبار اليوم ، كما أشكر الدكتور سمير عبدالرازق مدير عام مؤسسة أخبار اليوم الذي تابع صدور هذا الكتاب على الرغم من شواغله العديدة .

ومن الحق أن أنوه بجهد كبير بذله الفنان أحمد السعيد سكرتير تحرير أخبار اليوم الذي أعد هذا المخطوط للطبع في هذا الشكل الفني .

وأخيرا فإنني أقدم هذه الصفحات والذاكرة تعود بى إلى عبارة صادقة للعلامة القاضي الفاضل عبدالرحمن البيساني إذ يقول : « لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

عادل رضا



فارس بنى يعرب

- المولد.. النسب والنشأة
- التاريخ لا تحركه الصدفة
- التلازم بين القوة والوحدة في فكر الأسد

■ فارس بنى عريب ■

□□ الذين يعتقدون - وبحق - أن ثمة ملامح عديدة تتشابه فيها شخصيتنا الناصر صلاح الدين الأيوبي « ٥٣٢ هجرية » ، والرئيس حافظ الأسد « ١٩٢٠ ميلادية » ، يمكن شواهد ، ومسوغات ، وأدلة تدعم هذا الاعتقاد وتؤكد ..

فكلاهما ولد في مناخ ساعد على تكوين ملامح شخصيته في وقت مبكر ، وكلاهما نشأ نشأة صالحة تميزت بالفطنة والذكاء ، وكلاهما شب على الشجاعة وحصافة الرأي .. وكانت قيادة كل منهما مثالا يحتذى للحكمة والمرونة والشجاعة ونكران الذات كما سيلى ..

وكما أن صلاح الدين الأيوبي لم يأت من فراغ ، ولم ينشأ في أمة ميتة فأحيها ، فكذلك الحال بالنسبة للرئيس حافظ الأسد ، فهو سليل الأمة التي صدرت للعالمين العربى والاسلامى أبرز قياداتهما في شتى المجالات ، وهى قيادات صنعت لهذا العالم أعظم انجازاته الحضارية والانسانية والعسكرية والفكرية .

وإذا كان الدور الذى قام به صلاح الدين الأيوبي ، امتدادا واستمرارا لدور القائد المسلم الفذ ، الذى غرس نواة تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة ، لمجابهة العدو الصليبي ، ونعنى به عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، ثم دور ابنه نورالدين محمود الذى

■ الفصل الأول

سقى هذه البذرة ، فنبئت واخضر عودها ، واستقر في عهده ، حتى اذا تولى صلاح الدين الأيوبي القيادة .. أينعت وأزهرت وأعطت ثمارها بفضل عبقريته السياسية والعسكرية وشخصيته الفذة وعقليته المدبرة ، فكذلك الحال بالنسبة للرئيس حافظ الأسد الذي أصبح امتدادا للقائد العظيم صلاح الدين الأيوبي حيث أوقف عبقريته السياسية والعسكرية على خدمة أهداف امته التي كانت تنتظر الظروف المواتية لتحقيق هذه الأهداف وتطلع بشوق للقائد الذي يقود خطاهما .

والذين تابعوا ويتابعون - بنظرة محايدة - مسيرة حافظ الأسد يرون أنه واحد من أبرز قادة التاريخ العربي المعاصر ، فهو الذي صنع تاريخا جديدا لسورية ، تاريخا ليس منبت الاواصر مع ماضيها ، ولكنه يجاوز بها مراحل التخلف التي كانت تتخبط فيها . يكفي للدلالة على ذلك أن نستعرض الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي - في سورية قبل حكم الرئيس الأسد وبعده ، لنعرف أبعاد الثورة الحضارية الكبرى التي حققها في بلاده ، وهي بكل تأكيد أضافت قدرة وقوة للوطن العربي بأسره ... استطاع حافظ الأسد أن يكون المناضل والمقاتل ورجل السلام ورجل الفكر والثقافة ، أن يجعل من سورية مثالا يحتذى به في مجال البناء الداخلي السياسي والاقتصادي وفي مجال تعميق التضامن العربي، وفي مجال التعامل الدولي وفق مبادئ الأمم المتحدة واحترام السيادة، خدمة للحقوق العربية بوجه التحديات القائمة وفي مقدمتها الاطماع الصهيونية .

والذين يقارنون بين صلاح الدين الأيوبي وحافظ الأسد ، يجدون أن الصفات نفسها والسجايا الشخصية تبدر وكأنها واحدة ، الأمر الذي جعل كلا منهما زعيما مثاليا للامة التي يقودها .

كان صلاح الدين الأيوبي تجسيدا حيا لآمانى المسلمين وآمالهم ، وكان نبراسا يحتذى به في قوة العزيمة وصلابة العزم على الجهاد لتخليص ديار المسلمين من أيدي الفرنجة ، وقد ساعده على ذلك ، تحرره من الوهم ، إلى جانب احساسه الداخلي بأنه يمتلك القدرة دائما على الاستمرار في الجهاد وتحمل المصاعب والمشاق ، حتى يعيد للامة الاسلامية ما فقدته من مجد وكرامة بعدما سلبت منها بعض أراضيها ، وخاصة بيت المقدس ، .. وبإسقاطة تاريخية تبدو مواقف الرئيس الأسد وكأنها امتداد لمسيرة الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ولقد برهنت هذه المواقف على أن التصميم والإيمان بعدالة الهدف ووضوح الرؤية يكونان دائما الرؤية التي يمكن بها التغلب على جميع الصعوبات ، وتخطى جميع العقبات .. وإلى جانب ذلك ، فقد امتلك الرئيس حافظ الأسد صفات أخرى تغذى هذه العناصر .. أهمها استقامته وفق ما ينبغى إن تكون عليه سلوكيات الفرد المؤمن الذي يتحلى بالإيمان والشجاعة وحسن السياسة

■ فكري بنى عرب ■

والصبر والحلم والعفة والمروءة مما جعل أعماله تجيء على مستوى أخلاقه ، وإذا كانت المصادر التاريخية المحايدة التي أرخت لحياة صلاح الدين الأيوبي القيادية وجهاده قد أكدت أنه كان حازما بقدر ما كان محبا للتواضع فإن القرييين من الرئيس حافظ الأسد .. يؤكدون أنه دوما يعطى القدوة والمثل للجندى الصالح المتفاني في أداء الواجب والمتمسك بإيمانه وعقيدته والمثالي في التواضع، كما سيلي في مواقع عديدة من هذا الكتاب .

وإذا كانت الروايات التاريخية .. قد بينت لنا أن صلاح الدين الأيوبي كان يتقهم جندره في حمل الحجارة على ظهره والأخشاب على كتفيه من أجل بناء المتاريس والحصون للاحتماء فيها تفاديا لضربات الأعداء التي ربما تأتي مباغتة ، الأمر الذي جعله يحقق انتصارات شهيرة في تاريخ الاسلام ، وهي انتصارات لاتزال تشهد على شهامته وشجاعته في سبيل نصرته الاسلام وحماية مكاسبه وخلف بعد وفاته تراثا تاريخيا .. ومواقف مشرفة تذكرها الأجيال المسلمة عبر أطوار التاريخ بالفخر والاعزاز ، فإن الدين تابعوا وعاصروا نشأة الرئيس حافظ الأسد يشهدون له بصفات الشجاعة والاقتحام ، وهنا لابد أن نشير الى أن الرئيس الأسد نشأ في بيئة عربية تقديس الشهامة والرجولة والفروسية العربية ، والمعروف في الريف وفي القرية التي نشأ فيها الرئيس الأسد وهي على مقربة من منبت أول ابجدية في العالم . إن هناك تقاليد تعطي للانسان الفارس والشجاع والمقدام قيمة كبرى على صعيد الفرد ، وعلى صعيد الجماعة ، وهذا التراث مستمد من البيئة العربية الاصلية والتقاليد العربية الاصلية .. لأن الانسان العربي ربي على المثل العليا التي جاء الاسلام فأكدها كالوفاء بالعهد والتضحية والكرم والعطاء والبذل والمروءة والنجدة والشرف والحفاظ على العرض إلى آخر ذلك من مثل وقيم عليا لازالت مخترنة في النفس العربية، هذه القيم والمبادئ التي أكدها الاسلام تربى عليها الرئيس الأسد وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وقول عمر بن الخطاب « علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل » كل هذه المثل الاسلامية كانت في ذهن الفتى حافظ الأسد .

وفي جميع المراحل التي عاشها كان دائما في المقدمة ، وهذه الحقيقة يؤكددها ويرويها عنه الكثير من الطلاب الذين زاملوه في الدراسة الثانوية ، فهو الذي كان يقود المظاهرات ، ويتصدى لرصاص المستعمر ، ورصاص الأنظمة الديكتاتورية ، وعندما كان ضابطا مبتدئا في سلاح الجو السوري كان يعرض نفسه لكل المهمات القتالية في دوريات الطيران ، وعندما تم تحديث القوات السورية في الخمسينات .. وأرسل مع غيره في بعثة تدريبية للاتحاد السوفيتي .. اختار أصعب ظروف الطيران وهو القتال الليلي ، ومن المعروف أنه في الخمسينات لم تكن التكنولوجيا متوافرة كما هي الآن .. اختار القتال الليلي ليكون في مقدمة من يقاتل ويذود عن وطنه لأنه تربى على حب الوطن ،

■ الفصل الأول

وحب القداء ، وحب التضحية في سبيل الوطن ، ويروى الطيارون الذين زاملوه في جمهورية مصر العربية عن اقدمه وشجاعته في دوريات الطيران فوق سماء الاقليم الجنوبي الكثير .

كان يتطوع ليكون في دوريات قتالية وكان يسعى لان يأخذ دوريات اضافية ، وفي حرب الاستنزاف التي تلت حرب ١٩٧٣ كان موجودا بصفة مستمرة في بعض الخنادق الامامية ، لقد تجلّت شجاعته في ادارة حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ عندما استطاع العدو أن يخترق بعض القطاعات في القطاع الشمالي ذهب الى مقر القيادة التعبوية للجيش وظل يشرف على المعركة ، حتى تمكن الجيش السوري من ايقاف تقدم العدو في القطاع الشمالي ، ويضرب الطيارون أيضا المثل بشجاعته ورباطة جأشه وهدوئه ، واتخاذ القرار الحكيم في الساعة المناسبة والحاسمة .

المولد ... والنشأة

ولد الرئيس حافظ الأسد في يوم السادس من شهر (تشرين) أكتوبر ١٩٣٠ لآبوين عرييين أصيلين ، فقد انتمى والده إلى قبيلة كلاب (وبعضهم يقول لكلب) التي عدت من أعرق القبائل العربية وأكثرها أصالة ، وأعظمها جهادا ضد الروم ، ولتخليد هذا الجهاد كتب العلماء العرب ملحمة ذات الهمزة التي تعد على رأس الملحاح العربية الشعبية ومن أقدمها وأشهرها .

ولد في بيئة ريفية كادحة تعمل في الزراعة وذلك في قرية (القرداحة) التابعة لمحافظة « اللاذقية » وقرية القرداحة تقع في السلسلة الجبلية السورية المتاخمة للبحر المتوسط ، وهي تتربع على ربوة كبيرة مكسوة بالغابات ، وللقرداحة تاريخ قديم وحديث ، كان أبناؤها يتصدون بكل شجاعة لكل عدو ، واشتهرت بأنها كانت ملجأ للفارين من الاضطهاد والظلم حيث يجدون فيها الامن والامان ، وفي قرية القرداحة ترعرع الرئيس الأسد في كنف والده ، وتعلم في كتاتيب القرية وحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم على يد فضيلة الشيخ عامل حبيب ، وما أن اختتم القرآن في سن السابعة من عمره حتى التحق بمدرسة القرداحة الابتدائية ، وكان متميزا بين زملائه بالولع الشديد بالمطالعة ، وكان يقرأ لوالده وضيوفه الشعر وكتب التاريخ ، وفي الأربعينات انتقل إلى اللاذقية مع والده حيث أكمل دراسته حتى المرحلة الثانوية ، وحيث تبلور وعيه السياسي وقد ساهم في المظاهرات الطلابية المعادية للاحتلال الفرنسي ، وفي النشاطات السياسية من أجل تحقيق الجلاء ، كان يتمتع بذكاء سخره للتعمق في العلم ، الامر الذي جعله يبرز في دراسته وخاصة في مادتي الرياضيات والتاريخ .

وقد انتخب في لجنة طلاب محافظة اللاذقية ، وقاد هذه الحركة من أجل قضية فلسطين وغيرها من قضايا العرب النضالية ، وتخرج في ثانوية تجهيز البنين (ثانوية جول جمال حاليا) ، وكان الطالب حافظ الأسد ذا بصيرة نافذة وفكر متقد

■ فارس بنى عرب ■

وشخصية قوية جعلت رفاقه ينتخبونه عضوا في اللجنة الطلابية حيث شق طريقه النضالي بإصرار وتحد .. راح يقود المظاهرات ضد السلطة الرجعية غير مكترث بما يمكن أن يصيبه ، ولأنه كان صاحب رأى ، وكان متمسكا بالقدرة الفائقة على التنظيم وحمل المسئولية . فقد ترأس اللجنة الطلابية ، وكانت له اتصالاته باللجان الطلابية في سورية عامة لتوحيد العمل الطلابي ، وفي عام ١٩٤٦ انتسب إلى حزب البعث العربي الاشتراكي ليبدأ النضال لتحقيق الاهداف القومية للوحدة العربية الشاملة وتحرير أجزاء الوطن العربي المحتل ، واستطاع الطالب حافظ الأسد أن يجمع بين الدراسة والسياسة في وقت واحد ، وكان بارزا في كليهما ، وقد لفت حافظ الأسد الانتباه إليه بلباقته وذكاؤه وخبرته الفائقة على اقناع الآخرين بوجهة نظره .. واحترامه للرأى الآخر .

كان حافظ الأسد الطالب الثائريقوم بتوزيع المنشورات السرية في الليل والنهار ، وكان يتولى كتابة الشعارات الوطنية على جدران أحياء المدينة .. يشرح أهداف الحزب ، ولقد وصلت شجاعته وقتلذ منتهاها عندما تولى توقيع العريضة الشهيرة من فلاحي محافظة اللاذقية للمطالبة بتأميم ادارة حصر التبغ والتنباك ، وقد قام خلال جولاته في القرى بنشر مبادئ الحزب وأهدافه وترتيب مؤتمرات للطلاب على مستوى سورية ، وكان يحرص على أن تصدر عقب كل مؤتمر طلابي قرارات يغلب عليها الطابع القومي والوطني ، وكانت أهم هذه القرارات وأبعدها أثرا ذلك القرار الذي كان وراء صدوره في المؤتمر الثلاثي (حلب - حمص - اللاذقية) والذي طالب فيه بإدخال التدريب العسكري الى المدارس الثانوية في أعقاب نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وهي النكبة التي حاول مع رفاقه التطوع للتصدي بها ، ولكن السلطة القائمة رفضت ارسالهم الى الجبهة . وتبدو الشجاعة الفائقة للطلاب حافظ الأسد عندما قاد إحدى المظاهرات في مدرسته الثانوية احتجاجا على تعديل الدستور وحاول بعض الطلاب الحزبيين مرافقته الى منزله لحمايته من أى اعتداء ، كانت تجمع كل المؤشرات على وقوعه ، ولكنه رفض وأصر على الذهاب بمفرده .

كان حافظ الأسد طالبا عقانديا شجاعا لا يتردد في الدفاع عن أى مظلوم أو عن حق مهضوم وكان شجاعا ثابتا على عقيدته مهما لاقى من صعاب ، لقد أحب حافظ الأسد وطنه حبا عميقا واتجه بكل طاقته لخدمة هذا الوطن ، وكما تعرض للأخطار ، وعرض حياته للآزماق فداء لواجب آمن به . إن الذين زاملوا الطالب حافظ الأسد في عامي ١٩٤٨ - ١٩٤٩ يسجلون له بالتقدير ، انه كان يتميز بالعقلانية لا ينساق وراء العاطفة ، لا يخشى التهديد ، كان رمزا للشباب الثائر ، وتوافرت له صفات القيادة المبكرة ، لم يعرف شبابه ما يعرفه الآخرون من

■ الفصل الأول

الشباب ، وفي ثانوية جول جمال باللاذقية (التجهيز سابقا) التقى بالكثير من اصدقائه في الحزب ، وعن هذه الفترة يتحدث الرئيس حافظ الأسد فيقول :
« كنت في سنواتي الاولى في ثانوية جول جمال في اللاذقية جادا ومجدا في دراستي ، ولكنني تراجعت بعد ذلك حينما كرسيت نفسي للسياسة والحزب ، وكنا نتعلم الفرنسية منذ المرحلة الابتدائية ، وقد بلغنا فيها مبلغا حسنا إلا أنه لم يتح لنا فيما بعد أن نمارس هذه اللغة » .

« لقد اكتسبنا نحن الشباب بعض النفوذ في اثناء الحملات الانتخابية ، كانت المنافسة على مقدار من الاهمية مع الأحزاب الاخرى - الحزب الشيوعي السوري ، والحزب القومي السوري الاجتماعي ولم يكن لهما تأثير كبير ، أما الحزب الوطني وحزب الشعب والاخوان المسلمون فكانت تجمعات أفراد همها الحفاظ على مصالحها أكثر من السعي في سبيل الشعب ، كانت السلطة تؤول اليهم أحيانا ولكنهم لا يتمتعون بالشعبية ولذلك كنا نناضل » .

ما الذي دفعني إلى النضال قبل عام ١٩٥٢ ؟

إنه الوقوف على واقع ، واقع أمة عربية تعاني من الحرب ومن المتاعب الداخلية ، وهناك جزء من أرض امتنا العربية - فلسطين - محتل ، وكنت قد رغبت وأنا في الثامنة عشرة ، التطوع في الجيش في الفترة التي نشبت فيها المعركة ولكنهم قابلوني بالرفض فتأملت عند ذلك الكفاح السياسي مع رفاقي .

كان بيدولنا ولن شاطرونا أراءنا أن المسألة السياسية العسكرية الاولى هي المسألة الفلسطينية ، كنا نرى أنها النتيجة المباشرة للوضع الداخلي المفجع الذي كنا نرزح تحته ، وكل الامراض التي تصيب الوطن العربي من ذلك الواقع قد أتاح للصهاينة غزو فلسطين .

كان من عاداتي القول يوم كنت طالبا : ان المريض بالنسل أو السرطان لا يمكنه ان يكون مصارعا ، فلن يقوى على القتال إن تناقصت امكانياته الجسدية وعلينا ان نعالجه أولا ، تلك كانت حالنا ، كنا ضعفاء ، ولا بد أن نكون أقوياء لننتصر » .

« لم تحل هذه المشاهدات دون أن نبذل قصارى الجهد ، وان نمارس الضغوط على الحكومة السورية لترداد التزاما بالقضية الفلسطينية ولذلك جهدنا في تحريك الجماهير للتأثير على السلطة ، وحقيقة الامر أن الحكم السوري لم يكن قد سعى إلى مواجهة الصهاينة ، لم يكن يشعر أنه يوازي خصمه على صعيد التكنولوجيا ، كان سلاحنا بسيطا ولكن عدد المقاتلين ربما عوض نوعية العتاد » .

■ فلرس بنى يهرب ■

كان البعثيون على أية حال يلجأون دوماً إلى المظاهرات في الشوارع وهي إذ ذاك هامة ، كانت قوى حفظ النظام تلقى علينا القبض أحيانا ثم تخلى سبيلنا بالطبع ، ولكننا كنا نجتذب وراءنا جمهورا كبيرا من مواطنينا ليسوا جميعهم طلابا أو بعثيين .

« لم يكن في تلك الحقبة منظمات شعبية ، ثمة نقابات للعمال ولكن لا شيء على صعيد الفلاحين ونقابات مهنية وحرفية ولكنها خلو من أي مضمون سياسي ، لذلك أصبح الطلبة بعد ما تمت تعبئتهم المحرك والدافع للمظاهرات الشعبية ، أما قطاعات الفعاليات الأخرى فقد كانت تتعاطف معنا ومع شعاراتنا فإن دعونا التجار أو العمال إلى الاضراب لبوا النداء ، كان ثمة بالطبع بعض المناوئين الذين يمنعون التجار من اغلاق محالهم أو يشيعون الاضطراب في مسيراتنا أو يعتدون علينا ، وكانت الاشتباكات كثيرة ولا سيما مع بعض الازلام أو السوقة الذين تجمعهم الأحزاب المناهضة لأفكارنا .

« أذكر مرة في اللاذقية ، فيما كنا نسير في مظاهرة انطلقت من مدرسة جول جمال إلى دار المحافظ ، وبينما نحن في منتصف المسافة رأينا شخصا ينطلق نحونا وشهر مسدسه وهددنا بإطلاق النار علينا إذا لم نوقف مظاهرتنا ولم يكن يعنى ما يقول ويفعل ، لأننا كثيرون . فلولجأ إلى سلاحه لقتل أو جرح البعض منا ولكن كان بالإمكان الإمساك به بسرعة وتسليمه إلى الشرطة ، لم نكن نحمل سلاحا ولكننا لم نمثل لتهديده فولى الأدبار .

« لأزلت أسماول حول الأسباب التي دفعته إلى هذا التصرف وإلى الامتناع عن اطلاق النار .. لعله خاف من نتائج فعلته .

ولكنها كانت لحظة مزعجة ولا سيما لأننا كنا في النسق الأول من المسيرة بوصفنا منتخبى رابطة الطلبة .

ولكن المظاهرات لم تكن سوى جانب واحد من أنشطة الطلبة البعثيين السياسية . كنا نناقش بوجه خاص التوجهات الممكن اتباعها ...»

هذه المرحلة التي تحدث عنها حافظ الأسد ... كانت من الناحية الاقتصادية مرحلة صعبة جدا وخطيرة ، لقد كان الفلاحون يعملون في أراض لا يمتلكونها بأخس الأجور وكذلك كان حال العمال وغيرهم من فئات الشعب ، ولم يكن من رادع انساني أو أخلاقي يردع صاحب الأرض أو المصنع أو المشغل ، فقد كان الملاك من أصحاب النفوذ أو قرييين من النفوذ والسلطة ومازالوا كذلك حتى أصبح السكان في حالة فقيرة ومرهقة وحول هذه المرحلة تحدث الرئيس حافظ الأسد قائلا :

« كانت الأمور الاقتصادية خطيرة بما تحمل من افقار للسكان وهم من قبل ضحايا

■ الفصل الأول

الاستغلال ، والفلاحون يؤساء يعملون في الأرض ولا يملكونها وأجورهم غير كافية ، غالبية الأطفال لا يدخلون المدارس ، كان ثمة طلبة حتى في ثانوية جول جمال لا يملكون ثمن شراء كتبهم فيطردون من المدرسة، والضمان الاجتماعي لا وجود له . ذات مرة رأيت رجلاً من أشد رجال قريتنا بأساً وكان جاراً لنا يسقط فريسة المرض ، كان أشبه بقوى الطبيعة ألعائية لكنه حينما شرع يبصق الدم لم يتمكن من علاج نفسه، لأنه لا يملك عشر ليرات سورية يمضى بها إلى الطبيب .

إنه مثال أثر في كثير ، ما كان لرجل بهذا الجسم المدهش أن يموت ولكنه فقير ولم يساعده انسان أو أية دائرة اجتماعية .

كانت الادارة بيد الاقطاعيين والذين احتكروا أيضا الوظائف ، وقد بلغ الأمر أن أنيطت بعض الوظائف كوظيفة دركي مثلاً بالعائلات الاقطاعية، فإذا كان الأمر يتطلب تجنيد مائة دركي لمحافظة اللاذقية وزع هذا العدد على عدة شخصيات من طبقة اجتماعية رفيعة المستوى تتولى بدورها اختيار المرشحين لوظيفة الدركى الذى هو في نظر الفلاحين سلطة مع مرتب مضمون وحلم عندما يكون المرء فقيراً ، بيد أنه لابد من شراء وظيفة الدركى هذه بدفع ٢٠٠ ليرة سورية للشخصية المولم إليها ، تلك التى فوض إليها أحياناً اختيار عشرة من الدركيين ، حينذاك كان الفلاح يسعى لايجاد ٢٠٠ ليرة سورية فهو يعتقد أن ذلك استثمار وأنه سيستعيد المبلغ من رواتب ولده مستقبلاً فكان يقترض المبلغ أو يرهق بعض الاملاك ، ولما كانت هذه الوظيفة (ملكاً) للبائع فربما اتفق أن يسرح الدركى بعد شهر أو شهرين من الخدمة ، لهذا السبب أو ذلك ثم يبيع هذه الوظيفة إلى فلاح آخر ، ليس ثمة قاعدة مطلقة ولا تشريع يحكم هذا المجال ، والأمر واحد في الحياة السياسية ، فالانتخابات لا تعبر بحرية عن رغبات المواطنين ، فالمنتخبون هم المالكون ، ومن المبادئ المتعارف عليها آنذاك شراء البطاقات مقابل ١٠٠ ليرة سورية من أجل صناديق الاقتراع ، والمنتخب الجديد بدروه يستعيد ماله ببرغام ناخبه على أن يدفعوا له مقابل الخدمات التى يطلبونها منه ، كان يستعيد بذلك أكثر مما انفق من المال .

وعلى الصعيد القومى كان الطالب حافظ الأسد ورفاقه يشعرون بأن الوطن العربى والأمة العربية مفتتة وضعيفة ، وكان لابد من تصحيح هذا الوضع السيئ ولابد من ايجاد قيادات جديدة تحمل على عاتقها عملية تحريض الجماهير للخلاص من هذا الوضع .

ويعصف الرئيس حافظ الأسد حال الوطن العربى آنذاك فيقول :
« أما الوطن العربى فقد كنا نعى تماماً ضعفه بسبب تجزئته وتفتته مما كان يدفعنا

■ فارس بنى يهرب ■

إلى الوحدة لأننا واثقون أن العرب يؤلفون أمة واحدة وأنه لا يمكن معالجة أية مشكلة في جزء من العالم العربي بمعزل عن غيره .

كنا نحس أيضا أن الوضع في الأقطار العربية الأخرى لم يكن أفضل من الوضع الذي كان سائدا في سورية بل كان أسوأ لدى غالبية هذه الأقطار إذ كان الكثير منها لا يزال تحت نير الاستعمار .

كنا نرى أن بلدنا ينبغي له الاضطلاع بمسؤوليات كبيرة ، ولكن كان يعز علينا أن نشهد العالم العربي مجزأ حتى سورية قسمت أربعة أجزاء ، وكان من العسير الاعتقاد أن هذا التقطيع يرمى إلى « خير الناس » مثل هذا الوضع وهو سيء في ذاته ، إنما يفرض إلى استبقاء نفوذ الدول المستعمرة ونفوذ الطبقة الرجعية المتصاعدة داخل البلاد ، وكان يمكن لهذا الأمر أن يعرض سورية للمآسى نفسها التي تعصف بفلسطين آنذاك والتي أدت إلى تسلط الصهاينة عليها .

« كل هذه الأسباب استدعت تصحيحا ضروريا اختط توجهنا المستقبلي ، ولكن قبل نهاية المرحلة الثانوية لم يستقر لي رأي على ما أفعله بعد الشهادة الثانوية ، كنت أنوي المتابعة في حقل الطب لا أن أحترف المهنة العسكرية ولا سيما أنه ليس من السهل على بعثي مثل دخول الكلية العسكرية ، ولذلك أعددت نفسي لدراسة الطب بعد حصولي على الشهادة الثانوية ولكن لم أتابع السير في هذه الطريق لأكثر من سبب ، وتقدمت بطلب انتساب إلى الكلية العسكرية بجمص » .

لم يجد الطالب حافظ الأسد بدا من خدمة الوطن والقضية الفلسطينية فما كان منه إلا أن التحق بصفوف الجيش متطوعا ..

وقد أخذ حزب البعث يكبر وينمو ، ولكنه لم يستطع الدخول في التشكيل البرلماني بسبب تحكّم الأقطاعيين الكبار في هذا التشكيل ، وفي نوفمبر « تشرين الثاني » عام ١٩٥١ حل أديب الشيشكلي المجلس التأسيسي وتسلم الجيش المسؤوليات في البلاد ، وأصبح العمل السياسي للحزب محظورا في العلن ، ولكنه بقي يمارس دوره في الخفاء ، وفي عام ١٩٥٢ التحق حافظ الأسد بالكلية العسكرية الجوية ، وتخرج منها برتبة ملازم عام ١٩٥٥ ثم أكمل دوراته العسكرية (طيار قتال ليلي - نهاري) ثم أوفد في بعثات خارج القطر السوري واجتاز بدرجة امتياز دورة قائد سرب عام ١٩٥٩ ودورة أركان حرب عام ١٩٦٤ .

يقول الرئيس حافظ الأسد في وصف حبه العميق وشوقه البالغ لرؤية الطائفة وقيادتها :

■ الفصل الأول

« أننى من دورة الطيارين الأولى فى هذه الكلية التى أنشئت حديثا ، كان ثمة بالطبع طيارون سوريون قبلنا ولكنهم لم يدرسوا فى هذه الكلية الحديثة وهى مختلفة فى مستواها عما سبقها .

كنا منذ وصولنا إلى حلب عند المساء ننتظر بفارغ الصبر رؤية الطائرات عن قرب وإنا أعنى بذلك أننا كنا نكتشف الطائرات فى تلك الفترة فلم استقل طائرة من قبل ، كانت أولى ساعات الطيران خلف القائد استكشافا لعالم آخر بالنسبة إلى ، ثم إن الشعور بالسيطرة على الطائرة فى الجو إنما يولى المرء بعدا آخر ، فإذا تراكت ساعات الطيران أضحت القيادة عادة وتم اكتساب الخبرة .

باشرت الطيران على طائرات بريطانية وإيطالية وكانت من طراز - تشيب مانك وسبيتفاير وفيات - هـ ٥٩/٥٥ ومن النوع المروحى ، فى مصر أبان دورتى الأولى خارج سورية .

قدت أيضا طائرات فانبير وأول طائرة نفائة من طراز متيور ١١ - كان التغيير كبيرا ، ما كان أروعها طائرة ، جميع تلك الطائرات كانت مطاردة .
ويضيف الرئيس حافظ الأسد :

« عندما ذهبت إلى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٨ لدورة تأهيلية ، تعلمت قيادة طائرة - الميج ١٥ والميج ١٧ - مكثت أحد عشر شهرا فى الاتحاد السوفيتى وكان لابد لى من تعلم القليل من اللغة الروسية بغرض المحادثات العادية والمصطلحات التقنية .

كانت دورات كلية الطيران فى الواقع مقرر بادية الأمر فى بريطانيا ولذلك تم تعليمنا اللغة الانجليزية فى دورات مكثفة وسريعة ، ولكن الحكومة السورية بدلت فى تلك الفترة اتجاهها وعقدت اتفاقا مع مصر . »

وهكذا وجدتنى بادية الأمر فى القاهرة ، وفى حلب فزت على مدى سنتين متتاليتين بالجائزة الأولى فى الحركات البهلوانية الجوية ، أما فى الاتحاد السوفيتى وكان ذلك عام ١٩٥٨ وكنت نقيبا لم يكن ثمة ترتيب خلال هذه الدورة بل تقديرات فحسب ، امتياز - جيد جدا - جيد ، وكان تقدير السوريين على الدوام امتياز . »

وفى الكلية كان حافظ الأسد الطالب المستجد يواجه الصعاب والمشاكل فقط لأنه بعضى ، ولكنه كان ينفذ الأوامر ويحترم التسلسل إنما لم يكن يتوانى عن اتخاذ موقف ينبع من الاعتزاز بالنفس حتى أن أحدهم قد استغرب قبول شخص مثل حافظ الأسد فى الكلية . فى حين أن هناك تقارير تفيد بأنه بعضى .

■ فارس بنى عراب ■

« الواقع أن كل من كان يقول بضرورة وضع حد للاستغلال وضمان المساواة بين المواطنين كان يعد محرضاً أو مشاعباً في نظر السلطات العسكرية » .

أما البعثي مصطفى طلاس فإنه تخرج ضابطاً في سلاح المدرعات بالاضافة لكونه تدرب على الفروسية ليمثلها ويشترك ببعض البطولات باسمها ، ومن المعروف أن العماد مصطفى طلاس ترك الكلية الجوية ليلتحق بالكلية العسكرية في حمص وذلك لعصبية مزاجه على حد قوله وهذا ما لا يتناسب مع مهنة ووضع الطيار فكان أن تخرج في سلاح المدرعات عام ١٩٥٤ وفي عام ١٩٥٥ اجتاز دورة في الهندسة العسكرية في « قطنا » .

وفي العام ١٩٥٥ أيضاً ، تخرج الطيار حافظ الأسد ... في الكلية الجوية برتبة ملازم في سلاح الجو ، وقد أخذ مكانه كطيار مقاتل في مطار « المزة » القريب من دمشق ، وأخذ صديقه مصطفى طلاس مكانه كقائد فصيلة في الكتيبة المدرعة الثانية .

وكان حافظ الأسد ومصطفى طلاس ورفاقهما البعثيون العسكريون يعتقدون اللقاءات في نادي ضباط دمشق .

وقد انتدب الرئيس حافظ الأسد للخدمة في أحد أسراب القتال الليلي في القاهرة خلال الوحدة بين مصر وسوريا ، وفي عام ١٩٥٨ تزوج النقيب حافظ الأسد من ابنة عمته السيدة أنيسة مخلوف وهي من قرية بستان الباشا ، وقد تلقت دراستها في مدرسة « القلب الاقدس » في « بانياس » وقد أثمر هذا الزواج خمسة أولاد ، هم :

بشرى (١٩٦٠) خريجة الصيدلة ، باسل (١٩٦٢) أصبح مهندساً مدنياً ومن ثم ضابطاً ، وبشار (١٩٦٥) أصبح طبيباً ، مجد (١٩٦٧) خريج تجارة ، ماهر (١٩٦٨) مهندس ميكانيكي ، وفي مصر التي كانت تشكل الاقليم الجنوبي للجمهورية العربية المتحدة التقى النقيب حافظ الأسد بالنقيب مصطفى طلاس مرة أخرى حيث كانا ضمن المجموعة التي اختارها المقدم مصطفى حمدون ، وقد قام حافظ الأسد مع بعض الضباط السوريين بتشكيل لجنة عسكرية كان لها دورها البارز في الاعداد وتنفيذ ثورة آذار مارس عام ١٩٦٣ . ذلك أنهم على إثر الانقلاب العسكري ، الذي استهدف فض الوحدة بين مصر وسوريا في ٢٨ (ايلول) سبتمبر ١٩٦١ رفضوا تقويض الوحدة ، وطلبوا من القيادة المصرية العودة إلى سوريا ليعيدوا هذه الوحدة من جديد ، ولكن هذا الطلب أجيب بالرفض ، واعتقل الضباط البعثيون ، وكان من بينهم الرئيس حافظ الأسد الذي اعتقل في سجن أبي زعبل لمدة ٤٤ يوماً ، وكان يشغل منصب المسئول عن مطار القاهرة العسكري على طريق الاسماعيلية ، وكان العماد مصطفى طلاس رئيساً لأركان كتيبة مدرعة في الاسماعيلية والقاهرة ثم في سيناء .

■ الفصل الأول

على الجانب الآخر وبعد الانفصال قامت السلطة الانفصالية بتسريح مجموعة من الضباط من بينهم الضباط السوريون البعثيون الذين كانوا موجودين في مصر أثناء وبعد الانفصال بتهمة الناصرية ونقل هؤلاء الضباط إلى وظائف مدنية ، والرئيس حافظ الأسد نقل إلى إدارة النقل بوزارة الاقتصاد والعماد طلاس عين مفتشا في وزارة التموين .

ويتحدث العماد مصطفى طلاس عن هذه المرحلة التي تلت وجودهم في وظائف مدنية وحول حركة ٢٨ مارس آذار عام ١٩٦٢ فيقول : لم يترأس حافظ الأسد هذه الحركة احتراماً منه للتسلسل العسكري ، ومن المعروف أن هذه الحركة قام بها عسكريون بعثيون ، وناصريون بهدف قلب نظام الحكم ، وقد شارك فيها الرئيس حافظ الأسد والعماد مصطفى طلاس ، وكانت هذه الحركة بقيادة العميد لؤي الاتاسي والعقيد جاسم علوان والمقدم محمد عمران ، ولكن هذه الحركة فشلت ... الأمر الذي دفع حافظ الأسد وصلاح جليل إلى السفر إلى طرطوس ثم إلى لبنان ، ولكنهما اعتقلا وسجنا ٩ أيام في بيروت ثم انتقلا إلى سجن المزة حيث التقيا بالعماد طلاس وغيره ، وبعد إطلاق سراحه قامت ثورة الثامن من آذار (مارس) عام ١٩٦٣ ويعود أولئك الضباط الذين التحقوا بوظائف مدنية والذين سرحوا من الجيش ، ويصبح حافظ الأسد برتبة مقدم طيار ، ويعهد إليه بقيادة اللواء الجوي السابع في مطار « الضمير » ، ويعود مصطفى طلاس برتبة رائد إلى صفوف الجيش ، ولم تكن ثورة آذار لتتم بسهولة فقد كانت ثمرة تخطيط دقيق حتى وصلت إلى مرحلة التنفيذ وتثبيت الثورة وقد وضع الأسد كل إمكانياته من أجل نجاح هذه الثورة ، وبذلك عندما كان عضواً في القيادة القطرية ، والقيادة القومية جهداً كبيراً لتحقيق الوحدة الوطنية .

تجدر الإشارة أيضاً إلى أنه بعد اقضاء ميشيل عفلق الذي كان من مؤسسي حزب البعث عن الأمانة العامة شغل أمين الحافظ منصب الأمين العام وشغل اللواء صلاح جديد منصب الأمين العام المساعد .

وقد أوقف أمين الحافظ كل جهده على احتكار السلطة ضارباً عرض الحائط بكل مبادئ البعث ، الأمر الذي انعكس على كل الأمور الداخلية والخارجية ، ومن أجل تغيير هذا المسار والوصول إلى مسار صحيح قامت مجموعة مؤلفة من حافظ الأسد وعبد الكريم الجندي ومصطفى طلاس وصلاح جديد وسليم حاطوم بعزل القيادة اليمينية ، وغادر ميشيل عفلق البلاد ، وتمت حركة ٢٣ فبراير شباط ١٩٦٦ بنجاح .

وكان طبيعياً بعد نجاح هذه الحركة أن يبذل القائمون عليها جهوداً ضخمة من أجل استقطاب الجماهير والمضي في بناء مجتمع جديد يغيرون به وجه المجتمع الاقطاعي

■ فارس بنى يهرب ■

البرجوازي ووضعت حركة ٢٣ فبراير شباط عام ١٩٦٦ على رأس أهدافها تسخير كل الامكانيات ووضعها في خدمة القضية الفلسطينية ، ولقد لقيت هذه الحركة تأييدا واسعا من مختلف هيئات الحزب والشعب طلابا وعمالا وفلاحين ومتقنين وحرفيين .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المدنيين وفي مقدمتهم المحامي عبدالحليم خدام (الذي أصبح نائبا لرئيس الجمهورية) والمدرس عبدالله الأحمر كان لهم دور في حركة شباط ، وقبل أن تبدأ مرحلة السير الجديد والبعيد عن النزاعات والخلافات قام سليم حاطوم يساعده أعضاء قدامى في حزب البعث بعملية انقلابية خطط لها على أساس دعوة الرئيس نور الدين الاتاسي ، وصلاح جديد لمادبة غداء في السويداء ، ولكن الرئيس حافظ الأسد وبالتعاون مع العماد مصطفى طلاس أحبطا هذه المؤامرة وبدأت مرحلة جديدة كما سيلي ، وفي ١٦ نوفمبر تشرين الثاني عام ١٩٧٠ قاد الرئيس حافظ الأسد الحركة التصحيحية، وفي ١٢ مارس آذار عام ١٩٧١ انتخب رئيسا للجمهورية ، وفي ١٤ مايو (أيار) ١٩٧١ اجتمعت القيادة القطرية وانتخب الرئيس الأسد رئيسا وأميناً قطريا ، وفي النصف الثاني من شهر (آب) أغسطس ١٩٧١ انتخب أميناً عاما لحزب البعث العربي الاشتراكي ، وفي ٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ قاد حرب التحرير المجيدة وهي الحرب التي قضت على أسطورة التفوق الاسرائيلي والجيش الذي لايقهر وأعادت للامة العربية كرامتها وعزتها ، وقد تجدد اختياره رئيسا للبلاد .

عوامل النصر

□□ الذين تابعوا وعاصروا خطوات الرئيس حافظ الأسد ومواقفه منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية الرسمية باللاذقية مع مطلع الاربعينات ثم عاصروه خلال الحرب العالمية الثانية وتابعوا مراحل نضاله ضد الاستعمار الفرنسي لسورية ، حيث قاد وشارك في المظاهرات المناهضة للاحتلال بكل الشجاعة والاقدام ، وفي كل النشاطات التي أدت لجلاء الاحتلال عام ١٩٤٥ ، هؤلاء يؤكدون أن الطالب حافظ الأسد وهو يقود هذه المظاهرات لم يكن يملك أى سلاح سوى الايمان بعائلة القضايا العربية واستعداده الدائم للتضحية بحياته في سبيلها، وفي عام ١٩٤٦ عندما انضم إلى حزب البعث العربي الاشتراكي وخاض نضالا في صفوف هذا الحزب معارضا الأنظمة السياسية القديمة .. لم يكن يملك سوى حصافة الرأي والشجاعة على الجهر به والعمل من أجل تحقيقه ، والذين عايشوا مشوار دراسته حتى حصوله على شهادة البكالوريا (القسم العلمي من ثانوية اللاذقية) إلى أن أصبح طالبا في الاكاديمية العسكرية عام ١٩٥٢ (الاكاديمية الجوية) يؤكدون أن ترقيته السريعة تعود إلى قدرته النادرة على الاستيعاب والفهم والمشاركة بالرأي ، الأمر الذي جعله يحصل على الجائزة الممتازة في الطيران الليلى خلال العامين

■ الفصل الأول

التاليين لترقيته الى رتبة الملازم للطيران في بداية عام ١٩٥٥ وهما العمان اللذان قضاهما في الاكاديمية الجوية حتى حصل على ترقية في الاكرويات الجوية ، وكان تفانى الطالب حافظ الاسد في العمل والتدريب والتحاقه بالدورات العسكرية ، وطيران الهجوم وراء ايفاده في بعثات دراسية الى الخارج حتى حصل على تقدير الشرف في قيادة السرب عام ١٩٥٩ ودبلوم القيادة في مجال الطيران عام ١٩٦٤ .

الأسرة...

والرئيس حافظ الأسد هو خامس أبناء السيد علي الأسد، وكان شأن أخوته وأخواته متعاشا للمعرفة ، وحفظ ربع سور القرآن الكريم وهو في السادسة من عمره ، وقد ترشح والده المرحوم علي سليمان الأسد للانتخابات في الثلاثينات ، ويعتز أبناؤه بأنه غرس فيهم الفروسية وحب التضحية والتعش للمعرفة ، أما والدته فهي السيدة ناعسة وقد توفيت في شهر يوليو / تموز عام ١٩٩٢ وقد كان لها فضل كبير على الرئيس حافظ الأسد ، وقد كان لوفاة المرحومة السيدة ناعسة والدة الرئيس الأسد أثر كبير عند الرئيس حافظ الأسد لأنها كانت النبع القومي الذي نهل منه - على حد تعبير الصحفي الكبير وليد عوض - رحيق العزة والشموخ والعنفوان ، واستمد منه معاني الشجاعة والباس والبطولة ، والام التي تنجب عظيما مخلدة بين العظيمات ، ويكلها شعر أبي الطيب المتبنى في رثاء أم سيف الدولة الحمداني :

ولو كان النساء كمن فقدن لفضلت النساء على الرجال

وكان لدى والد الرئيس الاسد بعض الاملاك في قريته ، وكان حافظ الأسد هو الوحيد من بين ذويه الذي تنازل عن حصته في الميراث للشعب بعد أن أضحى رجل دولة، أما أخوه الاكبر والملقب أبو توفيق والذي هو أسن من الرئيس الاسد بسبعة عشر عاما فمازال يستثمر أرضه ، ومازال العمل في الحقول يؤلف جوهر حياته ، ومازال يعيش على النمط نفسه وهو يفضل البقاء في الحقل على الانتقال إلى العاصمة ، ولا تستهويه السياسة .

أوجه أخرى للتشابه

□□ وكما اشتهر صلاح الدين الأيوبي في تفانيه في اصلاح احوال المسلمين ، والدفاع عن بلادهم ، إلى جانب شهرته في فعل الخير ، والاحسان إلى الفقراء ، كذلك كان حافظ الاسد يوم أجبر على الابتعاد عن الجيش في ٢ ديسمبر كانون الأول ١٩٦١ إلى وظيفة مدنية في أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ بسبب موقفه الرافض للانفصال البغيض ، ولأنه

■ فارس بنى يعرب ■

المدافع عن وحدة مصر وسوريا كخطوة ومقدمة لعمل وحدوى أكبر وأشمل ، خلال هذه الفترة ساهم حافظ الأسد بدور لازالت تفاصيله في طى الكتمان ، من أجل الدفاع عن أحوال الوحدات وأسره من ذوى الدخول المحدود ، ومساندتهم وخاصة من تعرضوا لظروف القهر ، بسبب مواقفهم الوحدوية الأصيلة ، كما أن الدور الذى قام به الرئيس حافظ الأسد في النضال لقلب نظام الحكم الانفصالي كان دورا رئيسيا وكان في مقدمة من سعوا إلى تسلم إحدى القيادات الأساسية للمنظمة السرية التى قادت ثورة ٨ آذار (مارس) ١٩٦٣ وكان عضوا في اللجنة العسكرية التى تولت قيادة القوات المسلحة على مستوى الحزب والجيش .

وكان من المتقدمين البارزين في قيادة حركة شباط (فبراير) عام ١٩٦٦ التى أبعدت عن الحزب الاتجاه اليميني ، ولقد شغل الرئيس حافظ الأسد العديد من المناصب التى صعد اليها بكفاءته وخبرته النادرة من بينها قائد سرب جوى ثم قائد فرقة جوية ، وقائد قاعدة جوية ، وفي ١ تموز (يوليو) ١٩٦٨ رقى لمنصب فريق وقائد منصب قائد القوات الجوية والدفاع الجوى ، وفي ٢٣ شباط (فبراير) تولى منصب وزير الدفاع بالإضافة لمهامه كقائد للقوات الجوية ، ثم تقلد - كما أسلفت الإشارة - منصب فريق في الجيش في أول تموز (يوليو) ١٩٦٨ ، وفي ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ شكل الرئيس حافظ الأسد وزارة ائتلافية واحتفظ بوزارة الدفاع ، وفي ٢١ آذار (مارس) ١٩٧١ انتخب رئيسا للدولة بعد استفتاء شعبي وفي ١٤ أيار (مايو) ١٩٧١ انتخب بالاجماع أمينا عاما قطريا للحزب ، وفي النصف الثاني من آب (أغسطس) عام ١٩٧١ انتخب أمينا عاما للحزب في فترة أعمال المؤتمر القومى الحادى عشر .



□□ وإذا جئنا إلى الحقائق التاريخية والموضوعية ، فإنها تقول أنه منذ انتهاء الدولة الأموية في الشام ، وقيام الدولة العباسية ، لم تعرف دمشق ، مجدها وعزها السابق ، كما عرفته في عهد الرئيس حافظ الأسد ، بل ولا نبأ إذا قلنا أنه منذ قرابة ألف عام لم يحكم دمشق إنسان من أصل عربى سوى حافظ الأسد ... حقيقة أن الحكام الذين سبقوه كانوا سوريين ولكنهم كانوا من أصول مختلفة .. وعندما نقول أن الرئيس حافظ الأسد هو فارس بنى يعرب ، فلانه يعرف أبعاد هذا التاريخ باعتباره تاريخا قوميا لا أثر فيه للأجانب على الإطلاق ، وكان ذا أبعاد حضارية ، بحيث أن هذه الدولة القومية التى كانت دمشق منطلقها قد جعلت من الخلافة الإسلامية أرضا ممتدة من الصين إلى الاندلس ، وسلموها فيما بعد إلى العباسيين لكى يستطيعوا أن يتمتعوا بنعمة التفاعل الثقافى الإسلامى ، وتأتى في مرحلة العباسيين مرحلة الإبداع الثقافى والحضارى الذى تمثل في عهد الخليفة المأمون ، ولكن بكل أسف بعد تفتت الدولة العباسية وقيام

■ الفصل الأول

حكم الامارات والدويلات وما إلى ذلك .. فإن دمشق لم تعرف تواملا بين تاريخها الحديث وتاريخها القديم إلا في عهد الرئيس حافظ الأسد .

ومواقف حافظ الأسد كما سيلي استمرار للتاريخ الاموى بكل ما فيه من فروسية وشجاعة واقدام . وإذا كانت « حطين » هي موقعة الشرف في فلسطين تحت قيادة صلاح الدين ، فإن حطين في السياسة الآن هي قضية فلسطين التي لأوراقها في مفاوضات السلام صليل السيوف ، والعين السورية في منتهى اليقظة ، ضد أى استفزاز أو صلح منفرد ، وعند مكتب الرئيس حافظ الأسد داخل قصر الرئاسة في حى المهاجرين لوحة تحمل رسم القائد التاريخى البطل صلاح الدين الأيوبي وموقعة حطين في قلب فلسطين ، وتشاء الأقدار أن يكون الرئيس الأسد في هذه المرحلة من تاريخ العرب فارس يوم حطين ، حيث للقضية الفلسطينية كل الأوراق وكل الاهتمام .

التاريخ لا تحركه الصدفة

□□ التاريخ لا تصنعه الصدفة ، وهو - أى التاريخ - حكمة الأجيال ، وذاكرة الأمم ، ومعلمها ، ومرشدها ، وفي سباق التطور الانسانى هناك لحظات تاريخية ، تسمح عادة بتجميع عناصر كثيرة ، وبلورة موقف معين ، حتى بغض النظر ، عن مدى توافر العناصر الموضوعية .. إذ تتجمع امكانيات وعناصر قوة خاصة تتجلى فيها عبقریات الأمم وقواها الكامنة وأصالتها العريقة ، لتحدث تحولا معينا ، وهذا ما حدث في تاريخ الأمة العربية في موقعة حطين عام (٥٨٤ هـ) وفي موقعة عين جالوت (١٢٦٠ م) وفي حرب أكتوبر العظيمة (١٩٧٣) ، وكلها ومضات مشرقة في تاريخ الأمة العربية ،

لقد كانت موقعة حطين معركة التحرير الكبرى للأرض العربية كلها ، وجاءت تلك المعركة كراية على طريق فتح القدس ، ولقد تم الفتح ، وفي هذا يقول المؤرخ (سستيني بول) « لو أن الاستيلاء على القدس كان الحقيقة الوحيدة التي نعرفها عن صلاح الدين لكانت حقيقة تكفى للدلالة على أن هذا السلطان كان أنبل الفاتحين وأكرمهم في عصره وربما في أى عصر آخر » .

وبدخول العرب مدينتهم القدس وهم يكبرون ويهللون ، واندفعوا إلى المسجد الأقصى يطهرونه ويفسلون بلاطه بماء الورد ، وأقاموا صلاة الجمعة فكانت صلاة الفتح ، ثم جاء ملوك الصليبيين وبركعوا أمام البطل صلاح الدين .

إن الخارطة العربية التي رسمها صلاح الدين في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة - النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد - تؤكد تلك الحقيقة التي لم يعل الرئيس حافظ الأسد من تكرارها ، والتي تقول على الرغم من مرور ما يقرب من ثمانية

■ فارس بنى عرب ■

قرون « ان وحدة الامة العربية ، ووحدة النضال العربى . هما وحدهما الطريق الى تحرير الأرض العربية من الحملة الصليبية الجديدة ممثلة بالاستعمار الاستيطانى الصهيونى » ، وتلك الخارطة الواحدة للامة العربية التى رسمها القائد العربى بحد سيفه تؤكد للمرة الثانية الدور التاريخى الذى شغله الجيش العربى الموحد فى دحر الهجمة الصليبية الباغية ، وهو ما يؤكد عليه الرئيس حافظ الأسد عندما يقول : « ان وحدة الجيوش العربية هى وحدها طريق الخلاص ، وهذه الحقيقة تضع المسئوليات التاريخية الكبرى على عاتق الذين يتصدون للعمل العربى الموحد » .

ان مفاتيح القدس لن يقوم الصهاينة بتسليمها ، ولن يلقوا بها فوق الاسوار ، ان الامة العربية المجيدة التى اعطت يوم الفتح ويوم حطين تستطيع ان تعطى يوما جديدا تحت راية العمل العربى الموحد .

وإذا كنا نستعيد من حين لآخر ذكرى حطين المجيدة وانتصارات القائد الكبير صلاح الدين على الطغمة الصليبية المتعصبة فلا بد أن نعتد الوحدة العسكرية كما يقول الرئيس الأسد ، إذ لا قيمة لاي انجازات ما لم تحرسها قوة عسكرية رادعة ، ولقد أكدت التجارب التى مر بها الوطن العربى صدق مقولة الرئيس الأسد بأن أول ما يلزمنا هو توفير الوسائل للدفاع عن أنفسنا ضد الخطر الصهيونى ، ذلك أنه رغم أن هذا الخطر الصهيونى ليس هو الخطر الوحيد ، إلا أنه الخطر المباشر الذى سيستمر فى تهديد الامة العربية حتى نتمكن من مجابهته ، ولذلك فإن الانطلاق من وضع الاسس السليمة لدفع هذا الخطر فى ظروف عجز البلاد العربية منفردة عن مواجهته ، قد يكون المقدمة الصحيحة للاقترب من تحقيق الوحدة العربية .

استيعاب عميق لحقائق التاريخ

ولعل إيمان الرئيس حافظ الأسد العميق ، بأهمية دراسة التاريخ ومجرياته وما أسفرت عنه الأحداث المختلفة من نتائج أثرت فى كيان المجتمع العربى ، ساعده كثيرا على فهم واستشراف ما يمكن أن يكون عليه الحال فى المستقبل ، ولم يعمل الرئيس حافظ الأسد منذ أن تولى قيادة الشقيقة سورية من التنبيه - خاصة إذا كان حديثه إلى الشباب - إلى ضرورة استقراء التاريخ وتفهم الأحداث من حيث أسبابها ونتائجها واستخلاص العظات والعبر منها ، وهو يؤكد دائما أنه « قد أن لكل عربى أن يعرف تاريخ وطنه الكبير الذى يعيش فيه وينتسب اليه ، وأن يلم بكل ما يتعلق به حتى يتسنى لنا جميعا معالجة الأوضاع الفاسدة وإزالة رواسب الماضى الضارة ، ونرسم سياسة واحدة موحدة لمستقبل كريم نرضاه لأنفسنا حتى نلحق بركب الحضارة ونجابه الأحداث ونمشى فى ركاب الزمن مع المجتمعات الأخرى على قدم المساواة ، فلا تبعية ولا استعمار .

■ الفصل الأول

الذين تابعوا الأيام الأولى التي تلت الحركة التصحيحية لاحظوا أن كل خطابات الرئيس الأسد كانت تركز دائما على ضرورة أن يعرف شباب الأمة العربية - وهم رجالها في الغد - وعدتها في المستقبل ومعقد رجائها ومستقر آمالها - تاريخ أمتهم ، وكل ظروفها وأحوالها في حقب التاريخ المختلفة حتى يستبين ما كانت عليه وما آلت اليه ، ويقفوا على أسباب أمجادها القديمة ، ويدركوا العلة في زوال هذه الأمجاد وتفكك الأمة وانهارها ، ويشهدوا ويسهموا في البعث العربي الجديد ، والوثبة العظيمة نحو استعادة أمجاد الماضي ودفع الأمة قدما إلى الأمام لكي تصل إلى ما سبقنا إليه الآخرون ، وتتبوأ امتنا العربية مكانها الذي يليق بها وبعراقتها بين الأمم الأخرى المتحضرة .

كان الرئيس الأسد يرى بنظرته الحكيمة أن العصر الذي نعيش فيه يجرى مسرعا في سباق الأجيال وتحقيق الآمال إلى المثل العليا للإنسانية حسبما يتصور تلك المثل ، وأنه إذا تأخرت أمة من الأمم جيلا عن العالم فإنها تصل إلى مصير اليم ويصعب عليها اللحاق بالآخرين .

وكان أكثر ما يلح عليه الرئيس حافظ الأسد في بداية توليه المسؤولية ضرورة التحرر من روح التشاؤم واليأس في نفوس الأمة ، وهى الروح التي عمل الاستعمار الذي جثم على صدر المنطقة على اشاعتها ، لأن اليأس إذا سيطر وشاع في النفوس وتكونت عقليات الشباب وعواطفهم ، وهم على هذا الوضع فإنهم يشبون مرضى النفوس ، مفككى العزائم تقعد بهم همهم عن أن يكونوا جندا صالحين لخير الوطن ، وإذا فقد الوطن فيلقا من فيالق الشباب ، فهو يفقد في الواقع جيلا من أجيال العمر .

وكان الرئيس حافظ الأسد ولايزال يبشر بأهمية التفاؤل المرتبط بالعزم والتصميم ، انطلاقا من اقتناع له ما يسوغه ، بأنه ليس هناك اقتل من التشاؤم إذا شاع في نفس شعب ناهض وهو يبعث على اليأس ، ويفتك بالرجاء ، وإذا سيطر اليأس وتسلبت فترت الهمة وخمدت نار الحماسة المشبوبة ، وتخاذل الشباب وتناثر عقدهم كأنما حلت بهم الهزيمة في معترك الحياة ، فيجب إذن على الشباب - كما يرى الرئيس الأسد - أن يقاوم ويكافح روح التشاؤم وأن يعمل على تخلص وطنه من عوامل تأخره وأسباب ضعفه ولا يكون ذلك كما يقول الرئيس الأسد : « إلا بالعلم واستكناه حقائق التاريخ والاستفادة من التجارب التي هرت بنا » .

وإذا كان الرئيس الأسد قد أدرك وفي وقت مبكر حقيقة الأسباب التي باعدت بين أبناء الأمة العربية وبين رسالتهم وقوميتهم وخنقت امكانياتهم الهائلة ، فلقد كان أول ما ركز عليه ولا يزال التأكيد بأن طاقة الأمة العربية التي انطلقت منذ قرون لتحقيق ذاتها وتؤدي رسالتها وتستخدم امكانياتها ، هذه الطاقة لم تفقد حيويتها وروحها ولم تطفئ

■ فارس بنى عريب ■

شعلتها ، ومن هنا كان إيمانه العميق وكانت دعوته التي بشر بها بأن القومية العربية ستظل دائما الطريق الصاعد بالمجتمع العربي نحو الرفاهية والرخاء والتحرر من ربقة الاستعمار ، وهي الصخرة العاتية التي ستتحطم عليها الصهيونية التي اغتصبت واغتالت أجزاء غالية من الوطن العربي وتعمل على ابتلاع المزيد .

التلازم بين القوة والوحدة

ولقد كان إيمان الرئيس القائد حافظ الأسد ولا يزال - كما يستفاد من تأمل خطابه وأحاديثه - أن التلازم بين القوة والوحدة أبرز معالم التاريخ العربي قديمه ووسيطه وحديثه ، فما من مرة تحققت الوحدة في هذه المنطقة التي نعيش فيها الا تبعتها القوة ، وما من مرة توافرت فيها القوة إلا وكانت الوحدة نتيجة طبيعية لها . وفي هذا يقول الرئيس الأسد : (ولقد كان الكفاح على مر السنين من أجل القوة هو بذاته الكفاح من أجل الوحدة ومن أجل الحياة) .

ومن خلال فهم عميق لواقع الحال وإيمان غير محدود بالمستقبل يردد الرئيس الأسد دائما : (إن الركب رغم كل الصعاب يسير ، ورغم العواقب والعثرات لابد أن يحقق الهدف ويؤدي الرسالة) .

ولا تقتصر أوجه الشبه بين الناصر صلاح الدين والقائد حافظ الأسد على النواحي التي أشرنا إليها ، وإنما تمتد لتشمل نواحي أخرى عديدة يأتي في مقدمتها تفانيهما في العطف على جميع الناس بدون استثناء وبغير اعتبار للجنس أو الدين أو اللون ، يكفي أن نسوق بعض الروايات من تاريخ كل منهما الحافل بجلائل الأعمال وجليل السجايا والخصال .

كان البطل صلاح الدين الأيوبي جالسا يوما في خيمته وهو ببلاد الشام يحكم بين الناس ، فوقفت بباب الخيمة سيدة مسيحية تصيح والحزن يخنق صوتها ، حتى ارتمت على الأرض فأبعدها الحراس عن باب الخيمة التي يوجد داخلها صلاح الدين ، وما أن سمع صوتها حتى أمر على الفور بإدخالها ، ولما مثلت بين يديه سألتها : ماذا أصابك أيتها السيدة ؟

فأجابت وهي حزينة باكية .. لقد اختطف اللصوص ابنتي ، وأسر زوجي من طرف الجيش الاسلامي وهو الذي ينفق علينا ، فتألم صلاح الدين لحالها وأمر في الحال بإطلاق سراح زوجها من بين الأسرى الموجودين في قبضة المسلمين ، ثم أشار على جنوده بالبحث عن الابنة المسروقة ، وأحضروها إلى أمها وفرحت بها وتحولت من حزن وتعاسة الى حبور ومسرة ولم تخف هذه السيدة شدة فرحتها وانطلقت تمتدح هذا القائد المسلم الذي لا يعرف التمييز بين الناس بسبب اختلاف أديانهم ، وأخذت تدعوه بصالح الدعاء ،

■ الفصل الأول

فقال صلاح الدين : نحن لم نفعل أيتها السيدة إلا ما أمرنا به ديننا الاسلامي الحنيف ، فالاسلام رحمة للناس جميعا .

هذا النموذج، نموذج حرص القائد على عدم التمييز بين الناس بسبب اختلافاتهم الدينية

وقد أوضحه الرئيس حافظ الأسد في سياق خطاب ألقاه في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٧٦ : (لقد رأيت كل قناع قد سقط ، فالأمر ليس كما كان يقال لنا .. الأمر ليس بين يمين ويسار .. بين تقدمي ورجعي .. بين مسلم ومسيحي ، المسألة هي مسألة ثار وانتقام ، تعود إلى ١٤٠ سنة ، وأنا ضد هذا التوجه ، لأن الاسلام محبة وعدل وليس كراهية وبغضاء ، وإذا كنت سأطلق من كوني ثائرا ، فالثورة عدل للجميع ... الثورة ضد الظلم ، الثورة اصلاح وتصليح .. الثائر لا يرفع الظلم عن نفسه ليقع به الآخرون وانما يرفع الظلم عنه وعن الآخرين ، هكذا الثائر ، وهكذا المسلم ، والمسلم الحقيقي هو الثائر الحقيقي ، والاسلام هو الثورة الكبرى في تاريخ امتنا العربية ، وفي تاريخ البشرية .

مثال آخر يؤكد الفهم الحقيقي لرسالة الاسلام وقيمه ومبادئه عندما جاء مندوب البابا يقول للرئيس حافظ الأسد : إن المسيحيين في لبنان يجب أن يكونوا تحت الوصاية البابوية ، أوضح له الرئيس حافظ الأسد في بساطة هي أقوى من كل فلسفة وحذقة وتعقيد : إن المسيحيين هم عرب من أقدم العصور ، حتى السيد المسيح عاش هنا ومعظم السوريين كانوا يدينون بالمسيحية حتى جاء الاسلام ، ولقد استقبل المسيحيون المسلمين كأولاد عمومة وفضلوهم على الرومان أبناء دينهم ، والمسيحي العربي لا يقبل وصايتكم ، ونحن نؤكد بالقول وبالفعل أن لهم مالنا وعليهم ما علينا ، ولذلك فنحن لا نقبل أن تحدثونا وكأننا في موقف التعارض مع المسيحية ، بالعكس نحن نرى أن العرب المسيحيين ساهموا في صنع الحضارة العربية جنبا إلى جنب مع اخوانهم المسلمين ، وبعد نقاش طويل اقتنع مندوب البابا بصراحة وموضوعية الرئيس

الأسد ، ووجد البابا مصداقية كلام الرئيس الأسد على الواقع . وإذا كانت معركة حطين قد أظهرت صلاح الدين الأيوبي كقائد مسلم يتعامل مع الأديان الأخرى بسماحة وعدل ورحمة . فلقد اكتشف صلاح الدين في وقت مبكر أن الغزو الصليبي هو غزو استعماري ظاهره ديني وباطنه استعماري ، ولقد ساعده هذا الفهم العميق على تحرير بيت المقدس ، ثم انطلق بعد ذلك بعدائه وحكمته للمفاوضة مع أعدائه ، وهي المفاوضات التي تمت مع ريتشارد قلب الأسد بعد تحرير بيت المقدس ، وبالمنطق نفسه فهم الرئيس حافظ الأسد طبيعة المعركة مع اسرائيل وتصدي لدعايتها المضللة مؤكدا بأننا (لسنا ضد اليهودية كدين على الإطلاق بل أننا نحترم

■ فارس بنى يعرب ■

الديانة اليهودية ، لأن اليهود عاشوا معنا منذ القدم سواء قبل الاسلام أو بعده ، وكان لهم مالنا وعليهم ما علينا ، ولكننا ضد الصهيونية ، وضد العدوان الاسرائيلي الذي تمارسه السياسة الاسرائيلية والصهيونية على الأرض العربية بمنطق يجافي العصر وهو منطق التوراة الذي يقول : يجب أن تحقق دولة اسرائيل وفقا للمنطق التوراتي وعلى أساس ديني تعصبي ، وهو أمر لا يقره حتى الدين اليهودي الذي جاء به موسى ، والذي حرقه الحاخامات ، وفي سورية مكتشفات أثرية تخالف الوقائع التي يزعم اليهود أنها صحيحة لأن هذه المكتشفات موجودة قبل التاريخ اليهودي ...

وعندما يشبه الكثيرون الرئيس حافظ الأسد بالناصر صلاح الدين فإن مرجع هذا التشبيه يعود أيضا إلى أن كلا منهما يمثل القيم الانسانية في عدالة القضايا التي يؤمن بها ، ويعتقد الرئيس حافظ الأسد تماما أن الاسلام هو الذي يجعلنا نحافظ على وجودنا دون ممارسة التعصب والاستعلاء ، وكما كان يعتقد صلاح الدين الايوبي بأن الحروب الصليبية كانت حروبا استعمارية .. فإن الرئيس الأسد يؤمن بأن الاحتلال الاسرائيلي هو مصدر من مصادر الاستعمار في الأراضي العربية ، جاء ليقوم بدور الحارس للمصالح الغربية ، وخاصة بعد ظهور البترول ، ويؤمن الرئيس حافظ الأسد بأن الحق لا يمكن أن يهزم ، ولو طال أمد النضال في سبيل استرداد هذا الحق . لقد عاش الصليبيون بيننا عشرات السنين ومع ذلك استطاع العرب أن يقضوا عليهم لأن هذا منطق الحق ، وكذلك فإن الصهيونية لا يمكن أن تبقى قوية إلى ما لا نهاية لأن الأقوياء في التاريخ والذين لم يساندوا قوتهم بالحق قد زالوا ولم يبق غير منطق الحق .

وكثيرا ما أشار الرئيس حافظ الأسد إلى أن الجنرال غورو ، عندما احتل سورية أسرع إلى ضريح صلاح الدين الايوبي وقال : (لقد عدنا يا صلاح الدين) ومعنى ذلك أن الغرب الاستعماري ما زال ينظر إلى منطقتنا بنظرة الحروب الصليبية ، وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نقنع الآخرين . كما يقول الرئيس الأسد: إننا لا نريد للمجتمعات الأخرى الأذى ، وانما نريد أن يشعر الآخرون بأننا جزء من الانسانية التي تطالب بالسلام القائم على الحق .

فارس بنى يعرب

وإذا كانت الدولة الأموية ، دولة عربية صميمة ، اعتزت بالعروبة ، وعملت من أجلها ، وكانت غالبية الساسة والقادة وجنود الجيش الأموي من أصل عربي ، فدولة بنى أمية أرساها العرب وحكمها العرب وسادتها نظم عربية في مختلف المجالات واصطبغ كل شيء فيها بالصبغة العربية ، شهدت هذه الفترة اصلاحات مالية وإدارية ، وقامت منشآت وأثار معمارية ، لايزال بعضها قائما إلى وقتنا الحاضر ، كذلك فإن هذه الدولة نظمت

■ الفصل الأول

الجيوش والأساطيل وازالت الحواجز التي كانت تفصل بين العرب وغير العرب ، واستمرت روح دولة بنى أمية تقدم الفرسان الشجعان الذين حققوا نهضة شملت مختلف جوانب الحياة ، ومنهم الرئيس حافظ الأسد ، وهو بحق فارس بنى يعرب .

ويبقى أن نشير أيضا إلى أن الرئيس حافظ الأسد بتكوينه وثقافته وتربيته ينتمي إلى التيار القومي والعربي ، ولذلك فإنه لم يفصل في وقت من الأوقات بين المصالح الوطنية السورية العليا وبين المصالح القومية العربية العليا ..

لقد نجح حافظ الأسد في أن يحول سورية إلى دولة إقليمية كبرى بمعنى أنها أصبحت دولة قادرة على الفعل والتأثير وبدون سورية لا يمكن عمل أى شيء لأن سورية لها دور فاعل ومؤثر في تقرير مصير المنطقة ، وقبل حافظ الأسد - كما يقول أحد الكتاب البريطانيين - كانت سورية أرضا يجرى عليها الصراع ، مع حافظ الأسد أصبحت سورية دولة تشارك في هذا الصراع ، وحافظ الأسد لا يفصل بين ما هو وطني ، وبين ما هو قومي وهو يعتبر سورية جزءا لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير الذى يمتد من المحيط إلى الخليج ، ويعتبر الشعب السوري جزءا لا يتجزأ من أمة عربية واحدة تحمل خصائص واحدة : تاريخا واحدا .. تتكلم لغة واحدة ولها ثقافة واحدة وبالتالي تملك من مقومات الوحدة ما لاتملكه أية أمة على وجه الأرض ، ولقد تحدث الرئيس حافظ الأسد مرارا حول ما يجمع الأمة العربية من روابط الثقافة واللغة والتاريخ ، لذلك نلاحظ دائما بأن الأسد في تعامله مع المسألة الوطنية السورية يعلى من شأن المسألة القومية العربية ، لقد رفض ومازال يرفض الحلول الجزئية في الصراع العربى الاسرائيلى انطلاقا من هذه الرؤية القومية وهو يرى دائما بأن المصير العربى مصير واحد ، وبالتالي يجب أن يكون هناك قرار واحد ولا يجوز لدولة واحدة أن تنفرد بالقرار الذى يؤثر على مصير الأمة العربية كلها .

وإذا كانت معركة حطين قد أكدت بالدرجة الأولى خطأ الاستسلام للصليبيين وكان صلاح الدين يقول دائما : أن التخاذل لا يمكن أن يتم ، فإن ما جرى في حرب أكتوبر « تشرين » أكد أن الانتصار وارد ومؤكد ، وكما يقول الرئيس الأسد (الأمة لا تموت ، تموت حين تستسلم ، حين تخضع وتخضع وتنسى أنها صاحبة قضية وصاحبة حق) .

وتحليل مواقف الرجلين صلاح الدين الأيوبي ، وحافظ الأسد يظهر بوضوح أن التشابه بين الرجلين كبير ، كلاهما صاحب قضية ، وكلاهما يحمل شعلة لا تنطفئ من الايمان بأن الحق هو الحق ، وبأن التراجع عن الأهداف خطأ وخطر وباطل ولا ينبغي أن يكون ، وبأن انهاء أى قضية بشكل بانس أمر مرفوض تاريخيا ومرفوض منطقيا ، أن احساس البطولة عند صلاح الدين الأيوبي وعند حافظ الأسد واحدة .. كلاهما شجاع ، وكلاهما مضح ، وكلاهما يضع قلبه على راحته لأنه لا يعنيه أن تستمر الحياة

■ فارس بنى يهرب ■

ما لم تستمر المبادئ التى يحيا من أجلها ، ويناضل ، ويحمل أمانة المسؤولية التاريخية فيها .

هذا النوع من العظمة النادرة كان فى شخصية صلاح الدين الأيوبي وأيضا فى شخصية حافظ الأسد الذى يحق أن ندعوه باسم (الفارس العربى) لأنه يسير بشعبه فى الدرب الصحيح ويسعى وراء الحلم الأكبر الذى يريده ، والنصر دائما للأمة المؤمنة مهما طال الزمن .

قارىء جيد للتاريخ

□□ المكونات التى جعلت من الرئيس حافظ الأسد قائدا تاريخيا متميزا .. هل تعود إلى الوعى الفكرى المبكر .. أم إلى المدرسة الحزبية التى نشأ فيها أم إلى التحديات الخارجية التى قابلها فى حياته ؟..

قلنا فى الصفحات المتقدمة أن وعيه الفكرى المبكر ، هو الذى جعله رائدا للطلاب منذ أن كان على مقعد الدراسة ، وهو الذى جعله بعد ذلك من أبرز الوجوه فى الحزب حين انتسب إليه ، وكان دائما المسئول عن زملائه الطلاب ، وكان المخطط الأول ' للاضرابات والحركات الطلابية وكان من الذين شغلوا فى سن مبكرة دورا فى النضال ضد الاستعمار لصالح الفلاحين والعمال والطبقات الكادحة ..

صحيح أن هذه المفاهيم طرحها قبله حزب البعث ، ولكن الصحيح أيضا أن كل هذه المفاهيم ، هو الذى استوعبها ، وهو الذى تبناها ، ودافع عنها ، منذ أن كان شابا إلى أن صار ضابطا فى الجيش ، وما تراجع فى لحظة من اللحظات ، اختيار حافظ الأسد لأن يكون ضابطا طيارا ، يعنى أن فى شخصيته الكثير من التميز ، اقتحام الجوبهذا الشكل فى بيئة كانت بسيطة كان يعنى توافر حس المغامرة لديه .. رصيد الشجاعة الذى توافر لديه جعله يقبل على الطيران ويكون متفوقا فيه ، ويمارس تطوير فكره السياسى ووعيه النضالى ، مما جعله وهو فى هذه المرحلة المبكرة من العمر أحد القادة الطليعيين ، حين نذكر ثورة الثامن من آذار ذات المضمون والبعد الوجدوى ، سنجد أن فكره الناضج آنذاك أهله لأن يشغل دورا كبيرا فى مقاومة الانفصال ، وفى ثورة ٨ مارس آذار ثم فى حركة التصحيح التى قادها ضد العقلية المتسلطة التى انحرفت عن مبادئ الحزب وأهدافه. لوجابته هذه التحديات دون أن يكون لديه هذا المستوى من الوعى الفكرى ، ودون هذا المستوى من الحس النضالى ، ودون هذا المستوى من الإيمان بالقضية التى يدافع عنها كإنسان عقائدى وصاحب قرار ، لوجابته هذه التحديات دون أن تتوافر له هذه الأمور لكان يمكن أن تؤدى به إلى الكثير من التنازلات .

لماذا لم يقبل حافظ الأسد بالتنازلات ؟

لأنه يمتلك الوعي ويمتلك القضية ، وهو يريد أن يدافع عن قضية ، ولقد زادت التحديات قوة واصرارا ومتابعة ليكون أكثر قدرة على مواجهة كل هذه التحديات ، في صميمه . وهو رجل قضية ومبادئ ، ولا يمكن أن يساوم على ذلك ، ومن أجل هذا حاول ، ولا يزال يحاول ، أن يتسلح بكل ما يستطيع كي يتمكن من مجابهة كل التحديات ، لا يهتم أحيانا بموقف المتعنتين مادام يرى عدالة موقفه ويثق في صلابته مبدئه ، والأمثلة على ذلك كثيرة في القضية الفلسطينية مثلا لم يكن يهمه ، من يعاديه أو من يصادقه ، مادام مؤمنا بالقضية ووثاقا في سعيه لحلها ولذلك ظل يعمل من أجلها على الرغم من كل المحاولات التي أحاطت بهذا الطرف أو ذاك ، لم يهتم ولم يتراجع وكان يردد دائما : موقف بعض أصحاب هذه القضية شيء ، والموقف من القضية شيء آخر ، لم يسقط في حصار العواطف الشخصية الصغيرة ، وإنما ظل أكبر منها لأنه صاحب قضية وربما كان هذا سر من أسرار نجاحه ، وكان يردد دائما : إن القائد إذا لم يكن لديه قضية يؤمن بها ويدافع عنها لا يستطيع أن يكون قائدا في كل المراحل .. قد يكون بطل ساعة ، لكنه لا يمكن أن يبقى بطل كل ساعة ، كان يملك فهما عميقا لدروس التاريخ وعبره ، ولقد شكل له هذا الفهم وعيا مكنه من أن يسير في الطريق الصحيح دون أن يصاب بأية هزات ، بهذا الوعي نجح حافظ الأسد في بناء دولة يمكن أن نقول عنها بغير مبالغة انها الدولة النموذج ..

حقيقة أن الأمور تظل نسبية ، ونحن لا نتحدث هنا بشكل مطلق .. لأن سورية لم تبلغ الكمال حتى الآن والرئيس حافظ الأسد هو الذي تحدث في خطابه الأخير أمام مجلس الشعب عن هذه المسألة عندما قال : « اننا ننشد الكمال ولكننا نعترف أننا لم نبلغ هذا الكمال ، ولكن سوف يظل هذا الكمال رايتنا التي ننشدها ونبحث عنها » ، ومع ذلك فإن السياسات التي انتهجها حافظ الأسد عبر اثنين وعشرين عاما أثبتت أهميتها وجدارتها .. لقد تعامل الرئيس حافظ الأسد مع الواقع تعاملًا سلبيا وتعامل مع المستقبل تعاملًا مكنه من أن يرى المستقبل حتى قبل وقوعه ، لقد أجاد الرئيس الأسد التعامل مع الواقع تماما مثلما أجاد التعامل مع المستقبل .

والرئيس حافظ الأسد يمتلك خصالا قيادية ، وسجايا نضالية ، ومواهب استثنائية وقدرات غير عادية ، ويمتلك في الوقت نفسه بصيرة ناقبة ورؤية استراتيجية شاملة .. كل هذه العوامل مكنته في النهاية أن يجعل سورية الموئل والملاذ والمثابة للكثرة من المناضلين العرب ، وأن يجعل من سورية الدولة التي يمكن أن يستفاد من تجربتها استفادة حقيقية . نحن لا نقول ان التجربة السورية في هذا المجال يمكن أن تنتقل أو تستعار .

■ فارس بنى عريب ■

الكسالى وحدهم هم الذين يستعمرون أفكار الآخرين وينقلون تجارب الآخرين ، ولكن التجربة السورية في هذا المجال تستحق أن تولى عناية خاصة واهتماما كبيرا لأن في هذه العناية وهذا الاهتمام ما يمكن أن يكون مفيدا .

هناك من يقول أن حافظ الأسد كزعيم وطني استمد براعته من طاقته القصوى على التحدى وعلى الوقوف بثبات في أصعب المواقف ، وهذا صحيح ..

ولقد تمكن حافظ الأسد ، من هذه القدرة على التحدى ، من مواهبه غير العادية وقدرته على التحدى نعنى بها التحدى العاقل .. التحدى الموزون بموازن الذهب لأنه ليس كل حد مفيدا في كل الأوقات .. التحدى المفيد هو التحدى المحسوب .. هو التحدى الذى يأخذ بعين الاعتبار معطيات الواقع ، هو التحدى الذى يصغى جيدا لنفض الواقع ، والتحدى الذى لا يتجاهل المتغيرات التى تجرى في العالم من حوله .. حافظ الأسد يملك كل هذه الخصال التى تمكنه من أن يرى الأمور بشكل استراتيجي ، لا يتوقف كثيرا عند ما هو طارئ وعارض ومؤقت ، وإنما يهتم دائما بما هو ثابت وراسخ ومستمر ، هذا لا يعنى أن حافظ الأسد يهمل التكتيك ، فالتكتيك في كل عمل سياسى مسألة ضرورية ، ولكنه لا يعطى الأولوية للتكتيك العابر والمؤقت ، وإنما يعلى دائما من شأن الاستراتيجية ، والاستراتيجية العظمى والتكتيك عنده يجب أن يوضع دائما في خدمة الاستراتيجية ، وعندما لا يوضع في هذا الاتجاه فإنه يصبح تكتيكا يسير في الاتجاه الخاطئ .

والقدرة التى يمتلكها حافظ الأسد على التحدى هى قدرة نابعة من قدرة مماثلة على رؤية المستقبل وعلى قراءة المستقبل قراءة صحيحة وهى نابعة من القدرة على رؤية ما هو ثابت ودائم ومستمر ، وعدم التوقف عند ما هو مؤقت وعارض وغير مستمر .

هل هو رجل التوازنات الدقيقة في المنطقة ؟

هناك من يقول في الغرب ، أن الرئيس حافظ الأسد هو رجل التوازنات الدقيقة في منطقة الشرق الأوسط ، والواقع أن هذا التعبير السياسى لا يمكن التسليم به .. لأنه يجب دائما أن نفرق بين الأيدولوجى والفلسفى ، وعندما نقول في الأيدولوجية أن فكر القائد الأسد هو فكر قومى عربى اشتراكى .. معنى ذلك أنه درس معطيات العصر ، وهذه الدراسة لم تكن دراسة ذاتية شخصية من قبل فرد وإنما هى استقراء لنفض الجماهير العربية من خليجها الى محيطها ..

ماذا يريد العرب بعد ؟ العرب وقعوا تحت التجزئة بفعل القسر .. بفعل الاستعمار ، بفعل الضغوط العالمية القوية سواء بعد الحرب العالمية الأولى (سايكس بيكو وتقسيم

■ الفصل الأول

البلاد العربية) أو النتائج التي تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية .. وذلك على الرغم من أن العرب أيدوا الدول الديمقراطية ضد النازية إلا أنهم وبكل أسف عوقبوا على ذلك كما عوقبوا من قبل بـ (سايكس - بيكو) وبزندق إسرائيل في الجسد العربي ..

اذن عندما يستخلص الرئيس الأسد بأن الأصل في العرب أنهم أمة واحدة ، فمن باب أولى أن يعبر عن هذا بالحرص على اقامته وحدة عربية ، تشمل أكثر من قطر عربي ، لأن في الوحدة القوة وفي التفرق الضعف ، وعندما يكون مضمون هذا الفكر مفهوما تحاوريا فلا بد للوطن العربي أن يتحرر اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، ولا بد أن يحصل الإنسان على الحرية داخل مجتمعه من خلال العدالة الاجتماعية .

والعدالة الاجتماعية في فكر الرئيس الأسد لم تكن ايديولوجيا تابعة لخط جامد ، وبالتالي لم تغير العبارات والاصطلاحات حافظ الأسد ، بل بالعكس خلق تطويرا فكريا في الفكر العربي من خلال نقل الواقع في سورية من فكرة الحزب الواحد الذي يتمتع بكل شيء بالنسبة لقيادة البلد الى الحزب القائد الذي يقود من خلال جبهة وطنية تقدمية ومن خلال منظمات شعبية ومن خلال تفاعل ديمقراطي من القاعدة الى القمة ، وبالعكس .. لذلك هذا الموضوع بالذات هو موضوع يمكن أن نسميه موضوعا ايديولوجيا ولكن له صفات الخصوصية العربية ، وهذا الموضوع بالذات تنبع عنه مصالح .. اذن عندما نتوخى عقيدة قومية سياسية فلا بد لهذه العقيدة أن يكون لها اهداف ، والأهداف التي كانت في ذهن الرئيس الأسد ومازالت هي فكرة تقدم الوطن العربي نحو شكل من أشكال الوحدة .. والتضامن وتحرير الوطن العربي وتحقيق العدالة الاجتماعية وما إلى ذلك .. ولذلك لا بد أن يصطدم هذا ، بقوى معادية أو قوى مضادة سواء أكانت هذه القوى اقليمية أم عالمية .

وعندما كان الرئيس الأسد يصطدم بهذه القوى كان يجد الوسيلة لينتقل نقلة ثانية ليخلق قوة جماهيرية داخل القطر وخارجه لمواجهة هذا الخطر المتعدد، من ناحية ثانية فإن الرئيس حافظ الأسد دارس متعمق للتاريخ وخاصة في فلسفة التاريخ .

الرئيس الأسد ليس مجرد انسان استطاعت الايديولوجية أن تتحكم في مساراته ، فالفلسفة هي التي تطور الايديولوجية ، وهي التي تنضجها ، وهي التي تدل على العوامل الذاتية والموضوعية في كل زمن وفقا للتبدلات النوعية والكمية ، ووفقا للتبدلات الاقليمية والعالمية ، وحسب الضرورات أيضا لأن الانسان الفيلسوف الذي ينظر الى التاريخ نظرة موضوعية لا يمكن أن يقع في الأخطاء لأنه يمكنه أن ينتقل من نقطة الى نقطة ضمن دراسة علمية موضوعية للظروف المحيطة ، والاصطلاح السياسي الذي وصف به الرئيس الأسد بأنه رجل التوازنات الدقيقة قد يبدو للوهلة الأولى ، ان هذا موقف برجماتي أو

■ فارس بنى عريب ■

موقف تكتيكي ينطلق من مصلحة أو اغراض معينة .. ولكن هذا بعيد كل البعد عن موقف الرئيس الأسد لأنه يؤمن بأن هناك عوامل موضوعية لابد من الأخذ بها ، وأى وقفة من الوقفات التي كان يقفها ويتأملها هي نقطة للانطلاق الى الامام لامكانية أجدر للوصول الى الهدف ، ولا يعيب أبدا الفيلسوف أو القائد أن يلجأ الى التكتيك ويضعه في خدمة الاستراتيجية ، ولكن عندما نستقرئ الواقع لا نجد وقفة واحدة تسيء الى الاستراتيجية أو الخط القومى التقدمى الوحيدى الذى يؤمن بفلسفته الرئيس الأسد .

هناك من يقول إن حافظ الأسد هو البليل لعبدالناصر ، وكثيرا ما نوقشت هذه المسألة في ملتقيات فكرية سياسية .

واقع الأمر انه لا يمكن لأحد أن يكون بديلا عن الآخر ، نعم هناك قواسم مشتركة بين تجربة جمال عبدالناصر وبين تجربة حافظ الأسد ، ولكن يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أيضا المتغيرات أو اللحظة التاريخية التى ظهر فيها عبدالناصر ، والحقية الزمنية التى عبر عنها عبدالناصر ، واللحظة التى نهض فيها حافظ الأسد الى تحمل مسئولياته الوطنية والقومية، والحقة التاريخية التى يعبر عنها الآن الرئيس الأسد .

هناك من يرى ومنهم صفوان قدسى ، الأمين العام لحزب الاتحاد الاشتراكي العربى السوري أن تجربة حافظ الأسد هي استكمال لتجربة جمال عبدالناصر وانضاج لها ، ويضيف أنصار هذا الرأى أنهم لا يتحدثون عن الاستكمال فقط وإنما يركزون أيضا على مسألة الانضاج في تجربة جمال عبدالناصر .

هناك ثوابت ومتغيرات، تتمسك بالثوابت ونهمل المتغيرات ، ولو عدنا الى ميثاق العمل الوطنى الذى وضعه جمال عبدالناصر من عام ١٩٦٢ لوجدنا في هذا الميثاق مثل هذه الثوابت ومثل هذه المتغيرات ، وجمال عبدالناصر هو الذى دعا الى التفكير والى الاجتهاد ودعا الى عدم الاعلاء من شأن النظرية على حساب الممارسة والحياة .

وهناك من يرى وبينهم أحمد الأسعد الأمين العام للحزب الوحيدى الاشتراكي الديمقراطي ومؤلف كتاب « التكامل بين مرحلتين » ، انه لم يقصد المقارنة بين القانونيين العربيين العظميين ، وإنما كان الكتاب محاولة لرصد مسيرة القائد الراحل عبدالناصر في مصر ومسيرة القائد الرئيس الأسد في سورية وأوجه التشابه بين هاتين المرحلتين حيث أن كلا منهما ينهل من النضال الثورى والتراث الحضارى لامتنا العربية ويرفع اهدافا قومية ويناضل من أجل وحدة الوطن العربى ، ويضيف لقد قلت في كتابى (التكامل بين مرحلتين) انه لو قدر للقائدين العربيين جمال عبدالناصر وحافظ الأسد أن يلتقيا لتغير وجه التاريخ العربى لما بينهما من تشابه في المواقف والرؤى ، والمعين الذى ينهلان منه والذى يشكل التراث الحضارى والاصالة القومية

■ الفصل الأول

لامتنا العربية ، ولو وقفنا مع مسيرة القائد الراحل عبدالناصر ، ومسيرة القائد الأسد لوجدنا تشابها كبيرا سواء في النظرية أو في التطبيق أو المقومات القيادية أو النظرة الشمولية أو الفكر الاستراتيجي السياسي ..

ويضيف أحمد الأسعد نحن كناصريين حينما وقفنا بالحب والاخلاص مع القائد الراحل عبدالناصر وقفنا لأسباب قومية ومبدئية ، ولأسباب نفسها نفق مع الرئيس حافظ الأسد ، وكما ساندنا بكل الحب والاخلاص مسيرة القائد الراحل عبدالناصر نساند اليوم بكل الحب والاخلاص مسيرة القائد الأسد .

وهناك من يستخدم تعبير الأسدية ويقصد به البعث المتجدد والمتطور باعتبار أن قيادة الأسد هي التي أسهمت في تطوير مفاهيم البعث عن الوحدة والحرية والاشتراكية ونقلت البعث من دولة الحزب إلى مجال بناء المؤسسات .

وهناك من يقول أن تسمية الأسدية لم تطلق في حزب البعث العربي الاشتراكي وإنما أطلقتها بعض كتابات لأفراد من الجبهة الوطنية التقدمية . ولكن نحن ننهج نهج التصحيح الذي يقول إن الرئيس حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ، وقائد الجبهة الوطنية التقدمية ، ونهج التصحيح يقوم على التعددية السياسية والتعددية الاقتصادية وعلى قيام التنظيمات النقابية والمهنية والشعبية في مختلف قطاعات الشعب ، وهذه التنظيمات سواء كانت تنظيمات للشعبية أو الطلاب أو العمال أو الفلاحين أو الحرفيين وصغار الكسبة هي عمليا تضم جميع قطاعات الشعب ، وهذا النهج نسميه نهج التصحيح في سورية .

وهناك من يرى أن الرئيس حافظ الأسد قد أثر تأثيرا ايجابيا على فكر البعث ولكنه بتواضعه المعروف لا يوافق على استخدام هذا التعبير، لأن الرئيس دائما يقول إنه بمقدار ما يؤثر فكر القائد على الجماعة تبقى في النهاية حقيقة هامة وهي أن فكر القائد هو استلهاهم لروح الجماعة وتحقيق للتفاعل معها ، وأي فكر لا يجسد الارادة فكر غير قابل للحياة .. ويمضى أصحاب هذا الرأي فيقولون إن حزب البعث حقق انجازات كبيرة في ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد ، وأعطى مفاهيم متعمقة لحقيقة البعث كما هو في ضمير الأمة ، وأتمنى مخلصا أن يعكف الكتاب والمفكرون على دراسة هذه الحقائق وخاصة من حيث علاقة البعث بروح الأمة، وأعني بروح الأمة العربية الشخصية القومية الحضارية والانسانية للأمة العربية لأن الرئيس الأسد قارئ جيد للتاريخ ، فهم تاريخ أمته ، وفهم استيعابها للحضارة ، وقدرة هذه الأمة على تمثيلها ، وأيضا السير فيها لخدمة الانسانية في عصر النهضة العربية التي كانت فيه جسرا بين النهضة الاغريقية والرومانية والحضارة

■ فارس بنى عروب ■

الحديث في أوروبا . والسيد الرئيس يصر على أن فكرة البعث ليست عنوانا لحزب بمقدار ما هي عنوان لبعث الروح في أمة عظيمة قادرة على أن تقوم بأشياء كثيرة جدا لنفسها وللإنسانية إذا ما أعطيت الامكانيات ، وفجرت امكانياتها الكامنة والذاتية في نفسها .

والرئيس تواضعا منه لا يريد اطلاقا أن يقال بعث الأسد وما إلى ذلك على غرار الناصرية لأن الحزب موجود والرئيس حافظ الأسد عاش فيه وطروره وتطور من خلاله ، ولذلك يمكن اعطاء عنوان آخر هو « البعث العربي تحت قيادة الرئيس الأسد في المرحلة التاريخية الممتدة بين كذا وكذا » .

وقد يكون في هذا العنوان انصاف للقائد ودوره التاريخي ، وقد يكون فيه أيضا انصاف للتاريخ لأن فكر القائد ليس بمعزل عن نضال الأمة ولا عن حركة الجماهير التي كانت تلهمه كل الالهام لكي يستطيع أن يعبر عن ارادتها نحو الحرية ونحو التقدم ونحو العدالة .

البيئة التي عاش فيها

□□ يسمونه أحيانا فارسا عربيا ويسمونه أحيانا أبا أو أخا ، فيه كل صفات الفروسية .. فيه الحنان ، فيه المحبة والحرص على الناس وعواطفهم ومحاولة مساعدة كل المحتاجين ، فيه صفات من الحنو نادرة المثال قد تدمع عيناه لمشهد طفل جريح ، أشرف بنفسه على بناء مدارس أبناء وبنات الشهداء ، وأوجد فيها الوسيلة التي تمكن الصغار من الاتصال به في كل وقت وأى وقت ، يجدون عنده المحبة والحنان والعطف الأبوي ، لا يقصده انسان في حاجة إلا ويساعده ، ولا يقصده مريض إلا ويقدم له كل ما يريد .. يسعى بنفسه لمقابلة الناس الذين يحتاجون الى لقائه ويتحدث اليهم ويراف بهم ، شجاعته مبهرة ، جرأته في مواقع الجراءة مفرطة ، لا يتهيب ولا يخاف ، تاريخه السياسي شاهد على ذلك في الحروب التي خاضها سواء انتهت هذه الحرب الى ما كان يطمح اليها أم تعثرت ، ولكن لم يحدث في يوم من الأيام أن تساهل أو تعب أو تراجع أو تخلى عما اعتقد انه الأمر الذي ينبغي ألا يتخلى عنه ، حين تجلس اليه تجده انسانا متواضعا الى أبعد حدود التواضع .. يبتسم دائما ويتفهم ، يقتنع أو يقنع ، تراه يصفى للحديث بقلبه ويسمعه وربما يكون أدري به من المتحدث ، ولكن يأبى أن ، يجرح مشاعر الآخرين .. فيه كل صفات الشهامة حين تطلب منه مساعدة يقدمها دون تردد .. يقف الى جانب الحق مهما كان صعبا ، « حين تأتيه تراه مهتلا .. كأنك تعطيه الذي أنت سائله » .

تعلم منذ طفولته قيم الوفاء ، عواطفه زاخرة بالحب في علاقته مع أسرته والمحيط الذي نشأ فيه ، لأنه بحكم صغر المجتمع هناك الكثير من الترابط ، العائلة كلها تجتمع على

■ الفصل الأول

مائدة واحدة ، الجيران يتبادلون الزيارات في المناسبات المختلفة ، محب منذ صغره للقرآن الكريم وربما هذا كان السبب وراء قدرته على التحدث لساعات دون خطأ لغوي ، ولديه ذخيرة واسعة من اللغة والأدب والشعر ، درس الأدب العربي ودرس التراث ، الذين عاصروه وهو طالب في اللاذقية يروون عنه الكثير ، كان كالأبن لمن يسكن عندهم ، وكالأخ لمن يتعامل معه سواء في الصف أو في الحى ، كل الذين مروا في حياته وزاملوه وهو طالب استمروا في صداقتهم له حتى يومنا هذا ، لم يتركهم ولم يتركوه ويسأل عنهم باستمرار ويتفقدهم ، الذين عاصروه في الكلية الجوية وفي القطاعات العسكرية يبادر بالسؤال عنهم وبالاتصال بهم للسؤال عما يحتاجونه ، عندما كان يقول « الشهداء أكرم من في الدنيا وأعز بنى البشر » كان يجسد بهذا الكلام حقيقة مشاعره .

وبعيدا عن الأضواء يأخذ أولاد الشهداء الى مدارس داخلية يتعلم فيها الطفل ويأكل ويكتسى حتى يصبح عضوا نافعا ، أقام نفسه مقام الأب بالنسبة لأبناء الشهداء ، وفي عيد الشهداء وهو أحب مناسبة الى قلبه يقيم مأدبة يقضى فيها وقتا كبيرا ليلتقى بأبناء الشهداء ويسلم عليهم فردا فردا ويسألهم عن أحوالهم وأحوال معيشتهم ، أقام من نفسه أخا لكل من أصيب في العمليات الحربية للدفاع عن وطنه وأرضه ، وإلى جانب هذا كله فإنه يقدم صورة مفعمة بالعمل الانساني .. وفي مكتبه في مكان بارز وفي منزله يضع صورة يقبل فيها يدى والدته الكريمة رمزا للحنان ورمزا للوفاء ، ورمزا للقيم العربية والاسلامية وتجسيدها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (الجنة تحت أقدام الامهات) .

بكل تأكيد نعم فإن البيئة التي عاش فيها الأسد طفولته هي بيئة عربية تؤمن - كما سبق أن بينا - بالمثل العربية العليا ، وهي ممتدة لها جذور في التاريخ لأن قبيلة الرئيس الأسد هي من أعرق القبائل العربية شرفا ونبلا ، وهذه القبيلة تمتد إلى قبيلة كلاب والمنطقة تسمى الكلية ، والكلابيون من أعرق القبائل العربية ويذكرنا الشاعر جرير عندما يقول للفرزدق بهذه الحقيقة عندما يقول :

ففضى الطرف أنك من نعيم فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وهذا الشعور بالانتماء العربى هو انتماء للجذور وللامة العربية كلها .
الناحية الثانية يتميز تاريخ بيئة الرئيس الأسد بأنه تاريخ نضالى، حتى في أيام الاستبداد العثماني بسورية، وفي أيام الاستعمار الفرنسى.. كانت هذه المنطقة تعج بالنضال ضد المحتل، والظلم الذى وقع على المنطقة خلال طغيان الأتراك الذين كانوا يقتادون الشباب إلى جبال القرم ، وإلى اليمن مشيا على الأقدام لكى يقاتلوا دفاعا عن الامبراطورية العثمانية . والظلم الذى كان موجودا أيام الفرنسيين الذين كانوا يقتلون ويذبحون ويحرقون ، كل

■ فارس بنى يهرب ■

هذا فتح أعين الشباب على الظلم المحيط ببلده وأمه ، وعندما أدرك الشاب حافظ الأسد ، أن الظلم الذي يقع على منطقته هو ظلم جماعى يشمل محافظته وغيرها من المحافظات ، أصبح لديه حافز لأن يكون قائدا طلابيا في بداية حياته ، وعندما تطلع الى الأمة العربية ، وجد أن هذا الظلم جماعى ضد العرب ، ظلم من قبل الفرنسيين في المشرق والمغرب العربى بأكمله ، ظلم من الانجليز نتيجة للمعاهدات وعدم الانسحاب من مصر بعد المعاهدة ، ظلم من خلال الكيان الذي زرع في جسد الأمة العربية في فلسطين ، والدعم الذي تلقاه الكيان الصهيونى على حساب العرب ، ظلم من الاستعمار الانجليزى الذى كان يسيطر على اليمن والخليج العربى .. الانقسام .. التجزئة .. الامية .. المرض .. الفقر .. كل هذا جعل الشاب حافظ الأسد يحمل على منكبيه هم الأمة ، ولذلك كان سعيه أيام الشباب أن يعمق ثقافته وخاصة ثقافته التاريخية لكي يعرف تاريخ أمته وكل ظروفها وأحوالها في حقبة التاريخ المختلفة حتى يعرف ما كانت عليه ، وما آلت اليه ، ويقف على سبب الامجاد القديمة ، ويدرك العلة في زوال هذه الامجاد ، وتفكك الأمة وانهارها ، ويشهد ، ويسهم مع غيره في الوثبة نحو استعادة أمجاد الماضى ، ودفع الأمة قدما الى الامام لتتبوأ مكانها الذى يليق بها وبعراقتها بين الأمم الأخرى المتحضرة .

والواقع ان الثقافة الدينية والتاريخية والقومية هي التى ثبتت القيم النضالية لدى الرئيس الأسد لأنها حمته من الانزلاق الى الماركسية ، وحمته أيضا من الانزلاق الى التوقع القومى والجمود الفكرى عند نقطة معينة ، وفى الوقت نفسه جعلت أمامه فسحة من التفكير نحو المستقبل باعتبار الاسلام رسالة تخص العرب والناس جميعا ، وهذه نقطة مهمة جدا لأن الرسالة العربية التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت رسالة انسانية وان العربى المسيحى يعتز بهذه الرسالة كما يعتز بها العربى المسلم ، والرئيس حافظ الأسد له فضل كبير في تثبيت الانتماء القومى .

نحن عرب في الأول وعرب في الأخير ، ولذلك لا يجوز لاي فئة طائفية أو اقليمية أن تحرفنا أو تلهينا عن فكرة الانتماء القومى لأن الحضارة العربية صنعها جميع أبناء العروبة أيا كانت أديانهم ، ولكن في بوتقة اسلامية لأن الحضارة العربية الاسلامية .. قادما الاسلام وأرسى دعائمها .

وفى هذه النقطة بالذات فإن الرئيس حافظ الأسد حمل فكرا مميزا يقوم على انخراط جميع أبناء الأمة في هذا النضال لاهياء هاضيتها ، ولكن بأسلوب علمى وعصرى بعيد عن التعصب ، وبعيد عن التوقع والجمود ، ولم يمل الرئيس من تكرار أهمية الانفتاح على العالم وتعلم كل ما يفيدنا ولكن دون التخلي عن قيمنا الروحية التى تعززت في تراثنا الروحى بالاسلام ، وهذه الرسالة موجهة للعربى أيا كان مسيحيا أو مسلما بل ولليهودى العربى الذى يعيش عربيا وليس اسرائيليا أو صهيونيا .

وهنا لابد من الإشارة مجدداً إلى نقطة هامة تتصل بما يحاول بعض خصوم حزب البعث أن يصوره كالادعاء بأن علمانية هذا الحزب رديف لعدم الإيمان ، والواقع أن الرئيس حافظ الأسد الأمين العام للحزب هو انسان شليد الإيمان كما سيلي في فصل قادم ، ولكن فيما يتصل باقامة المجتمع المدني فإنه لا يجب أن يخلط بين الأشياء ، وكذلك حزب البعث وهذه نقطة هامة ، الرئيس الأسد يفهم الاسلام فهما مختلفا عن فهم الذين انطلقوا في هذا الفهم من اعتبارات طائفية ، وحاولوا أن يغزو بها بعض الاقطار العربية ، وحين بدأت في سورية بعض الحركات الارهابية التي استخدمت الدين غطاء لتحقيق اهدافها السياسية لم يخلط الرئيس بين الامور ، ظلت المساجد مفتوحة وكذلك المعاهد الدينية وظلت كلية الشريعة تتلقى الطلاب ، وظل الرئيس الأسد كما كان دائما يؤدي صلواته ، ويقوم بكل واجبات العبادة ، ويدعم كل الأشياء السليمة التي لا تخالفها السياسة، فهو مؤمن بقلبه ويتعامل مع الناس ضمن هذه الحقيقة ، ويحاول أن يبنى الجسور مع المجتمع الاسلامي في كل البلدان الاسلامية .. لم يأل جهدا في ذلك ، ولكنه رفض اثارة النزعات الطائفية تحت أى اسم من الاسماء ، ولقد طوقت مختلف فئات الشعب ويكل الاقتتاع الحركات المتطرفة الارهابية والمشبوهة التي بدأت وانهزمت بسرعة البرق ، المجتمع السوري مجتمع متجانس .. فيه المتدينون وهم الغالبية العظمى ، وفيه العلمانيون لكن ليس لدى السوريين الاحساس الطائفي ، ويتعامل الجميع على أساس المواطنة والتضامن .

والواقع أن المرء لا يعرف مجتمعا آخر حتى من تلك المجتمعات التي كانت تحاول في بعض الاحيان اتهام سورية .. يعيش فيها المتدينون ضمن جو الصفاء الذي يعيش فيه المتدينون في سورية ، ويمارسون حقهم في الحياة وفي العبادة وفي التعليم وفي اتباع التقاليد التي يريدون كما يجرى الأمر في سورية، لكن دون عدوانية ... العدوان مرفوض .. الاسلام يحمل روح التسامح ، والايمان العميق بالمقدسات الاسلامية امر لا غنى عنه ، والرئيس حافظ الأسد مثال لهذا الطهر الديني والنقاء ولهذا الاسلام الذي يرفض ظواهر الاعتداء على الأخزين ، فلا للتشدد ، ولا للتعصب ، ولا للخروج عن حياة العصر ، وإنما هو فهم عميق للإسلام ، يجل الإسلام ويعتبره العقيدة لعامة الناس ، وحزب البعث ليس حزبا ملحدا ، ولم يكن كذلك في يوم من الأيام ، وهو لا يجد أى مسوغ لطرح هذه المسألة ، والرئيس الأسد يرفع للإسلام حرمة ، وهو صادق في إيمانه ، وهو يؤمن بشراء الفكر الاسلامي وعطائه الغنى المتدفق المتواصل ، وهذا الإيمان الذي يجسده الواقع يرد طعنات المضللين الى نحورهم ، فالاسلام هو الدين الخاتم ، وهو الدين

■ فارس بنى يهرب ■

الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والشرية الاسلامية شريعة من عند الله سبحانه وتعالى ، لذلك لا يستطيع بشر أو مجموعة أفراد أو أمم أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

هذه هي الحقائق التي استوعبها وفي وقت مبكر الرئيس حافظ الأسد ، عندما أكد أنه تحت مظلة الاسلام هنأت الشعوب التي كانت تشكل الأمة الاسلامية ، لا فرق بين مسلم ومسلم ، ولا بين مسلم وغير مسلم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وكانت الأمة الاسلامية ملاذ المعذنين في الأرض ففروا إليها ينعمون بخيراتها ويسعدون تحت لواء أمنها دونما ارغام على التحول إلى الاسلام ، فالمبدأ القرآني يؤكد (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) .

وعندما تمنى المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يسلم عمه أبو طالب .. جاءه العتاب الرقيق من الله سبحانه وتعالى ﴿ انك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وفي سورة الكهف تتجلى حرية العبادة بأوسع معانيها ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ فهل توجد حرية أعظم من هذه الحرية القادمة من الله سبحانه وتعالى ؟ وهل هناك ليبرالية أكثر من هذه إن صح التعبير ؟

والذين يتأملون فكر الرئيس حافظ الأسد .. يلاحظون تأكيده على أن الشريعة الاسلامية تتفوق على أي فكر وضعي آخر .. لأنه فكر من لدن العزيز الحكيم ، وأن المجتمع الاسلامي لن ينهض إلا على العقيدة وأن إيمان المسلمين لن يتأكد إلا بأدراكهم أن أحكام الله هي التي يجب أن تحكمهم وتنظمهم .. لأنها أحكام تدعوهم إلى الامتثال والبعد عن الاحتيال عليها .

ولقد كان الرئيس الأسد ، وراء مقاومة التعصب الذي ظهر من حركات أطلق عليها اسم الأصوليين ، وهي حركات موجودة في الوطن العربي والعالم الاسلامي ، وأيضا في العالم المسيحي ، وكثيرا ما أكد أن هذا اللون من التعصب لا يمكن أن يكون على ارتباط صحيح بأي عقيدة وبالعقيدة الاسلامية تخصيصا ، فالتسامح هو جزء أساسي في الحياة ، وأن تكون مسلما لا يعنى أن تقتل من تتصور أنه مختلف مع معتقداتك ، والاسلام هو دين الاجتهادات قد يختلف بعض الناس في قناعاتهم مع بعضهم الآخر ، ولكن لا يمكن لأحد أن ينفي عن المجتهدين صفتهم الاسلامية ، لم يحدث هذا في عز الدعوة الاسلامية ، وفي صدر الاسلام ، لم يفعل أجدادنا ذلك .

ومن المؤكد أن التيارات المتعصبة لها أهدافها السياسية التي تحاول استغلال بساطة

■ الفصل الأول

الاسلام ، من أجل ذلك .. فإن الرئيس الأسد يعتقد أن إنماء الوعي والفهم ونشر الثقافة سيشغل دورا في انتهاء مثل هذه الحركات حتى ضمن الأصوليات المسيحية واليهودية الموجودة التي تعشعش في المستنقعات الجاهلة ، والجهل يمتد أحيانا إلى عواصم متقدمة .. في فرنسا ستة ملايين أمي ، وفي الولايات المتحدة عشرة ملايين ، وهناك أطفال تنتهك طفولتهم بشتى الأساليب لا يذهبون إلى المدارس وإنما يسخرون لأعمال تبتعد عن الشرف ، ولقد نشرت مؤخرا احصائية تقول إن في الولايات المتحدة ٦٠٠ ألف طفل يستخدمون في البغاء ، وفي فرنسا بلغ عددهم مائة ألف ، وهناك ظاهرة في سورية يلحظها أى زائر لها قد يعيش الانسان سنوات عديدة ولا يعرف لأى طائفة ينتمى جاره مسلم - مسيحي .. الخ ، ولذلك عندما حاولوا اثاره هذه النعرات لم تعش في سورية، وكانت صفة المحبة هي الغالبة ، فالطوائف المختلفة تتعايش وتؤمن بأن العلاقة مع الله سبحانه وتعالى هي علاقة سامية جدا لا يمكن أن تدنسها أى نعرات طائفية .



□□ الصورة الى اليسار : السيد على سليمان الاسد ، والد الرئيس حافظ الاسد ، وقد ترشح للانتخابات في الثلاثينات .

الى اليمين : السيدة الفاضلة ناعسة ، زوجة على سليمان الاسد ، ولدت له خمسة اطفال : بيات الذي توفي في الثامنة عشرة وحافظ وجميل ورفعت وبيهجة .

□□ الصورة في الاسفل : السيد اسماعيل الاسد الملقب بابى توفيق ، وهو الشقيق الاكبر للرئيس ، يقف امام ماتبقي من البيت الأبوي في القرداحة .



□□ الصورة في الاعلى : عائلة الاسد
بكامل افرادها في بداية السبعينات ،
من اليسار الى اليمين : ماهر ، مجد ،
الرئيس ، باسل ، السيدة الاولى حرم
الرئيس الاسد ، بشرى ، بشار .

□□ الصورة في الاسفل : الرئيس
حافظ الاسد مع مجد على الأرجوحة
وماهر



□□ الصورة في الاسفل : عائلة الرئيس الاسد بكامل افرادها عام ١٩٨٥ : من اليسار الى اليمين : مجد وماهر وبشرى وبشار وباسل يقفون خلف والديهم .

□□ الصورة في الاعلى : الى اليمين : حافظ الاسد في الصيد في الفترة التي كان لا يزال لديه بعض الوقت الحر . .



□□ الصورة في الاعلى : اقوال الشاب حافظ الاسد تحظى بموافقة رفاقه ، قبل مباشرة احدى مظاهرات اللاذقية ..
الصورة في الاسفل : حافظ الاسد يرأس اجتماعا لاتحاد طلبة سورية ..



□□ كان بعض المدرسين يعلمون القومية
لطلابهم الشباب قبل استقلال سورية عام
١٩٤٦ احد هؤلاء الطلاب الواقف الى يمين
الصورة وهو حافظ الاسد ، سوف يدخل
صفوف البحث عام ١٩٤٦ ، وفي تجهيز
اللاذقية الرسمي الذي سيطلق عليه فيما بعد
اسم «جول جمال» يتابع حافظ الاسد دروس
المرحلة الثانوية . وسرعان ما يصبح متاضلا
نشطا ومستولاً عن اتحاد طلبة سورية ..



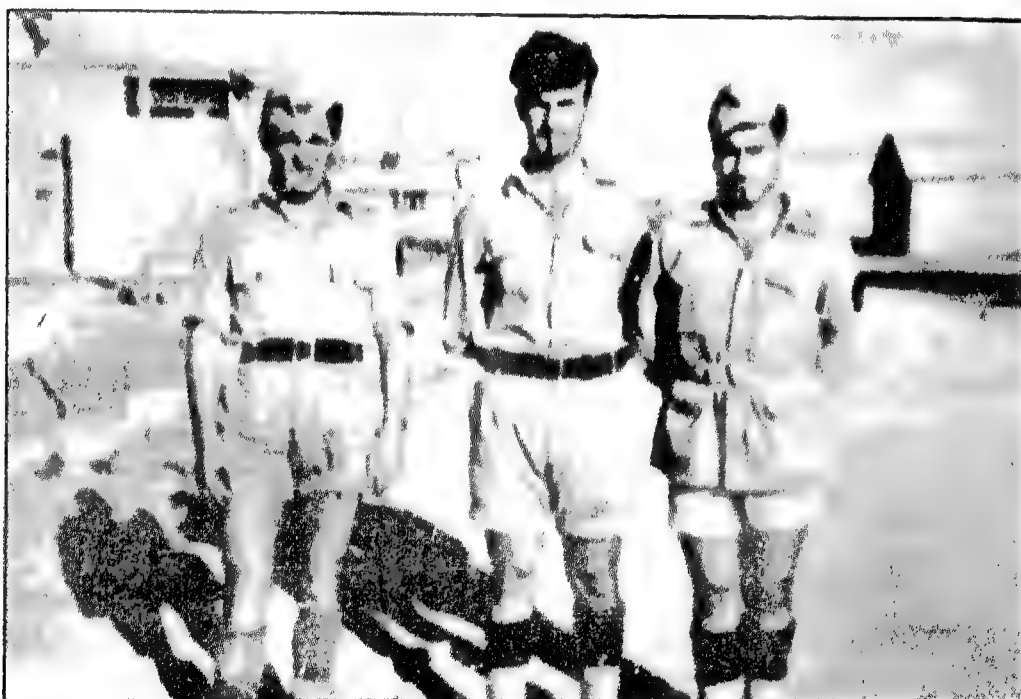
□□ الطالب الضابط حافظ الاسد في مدرسة حلب الجوية



□□ تابع النقيب حافظ الاسد طوال احد عشر شهرا دورات تدريبية في الاتحاد السوفيتى على طائرات الميج ١٥ ، ١٧
وكان تقديره جيدا ..



□□ حافظ الاسد وزير الدفاع وقائد القوات الجوية في مكتبه بعد حركة ٢٣ فبراير شباط ١٩٦٦ .



□□ صورة تذكارية لحافظ الاسد ورفاقه والسيجارة بين شفتيه . قبل ان يقرر الاقلاع عن التدخين بعد حرب اكتوبر
« تشرين اول »

■ التلويح لآلحركة الصدفة ■



قراءة في فكر الأسد

عبرُ التاريخ ودروسه

في فكر الأسد

- حكم فيصل بن الحسين لسورية بعد تحرير دمشق من الحكم العثماني .
- سورية في ظل الانتداب الفرنسي وحتى الاستقلال .
- بداية اليقظة العربية الحديثة ومولد حزب البعث عام ١٩٤٧ ، بعد الاستقلال بعام واحد .
- الاستقلال ومولد الحزب وكيف أسهما في استيقاظ مخيلة الأسد ؟
- دور البعث في وضع سورية على طريق التقدم والوحدة .
- كيف تحققت قيادة الأسد الريادية في حركة البعث .

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

□□ يؤمن الرئيس حافظ الأسد - وبحق - بأن المقوم الأساسي الذي ساهم خلال كل الأزمان في صنع الحضارة والانتصار، هو استيعاب عبر التاريخ وعظاته ، لأن دراسة التاريخ تؤهل الاحساس لدى أى قارئ له ، وتعمق من تفكيره وتجعله متحكما بالفنون المختلفة ، والتاريخ في نظر الرئيس حافظ الأسد هو العلم الذي ينبغى على المرء أن يستقى منه على النوام ، فلا يقرأه ليتعلم سرد القصص بل يقرأه ليتعلم السياسة والأخلاق والقيم الفاضلة ، ولقد صدق المارشال « دويل آيسل » عندما قال بصدق في رسالته المشهورة « لكى تغذى دفاع أى شعب عن حريته وتجعله يتجه باستمرار للدفاع عنها .. فليس هناك كتاب أخصب من كتاب التاريخ » .

ولقد اهتم المسلمون بعلم التاريخ منذ القرن الأول الهجرى ، وذلك نتيجة حرصهم على معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الفتوح ، واتبع المؤرخون في بادئ الأمر طريقة المحدثين فأوردوا الخبر مسبقا بسلسلة اسناده .. ثم رتبوا الحوادث حسب السنين كما فعل « ابن الأثير » ، ثم أرخوا لكل دولة على حدة كما فعل « ابن خلدون » وتلميذه « المقرئى » المصرى ، ولقد اهتم المؤرخون المسلمون بأخبار الخلفاء والملوك والأمراء والحروب والفتن ، ولم يهتموا بوصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ولم يتبعوا تاريخ الحكام إلا نادرا ولكنهم امتازوا بتحرى الصدق .

■ الفصل الثانى

ولعل ما جرى لبعض أقطارنا العربية ، من تراجعات ونكسات متتالية ، مرجعها عدم اعطاء النظريات المفسرة للتاريخ العام ما تستحقه من اهتمام ، وتشهد كتب التاريخ أن أكثر المدافعين عن التثقيف بواسطة التاريخ ، هم قادة كبار لم يخفوا قط ما يدينون به في دراستهم له ، وكان (سوفوروف) أول قائد روسى دافع عن التثقيف العسكرى بواسطة التاريخ في روسيا ، مطالبا ضباطه بالانكباب على دراسة هذا العلم الذى يتجاوز كل الأنظمة ، وكان يقول (ان التكتيك بدون تاريخ ظلمات .. انه فوق كل الأنظمة) . وفى ألمانيا يعدّ التاريخ أساسا لتدريب الضباط منذ أيام (فريدريك الثانى) (الذى يعدّ التاريخ تجربة ناجحة بصورة مبكرة نوعيا بالعلاقات القائمة بين الأحداث الحاضرة وأحداث الماضى وتحسنا نحو الكمال بفضل المقارنات) .

وقد كان الفرنسيون بصورة خاصة للرجع الرئيسى فى الاعتماد على التاريخ ودراسته فى أوربا أثناء النصف الاول من القرن الثامن عشر ، عندما ظهر « الشوفالية فولا » والمارشال « ساكس والكونت جيبيير » ولا يتمتع « بوناپرت » بأية ثقافة عسكرية غير الثقافة التى كسبها من تأمل مؤلفات القادة لأنه كان يقضى ثلاثة أرباع وقته (حتى حصار طولون) فى إجازات يدرس خلالها المؤلفات ، حتى أن المؤلف الذى كتبه جيبيير كان يرافق القائد العام لجيش ايطاليا ، ولا يخفى بوناپرت الفائدة التى جناها من قراءته لهذه الكتب إذ يقول :

« من الممكن تعلم التكتيك والتطورات وعمل المهندسين والمدفعية من الأنظمة والمذكرات كما تتعلم الهندسة تقريبا ، إلا أن معرفة الأجزاء العليا من الحرب لا تكتسب إلا بالتجربة وبدراسة تاريخ الحروب ومعارك كبار القادة ، أعد قراءة تاريخ معاركهم الثمانى والتسعين وأحذر حدوهم . تلك هى الوسيلة الوحيدة لتغدو قائدا عظيما » .

ولعل هذه الأمثلة وغيرها ، تعلمنا كيف نبنى تفكيرنا من خلال التاريخ ... فالتاريخ ليس فقط معلما للأفراد ، بل هو معلم للشعوب بما يحمل فى طياته من عظات وعبر ومبادئ وقيم وفخائل ومثل . هذا بالطبع إذا ما توافر لكتاب التاريخ الحيدة والنزاهة ، والمؤرخ الأصيل .. هو الذى يكتب التاريخ ، لرجه التاريخ بعيدا عن الزيف والتضليل ، الذى يبحث فى كل صغيرة وكبيرة بتأمل وواقعية واضعا المنطق ورؤية العالم المتجرده نصب عينيه ، وقد أثبتت الأحداث وهى مازالت تؤكد كل يوم أن العبث فى كتابة التاريخ مآله إلى الزوال ولا تبقى إلا الكتابات المجردة التى يدرك كاتبها أن بوابة التاريخ محراب مقدس ومعبد للتبطل .

ولقد ساعد الوعى المبكر للرئيس حافظ الأسد على بلورة وبروز شخصيته القنادة ، وقد قادته هذا الوعى إلى قراءة التاريخ ، للوقوف على مكانة بلاده عبر التاريخ ، ومن قراءة هذا التاريخ عرف أن بلاده تحتل مكانة فريدة فى تاريخ العالم ، وأدرك أن

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

فضلها على رقى البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية أجل شأننا من فضل أى بلد آخر خصوصا انها كانت تضم لبنان وفلسطين والأردن ومناطق أخرى ، عرف أن بلاده باعتبارها مهد اليهودية ومكان مولد المسيحية أعطت العالم المتمدن ديانتين توحيديتين وكانت لها صلة وثيقة بظهور الديانة التوحيدية الثالثة ونشوتها ونعنى الديانة الاسلامية ، وانظار المسيحيين والمسلمين واليهود ، حيثما وجدوا تتجه إلى إحدى البقاع المقدسة في سورية ليستوحوا منها ، كما أن أقدامهم تسوقهم إليها ليهتدوا بهديها .

ولقد كان الشعب السوري ، أول من ساهم في نشر القيم الروحية ، ولقد اتحف السوريون القدماء العالم بأبدع الأفكار وأرفعها وليس من اختراع يعادل أهمية اختراع الأبجدية ، التى ولدت على شاطئ اللاذقية في اوغاريت ، واليونان في الغرب إنما نقلوا حروفهم عن الفينيقيين أو الكنعانيين كما كانوا يسمون أنفسهم ثم أعطوها إلى الرومان وبالتالي إلى شعوب أوروبا الحديثة ، كما أن الأراميين في الشرق استعاروا حروفهم من المصدر نفسه ونقلوها إلى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وأفريقيا ، ولو أن هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم أية خدمة أخرى لكان ذلك كافيا بأن يتميزوا كأعظم المحسنين للبشرية وازدهمت الاراضى السورية بالأحداث التاريخية والثقافية والتى جعلت تاريخها تاريخ معظم العالم المتحضر بصورة مصغرة ، ففي الفترتين الهلنستية والرومانية اتحف أبناء هذه البلاد العالم الكلاسيكى بمجموعة من أبرز مفكريه وعلميه ومؤرخيه ، وكان بعض مؤسسى الفلسفة الرواقية والافلاطونية المحدثة من السوريين ، وازدهرت في بيروت مدرسة من أعظم مدارس الحقوق الرومانية وأدخلت الآراء القانونية لبعض أساتذتها في مجموعة قوانين يوستينيان التى عدت بحق أعظم ما قدمته العبرية الرومانية للأجيال .

وبعد انتشار الاسلام بمدة وجيزة أصبحت دمشق قاعدة الدولة الأموية الشهيرة التى توسع خلفاؤها بفتوحاتهم إلى أسبانيا وفرنسا من جهة والهند وحدود الصين من جهة أخرى ، وكانت كلمة الخليفة المقيم في دمشق هى القانون ، وكانت الدولة الأموية دولة عربية صميعة تعزز بالعروبة وتعمل من أجلها ، وكانت غالبية الساسة والقادة وجنود الجيش الأموى من أصول عربية ، فدولة بنى أمية أوجدها العرب ، وحكمها العرب ، وسادتها نظم عربية في مختلف المجالات ، واصطبغ كل شيء فيها بالصبغة العربية في عهد عبدالملك ثم الوليد وحدثت اصلاحات مالية وإدارية كثيرة في هذه الفترة ، وقامت منشآت وأثار معمارية لا يزال بعضها قائما للوقت الحاضر ، وفي العصر الأموى تم تنظيم الجيش والاسطول واستفادت الدولة الاموية من الحضارات التى كانت معاصرة لها ، وانهارت الحواجز التى كانت تفصل بين العرب وغير العرب عندما أخذت جموع الفرس مع بقية شعوب البلدان المفتوحة تهرع إلى اعتناق الإسلام

■ الفصل الثاني

وتتزوج مع العرب ، وفي العصر الأموي تحددت معالم الوطن العربي ، واستقرت حدوده تقريبا .

وفي العصور الوسطى الإسلامية تعرضت سورية للعديد من الغزوات والحروب ، فتعاقب عليها الصليبيون عام ١٠٩٧ ، فالمغول عام ١٢٦٠ ، فتيغور لك (أى تيمور الاعرج) عام ١٤٠٠ فالعثمانيون الذين قضوا على المماليك بقيادة السلطان العثماني سليم الأول في موقعة « مرج دابق » بالقرب من حلب سنة ١٥١٦ ، بعد أن قتل سلطانهم الأشرف قانصوه الغوري ، ومنذ ذلك التاريخ فتحت أمام العثمانيين أبواب سورية ومصر وأصبح الحكم فيها للحكام الجدد ، وما كادت بلاد الشام ومصر تدخل تحت الحكم العثماني حتى أمست في وضع مؤسف من الركود والخمول ، فقد كان بقايا العثمانيين المتسكين بعنصريتهم يمعنون في خنق الأفكار ومكافحة الطابع العربي واللغة العربية وإحلال اللغة التركية محلها ، ولقد أهمل العثمانيون كل شيء في البلاد العربية فتدهورت الزراعة وانهارت الصناعة وساءت الحالة الصحية وانتشرت الأمراض ، وتسببوا في تأخير التعليم باغلاقهم المدارس وتعويق الثقافة .

سورية تحت الحكم العثماني

□□ في نهاية العصر المغولي ظهرت خلافة جديدة ودولة كبيرة هي دولة العثمانيين ، وتنسب هذه الدولة الى مؤسسها الاول (السلطان عثمان) وقد قامت هذه الدولة - في البداية - في آسيا الصغرى ، وبدأت في التوسع والامتداد على حساب الامارات التركية المختلفة ، وكذلك على حساب الامبراطورية البيزنطية وإتجه سلاطين هذه الدولة بفتوحاتهم إلى أوروبا وخاصة في منطقة البلقان .. فالدولة العثمانية نشأت وترعرعت بعيدا عن البلاد العربية ، ولم تحتك بها في البداية لأن العثمانيين كانوا يجدون حرجا كبيرا في الاشتباك مع قوات اسلامية ، ولم تشرع الدولة العثمانية في الاستيلاء على أجزاء الوطن العربي إلا بعد أن مضى على تأسيسها قرابة قرنين من الزمان ، وبعد أن تعاقب على عرشها ثمانية من السلاطين ، فقد أصبحت الدولة العثمانية متاخمة للبلاد العربية التابعة لدولة المماليك - حينئذ - ولم يبدأ هجومها على الوطن العربي إلا في أواخر القرن الخامس عشر في عهد سلطانها الثامن بايزيد الثاني ، وكان العرب قبل الاجتياح العثماني ، يخضعون لدولتين اسلاميتين كبيرتين (ولكنهما غير عربيتين) اذ خضعت مصر والشام والحجاز لدولة المماليك ، وخضعت العراق للدولة الصفوية الايرانية ، وقد تمكن السلطان سليم الأول (وهو تاسع سلاطين الدولة العثمانية) من القضاء على دولة المماليك والاستيلاء على سورية ومصر والحجاز ، ثم أعقبه السلطان سليمان القانوني الذي أتم الاستيلاء على سائر البلاد العربية فسيطر على العراق واليمن وكانت بلدان الشمال الافريقي باستثناء المغرب الأقصى قد قبلت بالحكم العثماني خلال صراعها الطويل مع أسبانيا والبرتغال .

■ عبر القرون في فكر الأمة ■

وتجدر الإشارة إلى أن العثمانيين لم يتجهوا إلى الاستيلاء على البلاد العربية ، إلا عندما قاربت دولتهم ذروة مجدها ، وكادت تصل إلى أقصى حدود اتساعها .

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن مرحلة التوسع والفتح في الدولة العثمانية بلغت غايتها تقريبا وانتهت بانتهاء عهد السلطان سليمان القانوني (السلطان العاشر للدولة) ، ففي ذلك العهد امتدت حدود الدولة في أوروبا فشملت شبه جزيرة مورة وجميع بلاد البلقان ، الصرب والقرم ، كما ضمت معظم أقسام البحر الأسود ، ووصلت إلى أسوار فيينا ، وبعد ذلك العهد لم تمتد حدود الدولة امتدادا يذكر ، بل على العكس من ذلك بدأت تنقلص وتتراجع شيئا فشيئا .

ويمكن القول بأن البلاد العربية خضعت للحكم العثماني ، بعد أن تجاوزت دولة العثمانيين عهد الشباب ودخلت في طور الكهولة المكتملة وبلغت قمة مجدها سواء من الناحيتين المادية أو المعنوية .

وقد استمر الحكم العثماني للوطن العربي ، أربعة قرون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين (١٥١٦ - ١٩١٨) إذ انهارت الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى التي اندلعت نيرانها في سنة ١٩١٤ ، وانتهت بانتصار الحلفاء (الانجليز وأعوانهم) وقد ورثت واقتسمت دول الحلفاء ممتلكات الامبراطورية المنهارة المهزومة .

ونلاحظ أن بعض البلاد العربية خرج عن نطاق الحكم العثماني في القرن التاسع عشر في تواريخ مختلفة وبطرق متعددة ، فقد استولت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، كما استولت بريطانيا على عدن عام ١٨٣٩ ، ثم احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١ واحتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢ ، وبعد فترة وجيزة استولت إيطاليا على ليبيا عام ١٩١٢ . ثم حدث بعد ذلك أن خرجت بقية البلاد العربية من يد الدولة العثمانية بعد نهاية الحرب الكونية الأولى وخضعت لنفوذ جديد (نفوذ الدولتين الاستعماريتين إنجلترا وفرنسا) .

وهكذا نرى أن مدة خضوع الوطن العربي للحكم العثماني تتراوح ما بين ثلاثة قرون بالنسبة لبعض أجزائه وأربعة قرون بالنسبة للأجزاء الأخرى .
وكما أشرنا من قبل فإنه بالرغم من أن الحكم العثماني كان حكما اسلاميا ، الا أنه كان يختلف كثيرا عما سبق من حكم العرب والمسلمين في العصور السالفة ، ذلك أن العثمانيين اهتموا تماما كل اهتمام اجتماعي واقتصادي وثقافي ، ولم يعيروا أي اهتمام لاصلاح المرافق بل تسببوا في القضاء على الكثير من الصناعات المزدهرة في البلاد العربية ، ووقف قادة الأتراك في ذلك الوقت حائلا دون أي تقدم في أي مرفق من المرافق الحيوية اللازمة لتقدم الشعوب ، وقد أدت هذه الحالة الاليمية الى انتشار الجهل ورواج الخرافات ، واضطراب الأمن ، بل والقضاء على بعض مظاهر الحضارة العربية

■ الفصل الثاني

الأصيلة ، وصبر أبناء البلاد العربية على هذه المكاره ، ولكنهم باتوا يتربصون بهذا الوضع وينتظرون الخلاص من الحكم العثماني بأى سبيل ، ومن يعنى النظر فى تاريخ الحكم العثماني يجد انه لم يترك بصمات ايجابية فى أى منحى من مناحى الحياة ، بل لقد أسدلت الدولة العثمانية أستار الجهل حول البلاد العربية بقصد تعويق تقدمها ومنعها من الوصول إلى عصر النهضة .. فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه عصر النهضة فى أوروبا ، وقد كانت سياسة العثمانيين فى الوطن العربى تسير على أساس عدم التدخل فى حياة أبناء ذلك الوطن الا فى حدود ضيقة ، فمادام العرب موالين للاتراك خاضعين لسلطان الدولة ، ويؤدون مايطلب منهم من أموال فإِنَّهم فى مأمن من تدخل الدولة فى شئونهم .

وهذه السياسة هى التى أدت الى جمود الوطن العربى وركوده خلال الحكم التركى وكانت السبب فى أن العرب وصلوا فى ظل الحكم العثماني الى القرن العشرين وهم يخيون حياة القرون الوسطى ، وفى اطار حرص الحكم التركى على عدم امتداد اطماع أوروبا الى الوطن العربى فقد وضعوا الحواجز والقواصل بين العرب ودول أوروبا ، ربما كان من ثمار عدم تدخل الاتراك فى شئون العرب ، انهم ظلوا محافظين على قوميتهم ، وعلى كياناتهم وعلى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ..

ويلاحظ المتتبع لتاريخ الدولة العثمانية ان الاتراك كانوا أقل استعدادا للاخذ بوسائل المدنية من العرب وغيرهم من الشعوب التى خضعت لحكمهم ودخلت فى تكوين دولتهم ، وقد أدى هذا الوضع الى عدم استطاعة العثمانيين (تترك) العرب بالقوة ، ولم يتمكن الاتراك من فرض لغتهم على العرب ، ونشر ثقافتهم بينهم ، ولكن حدث فى اواخر عهد الدولة العثمانية وتحديدًا فى عام ١٩٠٨ انقلاب ظهرت على اثره (جمعية الاتحاد والترقى) التى حاول رجالها اتباع سياسة العنف تجاه الاقطار التى كانت خاضعة للدولة وعملوا على (تسويد الاتراك) على سائر شعوب الدولة العثمانية ، وهذا أدى إلى تاجج الروح القومية والنضال للتححرر من الهيمنة والاستبداد فى وقت كانت الامبراطورية العثمانية تعاني سكرات الاحتضار ، وكان لزاما على الشعوب العربية أن تنتهز هذه الفرصة المواتية ، وتعمل من جانبها على التخلص من سيطرة هذه الدولة .

ولقد شاعت الظروف ان تتلاحق الأحداث ، وتندفع على غير ما يهوى الاتراك ، إذ قامت الحرب الكونية الأولى ١٩١٤ - واستمرت أربع سنوات وانتهت بتحطيم الامبراطورية العثمانية والقضاء على سلطانها وخروج الاقطار والشعوب العربية من دائرة نفوذها بعد ان انتصر الحلفاء (انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا) على الدولة العثمانية ، وساعدتهم الشعوب الخاضعة لها بسبب ماكانت تعانيه من تصرفات حكام الدولة العثمانية فمكنتهم من التغلب والنصر على أمل الاستقلال والتحرر وفقا للوعود التى سمعتها من دول التحالف ، ولكن ما كادت الحرب تنتهى وينعقد لواء النصر للحلفاء حتى ظهرت نواياهم

■ مبر التاريخ في فكر الأسد ■

على حقيقتها وبانت دخائل نفوسهم وماكانوا يضمرونه من عداوة وبيبتونه من غدر للعرب .

لقد تأمر الحلفاء على الدولة العثمانية ، وعلى اقتسام أراضيها وجرت مشاورات بينهم قبل الحرب وأثناء الحرب ، وعقدت اتفاقيات سرية بهذا الصدد ، ولجأ الحلفاء الى الحيلة والخداع والتلويح بتحقيق الاماني ، وبذل الوعود للعرب ليتخذوا منهم في الحرب اداة للنصر ، وتدميرا للامبراطورية العثمانية ، وقد انخدع العرب بهذه الاماني وتلك الوعود ، وكانوا حريصين على التخلص من الحكم التركي ومن مظاهر الدولة العثمانية ، وماجرته عليهم من اسباب التأخر وعوامل التدهور والانهييار ، ومن أجل ذلك اتفق الحسين بن علي شريف مكة مع الانجليز على الثورة ضد الدولة العثمانية ، ومساعدة الحلفاء مقابل استقلال الدولة العربية عندما يتم النصر للحلفاء واقامة دولة عربية اسلامية بعد هزيمة تركيا بزعامة الحسين ، والذي حدث ان الحسين نفذ وعده ووفى بالتزاماته ، ولكن الانجليز والفرنسيين وفي اطار اتفاق سايكس - بيكو نقضوا وعودهم وتنكروا لعهودهم ، وتقاسموا البلاد العربية فيما بينهم قسمة الغنائم والاسلاب . لقد تفككت اوصال الوطن العربي وتقطعت اجزائه ووزعت مناطق بين انجلترا وفرنسا تحت اسم الانتداب وذلك الاصطلاح الذي ابتكرته عصبة الامم وبحجة العمل على ترقية هذه الاقاليم بماتضمنه من بشر، ثم تركها بعد ان يتم تمدنها وتحضرها ، واستقر رأى الحلفاء على تمزيق الوطن العربي وجعله مناطق نفوذ لهم ، وماكادت الحرب تضع أوزارها حتى وضعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ووضعت فلسطين والعراق وإمارة شرق الاردن تحت الانتداب البريطاني ، وكانت مصر من قبل تحت الحماية البريطانية وشمال افريقيا تحت الحماية الفرنسية ، وكذلك كانت امارات الخليج العربي تحت الحماية البريطانية .

وكان ماخرج به حافظ الأسد من دراسة وتأمل لهذا التاريخ ان الوطن العربي خرج من محنة أليمة ليقع في محنة أشد ايلاما منها ، فقد وقع في براثن الاستعمار وأصبح فريسة للمستعمرين الغادرين الذين حاكوا خيوط المؤامرة ضد البلاد العربية في الظلام ، وتظاهروا بأنهم المنقذون ، ورسل الخلاص للعرب من الحكم العثماني

صدمة قاسية ورؤية جديدة

لقد صدم السوريون ، كما صدم العرب بهذا الموقف ، وتلك النتيجة ، صدمة دامية ، وخابت آمالهم وتبددت احلامهم ، وكانوا محطمين منهارين فلم يستطيعوا حينئذ ان يدفعوا الاعداء ويردوا الهوان ، الذي حاق بهم ، لان الاتراك في فترة سيطرتهم الطويلة على العرب حطموا معنوياتهم ودمروا اقتصادياتهم وافسدوا كل مظاهر حياتهم ، وتركهم في نهاية الامر ، في حالة ضعف بين ، مكن للاستعمار الجديد من السيطرة

■ الفصل الثاني

عليهم والحلول محل الأتراك واقتسام هذه التركة والثروة العريضة التي ينطوى عليها الوطن العربي .

ولقد توقف الرئيس حافظ الأسد في دراسته لتاريخ الحكم العثماني ، طويلا حول الدروس المستفادة من هذا التاريخ ولفت انتباهه عدة أمور .. لفت انتباهه ان العصر العثماني الذي جثم على صدر بلاده فرض اشكالا من التحرك السياسي كانت تتسم بين المطالبة الخجولة بالمساواة مع العنصر التركي ضمن الامبراطورية العثمانية ، ووفقا لتعاليم الاسلام ، وبين الدعوة الى استيقلال سورية عن الدولة العثمانية ، ولقد وقف طويلا امام صور البطولة السورية التي تجلت في أروع مظاهرها في أعقاب وصول (جمعية الاتحاد والترقي) الى الحكم سنة ١٩٠٨ وهي الجمعية التي تبنت قومية طورانية هدفت الى تتركيب العرب ، الامر الذي أدى الى انتشار جمعيات سورية في القاهرة ودمشق وفي بيروت ، بل وفي باريس ، للتصدي لمحاولة الغاء الوجود القومي التي حاولها الاتراك .

لفت انتباه الرئيس الأسد أيضا وهو مدعاه الى التعمق في قراءة كل ما يتصل بسيرهم ، بروز مجموعة من المصلحين ، الذين ساهمت أفكارهم في الحفاظ على عروبة بلاده وغيرها ، واذا كان جمال الدين الافغاني ، قد دعا الى قيام الجامعة الاسلامية والتي تبني فكرتها السلطان عبد الحميد الثاني ، وجعلها محور سياسة الدولة العثمانية ، فإن عبد الرحمن الكواكبي ، وهو عربي من اصل سوري تقدم أكثر نحو الامام في كتابه (أم القرى) حيث دعا الى عودة الخلافة الى العرب بدلا من العثمانيين .

ولقد لفت انتباه الأسد أيضا ان مطلع القرن العشرين والذي شهد ظهور صحف مصرية عديدة ، قد أدى الى تأثر سورية بالأفكار ، التي كانت تطرح في هذه الصحف عن الامجاد العربية ، وتجدر الإشارة الى أنه عام ١٩٠٦ تآلفت جمعية (النهضة العربية) برئاسة صلاح الدين القاسمي وكانت اهداف هذه الجمعية رفعة العرب ، ومجدهم ، ونشر اللغة العربية ، وكان لهذه الجمعية دور كبير في ارساء القواعد الأولى للفكرة العربية في ظل الحكم العثماني .

وتجدر الإشارة أيضا الى أنه في أعقاب اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ انشئت في الاستانة (جمعية الاخاء العربي العثماني) وقد شكل السوريون في تلك الجمعية العدد الغالب ، وكانت هذه الجمعية تهدف الى الحفاظ على الدولة العثمانية وعدم تجزئتها مع الرغبة في أن يكون للعرب والسوريين تحديدا دورا في تلك الدولة ، والى هذه الجمعية يرجع عدد من الكتاب بدء بروز الفكرة القومية بمعالمها الواضحة .

وتتفق المصادر التاريخية على ان هذه الحركة لم تحاول حتى عام ١٩١٠ تبني سياسة مستقلة عن الدولة العثمانية ، وبالتالي اقامة كيانات عربية مستقلة .. غير ان الاتجاه الوطني نحو الاستقلال وبناء الدولة السورية قد تطور بعد ذلك ، وكانت جمعية

■ مبر التطوير في فكر الأسد ■

(العربية الفتاة) هي التي قادت هذا الاتجاه، ولقد قاد رجال جمعية العربية الفتاة الحكم الوطني في عهد فيصل ، وبعده خلال الانتداب الفرنسي تحت أسماء وصيغ مختلفة ، وكان فيصل بن الحسين قد انتسب الى هذه الجمعية عندما كان في دمشق عام ١٩١٥ ، ولقد ظهرت بعد ذلك أحزاب أخرى مثل حزب (الاتحاد السوري) وحزب (اللامركزية) ، وغيرهما أدت الى نمو الاتجاه العربي والمطالبة باستقلال سورية بحدودها الطبيعية .. يلفت الانتباه أيضا هنا .. ان حوارا هاما دار خلال تلك الفترة حول محاولة جماعة الاتحاد والترقي في اطار سعيها لتعميق فكرة القومية التركية على حساب غيرها ، العودة بتاريخ الاتراك الى ما قبل الاسلام .. في حين يجمع العرب على أن التراث الاسلامي هو نتاج الحضارة العربية، وعلى الرغم من أن جماعة الاتحاد والترقي رفعت شعارات براءة مثل الحرية والعدل والمساواة فإن ثمة شكوكا أحاطت برجالها واتهمتهم بأنهم « ماسونيون »

وفي كتاب حافظ الأسد (قائد ورسالة) نشر مؤلفه فؤاد العشا الرسالة التي بعث بها السير ج. لوثر سفير بريطانيا في استنبول إلى الخارجية البريطانية أشار فيها إلى مواقع الماسونيين واليهود في الحكومة الاتحادية ويقول : (بعد أن أزيح السلطان عبد الحميد الخصم الدائم للصهيونية بدأ اليهود يلعبون دورا في العاصمة وأخذت الدولة تعرف بدولة اليهود وأخذت لجنة الاتحاد والترقي تستفيد من جماعة الماسونية العالمية، واليهود يعملون للحصول على حكم ذاتي في فلسطين) .

وفي كتاب سوريا لمؤلفه على سلطان أنه ، في هذا السياق أكد السلطان عبد الحميد في رسالة كتبها بخط يده عام ١٩١١ وأرسلها الى أحد أصدقائه في دمشق .. بأن سبب خلعه من قبل جماعة الاتحاد والترقي كان رفضه لطلبات اليهود الملحة والسماح لهم بالهجرة الى فلسطين .

ولقد أخذت التطورات تتسارع حتى عقد العرب السوريون عام ١٩١٣ مؤتمرا في باريس ضم جمعية العربية الفتاة وحزب اللامركزية واللجنة الأصلية ، وقد عقد هذا المؤتمر في باريس ، ولكن مطالب هذا المؤتمر لم تخرج عن المطالبة بمساواة جميع رعايا الدولة العثمانية في الحقوق والواجبات ، ولم ترق أهداف المؤتمر إلى المطالبة بالانفصال عن الدولة العثمانية ، ولكن هذا المؤتمر جذب الاهتمام الأوربي لأهمية موقع الشرق الأدنى وسوريا ، ومن الواضح أن الصراع العربي مع الدولة العثمانية أثار مطامع انجلترا وفرنسا في وراثة تركة الرجل المريض على النحو الذي سيلي فيما بعد ، ولقد وضحت أهمية سورية الاستراتيجية بعد دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا لأنها أصبحت الممر الوحيد بين الأناضول وباقي أجزاء المنطقة العربية وخاصة مصر حيث رغبت تركيا منذ بدء الحرب في احتلال قناة السويس والسيطرة على مصر لحرمان الإنجليز

■ الفصل الثاني

من موقعها الاستراتيجي الحساس ، ونظرا لاهمية سورية فقد عينت الدولة التركية أحد قادتها الكبار وهو جمال باشا حاكما عسكريا عليها ، وهو الذي اشتهر بلقب السفاح بسبب الاعدامات التي نفذها ضد الوطنيين بهدف تدعيم سلطته وادخال الرعب في قلب من يقاومونه .

نعود فنقول أنه بعد أن خابت آمال الوطن العربي ، وخرج من محنة اليمة ليقع في محنة أشد ايلاما منها ، وضع الاستعمار سياسة تقطيع أوصال المنطقة العربية ، وقتل وسائل المقاومة في الأمة واضعاف روح التماسك فيها بحيث تخضع لارادته وتذل لسلطانه وتستكين لجبروته ، وكما يقول الرئيس حافظ الأسد : « فقد عبث الاستعمار بكل معنى كريم وكل وضع صالح في الوطن العربي وأرهق الأمة العربية بالفقر والبؤس والحرمان وساقها الى متاهة الجهل ، وهكذا انفرط عقد الوطن العربي بفعل الاستعمار وشاعت في جنباته عوامل الهدم والتدمير ، ولكن العرب كالعهد بهم لم يستكينوا لهذا الحال ، ولم يرضخوا للمذلة والهوان ، فهم أبناء أمة عريقة في المدنية ، ضاربة في أعماق المجد ، أمة كتبت الفصول الأولى في تاريخ الانسانية ، فضلا عن أن هذه الأمة العربية تنطوي على أكرم العناصر وأطيب المخابث ، تغذت من ينباع الحكمة والمعرفة وتمكنت منها فكرة الحق والهدى والعدل ، فقدمت للانسانية أطيب ثمار هذه الفكرة ، وساهمت في إسعاد الانسانية ، ولقد بدأ الركب يسير إلى غاياته نحو صبح مشرق ، وبدأت المشاعر العديدة الكريمة تنتظم هذا العالم الكبير ، فتهز الطيب من أعراقه والأصيل من صفاته وغرائزه والدفين من ماضيه لتجعل منه كما كان أمة واحدة تعيش على هدى فكرة واحدة هي العدل والحق وتعمل كالعهد بها على نصرة الخير وإسعاد البشر .. لقد اندلعت الثورات في أرجاء الوطن العربي ضد الاستعمار تعمل على دك معاقله وتدمير حصونه وانزال الضربة القاضية به ، والقضاء المبرم عليه حتى تتخلص من مأساه وتتطهر من آثامه ، وشروبه » .

حكم فيصل بن الحسين لسورية

□□ بعد تحرير دمشق من الحكم التركي عين الجنرال النبی القائد العام لجيوش الحلفاء في منطقة الشرق الأوسط الأمير فيصل بن الحسين حاكما على الجزء الداخلي من سورية فقط ، في حين رفض منحه صلاحية الاشراف على أي جزء من الساحل السوري واللبناني والفلسطيني ، وقد أذعن فيصل لأوامر النبی في حين أنه كان قد أعلن في ٥ أكتوبر تشرين ١٩١٨ تأليف حكومة عربية تشمل جميع البلاد السورية (أي لبنان وفلسطين وشرق الأردن بالإضافة إلى سورية) ولكن هذه الدولة العربية التي أسسها فيصل وجعل عاصمتها دمشق لم تمكث طويلا فقد تلاحت الأحداث الخارجية التي عجلت بالقضاء عليها وهي في مهدها ، ذلك أن هذه الدولة الجديدة كانت تضم

■ مبر التاريخ في فكر الأسد ■

المناطق التي تقرر اعطاؤها لفرنسا طبقا لاتفاقية « سايكس بيكو » السرية المبرمة بين الحلفاء عام ١٩١٦ ، وقد أصرت فرنسا على تنفيذ هذه الاتفاقية وترتب على هذا الاصرار من جانب فرنسا اخفاق الأمير فيصل في الحصول على موافقة مؤتمر الصلح (الذي عقد في فرنسا عام ١٩١٩ على انشاء الاتحاد أو الحلف العربي الذي سبق أن وعد الحلفاء والده به أثناء الحرب ، وجاء ذكره في المراسلات المتبادلة بين الحسين ومكماهون .

ولكن الحلفاء كانوا يظهرون شيئا ويضمرون شيئا آخر ، فقد دبروا مؤامرة في الخفاء تهدف إلى تقطيع أوصال الوطن العربي وتقاسمه فيما بينهم قسمة الغنائم والاسلاب ، ولكنهم ظهروا خلال الحرب بمظهر الأصدقاء المخلصين للعرب وأنهم يعملون لانقاذهم من ظلم الأتراك ومساعدتهم في معركة التحرير والاستقلال ، وهم بهذا المظهر الكاذب والشعور المصطنع كانوا يخدمون أنفسهم ويحاولون كسب ود العرب ومساعدتهم ليكسبوا الحرب ضد تركيا وألمانيا .

أن اطماعهم ومصالحهم الخاصة هي التي توجههم في رسم سياستهم دون أن يحفلوا بمبادئ الشرف في تعاملهم مع الغير .

أن سياسة الحلفاء رسمت على أساس انتزاع الوطن العربي من تركيا ثم احتلاله بعد ذلك بأي وسيلة ، وتنفيذا لهذه السياسة أصدر مؤتمر الصلح في ٢٠ يناير كانون الثاني عام ١٩١٩ قرارا بفصل البلاد العربية عن تركيا ثم أصدر المؤتمر قرارا آخر في ٢١ مارس بإيفاد لجنة تحقيق دولية لدراسة أحوال تلك البلاد العربية وتبين رغبات أهلها .

وفي ٢٨ ابريل من العام نفسه صدق المؤتمر على ميثاق عصبة الأمم ، وقد ابتكر الميثاق في المادة ٢٢ منه نظام الانتخاب .

ونذكر بخصوص اللجنة التي أوفدها المؤتمر لدراسة وبث الوضع في البلاد العربية أن هذه اللجنة (هي لجنة أمريكية قامت بمهمتها في سورية ثم عادت إلى باريس في سبتمبر عام ١٩١٩ لتقدم تقريرها إلى المؤتمر) .

ولكن حدثت مفاجأة غيرت مجرى الأمور ، ذلك أن الشعب الأمريكي تخطى عن رئيسه (ولسن) فاضطرت اللجنة الى العودة فورا إلى أمريكا حيث قدمت تقريرها الى حكومة واشنطن وقد تضمن التقرير توصية من اللجنة برفض مطالب الصهيونيين ، واقتراحا بضم فلسطين لسورية وأقسامها الأخرى ، وكانت اللجنة ترى أيضا ضم لبنان إلى سورية على أن يتمتع باستقلال إداري واسع .

ولم يؤخذ بتقرير هذه اللجنة بعد انسحاب أمريكا من مؤتمر الصلح وبذلك خلا الجو لانجلترا وفرنسا .

■ الفصل الثاني

وفي ١٢ سبتمبر أيلول عام ١٩١٩ أرسل لويد جورج إلى الأمير فيصل والحكومة الفرنسية مذكرة تضمنت عدة بنود مفادها :

١. انسحاب الجيوش الانجليزية من سورية في أول نوفمبر تشرين الثاني عام ١٩١٩.

٢. حلول الجنود الفرنسيين محل الحاميات البريطانية.

٣. بقاء الجنود الانجليز في العراق وفلسطين.

ومعنى هذه البنود أن انجلترا رفضت يدها من سورية تماما وأطلقت يد فرنسا فيها.

وما كاد الأمير فيصل يتلقى هذه المذكرة حتى رد عليها بمذكرة وجهها إلى (لويد جورج) وقد ضمن هذه المذكرة احتجاجه على ما ورد بالمذكرة الانجليزية التي تهدف إلى تقسيم البلاد والعمل على تجزئتها ، وذكر أن تصرف الانجليز فيه خروج صارخ على مبادئ العدالة وليس هذا هو الموقف الذي كان يتوقعه العرب من الحلفاء بعد وعودهم ومواثيقهم خلال الحرب .

وذكر فيصل أنه في حالة انسحاب الجيش البريطاني من سورية فيجب أن تنسحب أيضا سائر الجيوش الأجنبية، وتترك المسؤولية للجيش العربي ، وأشار فيصل إلى أن تصرف انجلترا المستند إلى اتفاقية سايكس بيكر السرية لا يلزم العرب ولذلك فإنهم يرفضون تجزئة بلادهم ولا يعترفون بأى اتفاق لم يكن لهم به علم .

وفي يناير كانون الثاني عام (١٩٢٠) استطاع الأمير فيصل أن يعقد اتفاقا مع (كليمنصو) رئيس وزراء الحكومة الفرنسية .. تقرر بمقتضاه الاعتراف باستقلال سورية مع خضوعها لنوع من النفوذ والإشراف الفرنسي ، ولكن سرعان ما اعتزلت حكومة كليمنصو الحكم وترتب على ذلك سقوط الاتفاق المعقود مع فيصل لأن الحكومة الجديدة لم تعترف به .

والواقع أن من يطلع على هذا الاتفاق يجده وثيقة للحماية ، وليس وثيقة للاستقلال ويجده مليئا بالشروط والقيود التي تسلب سورية سيادتها الداخلية والخارجية ويجعلها تحت حماية فرنسا إذ لم يعترف الاتفاق بحق سورية في التمثيل الخارجى وإنما سلبها هذا الحق ، وجعل ممثل فرنسا في سورية يدعى مفوضا ساميا وليس وزيرا مفوضا أو سفيرا ، ووصف ممثل فرنسا بهذا الوصف يتناقى مع فكرة الاستقلال ، ونص الاتفاق على اشتراك فرنسا مع سورية في تنظيم جبل الدروز وجعله مستقلا استقلالاً داخليا ، وهذا الاشتراك مناف أيضا للاستقلال ، كما نص الاتفاق على وجوب تدريس اللغة الفرنسية في المدارس والمعاهد السورية اجباريا وجعلها متميزة على غيرها ، ولم يرد بالاتفاق شيء عن الاعتراف

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

بضم سواحل سورية إليها ، وكانت تلك السواحل خاضعة للإدارة الفرنسية ، وكانت نية فرنسا واضحة في هذه المسألة إذ كانت متجهة إلى فصلها عن الداخل .
وجملة القول أن فرنسا كانت تعمل على تفتيت وحدة البلاد حتى يسهل عليها حكم البلاد عبر سياسة « فرق تسد » .

ونذكر أن الانجليز هم الذين مهدوا لهذا الاتفاق ، وأبلغوا الأمير فيصل ضرورة التفاهم مع فرنسا لتسوية الوضع الخاص بسورية ، وقد كان فيصل نظرا لقلة خبرته حذرا بخصوص هذا الاتفاق فاحتاط للامر ، وجعل موافقته النهائية عليه مرهونة بقبول الشعب السوري له ، ولما عاد الى دمشق في يناير كانون الثاني عام ١٩٢٠ عرض مشروع الاتفاق على رجال السياسة والوطنيين فمضوا برفضه نهائيا نظرا لما يتضمنه من اهدار لسيادة سورية في الداخل والخارج فضلا عن تفتيت وحدة البلاد .

وفي ٨ مارس آذار عام ١٩٢٠ اجتمع مؤتمر سوري وأعلن استقلال سورية بما فيها فلسطين ، وأصدر عدة قرارات هامة تعبر عن رأى أهل البلاد وتترجم شعورهم وتبين أمانتهم وخلاصة هذه القرارات هي :

- استقلال البلاد السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين استقلالا تاما .
- الاعتراف بالأمير فيصل ملكا دستوريا على سورية .
- مراعاة أمانى اللبنانيين الوطنيين في إدارة شئون لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب على أن يكون في معزل عن كل تأثير أجنبي فيه .
- رفض مزاعم الصهيونية في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود أو محل هجرة لهم .
- وفيما يتعلق بالعراق نظرا لما بينه وبين الشام من صلات وروابط لغوية وتاريخية وجنسية واقتصادية وجغرافية مما يجعل القطرين لا يستغنى أحدهما عن الآخر طالب ببيان المؤتمر باستقلال العراق استقلالا تاما على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسى اقتصادى .

ولما كانت قرارات المؤتمر السوري منافية لمطامع فرنسا في سورية ولبنان ، ومتعارضة مع مطامع إنجلترا في فلسطين وشرق الأردن والعراق فإن الدولتين (إنجلترا وفرنسا) قررتا عدم الاعتراف بها ، وأبلغتا « فيصل » بهذا القرار .

وفي أبريل نيسان عام ١٩٢٠ عقد مؤتمر (سان ريمو) (مجلس الصلح الأعلى) وأبرمت اتفاقات بين إنجلترا وفرنسا تقضى بتقاسم الانتداب في الشرق الأدنى ، وأسفر المؤتمر عن وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، وفلسطين وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب الانجليزى ، ومما قرره المؤتمر أيضا أن تتنازل فرنسا عن ولاية الموصل لانجلترا فتتبع هذه الولاية العراق بدلا من سورية ، وأخذت فرنسا مقابل ذلك حصة من نفط الموصل تساوى ٢٣,٧٥٪ من ناتج النفط ، ولما كسبت إنجلترا هذه الصفقة اعترفت

■ الفصل الثاني

بانتداب فرنسا على سورية ، وبذلك باعت انجلترا سورية وصداقة العرب بنفط الموصل .
وبناء على قرارات مؤتمر (سان ريمو) بدأت فرنسا تنفذ سياستها وتستخدم
قوتها لوضع الانتداب موضع التنفيذ العملي فأرسل الجنرال (جورو) انذارا الى
فيصل في ١٤ يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ وطلب منه الاعتراف بالانتداب الفرنسي ،
وانقاص عدد الجيش السوري ، والغاء الخدمة العسكرية والتعامل بالعملة الفرنسية في
سورية ، والسماح باحتلال القوات الفرنسية لحلب .

وقد قبلت حكومة فيصل الانذار الفرنسي بشروطه القاسية وأرسلت كذلك برقية
للجنرال الفرنسي « جورو » تسلم فيها بقبول الانذار وانها شرعت في تنفيذه ولم ينتظر
الجنرال جورو بعد ارسال الانذار ، وأمر قواته بالزحف على دمشق لينهى الحكم
العربي في سورية ، وادعى كاذبا ان تفاصيل قبول الانذار لم تصل اليه في الساعة
المحددة .

وواقع الأمر ، وهذا ما تجمع عليه معظم المصادر التاريخية ان اذعان الامير فيصل
لأوامر النبي القائد العام لجيوش الحلفاء في منطقة الشرق الاوسط ثم استمراره في
سياسة الخضوع للسياسة البريطانية ، وهي السياسة التي أكدها في خطابه الذي ألقاه
في مدينة حلب والذي قال فيه ان للحكومات الغربية وخاصة انجلترا وفرنسا اليد البيضاء
في مساعدتنا وشد أزربنا ، ولم ينس العرب ماداموا على وجه البسيطة فضل معاونتهم ،
ونسى فيصل أو تناسى ان هذه الأيادي هي التي اقتطعت بلاد العرب وتقاسمتها
واجهضت مشروع أول دولة موحدة في تاريخ العرب الحديث .

والواقع ان الأحزاب السياسية شغلت دورا غير حازم في تلك الأونة فهي وقد رأت
فيصل يقدم التنازل لتو التنازل عن الطموحات العربية في الحرية والاستقلال فإن هذه
الأحزاب لم تتخذ من الناحية العملية أى اجراء أو أى موقف حازم تجاه سياسة التفريط
التي انتهجها فيصل في حق الأمة العربية وأراضيها ، غير ان الشعب في سورية كان له
رأى مغاير ، وفور وصول انباء توصل فيصل وكليمنصو الى الاتفاقية التي تخلى فيها
فيصل عن الوحدة العربية ، واعترف بوضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي الصريح
واعترف بانفصال فلسطين عن سورية قرر الزعماء الوطنيون المتحمسون وسط هياج
الشعب ضد فيصل - الذي اتهم بالتآمر - مقاومة الاتفاقية ، وأخذت الاحداث مسارا عنيفا
جديدا عندما حاول الملك فيصل وهو بين نارين .. نار الشعب السوري الثائر لكرامته ،
ونار الجيش الفرنسي المندفع إلى المرتفعات خارج دمشق بكل قوته وغطرسته ، رأى ان يجمع
الوزارة ويبحث معها انذار الجنرال (جورو) الذي لم يعد يقبل ببقاء جيشه في المنطقة
(عين جديدة) ولا في محطة (التكية) وهما موقعان مهمان قريبان من العاصمة
السورية ورأى أن تعسكر قواته في (ميسلون) ريثما يتفق على موضع آخر تحل فيه

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

القوات الفرنسية ، وميسلون تقع على مسافة قريبة من غربى دمشق وهى مكان استراتيجى ممتاز ، وتعد مفتاح العاصمة .

وعندما ازداد صلف وغرور الجنرال جورى تصدى له السوريون بقيادة يوسف العظمة وزير الدفاع للقوات الفرنسية ، وحدثت بين الفريقين معركة بالقرب من دمشق التى كانت تغلى كالمرجل فى ٢٤ يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ تعرف بمعركة « ميسلون » ، واستشهد فى المعركة يوسف العظمة .

وارتد السوريون عندما نفدت ذخيرتهم ، وفى ٢٥ يولية دخل الجيش الفرنسى دمشق ، وغادرها فيصل فى ٢٨ يوليو (وتولى عرش العراق فيما بعد) .

وعندما انتهى عهد حكومة فيصل فى سورية بدخول الفرنسيين دمشق ، بدأ عهد جديد ، هو عهد الانتداب والاحتلال ، وهو عهد مظلم ضاع فيه استقلال البلاد ، وترعزت آمال ابنائها فى اعادة مجد الامة العربية .

وبدأت فرنسا فى تنفيذ خططها الاستعمارية فى المنطقة ، وهذه الخطط كانت تستهدف تقسيم سوريا وتقطيع أوصالها ولذلك أصدر (جورى) قرارا بتقسيم المنطقة الى أربع دويلات منفصلة عن بعضها بعضا وهى لبنان وقد عملت فرنسا على توسيع هذه المنطقة فاضافت اليها بيروت وطرابلس وصور وصيدا والأراضى الممتدة الى الحدود الفلسطينية ، ودولة دمشق (ويدخل فيها جبل الدروز) ودولة حلب (ويدخل فيها لواء الاسكندرونة) ودولة العلويين (وتشمل لواء اللاذقية) .

ولكن هذا التقسيم لم يثبت على هذا الوضع وإنما طرأت عليه تغييرات عديدة ، وكان الفرنسيون يدعون أن سكان المقاطعات السورية هم الذين يريدون أن ينفصل بعضهم عن بعضهم الآخر على الشكل المذكور ، ولكن هذا الادعاء - من قبل فرنسا - باطل لا يستند الى أى أساس سليم مشروع ، وإنما هذه التجزئة والتفرقة ترجع الى سياسة استعمارية اتبعتها فرنسا فى بلاد الشام لتسيطر وتسود فيها .

وظلت البلاد مقطعة الأوصال بهذه الصورة البشعة الى عام ١٩٣٦ حيث تم الاتفاق فى معاهدة على ضم مقاطعتى جبل الدروز والعلويين الى الدولة السورية (دمشق - حلب) وتم هذا الضم بناء على قرارين أصدرهما المندوب السامى فى ديسمبر كانون الأول عام ١٩٣٦ وعاشت سورية فى ظل حكومة وطنية لمدة عامين (١٩٣٧ - ١٩٣٨) ذقت خلالهما طعم الوحدة الوطنية .

ولكن الفرنسيين عادوا الى سالف عهدهم وسابق سياستهم الاستعمارية الهدامة فنكثوا بمعاهدة ١٩٣٦ وأخذوا يتآمرون على الحكومة الوطنية ويكيدون لها ويضعون العراقيل فى طريقها حتى انتهى الامر باستقالة رئيس الجمهورية السورية عام ١٩٣٩ وفى هذا الجو الارهابى الفاسد أسرفت فرنسا الاستعمارية فى تدخلها بشئون البلاد ،

■ الفصل الثاني

وتطرفت في تصرفاتها الشاذة ، ولما رفض الوطنيون قبول الحكم عادت فرنسا الى مباشرة جميع الشئون علنا واصدر المندوب السامي قرارات بتوسيع الاستقلال الداخلي في جبل الدروز والعليين

تلك هي سياسة فرنسا في انتدابها على سورية ، وهي سياسة مدمرة تعمل على هدم كيان البلاد واذلال أبنائها وتحطيم معنوياتهم والاستيلاء على خيرات بلادهم وحرمانهم منها ، وطيلة مدة الانتداب وفرنسا تعمل في سورية على التفريق بين المقاطعات والعناصر والطوائف حتى تظل مسلطة على الجميع .

ولا جدال في أن هذه السياسة كانت على عكس ما تدعيه فرنسا من انها جاءت الى سورية مندوبة من قبل عصبة الأمم لكي تهنيء السوريين للاستقلال التام ، وانما كانت تبذل كل ما في وسعها لأطالة مدة سيطرتها المطلقة على البلاد، وبلغ تهوس فرنسا في سورية درجة شنيعة لا يقرها العقل بتاتا اذ أطلقت ضباط مخابراتها لتحريض نصارى الجزيرة على مقاومة سلطة الحكومة السورية ، حتى يقيموا فيها حكما لا مركزيا ومحافظا فرنسيا ، وقد تمكنوا من تعيين محافظ فرنسي للجزيرة عام ١٩٣٩ وعملوا على فصلها عن الدولة السورية ، ولكن الحرب الكونية الثانية أدركتهم فأوقفت سياستهم ، ولم تمكنهم من تحقيق أغراضهم .

ونسجل هنا أن فرنسا سلمت منطقة لواء الاسكندرونه . وكانت تابعة للدولة السورية الى تركيا متبعة في هذه المسألة أحط السبل (وكان ذلك في عام ١٩٣٩) ومن قبيل التتكيل بالسوريين الذين ثاروا عليهم ، نذكر أيضا ان المندوب السامي أوقف الدستور السوري (الذي كان قد صدر بقرار من المندوب السامي عام ١٩٣٠) وعين مجلسا من المديرين يتولى ادارة البلاد تحت اشرافه ، وعلى العموم كان المندوب السامي الفرنسي يسيطر سيطرة تامة على شئون سورية الداخلية بحيث لا يبرم أمر في الداخل أو الخارج إلا عن طريقه وبموافقته ، وعلى ذلك فإن الدستور لم يكن شيئا ذا أهمية كبيرة بالنسبة للبلاد لأن مرد الأمور في الواقع كان في جميع الأوضاع في يد الفرنسيين .

كان هذا هو الوضع في سورية عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، ولما انهارت فرنسا وتولت حكومة (فيشي) مقاليد الأمور فيها (حكومة المارشال بيتان) كادت سورية ولبنان تخضعان للسيطرة الألمانية لأن المندوب السامي حينئذ (وهو الجنرال دنترز) أعلن ولاءه لحكومة فيشي ولكن بعض القوات البريطانية والفرنسية (من قوات فرنسا الحرة) استطاعت في صيف عام ١٩٤١ دخول سورية واحتلالها احتلالا مشتركا ، وفي يونيو ١٩٤١ أعلن الجنرال كاترو ممثل فرنسا باسم حكومة فرنسا الحرة انتهاء الانتداب واستقلال سورية (وكذلك لبنان) وأعلن قيام الجمهورية السورية المستقلة ، وبرغم هذا

■ مبر الخليل في فكر الأسد ■

الاعلان وقيام حكومة وطنية في سورية فقد تلكا الفرنسيون في تسليمها السلطة الفعلية وحاولوا فرض معاهدة على سورية تربطها بفرنسا ربطا مؤبدا ، ولكن الشعب السوري أصر على الرفض الامر الذي أثار أحقاد الفرنسيين فأطلقت قواتهم مدافعها على المدن السورية الرئيسية وقذفتها الطائرات بقنابلها ، وهدمت دار المجلس النيابي في دمشق ، ولكن القوات البريطانية تدخلت في المعركة التي تعتبر من طرف واحد (وكان هذا التدخل بناء على تعليمات تشرشل رئيس الوزراء البريطاني وأوقفت الفرنسيين عند حدهم ، ولكن الوضع - على الرغم من ذلك - لم يتغير إذ ظل الاحتلال الفرنسي رابضا في سورية ولبنان .

وإزاء هذا الموقف لم تجد الحكومة السورية بدا من عرض قضيتها على الأمم المتحدة للمطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها جلاء تاما نافذا ، وقد دافعت سورية عن حقوقها أمام الأمم المتحدة ، وكان دفاعها قويا لأنها كانت تطالب بحق أصيل فضعه المستعمر ظلما وعدوانا ، وبالمحصلة قررت الحكومة الفرنسية الجلاء عن سورية ، وبعد جلاء المستعمر وخروج آخر جندي فرنسي من سورية في ١٧ نيسان ابريل عام ١٩٤٦ أهتمت الحكومة الوطنية بأمر الجيش وتقويته ، وقد خاض الجيش السوري حرب فلسطين مع بقية الجيوش العربية ضد الدولة الصهيونية ، ولكن الحرب انتهت بهزيمة الجيوش العربية ، وكانت هذه الهزيمة الحربية من الأسباب المباشرة في حدوث انقلاب في سورية في ٣٠ مارس عام ١٩٤٩ على يد حسني الزعيم رئيس أركان حرب الجيش ، وكان الجميع متأثرا باخفاق العرب في حرب فلسطين ، ويدعو إلى تقوية الجيش في ظل النظام الجديد والثار للهزيمة واسترداد حقوق العرب المسلوبة في فلسطين ، ولكن مدة حكم حسني الزعيم لم تطل ، وحدث انقلاب جديد برئاسة سامي الحناوي استمر فترة وجيزة ، ثم حدث انقلاب بزعامة أديب الشيشكلي ، وهكذا توالى الانقلابات العسكرية في سورية وتعرضت البلاد لهزات عنيفة ، وانتاب الشعب السوري القلق على مصير البلاد من هذه الانقلابات غير الهادفة لصالح الشعب ، والتي كانت تهدد الكيان السوري وتفتح الباب أمام العدو الخارجي ، وقد عزم الشعب على إنهاء هذا الوضع الخطر فقامت ثورة ضد أديب الشيشكلي وقضت عليه ، ثم تولى رئاسة الدولة هاشم الأتاسي لفترة وجيزة ريثما تجرى انتخابات في البلاد وانتهى الأمر بتولي شكري القوتلي رئاسة الجمهورية ، وقد انتهج سياسة عربية قومية وعمل على التقريب بين سورية وجيرانها العرب وساعد على إذكاء مبدأ القومية العربية ونشره بأنه سبيل العرب إلى التوحد والقوة والاستقلال ، وقد تم في عهده اتحاد سورية مع مصر وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، وبذلك دخلت سورية في مرحلة تاريخية جديدة وتوجت جهادها الطويل الزائع بخطوة جديدة ثم تتابعت الأحداث على النحو الذي سنعرض له في فصل قادم .

الأسد: الجلاء الأصغر والجلاء الأكبر

□□ شكل السابع عشر من إبريل نيسان ١٩٤٦ ، يوم جلال المحتلين عن أرض سورية، تنويعا لمرحلة كفاحية طويلة ، خاضها الشعب العربي السوري للتخلص من الانتداب الفرنسي ، ومواجهة المخططات الاستعمارية والصهيونية الرامية الى اقتطاع فلسطين وجعلها (وطنيا قوميا) للصهاينة .

لقد كان السابع عشر من إبريل نيسان ١٩٤٦ نهاية أو تنويعا للجهاد الأصغر الذي خاضه الشعب السوري ، وبداية للجهاد الأكبر ، المتمثل في الكفاح من أجل تحقيق أهداف الأمة العربية التي أعلنها حزب البعث العربي الاشتراكي عند تأسيسه في السابع من إبريل نيسان سنة ١٩٤٧ كأهداف له ، وتبنى حركة القومية العربية المعاصرة ، وهي الوحدة والحرية والاشتراكية .. كان الجلاء عن سورية ايذانا ببداية الجهاد الأكبر ، لأن سورية كانت أول دولة عربية تحقق انجاز طرد المستعمرين ، والتخلص من احتلالهم دون شروط . أو اتفاقيات تكبل حريتها ، أو تحد من سيادتها ..

سورية لم تنظر الى تحقيق الجلاء كإنجاز قطري ، ولم تكتف به ، ولكنها اعتبرت خطوة على طريق تحرر باقي الاقطار العربية . واستقلالها ، وعلى طريق مواجهة الخطر الصهيوني ، وتحرير فلسطين ، في انهاء التجزئة التي فرضها المستعمرون ، وبناء دولة الوحدة العربية ، كانت رؤية سورية هذه امتدادا لرؤيتها التي عبرت عنها ، وسعت اليها بوضوح منذ مطلع هذا القرن ، فقد كانت سورية - وما تزال منبعا للفكر ، والعمل القومي العربي بكل صيغه وأشكاله ، فالفكر القومي العربي نشأ ، وترعرع ، وتبلور في سورية ، ولذلك كرس المستعمرون خططهم وجهودهم من أجل تمزيق الوطن العربي ، فكانت التجزئة التي فرضها المستعمرون على سورية ، وكان الوعد الاستعماري (وعد بلفور) للصهاينة بإقامة (وطن قومي لهم) في فلسطين ليكون حارسا لهذه التجزئة ، وممانعا لوحدة العرب ، ومعرقلا لتقدمهم .

ولم يكن هذا كله داعيا للاستسلام أو التقاعس ، بل كان باعثا لمزيد من الكفاح ، ففي الوقت الذي كان فيه الشعب السوري يخوض غمار الكفاح ضد المحتلين الفرنسيين ، كان يشارك بكل مايسطيع في دعم كفاح الشعب العربي الفلسطيني ضد المحتلين البريطانيين وضد العصابات الصهيونية ، ولعل أبرز الامثلة على ذلك هو الدعم الذي قدمته سورية لثورة الشعب الفلسطيني عام ١٩٣٦ .

مع جلاء المحتل الفرنسي ، بدأت سورية العمل في الساحة العربية لتنبية العرب الى

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

المخاطر التي ستنتج عن احتلال الصهاينة لفلسطين والأهداف العدوانية ، والتوسعية التي يسعى الصهاينة الى تحقيقها عند اقامة كيانهم فيها . وقد أفلحت جهود سورية آنذاك ، وفي اطار تحقيق ما هو ممكن في ظل الأوضاع الدولية والاقليمية السائدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، في اتفاق الدول العربية المستقلة وقتئذ على تأسيس جامعة الدول العربية كإطار عربي يمكن من خلاله توحيد الصف والجهد العربي لمجابهة الأخطار والتحديات الاستعمارية والصهيونية .

ومنذ ذلك الحين تمكنت سورية من جعل القضية الفلسطينية القضية القومية العربية الاولى ، والبند الاول والرئيسي على جدول أعمال الدول العربية باعتبار ان الخطر الصهيوني في فلسطين خطر على كل العرب يهدد حاضرم ومستقبلهم جميعا ،

وكان من نتيجة ذلك عام ١٩٤٨ ، وبعد اعلان الصهاينة عن اقامة كيانهم في فلسطين اشتراك الجيوش العربية في الحرب ضد هذا الكيان دفاعا عن عروبة فلسطين ، وتشكيل جيش الانتقاذ الشعبي العربي الذي كان قوامه الأساسي من أبناء الشعب العربي السوري .

وعلى الرغم من الظروف التي احاطت بتلك الحرب، والنتائج العسكرية التي انتهت إليها نتيجة للاختلال الكبير في ميزان القوى لغير صالح العرب ، فقد ساهمت سورية بنصيب وافر في قيادة الموقف القومي العربي ، والذي تمثل في رفض الاستسلام لتلك النتائج ورفض الاعتراف بالكيان الصهيوني ، ورفض تحويل خطوط الهدنة الى حدود معترف بها ، والتمسك بالحقوق العربية في فلسطين ، وفرض اجراءات المقاطعة العربية على الكيان الصهيوني .

وتعرضت سورية نتيجة ذلك لحملة مكثفة ومركزة من جانب القوى الاستعمارية استهدفت اضعاف مكانتها القومية وادخالها في دوامة من الانقلابات العسكرية للحيلولة دون استقرار الأوضاع فيها ، ودون تمكينها بالتالي من الاستمرار في اداء دورها القومي الريادي المتميز .

وكما كان حال سورية دوما ، تزداد قوة وصلابة كلما ازدادت التحديات والأخطار التي تواجهها ، فقد ردت ردا استراتيجيا كبيرا على هذه التحديات باعلانها الوحدة مع مصر في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) عام ١٩٥٨ ، وصنعت بذلك اول وحدة عربية في تاريخ العرب المعاصر ، وأول رد استراتيجي عربي في المعركة الاستراتيجية الكبرى التي فرضت على الامة العربية منذ مطلع هذا القرن .

وما ان وجهت القوى الاستعمارية ضربتها لدولة الوحدة الفتية من خلال الانفصاليين

■ الفصل الثاني

في الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ حتى بادرت سورية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي الى الرد على هذه التحديات وفي اطار المعركة ذاتها ، الى تفجير ثورة الثامن من آذار (مارس) عام ١٩٦٣ التي شكلت بداية مرحلة جديدة تركت ومازالت تترك انعكاساتها ومضامينها الايجابية على مجمل الوضع العربي .

ومع انطلاقة ثورة الثامن من آذار في سورية، ومع تحسين الاوضاع العربية إثر حصول معظم الاقطار العربية على استقلالها وبخاصة انتصار الثورة الجزائرية ، والتحسن الذي طرأ في المناخ الدولي وفي علاقات العرب الدولية ، وبخاصة مع الاتحاد السوفيتي ، فقد استعادت سورية **أدروها القومي** ، وبادرت بنشاط الى العمل من أجل تمكين الجهد القومي وتوحيد الصف العربي في مواجهة الخطر الصهيوني ، ومن أجل العمل على استرجاع الحقوق العربية المغتصبة في فلسطين فكان قرار القمة العربية عام ١٩٦٣ بتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية ، وكان قرار القمة بتشكيل جيش التحرير الفلسطيني .

ولم تكف سورية بذلك بل هيأت كل ما استطاعت من أجل دعم انطلاقة الثورة الفلسطينية المسلحة في مطلع عام ١٩٦٥ ، وكانت الأرض التي انطلقت منها هذه الثورة في كفاحها من أجل تحرير فلسطين واستعادة الحقوق الوطنية الفلسطينية المغتصبة .

وقد ردت القوى المعادية على ذلك بالعدوان الذي شنته اسرائيل في الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، على مصر وسورية والأردن مستهدفة تحقيق أطماعها التوسعية باحتلال المزيد من الأراضي العربية ، وإعادة طمس القضية الفلسطينية والشخصية الوطنية الفلسطينية وفرض الحلول الصهيونية لتصفية القضية الفلسطينية وفرض الاستسلام على العرب واجهاض التطلعات التي عبرت عنها مؤتمرات القمة العربية نحو المزيد من وحدة الموقف والعمل القومي العربي .

لقد ردت سورية على ذلك برفض الاستسلام أياً تكن النتائج ومتابعة درب الكفاح أياً تكن التضحيات ، وبالعامل على أكثر من محور وقد تمثل ذلك في النقاط التالية .

١. تعزيز القوة العسكرية السورية والعربية .
٢. تقديم المزيد من الدعم لفصائل الثورة الفلسطينية
٣. العمل على ادماج الفصائل الفلسطينية في اطار منظمة التحرير الفلسطينية لتوحيد الجهد الفلسطيني وبلورة صورة الشخصية الوطنية الفلسطينية المناضلة .
٤. الحيلولة دون رضوخ العرب لمشينة اسرائيل ، وقد تمثل ذلك في قرارات قمة الخرطوم الشهيرة .
٥. إعادة النظر في علاقات سورية والعرب الدولية ، والعمل على تعزيز العلاقات وتميئتها مع الاتحاد السوفيتي والدول الأخرى المؤيدة والمساعدة للحقوق العربية في مواجهة العدوان الاسرائيلي .

■ خبر التاريخ في شهر الأسد ■

وتمثل رد سورية الاكبر على هذه التحديات في قيام الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس الأسد في السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ .

فقد أعطت الحركة التصحيحية مضامين أقوى وأكثر فاعلية للجهد الكفاحي السوري والعربي، ونقلت هذا الجهد الى حيز العمل الجاد والدعوب من أجل تحقيق اهداف الأمة العربية .

وقد لخص الرئيس حافظ الأسد بعد سنوات معركة العرب القومية بقوله : « نحن الآن امام عمليتي عدوان : عملية استراتيجية وعملية تكتيكية . العدوان الاستراتيجي هو الذي أنتج التجزئة ، والعدوان الاستعماري الاستراتيجي هو الذي أنتج احتلال الأرض وتشريد مزيد من شعبنا العربي في عام ١٩٦٧ . وكما علينا أن نناضل من أجل ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ ، علينا أيضا أن نناضل من أجل ازالة آثار ذلك العدوان الاستراتيجي الكبير الذي أنتج التجزئة .

ولو قدر لنا أن ننجح في ازالة التجزئة ، في ازالة آثار العدوان الاستراتيجي لاستطعنا بشكل آلي أن نزيل آثار العدوان التكتيكي لعام ١٩٦٧ . بهذا الفهم العميق للصراع في المنطقة قاد الرئيس حافظ الأسد الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ التي لم يقتصر عملها على تصحيح مسار ثورة البعث على الصعيد الداخلي السوري ، وإنما انطلقت لتصحيح الكثير من المفاهيم والأوضاع التي تعرقل العمل العربي من أجل الرد على العدوانين : الاستراتيجي والتكتيكي ، ردا قوميا فاعلا . فكان تأسيس اتحاد الجمهوريات العربية الذي ضم كلا من مصر وسورية وليبيا وكان انطلاقة جديدة للقمة العربية ودورا أكثر فاعلية لها ، وكان الهم وهو حرب تشرين (أكتوبر) التحريرية في السادس من تشرين الاول عام ١٩٧٣ تلك الحرب التي خاضتها سورية ومصر معا . وأسهمت فيها قوات عسكرية من عدد كبير من الاقطار العربية تأكيدا على التضامن العربي والمصير العربي في مواجهة الخطر الاسرائيلي .

لقد حقق العرب في تلك الحرب نتائج ايجابية كبيرة تمثلت في أنها شكلت ردا عربيا استراتيجيا كبيرا على التحديات والاحطار التي يمثلها استمرار العدوان الصهيوني على الأرض العربية ، فقد رافق هذا الفعل العسكري العربي الكبير الذي خاضته مصر وسورية تضامن عربي كفاحي أذهل اسرائيل ، وكل القوى المعادية التي سارعت الى الرد بمحاولة تفكيك الموقف العربي الواحد واحداث اختراقات فيه تفتح المجال واسعا لأشكال عدة من الصراعات والخلافات العربية ، وفتيح بالتالي استمرار العدوان الاستراتيجي واستمرار العدوان التكتيكي ، ولتحقيق ذلك عملت القوى المعادية على دفع القوى الانعزالية في لبنان الى التحرك والعمل ضد القوى الوطنية اللبنانية وضد قوات الثورة

■ الفصل الثاني

الفلسطينية بهدف تحويل لبنان الى محمية اسرائيلية تتيح لاسرائيل الفرصة لمزيد من التوسع في الارض العربية ولتهديد أمن سورية .

وكانت سورية أول من تنبه ، ونبه لهذه المخططات ولاهدافها العدوانية ، وبادرت الى التحرك في الساحة العربية لتأمين الرد القومي المناسب وتمكنت من :

١ . تشكيل جبهة الصمود والتصدي العربية واعادة تنشيط الموقف العربي الرسمي والشعبي سواء من خلال مؤتمرات القمة أو من خلال المؤتمرات الشعبية للرد على المؤامرة الصهيونية الهادفة الى الاستفراد بمصر وعزلها عن الأمة العربية ، ولكن عودة مصر الى جامعة الدول العربية واستئناف علاقاتها مع الأقطار العربية . أحبط هذه المؤامرة .

٢ . الحفاظ على وحدة وعروبة لبنان من خلال المبادرة السورية في لبنان ومن خلال قوات الردع العربية السورية التي قدمتها ، ولاتزال تقدم التضحيات الكبيرة من أجل عودة السلام والاستقرار والوفاق الى ربوعه .

وسورية التي قدمت وتقدم مختلف أشكال الدعم لانتفاضة الشعب الفلسطيني ترى في هذه الانتفاضة العامل الأكثر اشراقا في الوضع العربي الراهن ، في مقاومة الاحتلال الاسرائيلي ، وفي بناء موقف عربي قادر على الرد بقوة على التهديدات والمخططات الاسرائيلية العدوانية ، وهو ما تسعى سورية الى تحقيقه ، وما تدعو العرب اليه وتنبيههم الى الاخطار المترتبة على استمرار تغييبه .

فاسرائيل ترى في التطورات الجديدة على الساحة الدولية فرصة مواتمة لمواصلة نهجها العدواني التوسعي على حساب الارض العربية تمكنا من تحقيق حلمها بإقامة اسرائيل الكبرى الممتدة من الفرات الى النيل . وهذا ما يحرم الرئيس الاسد منذ فترة على تنبيه العرب اليه وتحذيرهم من اخطاره .

وقد أكد الرئيس الأسد في خطابه في ١٩٨٩/٣/٨ ان « اسرائيل لا تريد السلام بل هي عدوة السلام العادل لأنها لا ترى فيه مصلحتها » وقال : « اسرائيل اغتصبت فلسطين وتريد أن تحتل أوسع أجزاء من الوطن العربي ليتم لها تحقيق هدف اسرائيل الكبرى الممتدة من النيل الى الفرات .

ان هذه حقيقة يجب أن تبقى ماثلة في أذهاننا . .

ويغض العرب الآن بما قدمته سورية من تضحيات في لبنان في مجابهة الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على أراضيها والتي كان اخطرها العدوان الاسرائيلي في

■ عبر الغاريق في فكر الأسد ■

مارس آذار ١٩٧٨ على مناطق واسعة في الجنوب ، والغزو الاسرائيلي للبنان في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ حيث خاضت القوات العربية السورية معارك مشهودة في بيروت والبقاع والجبل ضد القوات الاسرائيلية الغازية .

وهذه الحقيقة ، وحقيقة الخطر الاسرائيلي الذي يتهدد الوجود العربي ، هي التي جعلت الرئيس الأسد يقرع ناقوس الخطر في خطابه .

لقد وقفت سورية الى جانب القوى الوطنية اللبنانية ، وقوات الثورة الفلسطينية تدافع عن عروبة لبنان في مواجهة الغزاة الصهاينة ، وفي مواجهة قوات حلف الاطلسي التي تم انزالها على الاراضي اللبنانية لتجعل من لبنان محمية صهيونية . وقد أسفرت تلك المواجهات عن اجبار قوات المارينز وقوات الاطلسي وحاملة الطائرات « فوريستال » وبوارجها على الانسحاب من أرض لبنان ، وهي تجر اذيل هزيمتها ، كما أسفرت عن اضطرار الاسرائيليين الى الانسحاب من معظم الاراضي التي احتلوها اثناء غزوهم للبنان ، وتوجت هزائم الغزاة العسكرية تلك بهزيمة مخططاتهم في لبنان والتي تمثلت في الغاء اتفاق السابع عشر من مايو ايار ١٩٨٢ وذلك بعد اقل من عام

وقد كان الغاء ذلك الاتفاق انتصارا كبيرا لسورية وللبنان وكل العرب ، والى جانب ذلك فقد عملت سورية على إقامة « جبهة » عربية ثالثة تمثلت في سعيها الدؤوب من أجل تصليب الموقف الوطني الفلسطيني وتدعيمه في مواجهة المخططات ، والمؤامرات الهادفة الى تصفية القضية والحقوق الوطنية الفلسطينية ، وتمكنت بالفعل من كشف مرامي هذه السياسة وأبعادها الخطرة . وكانت مواقفها القومية هذه عاملا أساسيا في تنمية وتعزيز روح المقاومة الفلسطينية للاحتلال والتي توجت بانطلاقة الانتفاضة الفلسطينية الباسلة في الوطن المحتل في نهاية ١٩٨٧ والمستمرة بقوة متصاعدة حتى تتحقق أهداف النضال الوطني الفلسطيني في التخلص من الاحتلال وبناء الدولة الفلسطينية المستقلة .

وهذه الحقيقة تشكل في المرحلة الراهنة بؤرة استقطاب للجهد السوري العسكري والسياسي والاقتصادي كي تمضي قدما في طريق الجهاد الأكبر الذي تسير فيه منذ يوم الجلاء في السابع عشر من نيسان/ ابريل ١٩٤٦ دون كلل أو ملل وقد عاهدت أمتها العربية على مواصلة السير فيه أيا تكن المخاطر والتحديات وأيا كانت جبهة الاعداء ، فلا خيار سوى هذا الخيار ، وهو ما أكد عليه الرئيس الأسد في خطابه في آذار مارس ١٩٨٩ حين قال : « ان جهادنا يجب أن يكون بطول الزمن ، وإننا مازلنا في بداية هذا الزمن ، ومن المهم أن نؤمن أن الزمن زمننا والجهاد جهادنا ولا يستطيع أحد انتزاعهما منا ، فهما أسلحة في أيدينا نستخدمهما كيفما نشاء وطوال ما نشاء . »

سورية قبل عهد الأسد

كما أشرنا من قبل فقد بدأ حافظ الأسد في طفولته ونتيجة تربيته العربية الإسلامية ، تلميذا موهوبا جدا في المدرسة الابتدائية حيث اكتشف أساتذته بسرعة ذكاء هذا الفتى ، لقد شغله التاريخ والجغرافيا بصورة غير عادية ، وسرعان ما وجد نفسه معنيا بالسياسة .. السياسة بمعناها الرفيع كاحساس وطني ، ورغبة في خدمة الوطن ، تفتحت أعين الشاب حافظ الأسد على بلاده وهي خاضعة لقوة أجنبية ، ولجيش غير عربي وكثيرا ما استمع الى والده وأساتذته وهم يحدثونه عن تاريخ أمته العربية ووطنه مؤكدين له أن من يمعن النظر في أحوال الوطن العربي اليوم لابد أن يتحطم قلبه لما يراه من انقسام وتمزق في الوضع العربي رغم أن التحديات المصرية التي يجابهها العرب تفترض توحيدهم لرد الأخطار عنهم وبخاصة بعد أن حققت الاقطار العربية الاستقلال الوطنى بعد الحرب الكونية الثانية .

في بداية العصور الحديثة كانت الاقطار العربية تشكل وحدة واحدة تربط بين أهلها جميعا روابط قوية متينة سواء كانت تخضع لحكومة واحدة أو لحكومات متعددة ، لأن الروابط بين الشعب العربي حيثما يكون تظل أقوى من أن تتأثر بالعوامل الخارجية ، لقد ظل الشعب العربي ينعم بالوحدة بين أقاليمه المختلفة ، الوحدة التي قامت دون أى مسعى من جانب السلطات الحاكمة ، ودون بيانات وتصريحات جوفاء كالطبل ، ثم أصاب البلاد العربية الجمود في ظل الاستبداد العثماني ، ومع ذلك فقد ظل الترابط العربي قائما ، كان العربي ينتقل من قطر لآخر ويمارس ما يشاء من نشاط اقتصادي وثقافي وسياسي دون أن تقف في وجهه حوادث مصطنعة الى أن نكب بالاستعمار وأعوانه .

وعندما كان حافظ الأسد يدرس في ثانوية اللاذقية شهدت تلك الفترة دخول قوات فرنسا، والقوات الانجليزية إلى سورية لقمع حكومة فيشي الفرنسية الموالية للألمان وشهد مظاهرات الوطنيين السوريين المطالبة بالاستقلال ، وبدأ يوقف نفسه على الدراسة والسياسة في أن واحد ، والرئيس حافظ الأسد ينتمى الى الجيل الذي تشكل وعيه في الأربعينات والخمسينات ولذلك فقد شهد في شبابه الكثير من الأحداث الهامة .. الاحتلال الفرنسي ، محاولات مستمرة لتأليب الوطنيين بعضهم على بعض في أحزاب وكتل سياسية تعكس مصالح الفئات والطبقات المستفيدة ومصالح المحتل ، شعب ثائر لم تهدأ ثوراته منذ وطئت قدم الاستعمار الفرنسي في يناير عام ١٩٢٠ وحتى الاستقلال عام ١٩٤٦ ، ويكفى للدلالة على تمسك فرنسا باحتلال سورية أن نقرا ما قاله (موديس برنو) تعبيرا عن سياسة بلاده تجاه سورية (أنا من الذين يرون أن الاستغناء عن باريس أسهل من

■ سبر التاريخ في فكر الأسد ■

الاستغناء عن سورية، لأن الاستغناء عن سورية معناه الجلاء عن أفريقيا الشمالية وعن الشرق الأقصى وترك الكرامة والنفوذ الفرنسي).

ومن الأمور الجديرة بالانتباه أن توقعات مورييس برنو قد تحققت فيما بعد ومنيت فرنسا بهزائم متلاحقة في مستعمراتها في آسيا وأفريقيا.

وكانت معظم صادرات فرنسا تنصب بغزارة وبلا انقطاع على المستعمرات التي تحكمها في أفريقيا الشمالية، وعلى البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي، ففي سنة ١٩٣٣ باعت فرنسا للدول المشمولة بانتدابها خمسة أضعاف ما اشترت منها، وقد بلغت هذه الزيادة في التبادل ١١٤ مليون فرنك وهو مبلغ كان يعد كبيراً قبل تسع وخمسين سنة.

المتتبع لتاريخ سورية يرى أن الثورات لم تهدأ، وشعبها يرى جحافل الجيش الفرنسي تحتل السواحل والسهول والمرتفعات، وكان من الطبيعي أن يتصدى الثوار للغزاة الطامعين، وكان الشيخ صالح الغلي أول الثوار، ثار في وجه العثمانيين، وطاردهم فلولهم الهاربة من وجه الحلفاء.

وعندما ظهرت فرنسا نيتها في احتلال سورية هاجم فرنسا برجاله الشجعان، لقد روعت هذه الثورة قادة فرنسا مثلما روعتها ثورة إبراهيم هنانو في «جبل الزاوية» عام ١٩٢٣، والثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان باشا الأطرش عام ١٩٢٥، والثورات والانتفاضات التي عمت المدن السورية في حماة، ودير الزور، وحمص، والجولان، وغوطة دمشق، والتي عرفت نضالاً دؤوباً بذل فيه الشعب السوري تضحيات كبيرة في سبيل الاستقلال، وحتى عام ١٩٣٩ وبدء الحرب الكونية الثانية وجيش فرنسا وبريطانيا في الشرق الأوسط وفي سورية، كانت هناك الوعود بالاستقلال ولكن عندما انتهت الحرب الكونية الثانية تمسكت فرنسا بسورية ورفضت الانسحاب الذي وعدت به في المجلس التأسيسي الذي تشكل في الثلاثينات، كما وعدت الحكومة السورية فيما إذا انضمت سورية إلى الحلفاء في الحرب الكونية الثانية في قتال المحور فإن الحلفاء سيحققون الاستقلال في كل البلاد المستعمرة وأن عهداً جديداً من حقوق الإنسان ومن الاستقلال وما إلى ذلك سيبدأ، لكن الفرنسيين نكثوا هذا الوعد وشنوا الهجوم الشهير على البرلمان، وقصفوا دمشق على النحو الذي أشرنا إليه من قبل.

كان هذا الوعي في ذهن الشاب حافظ الأسد وهو طالب، وهو الذي قاده إلى أن يتصدر الحركة الطلابية، وهو في المرحلة الثانوية، ويرأس اتحاد طلاب محافظة اللاذقية، ويصبح عضواً في الاتحاد الطلابي العام.

في الوقت نفسه كانت التطلعات الوحدوية والإيمان بالعروبة والامة العربية الواحدة

■ الفصل الثاني

تداعب مخيلة الشباب وعقولهم من جيل الرئيس الأسد ، ولذلك كان من الطبيعي أن ينضم حافظ الأسد إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي وهو في سن مبكرة جداً ، ولقد ساعدت البيئة التي عاش فيها الرئيس الأسد على أن يكون عضواً فعالاً في صفوف الحزب ، فالبيئة الفلاحية ، والوضع الذي كانت تعيشه سورية في ذلك الوقت جعل حافظ الأسد يسارع في الانضمام إلى صفوف الحزب منذ أواخر الأربعينات وعندما كان يدرس في ثانوية (جول جمال) في اللاذقية ، فكان من النشاط بين أقرانه الطلاب حيث برز مباشرة كمناضل طلابي في الثانوية ، وكان بين مجموعة الطلبة الذين تمثلوا فكر الحزب وقيمه ، وكانت تضغط على أفكارهم ووعيهم القضايا العامة وخاصة القضايا القومية ومن أبرزها قضية فلسطين ، كانوا يناضلون في اتجاه أن تكون السلطة سلطة وطنية لكي تقدم إلى القضية القومية ما يمكن أن تقدمه من تضحيات ومواقف لمناصرة هذه القضية ، ولذلك كانت نداءاتهم منذ النشأة الأولى في سبيل القضية الفلسطينية فضلاً عن الاهتمامات الاجتماعية والوطنية التي كان يعاني منها الشعب العربي السوري في ذلك الوقت ، فالمحطة الأولى والهامة كانت في وجود حافظ الأسد في اتحاد الطلاب في ثانوية جول جمال حيث انضم الرئيس الأسد في صفوف الحزب وبرز كعضو نشيط بين الطلبة في محافظة اللاذقية ثم على مستوى سورية باعتبار أنه شارك في المؤتمرات الطلابية العليا ، ونتيجة إيمان حافظ الأسد بضرورة الدفاع عن القضايا الوطنية والقومية وجد أن الطريق الذي يمكن أن يترجم به التزامه بهذه القضايا هو طريق القوات المسلحة فانتسب إلى الكلية الحربية ثم إلى الكلية الجوية فأصبح ضابطاً طياراً ، ولم يمنعه هذا من الالتزام في صفوف الحزب والعمل الحزبي داخل القوات المسلحة ، وهكذا كانت المرحلة الثانية في حياة الرئيس هي مساهمته من خلال القوات المسلحة في العمل الحزبي ، ومشاركته في صياغة التنظيم الحزبي في القوات المسلحة في وقت مبكر ، وأهم نقطة هي اشتراكه في اللجنة الحزبية العسكرية والتي كانت لها نشاطات واسعة خاصة في مصر ، وقد كان للرئيس الأسد الفضل الأول في تنظيم وترتيب العمل الحزبي داخل القوات المسلحة ، وفي إنجاح ثورة الثامن من آذار التي خططت لها ونفذتها اللجنة العسكرية التي كان عضواً بارزاً فيها ، وبالإضافة إلى التعاون والتنسيق بين التنظيم الحزبي العسكري ، والتنظيم الحزبي المدني ، وكما سيلى فقد كان للرئيس الأسد الدور الأبرز والأهم في صياغة العمل الحزبي داخل القوات المسلحة ، وفي إنجاح ثورة الثامن من آذار وأحباط محاولات اغتصابها لأن الرئيس الأسد كان مازال مؤمناً بإيماناً كبيراً بالوحدة العربية .

كان يعمل مع رفاقه الحزبيين على التصدي لجريمة الانفصال ، وكانت كل جهوده منصبية لعمل يسقط الانفصال ، فكانت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ ، ومنذ عام

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٠ شارك مشاركة واسعة وأساسية في الحكم إلى أن هجر الحركة التصحيحية التي هيأ لها والتفت حوله جماهير الحزب المدنية والعسكرية ولعل هذه المحطة في حياة الرئيس الأسد أعطت رؤية استراتيجية لما يفكر فيه الرئيس بالنسبة لبناء سورية الحديثة ، وفي مسألة النضال القومي عموماً ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه اختلف مع القيادة السابقة في نظريته لكثير من المسائل . فالقيادة السابقة كانت ترفض التعامل مع الأحزاب السياسية ولا تعترف بوجودها ، وحصرت تعاملها مع أشخاص وعناصر سياسية ، في حين كان الرئيس الأسد يؤكد أهمية التعامل مع الأحزاب الوطنية والقومية ويدعو إلى الائتلاف معها في جبهة واحدة .

وفي المؤتمر القومي العاشر الاستثنائي عام ١٩٦٩ أكد على قيام الجبهة الوطنية التقدمية ، وطرح أفكاره في هذا المؤتمر حول بناء سورية الحديثة وصياغة العمل السياسي ، بحيث تكون هناك انتخابات مجلس الشعب وتنظيمات نقابية وشعبية تشمل جميع القطاعات الشعبية ، وفعلاً عندما قامت الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ صدر بيان القيادة القطرية المؤقتة وبه برنامج الرئيس الأسد الوطني والقومي ، وشهدت السنوات الأولى من الحركة التصحيحية تنفيذ مقولات الرئيس حول قيام الجبهة الوطنية التقدمية تحقيق الديمقراطية الشعبية في سورية ، وجرّت انتخابات مجلس الشعب لأول مرة في تاريخ سورية ، ثم صدر الدستور الدائم عام ١٩٧٣ متضمناً مقولات راسخة حول الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في سورية .

مولد حزب البعث العربي الاشتراكي وانضمام الرئيس الأسد له

كانت التطلعات الوحدوية ، والايان بالعروبة والأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة تشكل حافزاً نضالياً لذلك الجيل من الشباب الذي تفتح وعيه على التمزيق العربي .

فالوطن العربي في نظر الفتى حافظ الأسد واحد لا يتجزأ ، وسورية وفلسطين تؤلفان كفاحاً واحداً ، وفكرة القومية العربية هي الملاذ ، والأمل في ميلاد عربي جديد ، وكان من الطبيعي أن تلتقي أفكار حزب البعث العربي التي تهدف إلى قيام (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) مع أفكار الشباب حافظ الأسد ، وتسفر عن انتماء حقيقي لحركة البعث لاسيما وأن المبادئ العامة التي وضعها مؤسسو الحزب زكي الأرسوزي (الذي ابتعد عن العمل السياسي عام ١٩٤٣) وميشيل عفلق ، وصلاح الدين البيطار تؤكد أن هذا الحزب عربي شامل ، ولا ينظر إلى السياسة القطرية إلا من منظار القضية العربية وأنه يؤمن بأن القومية واقع حي ، وأن الفكرة القومية التي ينادي بها الحزب هي إرادة الشعب العربي التي تنزع إلى التحرر والوحدة ، وأن حزب البعث العربي حزب اشتراكي

■ الفصل الثاني

يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة نابعة من أعماق القومية العربية ، وأنه حزب شعبي يؤمن أن السيادة ملك للشعب الذي يؤلف وحده مصدر كل سلطة ، ويؤمن أن قيمة الدولة تأتي من ارادة الجماهير ، ولأنه حزب ثوري فإنه يقرر النضال لجمع شمل العرب كافة في دولة واحدة مستقلة ، والوطن العربي هو هذا الجزء من الكرة الأرضية الذي تقطنه الامة العربية والذي يشغل المساحة الواقعة بين جبال طوروس ، وجبال أثيوبيا والصحراء والمحيط الأطلسي ، والبحر المتوسط .

كانت حركة البعث تستهوى الشباب في سورية كلها ، ولهذا فقد انضوى الشاب حافظ الأسد في هذه الحركة وأمن بها ، ولقد شهدت حقبة الأربعينات أحداثا بالغة الأهمية مثل مشروع تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ثم حرب ١٩٤٨ ، وما نتج عنها من هزيمة للجيش العربي ومن تمكن اسرائيل في فلسطين ثم حركة الاحباط واليأس التي أصابت الجماهير العربية في هذه المرحلة .

كان الشاب المتحمس المتوثب يقود المظاهرات لاسقاط الحكومات الرجعية المتآمرة على القضية الفلسطينية، ويرى في هذه القضية عاملا أساسيا في استقطاب الشباب إلى المظاهرات ، ولكي يأخذ مكانه في القتال على ساحة الشرف وكانت هزيمة ١٩٤٨ والتآمر الاستعماري على العرب عاملا أساسيا في استقطاب الشباب إلى القوات المسلحة ، وفي السابعة عشرة من عمره انتسب حافظ الأسد لحزب البعث العربي الاشتراكي ، ومنذ تلك اللحظة بدأت مسيرته النضالية الطويلة والشاقة في أن واحد .

وفي ظل هذا الايمان انتسب حافظ الأسد إلى القوات المسلحة طالبا في الكلية الحربية في فترة الخمسينات ثم جاءت الانقلابات العسكرية المتتالية ، انقلاب حسنى الزعيم عام ١٩٤٩ ، (والذي كان أول تدخل للجيش في السياسة في منطقة الشرق الاوسط حيث دشّن قاعدة اجتذبت الكثيرين فيما بعد) .

حقيقة أن دوافع حسنى الزعيم كانت زائفة ولكنه كشف عن امكانية تغيير المجتمع التقليدي القديم وتحطيم الشكل الدستوري الغربي ، ثم جاء بعد ذلك انقلاب سامى الحناوى بعد ستة أشهر من انقلاب حسنى الزعيم ، ثم أعقبه انقلاب أديب الشيشكلي الذي مارس أشد صور الديكتاتورية من عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٥٤ ، ويجمع بين هذه الانقلابات هدف واحد ، وهو الحفاظ على مصالح الغرب الاستعماري في سورية والمنطقة العربية ، وتهديد الأنظمة المجاورة بانقلابات مماثلة في حال خروجها عن الطاعة ، ومن الطبيعي أن مصالح الغرب كانت تتمثل في الاستثمارات البترولية الكبيرة في السعودية والعراق ودول الخليج ، وكانت سورية طريقا حيويا لكثير من خطوط أنابيب النفط التي تصل إلى الشواطئ السورية لتحمل منها الذهب الاسود إلى الغرب .

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

هذه الأحداث وغيرها فجرت لدى حافظ الأسد الكثير من التساؤلات الحائرة .. ما هي الطريقة التي تجعل الأمة العربية تحتل مكانتها الطبيعية في العالم ؟.. كيف يمكن ازاحة العوائق التي تحد من بلوغ هذا الهدف ؟.. إلخ ... إلخ .

وكانت محاولة الحصول على الأجوبة الشافية وراء سعي حافظ الأسد للمزيد من قراءة التاريخ وتعميق ثقافته السياسية ، وكان من الطبيعي أن يتواصل الجهاد والنضال الشعبي ، وأن تتصاعد المظاهرات بين الطلاب والعمال وأن يسود التذمر وسط الجيش لأن الجيش كان مكلفا بقمع الحركة الشعبية في الجامعات وفي المدارس وفي المصانع وفي الشوارع ، وفي عام ١٩٥٤ انهار حكم الشيشكلي ، وأطل حكم وطني ديمقراطي برلماني نشطت فيه الأحزاب من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٨ ، وكان من الطبيعي كما قلنا لحزب يمتلك أفكارا ثورية كالتي طرحها حزب البعث عام ١٩٤٧ أن تنضم إليه جماهير المثقفين وطلبة من الكادحين الذين كانوا على تماس بشكل ما مع المثقفين من الطبقات الوسطى والفقيرة .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه كان للطبقة المتوسطة في سورية فضل كبير في إيصال أفكار البعث إلى القرى والحقول والمصانع والمدارس عبر الموظفين والمعلمين والمحامين والأطباء ، وبدأت أفكار البعث بالانتشار، وبدأ ذلك واضحا في مهاجمة عناصر البعث للاقطاع والبرجوازية وقيام السلطة بالتردد والضعف والعمالة ، مع أن قيادة الحزب المتمثلة في ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وزكي الأرسوزي كانت قيادة ذات نهج أكاديمي بعيد عن معايشة جماهير الفلاحين والعمال .

ويتحدث الرئيس حافظ الأسد عن دور الحزب بالنسبة لوعي الجيل الذي جاء بعد حرب عام ١٩٤٨ مباشرة بقوله : (ان ولادة البعث الحقيقية جاءت من ضمير الأمة العربية ، حركة تتفاعل مع الشعب تتحسس آماله ، وتستوعب هذه الآمال ، تركز فيه روح التمرد على واقع الفساد والتخلف الموروث من عهود الانحطاط والحكم الأجنبي ، وتبشر له طريق التحرر ، وتفجر طاقاته الوفيرة لبناء مستقبله وتقود خطاه على طريق الوحدة العربية ، أما الأحزاب والحركات السياسية التي سبقت حركة البعث العربي ورافقت ظهورها ، فإنها بحكم نشأتها وطبيعتها تكوينها وبعدها عن أهداف الشعب وتطلعاته ، كانت عاجزة عن قيادة الكفاح الشعبي في مرحلة ما بعد الاستقلال) وهذا الكلام يكشف أهمية دور البعث في وضع سورية على طريق التقدم والوحدة ويؤكد عجز القوى السياسية التي سبقت البعث عن قيادة تطلعات الجماهير نحو التقدم والوحدة ، وهذا ما أوقع سورية في سلسلة الانقلابات العسكرية التي أشرنا إليها ، وهي الانقلابات التي مارست الديكتاتورية (من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٥٤) .

■ الفصل الثاني

وكما قلنا فإن الشعب أنهى حكم الشيشكلي في عام ١٩٥٤ ، وأطل حكم وطنى ديمقراطى برلمانى نشطت فيه الأحزاب السياسية من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٨ وفى هذه الفترة والتي كان الرئيس حافظ الأسد خلالها ضابطا فى القوات المسلحة جرت انتخابات ديمقراطية أسفرت عن نجاح عدد من النواب ، ولكن لم تتمكن أى كتلة نيابية من أن تستأثر بالأغلبية لتشكل حكومة ، غير أن حزب البعث الاشتراكى بعد توحيده مع الحزب الاشتراكى وهو التوحيد الذى تم فى أوائل الخمسينات استطاع أن يدفع الى البرلمان بحوالى ١٧ أو ١٨ نائبا ، وكانت هذه الكتلة كتلة مؤثرة لأن عدد النواب فى تلك الأثناء لم يتجاوز ١٤٠ نائبا، واستطاع الحزب مع الانصار المستقلين وعددهم حوالى عشرة نواب كانوا يلتقون مع حزب البعث فى أفكاره ، أن يشكل كتلة كبرى فى البرلمان ، وتعتبر هذه الفترة من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٨ عهدا ذهبيا بالنسبة للنضال الوطنى داخل القوات المسلحة ، كما هى بالنسبة للشعب أيضا .

وكان هناك تأثير متبادل بين أفكار ثورة ٢٣ يوليو والطرح الموجود فى سورية سياسيا وجماهيريا من قبل حزب البعث وقد ظهرت نتائج هذا التبادل فى عام ١٩٥٦ عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ حيث قام الشعب السورى بتفجير أنابيب شركة (أى.بى.سى) ، التى كانت تمر من العراق الى مصب باندياس ، (وكان تفجير هذه الأنابيب تضامنا مع الشعب المصرى ، وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها سلاح البترول للضغط على المعتدين واجبارهم على الانسحاب) وكان الجيش السورى يتأهب لدخول معركة ١٩٥٦ إلى جانب مصر ولكن التدخلات الدولية أجبرت اسرائيل على وقف إطلاق النار والانسحاب ، وعمق النصر الذى حققته مصر من إلهاب المشاعر الوطنية فى الشارع المصرى الذى كان يتابع أيضا بكل الحماس قيام الثورة الجزائرية ويناضل ضد مشروع ايزنهاور ، بملء الفراغ المزعوم فى الشرق الأوسط ، الذى يشتعل ضد الأحلاف العسكرية ، كل هذه الأمور أدت إلى مزيد من التقارب والالتقاء بين القيادتين المصرية والسورية وهو اللقاء الذى توج فى وحدة مصر وسورية عام ١٩٥٨ ، وكان تكوين هذه الجمهورية الفتية فى دولة واحدة لأول مرة فى التاريخ العربى المعاصر استجابة لداعى الوعى القومى العربى فى البلدين وتسجيلا لتأثير جارف انبعث من جموع الشعبين اللذين أمنا بالقومية العربية وضرورة الوحدة بينهما كخطوة أولى فى سبيل الوحدة الكبرى التى تضم شمل الأمة العربية فى دولة كبرى موحدة .

كان نشوء هذه الدولة الجديدة فى فبراير عام ١٩٥٨ ثمرة من ثمار القومية العربية التى تعتبر روحا لتاريخ طويل ساد العرب فى مختلف أقطارهم وإحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول من كل فرد من أفرادها .

الرئيس حافظ الأسد كان ضابطا فى القوات المسلحة ، والقوات الجوية فى هذه

■ مصر التاريخ في فكر الأسد ■

ناء ، وشارك في كل المآثر المجيدة لشعبه وجيشه وحزبه ، وعندما قامت الوحدة عام ١٩٥٩ قدم الى القاهرة في عام ١٩٥٩ وبقي في مصر حتى الانفصال عام ١٩٦١ (طيارا في ات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة) كان يعدّ قيام الجمهورية العربية عدة بداية موفقة لمشرق فجر جديد على الأمة العربية يحمل في طياته الاستقلال رية والعزة والقوة والأمل الكبير في بناء مجتمع عربي جديد، كان يرى ان وحدة ين في جمهورية عربية واحدة تستند الى ماض من الكفاح طويل ، والم تاريخ نرك ، قد يختلف في بعض تفصيلاته ولكنه متحد في خطوطه العريضة ومعاله ابارزة ، الوحدة ليست من قبيل المصادفات ، وانما ترجع الى أسباب وعوامل كثيرة عميقة ور ، أصيلة ونبيلة وهذه الاسباب والعوامل تكمن في طبيعة المنطقة ، وفي تريخها . ، ووحدة الدم بين أبنائها واللغة الواحدة التي يتكلمونها والاديان التي يدين بها قائد التي يعتقدونها والسلامة المشتركة التي يحرصون عليها ، ويبتغونها ولحرية ينشدونها ويحرصون على صيانتها .

ن مصر في كل عصورها كانت تؤمن حدودها ضد الغارات المغولية والعثمانية والغزوات لفة من آسيا وأوروبا باتحادها مع الشام ووقوفها أمام الخطر الدائم يناضلا عن بما وكيان الأمة العربية التي أخذت تنوشها السهام من كل مكان وخاصة في أيام نها وانحلالها ، وقد تعرضت هذه المنطقة كما سبق القول لغزو الصليبيين في أواخر ن الحادى عشر الميلادى ، وخلال القرن الثانى عشر ولكن صلاح الدين الأيوبي أن الشام ومصر دحرم في معركة حطين وردهم على أعقابهم خاسرين مجلدين بعار يعة ، ثم جاءت جموع المغول إلى الشام تريد احتلاله فتصدى لها القائد بيبرس ت مصرية شامية واستطاع في معركة عين جالوت أن يهزم جحافل الغزاة وينتصر ل انتصارا عظيما .

هكذا فإن ثرى أرض الشام قد خضب من أثر هذه المعارك بدماء مصرية غالية أريق ت وهى تدافع عن القضية المشتركة وعن الاهداف العربية الموحدة .

مبارك والأسد

ن الرئيس حافظ الاسد قدم إلى مصر - كما قلنا - في عام ١٩٥٩ وبقي فيها حتى صال عام ١٩٦١ طيارا في القوات المسلحة ، في هذه الاثناء تعرف على الكثير من ط القوات المسلحة في مصر ، وفي مقدمتهم الرئيس حسنى مبارك (الرئيس نى مبارك في القاذفات ، والرئيس الأسد في سرب المقاتلات الليلى ، الرئيس مبارك بيبس والرئيس الأسد في المأظلة) ، بعد الانفصال كان الرئيس الاسد كغيره من باط الموجودين في مصر مصيره التسريح من القوات المسلحة ، لأن المعلومات التي

وصلت الى قادة الانفصال أن حافظ الأسد من الضباط المؤمنين بالوحدة وفي نفسه نقمة شديدة على الانفصال ، ولهذا كان تسريحه مع عدد من رفاقه في الجيش ، تجاوز عددهم سبعين ضابطا من المنتمين الى حزب البعث العربي الاشتراكي في القوات المسلحة ، وبدأ نشاط لا يكل في سوريا من أجل اسقاط الانفصال وكان للرئيس الأسد دور كبير وبارز فيه ، ولا زالت تفاصيل هذا الدور مجهولة .

صحيح أن الرئيس الأسد حول لوظيفة مدنية في الجيش (في النقل البحري) ، ولكن الحقيقة كان خلال وجوده في الحياة المدنية دائم التحرك في سورية ومع رفاقه العسكريين الذين كانوا لا يزالون في القوات المسلحة ، وعقدت مؤتمرات واجتماعات سرية منها مؤتمر حمص ، ثم كانت هناك انتفاضة في حلب لم يكتب لها النجاح عام ١٩٦٢ وقد سجن الكثيرون من الذين ساهموا في هذه الحركة .. الأمر الذي اضطر الرئيس الأسد الى التخفي من سطوة الانفصال وبدأ نضالا مع زملائه أدى في النهاية الى القيام بثورة الثامن من آذار مارس عام ١٩٦٣ .

وقفة لها أهميتها

في عام ١٩٦٣ أعيد الرئيس حافظ الأسد إلى الجيش وكلف بقيادة قاعدة جوية تعدّ من أكبر القواعد في سورية ، وفي هذا العام انتخب عضوا في القيادة القطرية ، وفي القيادة القومية في الحزب ، وكان أصغر مناضل حزبي يستطيع أن يصل إلى القيادة القطرية والقيادة القومية في آن واحد ، وهذا يعنى اعترافا بتاريخه ونضاله المشرف ودوره الكبير في قيام ثورة الثامن من آذار ، وفي تطوير فكر الحزب .

ثانياً : بعد استلام الحزب للحكم سعى الرئيس حافظ الأسد وغيره من الشباب المتحمس لاعادة الوحدة المصرية السورية ، وبدأ النقاش عام ١٩٦٣ للوصول إلى ما يسمى بميثاق ١٧ ابريل عام ١٩٦٣ الذي شارك فيه العراقيون لأن الحزب كان قد وصل أيضا الى الحكم ، وكان حلم كل عربي أن يكون هناك اتحاد يضم مصر وسورية والعراق في جمهورية عربية متحدة ، أو اتحاد جمهوريات عربية ، ولكن بكل أسف فإن القيادة اليمينية المنحرفة التي كان يمثلها ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار ، ومن ينضوى في فكرهما كان لها رأى آخر وكانوا يحاولون أن يبتعدوا عن مصر متأثرين بالمناخ الذي عاشوه في تجربة عام ١٩٥٨ والحساسية التي نشأت بين عبد الناصر وقيادة البعث ممثلة في ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني ، وكان الرئيس الأسد يرى مع زملائه في هذا التحول لدى القيادة وكأنه اجهاض لثورة الثامن من آذار ولدورها في احياء حركة التحرر الوطني ، ومرة أخرى بدأت القيادة اليمينية تتآمر . حتى كانت

■ عبر التاريخ في فكر الأسد ■

المواجهة التي لا بد منها ، وكانت هذه المواجهة أولا حزبية عن طريق مؤتمر الحزب ، ولم تقتنع القيادة اليمينية بنتائج الانتخابات الحزبية والتي أكدت أن الرأي العام الحزبي سواء في القطاع المدني أو القطاع العسكري يؤيد الوحدة وإصلاح أخطاء الانفصال وأخطاء الحزب ، وبناء ديمقراطية صحيحة تعتمد على تحالف القوى الوطنية والتقدمية في سورية وفي البلاد العربية كلها ، وفجأة قفزوا على نتائج المؤتمر الحزبي وعينوا قيادة من أنصارهم ، فاضطر الجهازان المدني والعسكري الى القيام بحركة في ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦ وأن يزيحوا القيادة اليمينية ..

وفي عام ١٩٦٦ عندما تسلم الرئيس الأسد مع زملائه في ٢٣ شباط قيادة البلاد ، كان الرئيس الأسد بالاضافة الى عضويته في القيادة القومية والقطرية وزيرا للدفاع ، وبسبب نشاطه الحزبي والعسكري تمت ترقيته الى رتبة اللواء ، وانتقل من القاعدة الجوية التي كان فيها عام ١٩٦٤ لكي يصبح وزيرا للدفاع ، وقائدا للقوات الجوية عام ١٩٦٥ ، أي أنه في عام ١٩٦٦ عندما قامت حركة ٢٣ شباط كان الرئيس الأسد وزيرا للدفاع وقائدا للقوات الجوية .

ومن هذا المنظور فإنه يمكن التأكيد بأنه لولا اسهامات الرئيس الأسد في تصحيح مسار الحزب لسيطرت القيادة اليمينية ولم يكن بالإمكان ازاحة هذه القيادة عن جسد الحزب ، ومعروف ما فعلته هذه القيادة عندما مارست دورا قياديا في العراق منذ عام ١٩٦٨ وحتى الغزو العراقي لدولة الكويت .. الرئيس الأسد في حركة ٢٣ فبراير - شباط وبعد انتصار جناح الشباب المؤمن بعرويته وبوحدته وبإصلاح الأخطاء .. بدأ يتطلع الى اللقاء مع مصر ، وبالفعل تمت لقاءات واتصالات عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .

وليس سرا ان حرب الخامس من يونيو / حزيران عام ١٩٦٧ كانت ضربة إجهاضية خطت لها الاستعمار والامبريالية للحيلولة دون عودة الوحدة المصرية السورية لأنها ستكون وحدة تتلافى كل الأخطاء وكل السلبيات وستشكل استقطابا في المنطقة يمكن أن يؤثر على مسيرة النضال العربي ، وعلى مصالح القوى المعادية للعرب في المنطقة ، ولذلك استعجلوا هذه الضربة الاجهاضية التي شكل فيها الخداع والتضليل والعمليات السرية وغير السرية دورا كبيرا في هزيمة العرب عام ١٩٦٧ .

وبعد عام ١٩٦٧ قام الرئيس حافظ الأسد عندما كان وزيرا للدفاع بإعادة بناء الجيش والقوات المسلحة السورية ، وكان له الفضل الأكبر في إعادة الجيش الى قوته وزيادة هذه القوة عددا وعدة ، ولقد شهدت هذه الفترة - أي بعد عام ١٩٦٧ - أحداثا بالغة الأهمية .. وعلى سبيل المثال : الصدام الذي حدث بين الحكم الأردني والمقاومة

الفلسطينية ، والأحداث التي كانت تحدث في لبنان من خلال التدخل الاسرائيلي المباشر بحجة القضاء على الفلسطينيين حتى كان اتفاق القاهرة ١٩٦٨ وهو الاتفاق الذي رعاه الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بشأن تنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان ، ولقد تحمل الرئيس الأسد الى جانب جهوده الكبيرة في اعادة بناء القوات المسلحة جهودا مماثلة لتمتين الوضع الداخلي بعد حالة الغضب على الأحداث التي حدثت بعد عام ١٩٦٧ من محاولات الانقضاخ على الحكم في سورية بحجة أن القيادة مهزومة ، وكانت القوى التي تسعى للسيطرة على الحكم هي قوة مشبوهة ومدفوعة من عناصر خارجية ، يمكن على سبيل المثال أن نشير الى العصيان الذي قام به الضابط سليم حاطوم الذي سافر الى الأردن حيث كان يتبناه في هذه الأثناء الملك حسين ، كما نشير أيضا الى محاولات اليمين متمثلة في أكرم الحوراني للانقضاخ على الحكم بدعم من العراق وما إلى ذلك .

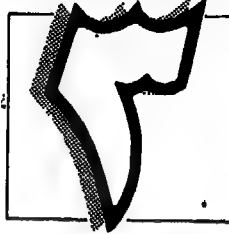
تحمل الرئيس الأسد عبئا كبيرا في حماية الثورة، وفي حماية الوضع الداخلي، وفي وضع القوات المسلحة، وفي دعم الثورة الفلسطينية ، ومن الطبيعي ان هذه الأمور لا تخلو من مشاكل بين القياديين أنفسهم .. كان هناك تيار متسلط مناوئ يحاول دائما أن يبحث عن ذرائع للانتقال من الجوهرى الى الثانوى ومن الموضوعى الى الشخصى ومن العام الى الخاص ، وكان لابد لهذا التيار ان يبتعد لكى تظل المسيرة متجهة نحو الاهداف الصحيحة ، ولذلك قام الرئيس الأسد مرة أخرى بالتعاون مع رفاقه في الجهازين المدنى والعسكرى في القوات المسلحة بحركة التصحيح في ١٦ تشرين الثانى «نوفمبر» عام ١٩٧٠، وكانت حركة بيضاء تعبر عن آراء بالاجماع للفروع المدنية والعسكرية ، لم ترق خلالها قطرة دم واحدة لان الاجماع كان منعقدا على ان هذا التيار يجب الا يسيطر على القيادة ، وفعلا عقد مؤتمر بعد ذلك بستة أشهر قرر المنهج الحزبى وحدد منطلقات السادس عشر من تشرين الثانى «نوفمبر» وانتقل الرئيس حافظ الأسد بعد ذلك من رئاسة الوزراء الى رئاسة الجمهورية في استفتاء شعبى أكد وحدة الشعب خلف قيادته ، وكان هذا الاستفتاء تنويجا للمظاهرات الشعبية التي انطلقت عام ١٩٧٠ والتي يقال عنها ، وهذه حقيقة ، بأن سورية عرفت ثلاثة مهرجانات كبيرة وضخمة في تاريخها الحديث .. أولها عندما تحررت من الحكم العثمانى ، ودخول فيصل الأول ملكا على سوريا ، والثانية في عام ١٩٥٨ عندما وصلها الزعيم الخالد جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، واستقبله الشعب السورى كقائد تاريخى لانجاز تاريخى ، والاستقبال الثالث هو استقبال الجماهير السورية للرئيس الأسد عام ١٩٧٠ في السادس عشر من تشرين الثانى «نوفمبر» حيث كان في هذا الاستقبال يستقبل آماله ومستقبله ،

■ مبر التاريخ في فكر الأسد ■

وحاول أن يتخلص من كل مالحق به من حيف وظلم في عهود ماضية ، ولذلك نستطيع أن نقول ان البداية في عام ١٩٧٠ كانت عهدا لسورية الحديثة ..

واذا حكمنا تاريخيا على مرحلة ما قبل عام ١٩٧٠ نقول: ان هذه المرحلة تميزت بعدم الاستقرار وكثرة الانقلابات العسكرية والتشتت السياسي وضياع الهدف الواحد بالانقسام بين الجماهير حيث لم تعرف سورية الوحدة الوطنية وانخفض معدل التنمية الاقتصادية الى درجة كبيرة لانه لم يكن هناك قبل ذلك سوى خطة خمسية من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٠ شابها الكثير من الاخفاقات بسبب التردد وعدم الوضوح والخلافات ، وبالإضافة الى ذلك كله فقد كانت سورية معزولة عن العرب تماما .. لم تكن هناك دولة واحدة على وفاق مع سورية ، حتى دول الجوار (لبنان - الأردن - العراق) بالإضافة الى مصر التي كانت تسمى نفسها بالجمهورية العربية المتحدة ، ولذلك نستطيع أن نقول إن عام ١٩٧٠ هو عام نهضة سورية الحديثة بقيادة الرئيس الأسد .

في التاريخ والحركة المسلحة



قراءة في فكر الأسد

ثورة آذار

- الثورة بين النظرية والتطبيق عند حافظ الأسد.
- دور الأسد في الاعداد لثورة آذار.
- الأسد يشرح ضرورة حركة شباط.
- الأسد ومستلزمات المعركة.

■ ثورة آذار ■

الثورة هي القضاء على عوائق التطور والنمو بقدر ما هي تفجير خلاق لطاقات الجماهير ، واستشفاف لمناحى الخير التي يجب ان تتجه وفقها هذه الطاقات لتكون في خدمة الجماهير .

في اطار هذا الفهم ادرك حافظ الأسد أن طريق الثورة ليس الطريق السهل ، انه طريق الجهد والتعب والتضحية ، واذا كانت ثورة ٨ آذار قد عانت الكثير منذ قيامها فلأنها منذ البداية واجهت رواسب الماضي ، ومخلفاته وصارعت الظروف والمصاعب التي تحكمت طويلا في عهود ما قبل الثورة ، وكان من خصائص تكوينها التاريخي ان تشكل عوامل أساسية لخندق بذور الثورة ، ولقد أدت هذه الظروف الى اجهاض أكثر من انطلاقة ثورية في تاريخ سورية، وفي تاريخ الوطن العربي . تلك الظروف والمصاعب ، بعضها انتقل الى مرحلة ما بعد الثورة وانسحب عليها ، وكانت كلما اصطدمت بالظروف الذاتية للثورة تبرز في فترات متعددة وبأشكال مختلفة مستغلة كل ثغرة تستطيع ان تنفذ منها لكي تعاود تأثيرها على الثورة ومجتمعها ، وتعود بها الى الوراء أو تحد من مسيرة التقدم .

ويظل مطلباً جماهيرياً ملحا أن يؤرخ الرئيس حافظ الأسد بنفسه للعقبات التي صادفتها ثورة الثامن من آذار، والعوامل التي اصطدمت بها والصدمات التي

■ الفصل الثالث

وأجهتها ، لقد بدت الثورة وكأنها في صراع مع نفسها . مع أنها في الحقيقة كانت تصارع تلك العوامل التي احتجبت داخل المجتمع واختبأت في انتظار الظروف المواتية لظهورها من جديد وحاولت دائما ان تتسلل وتستقر في- صفوف الثورة ذاتها .

وكما يقول الرئيس حافظ الأسد : فإنه خلال هذا الصراع كان لابد للثورة من الدفاع عن مسيرتها، وتحصين نفسها ضد بؤر الرواسب والمخلفات مما خلق صعوبات عديدة واقتضى اجراءات معاكسة لهذه الصعوبات ، ومع ذلك فإن العناصر الموضوعية للثورة ظلت هي السائدة أبدا ، وكانت لها الغلبة في النهاية فتخلصت الثورة الى أبعد الحدود من الشوائب وحررت نفسها بنفسها من صعب الماضي في حركتي الثالث والعشرين من شباط « فبراير » ١٩٦٦ والسادس عشر من تشرين الثاني « نوفمبر » عام ١٩٧٠ وخرجت من مراحل المعاناة سليمة معافاة تتنطلق على طريق البناء والانجاز.

أين كانت سورية قبل حركتي الثالث والعشرين من شباط « فبراير » ١٩٦٦ والسادس عشر من تشرين الثاني « أكتوبر » ١٩٧٠ وأين صارت هي الآن ؟ والى أين تتجه وكيف ؟

في البداية لابد أن نشير الى ماشهدته الوطن العربي في اواخر الخمسينيات - كما قلنا من قبل - فقد كان حافظ الأسد وغيره من الشباب القوميون يجدون في عقيدة حزب البعث الوليدة أسبابا تغريهم بالانضواء في الحزب ، وتعزز ايمانهم بأنه سيأتى اليوم الذى يردون فيه على نكبة ١٩٤٨ ، وماجرته من ويلات ، وكان حزب البعث قد ذاع صيته في ذلك الوقت ، وكان عدد اعضائه يتزايد باستمرار ، ولكن دون أن يفرض نفسه في النطاق البرلماني لأن قانون الانتخابات كان الى جانب تقسيم البلاد لدوائر اقليمية بحيث يفرض الاقطاعيون الكبار قانونهم الخاص . مما حدا برئيس الأركان العامة حسنى الزعيم في عام ١٩٤٩ .. لأن يقوم بانقلاب معتقدا ان هذا سيمكثه من وضع حد لحكم الموسرين الذين اعتبرهم مسئولين عن الوضع المزرى في سورية ، الا ان هذه التجربة لم تنجح ، ثم أعقب انقلاب حسنى الزعيم انقلاب آخر على يد اللواء سامى الحناوى من سلاح المدرعات ، ولكن التجربة بدورها أخفقت ولم تدم سوى فترة قصيرة اتهم بعدها الحناوى بموالاته للأجانب ومحاولته الاتحاد مع المملكة العراقية التى كان ينادى بها الانجليز ، وأطيح به على يد العقيد أديب الشيشكلي الذى أعلن في ٥ سبتمبر ايلول ١٩٥٠ عن قيام دستور جديد ينص على أن سورية جزء لا يتجزأ من الأمة العربية .

وفي عام ١٩٥١ قام أديب الشيشكلي بحل المجلس التأسيسي وتسلم الجيش المسئوليات في البلاد ، وفي عام ١٩٥٢ نودى بالخطر على جميع الأحزاب والصحافة والمعارضة وبرزت الى الوجود حركة التحرر العربي ، وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت الثورة

■ ثورة آذار ■

المصرية حيث أرغم الملك فاروق على التخلي عن العرش ، وفي ١٤ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٥٣ نحى رئيس مجلس الثورة وهو اللواء محمد نجيب عن الساحة السياسية وحل مكانه جمال عبدالناصر الذى تقلد جميع السلطات وانتخب رئيسا لجمهورية مصر فى استفتاء شعبى عام ١٩٥٦ ، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره .

كيف ولماذا برز الأسد ؟

وقبل أن نمضى فى متابعة التطورات السياسية التى شهدتها سورية والوطن العربى فى تلك الفترة نتوقف قليلا لنستمع إلى العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى ، وهو يروى لنا عن العوامل التى أسهمت فى بروز شخصية حافظ الأسد فى المؤسسة العسكرية وفى بلورة الطريق الثورى الذى اختطه لنفسه .

يقول العماد طلاس : الرئيس الأسد كان بارزا منذ كان طالبا فى كلية الطيران .. دخلنا كلية الطيران معا . ولكن عصبيتى كما ذكرت جعلتنى أغادر سلاح الطيران إلى سلاح المدرعات بالاضافة إلى أن أصابعى كانت قوية فقلوا لى أن استخدامهما فى الدبابات أفضل من الطائرات ، لكنى شاركت الرئيس الأسد فى الكلية الحربية ٣ شهور ، ثم فى كلية الطيران خمسة شهور وعشرين يوما ، كنا زملاء نظير وتدريب معا ، والرئيس الأسد كان ذا مناقبية عالية فى الطيران ، على سبيل المثال عندما يكون لديه واجب طيران فى اليوم الثانى لم يكن يقبل السهر فى اليوم الذى يسبق طيرانه ، وكان ينام فى تمام الساعة التاسعة ليستيقظ نشيطا فى تمام الساعة السابعة ، وبالتالي يكون لديه صفاء ذهنى لكى يتحكم فى الطائرة بشكل سليم ، وقد أحرز الدرجة الأولى فى الكلية الجوية ، وحصل على الدرجة الممتازة فى الطيران ، وكان ترتيبه الاول فى الدورة ، وعندما تخرج كان ترتيبه أيضا الاول ، والرئيس الأسد قبل أن ينجذب إلى سلاح الطيران كان رئيسا لاتحاد الطلبة فى سورية وقد أعطاه هذا الموقع بريقا فى سلاح الطيران ، وكان اتحاد الطلبة أقوى من اتحاد العمال واتحاد الفلاحين لأنه كان يضم صفوة العناصر المستنيرة فى المجتمع السورى .

فى حياته العسكرية بدأ يلعب إبان حصار « قطنا » الذى تم عام ١٩٥٧ حيث تمكن وهو ملازم أول فقط من السيطرة على مطار عسكري هام لمجابهة نذر مؤامرة أجنبية كانت تستهدف سورية .

عاد الرئيس الأسد من جديد وسيطر على مطار المزة وأعطى القيادة للقوة الوطنية والتقدمية فى الجيش المتحالفة مع الحزب بقصد إحكام قبضتها على المفاصل الأساسية فى الجيش وبالتالي لم يتمكن المتآمرون المرتبطون مع السفارة الأمريكية من القيام بأى عمل ، وعندما ذهب إلى الاتحاد السوفيتى كان الأبرز فى الطيارين الذين

■ الفصل الثالث

ذهبوا معه وكان أفضلهم في الطيران ، وبعد الوحدة مباشرة ذهب في أواخر ١٩٥٩ مع مجموعة الضباط الذين ندبوا إلى مصر إذ كان عبدالحميد السراج يعرف أن بقاء حافظ الأسد في سورية خطر عليه ولذلك تم إبعاده إلى مصر مع مجموعة الضباط البعثيين الذين ذهبوا إلى مصر .

ويضيف العماد طلاس : الأسد منذ بدايته العسكرية كان شجاعا وكان متميزا ، وبعد أن استولى على سلاح الطيران في حركة الثامن من آذار بقي تقريبا لمدة سنة كقائد لواء ، وتمت ترقيته إلى رتبة اللواء عام ١٩٦٤ ، علما بأنه تسلم منصب القيادة الجوية ، وكان برتبة مقدم قبلها متخطيا رتبة العقيد والعميد ، وتسلم القوة الجوية مباشرة حيث أصبح بعدها من رموز القوات المسلحة ، وكل عضوا في مجلس قيادة الثورة ، وعضوا في القيادة القومية والقيادة القطرية ، وفي كل مؤتمرات الحزب كان يرشح نفسه ويأخذ الأصوات بالاجماع تقريبا ، لأنه كما قلت : كان متميزا في الحزب ، وكانت القاعدة الحزبية تكن له الاحترام والولاء .

نعوذ فنقول : ان المنطقة شهدت أحداثا سياسية بالغة الأهمية .. حيث تخرج حافظ الأسد عام ١٩٥٥ برتبة ملازم ثان في سلاح الطيران ، وعين طيارا مقاتلا في مطار « المرة » ، وكان يلتقي مع رفاقه من العسكريين البعثيين ، وكان اللقاء يتم غالبا في نادي ضباط حامية دمشق ، وفي عام ١٩٥٥ اغتيل العقيد عدنان المالكي الذي كان ضابطا لامعا ورئيسا للشعبة الثالثة ومعاوننا لرئيس الأركان وذلك بتحريض أحد قادة الحزب القومي السوري .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن البعثيين لم ينجرفوا وقتئذ في مسلسل العنف ضد الحزب القومي السوري ، واكتفوا بتأييد قرار الحكومة في حل هذا الحزب ، وبعد انقضاء عام على استقالة أديب الشيشكلي عام ١٩٥٤ كان الوضع السياسي في سورية قد تطور في اتجاه إعادة المجلس النيابي ، واستطاع حزب البعث في انتخابات سبتمبر أيلول ١٩٥٤ أن يفرض وجوده في البرلمان بعد الدمج الذي حصل بين حزب الاشتراكي العربي برئاسة أكرم الحوراني وحزب البعث ، وتجدر الإشارة إلى أن أكرم الحوراني كان ينتمي في الأربعينات إلى الحزب القومي السوري الذي أسسه أنطون سعادة . إلا أن توحيد الحزبين عام ١٩٥٣ تم دون استشارة القاعدة التي عبرت عن استيائها في مؤتمر عقد في يونيو حزيران ١٩٥٤ ، كما أبدت تحفظات تجاه العلاقات الواجب إقامتها مع الثورة المصرية ، أعقبتها بعض الاستقالات وتوقف صحيفة البعث عن الصدور عاما كاملا .

في تلك الفترة كانت المقاومة ضد حلف بغداد قد بلغت ذروتها ، وهو حلف نادى به المملكة المتحدة التي كانت تدعم تحالفا رجعيًا يضم دول إيران وباكستان وتركيا والعراق وكان يراد به في الواقع تكتل الدول العربية مع الغرب ضد الكتلة الشرقية ،

■ ثورة آذار ■

ويهدف أيضا إلى إبعاد نظر العرب وصرف جهودهم عن قضية فلسطين ، وقد رفضت الحكومة السورية الانضمام الى هذا الحلف الذي رأت أنه يهدد استقلالها ، وأن دفاع العرب يجب أن يتولاها العرب أنفسهم ، وأن التحالف مع الغرب المستعمر مؤامرة جديدة يراد بها تغليف الاستعمار ، وستره بالمواثيق والمعاهدات الدولية ليكتسب صفة قانونية وشرعية ، فضلا عن أن هذا التحالف يعرض الوطن العربي لشرور الحرب ، وفيه معادة للاتحاد السوفيتي دون أي مسوغ :

وكان الضباط السوريون يعربون عن سخطهم على موقف الولايات المتحدة المنحاز لاسرائيل والذي برز وتجلّى بشكل واضح في المشروع الذي أوصى به الرئيس الأسبق ايزنهاور عام ١٩٥٤ عندما طرح خطة لاستثمار مياه نهر الأردن تخدم مصلحة عدو العرب الرئيسي ، بإقامة سد على نهر « الحاصباني » في لبنان ولاستياعب الفائض السنوي من المياه لاستخدامه ، وسرعان ما تيقن البعثيون أن الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو لم يكن يحركهم الأجنيبي ، وفي أغسطس عام ١٩٥٥ أصبح شكرى القوتلي رئيسا للجمهورية ، ولم يمض شهران على ذلك حتى قررت القاهرة ودمشق تشكيل قيادة عسكرية مشتركة في سورية ، وفي عام ١٩٥٥ عقد مؤتمر « باندونج » وكان له دوره الكبير في تأكيد احترام سيادة الدول ووحدة أراضيها والمساواة بين كافة الأجناس ، كما أرغمت فرنسا عام ١٩٥٤ على التفاوض في جنيف حول استقلال فيتنام بعد هزيمتها في (بيان بيان فو) كما شهدت دول المغرب العربي حركات عصيان ضد المستعمر .

كان العسكريون والسياسيون السوريون على السواء ، ينظرون إلى المؤامرات التي تحاك ضدهم وضد الوطن العربي بغضب شديد ، وكانوا يتطلعون إلى بناء جيش حديث ، إلا أن الغربيين كانوا يرفضون ذلك حتى لا يتعرض أمن اسرائيل للخطر ولكن على غرار مصر بادرت سورية ، وحصلت على العتاد الحربي من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٥ وتتابع المعاهدات الدفاعية بين الدول العربية ، وعرضت الولايات المتحدة في ذلك الوقت على مصر خطة استصلاح أراض ، وتمويل بناء السد العالي مقابل ، عقد صلح منفرد مع اسرائيل ، ولكن مصر رفضت وبعد مغادرة آخر الجنود البريطانيين قناة السويس في ١٨ يونيو حزيران عام ١٩٥٦ ، وبعد انتخاب جمال عبدالناصر رئيسا للجمهورية ، وبعد أن بدأت القاهرة تدعو الاقطار العربية الرازحة تحت نير الاستعمار إلى أن تهب في وجه المستعمرين تراجعت الولايات المتحدة عن تمويل السد العالي ، ووقع عبدالناصر عقد شراء الأسلحة الثقيلة من تشيكوسلوفاكيا ، ويادر حزب البعث في دمشق إلى تأييد مصر ، وفي عمان وقفت السلطة إلى جانب سورية في معارضتها لحلف بغداد ، وأدى ذلك إلى تقارب بين البلدان الثلاثة الأمر الذي أدى إلى تشكيل قيادة عسكرية مشتركة ..

مصرية سورية أردنية في عام ١٩٥٦ .

■ الفصل الثالث

وفي عام ١٩٥٦ وقع العدوان الثلاثي على مصر ، وقد انتهى بالاخفاق الذريع ، نتيجة ضغط مشترك مارسه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وخرج عبدالناصر منتصرا في نظر الرأي العام العربي والعالمي واستمرت الثورة الجزائرية وكثف السوفيت مساعداتهم لمصر وتوالى الاحداث بعد ذلك ولم يتحقق حلم الغرب ، وأسهم العدوان الثلاثي في شحن السوريين ، وكان البعث في طليعة المساندين لمصر ، كما تطوع الكثير من السوريين للقتال من أمثال جول جمال ، واستشهدوا في المعارك البحرية والبرية والجوية ، ونددت دمشق بفرنسا وبريطانيا وقطعت علاقاتها الدبلوماسية معهما ، ومنذ نهاية عام ١٩٥٦ حل الأمريكيون محل الأوربيين في الشرق الأوسط ، الذي كان يرى الرئيس ايزنهاور أنه ساحة المعركة بين الشرق والغرب .

وفي عام ١٩٥٧ كان البعثيون يتطلعون إلى الوحدة العربية ، كان حزب البعث قد تعهد بالتقارب مع مصر عبدالناصر ، وبدأ هذا التعهد يتحول إلى حقيقة واقعة ووجود فعال إذ اجتمع في أول فبراير ١٩٥٧ رئيسا جمهوريتي مصر وسوريا وممثلو الجمهوريتين وأصدروا بيانا تاريخيا قرروا فيه أن الغاية من اجتماعهم هي المداولة في الاجراءات النهائية لتحقيق ارادة الشعب العربي ولتنفيذ ما نص عليه دستور الجمهوريتين من أن شعب كل منهما جزء من الأمة العربية ، وانتهوا إلى قرار بأن الوحدة بين القطرين الشقيقين ما هي إلا ثمرة القومية العربية ، وهي طريق العرب إلى الحرية والسيادة ، وسبيل من سبل الانسانية للتعاون والسلام ولذلك فإن من واجب المجتمعين - بناء على هذه الاعتبارات - أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأمانى الى حيز التنفيذ في عزم ثابت واصرار قوى ، ثم خلص المجتمعون إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين وأسباب نجاحها قد توافرت بعد أن جمع بينهما في الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحا . وأكد أنها حركة بناء وتحرير ، وعقيدة تعاون وسلام ، ومن أجل ذلك أعلن المجتمعون عن اتفاقهم التام وإيمانهم الكامل وثقتهم العميقة في وجوب توحيد سورية ومصر في دولة واحدة ، وتم ميلاد الدولة الجديدة في ٥ فبراير شباط عام ١٩٥٨ وكان ميلادها ايذانا بفجر جديد تتضافر فيه كل الجهود والقوى في سورية ومصر في سبيل واحد ونحو هدف واحد وإيمان مشترك لتحقيق مجد العروبة .

وفي ٢١ فبراير شباط ١٩٥٨ أجرى الاستفتاء على الوحدة وعلى انتخاب رئيس الدولة الجديدة وانتخب الرئيس الراحل جمال عبدالناصر رئيسا للدولة الناشئة « الجمهورية العربية المتحدة » ، وما أن بزغت شمس الوحدة وقامت الجمهورية العربية المتحدة حتى كان رد الفعل سريعا إذ بادرت المملكة اليمنية إلى اعلان رغبتها في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة على أساس الاتحاد الاستقلالي ، وقد قوبلت رغبة اليمن بالاعزاز والتكريم وتحولت الرغبة المتبادلة الى عمل تنفيذي ايجابي .

■ ثورة آذار ■

وفي ٨ آذار مارس ١٩٥٨ أبرم ميثاق اتحاد يسمى اتحاد الدول العربية يتكون من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية ، والدول العربية التي تقبل الانضمام الى هذا الاتحاد ، ولقد قوبل قيام الجمهورية العربية المتحدة بعدم الارتياح من السلطة الحاكمة في العراق والاردن ، التي بادرت إلى اعلان ميثاق الاتحاد العربي الهاشمي بينهما في ١٤ فبراير شباط عام ١٩٥٨ .

البعث والوحدة

وقف حزب البعث الى جانب تشكيل الجمهورية العربية المتحدة من منطلق ايمانه بأنها التجربة الوحيدة الأولى ، ونقطة الجنب داخل الثورة العربية أيضا ، وادراكا منه بأنه قد سبقت هذه الوحدة ليال طويلة حالكة امتدت مئات السنين في صراع مستمر مع ظلام الاستعمار والاستبداد والظلم والضعف ، وقد عاشت هذا الصراع الطويل المدى اجيال قبلنا وقاست أهواله وتحملت مصاعبه ، وكافحت الطغاة ، واستبسلت في كفاحها لتحمي تراثنا ، وتدافع عن كيانتنا وتحفظ مقومات وجودنا ، وأسباب ارتباطنا ببعضنا كأمة عربية واحدة لها ذاتيتها المستقلة

رأى حزب البعث كما رأت مصر أن قيام الجمهورية العربية المتحدة سيكون نقطة تحول رافع في تاريخنا الحديث وبداية موفقة لمشرق فجر جديد على الأمة العربية يحمل في طياته الحرية والعزة .

إن مصر في كل عصورها كانت تؤمن حدودها ضد الغارات المغولية والعثمانية والهجمات المختلفة من آسيا وأوروبا باتحادها مع الشام ووقوفها أمام الخطر الداهم كانتا تناضلان لحماية كيانيهما وكيانات شعوب المنطقة التي أخذت تنوشها السهام من كل مكان وخاصة في أيام الضعف والانحلال ، ولقد تعرضت هذه المنطقة - كما سبق وذكرنا - إلى غزو الصليبيين في أواخر القرن الحادي عشر وخلال القرن الثاني عشر ، ولكن صلاح الدين الأيوبي سلطان الشام ومصر دحرهم في معركة « حطين » وردهم على أعقابهم خاسرين مجلّين بعار الهزيمة ثم جاءت جموع التتر إلى الشام تريد احتلاله فتصدى لها القائد بيبرس بقوات مصرية شامية واستطاع في معركة « عين جالوت » أن يهزم جحافل التتر وينتصر عليها انتصارا عظيما

وهكذا فإن تراب الشام قد خضب من أثر هذه المعارك بدماء مصرية غالية كما خضب ثرى أرض مصر بدماء شامية عزيزة علينا جميعا نذكرها دوما بكل العرفان والتقدير .

كان من أهداف الوحدة السورية المصرية التصدي لحلف بغداد الموالي للغرب ، وهو الحلف الذي سعى الى ربط البلاد العربية باسم الدقاع المشترك ، وهو الحلف الذي أنهى المعاهدة العراقية البريطانية المبرمة عام ١٩٣٠ وحل محلها .

وتجدر الإشارة الى أن حكام العراق كانوا يدعون أن هذا الحلف الذي كان يضم «العراق وتركيا وايران وباكستان وبريطانيا» ومن ورائهم أمريكا سيفيد القضايا العربية ، وخاصة قضية فلسطين !! ولكن الحلف لم يحقق شيئا سوى عزل العراق عن البلاد العربية وبلبلة الأفكار واثارة الخواطر في دنيا العرب ، وكانت سياسة بريطانيا ان يكون هذا الحلف أداة لشل الكفاح العربى وتجميده ولكن العرب تنبهوا للخدعة الكبرى التى ينطوى عليها هذا الحلف فلم تقبل الدول العربية الانضمام اليه ، بل وقفت بوجهه .

على الجانب الآخر كان هناك كميل شمعون الذى كان وزيرا في حكومة رياض الصلح التى أعلنت استقلال لبنان وأعلنت الحرب على الطائفية ولكنه تنكر لموقفه القديم ومنذ أن فاز بالرئاسة عام ١٩٥٢ وهو يتزعم الدعوة الى الفتنة والفرقة والانقسام وينتهج سياسة استفزازية بالنسبة للعرب ، ويرتضى في أحضان الغرب وحلف بغداد .

صورة الموقف

هذه هي صورة الموقف في ذلك الوقت ، وهنا تجدر الإشارة الى أن القيادة القومية لحزب البعث دعت في ١٧ ابريل نيسان الى الاتحاد الفيدرالى الذى أقرت مبداه الحكومة السورية . أما الوحدة الاندماجية مع النظام السياسى المصرى فكانت القيادة لا تؤيدها ، وقد اتخذت قيادة الحزب هذا القرار دون استشارة القواعد في سوريا أو خارجها .

في ذلك العام نفسه قام ضباط بعثيون وتقدميون بإعلان العصيان في « قطنا » التى تبعد ٢٨ كم عن دمشق احتجاجا على بعض التنقلات الجائرة في القيادة وعلى انتخاب شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية وكانوا يفضلون عليه خالد العظم ، وكان يقود البعثيين العسكريين آنذاك مصطفى حمدون وعبدالغنى قنوت ، أما الرئيس الحقيقى للحزب فكان أكرم الحورانى حيث كان يقود الحزب مع مؤسسيه ميشيل عفلق وصلاح البيطار ، وقد أصدر قادة التمرد العسكرى الأمر لحافظ الأسد بالاستيلاء على القاعدة الجوية في مطار المزة ، إلا أن عددا من الضباط القادة أمثال عبدالغنى عياش والمقدم عمران انسحبوا من حركة التمرد ، ولما كان حافظ الأسد ضابطا طيارا لا يقود قوات كبيرة ، ولم يتجمع لديه سوى فصيلة طوارئ لا يتجاوز عدد أفرادها الثلاثين قام - كما سلف وذكرت - بجمع هؤلاء كى ينقل إليهم التعليمات التى وردت إليه والتى تتلخص في منع الطيارين العائدين من دمشق من الوصول إلى طائراتهم ، وهكذا بقيت القاعدة فترة من الوقت تحت سيطرة المتمردين بقيادة حافظ الأسد وحده ، وكان لايزال ضابطا حديثا قام بتنفيذ أوامر أصدرها إليه أكرم الحورانى لكى يثبت للسلطة السياسية قدرته على التحرك عسكريا .

وقد شغل أكرم الحورانى دورا غامضا في هذه الحركة التى اخفقت - كما قال العماد مصطفى طلاس - وهو يروى هذه الحادثة للوسيان ببتزلان مؤلف كتاب مسيرة مناضل

■ ثورة آذار ■

« لقد اتخذت إجراءات إدارية ، ولكن لم تفرض عقوبات في حق المتمردين وقد أدركنا آنذاك أن الحزب لم يكن قادرا على تسلم السلطة ، وأن المدنيين قد خدعوا العسكريين وورطوهم في هذه المؤامرة التي خطط لها أكرم الحوراني ، وقد تتابعت الخطوات التي أشرنا إليها فيما سبق والتي أدت إلى قيام دولة الوحدة في ٢٢ فبراير شباط ١٩٥٨ باسم الجمهورية العربية المتحدة .

وفي ٢٥ فبراير/ شباط أعلن الأمين العام لحزب البعث أن الحزب حل نفسه على الصعيد الرسمي « ولكننا سنكون حاضرين في الحزب الوحيد الذي يمثل الاتحاد القومي » ، وهذه الحركة التي عبرت عن وحدة البلدين لا يمكن أن توجهها سوى مبادئ حزب البعث ، وتم التصديق على استفتاء ٢١ فبراير شباط ١٩٥٨ بأغلبية ٩٩,٧٥٪ من الأصوات ورحبت بها مختلف فئات الشعب في البلدين باستثناء الحزب الشيوعي السوري الذي انتقل إلى العمل السري بينما فر أمينه العام خالد بكداش إلى الخارج .

وقد أدى قيام الجمهورية العربية المتحدة إلى التطورات التي أشرنا إليها فيما سبق ، لكن هذه الوحدة لم تدم طويلاً ، وواجه السوريون إدارة بيروقراطية ثقيلة ، وكانوا موضع ريبة أخذة في التزايد كما أن مركزية الحكم لم تسمح لهم بتطبيق مبادئ البعث ولا سيما أن السلطات كانت في يد جمال عبدالناصر .

وهناك من يعتقد مثل الدكتور سهيل زكار « أنه كان من الحكمة بعد قيام وحدة ١٩٥٨ أن يستفيد عبدالناصر من تجربة البعث الأيديولوجية ويسعى لتطوير هذه التجربة لتكون أيديولوجية دولة الوحدة ، وأنه لو تم ذلك لكنا سنعيش .. ليس في ظل العلم السوري المصري بل في ظل علم عربي لدولة عربية كبرى وكان كثير من مشاكلنا وأزماتنا الآن غير موجودة ، لكن طبيعة الحكم الفردي ومسألة الجهاز البوليسي الذي تكون قضى على هذه الآمال ويقول : مازلت أذكر أن رفاقي الأعرف منى بالحزب كان لهم سعى حثيث ليتم إصلاح التجربة من الداخل دون عملية الانفصال ، ولكن استغلت أخطاء الحكم البوليسي وتمت عملية الانفصال بتدبير من أعداء الأمة العربية ومن أجهزة خارجية ، ومنذ ذلك الحين سعى الحزب بكوادره الشابة المؤمنة للرد على عملية الانفصال بثورة الثامن من آذار دون أن ننسى حركات الضباط الذين حكم عليهم بالإعدام لاسيما الحركة التي تمت في حلب واعتبرت حركة عصيان ومن أبرز شخصياتها محمد إبراهيم العلي وقد حكم عليه بالإعدام وكان سينفذ فيه الحكم لولا قيام ثورة الثامن من آذار/مارس الوحشية .

ماذا جرى بعد ذلك ؟

اتخذ مسار الأحداث في منطقة الشرق الأوسط منحى جديداً ، ينسجم مع المد القومي الموحد الذي كانت القاهرة ماتزال تتزعمه بقوة كبيرة ، ففي صبيحة يوم الجمعة الموافق

■ الفصل الثالث

٨ فبراير شباط ١٩٦٢ تحركت مجموعة مدنية عسكرية من القوى القومية كان رأس حربيها فصائل بعثية مسلحة في اتجاه وزارة الدفاع العراقية مقر إقامة عبد الكريم قاسم الذي أدخل شعب العراق في مذابح وحشية ومارس أعنف صور الديكتاتورية والاستبداد وانحرف بثورة ١٤ يوليو تموز عام ١٩٥٨ بعد أن قضى على مفجريها الحقيقيين وهي الثورة التي بدأها الجيش وأيدها الشعب بقوة ومزقت وهي في عنفوان غليانها عبد الله ونوري السعيد. لانهما يمثلان ما لحق بالعراق من ظلم وكبت واضطهاد وحرمان .

وفي الوقت نفسه كان راديو بغداد ينيع البيان الأول للثورة الذي أعلن انه تم القضاء بعون الله على حكم عدو الشعب عبد الكريم قاسم وزمرته التي سخرت موارد البلاد وسخرت الحريات وداست الكرامات وخانت الأمانات وعطلت القوانين ، وأعلنت البيانات اللاحقة عن مبادئ تهدف الى غايات نبيلة وتعمل على التخلص من الأوضاع القديمة الفاسدة وتعد بإخراج العراق من عزلته، والعودة الى ركب العروبة . وأن العراق الجديد سيتعاون مع كل الأشقاء العرب ، وبعد شهر واحد من أحداث العراق كانت دمشق تشهد تحركا بالغ الأهمية ، وفي خلال ساعات قليلة كان نظام الانفصال المتهالك قد تهاوى تحت ضربات العقب الحديدية الوحشية ، وكشف البيان الأول الصادر عن مجلس قيادة الثورة ملامح الحكم الجديد حيث جاء فيه مايلي :

« منذ فجر التاريخ العربي وسورية تلعب دورا ايجابيا مناضلا في حمل راية العروبة والوحدة ، وكانت سورية العربية وشعبها لا يعترفون بحدود قطرمهم وانما يعيشون دائما وأبدا في حدود الوطن العربي الكبير حتى أن النشيد السوري لم يحو كلمة واحدة عن سورية وانما كلماتها كلها تمجيد للعروبة وتخليد لمفاخر العرب وبطولاتهم ، ولما قامت الجامعة العربية اندفعت سورية تدعمها وتدفع بها للأمام ، ثم أتت وحدة مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة نموذجا لآمال شعبنا في تحقيق وحدته الكبرى ، واندفع الشعب العربي في سورية كلها بقلبه وروحه وإيمانه معطيا أياها كل ما تريد من قوة وتدعيم » .

ولكن الرجعية العميلة والاستعمار والانتهازية أثبتت أن تكشف عن نفسها مستغلة الأخطاء في تلك الحقبة فذهبت بالتآمر على تلك الجمهورية الى أقصى ما تستطيع فكانت نكبة الانفصال .

أيها الشعب العربي في سورية ، سنة ونصف مرت على الانفصال وأنت تعاني أصعب فترة مرت عليك .. انتخابات مرحلة بدء الاستقلال أشرف عليها الاستعمار والرجعية ، وصحف مأجورة تنهش أمانيك ، ولا تعبر عن عقيدتك ومشاعرك وبعدك عن الدول المتحررة يزداد يوما بعد يوم حتى أضحت العزلة هي الطابع الأساسي لسورية .

■ ثورة آذار ■

أيها الشعب العربي في سورية، كل ذلك وجيشك لم يكن بالجيش الغافل عن واجبه ولم يكن لنا في قيادته المنحرفة المراوغة إلا مشجعا على تحقيق رغبة الشعب فقام في صباح هذا اليوم بحركة ثورية تعبر عن مبادئ لخصها في الوحدة العربية والحياد الايجابي ومباركة ثورة العراق واللقاء مع القاهرة .

. وعلى الجانب الآخر كان جمال عبدالناصر يتابع ما يجري في دمشق باهتمام بالغ ، وكان ما يجري في دمشق فرصة مواتية لتؤكد ان ما حدث في سورية من مؤامرة الانفصال كان أمرا عارضا ، فهامو ذا نظام الانفصال الذي قام في سورية يتهاوى ورموزه تقدم للمحاكمة .

لقد كان عبدالناصر يرى أن وحدة البلدين في جمهورية عربية واحدة يستند الى ماض من الكفاح طويل ، والى تاريخ مشترك ، ووحدة مصر وسورية كانت بالنسبة لعبدالناصر انجازا نضاليا رائعا ، وكان يرى أن هذه الوحدة ترجع الى أسباب وعوامل كثيرة عميقة الجذور أصيلة ونبيلة ، ولقد كانت أول برقية تلقاها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بعد ثورة الثامن من آذار : « الرئيس جمال عبدالناصر .. لقد تأرنا من الانفصال وغسلنا عاره » وكان واضحا أن ثورة آذار انطلقت من صفوف الشعب لكي تقضى على كل مظاهر التخلف والظلم والاستغلال وتقود الشعب على طريق الوحدة والحرية والاشتراكية ، لقد ولدت هذه الثورة من معاناة الشعب السوري وقامت بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي .

دور الأسد في الاعداد لثورة آذار

إن الدور الحقيقي الذي شغله حافظ الأسد في التمهيد لقيام ثورة آذار ، والدور الذي شغله ليلة الثامن من آذار نفسها ، ما يزال دورا مجهولا تنقصه التفاصيل ، وربما يعود هذا الشيء الى شخصية حافظ الأسد نفسها فهو كبعثي أولا ، وكعسكري ثانيا حريص على العمل ضمن المؤسسة الحزبية والمؤسسة العسكرية اللتين عمل في اطارهما ، وكلتا المؤسستين تفترض العمل السري والجماعي ، والبعد عن العلانية والمظهرية والفردية ، اضافة الى أن حافظ الأسد ، وهو البعثي الملتزم يؤمن بأن دور الشخص مهما كان أساسيا فإن الثورة وهي فعل يستهدف تغييرا شاملا في بنية المجتمع لابد أن تركز إلى العمل الجماعي الشمولي الذي تتوزع ادواره بين الدراسة والتخطيط والتنفيذ والممارسة ، ويتحدث « باتريك سيل » في مؤلفه : الأسد الصراع على الشرق الأوسط ، عن دور حافظ الأسد في أحداث الثورة في يومها الأول فيقول :

« كانت اللحظة المظفرة لحافظ الأسد هي لحظة استيلائه على قاعدة الضمير الجوية حيث كانت القوة الجوية بكاملها متمركزة فيها والتي كانت تشكل المقاومة الجوية الوحيدة

■ الفصل الثالث

ضد الانقلاب ، فقد أرسلت بعض الطائرات لقصف المتمردين ، وكانت الخطة تقضى بأن يتحرك الأسد ضد الضمير على رأس سرية من لواء الحريري مستهدفا الوصول قبل الفجر لتجنب وقوع هجوم عليه من الجو ، ولكن مرة أخرى حصلت مشكلة لم تكن في الحسبان فقد استغرقت المفاوضات في الضمير أطول مما كان متوقعا **ويقول حافظ الأسد مستذكرا تلك اللحظات :**

« أرسلت اليهم مبعوثا برسالة تحذيرية بأننى سأبأشر القصف اذا كانت هناك أية مقاومة ، وبعد بضع دقائق جاء اثنان من ضباطهم في سيارة ليقترحا التفاوض فهرعت على الفور معهما الى حيث أمر القاعدة وقلت له : لقد انتهى الأمر بالنسبة لكم ، لكن مالم تستسلموا فإننا سنستعمل القوة » .

صحيح أن الثامن من أذار يوم صنعته طليعة عسكرية ، الا أن عقائدية هذه الطليعة جعلت من الحدث عملا ثوريا كاملا ، انتهى دوره الانقلابي صبيحة يوم الثامن من أذار بانتهاء فعل التغيير ، لتحل محل الفعل الذي هو « الانقلاب الثوري » بطليعته العسكرية التي نفذته « الثورة » التي هي الفعل المستمر والتي بدأت مهامها مباشرة بعد الفعل الانقلابي .

فالطليعة التي نفذت الانقلاب الثوري كانت اداة التغيير ، أما الثورة نفسها فكانت فعل التغيير الذي مازال يتفاعل الى اليوم .

يذكر حافظ الأسد أن أهداف الأمة العربية الكبرى لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الثورة ، أما الشعب فهو أداة الثورة ، وأنه لكي نمارس الثورة يجب أن نتحقق وحدة الإرادة .

كما يقرر ان الطلائع الثورية التي حملت مشعل الثورة عام ١٩٦٣ كان عملها هذا استجابة لآمالها في الوحدة والحرية والاشتراكية .

كان فكر حافظ الأسد الثوري من أبرز سمات شخصيته القيادية ، وكان من الطبيعي ان يصطدم مع بعض العقليات الجامدة التي مارست فهما خاطئا ومشوشا لايدولوجيات غريبة وغامضة ، ومن هنا بدأ التعارض بين فكر التيار الذي يمثله حافظ الأسد في الحزب وبين تلك التيارات يتزايد ويتعمق ، وكشف الصراع عن وجود تيارين يختلفان بشكل جذري ، تيار ينظر الى السلطة على انها اداة لتحقيق تطلعات الجماهير ، وتيار ينظر الى السلطة على انها وسيلة للمناورة والالتفاف من الخلف والخداع .

وكان من الطبيعي ان يخلق هذا التيار الذي عاشته ثورة أذار في بداياتها انعكاسات

■ ثورة آذار ■

على الحركة الأولى التي قامت بها العقلية اليمينية المناورة في وقت كانت الثورة في مرحلتها الأولى التأسيسية .

واذا كانت الثورة اعلنت أن هدفها الرئيسى هو اسقاط حكم الانفصال ، والعمل على عودة الوحدة فكان من الطبيعى ان تعاود الاتصال بالقاهرة بهدف التوصل الى صيغة وحدوية قادرة على البقاء وعلى الاستمرار ..

وهنا يقول بعضهم : « إن الرئيس الراحل عبدالناصر كان يصر على الاحتفاظ بتسمية الجمهورية العربية المتحدة وعلمها ونشيدها ، ورأى أن أى وحدة جديدة تضم حكومات يسيطر عليها البعث الحاكم في دمشق وبغداد لابد أن تضعه بين المطرقة والسندان ، واصر البعث السورى على ضرورة وجود شكل جديد للوحدة يختلف عن الشكل الذى كانت عليه وحدة ١٩٥٨ ، أما البعث العراقى فقد وقف موقفا محيرا ، مرة يؤيد وجهة النظر المصرية ، ومرة أخرى يؤيد وجهة النظر السورية ، وكان واضحا انه يريد أن يعمق الخلافات المصرية السورية ويضخمها لمصلحته القطرية ، وشهدت القاهرة محادثات الوحدة الثلاثية والتي اعترف فيها صلاح الدين البيطار بخطئه وندمه على توقيع وثيقة الانفصال ، واعترف عبدالناصر بدوره انه كان قاسيا مع البعث عام ١٩٥٨ وأنه تسرع أكثر مماينبغى في حل الأحزاب السياسية كلها مؤكدا انه كان ينبغي أن نحل الأحزاب التى لم يكن بيننا وبينها هدف مشترك وأن نوحّد الأحزاب الوطنية مؤكدا أنه لم يكن يعرف سورية معرفة جيدة .

وقال عبدالناصر : ان كل من كان يعرفهم معرفة جيدة كانوا خمسة أو ستة أشخاص وكانوا كتلا متنافسة ، وقد ظللت أقول لهم إن الأمر يحتاج الى خمس سنوات لأننا لم نكن على معرفة بكل تفاصيل الوضع في سورية ، وقد أشار انتونى ناتنج في كتابه « ناصر » الى أن الرئيس الراحل جمال عبدالناصر كان حذرا لخوض تجربة وحدوية جديدة مع رفاق الأمس ، وهذا الأمر أضر بالنتائج التى تمخضت عنها محادثات الوحدة الثلاثية» . نعود فنقول : انه بعد أن عاد الضباط الذين أقصوا من الجيش في ٨ مارس آذار عام ١٩٦٣ ومنهم حافظ الأسد ومحمد عمران وصلاح جديد وعبدالكريم جندى وآخرون ، وارتدوا زيهم العسكرى وقاموا بعدما خدعوا الوحدات المختلفة في العاصمة بالتسلل داخل الكتائب التى ستستولى بقيادتهم على العاصمة ، وتحرك اللواء زياد الحريري رئيس أركان قيادة الجبهة السورية وقتئذ ، وهى القوات التى تقف على الخط الفاصل في مواجهة الاسرائيليين ، تحرك بقواته باتجاه دمشق وتم التلاقى مع قوات الثواردون اراقة دماء ، وما ان نجحت الثورة حتى عاد حافظ الأسد الذى عين برتبة مقدم قائدا للواء الجوى السابع في « الضمير » وكان قوة التدخل الجوى الوحيدة في سورية ، كما عاد الرائد مصطفى طلاس الى الخدمة الفعلية ، وقد رأس العميد لؤى الاتاسى المجلس

■ الفصل الثالث

الوطني لقيادة الثورة الذي كان يضطلع في ذلك التاريخ بالسلطات الكافية وتولى صلاح البيطار رئاسة الحكومة .

وما أن تسلم البعثيون السوريون زمام الحكم حتى دعاهم نظراؤهم الى تجربة وحدوية جديدة أسفرت بعد التردد الشديد عن توقيع اتفاقيات مبدئية من أجل انشاء اتحاد عربي يضم مصر وسوريا والعراق في ١٧ نيسان ابريل عام ١٩٦٣ ، على ان يتم ذلك عبر استفتاء يجرى قبل ١٥ ايلول سبتمبر ولكن الاستفتاء لم يجر بسبب تطورات الاحداث .
فاللواء زياد الحريري الذي كان على رأس القائمين بثورة الثامن من آذار حاول الارتداد بالثورة عن اهدافها ولذلك تم استغلال رحلة قام بها الى الجزائر وجرى من وظيفته وعين سفيرا في اسبانيا ، وقام اللواء الاتاسي من جانبه بمحاولة انقلاب جديدة بواسطة ضباط ناصريين ولكنها أخفقت في ١٨ يوليو تموز وحين ذلك عين الحزب في وزارة الداخلية اللواء أمين حافظ وهو ضابط انضم الى صفوف البعث في يوليو تموز عام ١٩٦٣ .

وفي شهر أغسطس أب من العام نفسه وقعت اشتباكات مع الاسرائيليين على مقربة من بحيرة « الحولة » بينما عقد حزب البعث مؤتمره القطري واتجه المؤتمر بحزم وجهة الثورة الاشتراكية والاصلاح الزراعي .. الخ .

بعد شهر من انعقاد المؤتمر القطري افتتح المؤتمر القومي السادس الذي تم فيه انتخاب ثلاثة ضباط سوريين في القيادة القومية الى جانب ضابطين عراقيين احدهما أحمد حسن البكر الذي أصبح رئيسا للجمهورية عام ١٩٦٨ ، ولكن في نهاية عام ١٩٦٣ كان البعثيون قد أقصوا عن السلطة في العراق على يد الرئيس عبدالسلام عارف ..

وفي سورية كانت الصراعات الداخلية على أوجهها ، وكان من أبرز هذه الصراعات صراع بين رجلين عسكريين من ذوى الرتب العالية هما أمين الحافظ الذي كان وزيرا للداخلية ثم نائبا لرئيس مجلس الوزراء، فقايدا للجيش، ورئيسا للحكومة، ورئيسا للمجلس الوطني القومي لسورية وصلاح جديد، وهولواء في سلاح المدفعية وكان كلاهما في اللجنة العسكرية والقيادة القطرية .

وكان حافظ الأسد منذ ٨ آذار قد أصبح عضوا في المجلس الوطني لقيادة الثورة وتسلم مسئوليات في القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث منذ ذلك التاريخ، وبات قائدا للقوة الجوية ورقى لرتبة لواء في ٢ ديسمبر كانون الأول عام ١٩٦٤ وكان حافظ الأسد مع رفاقه قد ضاقوا ذرعا بصراعات النفوس والتجاوزات المرتكبة على كافة المستويات ، وقد تزامن مع هذا انعقاد أول مؤتمر قمة عربي في القاهرة عام ١٩٦٤ لبحث خطة اسرائيل لتحويل مياه نهر الأردن ، وهو المؤتمر الذي تم فيه تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وأعقبه مؤتمر القمة الثاني الذي عقد في الاسكندرية في شهر

■ ثورة آذار ■

سبتمبر ايلول من نفس العام ، وهو المؤتمر الذى اعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطينى وتم فيه الاعلان عن تشكيل جيش التحرير الفلسطينى وقرر الرؤساء العرب المباشرة فوراً فى تنفيذ مشاريع استثمار مياه نهر الاردن .. أى القيام بأعمال التمويل فى الأردن وسوريا ولبنان والتصدى لمشاريع اسرائيل فى هذا المجال .

وفى شهر تشرين الثانى نوفمبر جرت اشتباكات سورية اسرائيلية ، وفى داخل سورية تجلى الاستياء على صورة اضطرابات وأعمال تمرد محلية كما حدث فى حلب وحماة وتم العدول عن بعض التدابير الاقتصادية التى كان قد سبق للحكومة اتخاذها .

وفى مطلع عام ١٩٦٥ بدأت العمليات العسكرية الأولى لمنظمة العاصفة وهى الجناح العسكرى لمنظمة فتح ضد المنشآت الاسرائيلية المقامة لجر مياه الأردن ، كما تالت حوادث الحدود بين السوريين والاسرائيليين .

وقد عقد فى العام نفسه المؤتمر القومى للحزب وكان أمين الحافظ أميناً عاماً وصلاحي جديداً أميناً عاماً مساعداً .

وكما يقول العماد مصطفى طلاس : فقد كان حافظ الأسد عضو القيادتين متمسكاً بالوحدة العربية ، وكان بالغ الضيق من التناحر داخل الحزب بين معتدلين وتقدماتيين ، مدنيين وعسكريين ، وحتى العسكريون كانت صفوفهم مقسمة ، وفى تلك الفترة اقصى ميشيل عفلق عن منصب الامانة العامة لصالح منيف الرزاز من القطر الاردنى .

ويتحدث العماد مصطفى طلاس الى الكاتب الفرنسى لوسيان بيطرلان عن أحداث تلك الفترة فيقول : « كان أمين الحافظ يريد احتكار السلطات كافة إلا انه لم يكن يملك العزيمة اللازمة ، لذلك ذات يوم ترك صلاح جديد رئاسة الأركان وكان على وزير الدفاع اجراء بعض التنقلات فاستدعى على سبيل المثال قائد اللواء الخامس عدة مرات دون أن يلبى هذا الأخير طلبه ، عندئذ شكاً الى الوزير تصرفات القيادة وكلفنى باعتقال قائد اللواء المدرع ، ويوصفى عضواً فى مؤسسات الحزب، كنت واثقاً من اننى سأحظى بالتأييد إلا أن حافظ الأسد نصحنى بأن أفتح القيادة القطرية فى هذه المهمة وفعلت وحصلت منها على الضوء الأخضر ، وهكذا اعتقلت فى حمص قائد اللواء المدرع والضباط الموالين لأمين الحافظ وأحضرتهم الى دمشق ، وعندئذ تم تنفيذ التنقلات التى أمر بها وزير الدفاع ، ولكن القيادة القومية للحزب اجتمعت ، وبادر أمين الحافظ الى حل

■ الفصل الثالث

القيادة القطرية في ٢١ كانون الأول ديسمبر عام ١٩٦٥ ووضعت تحت تصرف القيادة القومية للحزب وحظر على أن أغادر دمشق ، وبعد ذلك قرر أمين الحافظ تشكيل حكومة جديدة برئاسة صلاح الدين البيطار وجاء محمد عمران وزيرا للدفاع فيها.

ويضيف العماد مصطفى طلاس : كنا نجتمع بحافظ الأسد لتدارس نتائج الأحداث المتلاحقة واحتمال المجابهة مع إسرائيل ، والتي يمكن أن تتطور في وقت لم يكن في وسعنا فيه أن نواجه حربا لتزعزع القيادة من جراء هذه الأحداث ، ولم يكن أمامنا مفر من التصدي بالسلاح للاتجاه اليميني الذي رفض الدعوة الى عقد مؤتمر قومي أو قطري على أعلى المستويات بحضور سائر أعضاء القيادة القطرية باستثناء أمين الحافظ ، وحافظ الأسد ، وإبراهيم مآخوس من القيادة القومية ، وبعد قرابة عشرين اجتماعا نوقشت فيها كافة المسائل السياسية والعسكرية ، والاقتصادية تقرر الانتقال الى العمل ، ولقد بدا تأثير الرئيس حافظ الأسد واضحا لأنه انضم الى القيادة القطرية فأعطاهم بعدا قوميا بانتماؤه الى القيادة القومية ، وبعدا عسكريا من جراء أهمية القوات الجوية التي يقودها .

ولقد شهدت تلك الفترة خاصة بعد أن رفض عبدالناصر أي صيغة وحدوية يقودها البعث، واخفاق قيادة البعث ذات النزعة اليمينية المساومة في تقديم صيغ وحدوية تلين موقف عبدالناصر ، وأدى ذلك كله الى تفجر ثورة الجماهير الوحدوية في سورية وهو مادفع بعض القيادات البعثية غير الملتزمة وعلى رأسها أمين الحافظ الى ممارسات دموية ضد الجماهير الغاضبة، ويشهد سعي العنف القمعي وتزايد التناقضات بين البعث والناصرية نتيجة العقلية اليمينية لحزب البعث التي كانت أسيرة خوفها وكرهاها للتجربة الناصرية في الحكم، واغراق نفسها في نظريات غير منسجمة مع واقع النضال العربي ، وكان يقف على رأس هذا التيار ميشيل عفلق الذي اتخذ من أمين الحافظ أداة غليظة لقمع القوى الوحدوية والناصرية .

وعلى الجانب الآخر كانت اذاعات وصحف القاهرة ترد على ما يجري ، واتخذت القاهرة قرارا باذاعة ملف محادثات الوحدة الثلاثية مما أثار سعي التباين بينهما، الأمر الذي أدى الى أن تفرض القيادة اليمينية في البعث حالة من التسليط والاستحواذ على أجهزة الحزب وخطه الفكري ، وهو ما دفع القيادة القطرية الى تشكيل لجنة من خمسة أعضاء كلفوا باتخاذ جميع الاجراءات اللازمة لعزل الفريق اليميني ومن ضمنها اللجوء الى السلاح ، وقد ضمت هذه اللجنة حافظ الأسد بالإضافة الى عدد آخر من الضباط الرافضين للعقلية اليمينية ، وقد أسندت الى قوى الدفاع الجوي التي يقودها حافظ الأسد مهمة احتلال دمشق ومحاور الطرق الكبرى التي تفضي إلى العاصمة ، وهيئة الاذاعة ،

■ ثورة آذار ■

والتلفزيون السوري ، كما كلفت كذلك بمهمة توقيف جميع الوحدات التي قد تعارض مهمتها ، أما كتيبة المظليين بقيادة سليم حاطوم فكان عليها احتلال قصر الضيافة ومقر قيادة أمين الحافظ ، في حين عهد الى مصطفى طلاس بالمنطقة الوسطى واللواء الخامس المدرع .

ومنذ ساعات الصباح الأولى ليوم ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦ تم احتلال دمشق وكلت العملية بنجاح في جميع أنحاء البلاد .

حوار مع طلاس

في دمشق يقولون - ويبدعهم الحق - انه منذ انتهاء الدولة الاموية في الشام وقيام الدولة العباسية فإن دمشق لم تعرف مجدها وعزها السابق كما عرفته في عهد الرئيس حافظ الأسد الذي يعدون شخصيته استمرارا للتاريخ الاموي بكل ما فيه من فروسية وشجاعة واحترام ، وعندما ناقشت العماد مصطفى طلاس في إحدى جلسات الحوار الطويلة معه حول هذا القول أكد لي انه قول مطابق للحقيقة تماما ، ونحن في بلاد الشام نقول : سورية الطبيعية ، والتي هي سورية الحالية ولبنان والأردن وفلسطين والأجزاء المغتصبة من تركيا ويطلقون على سورية الطبيعية اسم بلاد الشام ، ونحن نعتز بدولة بنى أمية ، لأن العرب عرفوا العزة وعرفوا الامجاد في دولة بنى أمية التي قال عنها الجاحظ : « دولة بنى مروان عربية اعرابية » .

ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن سورية كانت دائما منطلقا للتيارات العربية والتيارات الدولية التي تعصف بها ، وأذكر حديثا للمناضل العربي زكي الأرسوزي في أوائل الخمسينات ، وكان جالسا في مقهى الهافانا وكان الطلاب الجامعيون موجودين بيننا وكل طالب يقوم علاقات النواب في سورية ، **مجموعة النائب فلان تخضع للتيار الانجليزى ، ومجموعة فلان تخضع للتيار الفرنسى ، ومجموعة ثالثة للعراق ، ومجموعة رابعة لملك الأردن** ، وهكذا حتى قال زكي الأرسوزي الا يوجد في مجلس النواب نائب واحد لسورية ؟!! هذا الكلام كان منذ بضع وثلاثين سنة ، كانت سورية مطمعا لكل أجنبي يريد أن يكون له دور فيها ، الصورة في سورية بعد الحركة التصحيحية التي قادها المناضل حافظ الأسد تغيرت تماما ، لأول مرة لم يعد الناس يقولون سورية مع من ؟ أصبحت سورية مع نفسها مع أمتها العربية ، وذلك من خلال المصادقية التي اتسم بها الرئيس حافظ الأسد ، بدأ الناس يحترمونا في سورية ، وبدأ الرأي العام العالمي يكبر الدور الذي يتولاه الرئيس حافظ الأسد ، ونحن الآن في أوائل التسعينات وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفرد الولايات المتحدة في السيطرة على العالم نجد أن سورية تقول لا للولايات المتحدة عندما يتعلق الأمر بمصلحة أمتنا العربية ، ولذلك

■ الفصل الثالث

فنحن نعدّ عهد الرئيس حافظ الأسد هو استمرار لدولة الشموخ ، دولة بنى أمية ، كانت سورية في حاجة ماسة الى البطل الذي يعيد اليها شموخها وعزتها .. والبطل استجابة للحظة تاريخية معينة .. استجابة الى هذه اللحظة التي تحتاج الى من يجعلها لحظة فاعلة ومؤثرة ، والبطل هو تلبية لضرورات سياسية وحاجات اجتماعية ، هو تفاعل مع ظرف موضوعي محدد له شروطه ومواصفاته .

وعندما قلت للعماد طلاس : على ضوء هذا الكلام هل يمكن معرفة واقع سورية قبل الرئيس الأسد وطبيعة الظروف التي حددت برونه ثم واقع سورية الان ؟

قال : لابد أن ترجع الى عهد الوحدة في أواخر الخمسينات نذكر انه خلال هذه الفترة تكالبت على سورية القوى من كل جانب ، كانت تركيا هي الأصبع التي يحركها الغرب بقيادة الولايات المتحدة ، وكان عبدالناصر في ذلك الوقت يقود التيار القومي ، ومن هذا المنطلق فقد وجد لزاما عليه أن يكون مع سورية ، وأبلغ الرئيس عبدالناصر المسؤولين في سورية ان مصر معكم في نضالكم العربى ضد الاستعمار ، ولذلك أرسلت مصر قوات رمزية الى شاطئ اللاذقية كما أرسلت كتبية مغاوير الى حلب بغية المساهمة المعنوية وللتأكيد على أن مصر تقف مع سورية فيما لو تعرضت لأى غزو .

وللأمانة التاريخية فإنه بالإضافة الى صمود الجبهة الداخلية السورية عندما طرح شعار « كل مواطن خفير » بمعنى كل مواطن يدافع عن بلده ، وأن كل مواطن يجب أن يحمل البندقية ويخترط في المقاومة الشعبية بالإضافة الى صمود الجبهة الداخلية، كان هناك دعم الرئيس عبدالناصر من الناحية القومية ، وكان لموقف الاتحاد السوفيتى دور فاعل في أرغام تركيا على سحب جيوشها وبالتالي تم احباط مؤامرة الضغط على سورية ..

في ذلك الوقت وجدت قيادة الجيش انه من المناسب اضافة الى القوى التقدمية في سورية قيام وحدة مع مصر ، وتمت الوحدة ، وكانت سورية هي الدولة العربية الوحيدة التي قبلت أن تكون الى جانب الشقيقة الكبرى مصر .. أقول هذا لكى أؤكد أن الدول الغربية كلها كانت ضد هذه الوحدة حتى الاتحاد السوفيتى كان يحلم بقيام حكم موال له في سورية أو أن يُمكن الحزب الشيوعى في سورية من الوصول الى الحكم ..

ووجدت الجمهورية العربية المتحدة نفسها في بحر من العداوات العربية والأجنبية .. القطبان العالميان: أمريكا وروسيا كانا ضد الوحدة ، الدول العربية المحيطة بنا كانت ضد الوحدة ، الأردن ضد الوحدة ، لبنان ضد الوحدة ، العراق ضد الوحدة ، كل العرب المحيطين بنا كانوا ضد الوحدة ، ولذلك لم تستطع الصمود ، بالطبع يجب ألا نضع الحق كله على هذه العداوات لأنه كان هناك أخطاء ارتكبت وسببت التباعد بين القطرين ، الأمر الذى مكن القوى التي تعمل في الظلام من أن تستغل فرصة اعتماد

■ ثورة آذار ■

جهاز المخابرات في مصر على رجال لا قيمة لهم ، ولا وزن شعبي لهم ولا جذور وطنية أيضا لهم ، وقد تأكد هذا عندما رأينا العناصر التي كانت مقربة من جهاز المخابرات المصرية تتأمر على الوحدة .. كان الضباط البعثيون كلهم في القاهرة ، الرئيس حافظ الأسد في القاهرة ، حوالي ٢٢ ضابطا بالاضافة الى ٣٠ قائدا من القوات المختلفة كانوا في القاهرة ، وأقول انه لو كان هؤلاء الضباط موجودين في سورية في ذلك الوقت لما استطاع أحد أن يقوم بعمل من الأعمال التي حدثت .. لو كنا موجودين بمناصبنا في سورية لما جرؤ أحد على الانقلاب على عبدالناصر ، ولكن مع الأسف كنا موجودين في مصر ولا نستطيع الحراك بأي شكل من الأشكال .

طلبنا أن نأتي الى سورية، وكان الرئيس الأسد متحمسا للعودة الفورية الى دمشق ليقوم بعمل ما لمصلحة الوحدة، ولكن مع الأسف المخابرات المصرية قيدت نشاط الرئيس الأسد في ذلك الوقت لاعتقادها بأنه ربما يكون على اتصال مع الرجال الذين قاموا بالانقلاب ، كانت المخابرات المصرية توغر صدر الرئيس جمال عبدالناصر ضد أكرم الحوراني وكانوا يتصورون أننا معه ، لم يكونوا يعرفون أننا انفصلنا عن أكرم الحوراني عندما قمنا بمحاولتين لاستلام السلطة ، ولكن أكرم الحوراني ، كان يقول لا توجد كوادر تستطيع استلام الحكم وبالتالي سنكون في المواجهة دون غطاء قائمين بعصيان مدني أو انقلاب عسكري .. الخ ..

كانوا يعتقدون أننا محسوبون على أكرم الحوراني ، وهذا غير صحيح ، وكان الرئيس الأسد قد شكل لجنة عسكرية في القاهرة من أجل تنظيم الحزب ، وهذه اللجنة هي التي تولت عملية التنظيم لاسقاط حكم الانفصال في سورية .. ربما كان مما ساعد في ابقاء الرئيس الأسد في القاهرة انه انتقد بعض التصرفات التي ترتكبتها المخابرات المصرية في سورية مؤكدا ان هذه التصرفات يمكن أن تقود الى الانفصال فاعتقد بعضهم ان الرئيس الأسد على علاقة بالطاقم الذي قام بالانفصال، مع أن الذين قاموا بالانفصال هم جماعة كانوا محسوبين على القاهرة ولا يوجد بينهم بعثي واحد أو صديق أو قريب .. ومع ذلك بعد أن خرج حافظ الأسد من السجن وجئنا الى سورية ، وكنت أحمل رسالة البعثيين من مصر ، وكنت أول ضابط بعثي يأتي الى دمشق ، وكنت المسئول عن عائلات الرئيس الأسد وصلاح جديد وأسرتي لأنني كنت الصديق القريب منهما ، وجاءوا معي على متن الباخرة [سورية] وظللنا نناضل بقيادة الأسد حتى قمنا بحركة حلب في ١ ابريل/نيسان عام ١٩٦٢ ، كان الرئيس الأسد برتبة رائد ، وكنا قد نقلنا الى وزارات مدنية مختلفة ولكن تمكنا باتصالاتنا أن نقوم بحركة عسكرية في المنطقة الوسطى وفي حلب ، ويضيف العماد طلاس : الرئيس الأسد رجل انضباطي لم يشأ أن يكسر أوامر القادة الأكبر منه رتبة ، وبالتالي لم يبرز الى السطح ليقود الثورة مباشرة ، ولذلك كان الضباط الأكبر منه رتبة مثل

■ الفصل الثالث

جاسم علوان ومحمد عمران ولؤي الأتاسي ، كان كل هؤلاء الضباط أكبر رتبة منه ، وكان كل واحد منهم يغنى في واد ، الأمر الذي أحبط حركة حلب لأنه بشكل لا شعوري وبحركة مسرحية غير مسئولة ظهر المسئول عن الاذاعة وأعلن قيام الجمهورية العربية المتحدة دون أن يتصل أحد بالآخر وطلب من مصر قوات وطائرات ومظلات .. كان المفروض أن يسيطر قادة الحركة أولا على البلد وبعد ذلك يعلن الدخول في مفاوضات لاعادة الجمهورية العربية المتحدة .

أما أن يستنجد من محطة في حلب بقوات مصرية هذا ما أربك الحركة وأضعفها ، ولم يتمكن الأسد في الحقيقة من الوصول إلى حلب لأسباب خارجة عن ارادته ، ولم تكن الأمور بالتنظيم والدقة بالشكل الذي جعلنا نسيطر على مجريات الأمور . ولذلك أخفقت حركة الضباط الأحرار في حلب ، ودخلنا السجن .. حوالي ٧٠ ضابطا من مختلف الرتب ومعظمهم من الرفاق البعثيين .

تشاء الظروف أن يكون الأسد قد ذهب هو وصلاح جديد إلى حلب ، وبالتالي أرادت قيادة الانفصال أن تخفف من طردهم ، إذ لم يكن لكل ضابط دور بارز ولم يكن على المسرح إلا جاسم علوان وبعض أصحاب الرتب الكبيرة ، ولذلك خففت قيادة الانفصال من الطرد واكتفت بعقوبة انضباطية وهي السجن لمدة ٤٥ يوما ، وخرج الرئيس الأسد وصلاح جديد من السجن مبكرا ، وخرج من بعدهما عبد الكريم الجندي ، وهذا ساعد كثيرا لأن معظم أعضاء اللجنة العسكرية أصبحوا خارج السجن ، وفي الشهر الحادي عشر انضم اليهم المقدم محمد عمران وأصبحت معظم اللجنة العسكرية خارج السجن واستطاعوا أن ينظموا ثورة الثامن من أذار بالاعتماد على القوة الناصرية والقوة الوطنية التي كانت في الجبهة برئاسة زياد الحريري الذي كان قائدا للجبهة ، وبدعم البعثيين المنتشرين في كل الوحدات والذين شكلوا ثلاث قوى أساسية تحالفت ودخلت إلى القيادة العامة في الثامن من أذار وأسقطت الانفصال .. كل القوات تم السيطرة عليها ماعدا سلاح الطيران ، فسلاح الطيران كما يقول الانفصاليون لا يستطيع أحد أن يتزعمه لأنه سلاحهم ، وكان اللواء (عصاصة) المسئول عن هذا السلاح ومعه ضابط آخر يفخرون به .. قال لهم الأسد أننى قادر على احتلال سلاح الطيران ، وأخذ سرية دبابات من كلية المدرعات وكان معه الرائد غازي أبو عقل من الكلية ، وتوجه إلى موقع الضمير (مكان القاعدة الجوية الكبيرة وتمركز معظم سلاح الطيران في هذه القاعدة وفي قلب الكلية الجوية) وعند منطقة عدرة تعرضوا لغارة جوية وأصيبت الدبابات الأولى بصاروخ جو / أرض وتوقف الركب عن المسير وهنا قال لهم الرئيس الأسد : اننى كطيار أقول لكم اذا ظلتم واقفين ستضربون كلكم واحدا بعد الآخر اتجهوا ناحية الشرق وبسرعة عدو الطائرة فتشجعوا بمعنويات عالية وحاصروا القاعدة الجوية كما قال الرئيس الأسد ، وبعد حصار القاعدة الجوية ذهب الرئيس الأسد بمفرده ليمفاوض الانفصاليين ،

■ ثورة آذار ■

وهذه شجاعة نادرة أن يترك القوات تطوق القاعدة ، والقوات ليست قواته بل هي من كلية المدرعات ، وهو ضابط طيار ، وبعد ثلاث ساعات تمكن من اقناعهم بأنهم يجب أن يستسلموا بشرف ويتركوا القاعدة ، وبعد أن انتهت المفاوضات عرض الرئيس الأسد من موقع القوة على رئيس القاعدة أن يشاركه في قيادة السلاح فقال : أفضل أن أذهب الى البيت فأوصلهم الرئيس الأسد معززين مكرمين إلى بيوتهم وتمكن من السيطرة على سلاح الطيران تمام الساعة الرابعة من يوم الثامن من آذار مارس، وبالإستيلاء على سلاح الطيران تمت السيطرة على كل القوات في سورية وأصبحت موالية لثورة الثامن من آذار ... وللأمانة التاريخية أقول أننا لم يكن لنا جميعا من هدف سوى أن تعود الوحدة وأن نثبت في القانون مبادئ تؤكد لها لكيلا يأتي أي مغامر ويقول أنني صرت هنا ومصر صارت هناك ...

الرئيس عبدالناصر وبوحى من الأجهزة التي كانت تعمل معه قالوا يجب أن تعود سوريا كما كانت لبيت الطاعة ، والسوريون قالوا : مستحيل أن تعود سورية بهذا الشكل وتنفصل مرة أخرى ومستحيل أن يتحكم فينا مرة أخرى عبدالحميد السراج ، الذي جاءنا بعناصر ليس لها دخل بعبدالناصر وارتدوا عباءة الناصريين وسألناهم أين كنتم ونحن في السجن ؟ لماذا لم تقوموا بالانقلاب وأنتم داخل الجيش ؟ ولكنهم طلبوا أن يكونوا في المواقع الأساسية .

بتوجيه من الرئيس الأسد أعطوا هؤلاء جميع المناصب التي يريدونها سواء وزارات ، معابر أو ... أو .. إلخ ، ولكن لا تعطوهم أي شيء في الجيش ، وبالفعل تم هذا وكانوا سعداء ، وكان جاسم علوان يلعب من الخلف ولذلك قام بحركة فاشلة في ١٨ تموز يوليو ١٩٦٣ وبعد ثلاثة شهور من قيام الثورة وتم القضاء على الفتنة في مهدها ، وأخذ الحزب دوره لأن يكون الفاعل على الساحة في سورية .

كانت في الحزب ثلاث تيارات : تيار أمين الحافظ الذي يريد أن يعتمد على المرتزقة ويصادر الثورة وينفرد بالحكم في سورية ، وتيار يقوده صلاح جديد يعتمد على النهج اليساري المتطرف ، ويريد أن يبعد سورية عن الخط العربي ويكون أقرب إلى الكتلة الاشتراكية، وتيار قومي يتزعمه الرئيس الأسد ، وهذا التيار يريد أن يتحالف مع القوى التقدمية ويريد أن تبقى سورية في خطها القومي والعربي والاشتراكي ، وهذا التيار لم تحسم المعركة لصالحه إلا في عام ١٩٧٠ .

وحدثت أمور كثيرة ، ففي ٢٣ فبراير شباط أقصينا الجناح اليميني من الحزب نهائيا ، ونجح التيار القومي وتحالف الرئيس مع صلاح جديد لكنهما ظلّا يتصارعا تحت السطح حتى قامت حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧ ، وحرب حزيران يحمل وزرها

■ الفصل الثالث

حقيقة ثلاثة أشخاص : صلاح جديد ، إبراهيم ماخوس وعبدالكريم الجندى لأنهم حملوا القضية بشكل سيئ ودفعوا عبدالناصر دفعا لأن يكون في الساحة ، استغل الثلاثة حماس عبدالناصر ورفضوا الاستماع إلى كلام الرئيس الأسد ، لأننا لم نكن قد استكملنا استعداداتنا العسكرية اللازمة ، كما يتحمل المسئولية معهم المشير عبدالحكيم عامر لأنه لم يكن قد جهز الجيش المصرى لمحاربة اسرائيل وقدم بيانات خاطئة لعبدالناصر ، وكانت المعركة غير متكافئة .

كما أزم الثلاث صلاح جديد وعبدالكريم الجندى وإبراهيم ماخوس الموقف الدولى دون أى داع ، دخلت روسيا فى الأمر بشكل عشوائى ، وقالت أن هناك حشودا تتحرك فى المنطقة ، ولم تكن تعرف أن أمريكا تخطط لتضرب ضربتها ضد القومية العربية ورمزها جمال عبدالناصر .

كانت الولايات المتحدة بقيادة جونسون قد أكملت خططها بالتعاون مع اسرائيل ، لكن العرب لم يكونوا يعرفون هذه الحقيقة التى أكدتها مذكرات أطراف الصراع والتى التقت كلها على أن اسرائيل كانت جاهزة للعملية وانتظرت الفرصة المناسبة وقدمنا لها حلا لمشكلتها التى ادعت أن العرب سيذبحون اسرائيل ، وبعد العدوان الذى وقع على الأمة العربية بقى صلاح جديد متمسكا بموقفه المتشنج ، بينما كان الرئيس الأسد يريد أن يكون كل شيء للمعركة .. إلى أن حدث الاختلاف التدريجى بين الطرفين .

والواقع أن كون الرئيس الأسد انضباطيا جعله ينتظر من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٠ وكان قادرا على أن يزيح التيار الآخر بضربة واحدة ، ولكن انضباطيته الحزبية والعسكرية ولاء الجيش للسلطة الحزبية جعل الحسم يتأجل حتى بلغ السيل مداه ، وفى فبراير ١٩٦٩ وصلت الأمور الى حد التصادم . كيف ؟

يقول العماد مصطفى طلاس : كنا فى بغداد نشارك فى اجتماعات وزراء الدفاع ورؤساء الأركان لدول الطوق حول اسرائيل ، وكان يمثل مصر الفريق عبدالمنعم رياض ؛ وبعد أن انتهينا من اجتماعاتنا فى بغداد انفرد بى الفريق عبدالمنعم رياض وقال لى : أرجو أن تنقل للرئيس الأسد أن مصر تقف معه وتؤيده ، وأرجو أن تسأله ماذا يريد بالتحديد من الرئيس عبدالناصر ، كما أرجو أن تؤكد له أن عبدالناصر جاهز لاعطائه ما يريد .. وأضاف : الأسد رجل عربى صادق فى عروبه ، ولذلك فإن مصر تدعمه ، وإذا أراد قوات مصرية تعزز موقفه فنحن على استعداد وليكن تحت بند المناورات المشتركة ..

وعدت إلى دمشق وأبلغت الرئيس الأسد رسالة عبدالناصر التى حملها لى الفريق عبدالمنعم رياض ، وبالصدفة التاريخية استشهد عبدالمنعم رياض بعد يومين فى

■ ثورة آذار ■

الاسماعيلية في الجبهة الشرقية فجئت للتعزية والعزاء-كان في القاهرة ، وكان عبد الناصر يشرف على الجنازة بنفسه ، وأذكر أنني استمعت إليه وهو يسأل الفريق فوزى عن الترتيبات الخاصة بها وأكد له أنه بعث بالاضافة إلى عناصر الشرطة والمخابرات العسكرية خمسة آلاف عسكري لتأمين الجنازة ولكن حرس الرئيس جمال عبد الناصر إختفى وسط الزحام وقمت أنا وزكريا محيى الدين والفريق خماش رئيس الأركان الأردني وعدد من أعضاء قيادة الثورة المصرية ووضعنا أيدينا في بعضها لحماية عبد الناصر من اندفاع الجماهير وكان معي المرحوم سامي الدروبي سفيرنا في القاهرة ، وقال لي عبد الناصر نلتقي غدا لأعرف منك أخبار سورية ، وجلست معه خمس ساعات كاملة حتى جاء موعد الغداء في بيته ، وخلال الحديث الطويل أكد لي أنه مع التيار الذي يقوده حافظ الأسد لأنه يعمل لمصلحة الأمة العربية وضد أعداء الأمة العربية ، ومن هذا المنطلق فعبد الناصر يؤيد هذا الاتجاه ويقف بجانبه ، ولقد جرت مناقشة طويلة حول موضوعات مختلفة ، وعندما عدت إلى دمشق أبلغت الأسد بمضمون المناقشة وقضايا الحوار ، وكان مسرورا بحديث عبد الناصر ، ومسرورا أيضا بمعرفته بواقع الصراع داخل الحزب ، ولسوء حظ الأمة العربية لم يكمل عبد الناصر المشوار ورحل في ٢٨ سبتمبر أيلول عام ١٩٧٠ ، وبعد حوالي شهرين وفي ١٦ أكتوبر تشرين قام الرئيس الأسد بالحركة التصحيحية .

الأسد يشرح ضرورة حركة شباط

ويتحدث الرئيس حافظ الأسد عن الضرورات التي حتمت اقصاء الجناح اليميني في الحزب في حركة فبراير شباط عام ١٩٦٦ إلى لوسيان بيترلان مؤلف كتاب « حافظ الأسد مسيرة مناضل » فيقول : « بكثير من المرارة بعد مضي عشرين عاما على هذه الأحداث منذ ولادة الحزب ، كان هناك تيار انيطت ببعض عناصره مسؤوليات هامة في مؤسسات البعث يميل نحو اليمين وقد تعايشنا مع هذا الفريق سنوات طويلة قبل ثورة ١٩٦٣ لاعتقادنا بأن ذلك لن يشكل عائقا أمام مسيرة الحزب في تلك المرحلة ، ويضيف قائلا :

« إلا أن خلافات عديدة كانت تظهر بيننا وبين هؤلاء المناضلين على مستوى القاعدة ، كان الكثيرون يتمنون تغييرا في القيادة ، واقصاء المسؤولين اليمينيين الذي كان وجودهم يتعارض وأهداف الحزب في الوحدة والحرية والاشتراكية ، كانت هذه المشكلة سببا في حرب كلامية لا تنقطع ، إن هدأت أحيانا عادت بعدها من جديد على أشدها ، وكثيرا ما كان ينبغي تقريب وجهات النظر تبعا للمعطيات السياسية الراهنة وللاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية » .

■ الفصل الثالث

ويتابع حافظ الأسد فيقول :

« بعد ثورة ٨ مارس آذار عام ١٩٦٣ أصبح التوفيق بين وجهات النظر أكثر صعوبة ، وكان المنطق يقتضى صيغة للخروج من هذا الوضع .

قبل الثورة كنا نتحدث عن الاهداف التي ينبغي الوصول اليها ، وبعد الثورة كان لابد لنا من بلوغها أو أن نضع كافة الامكانات في هذا السبيل ، وأن نبرهن باقتناعنا وایماننا على اننا نبذل غاية الجهد لبلوغها .

قبل الثورة كنا نتحدث عن المحن التي نتعرض لها والالام التي يعاني منها الشعب وعن علة مصائبه وعن أماله ، وكنا نناقش كل ماينبغي أن نلجأ اليه لنستجيب لتطلعات الجماهير التي منحتنا ثقتها ، سواء على الصعيد المدني أو العسكري ، وكان لابد لنا بعد الثورة من أن نعمل بما يتفق والوعود التي أعطيناها، كنا نتخذ الاشتراكية مرجعا فيما يخص الوضع الاقتصادي ، ونلقى على الاقطاعيين والرأسماليين مسئولية مايعانى منه الشعب ، وكان لابد بعد الثورة من وضع حد للنشاطات الضارة التي يقوم بها هؤلاء الاقطاعيون والرأسماليون ، ولكن تصور اليمين كان يناقض متطلبات فترة ما بعد الثورة .

ويستذكر الرئيس الأسد :

« مازلت أذكر أنني ذهبت الى حلب في غضون الاشهر الثلاثة الاولى التي أعقبت ثورة ٨ مارس آذار ١٩٦٣ ضمن وفد القيادة القطرية للحزب ، كنا نعقد اجتماعات مع العمال ونحدثهم بالمنطق نفسه الذي كان سائدا قبل الثورة .

وقد أجابنا العمال بعدما أصغوا الينا : انتم تحسنون الكلام ، ولكن ماتقولون ليس جديدا فهي اللغة البعثية نفسها التي نعرفها قبل الثورة ، وقد وافقنا على برنامجكم ، مع أن كثيرين بيننا لا ينتمون الى حزبكم ، لأننا كنا نأمل انكم سوف تضعون وعودكم موضع التنفيذ ، والان تستمزون في التحدث عن الامراض والمصاعب التي ماتزال قائمة في حين تتوافر لكم سلطة ايجاد حلول لها ، في الماضي كنا نقرأ خطبكم ، أما اليوم فإننا ننتظر أفعالكم ، إذ لم يتبدل شيء فيما يخصنا نحن العمال .

**فما الذي يحول دون أن تجدوا الحل لكافة المشكلات التي تذكرونها ؟
وحول هذه المسألة ، أضاف حافظ الأسد قائلا :**

أنا في الحقيقة لم تفاجئني هذه الافكار بل كنت أتوقعها ، كنت على العكس سوف أعجب أشد العجب لو قال العمال غير ما قالوا ، وعندما عدت من هذه الجولة نقلت ماجرى لنا وذلك في اثناء اجتماع الحزب مبديا موافقتي على الكلام الذي وجه الينا ، بيد أنه كان من المستحيل ان نلقى أذانا صاغية لما كان يبدولنا على أنه المنطق عينه في صفوف الفريق

■ ثورة آذار ■

اليمنى في حزب البعث . والأمـر واحد فيما يتعلق بالوحدة العربية وفي البحث عن صيغ من شأنها ضمان حرية الجماهير ، أما بشأن الوحدة فقد كان يفترض أنها ستقوم من جديد بين مصر وسوريا لأن كل شيء كان مهياً لها آنذاك ، ولاسيما أن القطيعة ماتزال قريبة العهد ، لقد تمت مناقشة هذا الاقتراح عدة مرات في قيادة الحزب وبشكلت وفود لهذا الغرض ، بيد أنه كان يبدو واضحاً أن اليمن لم يكن يهتم بانجاح المفاوضات مع مصر فالوحدة العربية لا تحظى باهتمامه .

وحينما كنا نعود الى هذا الموضوع يجيبنا الجواب التالي :ـ سوف ندرس الأمر ـ وتمضى الأسابيع دونما جدوى .
ولفظة ـ درس ـ في اللغة العربية لها معنى آخر وهو : ذهب واندثر ، فكنا نقول :
« لقد درسنا هذا الموضوع دراسة مستفيضة ، حتى ـ درس ـ في نهاية المطاف » .
ويتابع موضحاً :

« أما في مجال الحرية ، فقد كانت نظرة الجناح اليمنى في الحزب تقليدية جداً أي رجعية ، وكان رأينا مختلفاً إذ كنا نرى ضرورة أن يتمتع ممثلو المنظمات الشعبية المنتخبة انتخاباً حراً بأوسع الصلاحيات ، يعنى على سبيل المثال أن يشارك العمال مشاركة وثيقة في تطوير منشآتهم وأن يفيدوا فائدة حقيقية من ثمار عملهم ، كما ينبغي أن يتمتع الفلاحون أيضاً عن طريق اصلاحات مناسبة بالصلاحيات نفسها التي يتمتع بها العمال ، كنا نرغب في انشاء مؤسسات تتماشى وهذه المقترحات ، مؤسسات تحبب العمال بمسئولياتهم وتمكنهم بفضل الصلاحيات المعطاة لهم ويفضل اقتناعهم من التحكم بمصائرهم والآن يظلوا تحت وطأة المال أو تأثير العشائرية .

وأزاء هذا الوضع كان لابد للتيار الذي يبغي بلوغ الأهداف التي رسمها لنفسه أي الوحدة والحرية والاشتراكية ان يفرض مشيئته على التيار الآخر الذي يكبح الحركة التقدمية في البلاد ، لقد كنا في مأزق ما بين ١٩٦٣ وشباط ١٩٦٦ ووقع علينا أن نلجأ الى بعض السبل التي يمكن أن تبدو غير طبيعية للبعض ولكن هدفها أن نحقق ـ على الرغم من كل شيء ـ بعضاً من أهدافنا .

من ذلك اننا اضطررنا في عام ١٩٦٤ ان نقرر بعض التأميمات دون علم الفريق اليمنى ، مثل هذا الاجراء يمكن ان يبدو غريباً في حزب اشتراكي باشر ثورة اشتراكية ، ويقوم بمثل هذا المبادرات دون الرجوع الى المسؤولين الرئيسيين في القيادة ، بيد أنه كان لا مفر من سلوك هذا السبيل ، كان ذلك واجبنا إذ نحن إذ ذاك أمام خيارين : إما ان نراعى بعض أعضاء القيادة ونتناسى تطلعات الجماهير العاملة ، أو نختار تسريع الأحداث فنستجيب لآمنياتها في سبيل الخير والانصاف للجميع ، والأمـر في ذلك لم يكن

■ الفصل الثالث

يعنى اجراء واحدا يتخذ او مرحلة واحدة ينبغي اجتيازها بل كان يعنى مواصلة الثورة وتسيير الامور العامة ومستقبل مواطنينا ، وماكان يمكن والحالة هذه ان نتردد أكثر مما فعلنا ازاء فريق تعتوره تناقضات بهذا العمق على صعيد النظرية الثورية .

وعلى الرغم من اقتناعنا ان هؤلاء المسئولين لا يمثلون قاعدة الحزب ، فقد لجأنا الى جميع الصيغ الممكنة بغية ايجاد اتفاق بيننا في اطار شرعية البعث واستخدام الطرق المعتادة التي تسمح بالوصول الى اجماع مقبول بعد المناقشات ، ولكن مقترحاتنا قوبلت بالرفض القاطع وبادرت القيادة القومية الى حل القيادة القطرية في سورية وفرضت فريقا قديما حل محل قيادتنا .

لست أريد الإلحاح على الطريقة التي جاء بها تشكيلها ، ولكنها لم تكن تمثل قاعدة الحزب ، وعلى الرغم من ذلك أعلننا عن ضرورة الدعوة الى مؤتمر عام جديد للبعث في سوريا لاجراء انتخابات عامة ، ورفض أعضاء القيادة آنذاك هذه الدعوة اذ كانوا يعون تمام الوعي انهم لا يستطيعون كسب الاغلبية .

وعاشت البلاد مرة أخرى وضعاً شاذاً وهي دون قيادة قطرية للحزب لأن القيادة القطرية في سورية هي التي تقود الحزب وتزود الحكومة بالتوجيهات السياسية .

لقد فقدت الدولة اذن الادارة اللازمة لمواصلة سياستها سواء اكان ذلك على الصعيد الداخلي أم الخارجي .

وبسبب هذا الدّسع القائم لابد من تقرير أفضل حل يتخذ في سبيل صالح البلاد العام وبما ان القيادة الدّيمة لم تعد تحوز ثقة القواعد الحزبية وقد زجت خطواتها المترددة الحزب في مثل هذا المحنة الجديدة ، فقد كان لابد من حسم الامر ، ولم يبق هناك من حل فيما عدا اقضاء القيادة السابقة وهو ماتم في ٢٣ شباط فبراير ١٩٦٦ .

ولكن العسكريين لم يكونوا الوحيدين في فرض نفوذهم داخل جهاز الحزب واختيار التيار التقدمي ، فهناك المحامي عبد الحليم خدام الذي كان مسئول حزب البعث في منطقة بانياس ، وأصبح على التوالي محافظا لحماه عام ١٩٦٤ وللقنيطرة عام ١٩٦٥ ولد دمشق نهاية العام نفسه ، ثم احتل مركزا حكوميا للمرة الاولى عام ١٩٦٩ كوزير للاقتصاد والتجارة الخارجية قبل ان يتسلم مقاليد الخارجية منذ عام ١٩٧٠ الى حين اضطراره بمهام نائب رئيس الجمهورية عام ١٩٨٤ .

خلاصة القول : ان حافظ الأسد كان له الدور الرئيسي في الوصول بالبلاد والحزب الى حركة ٢٣ شباط فبراير ١٩٦٦ وهي الحركة التي كانت بكل المقاييس منعطفها هاما في مسيرته القيادية . لقد حاول الإصلاح من الداخل ، ولكنه لم يستطع ، وحاول ان

■ ثورة آذار ■

يحد من سلطات ميشيل عفلق والبيطار وغيرهما من الذين قادوا سورية الى وضع مضطرب ولكنه ايضا لم يوفق، وكان من الطبيعي ان يستعين حافظ الأسد في محاولته للوصول الى تحقيق الأهداف التي يؤمن بها ببعض القيادات الفكرية التي يمكن ان تقدم وجهة نظر موضوعية مثل زكي الارسوذي الذي كان واضح الفكر وكان يلتقى كثيرا بالضباط والجنود ويحاورهم.

وفي كانون أول ديسمبر عام ١٩٦٤ رقى حافظ الأسد الى رتبة لواء وعين أمرا لسلاح الجو السوري، وبدأ يشعر باتساع الفجوة بين نهجه الثوري الواقعي والنهج المسيطر على السلطة بعيدا عن قواعد الحزب وجماهير الشعب بسبب المواقف المتناقضة التي كان يقفها عفلق، وعجز أفكاره عن مسايرة المستجدات الجديدة، والانقطاع عن المحيط العربي والخارجي.

كان لابد من حركة تنتشل الثورة من الحصار المضروب عليها، وكان لدى حافظ الأسد من الأسباب مايكفي ليقول كلمته في ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦، وإذا كانت حركة شباط قد اتسمت ببعض العنف الذي لم يكن له مسوغ، فإن ذلك يعود الى استعمال المغامر أمين الحافظ سلاح القوة الذي ضرب به القوى الناصرية.

وهنا تجدر الإشارة الى أن حركة شباط أسندت الى حافظ الأسد منصب وزير الدفاع في الحكومة الجديدة.. إلا أن هذا الموقع الرفيع لم يمنعه من التصدي للانحرافات الجديدة لانه ظل وفيا للثورة الأم، ولقد تصورت القيادة الجديدة التي ساهمت في انجاح انقضاء القيادة اليمينية، انه لابد من الانتقال الى النهج اليساري المتطرف، وهنا وجد حافظ الأسد نفسه يقف وحيدا تجاه تصليب عقائدي أرعن، الأمر الذي جعله يتصدى من جديد لتصويب جديد لمسيرة الثورة لكي تبقى في الاتجاه الصحيح.

لقد رفض حافظ الأسد وبعنف مغامرة العناصر المتطرفة وتعاليتها وانفصالها عن الجماهير وهو التصرف الذي كاد يخرج سورية من دالرتها العربية الى دائرة غير محددة المعالم، غامضة الأهداف تضع مصيرها في مهب الريح، وتحت ستار الادعاء برفض التعايش مع الرجعية العربية والناصرية نسجت ستارا كثيفا من التقوقع والانعزال، وحاولت ان تتمسح بالتجارب الفيتنامية والكوبية، غير أن الأمور اتخذت اتجاهات أخرى بعد حرب يونيو حزيران عام ١٩٦٧.

« حرب حزيران »

□□ النتائج التي ترتبت على هزيمة العرب في حرب حزيران كانت نتائج طبيعية لمقدمات كان لابد أن تفرزها، ففي ظل القوائن العسكرية المفقود بين اسرائيل والعرب، إضافة إلى حساسية توازنات القوى الدولية ومؤامرات بعض الاطراف العربية وهشاشة

■ الفصل الثالث

البنية الداخلية في سورية وتأزم الوضع الاقتصادي في مصر وضعف كفاءة القيادة العسكرية المصرية والتي أوصلت القوات المسلحة المصرية إلى حالة من العجز والترهل ، وفقدان الانضباط ، الأمر الذي جعلها عاجزة كلية عن الدخول في حرب والانتصار فيها ، وعندما وقعت نكسة حزيران يونيو كان الرئيس الأسد في موقع هام وهو وزير الدفاع ، وكان يدرك أن حرب حزيران مخطط لها بشكل جيد من ناحية الامكانيات والطاقت العسكرية كما وكيفا والتي استخدمت من الجانب الاسرائيلي وكانت متفوقة على نظيرها في الجانب العربي ، وقد جاء في كتاب لأحد مسئولى المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط وممثلا لوزارة الخارجية وللبيت الأبيض في المنطقة قال : أنه كان في اجتماع مع عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأنه توجه بسؤال لعبدالحكيم عامر عن امكانياته القيادية والدورات العسكرية وقال : تجرأت بهذا السؤال وكنت أنتظر أن يغضب ويلقى بى خارجا ، لكنه ابتسم وقال : أنا من وقت مبكر وأنا صغير كنت ألعب مع اولاد الحى الذى كنت أقيم فيه لعبة « عسكر وحرامية » وكنت أربح .

فإذا كانت عقلية من هذا النوع التى خاضت حرب ١٩٦٧ في مواجهة اعداد جيد من الجانب الاسرائيلي ، وأسلحة متطورة ، وخطط شاملة ، فليس هناك مفاجأة فيما حدث من نتائج .

بالنسبة لحرب ١٩٦٧ .. بالطبع فإن التقنية والكفاءة واستيعاب السلاح والتدريب كل هذا كان وراء الهزيمة التى كان لها تأثير كبير على عقل الرئيس حافظ الأسد فقد أيقظته الصدمة وحولته إلى مخطط ومفكر استراتيجى في ميدان السياسة الدولية . وتجدر الإشارة إلى أن الرئيس حافظ الأسد حين استلم مهام عمله كوزير للدفاع ، كانت لديه فكرة دقيقة عن طاقات جيشه لكن قرار الحرب هو قرار سياسى ينفذ بوسائل عسكرية ، وقد نجح النظام القائم في اضعافها إلى حد بعيد ، وقد وجد نفسه في خضم التوتر الذى وصل ذروته في معارك الطيران والمعارك الاعلامية المحمومة بين دمشق والقاهرة وتل أبيب ، وتحريض بعض الدول العربية لبدء الحرب أملا في اسقاط نظامى الحكم في مصر وسورية ، ولم يكن هناك مفر من أن يخوض الحرب وقد أصبحت خيارا وحيدا إلى نهايتها وبالوسائل والقوى الموجودة مهما كان شأنها ونتائجها .

وتجدر الإشارة إلى شهادة الكاتب والسياسى البريطانى انتونى ناتنج في كتابه « ناصر » عندما قال : إنه بعد أن أوقع عبدالناصر نفسه في الشرك الاخير باغلاق خليج العقبة فإن الاسرائيليين لم يكونوا ينوون السماح له بالافلات إذ أن اغلاق الخليج دفع الرأى العام العالمى إلى تأييدهم بصورة ساحقة .

■ ثورة آذار ■

وكان أى إجراء عسكري يقومون به سوف يجد تأييدا فى الغرب على أساس أنه دفاع مشروع عن النفس ، وأخذ صقور اسرائيل يفرضون سيطرتهم المتزايدة على سياسة الحكومة ، وكانت المسألة تتمثل بالنسبة إليهم فى مدى السرعة التى سيقوم بها الجيش لتنفيذ الخطى الرامية إلى سحق عبدالناصر التى ظلوا يعملون من أجلها طوال السنوات العشر الماضية ، وعندما اتجه ليفى أشكول رئيس وزراء اسرائيل آنذاك إلى الاستجابة لنداءات عاجلة من الحكومتين الأمريكية والسوفيتية بضبط النفس، هدد الصقور بوقوع انقلاب عسكري أو على الأقل باستقالة جماعية لهيئة أركان الحرب الاسرائيلية ، وقد اعترف اسحاق رابين رئيس أركان الجيش الاسرائيلي عام ١٩٦٧ فى تصريح لصحيفة لوموند الفرنسية فى فبراير شباط ١٩٦٨ بأنه لم يكن يعتقد أن عبدالناصر كان يريد الحرب ، فالفرقتان اللتان أرسلهما إلى سيناء يوم ١٤ مايو آيار ، لم تكونا كافيتين لشن حرب على اسرائيل وأن عبدالناصر كان يعرف ذلك وإسرائيل تعرفه أيضا .

وذكر مكسيم رود نسون فى كتابه « اسرائيل والعرب » (أن هدف عبدالناصر من الاجراءات التى اتخذها فى الفترة التى سبقت الحرب كان ارغام اسرائيل على التفاوض حول جميع المسائل الناجمة عن حرب ١٩٤٨ ، كما كان لدى اسرائيل اغراء اضافى تمثل فى أن الملك حسين لاعتبارات محلية وعربية سيشارك فى الحرب إلى جانب السوريين والمصريين رغم حالة العداء التى يكنها لهما وهو ما يهيئ لاسرائيل ذريعة كافية للاستيلاء على الضفة الغربية التى تعتبرها جزءا أساسيا من أرض اسرائيل وتطلق عليها اسما توراتيا هو « يهودا والسامرة » وهكذا دخل العرب الحرب بالصورة التى أشرنا إليها وكان طبيعيا أن تسفر عن النتائج التى حدثت فى حزيران ١٩٦٧ بالرغم من البطولات الفردية التى سجلها المواطنون العرب .

كانت هزيمة العرب عاملا حاسما ونقطة تحول فى حياة الرئيس الأسد بحكم موقعه العسكري ، وعلى الرغم من أنه يحمل أعلى شهادات فى العلوم العسكرية من الاتحاد السوفيتى إلا أنه رفع مستوى ثقافته العسكرية ودخل فى دورات تدريبية كبيرة وحصل على شهادات ، وعلى الفور كان قراره بتطوير القوات المسلحة السورية تسليحا وتدريبيا ، واستطاع خلال بضع سنوات أن يدخل الجيش السورى إلى مرحلة تاريخية جديدة ، والدليل على ذلك المعجزة الحقيقية خلال حرب ١٩٧٣ ، والذى صنع المعجزة فى سورية ما بين ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ هو الرئيس حافظ الأسد الذى أشرف بشكل مباشر على تدريب الضباط وتسليحهم وتوسيع ثقافتهم العسكرية وتحديث الجيش من كل الجوانب ، وعلى سبيل المثال قبل حرب ١٩٦٧ كان لدى سورية كلية عسكرية واحدة هى كلية حمص ، أما الآن فهناك العديد من الكليات فى مختلف العلوم العسكرية ، وهذا كله بفضل حافظ الأسد وأشرافه المباشر وبفضل تربيته ورعايته تحقق المستوى الذى

■ الفصل الثالث

وصل إليه المقاتل السوري من حيث التدريب ومن حيث الوثوق بالذات والأمان على المستقبل ، الأمر الذي أدى إلى انتصار ١٩٧٣ ، وهو الذي أنشأ مدارس أبناء الشهداء ورعى شئون الشهداء وأسهرهم ، وإذا أراد الانسان أن يؤرخ للجيش العربي السوري ويقارن بين وضع هذا الجيش قبل عام ١٩٦٧ وبعده فسيجد أن الصانع الأول لنهضته هو الرئيس حافظ الأسد الذي لا يزال يتابع تطوير الجيش باستمرار .

ويتحدث الرئيس حافظ الأسد عن الاجراءات التي اتخذت بعد حزيران فيقول : « بعد هذا التاريخ شرعنا في معالجة الثغرات التي نعاني منها وقمنا بتغييرات عديدة وحدثت انتخابات جديدة ، ونظمت مؤتمرات للحزب على مستويات مختلفة وانتخبت قيادة قطرية جديدة واتخذنا اجراءات اقتصادية جديدة ، وأخرى لاعادة تنظيم الدولة » .

ومع مرور الأيام ، برزت مشكلات جديدة فانتقلنا لمعالجة القضايا الاجتماعية والسياسية وشئون الحزب بصراحة زائدة ، مما نذر الرأي العام الشعبي ، إذ كان مواطنونا يجهلون ما تفعله السلطة القائمة ، وكنا نعالج المشاكل الداخلية والدولية بعقلية جامدة ، كما لو أننا نعالج قضايا الحزب الداخلية ، وكانت الحصيلة مزيدا من انطواء سورية على نفسها ، وتراجع نفوذها الدولي الذي بات محدودا للغاية ووصلنا إلى نقطة استحالة فيها تحقيق أى لقاء بيننا وبين أى بلد عربي أو أجنبي ، وكان هذا الوضع محط نقاشات عديدة في قواعد الحزب المدنية والعسكرية ، وقد طرح في بعض المؤتمرات دون أن يتم التوصل الى ايجاد حلول له .

وكما يقول لوسيان بيتزلان في كتابه « حافظ الأسد مسيرة مناضل » ، فالهزيمة كانت النقطة الحاسمة في حياة الأسد ، إذ أنها ألقته فجأة في مرحلة النضج السياسي ، وحفزت فيه الطموح ليحكم سورية بعيدا عن قيود زملائه الذين كان يحس بأنهم قادوا البلاد إلى الكارثة » .

وزاد من إحساس حافظ الأسد بخطورة الوضع رفض القيادة السياسية الأخذ بتوجهاته التي تنادي باعتبار الصراع مع إسرائيل هو قضية سورية الأساسية في حين أرادت القيادة الاستمرار في تطبيق سياساتها ذات النهج اليساري غير الجماهيري رغم الكوارث التي أصابت سورية من جرائه .

ويتحدث حافظ الأسد عن تلك المرحلة الخطيرة في تاريخ الحزب وسورية فيقول : « لقد اختلفنا على الحزب وكيف نبنيه ، كانت أمامنا مسألة أساسية ، كان بعض زملائى يعتقدون بأن من الأصح أن يبقى الحزب منعقلا على ذاته لحماية مناضليه ، ومنع الانتهازيين من التسلل إلى صفوفنا فلقد ناضلوا وعانوا من السجون والتعذيب ولذلك

■ ثورة آذار ■

اعتقدوا بأنهم قد كسبوا الحق للانفراد بالسلطة وكنت أرى العكس تماما ، إذ لم أكن أعتقد أن السجن والتعذيب ضروري ، ضرورة كافية لتكوين حزب جيد ، فتجربة الحكم نفسها صالحة أيضا لتكون محكا لمعدن الرجال ، والطبع فإن الانتهازيين يشكلون خطرا ولكنه خطر يتعين ألا نبالغ في تصوير حجمه ، فلو أننا قبلنا ألف عضو جديد وكان بينهم مائتان من غير المرغوب فيهم فإن الحزب يكون قد ربح ثمانمائة عضو جديدين ، وكنت أعتقد بأن انغلاق الحزب على نفسه سيجعله كالماء الراكد في حفرة وغير قادر على التكيف مع جريان الحياة ، ثم إن حزبا منغلقا على نفسه إنما يطلق العنان للانتهازيين بين ظهرانيه ، ويبدأ أعضاؤه في النظر إلى أنفسهم كطبقة قائمة بذاتها .

الأسد ومستلزمات المعركة

وإذا كانت حرب أكتوبر تشرين هي الحدث الأكبر بروزا لمسيرة الرئيس حافظ الأسد بعد ثورة التصحيح عام ١٩٧٠ بحيث يبقى عام ١٩٧٣ هو عام النصر بالنسبة للعرب لأن القوات المسلحة اتخذت فيه للمرة الأولى مبادرة الهجوم ، كما أعطى الرئيس حافظ الأسد لهذا اليوم مجدا تاريخيا ، فإن السؤال هو : كيف ساهم الأسد في تعديل ميزان القوى بعد حرب ١٩٦٧ .. وكيف وفر المستلزمات اللازمة للمعركة من بناء سياسي وعسكري وكيف تعامل مع هذه الحرب ؟

وفي مجال الاجابة على هذه الأسئلة قال لي العماد مصطفى طلاس : بالتأكيد كانت نكسة حزيران عاملا مؤثرا في حياة الرئيس حافظ الأسد ونظرا لأنه كان وزير الدفاع فقد رأى أن المبارزة مع العدو تعنيه من عدة نواح ، ولذلك استوعب كافة سلبيات حرب ١٩٦٧ واعتقد أن التضامن العربي هو الوسيلة الأساسية لخوض هذه الحرب ، ولما كانت مصر هي الدولة المتضررة في حرب ١٩٦٧ فكان من الضروري التنسيق مع مصر ، وقبل أن ينسق مع مصر بدأ في بناء القوات المسلحة ببناء شاملا ، ويمكنني أن أقول أن الأعباء التي تحملها الرئيس الأسد كانت كبيرة للغاية ، بدأ بناء القوات المسلحة بشحن الروح المعنوية أولا ، وكان حريصا على زيارة القوات في مواقعها المختلفة .

في إحدى المرات ظل يتحدث لمدة ١١ ساعة متواصلة مع الجنود من خندق إلى خندق ، ولم يأخذ فيها دقيقة واحدة راحة ، فالرئيس يملك طاقة من الامكانيات تمكنه من أن يعمل لعدة ساعات دون أن يتعب ، كل الرجال الذين كانوا حوله وأنا منهم كنا نشعر بالتعب ، ولكن حيويته كانت تدفعنا لمتابعة العمل من أجل بناء القوات المسلحة .

بعد الحركة التصحيحية توجه الرئيس الأسد إلى الاتحاد السوفيتي الذي رأى قادة الاتحاد السوفيتي فيه رجلا مختلفا عمن كانوا يتعاملون معهم ، وارتاحوا له لأنه كان صادقا ، وعاد الأسد بعد أول زيارة للاتحاد السوفيتي بصفقة أسلحة بلغت أكثر مما

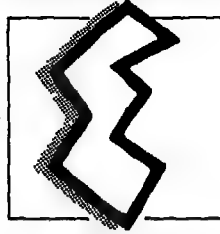
■ الفصل الثالث

أخذناه من الاتحاد السوفيتي في كل حياتنا العسكرية منذ عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٧٠ ، حصل مرة واحدة على أكثر مما حصلنا عليه في ١٥ سنة ، وكانت شروط التسديد أن تكون هناك عشر سنوات سماح وبعد فترة السماح يبدأ التسيط لمدة عشرين سنة وبفائدة ٣٪ وهذا ما جعلنا نبرم اتفاقيات أكثر، وبالتالي زاد في تعزيز القوات المسلحة وتجهيزها ، ولم يكن هناك أحد يوجد في الجبهة مثلما فعل الأسد مع أنه يشغل موقع رئيس الجمهورية ، وكان يعطى القوات المسلحة الدور الأهم في كافة المجالات ، وعندما التقى بالسادات شكلا لجنة تخطيط سورية ومصرية ، وفي الحقيقة كنا نعمل مع رفاقنا ، وقد صادقت أحمد اسماعيل في ذلك الوقت ، وكان رجلا صادقا وكنا نقوم بعملنا بتنسيق متماثل بين مصر وسورية، في الوقت الذي نواصل العمل لجذب الدول العربية الى الطريق الصحيح ونكون في قلب التضامن العربي .

إذن بناء القوى الذاتية لسورية والتنسيق مع مصر من خلال مجلس التخطيط الأعلى وتعميق التضامن العربي كانت على رأس شواغله ، الأمر الذي أعطى نتائج بارزة ، ولقد كنا مع مصر كما لو كنا دولة واحدة وهذه حقيقة .

ومن هذا المنطلق خاض الرئيس حافظ الأسد حرب تشرين وهي أهم الحروب التي خاضتها الأمة العربية في تاريخها المجيد ، ولكن الأمور بعد ذلك سارت في الاتجاه المعروف ، الأمر الذي مكن الإدارة الأمريكية بالتنسيق مع الصهيونية العالمية من امتصاص نتائج حرب تشرين وتجزئتها وتهميشها بعد ذلك على هذا النحو .

الكتاب الجديد



قراءة في فكر الأسد

حركة التصحيح

- ☐ الظروف التي حتمت قيامها .
- ☐ أسباب التصحيح ومنطلقاته .
- ☐ ملامح سياسة الأسد العربية .
- ☐ التوافق بين عبدالناصر والأسد .
- ☐ تجربة الجبهة الوطنية التقدمية .
- ☐ فلسفة التنمية الاقتصادية في فكر الأسد .
- ☐ قراءة التاريخ والاهتمام بتدوينه .
- ☐ الحياة الثقافية في مصر وكيف يتابعها الرئيس الأسد ؟

■ حركة الانفصال ■

□□ كان الانفصال البغيض الذي وقع في ٢٨ سبتمبر ايلول عام ١٩٦٢ هو المحرك الأول لنقمة الجماهير الوحشية في سورية قبل ثورة آذار، كان جرح الانفصال داميا بكل ماتحملة هذه الكلمة من معنى ، ولقد كان وقع الكارثة الانفصالية التي انتهت الوحدة العربية الاولى في تاريخنا الحديث على الجماهير اليما وموجعا ، وكانت الازمة الكبرى التي عاشتها سورية من ٢٨ ايلول سبتمبر ١٩٦١ حتى آذار مارس ١٩٦٢ ، دافعا للجماهير لان تنهيا لاسقاط حالة الانفصال ، وبلغت الازمة ذروتها في آذار عام ١٩٦٢ ، بسبب حكم الانفصال وحكم الرجعية وكان التملل الشعبي ينتشر في كل الاوساط وكل الانحاء ينقلب الى غضب ثوري اجتاحت سورية عشية الثامن من آذار ، وفي صبيحة هذا اليوم قامت الثورة لتتخلص من الواقع الذي رفضت استمراره ، وبدعم الشعب استطاعت الثورة ان تشق طريقها ، وتبلور اتجاهاتها وتنشر شعاراتها في الوحدة والحرية والاشتراكية ، وكان هناك من يحاول ان يستغل الثورة لصالح الاتجاه اليميني الذي يمثله ، وكان هناك ايضا من يقف على يسار الثورة ، وأدت هذه التناقضات الى حركة ٢٣ فبراير شباط عام ١٩٦٦ ، وهي الحركة التي اضافت صفحة جديدة ، مشرفة الى صفحات نضال قواعد حزب البعث ، لكن تسلط القيادة المتطرفة جعل الامور تتأزم وتسود

النزعة الانعزالية الى أن بدأت تبرز موجبات لحركة تصحيح .. حركة تصحيح تعيد الأمور الى نصابها السليم .

ولم يمكث الشعب طويلا حتى جاءت الحركة التصحيحية في ١٦ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٠ بقيادة الرئيس حافظ الأسد ، وقد عبر البيان الأول للحركة الذي أذيع في ١٧/١١/١٩٧٠ عن الرؤية الثورية السليمة والتشخيص الصحيح للداء الذي تعاني منه سورية وشملت خريطة العمل التصحيحي كل الأمور على النحو الذي سيلى فيما بعد .

ومن المعروف ان الرئيس حافظ الأسد كان على رأس اللجنة الحزبية العسكرية التي تألّفت بمبادرة منه في مصر ابان الوحدة ثم كان على رأس اللجنة الحزبية في سورية في زمن الانفصال وهو الذي قام بالاتصال بالبعثيين واعاد تجميع صفوفهم بعد أن جرى حل الحزب ، وهو الذي اتصل بالناصرين ، وغيرهم من الوجدويين في الجيش ، ورتب معهم خطة ثورة أذار وشارك في تنفيذها وقيادتها وقضى على التمرد العسكري الذي قام ضدها في مطار « الضمير » ، كما قضى على حركة التمرد في الثورة في يوليو تموز ١٩٦٣ ، وانتخب عضوا في القيادة القطرية في أول مؤتمر للحزب بعد الثورة ، وحسم بصفته عضو القيادتين القومية والقطرية وقائد القوى الجوية الخلاف الذي نشب في ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦ لصالح الخط التقدمي ، وأبعد عناصر القيادة اليمينية ، ومثل الاتجاه القومي الثقل حين برز التعارض بين اتجاهين في خط الحزب بعد حركة ٢٣ شباط ، وشارك في المؤتمر الرابع الذي عقد عام ١٩٦٨ بصفته عضو القيادتين ووزير الدفاع ، كما شارك في المؤتمر الاستثنائي بعده ، والذي برزت فيه الأزمة بكل عمقها فقام بحركته التصحيحية في ١٦ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٠ تؤيده قواعد الحزب المدنية والعسكرية .

□□ الذين يقرأون بيان القيادة القطرية المؤقتة الصادر في ١٧ نوفمبر ١٩٧٠ الآن وبعد مضي ٢٢ سنة يجدون ان هذا البيان تضمن تحليلا عميقا مستقبليا للأمور وتحديدًا للأهداف التي استهدفتها هذه الحركة على امتداد هذه السنوات ، ثم تنفيذا دقيقا لكل ماورد في البيان ، كذلك فقد تضمن هذا البيان توضيحا شاملا للضرورة التاريخية التي تطلبت انقاذ الحزب ، من قيادته المناورة والعاجزة عن التطور والتي تمثل كل رواسب الواقع المتخلف الذي تعيشه الأمة العربية . مؤكدا بأن قصور وتسلسل العقلية القيادية المتعالية والمناورة سبب التناقض والشلل والانقسام في صفوف الحركة الثورية .

وقد برز هذا الانقسام في المؤتمر الاستثنائي الذي عقد في ربيع عام ١٩٦٩ وأخذ يتعمق على الرغم من أن قواعد الحزب عملت على تداركه ، وكثيرا ما تصدت قواعد الحزب لتلك العقلية القيادية ، ولكن كان الحزب ينقسم على نفسه في كل مرة بسبب العقلية القيادية التي مارست التزييف والتخفى خلف شعارات أثبت الواقع والممارسة انها

■ حركة التصحيح ■

لا تؤمن بها ، وكانت كل الانقسامات بعيدة عن أن تكون انقسامات لها أسس ومنطلقات وأساليب عمل متميزة ، بحيث يتحقق فرز علمي صحيح للشوائب التي قد تعلق بجسم أى حركة ثورية نامية ومتطورة ، بل كاد الانقسام يشطر الحزب الى مجموعة فيها الغث والسمين ، وهكذا كانت تتوالى الكوارث على الحزب بفعل هذه العقلية المتخلفة والتي تجاوزتها الاحداث ، ولقد برز الرئيس حافظ الأسد من صفوف الحزب ليعلن تصحيح مسار الثورة في خطوة ثورية جريئة حاسمة وواعية ، الامر الذي جعلها تعطى لثورة الثامن من آذار قوة جديدة ، وأفاقا ثورية جديدة .

حدد الرئيس حافظ الأسد فور قيام الحركة الهدف المرحلي لأمتنا العربية والذي جسده في التحرير الكامل لجميع الأراضي العربية المحتلة منذ عدوان عام ١٩٦٧ وعدم التفريط أو التنازل عن أى جزء منها . والالتزام باستعادة الحقوق الوطنية للشعب العربى الفلسطينى وحقه في تقرير مصيره على أرضه ، كما أوضح أسس العمل ومنطلقاته ، فالمعركة في فكر حافظ الأسد كانت وماتزال معركة قومية ، وهذا مايجب اعطاها ابعادها الحقيقية في جميع المجالات ، كما حدد ضمن هذه الأسس ممارسة سياسات تؤدى الى عزل العدو الصهيونى سياسيا واقتصاديا والى وقف الدعم السياسى والاقتصادى له من أى مصدر في العالم . والتصدى للمؤامرات الامبريالية في المنطقة ، وتقويت الفرصة عليها ومقاومة مخططاتها المعادية للأمة العربية الى جانب العمل بكل الوسائل لاحباط المحاولات الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية ، وقضية التحرير الشامل للأراضى العربية من خلال الحلول والتسويات الجزئية أو من خلال الخطوات الجزئية المنفردة ، وحشد جميع القوى لمواجهة العدو الصهيونى والتركيز على المعركة الرئيسية والابتعاد عن المعارك الهامشية ، والانطلاق في السياسة السورية من المصالح القومية والوطنية وبما يخدم الهدف المرحلي للنضال العربى الى جانب الاستمرار في بناء الجبهة الداخلية وتعزيز قدرات القطر العربى السورى الذاتية العسكرية والاقتصادية ، بمايضمن صموده وتصديه لتحقيق الهدف المرحلي .

وفي مجال السياسة العربية بادر الرئيس الأسد بتوضيح ملامح سياسته في هذا المجال ، والتي خصصها في تطوير أساليب العمل الوجدوى والنضال لتحقيق مايمكن تحقيقه من خطوات وحدوية ولم يكن غريبا أن يبادر بعد تسلمه رئاسة الجمهورية بأيام الى اعلان اتحاد الجمهوريات العربية مع مصر وليبيا تجسيدا لايمانه العميق بالوحدة العربية ، واعادة اللحمة للوحدة الى جانب اتباع المرونة السياسية في معالجة العلاقات مع الاقطار العربية ، لتعزيز التضامن العربى وترسيخه والعمل على وضع طاقات الأمة العربية العسكرية والاقتصادية والسياسية في المعركة وتحقيق تنسيق عربى فعال لعزل العدو سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، واستخدام كل الامكانيات والوسائل لتحقيق هذا

■ الفصل الرابع

الشعار الى جانب العمل على تحقيق عمل عسكري فعال بمايؤدى الى وحدة القيادة العسكرية وتحقيق الاستخدام الأفضل للقوات في جبهات المواجهة ، وتنمية القوات العسكرية العربية الى جانب العمل على تحقيق تكامل اقتصادى وتطوير المناهج التعليمية والتربوية لتحقيق وحدة الثقافة والفكر .

وفي المجال الدولى الاستمرار في بذل النشاط والجهود الفعالة في اطار الأمم المتحدة ومؤسساتها ومنظماتها لمحاصرة العدو وعزله ، وفضح طبيعته العدوانية وترسيخ الحق العربى ودعم حركة عدم الانحياز وتطويرها والاستفادة من المواقف الايجابية في مجموعة الدول الاسلامية وتوثيق التعاون مع المنظمات الاقليمية كمنظمة الوحدة الافريقية .

أما بالنسبة لقضية العرب المركزية ، وهى القضية الفلسطينية فقد أكد على ضرورة العمل الحازم لعدم تحويل هذه القضية الى قضية ازالة العدوان وعدم التنازل عن الأرض العربية في جميع الظروف والأحوال ، والالتزام بدعم نضال الشعب الفلسطينى من أجل العودة الى وطنه ، وتقرير مصيره فوق أرضه ، والعمل على ابراز الشخصية الفلسطينية ومساندة منظمة التحرير والعمل على تعزيز الوحدة الوطنية بين مختلف الفصائل في حركة المقاومة وبما يدعم النضال الفلسطينى لتحقيق الاهداف الوطنية .

تشابه في المواقف والفكر

□□ ملامح التشابه والتكامل في المواقف الثورية ، والفكر الخلاق حيال قضايا الأمة العربية بين الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والرئيس حافظ الأسد .. عديدة ومتنوعة ، ومفاهيم الثورة العربية المعاصرة في الوحدة والحرية والاشتراكية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية التى ناضل من أجلها جمال عبدالناصر كانت هى طابع العهد الذى استهله الرئيس حافظ الأسد .. لان كلا القائدين فهم بصدق تطلعات الجماهير وعبر بوضوح عن آمالها ، ولقد جاء حافظ الأسد ليكمل الاهداف النضالية التى بدأها الرئيس جمال عبدالناصر ولم يكملها بسبب رحيله المبكر .

ولقد واجه امتحانات غير هينة وكان في مستواها .. ظروف نكسة حزيران يونيو ، الحرب الاهلية في لبنان ، حرب الخليج ، الاجتياح الاسرائيلى للبنان ، وقبل ذلك كله حرب اكتوبر تشرين التى كان بطلها ، وهى الحرب التى هزت الكيان الاسرائيلى ، وانتهت اسطورة الجيش الذى لا يقهر .

■ حركة التصحيح ■

موجبات حركة التصحيح

□□ موجبات حركة التصحيح كثيرة ومتنوعة أولا ، قبل عام ١٩٧٠ كانت هناك شبه قطيعة تامة بين سورية وبين العرب الآخرين ، وكان واضحا أن هناك احتياجا ماسا في سورية لقائد يعبر عنها ويسهم في صناعة تاريخها وأحداثها الكبرى ، لاسيما بعد أن اثبتت هزيمة ١٩٦٧ عمق القيادة الانعزالية والمتطرفة الحاكمة ، كانت هناك مسئوليات قومية عظمى تحتاج الى من يكون في مستواها وفي مستوى المخاطر التي يمكن أن تنجم عنها .

وحين ظهرت قيادة حافظ الأسد فإنها كانت في الحقيقة تلبية لواقع سورى يتطلب وجود مثل هذه القيادة ، ولواقع عربى نشأ عن الفراغ الكبير الذى أحدثه غياب جمال عبدالناصر ، ولذلك فقد كان ظهور حافظ الأسد فعلا ورد فعل ، في أن واحد للظروف التى نشأت في ذلك الوقت على المستويين السورى والعربى .

داخل النطاق السورى كانت القيادة ترفض باصرار كل محاولات الإصلاح والانفتاح وكانت تمارس الانعزال والتعالى على الجماهير .

وفي النطاق العربى كانت القيادة السورية تهاجم جمال عبدالناصر عندما قبل مبادرة روجرز دون أن تطرح أى بديل يعيد الاراضى المحتلة .

صحيح أن الرئيس حافظ الأسد لم يقبل بمبادرة روجرز الا أنه أقر مبدأ المناقشة التى يمكن ان تسفر عن الرفض أو القبول وفقا لما تحققه المبادرة من مصالح سورية وعربية .

ولقد تفهم حافظ الأسد الاسباب التى دعت الرئيس الراحل جمال عبدالناصر لقبول مبدأ المفاوضات حيث كانت حرب الاستنزاف التى كان يخوضها على الجبهة المصرية باهظة التكاليف .

كما أن الحرب اتخذت مسارا خطيرا في ظل انعدام توازن القوى بين مصر التى خسرت الحرب واسرائيل في انتصارها المؤقت ، ومقابل كل عملية مصرية محدودة كانت اسرائيل تشن عمليات برية وجوية بالجملة ، وبعضها كان بالعمق المصرى كما جرى في جزيرة « شدون » الواقعة قرب الساحل المصرى على البحر الأحمر والتى تستخدم كمحطة لمتابعة الطائرات الاسرائيلية وبعد ان قتلت أكثر من ثمانين جنديا مصرية قامت بفك محطة حديثة للرادار ، كما قامت الطائرات الاسرائيلية بالاغارة على مدرسة بحر البقر المصرية وهى مدرسة ابتدائية فقتلت أربعة وثلاثين طفلا وخلفت ما يقرب من خمسين جريحا ،

ومع أن الرئيس عبدالناصر أكد أن الأمريكيين يقاتلون خلف القوات الاسرائيلية

■ الفصل الرابع

ويزودونها بالطائرات التي يستخدمونها ضد مصر فإن عبدالناصر وفي إطار مسئوليته الكاملة عن حماية شعبه ووطنه ، وافق على البدء في المفاوضات على أساس القرار ٢٤٢ ، وبعد ان تلقت واشنطن الموافقة المصرية أعلن وليام روجرز وزير الخارجية الأمريكي الأسبق في ٢٥ حزيران يونيو عام ١٩٧٠ مشروعه المتضمن وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل لمدة ٩٠ يوما على الأقل .. تعين خلالها كل حكومة ممثلين للاجتماع مع مبعوث للأمم المتحدة جوناريارينج ، والبحث عن كيفية تطبيق القرار ٢٤٢ ، وطريقة تضمن انسحاب إسرائيل والتوصل الى تسوية سلمية في المنطقة ، ولقد وافق عبدالناصر على مبادرة روجرز لأنه كان على يقين أن رفضه لها سيفتح الباب أمام إسرائيل لمزيد من الغارات الإسرائيلية وربما لهجوم عسكري كاسح .

تفهم الرئيس حافظ الأسد كرجل عسكري استراتيجي وقومي دوافع جمال عبدالناصر ، وتعاطف معها ، في حين كان التطرف السوري مستمرا في اداة الممارسات المصرية ، وقد أسعد القيادة السورية آنذاك أن ترى جمال عبدالناصر رمز الأمة العربية يفاوض الولايات المتحدة من موقع ضعف ، ويستذكر الرئيس حافظ الأسد أجواء الموقف في هذا الشأن فيقول :

« كلما تحدث عبدالناصر عن السلام كان زملائي يعترضون ، ولم يكن الأمر متعلقا بمهمة يارينج أو مشروع روجرز فعسب ، بل كان زملائي لا يوافقون على فرضياته ومقولاته ، كانوا ضد أى شيء يقوله عن السلام ، وكان يبدو كما لو أن أى شيء يقوله عن قرار مجلس الأمن القومي رقم ٢٤٢ يحسب ضده .. »

ويجدر بالذكر الإشارة إلى أن استمرار سياسة الرفض العشوائية قاومها الرئيس حافظ الأسد لأنه كان يرى أن إسرائيل تحصد باستمرار نتائجها وكثيرا ما تدخل في مناقشات حول خطورة استمرار هذه السياسة ، ومن المعروف أنه عندما أعلن العرب قبولهم للقرار ٢٤٢ أصيبت إسرائيل بالدهشة ، كما أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية رفضها لمبادرة روجرز ، ورفضها لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ لاعتقادها بأن مشكلتها ستبقى دون حل ، وانطلاقا من هذا الموقف دفعت المنظمة ببعض فصائلها إلى شن غارات مسلحة ضد المستوطنين اليهود ، في حين وجه الرد الإسرائيلي العسكري ضد الجيش والقرى الأردنية وهو ما خلق في النهاية حالة من التوتر والحذر المتبادل بين الجيش الأردني والمقاومة الفلسطينية ، واستغل الملك حسين شعور الكراهية التي بدأ الجيش يحس بها تجاه المقاومة فكانت أحداث أيلول الأسود ، غير أن جمال عبدالناصر ، وحافظ الأسد حثا الملك حسين على ضبط النفس وعدم اثارة معركة لا مسوغ لها في ظرف دقيق وحساس .

وقد ذكر أنتوني ناتنج في كتابه « ناصر » بأن جمال عبدالناصر أبلغ ياسر عرفات عقب

■ حركة التصحيح ■

مقابلته في أغسطس آب ١٩٧٠ ، أنه إذا هاجم الملك حسين المقاومة فإن عليهم ألا يلوموا إلا أنفسهم ، إذ أن الملك حسين قد كف بيده عنهم حتى الآن بسبب مناشدة القاهرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنه لم يكن يرغب في إحداث انشقاق داخل جيشه وأن على المقاومة ألا تتوهم أن في استطاعتها مقاومة الجيش الأردني إذا ما اضطر الملك حسين إلى اتخاذ موقف متطرف، وعليهم أن يتجنبوا بأي ثمن أي إستفزات أخرى لا يمكن أن تؤدي إلا إلى كارثة أخرى تنزل بهم .

وينقل باتريك سيل في كتابه الصراع على الشرق الأوسط قول حافظ الأسد في مقابلة معه : (لم أكن في حياتي كلها مؤيدا للفوضى على الإطلاق ولن أكون .. كنت أود أن تبقى المقاومة الفلسطينية نقية ومتحررة من التورط في الشؤون الداخلية للأقطار العربية ولكن بينما أعارض الفوضى الفلسطينية في الأردن أو في لبنان أو في أي بلد عربي آخر فإنني أؤمن أيضا بأن للفلسطينيين حقا في إيجاد أرضية ينطلق منها نضالهم في سورية والأردن ولبنان ومصر وأي مكان آخر ، كان هذا رأيي منذ البداية الأولى وهو لا يزال رأيي اليوم) .

وقد صبح ما توقعه الرئيس حافظ الأسد ، ذلك أنه عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باختطاف أربع طائرات مدنية يومى ٦ ، ٩ أيلول (سبتمبر) واحتجزتها مع ركابها في الأراضي الأردنية ، شعر الملك حسين بأن الوقت قد حان لتصفية حساباته مع المقاومة وإنهاء الوجود الفلسطيني المسلح ، وفي ١٥ أيلول شكل حكومة عسكرية بدأت على الفور عمليات عسكرية واسعة النطاق ضد المقاومة الفلسطينية ، ولولا التدخل السوري لحماية المقاومة من التدمير ودخول جمال عبدالناصر بثقله العربي للضغط على الملك حسين لأخذت الأحداث بعدا آخر ، وكان الثمن الذي دفعه عبدالناصر لقاء هذا الدور وفاته ، في ٢٨ أيلول سبتمبر ١٩٧٠ .

وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن يرحل جمال عبدالناصر في وقت من أخطر الأوقات في تاريخ العرب المعاصر حيث معركة المصير العربي المحتدمة ضد الأعداء ، شاء القدر ألا ينتظر جمال عبدالناصر معنا ليقودنا إلى تحقيق النصر الذي عمل وجاهد من أجله حتى آخر أنفاسه ، وتركه أمانة في أعناق الشرفاء تهديه إلى روحه الطاهرة في عليائها .

وفي دمشق كان لنبا وفاة عبدالناصر وقع الصاعقة على الجميع .. لأن جمال عبدالناصر عمل دوما على حماية سورية قلب العروبة النابض ومركز الدعوة الوجودية عبر التاريخ ، يكفي أن نشير إلى أنه إزاء الضغوط الاستعمارية التي كانت تستخدم تركيا والعراق للتدخل في سورية وقعت اتفاقية ميثاق عسكري وقصا من بين مصر وسورية في

■ الفصل الرابع

تشرين أول أكتوبر ١٩٥٥ ثم عندما اشتد الضغط بسبب الاتجاهات التحريرية في سورية وضعت مصر الاتفاقية موضع التنفيذ وأرسلت قواتها إلى سوريا تحمي حدودها الشمالية وأعقب ذلك قرار جماعي من مجلس الشعب السوري ، وقد تمت الوحدة بعد ذلك في فبراير شباط ١٩٥٨ .

وأيا كانت النتيجة التي انتهت إليها هذه التجربة فإن الحقيقة التي لا مراء فيها ، هي أن هذه الوحدة التي تحققت في ظل قيادة جمال عبدالناصر كانت استجابة للوعي القومي العربي في البلدين وتسجيلا لتيار جارف ينبعث من جموع الشعبين اللذين أمنا بالقومية العربية وضرورة الوحدة بينهما ، كخطوة أولى في سبيل الوحدة الكبرى التي تضم شمل الأمة العربية في دولة كبرى موحدة أو اتحادية ، وكان نشوء هذه الدولة كما أوضح جمال عبدالناصر نقطة تحول رائع في تاريخ العرب الحديث .

وعلى الرغم من انتكاسة الانفصال في أكتوبر تشرين الأول ١٩٦١ والتي تابعها الشعب العربي بقلب جريح ، فقد كان جمال عبدالناصر نموذجا للقائد الشجاع والحكيم حين رفض أن تكون الحرب العسكرية وسيلة إلى تدعيم الوحدة ، وفي هذا الصدد قال الرئيس جمال عبدالناصر « إنني لا أقبل - مهما كانت الظروف - أن أرى الشعب هنا ، والشعب في سورية أطراف معركة وأصحاب خلاف وشقاق ولا أستطيع أن أتصور القاهرة ، ودمشق إلا أخوة كفاح وإلا زملاء معركة وإلا شركاء قدر ومصير مع كل عاصمة عربية ، مع كل مدينة عربية ، مع كل قرية عربية ولذلك اتخذت قرارا بألا تتحول الوحدة العربية بين مصر وسورية إلى عملية عسكرية ، وبناء على ذلك فلقد أوقف جميع العمليات العسكرية التي كانت قد بدأت لمناصرة الجموع الشعبية الثائرة ضد الحركة الانفصالية في سورية .

وكان لجمال عبدالناصر كلماته التي لا ينساها الشعب السوري ومنها : « إنه ليس من المحتم أن تبقى سورية قطعة من الجمهورية العربية المتحدة ولكن من المحتم أن تبقى سورية ، أن الذي يشغل بالي ليس هو أن أكون رئيسا للشعب العربي في سورية ولكن الذي يشغل بالي هو أن يكون الشعب العربي في سورية وأن يسان له كيانه ، لست أتصور أن أقبل بأي حال من الأحوال أن أرى فتنة تهدد الشعب السوري أو خطريتربص به أو شاغلا يشده ويعثر طاقته من أن تتجه بكل امكانياتها إلى حراسة المكاسب الشعبية التي حققها في عهد الوحدة ، ثم يجد أن ما في يده يسلب منه يوما بعد يوم بينما هو مشغول بقضية فرعية مؤقتة سوف تحكمها في نهاية المطاف حتمية التاريخ » .

ثم تتابعت خطوات عبدالناصر المعروفة في هذا المجال والتي تستهدف دعم الوحدة الوطنية في سورية ، ويذكر السوريون أنه رغم انتكاسة الانفصال فقد ظلت صلة التضامن قوية بين الشعب السوري ، والشعب المصري ، يكفي للتدليل على ذلك أن مصر

■ حركة التصحيح ■

حشدت قواتها في سيناء في مايو أيار ١٩٦٧ بسبب العدوان الاسرائيلي المتوقع على سورية وبعد العدوان كان الرئيس جمال عبدالناصر يؤكد في جميع مواقفه وكلماته انه لا يقبل أن يتجزأ حل مشكلة الشرق الأوسط وأنه لا يقبل أى حل للمشكلة لا يعيد جميع الأراضي العربية المحتلة، فالجولان قبل سيناء ، والضفة الغربية قبل سيناء .

حافظ الأسد يأخذ زمام المبادرة

شعر حافظ الأسد بعد وفاة جمال عبدالناصر في ٢٨ سبتمبر أيلول ١٩٧٠ أن مرحلة جديدة من حياته قد بدأت ، وبعد أن عاد من القاهرة حيث شارك في جنازة الزعيم المصري الراحل ، وشهد الحزن الجماهيري المذهل قرر أن الوقت قد حان لإنهاء مرحلة الازدواجية والغموض والتطرف والانعزال والمناورة ، فالامة التي ودعت زعيمها الخالد ، كانت تتطلع إلى البديل الذي يملأ الفراغ الذي خلفه جمال عبدالناصر ، وفي المؤتمر القومي الاستثنائي الذي عقد في ٣٠ تشرين الأول أكتوبر ١٩٧٠ أكد حافظ الأسد أمام المتشددین من ذوى الحناجر الهتافة والذين يجيدون القفز من جهة إلى جهة ، أسرى التطرف ودعاة الانغلاق والانعزالية .. أعلن أنه يموت جمال عبدالناصر لم يعد بإمكانهم الاختباء وراءه وإطلاق تهديداتهم ضد اسرائيل ، وكان مما دفع الرئيس حافظ الأسد إلى اتخاذ هذا الموقف أنه في الوقت الذي وجد فيه أن مصر بعد هزتها الوطنية الجارفة التي شهدتها يومى ٩ ، ١٠ يونيو حزيران قد بدأت تتجاوز المحنة القاسية ، وكان تجديد البيعة لجمال عبدالناصر دليلاً جديداً على الصحوه لازالة آثار العدوان ، بينما كانت القيادة في دمشق تعيش أسيرة جمودها وعجزها وانطوائيتها التي دفعتها إلى أن تقرّر عدم المشاركة في مؤتمر القمة العربى في الخرطوم لتقويم الموقف ، مع أن هذا المؤتمر قد وضع لنفسه هدفاً وحيداً وهو تحديد متطلبات الدعم التي ينبغي على الدول العربية القادرة أن تقدمه لدول المواجهة التي تضررت من الحرب وهي مصر وسورية والأردن .

وقد أدى امتناع سورية عن المشاركة في هذا المؤتمر إلى تجاهل سورية في الدعم المالى الهام الذى قررّه مؤتمر الخرطوم للدولتين الأخرين مصر والأردن ، وقد ذكر الرئيس حافظ الأسد أن هذه العزلة التي وضعت سورية نفسها فيها لم تكن لتخدم كفاحها ضد إسرائيل ما دامت تقلص من القدرات العربية في المواجهة مع العدو .

وقرّر الرئيس حافظ الأسد أن يسرع في إنقاذ بلاده وأن يضع حداً نهائياً لسياسة التطرف بالكلمات ، والنضال بالشعارات ، والعجز عن المواجهة العلنية التي رأى أنها حتمية واختار الانحياز إلى الجماهير ، وإلى الحزب ، ورفض استمرار القيادة المناورة ، وفي صبيحة يوم السادس عشر من تشرين أكتوبر عام ١٩٧٠ كان التغيير الثورى الذى

■ الفصل الرابع

قاده الرئيس حافظ الأسد والذي أكد فيه بالقول وبالفعل أن حركة السادس عشر من تشرين عام ١٩٧٠ هي حركة انقاذ أعادت إلى الثورة وجهها الصحيح وإلى الحزب جماهيره وتم التخلص من الواقع المضطرب الذي كان يسود والذي كان يفرض على الجماهير أن تعيش حالة من القلق .

لقد وعى حافظ الأسد آلام أمته وأمالها وعاشها وعاش بها وأدرك أحلام الأمة العربية فتعمق فيها ينتشلها من غفوة الحلم إلى عالم الواقع .. لقد عاش تجربة يونيو حزيران بكل أبعادها ، فكانت هذه التجربة دافعا له ليكون في مستوى المسؤولية ، وكان من الطبيعي وهو الثائر على الظلم أن يرفض استمرار الظلم .. لقد تمت الحركة التصحيحية وبمجاح ، وشكل الرئيس حافظ الأسد الحكومة الأولى والتي أصر على أن تشارك فيها أطراف غير بعثية .

ويقول الرئيس واصفا الوضع بعد الحركة التصحيحية :

« الحركة التصحيحية إنما هي اليوم ومن خلال ارادتكم حركة الحزب ، والشعب نحو المستقبل فنحن مع الشعب وله ، نحن مع الشعب نعيش معاناته ، ونتعرف على رغباته ونعبر عن إرادته ، ونحن لهذا الشعب الأبي نتحمل مسؤولية القيادة ويقع علينا عبء تحقيق تطلعاته وتنفيذ رغباته ، ولسنا من يشير إلى الخطأ فقط ، ولسنا من يعدد السلبيات وحسب ، وإنما نحن أولا وقبل كل شيء الطليعة التي تعالج الخطأ وتتجاوز السلبيات وتصحح المسار ، عندما يفترض هذا المسار أى خلل ، إننا ننهض بشرف المسؤولية في قيادة الدولة والمجتمع ، وشرف المسؤولية يتطلب النضال ضد النفس أولا وضد أمراض الواقع ثانيا فالبعث في بنيته تجسيد لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع » .

ويضيف :

« لقد استطعنا في القطر العربي السوري منذ حركة السادس عشر من تشرين الثاني التصحيحية أن نمضي أشواطاً بعيدة في كل مجال ، سرنا شوطاً بعيداً في تحقيق إطار الدولة العصرية ، وسرنا شوطاً بعيداً في رفع مستوى معيشة المواطن وسرنا شوطاً بعيداً في تطبيق الديمقراطية الشعبية ، وسرنا شوطاً بعيداً في تطبيق ديمقراطية التعليم وربط التعليم بالمجتمع ، وسرنا شوطاً بعيداً في تدعيم قوتنا الدفاعية » .

إن الحركة التصحيحية أعطت لسورية دفعا كبيرا في بناء المجتمع ونهضته بأساليب تضمن لأفراد هذا المجتمع الحياة الكريمة والعدالة الاجتماعية . لقد جاءت الحركة التصحيحية نتيجة طبيعية للصعوبات التي صادفتها ثورة آذار ، التي اضطرتها إلى التوقف أحيانا وإلى الانعطاف حيناً آخر وإلى المراجعة في المكان أحيانا .

« حركة التصحيح »

قبل الحركة التصحيحية كانت ملامح الكارثة قد بدأت تأخذ مسارا خطيرا فالتشتت والارتباك وفقدان البوصلة والموقف المائع الذي لا يرسم ، ولا يحدد سياسة داخلية أو عربية أو دولية في وقت تعاظمت فيه مخاطر الهجمة الاستعمارية والصهيونية على الوطن العربي ، كل هذه الامور كانت تتطلب من كل القوى الوطنية والتقدمية حشد طاقاتها وتجنيد لها معركة التحرير .

كانت سورية تعيش مأزقا حقيقيا ليس بسبب الوضع الداخلي المنهار ، ولكن بسبب الضغط الخارجى أيضا ، وبسبب الفراغ الذى نشأ عن رحيل عبدالناصر جاءت الحركة التصحيحية في صبيحة السادس عشر من تشرين الثانى لتنتهى مرحلة قديمة ، وتبدأ مرحلة جديدة ، ولتقوم قيادة قطرية جديدة ومؤقتة من واقع الشعور بالمسئولية والحرص على الحزب والثورة ، لكي تعمل على راب الصدع والعودة إلى الحياة الطبيعية . ولقد كانت مسيرة الحركة في مجال الانجازات كبيرة ومتنوعة ، ولعل في مقدمة هذه الانجازات انجاز الصمود في زمن الهزائم العربية المتلاحقة ، ولولا هذا الصمود لما حافظت سورية على كيانها ، ولما توافر للامة العربية القدرة على الصمود في زمن المتغيرات الدولية ، والمؤامرات المتلاحقة .

انجازات الحركة التصحيحية على الصعيدين الداخلى والخارجى كثيرة ومتنوعة ، يكفى ان نشير الى ماتحقق في المجال الداخلى حيث تم حشد كل الطاقات التقدمية والشعبية ووضعها في خدمة المعركة ، وذلك من خلال :

- (١) تطوير العلاقات في اتجاه القامة الجبهة الوطنية التقدمية بقيادة حزب البعث
- (٢) تشكيل مجلس الشعب الذى ينتخب بواسطة الشعب وبطريقة حرة بحتة ، ولكنه يضم ممثلين عن الحزب والمنظمات الشعبية والمهنية والقوى والعناصر التقدمية بهدف ممارسة التشريع ووضع الدستور الدائم ومتابعة وضع تنفيذ خطط التنمية الاقتصادية والاستمرار في بناء القاعدة الاقتصادية السليمة ، واعطاء المنظمات الشعبية دورا فعالا في الرقابة والممارسة ، ومتابعة بناء القوات المسلحة وتطويرها من اجل القيام بواجبها على الوجه الاكمل في معركة التحرير .

ومن الانجازات الكبرى حرب تشرين اكتوبر التى كانت الرد التاريخى المباشر على هزيمة عام ١٩٦٧ ، فالنصر العسكرى الكبير الذى تحقق آنذاك أثبت قدرة العرب ، حضاريا على استيعاب التكنولوجيا العسكرية المتطورة والقدرة على ايقاف الصلافة الاسرائيلية عند حدها .

وهذا الانجاز القومى الرائع كانت له أبعاد نفسية ووجدانية عميقة على أبناء

■ الفصل الرابع

الشعب العربى ، إذ نقل الأمة العربية من حالة اليأس الى حالة الأمل ، ومن حالة الاحباط الكامل الى حالة الاستنفار والاعتزاز والوعى .

ومن الانجازات الهامة التى تحققت .. التوجه لتحقيق التوازن الاستراتيجى العسكرى والسياسى ، بين العرب واسرائيل .. وبغير توافر هذا الشرط الاساسى .. أى تحقيق التوازن بين العرب وبين اسرائيل ، لا يمكن للعرب أن يخوضوا حربا ، أو يخوضوا سلفا ، لأن المفاوض العربى عندها يكون مفاوضا ضعيفا خائرا مغلوبا على أمره ازاء القرارات المصرية التاريخية .

وهاهى ذى الصلابة الاسرائيلية تتجسد مرة أخرى فى الموقف المتطرف المتشدد الذى سلكه اسحق شامير اثناء مفاوضات مدريد حيث ظهر للعالم أجمع أن اسرائيل لا تعمل من أجل السلام بل من أجل التوسع ، واستلاب المزيد من الاراضى العربية والمياه العربية لتحقيق حلم الصهيونية العالمية الاكبر بإقامة اسرائيل الكبرى .

كذلك فلقد وقف الرئيس الأسد سدا منيعا فى مواجهة المشروع التقسيمى فى لبنان ، وحافظ على وحدته وعلى هويته العربية ، ولذلك تمكن لبنان من قهر قوى الظلام والتمرد والمليشيات ، وساعدت سورية على اعادة بناء الدولة اللبنانية ومؤسساتها الامنية والاجتماعية وساهمت وتساهم الآن بقدر وافر فى عملية اعادة البناء والإعمار ولبنان بأسره ، بحكومته وبأبناء شعبه ، يعرف تمام المعرفة انه لولا العناية الفائقة التى ابداهها الرئيس حافظ الأسد شخصا لقضية لبنان لانتهى أمره وجوده منذ أمد بعيد .

وبالنتيجة فإن دمشق الحركة التصحيحية تساعد الآن فى بلورة تكوين الفعل العربى الحديث والانسان العربى الحديث المقاوم ، المعتز بعرويته ، وكبرياله ، وكرامته ، الراضى للاستسلام ، والهزيمة ، المتمتع بأهلية كاملة لخوض غمار الحرب ، وخوض غمار السلم على حد سواء .

فمكونات الحق العربى فى المرحلة السالفة كانت مشوبة بالافكار الضبابية ومشوهة بالافكار الجامدة ، ومجبولة بالعواطف الفضفاضة والشعارات الفارغة ، فكان لابد من تحرير العقل العربى من كل هذه الشوائب وبلورته عبر منهجية علمية موضوعية ، وهذا مما ساهمت الحركة التصحيحية مساهمة كبرى فى انجازه .

وهنا أيضا تمكن الرئيس حافظ الأسد من تسجيل انتصار قومى جديد يكشف اسرائيل على حقيقتها العدوانية ، وهو اظهار الرغبة الحقيقية العربية فى اقامة سلام عادل يرضى المجتمع الدولى ، ولا ينتقص اطلاقا من الحقوق العربية المشروعة .

سورية في ظل قيادة الأسد وبعد ٢٢ سنة تلت التصحيح

□□ كيف يمكن النظر الى أبرز التحولات التي شهدتها سورية في ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد؟ وبعد قيام الحركة التصحيحية على الصعيدين الوطني والقومي؟

هل يمكن قياس التغيير الذي تم ، والذي تحقق حتى الآن داخل سورية بانجازات تحققت ، بمشروعات اقيمت ، بسياسات تبذلت ، بارتباطات دولية ، وإقليمية اتخذت شكلا جديدا ، بعبارة أخرى هل يمكن وضع ماجرى تحت قائمة التصنيفات السياسية المعروفة؟

واقع الأمر إن ما استهدفته الحركة التصحيحية ، لم يكن فقط تغييرا بهدف اقامة سلطة جديدة قادرة على استيعاب تطلعات الجماهير نحو الحياة التي تنشدها ، ولم يكن التغيير أيضا ، استبدالا لسياسات انعزالية بأخرى متطورة تتناسب مع حجم سورية ، وموقعها .

ايضا لم يكن التغيير اندفاعاً فقط لاقامة شكل جديد للممارسة الجماهيرية في السلطة كبديل للتمثيل الوهمي للجماهير في مؤسسات لا تنتمي للجماهير اليها ، ولا هي تعبير عن ارادتها .

لم يكن التغيير قضاء على امتيازات قلة حزبية متسلطة ، وذات تفكير تقليدي تجاوزته الزمن أو انحياز بعيد التوازن لمعادلة اقتصادية واجتماعية هدهدا الخلل .

لم يكن التغيير تكثيفا للخدمات ، عدالة في توزيع هذه الخدمات ، ارتقاء بها بحيث تكون شاملة وكافية ومتناسبة ، مع متطلبات الحاضر فقط .. كان التغيير الذي شهدته سورية بعد الحركة التصحيحية ، هذا كله .

ما استهدفته حركة التصحيح عام ١٩٧٠ كان في حقيقته ثورة حضارية بأكثر منها ثورة لها أبعادها التقليدية المعروفة في مجالات السياسة والاقتصاد وغيرهما .

وإذا كان الناس في حسابهم للزمن وتقويمهم للأعمار مشارب ومذاهب ، فمنهم من يحسب العمر بعدد السنين ، حتى وإن كانت عجافا ، ومنهم من يحسبه بما أثمرت السنون وأنتج الإنسان فيها ، ومنهم من يجمع في حسابه بين هذا وذاك .

فمن المؤكد أن خير حصيلة هي حصيلة العمر المديد الحافل بالثمر الوفير ، ولكي يكون الحكم منصفا على الحركة التصحيحية ، يجب أن توزن الأمور بميزان الزمن والنتائج وأن

■ الفصل الرابع

يكون الحكم بموجب ماكان قبلها ومحدث خلالها وماوصلت اليه حتى الآن ، ان هذا الحكم يرشد دوما الى الصواب ، فنجد الاختلاف واسعا ، والفرق كبيرا بين مرحلتين : مرحلة ما قبل ثورة التصحيح ، ومرحلة ما بعد ثورة التصحيح .

الدكتور محمد سلمان وزير الاعلام السوري يرى - وبحق - أن الحركة التصحيحية كانت ضرورة وطنية قومية في آن واحد ، فقد جابه التصحيح عقلية الجمود والمناورة واسقطها ، وأعاد بناء جسور الثقة بين جماهير الشعب والحزب بقيادة الرئيس الاسد ، الذي أوضح مضمون الحركة التصحيحية ، بقوله : نحن أولا وقبل كل شيء الطليعة التي تعالج الخطأ ، وتتجاوز السلبيات وتصحح المسار عندما يعترض هذا المسار أى خلل .

أما الضرورة القومية فقد تمثلت في الرد على حالة الاحباط عبر التاكيد على تعبئة الجماهير العربية لمجابهة العدو ، واقامة تضامن عربي فعال يملك مقومات تجاوز نكسة يونيو حزيران ، وهذا ماتحقق في حرب أكتوبر تشرين حيث استطاع العرب لأول مرة في تاريخهم الحديث ان يملكوا قرار المبادرة في مهاجمة العدو الصهيوني ، وفي تحرير الارض ، وفي اسقاط اسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يقهر .

وفي رأى الوزير محمد سلمان لأن القيادة التاريخية للرئيس الاسد استمدت أهميتها من تفاعل المسألتين الوطنية مع القومية ، فإقامة بناء داخلي متين في سورية والعمل الدؤوب من أجل بلورة وضع عربي ملتزم بالقضايا القومية ، وفي مقدمتها مجابهة الغزوة الصهيونية واسقاطها ، أوجدا معا معادلة عربية من أبرز ثمارها بعد حرب تشرين أكتوبر .. رد الغزو الصهيوني عن لبنان ، واسقاط اتفاق السابع عشر من أيار الذي هدف الى تحويل لبنان إلى محمية اسرائيلية وقاعدة للعدوان على سورية والأمة العربية ، والصمود البطولي لاهباء الجولان ، والانتفاضة الشعبية في الأراضي العربية المحتلة التي أحدثت زلزالا يرمى حممه وحجارته على الكيان الصهيوني مؤكدة حقيقة انه لا مستقبل للاحتلال ولا بديل عن التحرير وتحقيق الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني .

إذن التأكيد على أولوية الصراع مع العدو الصهيوني ، وتحقيق التضامن العربي الفعال لمجابهة التحديات الصهيونية ، والتمسك بالثوابت الوطنية الفلسطينية ، ودعم الانتفاضة في الوطن المحتل ، ونضال الأهل في الجولان ، ومساعدة لبنان على تحقيق وفاقه الوطني ، واسقاط الاطماع الصهيونية في أرضه من أبرز معطيات النهج والممارسة القومية لسياسة سورية بقيادة الرئيس الأسد .

■ حركة التصحيح ■

كيف ؟

لقد عرضنا في الصفحات السالفة بايجاز واقع سورية قبل قيادة الأسد ، والدوافع التي أدت الى قيام ثورة آذار وأهدافها ، وتعرضنا أيضا لحركة شباط/فبراير عام ١٩٦٦ كضرورة تصحيح مسار الثورة ، ودور الرئيس حافظ الأسد في الوصول بسورية وحزب البعث الى هذه الحركة التي كانت منعطفًا هامًا في مسيرته القيادية .

ثم تعرضنا بايجاز لحرب حزيران .. الأسباب والنتائج ، وكيف حولت هذه الصدمة الرئيس حافظ الأسد الى مخطط ومفكر استراتيجي في ميدان السياسة الدولية ، وألّمعنا سريعا بالاجراءات التي اتخذت بعد حرب يونيو حزيران وصولا الى معرفة الظروف التي حتمت القيام بحركة التصحيح عام ١٩٧٠ ومنطلقاتها ، وهي المنطلقات التي جعلت الجماهير السورية تخرج في كل المحافظات لتأييد الرئيس حافظ الأسد ، ولتجدد له البيعة في كل مناسبة وبتعبيرات تلقائية ، وهي ترى القائد يشق الطريق عبر الشدائد ووسط الصعاب ليشكل المرحلة الأهم في تاريخ سورية الحديث ، وكانت الجماهير بعد الله هي سنده وهي الصخرة التي تكسرت وتتكسر عليها مؤامرات الاعداء .

لم تكن حركة التصحيح التي قادها حافظ الأسد قفزة في المجهول أو مغامرة غير محسوبة بل كانت هدفا ناضل كثيرا من أجل الوصول اليه ، وليجعله التاريخ الفاصل بين مرحلة ومرحلة ، مرحلة ضعف في كل مجال في ظل قيادة انعزالية حكمت بالجهل ، والغيباء ، والغرور ، وتصورت ان التعالي على الجماهير ، والقفز فوق واقع هذه الجماهير يمكن ان يخفي عوراتها الفاضحة . ومرحلة بناء وتقدم في كل مجال ، مرحلة كان رائدها ان الانسان هو منطلق الحياة ، وهو هدفها ، وان المستقبل لابد ان يكون أبهى من الحاضر ، وان الارتباط بالشعب وبالأرض هما الوطن ، وفي ظل صفاء العقيدة ، ووضوح الرؤية والتزام المبدأ ، والايمان المطلق بالجماهير وقدراتها غير المحدودة تحقق الكثير في ظل قيادة الأسد الذي استلهم مسيرته من خفقات قلوب الجماهير العربية ، ومن معاناة الكادحين .

كان حافظ الأسد واثقا من قدرته على قهر الصعاب ، وهو يخطط ويقود ، ويفجر حركة التصحيح ، لأن احساسه بالمعاناة الشعبية ، وعظمة الآمال الجماهيرية كان عميقا ، وهكذا لم يتردد في مواجهة التحديات التي هدفت الى ابعاده عن الطريق رغم كبر ، وتنوع ، وتعدد واستمرارية هذه التحديات منذ خمس وعشرين سنة ، وحتى الآن ، بصور مختلفة ، وبأساليب متنوعة ، وسوف يبقى مبهرا لمن سيورخون لتجربة حافظ الأسد انه استطاع في ظل العقبات والصعوبات ، وبلاذه تتعرض لأعنف الحملات وأعتى المؤامرات أن يحافظ على وحدة بلاده الوطنية ، أن

يحافظ على ارادته الوطنية حرة غير مقيدة، بأى قيد، وتتابع الانجازات التي جعلت من سورية دولة عصرية قوية، منيعة، رفيعة القدر، مسموعة الكلمة، قبلة للاحرار، والمناضلين في سبيل الحق، والحرية، والكرامة، وحق تقرير المصير.

الانسان منطلق التجربة

الانسان هو منطلق تجربة حافظ الاسد، وهدفه، هكذا قررت سورية منذ الحركة التصحيحية، هكذا كان هدفها، ولذلك استجاب الانسان في سورية لهذا القرار وأعطى نموذجاً فريداً في القدرة على البذل والعطاء، ولذلك أيضاً كانت كلمة نعم التي قالها الشعب السوري لقائده، وهو يرشحه للولاية الدستورية الرابعة مقرونة بالفعل، والسلوك، وخرجت جماهير الشعب بشيبيها، وشبابها، برجالها، ونسائها لتعبر، وبطريقتها الخاصة عن فرحتها بماحققه الاسد، وادراكها ان الحاضر الذي تنعم به، والذي يتسم بالاستقرار، والأمن، والبناء هو حصيلة عمل دؤوب شاركت فيه كل الجماهير، وبنته كل الجماهير، ولذلك فقد كان الرئيس حافظ الأسد صادقاً، وواقعياً عندما قال في خطابه التاريخي بمناسبة اداء القسم في مجلس الشعب في ٢ مارس آذار ١٩٩٢: « ان الجماهير تذكر وبحسها السليم ان المستقبل لابد أن يكون ابهى من الحاضر، فهو سيكون بإذن الله حصيلة ما تراكم في الأمس، وما يتحقق اليوم، وغدا، وعلينا أن ننذر أنفسنا في كل مواقع العمل، والمسئولية الرسمية، والشعبية لتحقيق آمال، وطموح الشعب، وعندما تكون كذلك، فإننا نقوم بواجبنا من جهة، ونكسب احترام الشعب ومحبتة من جهة أخرى، وأقصى وأتبل ما يتطلع اليه المرء هو ان ينال محبة الناس في وطنه، وعندما كنت أتابع أعراس الجماهير التي كانت تحتفل أمام أبصار الجميع فإنني كنت أعلم بأن ما يربطني بالشعب هو ما يربط الشعب بالأرض، والشعب والأرض هما الوطن ومن لا يرتبط بالشعب والأرض فلا وطن له، ومن لا وطن له لا وجود له ».

معالم الدولة الحديثة

لعل أول ما يسترعى الانتباه عند الحديث عما تحقق في هذا المجال الإشارة الى حقيقة ان الرئيس الأسد هو أول زعيم سوري يرسى مؤسسات ويبنى معالم الدولة الحديثة، من يدرس تاريخ سورية الحديث بعد حكم الرئيس الأسد يرى انه لم تبق هناك خلية من خلايا المجتمع السوري الا لها تنظيم، هناك منظمات للطلائع الصغيرة التي تشمل الطلبة من الابتدائي وحتى الاعدادي، وهناك منظمة اسمها « منظمة شببية الثورة » التي تأخذ الشباب لكي تعدم اعداداً فكرياً، ورياضياً، وهناك أيضاً منظمات

■ حركة التصحيح ■

شعبية لكل فئة من فئات المجتمع ، هناك الاتحاد العام لنقابات العمال ، والاتحاد العام للفلاحين والاتحاد الوطني لطلبة سورية ، والاتحاد العام النسائي ، والاتحاد العام للجمعيات الحرفية ، ثم هناك نقابات تشمل جميع المهن كالحامين والصيادلة والمهندسين والصحفيين .. الخ .

بالإضافة الى ذلك فإن هناك حزبا وهو ليس حزبا واحدا ، وإنما حزب يتفاعل مع الأحزاب الموجودة في الساحة من خلال ائتلاف وطني يضم سبعة أحزاب ، وينفتح الى استقبال أحزاب أخرى بالإضافة الى عدد كبير من المستقلين الذين يمثلون جميع شرائح الشعب ، ومن يتطلع الى هذه المؤسسات التي ارسيت بالإضافة الى المجالس المنتخبة محليا وطريقة الانتخاب يرى ان هذا الاساس الذي ارساه الرئيس الأسد هو أساس كامل البنيان بالإضافة الى بناء القوات المسلحة وتنظيماتها وتشكيلاتها وانخراطها بالشعب باعتبارها جزءا منه ، جزءا معبرا عنه ضمن تفاعل وطني يرمى الى حماية الثورة في الداخل والخارج ، لكنه رغم ذلك كله لا يمكن أن ينفي دور القائد في المجتمع ، والقائد تعبيرا عند العرب من القدوة ، وعندما يكون الانسان قدوة في مجتمعه يستطيع الشعب ان يتفاعل معه ، ويعطيه ثقته ، وهذا لا يأتي من الصدفة ..

الرئيس الأسد عاش منذ كان طالبا مع الجماهير ، يعلمها ويتعلم منها ، ينزل اليها ويناقشها من القاعدة الى القمة ، يسأل جميع ذوي الشأن فيها من الوحدة الصغيرة على مستوى القرية أو المدينة أو الحى ويستمع الى رأى المنظمة ، ورأى الحزب ، ورأى الجبهة الوطنية التقدمية ، ثم رأى القيادة السياسية ، ورأى مجلس الوزراء ، وبعد ذلك يبحث كيف يمكن ان يعالجها البرلمان ، وعندما يأتي كل هذا يضي على القضية من حكمته الكثير حتى تخرج بالصورة التي ينبغي أن تخرج عليها ، ولذلك فإن إمكانية القيادة ، أو مواهب القيادة لا يمكن ان تتوافر لكل الناس ، وحافظ الأسد لم تخرجه الصدفة وإنما اخبره الواقع الحى المتمثل في تعايش الانسان مع بيئته ، وشعبه ، وأمته ، منذ نعومة أظفاره وحتى الآن ، ولذلك فإن الأثر الذي زرعه الرئيس الأسد وخلقه لا يمكن ان تحوّه الأيام وإنما سيبقى خالدا .

المؤسسات الدستورية

المؤسسات الدستورية بمفهومها الحقيقي ، وفي ظل الاطار الذي يوفر لجميع المواطنين العمل والانتاج ويرسخ قاعدة الحقوق والواجبات ، هذه المؤسسات لم تمارس دورها الحقيقي الا بعد الحركة التصحيحية ، حقيقة ان ثورة آذار التي أسقطت الانفصال ، والقيادات اليمينية سعت لايجاد المؤسسات الدستورية التي تحمى التحولات داخل المجتمع ، ولكن ذلك لم يتحقق بشكل متكامل الا بعد الحركة التصحيحية ، واستقرار

■ الفصل الرابع

بيان القيادة القطرية المؤقتة عن قيام الحركة التصحيحية يبين بوضوح ايمان الرئيس الاسد بدور الجماهير في عملية التغيير الذى يتطلب ممارسة الديمقراطية بأوسع أشكالها .

وكان مجلس الشعب التجسيد العملى لممارسة الديمقراطية ، وقد نص على تشكيله بيان القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث العربى الاشتراكى عام ١٩٧٠ خلال ثلاثة أشهر ، وفى الثانى والعشرين من شباط فبراير عام ١٩٧١ انعقد مجلس الشعب لأول مرة ، وجاء تشكيله تنويجا لما تحقق فى الفترة الانتقالية ، فكان تشكيله فى الموعد الذى حدده بيان القيادة القطرية دليلا آخر على الوفاء بالعهد ، وبرهانا جديدا استشفه الشعب بحسه السليم من اتجاه صادق لدى الرئيس حافظ الأسد نحو تعزيز دور الشعب فى تحمل المسؤولية ، وجاء مجلس الشعب ممثلا لمختلف قطاعات الشعب وفئاته أوسع تمثيل ، وفيه رأى الجماهير التجسيد العملى لشعار الديمقراطية الشعبية ، وفى حرم هذا المجلس شمع نور الحرية ليملا أرجاء سورية ، ول يؤكد ممارسة الحرية بمفهومها الصحيح ، وبواسطته تأخذ المنظمات الشعبية دورها فى المساهمة بسن التشريعات ومراقبة التنفيذ ، وتمارس الرقابة الشعبية بشكلها الفعال ، كما تمارس دورها فى عملية التحويل الاشتراكى .

وقد حدد الرئيس الأسد مسئوليات المجلس فى مسئوليتين رئيسيتين : مسئولية التشريع ، ومسئولية وضع دستور دائم للبلاد يؤكد مبادئ الثورة ويرسئ الأسس المتينة للمستقبل ويشكل الإطار العام الذى تحدد ضمنه المسئوليات ، وتضامن الحريات ، وينطلق كل مواطن فى نطاق اختصاصه الى اداء دوره فى خدمة المجتمع ، والوطن ، والأمة العربية ، وهكذا حدد الرئيس حافظ الأسد تصويره لدور مجلس الشعب فى عملية التغيير الاجتماعى ، وقد أعطى تكوين مجلس الشعب بعدا وعمقا جديدين الى المنجزات المتعددة فى مجال الديمقراطية وتوسيع مجال ممارستها .

وتجدر الإشارة هنا انه فى إطار تحديده للمفهوم العميق للديموقراطية أكد الرئيس حافظ الأسد ان الديمقراطية الشعبية ليست أمرا مجردا بل هى صنيع وممارسات لابد ان تنطلق من الواقع ، وفى ضوء معطياته مما يجعلها قادرة على تطوير هذا الواقع ودفعه نحو الصورة المثلى التى يرنو اليها الشعب .

وأكد الرئيس حافظ الأسد أيضا فى خطابه امام مجلس الشعب فى السادس عشر من تشرين الثانى نوفمبر ١٩٨١ « لا يفوتنى منذ اليوم الأول لانعقاد مجلسكم أن أؤكد على الأهمية القصوى للممارسة المجلس لمهامه الدستورية ممارسة تامة وفى إطار من المتابعة والديناميكية والدقة والرؤية الثاقبة لمصالح الشعب عامة » .

■ حركة التصحيح ■

« ومن الخطأ والخطر ألا نرى بشكل واضح مدى السلبية التي تنجم عن أي تهاون أو تقصير في ممارسة المجلس دوره كاملاً وهو المؤسسة التي اختارها الشعب كأعلى سلطة تشريعية ، وانها أمانة مقدسة ان يقوم كل منا بالدور الذي أوكله اليه الشعب ، وفي الاطار الدستوري الذي حددته جماهيره، لقد أكدت في لقائي مع مجلس الشعب السابق على ضرورة أهمية الرقابة التي يمارسها مجلس الشعب وفقاً لأحكام الدستور والقوانين ، واليوم أيضاً أؤكد على ضرورة ممارسة هذه الرقابة .. انكم كممثلين للشعب في أعلى مؤسسة دستورية في البلاد مسئولون مسئولية مباشرة عن التعبير عن أمانى الشعب ، وآماله ، ورغباته ، وهذا يتطلب منكم الاتصال الدائم والمستمر مع مواطنيكم لمتابعة آرائهم وأفكارهم فيما يتعلق بالشئون العامة للوطن .. لقد جاء مجلس الشعب استكمالاً لبناء الديموقراطية الشعبية التي شكلت أحد الأهداف الكبرى للحركة التصحيحية ، وصولاً الى غاية اساسية هي ان تكون السلطة بيد الشعب منبع كل السلطات ، لأن ذلك هو الضمان لاكتساب المزيد من العمل والاعداد على طريق التحرير .

لقد كانت المجالس قبل الحركة التصحيحية ، لا تمثل سوى طموحات أشخاص وفئات صغيرة من المجتمع ، وكانت حكراً على هؤلاء فقط ، ولم يكن ممكناً ان يكون للشعب الكلمة الفصل .. وكانت الديموقراطية أشبه بغطاء أو ديكور يخفى وراءه مصالح قلة محدودة ، ولم يكن هناك تمثيل للعمال والفلاحين بل لقد عمقت هذه المجالس الهوة للفوارق الطبقية واستعمال السلطة للقمع والاضطهاد ، وكبت كل مامن شأنه تغيير المسار .

وكان من الطبيعي أن تبقى سورية ساحة للتقلبات والسياسة الفوغانية ، ولم يكن ذلك إلا إفراز من إفرازات الاستعمار والرجعية المستحكمة والى أن استطاعت ثورة الثامن من آذار أن تزيل هذا الاضطهاد والظلم وتسعى من خلال الممارسة الديمقراطية الشعبية الصحيحة الى وضع كل امكانية وسائل الانتاج في يد الجماهير ، ولكن من أسف فإن هذا الأسلوب الصحيح للديموقراطية لم يتحقق حتى قامت الحركة التصحيحية ووضعت كل المفاهيم السليمة للديموقراطية موضع التنفيذ ، وبانتخاب الجماهير لمجلس الشعب بدأ عهد جديد في التنظيم الديموقراطي ، وأصبح الدور للجماهير في ممارسة السلطة .. أصبح للجماهير ممثلوها الذين يحملون آمالها وأمانيتها وطموحاتها ، وبذلك خطا مجلس الشعب خطوة تقدمية رائدة .

ولقد أراد الرئيس حافظ الأسد أن تكون سورية مهداً لديموقراطية جماهيرية ، وكان ذلك واضحاً منذ البيعة الأولى له ، وبتاريخ ١٩٧١/٣/١٤ وقف الرئيس الأسد يعبر عن أحاسيسه ومشاعره تجاه الشعب وفهمه للمسار الديموقراطي فقال : « عندما أقر

■ الفصل الرابع

مجلس الشعب ان اكون رئيسا للجمهورية ، حين قال ابناء وطنى الاعزاء - نعم - بهذا الاجماع الواسع ، فقد طوقوا عنقى بثقتهم الغالية ، التى اعتز بها أعظم اعتزاز ، وأقدر مغزاها أعمق تقدير ، وأجهد بكل قوتى للنهوض بما ترتبه على من واجبات ومسئوليات وماتقضيه من كفاح وعناء ولن تغيب عن ذهنى ماحييت دلالة - نعم - التى قالها المواطنون الاعزاء من مقيمين وغير مقيمين .. شيوخا وشبابا .. رجالا ونساء .. مدنيين وعسكريين ، ومن مختلف فئات الشعب بملء الحرية ، ومطلق الإرادة الحرة .

ولكم شعرت بالسعادة تغمر نفسى اذ رأيت جماهير شعبنا الحرة تمارس فى يوم الاستفتاء حقا أساسيا من حقوقها وتعود الى ضميرها واقتناعها فقط لتبدى رأيها وتقول كلمتها فى اختيار رئيس الجمهورية .. ولكم ملأت الغبطة فؤادى لأننى أيقنت اننا باستفتاء الثانى عشر من آذار سرنا شوطا هاما ورئيسيا على طريق ممارسة الديمقراطية الشعبية .

كان الاستفتاء تنفيذا لما انطلقنا منه منذ السادس عشر من تشرين الثانى عام ١٩٧٠ من ضرورة التوجه الى الشعب ، واستلهم رأيه فى الهام من أمور حياته ، وفى الخطير من شئون الوطن .. وعلى هذا فقد كان الاستفتاء على منصب رئاسة الجمهورية تأكيدا لمبدأ المشاركة الشعبية فى حمل المسؤولية وتجسيدها عمليا لهذا المبدأ على أوسع نطاق أما المنصب ذاته فلم يكن فى نظرى يوما من الأيام سلطة بقدر ما هو أمانة ، ومسئولية ، وكنت دائما ، ومازال أقدر سمو المنصب وأهميته بمقدار التقاف جماهير الشعب من حوله وتأيبده لمن يتبوأونه ، ويقدر ما يكون المنصب أيضا سبيلا لخدمة الشعب ، وتحقيق أهداف الوطن ، وعندما يكون الشعب هو الطريق الى منصب ما ، يصبح المنصب مصدر قوة وعزيمة ، ومعينا لا ينضب من الإلهام الشعبى ، بهذه الروح ، ولهذه الاعتبارات التى أؤمن بها ايماننا راسخا أقبلت على حمل أعباء الرئاسة الأولى معتمدا على الله وعلى تأييد جماهير الشعب مستمدا من ثقتها العون على قيادة هذه المسيرة لما فيه خير القطر العربى السورى ، وخير الأمة العربية ونصرها وعزتها .

ولقد فهمت التأييد الشعبى كما ينبغى له أن أفهمه ، فهمته تأييدا للنهج ، وسياسة ، ومبادئ ، فهمته تأييدا لحرية المواطن ، وكرامة الانسان ، فهمته تأييدا لسيادة القانون ، فهمته تأييدا لمصارحة المواطنين فيما يتعلق بأمر الوطن .

فهمته تأييدا للديموقراطية الشعبية ، وممارستها الفعلية ، فهمته تأييدا للمشاركة الشعبية الواسعة فى المسؤولية ، فهمته تأييدا للمسيرة الوحدوية ، فهمته تأييدا للوحدة الوطنية ، وفهمته تأييدا لنداء بناء الوطن بناء متينا فى مختلف المجالات وأشعر اليوم أننى بارادة الشعب أتابع مع المواطنين جميعا وبهم المسيرة التى بدأتها على طريق البناء المتين فى هذا القطر .

■ حركة التصحيح ■

ان القطر العربي السوري شهد تطورات دستورية ، وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية تشكل كلها مؤشرات التقدم الذي يحرزه هذا القطر .

والخطوات التي يحققها نحو استعادة مكانته الصحيحة في الوطن العربي والعالم .
وأود أن أقول بمنتهى الصراحة أيضا : أن الصعاب قد تعترض طريقنا لتؤخر بلوغنا هدفا من الأهداف ، ولكننا لن نتخاذل ، ولن نتردد في مكاشفة الشعب ، ومصارحته بما لا نقدر عليه ، مستمدين من ثقة الشعب العزم على قهر الصعاب ، وتذليل العقبات ، وكما كان الشعب في هذا العهد سيبقى دائما دليل المسيرة ، وستكون أهداف الشعب ورغباته غاية أبذل في سبيلها قدر ما استطيع ، وما تقتضيه من طاقة وجهد ، على هذا الاساس سوف نسير دوما الى الامام لا نتوقف عند صغائر الأمور التي قد يحاول اثارها في طريقنا أولئك الذين لهم مصلحة في عرقلة المسيرة ، أو أولئك الذين لا يدركون أبعادها .

ان ما لمسناه من تجاوب شعبي ومن أدلة مادية ملموسة على ثقة الشعب بالمسيرة تجلت خلال المسيرات العفوية التي أعقبت حركة التصحيح مباشرة ، وفي البرقيات التي أرسلت ، وفي تدفق الوفود الشعبية على العاصمة ، والمشاعر الصادقة التي عبرت عنها الجموع الضخمة التي خرجت في مسيرات عفوية اثناء جولاتي في المحافظات ، والتي لم يعرف لها تاريخ هذا البلد مثيلا .

وأخيرا في الاستفتاء الشعبي العام الذي عبر فيه كل فرد بحرية وبشكل مباشر عن رأيه والذي كانت نتيجته أيضا اجماعا لم يشهد له تاريخ هذا البلد مثيلا ، أن هذا كله يفرض علينا ان نسير دون توقف ويجعل من حقنا ان نتجاوز كل العوائق التي تعترض سبيلنا .

لقد خرجنا من حالة الضياع ، وأنهينا عزلة القيادة عن الشعب ، وعزلة القطر العربي السوري عن شقيقاته ، ووضعنا حدا للعبث باقتصاد البلاد والاستهتار بقوت المواطنين ونحن الآن نتجه الى المستقبل بروح جديدة ، هي روح الوحدة الوطنية وایمان جديد هو ایمان القيادة بجمهير الشعب وایمان الجماهير بالقيادة .

نحن الآن نسير بخطوات ثابتة على طريق الثورة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي وفق الخطوط العريضة التي أعلنها بوضوح بيان القيادة القطرية المؤقتة في السادس عشر من تشرين اكتوبر عام ١٩٧٠ ، رافعين شعارات الاستقامة ، والنزاهة ، والاخلاق ، والوفاء ، مترفعين عن الانانيات ، منصرفين الى المصلحة العامة ، وخدمة الشعب ، لنصل بذلك الى أهدافنا المباشرة في البناء والتحرير ، ومن ثم الى أهداف أمتنا في الوحدة والحرية والاشتراكية .

الفصل الرابع

وفي ختام كلمتي الى أبناء وطني الأعزاء ، أقول انني لكم جميعا ، وانتم أخوتي وابنائى ، وجميعكم سواسية في نظري ، لا أفضل احدا على غيره إلا بمقدار ما يبذل من جهد في سبيل معركة البناء ، والتحرير ، وفي خدمة أهداف الأمة العربية .

شكرا من صميم القلب لكل مواطن أولاني ثقته ، ووعد بأن أبذل كل ما أستطيع من جهد في سبيل الشعب الذي أحبه ، وأن يكون خير كل فرد من أبناء هذا الشعب ، ومحبة كل فرد من أبناء هذا الشعب دليلى في العمل الدؤوب ومرشدى في الجهد الصادق .

فلنسر جميعا متحابين متكاتفين متحدين لنندفع بلدنا الى معارك التقدم والعزة ، ولننهض بقسطنا الوافر من النضال الى سبيل ازالة العدوان ، وتحرير الارض العربية ، ولننتجه الى اشقائنا أبناء الأمة العربية في جهد جدى لتحقيق الوحدة العربية .

أرجو الله أن يمدنى بعونه لحمل الرسالة واداء الامانة .

الدستور الدائم

□□ وبعدما يشر مجلس الشعب مهامه لأول مرة بعد تشكيله في ظل الحركة التصحيحية ، وضع الدستور الدائم للجمهورية العربية السورية الامر الذى أعطى الديمقراطية شكلا ومضمونا جديدين ، ويأتى انجاز الدستور تنويجا لنضال متواصل على طريق مبدأ الديمقراطية الشعبية ودليلا واضحا ينظم مسيرة الشعب نحو المستقبل ، وناظما لحركة الدولة ومؤسساتها المختلفة ومصدر تشريعها .

ولقد تتالت الأدوار التشريعية بعد الحركة التصحيحية كلها لتعبر بمجملها عن مرحلة تشريعية كاملة اتسمت بالاستقرار والديموقراطية من حيث دراسة مشاريع القوانين واقتراح مايلبى حاجة المجتمع ، وتطوره من خلال عمل جاد ، ومثابر لحدى عشرة لجنة .

وتجدر الإشارة الى أنه بعد أن أقر مجلس الشعب مشروع الدستور الدائم تم عرضه على الاستفتاء الشعبى ، فأقره الشعب بتاريخ الثانى عشر من مارس آذار عام ١٩٧٣ ، ولقد كان انجاز الدستور الدائم في الجمهورية العربية السورية تنويجا لنضال جماهير الشعب السورى على طريق تحقيق الديمقراطية الشعبية ، واطار ينظم مسيرة الشعب نحو المستقبل وضابطا لمؤسسات الدولة ومصدرا لتشريعاتها .

أهمية الدستور الدائم في سوريا أنه استوعب كل الأهداف التى يناضل الشعب من أجل تحقيقها ، وجاء تحديده لأسس ومفاهيم حقوق وواجبات المواطن ضمن أفق عربى

■ حركة التصحيح ■

اشتراكى تقدمى ، مستندا الى منطق ينتمى الى العصر ، ويلبى متطلبات مرحلة التحرير ، والبناء .

دستور الحركة التصحيحية حدد نظام الحكم فى سورية فرسخ سلطة جماهير الشعب وأكد دور حزب البعث العربى الاشتراكى فى قيادة الدولة والمجتمع ، اضافة الى تنظيم الملكية ، وتحقيق مبدأ المساواة ، والعدالة الاجتماعية ، وحرية الرأى ، والاعتقاد ، وحق التعليم والعمل ، والاهتمام الكبير باتاحة جميع الفرص أمام المرأة لتشارك فى بناء المجتمع ، كما عكس الدستور ابعاد الديمقراطية الشعبية ، وأفاقها فى ممارسة المواطن لحريته من خلال تأكيد على مبدأ ممارسة الشعب للديموقراطية ، والحرية .

وقد أكد الرئيس الأسد مرارا « ان الحرية حق مقدس ، والديموقراطية الشعبية التى تكفل للمواطن ممارسة حريته هى الصيغة المثالية لكى تجعل كل شخص قادرا على العطاء والبناء » .

الإدارة المحلية

□□ وضعت ممارسة الديمقراطية فى أفضل صورها فى انتخابات مجلس الشعب ، ومجالس الادارة المحلية ، ولقد جاء قانون الادارة المحلية الذى صدر عام ١٩٧١ مجسدا للقيم والأفكار والأهداف التى أكد عليها الرئيس حافظ الأسد ، والتى تقوم على ضرورة ترسيخ مبدأ حرية المواطن ، باعتبار أن الانسان هو هدف الثورة ، واداتها ، وأن تحقيق هذا المبدأ هو الذى يتيح له ممارسة دوره على الشكل الصحيح .

قانون الادارة المحلية استهدف تركيز المسؤولية فى أيدي فئات الشعب المنتخبة لتمارس بنفسها دور القيادة مما يتطلب تحقيق أوسع المجالات لتطبيق مبدأ الديمقراطية الشعبية النابع من ارادة الشعب ، والذى يؤمن رقابته الدائمة على حسن التنفيذ ومساهمته الفعالة فى تحقيق المجتمع العربى الاشتراكى الموحد .

كذلك فقد كان الهدف من تعميق دور الاتحاد العام لنقابات العمال هو توفير الجو الملائم للحركة النقابية ، لكى تكون حركة نقابية هادفة تسعى لتحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية وحماية الانتاج ومصالح العمال والدفاع عن قضاياهم .

الديموقراطية

الحكومة الديمقراطية هى التى يكون الشعب فيها مصدر السيادة ، والسلطة ، وهو الذى يباشر هذه السيادة ويمارسها ، فالحكومة هنا تقوم على اساس سيادة الشعب وتكفل الحرية للأفراد ، وتحقق المساواة السياسية لهم ، وتخضع (أى الحكومة) لرقابة

■ الفصل الرابع

رأى عام حوله من الوسائل القانونية ما يستطيع بها إخضاعه فعلا لنفوذه ، ورقابة الرأي العام هي القاسم المشترك لجميع صور الحكم الديمقراطي ، وهذه الرقابة هي التي تميز الديمقراطية عن أنواع الحكم الأخرى ، وهي التي تجعل الديمقراطية حقيقة واقعة ، وإذا كان الشعب في الحكومات الديمقراطية هو مصدر السيادة وصاحبها إلا أن ممارسة هذه السيادة تتخذ صوراً مختلفة يمكن تحديدها على النحو الآتي :

(١) قد يمارس الشعب سيادته بطريقة مباشرة فيحكم نفسه بنفسه ، ويستأثر بصفة خاصة بالسلطة التشريعية إذ يتولاها بنفسه ، ويطلق على نظام الحكم في هذه الحالة اصطلاح « الديمقراطية المباشرة » .

(٢) قد يلجأ الشعب إلى انتخابات نواب عنه (برلمان) ويترك لهم مقاليد الأمور وممارسة السيادة نيابة عنه ، وهذا النوع من الحكم يسمى « بالديموقراطية النيابية » .

(٣) قد ينتخب الشعب برلماناً (كما هو الشأن في الحكومات النيابية) ولكن لا يترك له حرية التصرف الكاملة ، وإنما يشاركه في ممارسة الوظيفة التشريعية ، وقد يباشر الشعب زيادة على ماتقدم نوعاً من الإشراف والرقابة على البرلمان كوحدة ، وعلى أعضائه متفرقين ، وتوصف الديمقراطية في هذه الحالة بأنها « ديموقراطية شبه مباشرة » .. إذن فمحور النظام الديمقراطي هو سيادة الشعب وحكومة الشعب بواسطة الشعب ، لمصلحة الشعب ، وتلجأ الشعوب للوصول إلى الديمقراطية بوسائل مختلفة تارة عن طريق الثورة ، وطوراً بالالتجاء إلى الطرق السلمية ، وقد توصلت الشعوب إلى الأخذ بالنظام الديمقراطي وإن اختلفت بها السبل التي لجأت إليها لتحقيق هذا الهدف .

وقد شهدت بداية القرن العشرين من عنف التيار الديمقراطي وشدة جاذبيته ما لم تشهد القرون السابقة .

وفي السنوات الأخيرة من هذا القرن انهارت أقدم الأنظمة الفردية ، وأنظمة الدول التي تعتمد على الحزب الواحد كما حدث في الاتحاد السوفيتي ، وفي دول أوروبا الشرقية ، ولكن حداثة التيار الديمقراطي الجارف لا تنفي أن روافده تمتد إلى أبعد العصور في تاريخ الإنسانية ، وإذا كان فلاسفة الإغريق هم أول من استنبطوا فكرة الديمقراطية ، وطبقت الديمقراطية في المدن اليونانية القديمة مثل أثينا ، وغيرها إلا أن صور هذه الديمقراطية كانت ذات طابع خاص يبعدها عن الديمقراطية الحقيقية ، ويدنيها من النظام الأرستقراطي .

وقد أشارت الكتب السماوية إلى فكرة الديمقراطية ومهدت المسيحية أذهان البشر

■ حركة التصحيح ■

للاخذ بالديموقراطية بمادعت اليه من احكام خلقية وفضائل نفسية ، وعلى راسها صفات العدل ، والاحسان ، واحترام بنى الانسان ، وبما رسمته من حدود لسلطان الدولة على الفرد في نطاق المبادئ السابقة ، ثم نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم فسجل الفضائل والاحكام الخلقية التى دعت اليها المسيحية ثم خطا بالانسانية خطوات بعيدة المدى الى الامام ، فدعا دعوة صريحة الى نظام حكومى يجب اتباعه ، والتقى به ، وهذا النظام الذى اتى به الإسلام هو الديموقراطية فى اسمى أوضاعها وأرفعها وهذا ما أكدته السيد الرئيس فى قسم البيعة الرابعة .

ويقوم هذا النظام على أصول ترجع فى جوهرها الى اختيار رئيس الدولة (الخليفة) وبواسطة المبايع (الانتخاب العام) ويتقيد هذا الرئيس فى تصرفه بشئون الدولة بنظام الشورى ، وهو صورة النظام البرلمانى الحديث الذى أكدته القرآن الكريم فى بعض آياته « وأمرهم شورى بينهم » وقول الحق تبارك وتعالى أيضا « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » ، وبعد ذلك برزت تيارات فكرية تدعو الى النظام الديموقراطى حيث السيادة للشعب ، ولكن هذه التيارات لم تبرز فى النظم الحكومية لأن الحكم المطلق الذى تمسك به لويس الرابع عشر والخامس عشر لم يتأثر بالحركة الفكرية ، تلك الحركة التى استمرت تسير فى طريقها حتى جاء القرن الثامن عشر فبلغت أوجها ، واكتسبت فكرة الديموقراطية عن طريق الثورة قوة لا غالب لها إذ أصبحت دعامة القانون الحديث ، فالفلسفة السياسية التى بشر بها فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبالذات (جان جاك روسو) كان لها أكبر الأثر فى تكوين عقلية رجال الثورة الفرنسية ، تلك الثورة التى نقلت المبدأ الديموقراطى من الفلسفة النظرية الى القانون الدستورى . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الديموقراطية مبدأ قانونيا وقاعدة وضعية ونظاما للحكم تضمنته الدساتير المختلفة ، والديموقراطية كنظام تختلف صورته من دولة الى أخرى .. هناك من يرى أنها ترمى الى تحقيق الحرية والمساواة السياسية ، وأنها قبل كل شيء مسألة عقل ، وقلب ، وليست مذهبا اجتماعيا يرمى الى مصلحة المجتمع من الناحية المادية فقط ، أى أنها ليست مسألة خبز ، وزبد فقط ، وهذه هى الديموقراطية التقليدية ، والتى تختلف عن الديموقراطية الاجتماعية ، والتى ظهرت حديثا ، وتهدف الى تحقيق السعادة المادية للأفراد وهى لا تؤمن بوجود الحريات فى المجتمعات الرأسمالية إذ تراها مجرد حريات صورية ، وأنها تعتبر فى الواقع امتيازات للأقلية ، ونلاحظ انه من الممكن وجود الديموقراطية الاجتماعية فى ظل الانظمة الديكتاتورية حيث يتخذ منها الحاكم وسيلة يصرف بها الشعب عن المطالبة بحقوقه السياسية .

وقد عبر عن هذا المعنى (بسمارك) عندما قال : « اذا صار الشعب سعيدا من الناحية المادية فعلى السادة الاشتراكيين الديموقراطيين أن ينشدوا ما شاعوا من الاغاني فلن يتبعهم أحد » .

■ الفصل الرابع

وقد ظهر حديثاً نوع من الديمقراطية يطلق عليه أنصار اصطلاح الديمقراطية الاجتماعية أو الديمقراطية الشعبية التي تهدف الى تحقيق المساواة الاجتماعية بين الافراد ، والعمل على رفع مستواهم من الناحية المادية ، فعرف هذا النوع من الديمقراطية تحقيق المساواة في الثروة بين افراد المجتمع ، والديموقراطية هي أقرب النظم الى تحقيق العدالة بين الافراد وتختلف صورها من دولة الى أخرى ، وهي كنظام للحكم تعتبر الأقرب الى تحقيق العدالة بين الافراد وضرورة واقعية لا مرد لها ، وهي التي تحول دون قيام الانقلابات أو الثورات وتعمل على توطيد السلام ، ومقاومة الديمقراطية لا جدوى منها ، ذلك انه من الممكن ان نحب الديمقراطية وننتقل بها ومن الممكن ان نعادىها ونحاربها ، ولكنها في كلتا الحالتين واقعة لا مرد لها ، وهي من القوة بحيث يصعب مقاومتها ، ونقدها لا يجدى كما لا يجدى التذمر من عودة الشتاء بزمهريره .

كل هذه المعاني وغيرها كانت في فكر الرئيس حافظ الأسد وهو ينادى في سن مبكرة للغاية بفكرة التعددية السياسية ، والاقتصادية لتحقيق أوسع صور المشاركة في بناء الدولة والمجتمع من خلال ايمانه الراسخ بوجود قواسم مشتركة يمكن أن تلتقى حولها مختلف القوى الوطنية من أجل العمل الوطني والبناء والتنمية كما نسرى .

لقد بدأ الرئيس حافظ الأسد المسار الديمقراطي في سورية بعد السادس عشر من تشرين الثاني نوفمبر عام ١٩٧٠ بأن أطلق طاقات الشعب للمشاركة في بناء البلاد واختار صيغة الديمقراطية التي تناسب سورية، مؤكداً أن صيغة الديمقراطية ليست اطاراً جامداً وليست طريقاً موصداً بل هي موضوع حي يتطور ، ويتجدد وفق تطور الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأن صيغة الديمقراطية « ليست سلطة تستورد من هذا البلد أو ذاك وإنما هي الاطار الذي يمارس فيه المواطنون حقوقهم ، واجباتهم وفق ظروفهم المرحلية ، وكل مرحلة من مراحل التقدم والتطور يحققها تقدم معطيات جديدة في مجالات الحياة المختلفة لا بد أن تعكس نفسها على الاطار الديمقراطي ، ولكي يمارس شعب من الشعوب الحياة الديمقراطية لا بد من تحقيق توازن دقيق جداً بين الصيغة الهيكلية والقوانين ، وبين مجسلة المعطيات الثقافية والتراثية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يملكها ، أو يتمتع بها هذا الشعب - أي شعب - وأي خلل في هذه الموازنة يحتم أن يعيش الشعب حياة لا ديمقراطية وتبدأ المعاناة مع بداية الخلل ، وبقدر اتساع الخلل تتسع لا ديمقراطية الحياة سواء تقدمت الصيغة على المعطيات أو تقدمت المعطيات على الصيغة ، وبسبب عدم تماثل المعطيات الثقافية والتراثية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بين شعوب العالم في أي وقت لم تستطع أي صيغة ديمقراطية بعينها أن تفرض نفسها بقوتها أو بجاذبيتها على شعوب العالم أو في أي وقت على امتداد ما هو معروف من التاريخ الإنساني، وعلى الرغم من تمسك

■ حركة التصحيح ■

الإنسان دائماً بتحقيق الحياة الديمقراطية بمعنى انها سيادة الشعب أو حكم الشعب نفسه بنفسه فقد بقيت في الزمن الواحد وفي مرحلة تاريخية واحدة صيغ كثيرة تنتشر بين شعوب العالم ، حتى أنه في كثير من الأحيان بدت هذه الصيغ والتي تسعى الى الهدف نفسه متباينة الى حد التناقض .

الجهة الوطنية التقدمية

□□ كان الرئيس حافظ الأسد هو الأسبق في تطبيق فكرة التعددية السياسية والاقتصادية لتحقيق أوسع صور المشاركة في بناء الدولة ، والمجتمع من خلال ايمانه الراسخ بوجود قواسم مشتركة يمكن ان تلتقى حولها مختلف القوى الوطنية من أجل العمل الوطني والبناء والتنمية ، ولقد تحققت التعددية السياسية في ظل الحركة التصحيحية ، بعد أن أقامت بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي .. جبهة وطنية تقدمية متطورة الصيغ تلبي حاجات الشعب ومصالحه .

وجاءت هذه الخطوة البارزة تنفيذاً لبيان القيادة القطرية المؤقتة باصدار ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية في السابع من مارس آذار ١٩٧٢ ، والذي كان بداية مرحلة من العمل الجبهوي المشترك بين كل الاحزاب الوطنية والتقدمية في سورية ، الرئيس الأسد في تفاعله مع فكر الحزب ، ومن خلال ايمانه بالحوار الصريح ، والمباشر ، وفي اطار حوارات كثيرة بدأها بعد نجاح الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ وجد - وهذا واضح في البيان الأول للقيادة القطرية المؤقتة بعد تسلم الرئيس الأسد مقاليد الحكم عام ١٩٧٠ - ان الانفراد بالحكم قبل هذا التاريخ قد أدى الى النتائج السلبية التي أشرنا اليها ، كما أنه أدى الى عزل القوى السياسية التي كانت موجودة في الساحة ، وكانت هناك عزلة جماهيرية عن الحزب استمرت سنوات قبل الحركة التصحيحية ..

لقد وجد الأسد بخبرته كمناضل في صفوف الحزب وكابن من أفراد الشعب أن هناك خلافاً في المعادلة القائمة بين الحزب والجماهير ، وبعد نقاشات عديدة استمرت عدة أشهر رأى أنه لابد من تغيير الصيغة من فكرة الحزب الواحد الذي يحكم كل شيء الى الحزب القائد الذي يقود من خلال جبهة وطنية تقدمية جميع الاحزاب السياسية ، ومن خلال دراسته للتاريخ الحزبي في سورية ، وجد أن التنظيمات السياسية في تاريخ سورية الحديث كانت أحزاباً رجعية التفكير تنطلق للتعبير عن مصالحها الطبقية سواء كانت اقطاعية أو رأسمالية ، وترى أن هذا هو نهاية المطاف في حدود القطر العربي السوري ، أما في علاقاتها بالدول العربية الأخرى فقد كانت تتسم بالانتهازية ، ولا تترك أهمية العمق العربي لسورية ووحدة المصير العربي ، وكان يمثل هذا النوع من الاحزاب .. حزبان رئيسيان هما حزب الشعب ، والحزب الوطني وكانا يتناوبان الحكم في

■ الفصل الرابع

فترة مابعد الاستقلال أى منذ عام ١٩٤٦ وحتى انقلاب ١٩٤٩ ، ثم غابت هذه الأحزاب قليلا من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٥٤ خاصة اثناء الحكم الديكتاتورى لاديب الشيشكل ، ولكنها عادت ، وبرزت على السطح منذ عام ١٩٥٤ ، وحتى عام ١٩٥٨ . واستطاع النبط الجماهيرى بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى والقوى الوطنية الأخرى أن يحجم هذه القوى وأن يسير على الرغم منها نحو وحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر ، وبعد عام ١٩٥٨ نشأ الاتحاد القومى ، وفى مصر بعد الانفصال كان هناك الاتحاد الاشتراكى ونتيجة المعاناة النضالية ، والتأثر بين القطرين نشأت أحزاب هى الى حد قريب أما منشقة عن حزب البعث ، وإما متفرعة عنه ، متأثرة بتفكيره أو بتفكير الفكر الناصرى ، كانت هناك حركة الوجدانيين الاشتراكيين ، وحزب الاتحاد الاشتراكى ، والحزب العربى الاشتراكى الديمقراطى ، والاشتراكيين العرب ، وكان الحزب الشيوعى السورى الذى أسس منذ العشرينات ، وكان هناك من هم متأثرون بفكر حركة القوميين العرب .

بعد النقاشات الواسعة التى ادارها الرئيس الأسد ، ومن خلال فهمه العميق لتركيب سورية الاجتماعى وجد أن هذه الصيغة ، هى الصيغة المثلى لكى تكون هناك جبهة عريضة لهذه الأحزاب ، وهذه القوى تشارك حزب البعث وتناقش جميع القضايا ذات النفع الاستراتيجى .. بمعنى آخر إن هذه الأحزاب تشترك فى مجلس الشعب ويكون لها نوابها ويكون لها أيضا أعضاء فى مجلس الوزراء ، وأيضا تمثيل فى القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية ، وفى جميع الهيئات والنقابات المنتخبة والمجالس المحلية ، اذن هى شريكة ، وهذه الشراكة نتيجة الحوار المععمق من القاع وحتى القمة .

أوجد الرئيس الأسد مناخا سياسيا فى سورية ، سبق ما جرى من تطورات فى أوروبا الشرقية وما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى من قبل لان الحوار الذى اداراه الأسد منذ بداية السبعينيات خلق تعددية سياسية عدت نموذجا فريدا بالنسبة لدولة من دول العالم الثالث ، ومن خلال الحوار داخل الحزب ، وداخل القيادة والخبرة النضالية للرئيس الأسد ، وجد أن الديمقراطية فى بلد نام كسورية يجب ان تختلف عما هو موجود فى البلاد المتقدمة صناعيا ، لانه من الناحية العملية يجب ان ننظر الى الشرائح الاجتماعية الموجودة فى المجتمع ، ويكون التعامل معها لما فيه مصلحتها .

الديموقراطية المطلقة : إذا أخذت بمفهومها الذى كان سائدا مثلا فى الثلاثينات قد لا تصلح الآن بعد التطورات التى حكمت العلاقة الانتاجية الى جانب التطورات الثقافية والاقتصادية الموجودة فى المجتمع .

وإذا أخذنا الديمقراطية بالصورة الموجودة فى البلاد الأوروبية قد لا تصلح للتطبيق فى المجتمع السورى نظرا لطبيعة الدخل ، والتقدم التكنولوجى والذى خلق وعيا لدى

■ حركة التصحيح ■

الجماهير من حيث ان التمثيل يستطيع أن يعكس مصالحها الحزبية أو مصالحها الانتاجية ، ولذلك فهي تقوم على هذا الاختيار وتعد ان البرلمان وسيلتها ، ولكن في بلد نام كسورية وغيرها من البلدان النامية المماثلة ، وحيث يكون الانتاج الزراعى هو الغالب ، وسكان الريف هم الاكثرية ، ونتيجة التفاوت في الانتاج وعدم وجود قاعدة صناعية ممتدة أو تقدم تكنولوجى كما هو موجود في الغرب .. فطبيعى ان هذا التمثيل المطلق لا يعكس الحقيقة ، ولذلك وجد الرئيس الأسد ان التعددية السياسية توجد مناخا لتحقيق مبادئ أساسيين :

المبدأ الأول هو أنه لا توجد فكرة مطروحة على مستوى الايمان المطلق بالوطن ، والايمان بالجماهير ، ومحاولة النهوض فيها . إلا ممثلة في حزب من الاحزاب المذكورة ، وإذا أخذنا في المفهوم الشعبى انه لا توجد فئة غير منضوية تحت تنظيم لمن يمثلها .. الفلاحون لهم اتحاد .. العمال لهم اتحاد .. الحرفيون .. والطلبة ، والمعلمون ، والمحامون ، والمهندسون ... الخ ، كل هذه الفئات تندرج في تنظيماتها ، والتنظيمات المهنية أيضا لها تمثيلها الحزبى والشعبى ، وبالتالي فهي شريكة في صنع القرار ، ونتيجة لهذا التنظيم استطاعت سورية ان تخلق تعددية سياسية لها عمق جماهيرى ، وعمق شعبى وتعتبر هذه المجالس عن تطلعات الجماهير ورغباتها من خلال النقد ، والنقد الذاتى والمناقشة في القرار ، ولهذا ، وكما قلنا فإن الرئيس حافظ الأسد لم يتخذ أية قرارات بديلة عما تراه الجماهير ، انما كانت الجماهير في جميع المستويات تتخذ قراراتها ، وكانت قرارات الجماهير ، ونبضها ، واستشرافها لمستقبلها يشكل الهاما للقيادة ، وعلى رأسها الرئيس الأسد الذى يتخذ من القرارات مايناسب المرحلة التى تمر بها سورية ويناسب أيضا مصلحة الجماهير وبصورة لا تتناقض مع مصلحة الجماهير العربية لأن الجماهير السورية جزء من الأمة العربية ، وأنه مهما طال الزمن ، أو قصر لابد أن تكون المصلحة العربية واحدة سواء في سورية أو في غيرها من الأقطار العربية .

فلسفة التاريخ

□□ وإذا قرأنا خطابات الرئيس حافظ الأسد بإمعان نجده دائما يؤكد أنه ليس بديلا للجماهير ، انه يجسد رأى الجماهير ، ونبضها ، ومصالحاتها فيما يتخذ من قرارات .. التعددية السياسية تجربة غنية ، وأحد مصادر ثرائها أن الرئيس حافظ الأسد لم يكن سجين أيديولوجية لا يحدد عنها قيد أنملة ، خلافا لكثير من القادة عبر التاريخ وخاصة في البلاد الماركسية حيث كانت الايديولوجية تحد دائما من القدرة على التطوير ، ولذلك ترنحت هذه الأنظمة ، وسقطت ، وسقط معها الرهان لانها لم تكسب أى جماهيرية .

■ الفصل الرابع

الرئيس حافظ الأسد يؤمن بفلسفة التاريخ بمعنى أن حركة التاريخ تخلق فكراً جديداً ، وهذا الفكر الجديد يجب أن يستوعب من خلال الممارسة العملية ، وذلك كان دائماً عندما يكون هناك أى قيد على حركة الجماهير ، ومن خلال تفاعله مع الجماهير وأحاساسه ينبضها بطرح الشيء الجديد الذى يمكن أن يخلق تطويراً حسب المرحلة التاريخية التى يوجد فيها المجتمع .

وهنا يمكن أن نضرب المثال التالى : الرئيس حافظ الأسد طلب من الجبهة المركزية للجبهة الوطنية ان تبدأ حواراً لتطوير آلية عمل الجبهة ، لأنه لا يجوز ان نقف عند الأسس والمبادئ التى وضعت فى السبعينيات ، ذلك انه منذ السبعينيات وحتى الآن جرت تطورات كثيرة ، ومتلاحقة ، وطرائق مستجدات كثيرة على مستوى العالم ، وعلى مستوى الوطن العربى ، وعلى مستوى سورية ، ولذلك لابد من وقفة للمراجعة ولادخال التطوير فى عملها الجماهيرى وعملها التنظيمى .

مثال آخر : الرئيس الأسد طلب من الكادر الحزبى الا يشعر اطلاقاً بأنه متميز على الجماهير .. أنا أرى البعثى - وهذا كلام الرئيس الأسد - هو المواطن الذى يقدم مالهديه للبلد ، الذى ينتج بأقصى طاقته الانتاجية .. الذى يلتزم بمبادئ الاخلاق والمثل العربية .. الانسان البعثى هو الذى يفكر لمجتمعه وجماهيره ، الذى يقدم التضحية ، الذى يتقدم الطلاب مثلاً ليكون الاول فى مدرسته ، والذى يتقدم العمال ليكون المنتج الاول فى معمله او .. رس الذى يعطى أقصى ماعنده لتلاميذه ، او المرأة التى تعطى مالهديها للوطن من خلال التربية اذا كانت تعمل فى المنزل ، او اذا كانت تقوم بعمل مامن خلال قطاعات الانتاج الدولة ..

الرئيس حافظ الأسد طور هذا المفهوم ، لم يقف عند حد يؤدى الى الجمود .. مثلاً فى فترة السبعينيات كانت هناك الضغوط على سورية وهى الضغوط التى أدت الى خنق كثير من المنتجات ، خاصة مؤسسات القطاع العام التى تهتم بالمتطلبات اليومية للمواطنين سواء كانت مخازن تابعة للدولة او مؤسسات تباع الخضر والفواكه او مؤسسات استهلاكية .. الخ ، ولأن المواطن دائماً محور تفكيره ، يحس بالآلام ويحاول أن ينهض به ، رأى انه عندما تطور المجتمع ، وزادت قوة الانتاج فيه وأصبح الوضع العالمى لا يقبل أن تمد الدولة يدها لتأخذ من دولة أخرى كل شيء دون أن تنتج ، لأن دخل الدولة قبل كل شيء هو دخل الآخرين أيضاً .. وقف الرئيس الأسد يقول : علينا أن نؤمن بالتعددية الاقتصادية وعلينا ان نخلق قطاعاً مشتركاً يجمع بين القطاعين العام والقطاع الخاص ، وعلينا أن نشجع جهود القطاع الاستثمارى ، ولذلك نشأت التعددية الاقتصادية جنباً الى جنب مع التعددية السياسية ..

■ هجرة التصنيع ■

وفيما يتعلق بقضية القطاع العام رأى الأسد بخبرته التاريخية وكقائد من قادة دول العالم الثالث التاريخيين أن هناك فرقا بين مانسميه القطاع العام والذي يشكل العمود الفقري للاقتصاد ، وبين القطاع الخاص ، ورأى أنه في ظروف مثل ظروف سورية لابد من تدعيم القطاع العام باعتباره العمود الفقري ، وتحرير الاقتصاد القومي من التبعية ، ولهذا مع دعمه للقطاع العام لم يقبل أن يكون القطاع العام عقبة كأداء في سبيل التطور الاقتصادي ، وأعطى لكل قطاع من الضمانات ما يكفل له الازدهار.. القطاع العام يبقى كسهم أمان للأمن الاقتصادي ومع ذلك لا ينبغي أن يكون قطاعا متخاصما مع التطور أو قطاعا هامشيا لا يجده الناس أو قطاعا متخلفا عن مواكبة التطور التكنولوجي ، بل أن الرئيس حافظ الأسد كان دائما يقول للوزراء والمستولين في المواقع المختلفة : عليكم أن تخلقوا مبادرات ابداعية لتطوير القطاع العام ، وقد أشرف بنفسه على تنظيم مؤتمر الابداع الوطني ، والذي شاركت فيه جميع القوى المنتجة في سورية في فترة الحصار الاقتصادي الذي زاد على سورية في الثمانينات ، وتحديدًا منذ عام ١٩٨٥ ، وحتى عام ١٩٩٠ عندما اتهمت سورية بالارهاب وعندما أريد لسورية أن تتركع واستتقر هذا المؤتمر الذي دعا اليه الأسد - الهمم الوطنية ، وقام العمال بمبادرات للعمل التطوعي لزيادة الانتاج ، وقدم المهندسون اختراعات جديدة ، وضاعف المزارعون من رقعة المساحات المزروعة وطورت الدورات الزراعية ، وأصبحت الأرض تعطى أكثر من محصول زراعي طوال العام الواحد نتيجة للدورات الحقلية ..

ليس معنى هذا الكلام أن سورية قد وصلت الى حد الكمال ، لأنها مازالت في بداية الطريق ، ولكن معنى ذلك أنها تسير على الطريق الصحيح ، وأن التفاؤل بهذه الصيغة في التطور الاقتصادي له مسوغه ، لسببين : أنه يراعى الوضع داخل سورية ، ويتعامل مع المتغيرات الدولية ، وقبل هذا كله فإنه يضع مصلحة الاقطار العربية المجاورة في حساباته للوصول الى الغايات المرجوة .

والآن يعاد النظر ويتوجه من الرئيس الأسد في كثير من القوانين والقرارات التي تشكل عينا على مسيرة التطور على جميع الصعد . وليس هناك شيء يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية ، أي قانون ، أي قرار ، أي مؤسسة أيا كان نوعها من حق أصحابها ، أو العاملين فيها ، والمشرفين عليها أن يضعوا كل مايتعلق بتحسين ادائها وتطويره دون خوف ودون قيد على الفكر ، مادام هذا الفكر يرمى في النهاية الى الابداع والى الخلق والى التجديد لبناء الوطن ، ولتعزيز التضامن مع الاقطار العربية .

صيغة التعددية السياسية ، والاقتصادية إذن ليست مستوردة من خارج سورية وليست مفروضة عليها ، إنما هي صيغة نبعت من الأرض .. من الشعب .. من الجماهير ، وطالما ان هذه الصيغة حققت وتحقق التقدم على أساسها ، فهي صيغة

■ الفصل الرابع

مناسبة ، وليس من قبيل المبالغة القول بأن الاستفتاء الذى جرى مؤخرا على الولاية الرابعة للرئيس حافظ الأسد قد أكد بالشكل الذى جرى فيه ان المبايعة لحافظ الأسد لم تكن لشخصه فحسب ، وانما كانت أيضا لكل الطروحات التى قدمها ، وعندما ينتظم فى شوارع دمشق مليوناً مواطناً فإن هذا أكبر دليل على نجاح الصيغة .

وقد يبرز من يقول إن هؤلاء خرجوا بالأمر أو أن السلطة أكرهتهم على ذلك ، ولكن المراقب المحايد يرى ، أو كما يقول بعض علماء النفس «تستطيع أن تقود حصانك الى الحقل ، ولكن لا تستطيع إرغامه على العمل» ، وهؤلاء جاءوا يحملون اللافتات ويدفعون أجور السيارات ، ويبقون ليلالى فى الشوارع والطرق ، ثم يقومون بالمجيء الى الصناديق طوعية ، واختياراً ، مع هذا الوضع لا تستطيع أن تقول الا أن هذه الصيغة تعكس التجاوب بين القائد ، والجماهير .

● **النقطة الثانية :** إن المشاركة الجماهيرية لا تأتى من العدم ، وانما لابد أن تكون مبنية على اقتناع ، وهذا الاقتناع نتيجة التفاعل المستمر مع الشعب ، وهذا التفاعل يقوم به الحزب والأحزاب الأخرى ، ولذلك يمكن القول إن صيغة الجبهة التقدمية صيغة ناجحة ، لأن الحزب نجح فى اقناع الجماهير بها عن طريق رفع التعددية السياسية ، والشعب السورى شعب مسيح بطبعه ، لا يستطيع أى انسان أن يفرض عليه اقتناعاً الا اذا كان مقتنعاً لانه شعب يقرأ ، ويحلل ويناقش ، شعب صعب المراس ، وصعب القيادة أيضاً ، ولذلك فإن نجاح هذه الصيغة يعكس نجاحها فى قدرتها على ربط الجماهير بالعمل السياسى ، وفى ظروف دولة مثل سورية مازالت تناضل من أجل تحرير أرض تصبح قضية الوحدة الوطنية شعاراً مقدساً ، وبالتالي لا يسمح لأحد بأن يعيث بهذه الوحدة ، والجماهير السورية واعية لهذه الحقيقة ، وتستطيع أن تتصدى لى محاولة للعبث بالوحدة الوطنية .

ولذلك عندما حاول اعداء سورية أن ييشوا سموهم داخل المجتمع السورى ، استطاع هذا المجتمع بالناعة الوطنية ، والسياسية ، والايمان الوطنى أن يحبط هذه المحاولات ، ولذلك فنحن نقول : التجربة الموجودة فى سورية تجربة جديدة بالدراسة لانها تجربة غنية ، وعميقة - ليس معنى ذلك انها تجربة منزهة من الاخطاء ، وقد تكون هناك اخطاء فى بعض المجالات . قد تحقق نجاحاً فى مجال ، وقد تخفق فى مجال آخر ، ولكن المحصلة فى النتيجة ، والنتيجة هى النجاح .

فى سورية الآن يسلطون الضوء بكل الشجاعة وبكل القوة على نواحي التقصير ، والخلل فى الحياة السياسية ، والحياة الاقتصادية ، وفى كل مرحلة من المراحل يدير الرئيس حافظ الأسد حواراً مع القيادة ، مع الجبهة الوطنية التقدمية ، مع القيادات عندما يلتقون

بشكل انفرادى ، أو جماعى ، ويمارسون الرقابة الحزبية ، والرقابة الجماهيرية ، فلا حصانة لى انسان ، الحصانة الوحيدة التى يمكن أن يحتضى بها أى سورى الآن عمله ، ووطنيته ، وإخلاصه لوطنه الذى ينتمى إليه .

اتهام باطل ومرفوض

ولذلك فإن زعم بعض الأصوات الغربية بأنه لا توجد فى سورية ديمقراطية موزعم مرفوض جملة وتفصيلا ، لانه باطل ، ومبنى على باطل ، لأن الديمقراطية اذا كان هدفها حكم الشعب بالشعب فإنها ليست صيغة واحدة ، وتختلف من دولة الى أخرى .. الديمقراطية فى سورية تعنى أنه لا قيد على الرأى الحر سوى قيد الضمير ، والمسئولية حيال المجتمع ، وأفراده .

وتعنى أوسع المشاركة الجماهيرية فى صنع القرار السياسى .. فى التنمية الشاملة فى المشاركة فى بناء الوطن .. الديمقراطية لابد أن ترتبط بمقوماتها .. ومقومات الديمقراطية ترتبط بالهوية الوطنية .. بالهوية القومية ، بالعدل الاجتماعى ، بالتوازن ضمن المجتمع ، فى الطريق الى مناخات صحيحة وسليمة الى الحرية بكل أبعادها السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ..

لو تطلعنا فى سورية الى الجبهة الوطنية التقدمية ، والتى قلنا عنها انها نتاج فكرى سياسى متقدم للرئيس القائد حافظ الأسد ، نجد أن الذين يتحدثون اليوم عن التعددية السياسية ، والتعددية الاقتصادية سبهم الرئيس حافظ الأسد بفكره السياسى ، ورواه الصحيحة منذ حوالى العشرين عاما ..

فى سورية تحالف سبعة أحزاب تضمها الجبهة الوطنية التقدمية ، وهذه الأحزاب فى حد ذاتها فى الوقت التى تشكل أوسع تحالف سياسى فى تاريخ سورية ، تشكل أيضا ضمنا تحالفا اجتماعيا ، لأن الأحزاب السورية لا تقوم على وحدة الطبقة ، وإنما على تحالف قوى الشعب العامل فى المجتمع من عمال وفلاحين ومثقفين وبرجوازية وطنية ، وتشغل المرأة دورا مهما فى الحياة السياسية ، وتشارك أيضا فى البرلمان وفى الحكومة ، وفى المنظمات ، بالإضافة الى الأحزاب نجد المنظمات الشعبية ، ونجد النقابات المهنية ، ونجد الشعب يشارك فى الإدارة المحلية ، وتحقيق الخدمات العامة ، وفى مجلس الشعب ، وصياغة القانون ، وفى الحكومة ، وتحقيق التنمية الشاملة ، وتحقيق التقدم ، وعدالة توزيع التقدم ، وفى الجبهة الوطنية التقدمية يساهم أيضا الشعب بأحزابه السياسية ، فى صنع القرار السياسى ..

الديمقراطية ليست نظرية جاهزة ، ولا عملا مسبق الصنع ، ولا يصح أن نقول إن

تجربة الغرب هي صحيحة بالنسبة الى سورية.. كما لا يصح ان نقول ان التجربة السورية هي الصحيحة بالنسبة للغرب لانه لكل مجتمع خصوصية تاريخية ، وخصوصية روحية ، والحرية الاجتماعية في فرنسا التي يحميها القانون الفرنسي ، قد يعاقب عليها قانون دولة أخرى ، فالمجتمع الشرقي مثلا سواء كان مسيحيا أو مسلما له تقاليده وعاداته المختلفة عن المجتمع الغربي ، وقد لا يصح ما هو صحيح في فرنسا لدولة مثل سورية ، أو ما هو صحيح في سورية قد لا يصح في الولايات المتحدة الأمريكية .

الجهة الوطنية التقدمية كيف ولدت وكيف تطورت ؟

□□ قلنا ، ان الرئيس حافظ الأسد كان السباق الى تطبيق فكرة التعددية الحزبية ، من خلال ايمانه الراسخ بوجود قواسم مشتركة يمكن ان تلتقى حولها مختلف القوى الوطنية ، من اجل العمل الوطني والبناء والتنمية .

ولكن كيف ولدت فكرة الجهة ؟ وكيف تطورت ؟

لقد اكتشف الرئيس حافظ الأسد قيمة هذه المؤسسة السياسية المتقدمة وضرورتها قبل اثنين وعشرين عاما من هذه المتغيرات الدولية التي يشهدها عالمنا المعاصر الآن ، كما جاءت هذه التجربة تلبية لضرورات وطنية ، واجتماعية ، وسياسية ملحة ، فقبل حافظ الأسد كانت علاقات القوى الوطنية والتقدمية في سورية تقوم على التناحر والتصادم ، وكان من الطبيعي ، وكنتيجة لهذا الأمر أن تتقلب التناقضات الثانوية والهامشية على التناقضات الرئيسية ، ومع مجيء حافظ الأسد أمكن الوصول الى قواسم مشتركة بين هذه الأحزاب التي لم يصنعها الرئيس حافظ الأسد وانما هي أحزاب موجودة في الساحة السياسية المشتركة التي تم الاتفاق عليها ، والتي تمت صياغتها عبر ميثاق .. هو ميثاق الجهة الوطنية التقدمية ، وعبر النظام الأساسي للجهة الذي يضبط حركة هذه المؤسسة وينظم علاقات الأحزاب الجبهوية بعضها ببعض الآخر .

ويعتز السوريون بأن هذه التجربة التي صنعت التعددية الحزبية والسياسية في سورية جاءت في وقت كان الكثيرون فيه يرفضون فكرة التعددية الحزبية والتعددية السياسية ، لان العقلية التي كانت تسيطر على الفكر السياسي العربي حتى ذلك الوقت كانت عقلية الحزب الواحد والأوحد ، وجاء حافظ الأسد ليقول بأن الوطن يتسع لجميع هذه القوى الوطنية والقومية ، وبأن حزبا واحدا لا يستطيع وحده أن ينفرد بالعمل السياسي أو أن يحتكر هذا العمل السياسي ، وأن القوى السياسية الأخرى تستطيع أن تمارس دورا فاعلا ومؤثرا في الحياة السياسية السورية وفي بناء الوطن .

■ حركة التصحيح ■

ولقد أثبتت هذه التجربة صلاحيتها وفعاليتها في مناسبات كثيرة وخاصة في مواجهة الثورة المضادة كما سيلي في موقع آخر، وفي جميع الأحوال فإن هذه الصيغة - صيغة الجبهة الوطنية التقدمية - إنما تعبر عن شكل متقدم من أشكال الوحدة الوطنية، لأن هذه الوحدة كانت دائماً مطلباً أساسياً، وبغير هذه الوحدة الوطنية ما كان لسورية أن تصمد في مواجهة التحديات التي واجهتها على امتداد عشرين عاماً أو أكثر وتمارس الأحزاب السياسية السورية في الجبهة الوطنية التقدمية دورها الكامل في الحياة السياسية.. ليست هناك أية قيود على حركة هذه الأحزاب، بل إن بعض هذه الأحزاب ممثلة في أماناتها العاملين في بعض القيادات الأساسية. القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية تسهم في صنع القرار السياسي في القضايا الاستراتيجية الكبرى، بل وحتى في القضايا التفصيلية الجزئية.. تجتمع القيادة المركزية برئاسة رئيس الجبهة الوطنية التقدمية الرئيس حافظ الأسد وتناقش جميع هذه المسائل، وتتخذ قرار الحرب، وتتخذ قرار السلم، وتتخذ القرارات المتعلقة بالمصير الوطني والمصير القومي، ونسوق أمثلة على ذلك.. قرار حرب تشرين أكتوبر اتخذته القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية عام ١٩٧٣.. دخول سورية إلى لبنان لانتقاذ لبنان وشعبه من المحنة التي عانى منها إنما كان بقرار من أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية.. قرار مواجهة الثورة المضادة وجماعات الإخوان المسلمين كان بقرار من القيادة المركزية للجبهة الوطنية، وأحزابها، حتى قرار السلام، أو قرار مشاركة سورية في مؤتمر السلام في مدريد كان بقرار ونتيجة حوار مطول جرى في عدة اجتماعات للقيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية.. الموقف من الغزو العراقي للكويت، وتفصيل هذا الموقف وماترتب على ذلك الموقف من إجراءات بما في ذلك مشاركة سورية بقوات عسكرية ذهبت لكي تسهم في تحرير الكويت من الغزو والاحتلال العراقي إنما اتخذ بعد مناقشات طويلة في إطار القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية، وأيضاً ما يتعلق بالقضايا الداخلية سواء منها الاقتصادية، أو السياسية أو غيرها من القضايا إنما تناقش داخل هذه القيادة، وتشهد اجتماعات الجبهة الوطنية التقدمية خلافات حادة أحياناً حول بعض المسائل، وتختلف الأحزاب أحياناً، وتأتلف أحياناً أخرى، وتناقش كل المسائل بكل الصراحة، ولكنها تخرج في نهاية المطاف بقرار واحد وموحد تلتزم به جميعها، وتعمل جميعها على تنفيذه وفق الأسس التي اتخذ عليها هذا القرار.

وضوح الرؤية أولاً

اكتشف الرئيس حافظ الأسد قيمة هذه المؤسسة السياسية المتقدمة وضرورتها قبل اثنين وعشرين عاماً من المتغيرات الدولية التي يشهدها عالمنا المعاصر الآن وهي المتغيرات التي حتمت بروز ظاهرتي التعددية السياسية والتعددية الاقتصادية، وكان

قيام الجبهة الوطنية التقدمية حصيلة حوار طويل ومكثف بين ممثلي القوى الوطنية ومن خلال لجنة الجبهة التي شكلت بقرار من الرئيس الأسد ، وقد استمر عملها منذ مطلع عام ١٩٧١ وحتى يوم توقيع ميثاقها ولم يكن من الممكن لهذا الحوار أن يسفر عن نتائج ايجابية لولا المناخ الايجابي الذي هيأته الحركة التصحيحية ، وهو المناخ الذي خلق جوا من الثقة داخل حزب البعث العربي الاشتراكي والمجتمع السوري ، وأيضا في علاقة الحزب بال جماهير وبالقوى الوطنية التقدمية ، الأمر الذي اتاح لهذه القوى الدخول في هذا الحوار استنادا الى بيان القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي الصادر في السادس عشر من تشرين الثاني « نوفمبر » عام ١٩٧٠ وهو البيان الذي التزمت من خلاله القيادة بالعمل من أجل اقامة الجبهة الوطنية للتقدمية وإخراجها الى حيز الوجود كخطوة لتقوية الجبهة الداخلية وتعزيز الوحدة القومية ، من أجل تحقيق الأهداف المنشودة وفي مقدمتها خلق المجتمع العربي الديمقراطي الموحد ..

لم يكن الجو العام الذي سبق قيام الجبهة نقيا خاليا من الشوائب والترسبات التي تركت آثارها السلبية على العلاقات بين القوى الوطنية التقدمية في سورية ، ولذلك فقد اتجه الجهد أولا الى تنقية الجو من الشوائب والترسبات التي شابته هذه العلاقات وصولا الى تعميق الثقة الحقيقية من خلال الممارسة ، والتطبيق لا من مجرد الأقوال برفع الشعارات .

وفي هذا الاتجاه بذل الرئيس حافظ الأسد جهدا واضحا لبلورة وتوضيح مفهوم الجبهة والعمل الجبهوي ، وكان هذا التوضيح ضروريا للحزب وأيضا للقوى السياسية الأخرى لاسيما في ظل وجود أفكار ومفاهيم خاطئة وتعددات مختلفة حول الجبهة والعمل الجبهوي .. وبصراحة أكثر فلقد كان لدى القوى السياسية غير البعثية تطلعات وأفكار معينة حول قيام الجبهة ، وربما كانت هذه الأفكار والتطلعات مختلفة عن نظرة الحزب الذي كانت أقسام غير قليلة من قواعده متوجسة وقلقة نتيجة ما كانت تسمعه مما يطرحه بعض أفراد تلك القوى السياسية عمدا أو جهلا مثل : ان هذه المرحلة انتقالية ، وستتبعها مرحلة ثانية ينتهي فيها حزب البعث ، وسيكون هناك تجمع موحد يشكل تنظيما جديدا من مجموع القوى الداخلة في الجبهة ، وهذا ما كان يبعث على البلبلة لدى قواعد الحزب وذلك بسبب الخوف على مصير الحزب والقلق من الوصول الى تنظيم غير متجانس وغير موحد الفكر والتنظيم ... الخ .

ولكن وضوح الرؤية لدى قيادة الحزب والتزامها بمقرراته وتصورها الصحيح لمفهوم الجبهة كان دافعا لها وللحزب للقضى قدما نحو تحقيق شعار الجبهة وترسيخه وإخراجه الى حيز الواقع والتطبيق العملي ، منطلقا من أسس عديدة لعل أبرزها :

• اعتبار قيام الجبهة ضرورة حتمية ، تفرضها مهمات النضال التحرري والثوري ، كما

■ حركة التصحيح ■

أكدت على ذلك مقررات مؤتمرات الحزب ، وهذا ماتتطلبه وحدة العمل والنضال الجماهيري الذي يعتبر مبدأ في الاستراتيجية النضالية لحزب البعث .
 * اعتبار الجبهة أداة تعاون وعمل مشترك بين قوى سياسية تلتقى حول مصالح وأهداف مشتركة غير متناقضة مع الأهداف الأساسية لاستراتيجية الحزب .
 * اعتبار قيام جبهة وطنية تقدمية لا يتعارض مع مبدأ الحزب القائد ، ودوره في قيادة المجتمع والدولة .

* فضلا عن ذلك فإن ظروف عدوان يونيو حزيران ١٩٦٧ واعتبار تحرير الأرض المحتلة الهدف الرئيسي في هذه المرحلة جعل من مسألة قيام الجبهة ضرورة تفرضها التحديات القائمة ولاسيما تحدى الاحتلال لعدة أسباب : منها ضرورة تعزيز الوحدة الوطنية ، وتقوية الجبهة الداخلية ، وضرورة حشد جميع الطاقات والقوى من خلال هذه الجبهة ، الى جانب ضرورة احلال علاقات التعاون والعمل المشترك بين القوى الوطنية والتقدمية بديلا عن علاقات الصراع والتناحر ، وعدم تغليب التناقضات الثانوية وغير العدائية على التناقضات العدائية ، وأخيرا ضرورة تكوين رأى موحد يدعم معركة الصمود والتحرير والبناء .

أهداف الجبهة الوطنية داخليا وعربيا وعالميا

وقع ممثلو الجبهة التقدمية ميثاق الجبهة وأعلنوا عن قيامها في ٧ مارس آذار عام ١٩٧٢ ، وقد حدد هذا الميثاق أهدافها داخليا ، وعربيا ، وعالميا .

وحين وضع ميثاق الجبهة ١٩٧٢ فإنه حدد لهذه الجبهة مهمات ، ومنها تحرير الأراضي العربية التي احتلت بعد حرب ١٩٦٧ ، ونص ميثاق الجبهة : بأن عليها أن تضع الخطط السياسية ، والثقافية ، والعسكرية لكي تنجز هذا الهدف ، والمهمة الثانية التي يعلن عنها ميثاق الجبهة هي أن تكون الجبهة هي المسؤولة عن إقرار مسائل السلم ، والحرب ، ويرى المراقبون أن الجبهة مارست دورها على هذا الصعيد ممارسة كاملة ، وأيضا من المهام التي أعلنها ميثاق الجبهة إقرار الخطط الاقتصادية ، ومناقشة السياسات الاقتصادية من أجل بناء قاعدة اقتصادية قوية ، ومتينة تمكن سورية من أن تمتلك قدرة على الصمود في وجه التحديات التي تواجهها دائما .

كذلك من المهام التي كُلفت بها الجبهة رسم خطط التثقيف القومي ، ومن أجل خلق رأى عام موحد يسهم في تثقيف المواطن ثقافيا ، وسياسيا ، على جميع المستويات إلى جانب العمل على اكتمال البناء الديمقراطي ، وبناء المؤسسات الدستورية ، وبالفعل فإن هذا الهدف قد أُنجز من خلال قيام مجلس الشعب ، ومن خلال إقامة مؤسسات أخرى كمجالس الادارة المحلية والمنظمات الشعبية التي تسهم في قيادتها

■ الفصل الرابع

جميع احزاب الجبهة الوطنية التقدمية ، وكانت هناك مهام أخرى ، وهى أن ترفع من طاقات الشعب من أجل هدف التحرير الذى يعد الهدف الأساسى الذى حدده ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية ، والمقصود بالتحرير هنا هو تحرير الاراضى التى احتلت فى حرب ١٩٦٧ . ومن المهام التى حددها ميثاق الجبهة أيضا الوصول بالحوار الايجابى والتعامل الجماهيرى داخل اطار الجبهة إلى التنظيم السياسى الواحد ، والواقع أن هذه المهمة ليست مطروحة الآن على الفكر السياسى العربى لأن ما هو مطلوب الآن هو التعددية السياسية ، والحزبية ، وليس التنظيم السياسى الواحد .

وهذا الشعار (شعار التنظيم السياسى الواحد) رفع فى لحظة تاريخية معينة ، وفرضته ظروف محددة .. أما الآن فإن سورية تعيش مرحلة التعددية الحزبية ، والتعددية السياسية ، وعلى أية حال فإن هناك حوارا الآن حول ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية علما بأن فى هذا الميثاق ثوابت لا يمكن المساس بها ، ولكن هناك أيضا إلى جانب هذه الثوابت بعض المسائل التى يمكن أن يعاد النظر فيها ، وعلى سبيل المثال مسألة التنظيم السياسى الواحد ، والتى لم تعد مسألة مطروحة على الفكر السياسى سواء فى سورية ، او على صعيد الفكر السياسى العربى بشكل عام ، ذلك أنه منذ وضع ميثاق الجبهة الوطنية عام ١٩٧٢ ، فإن مياه غزيرة قد جرت تحت الجسر خلال هذه الأعوام الاثنتين والعشرين ، وأصبح من الضرورى أن يعاد النظر فى بعض المهام على ضوء التطورات التى حدثت سواء فى الأوضاع الداخلية ، او الأوضاع الاقليمية ، والعربية ، او فى ضوء المتغيرات الدولية .

تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية

كما أشرنا فقد تم تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية فى مطلع ١٩٧١ ، كما صدر نظامها الأساسى ، والميثاق الذى يمثل برنامج عملها ، وقد تألفت الجبهة من القوى التقدمية فى سورية بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى وترك باب الجبهة مفتوحا لتضم إليها عناصر ، وأطرافا توافق على ما جاء فى ميثاقها ، ونظامها ، وعند تشكيل مجلس الشعب اشترك فيه ممثلون عن هذه القوى السياسية ، وأختير الأمين العام لحزب البعث العربى الاشتراكى ، وهو الرئيس حافظ الأسد رئيسا للجبهة الوطنية التقدمية ..

وتجدر الإشارة إلى أن قيادة حزب البعث للجبهة تتجسد فى تمثيله بالأكثريّة فى مؤسسات هذه الجبهة جميعها ، وبأن يكون منهاج الحزب ، ومقررات مؤتمراته موجها أساسيا لها فى رسم سياستها العامة ، وتنفيذ خططها .. تجدر الإشارة أيضا إلى أن الدستور الذى أقره الشعب السورى باستفتاءه عليه قد أقر بهذه الحقيقة فى المادة الثامنة منه عندما قال : (حزب البعث العربى الاشتراكى هو الحزب القائد فى المجتمع

■ حركة التصحيح ■

والدولة ويقود جبهة وطنية تقدمية تعمل على توحيد طاقات جماهير الشعب ، ووضعها في خدمة أهداف الأمة العربية .

حشد كل الطاقات

ولكن هل يمكن القول بأن الهدف الذي أعلنته القيادة القطرية المؤقتة يوم السادس عشر من تشرين أكتوبر ١٩٧٠ من وراء الجبهة الوطنية التقدمية وهو حشد كل الطاقات التقدمية والشعبية ووضعها في خدمة المعركة قد حقق أهدافه ؟ وما هو الدليل على ذلك ؟

واقع الامر انه قبل الحركة التصحيحية كانت سورية تشكو من صراعات تناحرية بين الأحزاب ، والقوى الوطنية ، والتقدمية كما أشرنا ، ولكن الرئيس حافظ الأسد برؤيته المستقبلية الشاملة أدرك خطورة هذه العلاقات التناحرية ، والصدامية ، ونجح بعد حوار مطول استمر حوالى عامين أن يضع أطارا مناسباً لجميع هذه القوى ، وهو إطار الجبهة الوطنية التقدمية .

وقد قلنا من قبل بأن هناك ضرورات وطنية قومية ، وسياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وداخلية أملت على الرئيس الأسد أن يمضى في هذا الطريق الذى كان يبدو في بداية المطاف طريقاً محفوفاً بالشكوك حتى داخل حزب البعث ، ذلك أن جميع البعثيين لم يكونوا مقتنعين بهذه الواجهة الاستراتيجية من وجهة نظرهم ... بل أن بعض أحزاب الجبهة أيضاً لم تكن مقتنعة بهذا الاجراء ، أو بهذه الخطوة الاستراتيجية .

ولقد أثبتت هذه الجبهة فاعليتها ، ومصداقيتها في العمل القومي ، والوطني ، وفي العمل السياسى ، ولو عدنا إلى تاريخ سورية خلال العقدين الماضيين لوجدنا أن هذه الصيغة التى هى شكل متقدم من أشكال تجسيد الوحدة الوطنية داخل سورية كان لها دور فاعل ومؤثر في المجابهات الكبرى التى دخلتها سورية سواء في حرب أكتوبر تشرين أو في الدفاع عن لبنان ، أو في مواجهة الثورة المضادة أو في تحديد موقف جريء وشجاع من الغزو العراقى للكويت أو في اتخاذ القرار فيما يتعلق بمؤتمر السلام ، أو فيما يتعلق بالتعامل مع المتغيرات الدولية التى تركت أثارها ليس على الدول التى إنهارت فقط ، وإنما على العالم كله بما في ذلك الوطن العربى ، وسورية جزء من هذا الوطن العربى ..

وبخلاصة القول إن هذه الصيغة أسهمت اسهاماً كبيراً في تعزيز الوحدة الوطنية وتدعيمها والتى لولاها لما كان ممكناً لسورية أن تشغل هذا الدور الاقليمى البارز والمتقدم عبر سنوات طويلة ..

من ناحية ثانية فلقد كان للرئيس حافظ الأسد شخصياً الفضل الأول ، والأكبر في

الانتقال بحزب البعث من حالة الانغلاق، والعزلة عن الشعب، وحالة الانفراد، والتفرد بالسلطة إلى حالة الانفتاح على الجماهير، والانفتاح على الأحزاب، والقوى الأخرى، والانفتاح أيضا على الرأي الآخر..

الرئيس حافظ الأسد بقدراته الخاصة، ومواهبه غير العادية أفلح في نهاية المطاف خلال حوار هادئ، ومن خلال عزيمة، وتصميم ثابتين أفلح في أن ينتقل بحزب البعث من الحالة التي كان عليها في الستينات إلى حالة مختلفة تماما، الأمر الذي ساعد على نجاح تجربة الجبهة الوطنية التقدمية، ولولا حكمة، وشجاعة، ومرونة الأسد لما كان يمكن أن تحدث هذه النقلة النوعية في الحياة السياسية الداخلية في سورية.

لقد تصدى الرئيس حافظ الأسد لكل محاولات القلة في المؤتمرات الحزبية المغلقة، والتي رفضت العمل الجبهوي بكافة أشكاله.. استطاع برؤيته التاريخية الواسعة، والشاملة، وهو من القلائل الذين يجيدون قراءة المستقبل بنفس المقدرة التي يجيد بها قراءة التاريخ، استطاع، وهو الذي يقول دائما أن التاريخ هو علم المستقبل أن ينصت بأصغاء شديد إلى نبض الواقع، ويستشعر، ويستكشف، ويتلمس الأفاق البعيدة، وهو الذي يمتلك حسا سياسيا سليما، وبصيرة ثاقبة، أن يصل إلى فكرة التعددية السياسية، والحزبية والتي سبق بها عصره باثنين وعشرين عاما، وكان يحملها قبل الحركة التصحيحية، وبالتالي فإنه ظل يخوض نضالا مستمرا داخل مؤسسة حزب البعث القيادية، والقاعدية من أجل إجراء هذه التحولات النوعية..

لقد دخل حافظ الأسد في مواجهات كبرى داخل حزب البعث قبل الحركة التصحيحية، واستطاع في نهاية المطاف أن يحدث هذا التحول الذي لا يعد تحولا يتعلق بالأوضاع الداخلية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وإنما يتجاوز هذا الحيز إلى حيز أوسع، وأشمل، وهو حيز سورية كلها.

العمل السري والقوى المتربصة

وفضلا عن ذلك كله فقد كان قيام الجبهة الوطنية التقدمية ضرورة تاريخية لمنع العمل السري، أو الالتحاق بالقوى الأخرى التي تضررت مصالحها منذ قيام ثورة آذار عام ١٩٦٣، بمعنى أن الرئيس الأسد عندما قرر بأن يفتح حزب البعث على القوى السياسية الوطنية، والتقدمية الأخرى إما كان يدافع عن مستقبل سورية لأن الأسلوب الذي كان مُعتمدا قبل الحركة التصحيحية، كان من شأنه في نهاية المطاف أن يفضي إلى تخريب الوحدة الوطنية، وعدم المقدرة على بناء جبهة وطنية قوية، وقادرة على مقاومات التحديات، والمجابهات التي كانت موجودة في ذلك الوقت.

■ حركة التصحيح ■

ويرى صفوان قنسي عضو قيادة الجبهة الوطنية التقدمية بأن نظرة حافظ الأسد في هذه المسألة لم تكن نظرة محصورة في حزب البعث ، وإنما كانت تتجاوز ذلك إلى سورية كلها ، وبالتالي فإن حافظ الأسد إنما كان يدافع عن سورية ، ويدافع عن الشعب السوري ، وبكل تأكيد في دفاعه عن سورية ، وعن الشعب السوري ، وعن الوحدة الوطنية ، وعن الجبهة الداخلية إنما كان يدافع أيضا عن حزب البعث العربي الاشتراكي ، وإذا كانت هناك في وقت من الأوقات قوى سياسية لم تستطع أن تواكب هذا التحول في الحياة السياسية السورية ، فإن هذه القوى إنما اتخذت قرارا بأن تنتهي إلى زوايا النسيان .. هذه القوى لم تعد موجودة لأنها لم تتمكن من مواكبة التطور الهام في الحياة الفكرية ، والسياسية ، ولذلك فقد آلت إلى زوال لأنها لم تستوعب هذه الخطوة الاستراتيجية ، وأهمية هذا التحول النوعي .. هذه القوى بحكم تكوينها ، وبحكم انتمائها إلى مرحلة مضت ، وبحكم عدم قدرتها على قراءة الواقع ، وقراءة المتغيرات قراءة صحيحة حكمت على نفسها بالتلاشي ، وبالتالي فإنه يمكن القول بأن أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية في سورية هي التي تمثل الآن ، وفي هذه المرحلة القوى السياسية الفاعلة ، والمؤثرة في الحياة الشعبية ، والجماعية السورية .

القوى المستقلة

وإذا كنا تحدثنا عن الحوار الهادئ الذي شاركت فيه جميع القوى الوطنية ، والأحزاب التقدمية في سورية في مطلع السبعينات بعد بداية الحركة التصحيحية مباشرة ، وهو الحوار الذي أفلح في الوصول إلى هذه الصيغة بين القوى ، والأحزاب على النحو الذي أشرنا إليه ، فإن السؤال يُثار حول القوى المستقلة ، وهي القوى التي لم تنضو في إطار أحزاب الجبهة الوطنية ، والواقع أن هذه القوى المستقلة بدأت وبتشجيع من الرئيس حافظ الأسد في السنوات الأخيرة تمارس دورا أكثر حيوية من خلال مشاركتها في بعض المؤسسات التنفيذية ، والاندستورية ، والتشريعية وغيرها ، وهناك عدد لا بأس به من المستقلين في مجلس الوزراء ومجلس الشعب ، وهناك عدد من المستقلين في مجالس الإدارة المحلية ، وفي المنظمات الشعبية ، وفي النقابات المهنية ، وهناك من يطرحون تساؤلا كبيرا حول معنى كلمة مستقل ومن هؤلاء صفوان قنسي الذي لا يرى تيارا مستقلا لا ينفص في الحياة السياسية السورية ، ولا يمكن لأي شخص أو لأي مجموعة تريد أن تشارك في العمل العام ، أو في العمل السياسي أن تكون مستقلة تماما لأنها لا تريد أن تكون منتحبة إلى تيار سياسي ، أو إلى توجه سياسي ، أو إلى فكر سياسي معين ، ولا بد أن تكون بشكل ، أو بأخر تعبيرا عن قوى فاعلة ، ومؤثرة في المجتمع .

ويضيف قنسي : إنني من الذين يرون أن تعبیر كلمة مستقل ليس تعبيرا دقيقا ،

■ الفصل الرابع

وبالتالى أتمنى أن تنضوى هذه القوى التى نقول عنها بأنها مستقلة فى اطار تنظيمات سياسية ، والأحزاب الجبهوية القائمة قادرة على استيعاب هذه القوى المستقلة لأن القوى المستقلة لا تطرح أفكارا ، وشعارات ، ووجهات نظر تختلف عن الأفكار ، ووجهات النظر التى تطرحها أحزاب الجبهة تطرحها أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية .

مستقبل الجبهة الوطنية التقدمية

القناعات المشتركة التى ترسخت وتكرست على ضوء النقاط التى أشرنا إليها من قبل هى التى مكنت هذه الأحزاب ، ومكنت بالتالى هذه الصيغة من أن تثبت وجودها فى الحياة السياسية السورية ، ولولا هذه الاقتناعات الراسخة ، والثابتة لما كان من الممكن المحافظة على هذه الصيغة ، وبالتالى المحافظة على الوحدة الوطنية ، وفيما يتعلق بمستقبل هذه الجبهة فقد أشار الرئيس حافظ الأسد فى خطابه أمام مجلس الشعب ، والذى ألقاه فى الثامن عشر من شهر آذار مارس ١٩٩٢ بمناسبة أدائه للقسم الدستورى لولاية دستورية رابعة . أشار الى ضرورة العمل على تطوير هذه الصيغة ، وفى اجتماع أخير للقيادة المركزية للجبهة كُلف مكتب التنسيق والاتصال فى القيادة المركزية بأن يعقد عددا من الاجتماعات لكى يقدم أفكارا حول ما هو ممكن وما هو متاح من أجل تطوير صيغ العمل الجبهوى ، ومن أجل تفعيل دور الجبهة الوطنية التقدمية فى الحياة السياسية ، وسوف تتبلور هذه الأفكار والاقتراحات من خلال تقرير يعرض على القيادة المركزية بقيادة الرئيس الأسد ليمت اقرار ما تراه القيادة المركزية مناسبا ، وصالحا للتطبيق .. وكما يؤكد صفوان قدسى فإن الرئيس الأسد يسعى لإعطاء دور أكبر لأحزاب الجبهة الوطنية لإثراء الحياة السياسية السورية .

التطرف الماركسى ، والتطرف باسم الاسلام

ولقد استطاع تحالف الجبهة الوطنية التقدمية أن يصمد فى وجه التطرف الماركسى ، والتطرف باسم الاسلام ، ومن المؤكد أن الفكر القومى الذى يطرحه الرئيس الأسد دوما هو الذى يحصن الجبهة الداخلية السورية من التيارين : تيار التطرف اليسارى ، والتيار الدينى المتعصب ، والمنغلق ، والذى يريد أن يغلق العقول أمام أى فرصة متاحة للاجتهاد ، والتفكير .

وكما قال أحد المفكرين فى وقت من الأوقات فإن الأفكار التى تولد فى القطب الشمالى سرعان ما تتبخر عندما يجرى نقلها الى خط الاستواء ، فالأفكار لا تعار ، ولا تستعار ، ولكل بلد خصوصيته القومية ، وهذه الخصوصية نابعة من تراثه ،

■ حركة التصحيح ■

وثقافته ، ومن حضارته ، وتاريخه ، وقيمه الروحية ، ولابد أن تؤخذ هذه الخصوصية بعين الاعتبار .

ولعل أبرز الدروس المستفادة من تجاربنا في الوطن العربي الانتمك في النظرية بحثاً عن الحياة وانما ننهمك في الحياة بحثاً عن النظرية .. والتجربة السورية في ظل الرئيس حافظ الأسد تعلت دائماً من شأن الممارسة ، ولكن دون أن تتخلل عن الثوابت المبدئية ، والثوابت القومية حتى لا تضع البوصلة الموصلة الى أهدافها الكبرى ، وبعبارة أخرى فإن الحصن المنيع الذي مكن سورية ، ومكن الجبهة الوطنية التقدمية من مواجهة الأفكار المتطرفة سواء كانت الأفكار اليمينية ، أو الأفكار اليسارية هو الفكر القومي ، وهو الفكر المنفتح الذي لا يصد نفسه عن الآخرين بالتعصب وبأن يكون معصوب العينين ومفتوناً بالدوران حول نفسه ، انه فكر الرئيس الأسد .. الفكر المنفتح على تجارب الآخرين ، ولكنه أيضاً الفكر الذي يعلى دائماً من خصوصية التجربة الوطنية ، والتجربة القومية ، والذي يأخذ بعين الاعتبار تراث الوطن ، وثقافته ، وقيمه الروحية أيضاً .

ومشاركة الرئيس الأسد في معظم اجتماعات القيادة المركزية للجبهة يعطيها أهمية خاصة ، وكما يقول صفوان قنسي فإن الرئيس حافظ الأسد يشارك في معظم اجتماعات الجبهة الوطنية التقدمية ، ولا يتغيب عن أى اجتماع إلا لضرورات استثنائية ، ومهام عاجلة يكون مضطراً لأدائها ، وفي قيادته لاجتماعات القيادة المركزية يحاول الرئيس الأسد دائماً أن يشجع ممثلي أحزاب الجبهة الوطنية في هذه القيادة على أن يتحدثوا بحرية مطلقة ويُصغى الى جميع اقراء ، بل انه في بعض الاحيان حين لا يجد أحد ضرورة في أن يدلي برأيه في مسألة من المسائل فإن الرئيس الأسد يستحثه على أن يبدى رأيه ، وتناقش هذه الآراء بديمقراطية كاملة .

وهذه حقيقة فإن من يعرف الرئيس الأسد عن قرب يعرف كم هو مستعد لسماع الرأي الآخر حتي لو كان هذا الرأي مغالفاً لرأيه ، وقد شوهد الرئيس حافظ الأسد مراراً في بعض الاجتماعات ، وهو يصغى اصغاء جيداً ومطولاً الى آراء لا تتفق بالضرورة مع اجتهاداته الفكرية والسياسية ، ومع آرائه في هذه المسائل ، ومع ذلك فإنه كان يجيد الاصغاء ، ومن ثم فإنه كان يجيد الحوار مع هذه الأفكار التي كان يصغى اليها .. انه مستعد دائماً لتبادل وجهات النظر وتمحيصها يُغنى ويثرى القضايا مزار الحوار والنقاش ، وهو يعيد النظر في بعض أفكاره ، اذا وجد أن هناك رأياً آخر يمكن أن يكون مفيداً في تعديل توجهه ما ، أو في اتخاذ قرار ما ، باختصار فإن من يعرف الرئيس الأسد عن قرب يجده يتمتع بقدر كبير جداً من الروح الديمقراطية ومن استعداد لسماع الرأي الآخر ، ومن اجادة الحوار حول مسائل يمكن أن تكون مدار خلاف ، ولكن

■ الفصل الرابع

نتيجة الحوار لا يمكن لأى اجتماع يحضره حافظ الأسد أن ينتهى دون اتفاق على القواسم المشتركة التى تجمع ولا تفرق ، ودون الوصول الى القرار المناسب الذى يعتبر عن كل الآراء .

الديمقراطية فى فكر الأسد

فى الكلمة التى القاها الرئيس حافظ الأسد فى مجلس الشعب بمناسبة أداء القسم الدستورى لولاية جديدة قرأنا تفسيراً شاملاً لرؤية الأسد للمسألة الديمقراطية التى تشغل التفكير المعاصر ، وشرحا للأسس الحضارية التى تقوم عليها ، ويبين للذين يرفعون شعارات النظم الديمقراطية ، كيف يكونون ديمقراطيين قولاً وعملاً سواء على الصعيد الدولى أو على الصعيد المحلى .

فما هى أبعاد الديمقراطية الفعلية فى فكر الرئيس الأسد؟ وما هى أسسها؟
(١) الأساس الحضارى : يقول الرئيس الأسد : « إن صيغة الديمقراطية ليست سبعة تستورد من هذا البلد أو ذاك وإنما هى الإطار الذى يمارس فيه المواطنون حقوقهم ، وواجباتهم وفق ظروفهم المحلية ... » .

فى هذا التعريف نجد أن الديمقراطية مسألة حضارية تفجر طاقات الانسان ، وتحمله الى أجواء الخلق ، والابداع ، والعطاء ، وهذا ما يعنيه الرئيس الأسد ، فالأمة تنتقل من مرحلة حضارية الى مرحلة أرقى انطلاقاً من جذورها الحضارية ، من تاريخها .. من تراثها .. من داخل حدودها وليس من خارجها ، ولا يمكن لأية أمة أن تبني نظاماً ديمقراطياً مستورداً . فالبحث عن الديمقراطية يبدأ بالذات الحضارية التى تميز أمة عن غيرها .

وهنا يقول الرئيس الأسد :

« .. ألم تروا ما حدث للذين بحثوا عن الديمقراطية فى خارجهم وخارج أوطانهم ... » .

(٢) ديناميكية الإطار الديمقراطى :

لا تتقف الحياة عند صيغة معينة ، فالتطور يبقى ملازماً للحياة ، يغذيها ، يغنيها ، يقدم لها الجديد ، ولا وجود لها بدونه .

إن ممارسة الديمقراطية من خلال نظام معين ، لا تبقى بمنأى عن حتمية التطور الذى يدفع إلى الواقع باستمرار بمعطيات جديدة . فكلما تبدلت الظروف ، برزت الحاجة الى التعديل أو حتى تبديل الصيغة الديمقراطية كى تنسجم مع المستجدات ، وبالتالى مع الحياة نفسها ..

■ حركة التصحيح ■

يقول الرئيس الأسد:

«.. كل مرحلة من مراحل التقدم، والتطور، والبناء نحققها، تقدم معطيات جديدة في مجالات الحياة المختلفة، لابد أن تعكس نفسها على الاطار الديمقراطي...»

اذن عندما تكتسب الصيغة الديمقراطية طابعا سكونيا فإنها تموت حتما، ولكي تعيش الديمقراطية لابد لها من أن تبقى في حركة دائمة.. وتتجلى حكمة القيادة في اقامة التوازن بين المعطيات الجديدة، والصيغ القانونية.

يقول الرئيس الأسد:

«.. ولكي يمارس شعب من الشعوب الحياة الديمقراطية لابد من تحقيق توازن دقيق جدا بين الصيغة.. أعنى الهيكلية، والقوانين، وبين محصلة المعطيات الثقافية، والتراثية والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية...»

(٢) نسبة القيم الديمقراطية:

الاسس التي يقوم عليها البناء الديمقراطي، والمنطلقات التي يتغذى منها تختلف من أمة لأخرى. فما هو عادي عند أمة، قد يكون مقدسا عند أخرى، وما هو محلل هنا محرم هناك.. حتى عند الأمة نفسها، تختلف تلك الاسس، والمنطلقات من زمن لآخر، فمن الخطأ أن نأخذ المفاهيم الديمقراطية السائدة لدى شعب، لنطبقها على شعب آخر لذلك مخالف للعلم. والمنطق.. ولا وجود لديمقراطية مطلقة صالحة لكل زمان، ومكان، لذا لا يمكن، عند البحث عن صيغة ديمقراطية أن نتجاوز مبدأ نسبة القيم، والمفاهيم، والمعتقدات، هنا تتجلى الرؤية العلمية للرئيس الأسد.. فهو يقول:

«.. وبسبب عدم تماثل المعطيات الثقافية، والتراثية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية بين شعوب العالم في أي وقت من الأوقات، لم تستطع أي صيغة ديمقراطية بعينها أن تفرض نفسها بقوتها، وجاذبيتها على شعوب العالم في أي وقت على امتداد ما هو معروف من التاريخ الانساني...»

(٤) البعد الجماهيري:

أن أية ديمقراطية تبقى منقوصة إذا لم تشمل فوائدها كل أفراد المجتمع، ولا يأخذ البناء الديمقراطي منحاه الصحيح. إذا لم يوفر الفرص للجميع في الاختيار الحر والعيش الكريم. إذ ما فائدة بعض الديمقراطيات الغربية طالما بقيت اتفاق المترو ومداخل البنائيات حافلة بالحياء؟

ولصالح من يأتي قرار السلطة اذا بقي حصرا على رأس الدولة، والبرلمان؟ ان الديمقراطية بمفهومها العميق هي اطار لممارسة النشاط الانساني بعيدا عن هيمنة طرف

■ الفصل الرابع

على آخر ، وحتى لا يبقى الانسان العادى على هامش الحياة السياسية ، والفقر على هامش النشاط الاقتصادى .

يقول الرئيس الأسد :

« .. فى جانب المؤسسات السلطوية أو الرسمية المنتخبة ديمقراطيا ، والمجالس المحلية ومجلس الشعب ، توجد المنظمات الشعبية بحلقاتها وقياداتها المتسلسلة ، والمنتخبة ديمقراطيا وتوجد النقابات المهنية بحلقاتها ، وقياداتها المتسلسلة ، والمنتخبة ديمقراطيا وتوجد الأحزاب ، وقياداتها المنتخبة ديمقراطيا ، الكل يمارس العمل السياسى ويشارك فى السلطة والقرار .. » .

(٥) البعد الدولى :

عندما يطالب الرئيس الأسد بشرعية دولية ، وعدالة إنسانية تكون إطارا لسلام عالمى قائم على العدل فإنه يعبر عن أرقى المشاعر الإنسانية خاصة فى دول العالم الثالث ، والدول الصغيرة .. فى جانب إقامة النظام الديمقراطى ، داخل الدولة الواحدة يجب أن تسود العلاقات الديمقراطية بين دول العالم كله ..

فهو يقول :

« .. فجدير جدا بالدول التى ترفع شعار الديمقراطية أن تطبق ، وخاصة عندما تتحدث مع الشعوب الأخرى كما يجرى معنا نحن ، أن تمارس الديمقراطية الدولية التى تقتضى المساواة بين الدول ، والتعامل الحر ، والنزاهة بين الدول » .

كيف ينظر اطراف الجبهة الوطنية لهذه الصيغة وما حققتها ؟

قال لى خالد بكداش السياسى السورى المخضرم ، وزعيم الحزب الشيوعى ، وعضو قيادة الجبهة الوطنية التقدمية : إن صيغة هذه الجبهة جاءت بمبادرة من الرئيس حافظ الأسد ، ولم تكن هذه المبادرة سهلة عليه فقد لاقى صعوبات فى سبيل إقرارها حتى من داخل حزبه .. حزب البعث العربى الاشتراكى ، ولكنه تغلب على كل هذه الصعوبات ، وقامت الجبهة وهى جبهة جدية ، وليست جبهة شكلية وينص ميثاقها الذى اتفقنا عليه جميعا على محاربة الاستعمار ، والصهيونية ، والامبريالية ، وعلى النضال فى سبيل إقامة نظام اشتراكى على أساس علمى ، وفى سورية الآن صورة ديمقراطية حقيقية ، وينص ميثاق الجبهة على أن كل حزب من الأحزاب المنضوية فى الجبهة له الحق فى ممارسة نشاطه .

ونحن الشيوعيين فى سورية تعاملنا مع حزب البعث حتى قبل قيام الجبهة ، وأذكر أننى كنت نائبا عن دمشق فى مجلس النواب السورى عام ١٩٥٤ ، وفى ذلك الحين تألف ما سعى بالتجمع القومى البرلمانى ، وكان يشمل حزبنا الشيوعى ، وحزب البعث العربى

■ حركة التصحيح ■

الاشتراكي ، والحزب الوطني ، وبعض الشخصيات الوطنية ، كما كان يحضر اجتماعات قيادة هذا التجمع ممثلون عن الجيش العربي السوري لأن المشاكل التي كانت تجابهها سورية في ذلك الحين كانت مشاكل خطيرة ، ومعقدة ، وكان هناك حلف بغداد ومبدأ ايزنهاور ملء الفراغ الذي تركه المستعمرون الانجليز ، والفرنسيون حيث كانت الولايات المتحدة الامريكية تريد ملء هذا الفراغ ، وقد وقفنا ضد هذه المشاريع الاستعمارية واحبطناها ، والآن نعمل في جبهة تضم جميع القوى الوطنية التقدمية ، وهي كما قلت مبادرة من الرئيس حافظ الأسد ، وقد قلت من قبل وأعيد الآن أن حافظ الأسد يتميز عن غيره من قادة حركات التحرير في العالم عندما انتصروا ، ووصلوا إلى السلطة ، مارسوا التتكيل بالقوى التقدمية ، بينما حاول الرئيس حافظ الأسد أن يستفيد من هذه القوى ، ويجمعها ويأتي بها إلى السلطة .

نعم ، كثير من حركات التحرير في الوطن العربي ، وخارج العالم العربي وقفوا مواقف ضد الاستعمار ، ولكنهم أيضا وقفوا مواقف غير سليمة في وجه التقدمية في بلادهم ، وأصبحت هذه القوى غريبة على مجتمع الاستقلال مثل غرابتها على مجتمع الاستعمار ..

الرئيس حافظ الأسد لم يقع في هذا المأزق الذي خططت له ، ولا تزال الامبريالية ، بل سعى إلى توحيد جميع القوى الوطنية ، وأيضا القوى التقدمية ، وأذكر أن الصحافة اللبنانية علياء الصلح قابلت الرئيس الأسد هنا في دمشق ، وسالته عن موقفه من الشيوعيين ، فأجاب قائلا : الحزب الشيوعي قوة وطنية موجودة على الساحة السورية . ونحن نتعاون معها .

وأضاف بكداش : «لقد تعرفت على الرئيس الأسد لأول مرة عندما كان وزيرا للدفاع .. التقيت به في بيته وتحدثنا حديثا أخويا صريحا ، وخرجت بانطباع أكدته الأحداث فيما بعد ، وهو : أن حافظ الأسد زعيم وطني مقدم يؤمن فعلا بتوجيه جميع القوى التقدمية والوطنية لمحاربة جميع التحديات التي يمكن أن تتعرض لها سورية ، واستمرت علاقاتنا منذ ذلك الحين ، وحتى أصبح رئيسا للجمهورية ورئيسا للجبهة الوطنية التقدمية ، وكانت العلاقة بينه وبينى ، وبين الشيوعيين والبعثيين علاقات أخوية ما تزال مستمرة حتى الآن .

وقال لنا أحمد عقل الأسعد الأمين العام للحزب الواحدى الاشتراكي الديمقراطي ، وعضو القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية : «لاشك أن حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي رائد ، وقد أعطى للنضال العربي الكثير ، ولكن مثله مثل أى حزب في وطننا العربي تعرض للاهتزاز ، وتعرض مرة إلى الشد به يمينا أو يسارا ، جاء أيضا مَنْ فُكّر أن يجعله حزبا للنخبة ، كل هذه الأمور تفاعلت على أرضية حزب البعث الى أن انتخب الرئيس حافظ الأسد امينا عاما لحزب البعث العربي

■ الفصل الرابع

الاشتراكي فعدت الى هذا الحزب الرائد هويته القومية ، والعربية ، وأعاد الرئيس الأسد إليه جماهيره ، وارتبط بأهدافه المتلازمة بين الوحدة ، والحرية ، والاشتراكية ، وعزز المعاني القومية ، والوطنية في حياة الحزب ، وجعله يتفاعل مع الجماهير ، والرئيس الأسد هو وحده الذي أعاد لحزب البعث وجهه القومي الاصيل ، وجماهيره الواسعة وارتباطه بقضايا امته العربية .

الأحزاب الوطنية في سورية قبل قيام الحركة التصحيحية كانت أحزاباً متصارعة ، ومتناثرة ، ومبددة للجهود .. اليوم أصبحت كلها في ظل الجبهة الوطنية التقدمية ، والتي هي نتاج حضاري لفكر الرئيس الأسد المتقدم ، ولرؤية بعيدة النظر تعمقت في القاسم النضالي المشترك القومي ، والوطني ، والانساني ، وأصبحت الجبهة الوطنية التقدمية في سورية اليوم مثالا يحتذى به وبخاصة في بلدان العالم الثالث الذي لم تنضج في العديد من دوله تجربته السياسية .

وكان للجبهة الوطنية التقدمية دورها في إسقاط التآمر من الداخل ، والخارج لكي تبقى سورية قلعة حصينة في النضال العربي ، ولتحقيق أهداف الأمة العربية ..

وقال أحمد الأسد : لقد توافرت لسورية قيادة وطنية عظيمة تمثلت في الرئيس حافظ الأسد ، وعندما نتحدث عن القائد الإنسان حافظ الأسد فإننا نتحدث عن القيم النبيلة ، وعن المبادئ السامية ، وعن السلوك الرائع ، وعن الفكر الاستراتيجي الشمولي .. لقد خرج حافظ الأسد من وسط الشعب ، وحمل على كتفيه هموم وآمال الأمة العربية ، فهو قائد عظيم من أمة لها حضارتها العظيمة ، وقد عبر شعبنا في سورية عن عمق ولائه لهذا القائد الذي أنار درب امته . وحمل المشعل ، عبر يوم تجديد البيعة لولاية دستورية رابعة حيث خرج الشعب بكل فئاته ، وبكل إنتماءاته يهتف لقائده ، ويبادله الحب بحب ، والوفاء بوفاء ، ويقول له : من العقل ، والقلب نعم للقائد الأمين حافظ الأسد لقد أكدت التجربة الرائدة التي أرسى دعائمها حافظ الأسد بفكره السياسي المتقدم ، والذي سبق به زمانه في التعددية السياسية ، والاقتصادية ، أكدت التجربة أن هذه هي الصيغة التي تؤمن أوسع قاعدة للمشاركة الجماهيرية في صناعة التقدم ، وبناء الوطن ، والحفاظ على مكتسبات الجماهير ، وأقول لكل الأشقاء العرب : عليهم أن يدرسوا هذه التجربة بعين تربط الضمير بالمسئولية القومية لأن فيها الكثير لخير هذه الأمة .

القائد والتجربة

يقول الرئيس حافظ الأسد : إذا كان عدم الاستقرار الفكري والسياسي قد إعتري السنوات الأولى من عمر ثورة الثامن من آذار/مارس بما يحمله ذلك من انعكاسات

■ حركة التصحيح ■

سلبية على الصعيد الاقتصادية، والاجتماعية، والدفاعية فإننا عاجلنا هذا الاشكال، وتجاوزناه بعد حركة التصحيح عام ١٩٧٠.

وانطلقنا منذئذ في عملية بناء وطنية واسعة تغطي كافة الحاجات الوطنية على سعتها، وتعددية مشتملاتها، وفي بعده المادى، والروحي، وبدأنا ببناء وتعزيز، القدرة الداخلية، وبادرنا بالاتصال بجميع الأحزاب التي كانت قائمة في البلاد قبل حركة التصحيح وقبل ثورة آذار/ مارس.

ونشأ حوار حري بين جميع الأحزاب لا يفرض أحد على أحد رأيا، وكان حوارا وطنيا مسئولا استغرق وقته الذى احتاجه، واستمرت المناقشات المكثفة أكثر من عام توصلت الأحزاب في نهايتها الى اتفاق تام، وموثق انطلاقا من المصلحة الوطنية، والحرص على مسيرة وطنية قوية.

وباشرنا مسيرة وطنية مشتركة على طريق طويل، وكانت تجربة نوعية جديدة لا سابقة لها في بلادنا، ولا مثيل لها في بلدان العالم الأخرى، وقد يقال: أنه وجدت جبهات وطنية في بلدان أخرى، وأقول إن التجربة تختلف جدا من حيث تاريخيتها ومحتواها، ونظام عملها، وفاعليتها.

وتابعت الجبهة نشاطها خلال العقدين الماضيين مطورة بين وقت وآخر أسلوب عملها، ولا أذكر أن هناك أمرا واحدا على المستوى الوطنى سواء داخليا أو خارجيا بُت فيه أو وجبت معالجته إلا عالجنه في إطار الجبهة الوطنية التقدمية.. نتبادل الآراء بشكل حر ومسئول.. نناقش ونجتهد.. نختلف ونألف، ونخرج باتفاق قوامه خلاصة الآراء التى إستقر عليها المتحدثون في نهاية الأمر، ولا أذكر أننا خرجنا مختلفين حول أمر هام ناقشناه في أية جلسة من جلساتنا؛ والتى كانت دائما تستغرق وقتا طويلا لأن الكل كان حريصا على أن تتسع الرؤية حول موضوع المناقشة، وأن تخرج بأصح رأى موحد وأصح قرار في النهاية.

وهذا لا يعنى أننا لم نكن نناقش الأمور الأقل أهمية بل فعلنا ذلك وبشكل مستمر، ناقشنا أمورا أقل أهمية، وأمورا صغيرة، ولكننا اعتبرنا، ونعتبر أن كل الأمور التى ناقشناها، أو نناقشها هامة وإلا لما كان هناك ما يبرر مناقشتها، ان المجال كان مفتوحا دائما لأن تناقش الجبهة كل أمر ترى مناقشته.

الجهة الوطنية إنجاز هام

ويضيف الرئيس الأسد: لقد كانت الجهة الوطنية التقدمية انجازا وطنيا هاما ومكسبا كبيرا لقضايا الشعب ، والوطن ، وشغلت دورا أساسيا في صمودنا الوطنى ضد التحديات المتعددة الأشكال التى استهدفت وطننا في كبريائه ، ومصالحه ، وسيادته ، وقراره الحر ، وحقه القومى ، ومع ذلك فإننا نرغب من الجهة أكثر مما تحقق ، ومازال أمامنا الكثير مما يمكن عمله من التطوير الذى يحقق زيادة من الفاعلية في خدمة قضايا ، وأهداف الوطن .

ان الانسان ينشد الكمال دائما ، ولا يناله ، ومع ذلك يجب أن يستمر في تطلعه اليه ، وفي تحركه نحوه بشكل دائم ليقترّب منه قدر المستطاع .

اننى أمل أن نجتمع قريبا لنناقش ، ونقرر ما نراه لازما لتطوير عمل الجهة ، وزيادة فاعليتها الوطنية .

وفي إطار البناء الوطنى كان الاهتمام الكبير بمنظماتنا الشعبية التى أصبحت ركائز جبارة في الدفاع عن هذا الوطن وشموخه ، وبنائه ، وصون ارادته ، الأمر الذى هو موضع فخرنا ، وتقديرنا الكبير .

وفي إطار البناء الوطنى أيضا بذلت الجهود لتعزيز نقاباتنا المهنية عن طريق توحيد أبناء المهنة الواحدة في تنظيم واحد بدلا من عدة تنظيمات كما كان الأمر في كل من نقابات الأطباء ، والمحامين ودعمت هذه النقابات بعد توحيدها لتأخذ دورها الوطنى الذى يجب ان تأخذه ، والذى نراه اليوم واقعا ملموسا نعتز به .

وفي إطار البناء الوطنى أعدنا صياغة مؤسسات السلطة التنفيذية ، والتشريعية ، والادارة المحلية ، وهى أيضا تجربة جديدة هدفت الى مشاركة كل طاقات البلاد في بناء الاقتصاد ، وتنميته ، وحقت نجاحات هامة تنمو ، وتعلو باستمرار ، وكانت لنا خططنا الثقافية ، والاجتماعية وقد أعطينا لكل ذلك جهودا كبيرة ، وحققنا نجاحات هامة رغم كل الصعوبات التى مررنا بها .

فلسفة التنمية الاقتصادية في فكر الأسد

□□ لعل أبرز ما يميز الفكر الاستراتيجى للرئيس حافظ الأسد انه فكر شمولى في جوانبه السياسية ، وجوانبه الاقتصادية ، ومن المؤكد ان الفصل بين الاقتصاد ، والسياسة لم يعد أمرا ممكنا لأن التجارب أكدت ، وهى مازالت تؤكد كل يوم ان كلا

■ حركة التصحيح ■

منهما يكمل الآخر ، وكما أصبحت سورية تمتلك بعد الحركة التصحيحية تعددية سياسية أصبحت تمتلك أيضا تعددية اقتصادية ، حيث تشارك قطاعات رئيسية في خطط التنمية الشاملة ، وفي بناء القاعدة المادية لسورية يوجد القطاع العام ، وهو القطاع الرئيسي ، ويوجد أيضا قطاع خاص ، وإلى جانب هذين القطاعين يوجد قطاع مشترك ، وإلى جانب كل هذه القطاعات يوجد أيضا قطاع تعاوني نشط في هذا المجال ..

التنمية في سورية تنطلق من التعددية الاقتصادية التي أرسى دعائمها الرئيس حافظ الأسد ، ولو تطلعنا إلى ما قبل قيام الحركة التصحيحية لوجدنا أن الفارق كبير ، وكبير جدا ، سواء كان في بناء الصناعة ، أو في توسيع الخضرة ، والزراعة ، وإقامة السدود ، وتحقيق الخدمات سواء كان في مجال الصحة ، أو التربية ، أو التعليم ، وتحسين الدخل القومي وتحسين دخل الأفراد ..

هذه التعددية الاقتصادية ، وهذه التنمية الشاملة حققت لسورية مجالات واسعة في بناء الاقتصاد الوطني ، وتحسين هذا الاقتصاد من الهزات ، أو المفاجآت التي تتعرض لها العديد من الدول ، خاصة أن سورية تتحمل نيابة عن أشقائها العرب جزءا كبيرا في الدفاع عن مصالح الأمة العربية ، وفي تحمل مسئوليات استثنائية من خلال الصراع العربي الاسرائيلي ، حيث أنها في الوقت الذي تبني فيه بيد دفاعا للحفاظ عن الوطن فإنها باليد الأخرى تنمي هذا الوطن ، وتحقق التنمية الشاملة ، وتحقق التقدم ، والعدالة أيضا

السياسة التعليمية والخدمية

من يحصى مثلا عدد المدارس في سورية من ابتدائية ، وإعدادية ، وثانوية قبل قيام الحركة التصحيحية ، وبعد قيامها يجد أنه لا توجد مزرعة صغيرة إلا ويوجد فيها مدرسة ، ولا توجد قرية تعدادها عشرة أو خمسة عشر ألف مواطن إلا ونجد فيها الاعدادي والثانوي .. نجد أيضا المستوصف ، نجد الكهرباء ، والمراكز الثقافية ، والطرق المعبدة .

إذا أخذنا العلم والثقافة نجد أنه قبل عهد حافظ الأسد كانت هناك جامعتان تضمnan إمكانات محدودة ، وكان عدد الطلاب في الجامعتين (جامعة دمشق وجامعة حلب) لا يتعدى ٢٥ ألف طالب .. الآن توجد أربع جامعات (جامعة اللاذقية ، وأخرى في حمص ، بالإضافة إلى جامعتي حلب ، ودمشق) إلى جانب ذلك هناك الكثير جدا من المعاهد المتخصصة مثل معهد البترول ، والمعاهد المتوسطة وهي بالعشرات ، وهناك أيضا عشرات المعاهد المتوسطة تتبع وزارة الصناعة حيث يدرس الطالب سنتين بعد الثانوية

■ الفصل الرابع

العامة للتخصص ولكي يعد نفسه للعمل في وزارة الصناعة ، وهناك معاهد تتبع وزارة السياحة كالفندقة والسياحة .

وهناك أكثر من عشرين معهدا متوسطا تعليميا يتبع وزارة التعليم العالي ، وهناك معاهد تتبع وزارة التربية لتخريج معلمين ، وهناك مراكز ثقافية تابعة لوزارة الثقافة ، وموجودة في كل مركز ، أو ناحية يتجاوز عدد سكانه خمسة آلاف ، وهناك المراكز الثقافية ، والمكتبات ، وهي موجودة ومتاحة .

والتعليم مجاني من الابتدائي ، وحتى الجامعة ، وهناك أيضا ايفاد بالآلاف من المتفوقين الى الدول الأجنبية للحصول على التخصصات غير الموجودة في سورية .. نسبة الأمية تقلصت كثيرا في البلاد وأصبح أكثر من ٧٠٪ من الشعب السوري يتعلم ضمن المدارس لأن التعليم الزامي ، ونسبة الأمية في تضاعف مستمر لأن هناك فصولا ترعاها وزارة التربية ، وفصولا أخرى ترعاها الوزارات المختصة في المعامل والحقول ، ولذلك فإن أعلى نسبة تعليم في الوطن العربي تراها في سورية ، وهناك الوضع الصحي حيث تتكفل الدولة بالعلاج ، وفي كل محافظة هناك المستشفيات الحكومية التي تصرف الدواء ، والعمل الجراحي للمواطن ، وفي كل قرية هناك مركز صحة .

إذا أخذنا شبكات الطرق لا توجد في سورية قرية يزيد عدد سكانها على ٢٠٠ أو ٣٠٠ شخص إلا ويوجد بها طرق وشبكات طرق بين المحافظات هي (أوتوسترادات) تتوافر فيها كل المواصفات الدولية والكهرباء منتشرة في الريف والمدينة على السواء .

وفي عهد الرئيس حافظ الأسد تطور استهلاك الكهرباء تطورا كبيرا جدا ، وأصبح هناك وحدات كبيرة جدا لتوليد الكهرباء ، بالإضافة الى سد الفرات الذي يمدّها بكهرباء تصل إلى ثمانية وحدات ، وفي سورية نهضة لا تعتمد على الجهود الحكومية فحسب وإنما أيضا على الجهود الذاتية ، وأي باحث اقتصادي يرى أن سورية بلد من بلاد العالم الثالث التي تعد نسبة المديونية فيها متدنية جدا قياسا على دورها الدفاعي ، وواجباتها التي تقوم بها في خدمة المجتمع ، وتقدر هذه النسبة إذا قيسست بدول أخرى أقل مديونية ، وأقل في عدد السكان ، سواء كانت هذه الدولة عربية ، أو أفريقية ، أو آسيوية ، أو في أمريكا اللاتينية ، كذلك فقد تجلت الوحدة الوطنية بعد الحركة التصحيحية في أروع صورها في عهد الرئيس حافظ الأسد بحيث أنه في كل قرية مجلس محلي ، وفي كل قرية تمثيل للفلاحين إذا كانت هناك قرى تعتمد على الزراعة أو التعاونيات ، وهناك مجالس في كل حي وفي كل قرية وفي كل مدينة منتخبة انتخابا شعبيا ..

الشيء المهم من هذا كله أن سورية أصبحت وفي عهد الرئيس حافظ الأسد قوة اقليمية .. في الماضي لم يكن لسورية دور يذكر في الشرق الاوسط ، بعد الحركة

■ حركة التصحيح ■

التصحيحية استطاع حافظ الأسد بحكمته وقيادته التاريخية أن يجعل من بلاده إحدى الدول الاقليمية البارزة سياسيا ، واقتصاديا في منطقة الشرق الأوسط .

من المؤكد ان بصمات الحركة التصحيحية في كافة المجالات لا يمكن حصرها ، يكفي أن نقول أن كل المدن أعيد تنظيمها بشكل يحقق أروع صور المواءمة بين الأصالة ، والمعاصرة ، ويكفي أن نقول أن مدنا كثيرة مثل مدينة الثورة على سد الفرات لم تكن موجودة ، ووجدت بعد الحركة التصحيحية وأن بيوت القرى تجددت ، وأصبحت بيوتا صحية ، بكل المواصفات ، بيوتا لا تخاضم التطورات الحديثة .

والانسان السوري أصبح مستواه الصحي والتعليمي جيلا بالقياس الى العديد من الدول النامية ، نتيجة تطور الخدمات وامتدادها الى مختلف المناطق. وهذا له انعكاساته الايجابية على عملية التنمية بصورة عامة لأن الانسان الصحيح البنية قادر على الانتاج والعطاء بصورة افضل ، والانسان المسلح بالعلم وتقنيات العصر قادر على رفع قيمة الانتاج ومضاعفته وابتكار الاساليب الافضل في تطوير العملية الانتاجية .

باختصار فإن الجميع سواء كانت الدولة ، أو المواطنون يشاركون في عملية التنمية الشاملة ، إن قانون الاستثمار الأخير فتح الباب واسعا أمام الراسمال السوري والعربي للمشاركة في التنمية الاقتصادية ، وهذا القانون يبشر بأن المليارات سوف توظف في خدمة التنمية ، ولا نقول العشرات ، بل المئات من المشاريع ستقام في سورية ، وتلك فرصة لتشغيل اليد العاملة ، والحد من البطالة التي تتعرض لها العديد من الدول ، ولو تجول المرء في الأسواق السورية ، وتابع ما تنشره ، وتذيعه وسائل الاعلام حول المنشآت الاقتصادية ، والمنتجات التي يعلن عنها في سورية لأحس الى أى مدى تطورت سورية في هذا المجال .

الوضع الاقتصادي تطور بشكل ملموس والليرة السورية تتمتع برصيد من الثقة لبغدها عن الاهتزازات ، وكل الحاجات التي يرغب فيها المواطن تعرض في السوق ، والخط البياني الاقتصادي في تقدم مستمر .

ملامح واتجاهات أساسية

السياسة الاقتصادية الناجحة هي التي لا تبتعد عن أرض الواقع حتى لا تكون خيالية ، وحتى لا تنجم الكوارث ، والأزمات الاقتصادية المعروفة ، ولدى حزب البعث ايمان ، واصرار على أن الديمقراطية الحقيقية ، وفكرة العدالة يجب أن تتحقق ، وبشكل سليم .. فيما يتعلق بهذا الشعار وجد الحزب انه ورث شركات كان يمتلكها رأسماليون في السابق ، وخلال مرحلة التأميم التي تمت في عهد الوحدة بين سورية ومصر ، وبعد ثورة

■ الفصل الرابع

الثامن من آذار/مارس وبالنسبة للشركات التي تركها اصحابها أممت وكان وضعها حتى عند التأمين غير سليم ، أى عليها ديون كبيرة للمصارف والدولة .. وعندما أممت هذه الشركات أصبحت تشكل قاعدة القطاع العام وكانت قيمة الاستثمارات في الصناعة لا تتجاوز عند التأمين ١٢٥ مليون ليرة سورية ، ولو أخذنا بسعر الدولار الموجود في عام ١٩٦٢ وما بعد ١٩٦٥ فإن هذه المصانع المؤممة لم تكن تشكل أكثر من أربعين مليون دولار أو خمسين مليون دولار في القيمة الثابتة لليرة السورية آنذاك .

وإذا نظرنا الآن الى قيمة القطاع العام في سورية بعد الحركة التصحيحية سنجد انها بعشرات المليارات من الدولارات ، والقطاع الخاص في أى بلد لا يستطيع أن يعبى مدخرات تمكنه من قيادة النمو فيها .. وفي سورية الآن مصفانان لتكرير البترول ، واحدة طاقاتها التكريرية خمسة ملايين طن ، والثانية ستة ملايين طن ، أى ان تكلفتها الآن ملايين الدولارات .. وكيف يستطيع القطاع الخاص السوري أن يصنع مؤسسات تكرير؟ بالطبع لا يستطيع ، معامل السماد الأزوتى تُكَلِّف مئات الملايين من الدولارات ، ولا يستطيع القطاع الخاص تمويلها ، ولا تستطيع مدخراته ان تؤسس لقيام صناعة مثل هذه الصناعات ، وكذلك الحال بالنسبة لمعامل مثل السوبر فوسفات والورق ، والحديد ، والصلب .

القطاع الخاص لا يستطيع أن يعبى مدخراته لكى ينهض بمثل هذه الصناعات سواء كانت صناعات أساسية أو صناعات تحويلية كبيرة ، وهو دائما يحجم عن الدخول في صناعات مثل اقامة الطرق ، أو الخطوط الحديدية ، ولا مناص من أن تقوم الدولة بهذه المشاريع لكى تستطيع أن تختصر الزمن ، وهذا الأمر ليس مقصورا على سورية ، بل هو موجود في بريطانيا وفي الولايات المتحدة .. الخ .

الرأسمالية في معناها المجرد انتهت بعد الكساد العظيم في عام ١٩٣٣ ، وظهور نظرية (كينز) التى تعطى الدولة حق التدخل في الاقتصاد ، وفرانكلين روزفلت في فترة ما بعد الكساد لجأ الى التدخل الحكومى الكبير لمواجهة الكساد ولبناء الاقتصاد الأمريكى ، وفي بريطانيا سواء في حكومات حزب العمال ، أو حزب المحافظين كانت الصورة مشابهة لتأمين قيام جميع الصناعات البريطانية ، وفي فرنسا يوجد قطاع عام كبير يمتلك الكثير من المؤسسات الاقتصادية الكبيرة .. القطاع العام اذن ليس وقفا على الدول الشيوعية ، وسورية بعد الحركة التصحيحية لم تقف عند حدود القطاع العام الذى أمم في فترات التأمين لأسباب سياسية ، وانما أقامت قطاعا عاما قويا يشكل عمودا أساسيا للنهوض الاقتصادى من خلال انشاء البنية التحتية ، حيث أقامت شبكات الطرق وشبكات الكهرباء ومؤسسات للتعليم ، ومؤسسات للصحة ، وأنفقت عليها مليارات الدولارات ، وعندما وقفت لتتأمل مسيرتها وجدت ان هناك بعض الصناعات الاستهلاكية

■ حركة التصنيع ■

لصناعة الأحذية ، أو الصناعات الغذائية يمكن أن ينهض بها القطاع الخاص بصورة أفضل فأفسحت المجال للقطاع الخاص للدخول في هذه المجالات ، وأقام القطاع الخاص صناعات اعتمدت على الموارد الأولية الموجودة داخل القطر .

ثم انتقلت بعد ذلك الى مجال آخر وهو قطاع الزراعة .. وجدت أن الفلاح يتمسك بأرضه وينتج ، فتركت القطاع الزراعي خاصا ٩٧٪ ولم تتدخل الدولة إلا بوحداث ارشادية نموذجية لكي يتعلم الفلاح كيف ينجح في استعمال البذور المحسنة مثلا ، وكيف يزيد محصوله اذا لجأ الى مكافحة الآفات ، وكيف يزيد ثروته الحيوانية اذا استعمل التلقيح ، واعتمد على الصحة البيطرية .. الى آخر هذه الأمور ، وهكذا ترك القطاع الزراعي والصناعات المتعلقة به للقطاع الخاص بنسبة كبيرة. ثم وجدت سورية في ظل الحركة التصحيحية انه لابد من تضامن جهود الدولة لحماية القطاع الخاص من المحتالين أو شركات الاموال التي تدعى انها تحاول أن تستزيد من استثمارات الناس ، لأن الفرد الذي يدعى انه يستثمر أموال الناس اذا لم توجد عليه رقابة الحكومة قد يطيح باستثمارات صغار المستثمرين ، وقد يتسبب في افلاسهم . ولذلك وحتى تعطى الثقة للفرد المدخر صدرت القوانين التي تتيح للدولة أن تكون مساهمة في شركات القطاع الخاص بنسبة ٢٥٪ ، ولذلك أيضا أنشأت قطاعا مختلطا بدأ في قطاع السياحة والفنادق حيث تملك الدولة نسبة ٢٥٪ والقطاع الخاص ٧٥٪ ، وقدمت التسهيلات ، والاعفاءات الضريبية ، وما الى ذلك .

ثم وجهت اهتماما كبيرا لاستصلاح الاراضي الزراعية من خلال استخدام الآلات الزراعية ، وأقامت ندوات كثيرة ، وأعطت الاراضي للشركات الزراعية الاستثمارية واعتبرت الأرض جزءا من رأس المال الخاص الذي تساهم به الدولة ، وقدمت التسهيلات ، ولدى سورية شركات عديدة للاستثمار الزراعي .. تزرع الحاصل .. وتربي الحيوانات ، وكل ما يمكن أن يخدم الاقتصاد السوري ، ثم تطورت أكثر ، فأصدرت قانون الاستثمار رقم ١٠ الذي أعطى للمستثمر العربي والسوري امكانيات كبيرة للاستثمار حيث أعفته من الضرائب لمدة قد تصل الى سبع سنوات لا تحصل خلالها أية ضرائب على الاطلاق ، كما أعففت جميع وسائل الاستثمار التي تستخدم في المشاريع الاقتصادية من الرسوم الجمركية ، وتكفلت الدولة بكل ما تحتاج اليها المشاريع الاستثمارية من كهرباء ، وماء ، وطرق ، كل هذه تتحملها الدولة ، ويشمل الاستثمار صناعات ، وخدمات ، وسياحة .

اذن التعددية الاقتصادية التي وجه بها الرئيس الأسد صيغة تتناسب مع الواقع الذي تعيشه سورية ، ويعيش فيه اقتصاد الدولة ، ومن جهة ثانية وضعت القوانين السورية الضمانات التي تلزم المشروع بأن يحقق كفاية انتاجية عالية ، ويحقق ربحا

■ الفصل الرابع

حقيقيا لا سوريا ، أو هميا ، وقالت : إن الدولار يحسب بقيمته الحقيقية حتى لا تكون الأرباح وهمية ، وشجعت على التنافس حتى يكون المجال متاحا للمستهلك للمفاضلة ، واختيار السلع الأفضل ، وزيادة مجالات التصدير ، وتحاول سورية دائما أن تصلح من سلبيات العمل ، وتشرك ما أمكن معها في هذا المجال غرف التجارة والصناعة ، لأنها الغرف الأكثر خبرة ، والتعاون وثيق بين كافة أجهزة الدولة سواء كانت أجهزة استيراد ، أو تصدير ، أو بنوك ، أو جمارك حتى يمكن الوصول الى الغاية المثلى .

ودائما يشير الرئيس الأسد الى ضرورة المراجعة للقضاء على كل سلبيات أو أخطاء تبرز خلال العمل ، ولكي تتطور التجربة نحو الأفضل .

بالاضافة الى ذلك فإن في سورية شركات عربية مشتركة ، وهناك شركات أيضا أنشأتها المنظمات المتخصصة المنبثقة عن الجامعة العربية ، وهناك مشاريع مشتركة كثيرة بين سورية ومصر وليبيا منذ قيام اتحاد الجمهوريات العربية (المصرف التجارى العربى - شركة النقل البرى) وهناك أيضا شركات أردنية سورية مشتركة .

ومن المؤكد أن حسن إدارة ، وقيادة ، وحكمة الرئيس الأسد جنبت سورية الكثير من المشاكل الاقتصادية ، وكان شعار الرئيس الأسد دائما هو الاعتماد على الذات ، ونتيجة لتطبيق هذا الشعار لم تلجأ سورية الى القروض الكبيرة التي كان يمكن أن يشكل تسليدها عبئا على الاقتصاد القومى على الرغم من أن سورية دولة مواجهة تخصص جزءا كبيرا من مواردها للدفاع ، لأنها دولة مهددة بالعدوان الدائم من جانب اسرائيل ، ولكن الرئيس حافظ الأسد حينما اختط لنفسه سياسة وطنية قومية ، كان يستلهم ما لدى شعبه ، وما لدى أمته من طاقات ، وامكانيات ، بمعنى ان القطر العربى السورى بحيوية شعبه ، وبإيمانه برسالته ، وبإيمانه بقائده فجّر امكانيات للاصرار على التحدى ، والبقاء ، مما جعل هذا الشعب الصغير يصمد أمام تحديات لم يواجهها شعب مثله في التاريخ .

يكفى أن نشير الى منذ عام ١٩٦٧ تعرضت سورية الى عدد من الحروب واستطاعت في عام ١٩٧٣ أن تخوض حربا تحريرية بعد سنوات قليلة من العدوان الاسرائيلى وأن تبني جيشا حديثا ، وشعبا يقف في جبهة متراصة وراء جيشه الوطنى ، وأن يحقق ما حققه من انجازات بالتنسيق ، والتعاون المشترك مع مصر في عام ١٩٧٣ .

وبعد وقف اطلاق النار في عام ١٩٧٣ ظلت سورية تقود بكل البسالة وعلى امتداد أربعة اشهر كاملة حرب استنزاف ضارية تحملتها حتى تم توقيع اتفاقية فصل القوات على الجبهة السورية عام ١٩٧٤ ، وفي عام ١٩٧٦ قامت الحرب الاهلية في لبنان حيث وجدت سورية نفسها مدفوعة بالاخاء العربى ، وبما طلبه أشقاؤها في لبنان رئيسا ، وحكومة ،

■ حركة التصحيح ■

وشعبا ، وكذلك اشقاؤها العرب من خلال جامعة الدول العربية أن تضع جزءا كبيرا من جيشها تحت تصرف لبنان الشقيق ، وما زالت هذه القوى موجودة هناك حتى الآن ، وقد تكلفت سورية الكثير من أجل الحفاظ على عروبة لبنان ، ووحدة أراضيها ، ودرء الخطر عنه . وفي عام ١٩٨٢ خاضت سورية حربا حقيقية ضد اسرائيل في لبنان وقدمت تضحيات كبيرة للحفاظ على وحدة لبنان أرضا وشعبا ومؤسسات . ومع ذلك استطاع هذا القطر بقيادته الحكيمة أن يصمد في وجه التحدي ، وأن يصمد أيضا في الحرب الداخلية التي بلغت ذروة تأمرها في بداية الثمانينات ، واستمرت منذ بداية ١٩٧٦ حتى عام ١٩٨٢ ، وكلفت سورية الكثير ، ورغم ذلك صمدت سورية بقوة بقيادة الأسد كذلك فان سورية تعرضت للحصار الاقتصادي .. تعرضت للمقاطعة .. بل تعرضت لرفض الدول اعطائها القروض ، أو التسهيلات الائتمانية ، ومع ذلك فإن عظمة الشعب السوري ، وعظمة القائد مكنت من الانتصار على التحدي الاقتصادي بالدرجة نفسها التي تمكنت بها من الانتصار على التحدي السياسي .

وتظل الحاجة ماسة الى ضرورة دراسة خصوصية العلاقة القائمة بين الحاكم ، والمحكوم في سورية ، وكيف استطاع الرئيس الأسد أن يجعل من سورية ذات الامكانيات المحدودة دولة اقليمية يحسب لها حساب ، ويكون لها وجود اقتصادي ، ووجود سياسي ، وحضاري ، فضلا عن وجودها الأمني في المنطقة .

أبعاد مرحلة الانفتاح

عندما نتساءل عن أبعاد المرحلة الراهنة التي يمر بها الاقتصاد السوري الآن نستطيع القول بأنه من خلال التعددية الاقتصادية ، ومن خلال القانون أصبح لكل قطاع من هذه القطاعات نصيبه في التنمية دون افتئات ، أو تجاوز ، أو محاولة التضيق على قطاع من هذه القطاعات ، فالقطاع العام في المسائل الاستراتيجية التي تهم كل مواطن ، سواء في مجال الانتاج ، أو في مجال الخدمات .. والدولة تتحمل نصيبها في هذا الاتجاه لصالح المواطن ، ولصالح هذا الخط سواء كان بالنسبة للمسائل الأساسية التي تهم المجتمع ، والبلد من جهة ، وتهم المواطن ، والشرائح الاجتماعية من جهة أخرى .. في القطاع العام يأخذون نصيبهم من الرعاية ، ومن إيجاد الفرص ، ومن اقامة المشروعات التي لا يُقبل عليها القطاع الخاص الذي يميل أحيانا للربح السريع .

في القطاع العام ينظرون الى مصلحة الوطن ، والمجتمع ، والمواطن ، فتتحمل الدولة نصيبها في اقامة المنشآت الاقتصادية الصناعية والخدمية ذات الصلة الاستراتيجية ، في

■ الفصل الرابع

الوقت نفسه فإن القطاع الخاص يأخذ نصيبه كاملا في العمل ، وفي حماية القانون ، وبدون تعارض بين القطاعين العام ، والخاص ، أو القطاع المشترك الذى يقوم بمشاريع اقتصادية كبيرة وواسعة سواء في الزراعة بفروعها المختلفة ، أو في مجال الثروة الحيوانية ، والنقل ، والسياحة . والقطاع الخاص يأخذ نصيبه في العمل ، واقامة المنشآت الاقتصادية ، أو الخدمية الى جانب القطاع العام ، والقطاع المشترك ، ونجد الآن أن القطاع العام يتعامل مع الزراعة ، وأيضا القطاع الخاص ، والقطاع المشترك يتعامل مع النقل كما يتعامل معه القطاع الخاص ، وهكذا في السياحة ، وفي كل مرافق الحياة العامة ، والخدمة العامة يساهم أيضا القطاع التعاوني في مجالات النقل والاسكان كما يساهم القطاع العام في مجالات السكن ..

إذن فإن كل القطاعات تساهم في التنمية الاقتصادية ، وتجد جميعها من الدولة التسهيلات الكاملة كى تصل هذه القطاعات الى أهدافها ، وفي حدود السعر المعقول ، وقد أدت هذه المنافسة بين هذه القطاعات الى تحسين الانتاج ، وتحسين النوعية ، وتخفيض الاسعار لأن كل قطاع من هذه القطاعات يريد تصريف منتجاته ، وتصريف هذه المنتجات يحتاج الى نوعية جيدة ، ويحتاج الى سعر ملائم . ولودققنا النظر في الاسعار في سورية ، وفي البلاد المجاورة لوجدنا ان هناك فارقا كبيرا في الاسعار لصالح المواطن ، وربما أحيانا تتميز النوعية السورية حيث نجد في بلدان مجاورة أكثر سعرا ، وأقل جودة ، هذه السياسة التى سارت عليها سورية منطلقا من الفكر السياسى ، والاقتصادى للرئيس حافظ الأسد حققت النتائج المرجوة لخير البلد ، والشعب .

الهزات الاقتصادية

الشيء المبهر في تجربة سياسة التعددية الاقتصادية أن سورية لم تتعرض لهزات اقتصادية بالرغم من حالة الحرب التى تعيش فيها ، وهذا يعود إلى قوة الاقتصاد السوري بالدرجة الاولى ، ويعود أيضا إلى تعدد الموارد الطبيعية ، ويعود كذلك إلى وجود اقتصاد قومى قوى ، وتعدد الموارد الطبيعية لأن سورية في مسارها الاقتصادى تنطلق من فكر سياسى واضح ، ومتميز ، أرسى دعائمه الرئيس الأسد ، وهذا الفكر أيضا عبر عن سياسة اقتصادية واضحة في هذا الاتجاه ، أى أن سورية تسير لتحقيق التنمية الشاملة ، وتحقيق عدالة التوزيع تحقيقا للعدل الاجتماعى ، وحفاظا على توازن المجتمع في ظل مناخات من الحرية والديمقراطية .

وهذه التجربة السورية تجربة متميزة استطاع فيها الرئيس حافظ الأسد أن يخلق توازنا رائعا بين السعى لتأمين لقمة العيش ، ومناخ الحرية ، والديمقراطية ، والتنمية الشاملة ، وقوة العمل في المجتمع في توازن لا يؤدي إلى اشتتات، جانب على

■ حركة التصحيح ■

جانب آخر، كل هذا مكن من أن تتحقق التجربة بوضوح فلم تخفق الحرية ، والديمقراطية تحت شعار تأمين العيش ، ولم يعط الضمان للحرية ، والديمقراطية على حساب رغيف العيش ، وكرامة عيش المواطن .

هذا التوازن الرائع الذى حافظ على التقدم من جهة ، وعلى توازن المجتمع من جهة أخرى فى ظل الحرية ، والديمقراطية ، وفى ظل نسج متكامل هو الذى مكن سورية من أن تحقق تقدما اقتصاديا ، وايضا ثباتا إقتصاديا لم يعرض الاقتصاد السوري ، او العملة السورية للاهتزاز ، وللاختناقات التى تعرضت لها دول كثيرة .

المسافة بين فئات المجتمع متقاربة فى سورية . بين من لديه ثروة ، ومن ليست لديه ثروة ، كل منهما يستطيع العيش فى سورية . ويجد الفرصة متاحة للعمل ، ولتحقيق العيش الكريم ، وفى الحدود المعقولة ، سواء كان عاملا يدويا أو غير يدوى .. المسائل الاستراتيجية تناولها القطاع العام لأنه لا يُقبل عليها القطاع الخاص مثل مصانع الحديد ، والصلب : والتى لا يمكن لغير الدولة أن تفكر فى إقامة مثل هذه المصانع ، ولأن فى القطاع الخاص ، أو المشترك يُؤثرون إقامة المشاريع الشريفة ، وغالبا الاستهلاكية .

حقيقة أن القطاع الخاص يحقق تقدماً ماديا للمجتمع ، ويؤدى خدمات ضرورية ، ولكنه فى المقابل يحقق ربحا ، أما المسائل الاستراتيجية ، أو المسائل المفصلية فى حياة المجتمع لا يمكن أن يتولاها إلا القطاع العام ، ولكن الموضوع ليس على إطلاقه ، القطاع العام فى سورية كما فى كل البلاد التى أخذت بالتوجه الاشتراكي يتعرض أحيانا لبعض السلبيات كأن تصبح حسابات التكلفة فى أى مصنع غير متوازنة بسبب وجود عدد كبير من العمال فى هذه المنشآت الاقتصادية ، وفى الوقت الذى تؤكد فيه سورية على ضرورة الحفاظ على دور القطاع العام وأهمية هذا القطاع إلا أنها باستمرار تسعى إلى تحسينه ، وإدخاله ضمن المفاهيم العلمية ، والعصرية للإقتصاد ، وتحفظ له توازنه .

القطاع الخاص كما ذكرنا من خلال تحسين إنتاجه ، ونوعية هذا الإنتاج ، والقطاع العام ، والقطاع المشترك حققوا نوعا من المزاومة أدى إلى إستقرار السعر ، وتحسين نوعية الإنتاج وكثيرا ما أشارت ندوات دولية كتلك الندوة التى أقيمت فى القاهرة حول (الجنوب إلى أين .. سياسيا واقتصاديا) ، وهى الندوة التى شارك فيها ممثلون عن دول الشمال ، تكررت الإشارة إلى أهمية التجربة السياسية ، والاقتصادية السورية فى دول العالم الثالث ، وفى دول الجنوب ، وكيف إنها تجربة جديرة بالدراسة خاصة بعد التحولات الكبيرة التى يشهدها العالم الآن ، والتى كانت لها انعكاساتها على تجارب كثيرة خاصة بعد الإنهيار الذى حدث فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى ، وفى دول أوروبا الشرقية ، فى سورية يسود التكامل بين القطاعات الاقتصادية ، والإنعكاسات

■ الفصل الرابع

الاجتماعية ، وتفاعل قوى المجتمع سواء كان في دائرة ما يسمى باليمين ، أو اليسار ، هذا التفاعل السياسى ، والاجتماعى الذى تشهده سورية بين هذه القوى يعبر عن تحالف حقيقى بين الشعب العامل ، والمنتج ، والذى ينعكس خيرا ، وبناء على صالح المجتمع العربى ، والسورى في جوانبه السياسية ، والاقتصادية ، والتنمية الشاملة .

التجربة السورية نجحت أيضا إلى جانب هذا في الاستفادة من القطاع المغترب
في دعم الاقتصاد السورى ، والمغتربون السوريون عددهم بمئات الآلاف ، والمغتربون حققوا نجاحات إقتصادية في وطنهم الثانى ، والعديد منهم مغتربون في عواصم عربية وعواصم عالمية ، واستطاعوا أن يحققوا من خلال مشاريعهم ثروات هائلة يمكن أن تفيد وطنهم الاصلى ، وتحقيقا لهذا الهدف صدر في سورية ، وبتوجيه من الرئيس الأسد قانونا للمغتربين يسهل لهم العودة إلى بلادهم ، والاستفادة من ثرواتهم التى حققوها هناك لكى يوظفوها في وطنهم الأم ، ولكى يحولوا أموالهم إلى البلد ، وهناك إغراءات كثيرة نص عليها القانون خاصة بالمغتربين ساعدت في جذبهم سواء كانت تتعلق بالآليات الزراعية ، أو وسائل النقل ... إلخ .

وبتوجيه من الرئيس حافظ الأسد فإن الباب مفتوح لهؤلاء المغتربين لأن يعودوا إلى بلادهم ، ويساهموا في تنميته ويعززوا اقتصاد بلادهم ، والقانون السورى يحمى ثروة هؤلاء ، ويحقق الضمانات التى تجعل كل مغترب مطمئنا إلى أن ثمار الجهد الذى بذله لن يضيع . والواقع أن المغتربين السوريين سواء في الولايات المتحدة أو دول أوروبا أو استراليا ، أو أمريكا اللاتينية ، أو آسيا ، أو غيرها .. حققوا نجاحات مبهرة في هذه البلدان ، بل أن بعضهم يشغل وظائف رسمية جيدة ومنهم الوزير ، ومنهم المحافظ ، ومنهم مدير البنك ، ومنهم النائب ، ومنهم أصحاب منشآت اقتصادية ناجحة ، والقانون الذى وضع بعد الحركة التصحيحية يرحب بكل هؤلاء ، وقد عاد بالفعل عدد كبير منهم ليساهموا في تنمية بلادهم مستفيدين من القوانين الجديدة التى يسرت لهم العودة ، ويسرت لهم المساهمة في تنمية اقتصاد المجتمع السورى .

مستقبل الاقتصاد السورى

خلاصة القول أن الاقتصاد السورى يتطور بثقة على أسس علمية بعيدا عن العشوائية ، وفي إطار تخطيط ، وبرمجة ، ومبادرة فردية ، أى أن هذا الاقتصاد يجمع بين الامرين في سورية .. الاقتصاد المبرمج للمسائل الاستراتيجية التى تهم المجتمع ، ويعطى للمبادرة الفردية حقا في أن تسهم في التنمية الاقتصادية لأنه في ظل القانون الذى يحمى القطاع الخاص ، والقطاع العام ، أو القطاع التعاونى ، لكل قطاع نصيبه في تأسيس الاقتصاد السورى ، ولدى سورية في هذا المجال خبرات اقتصادية جيدة ،

■ حركة التصحيح ■

ونوعيات علمية متخصصة تتحمل مسئولياتها في اللجان الاقتصادية في ظل القرار السياسي الموضوعي القائم على فكر استراتيجي ، وشمولي للرئيس حافظ الأسد بالتعددية السياسية ، والاقتصادية ، وفي ظل مساهمة كافة القوى السياسية ، والشرائح الاجتماعية لأن تقول رأيها في مسيرتها الاقتصادية لأن في تداول الآراء ومناقشتها ، ومشاركة الجميع في البناء تحقيق التقدم ، والاستقرار المنشود ، وتجنب المفاجآت التي تتعرض لها بعض البلدان نتيجة عدم وجود سياسة اقتصادية مدروسة ، ومعروفة سلفاً .

الزيادة الهائلة في السكان

سورية كغيرها من الدول التي تعاني من الزيادة الهائلة في عدد السكان ، والواقع أنه بعد أن تحسنت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، والصحية في أعقاب الحركة التصحيحية ، وما تقدمه الدولة من رعاية كبيرة في مجالات العلم ، والصحة ، والخدمات قلّت إلى حد كبير نسبة الوفيات ، ولكن بالمقابل ازدادت نسبة الانجاب ، وتكاد الآن نسبة الزيادة في سورية أن تكون من النسب العالية في العالم ، ومما لاشك فيه أن هذه الزيادة تلتهم الكثير من دخل سورية ، ومن النمو الاقتصادي ، وهذه المسألة بدورها تلقى الآن العناية المطلوبة بهدف الحد من التضخم السكاني لأنه من المتصور أنه إذا استمرت هذه الزيادة ، فسوف يصبح عدد السكان عام ٢٠٠٣ ، ٢٠ مليون نسمة وهذا رقم كبير ، وهناك من يقترح من الخبراء أن حل الزيادة السكانية في الوطن العربي إنما يكمن في تحقيق المزيد من التعاون بين الدول العربية ذات الكثافة السكانية والدول العربية ذات الكثافة في الموارد وذات المساحات الكبيرة ، وعدد السكان الأقل ، أي أن قضية الوحدة العربية تشكل حلاً ضرورياً ، وقومياً مناسباً لهذه المشكلة التي تعاني منها كثير من الدول العربية .

الاقتصاد السوري يمر الآن في مرحلة انفتاح على طريق التنمية يعتمد كما قلنا إلى حد كبير على القطاع الخاص ، وإعطائه دوراً أكبر في عملية التنمية دون أن ينسى الدور الأساسي للقطاع العام في هذه العملية .

ويقول الدكتور نبيل سكر الاقتصادي السوري المعروف ، والذي ظل مغترباً في الخارج لفترة طويلة ، وعاد منذ سنوات لممارس النشاط الاقتصادي ، وتقديم خبرته للمستثمرين : إن التنافس المبدع بين القطاع العام ، والخاص ، والمشارك سوف تكون له نتائج في المستقبل القريب مادامت هذه القطاعات تعطى نفس الحوافز ونفس الامتيازات ، وتعامل معاملة واحدة ، ومادام يوجد دور لهذه القطاعات الثلاثة ضمن إطار عملية التنمية .

■ الفصل الرابع

ويضيف أن الاقتصاد السوري يسير من حسن إلى أحسن ، لأن الاقتصاد السوري اقتصاد متين لتنوع موارده الطبيعية ، وعدم الاعتماد على قطاع أو مصدر واحد (فلدينا النفط ، ولدينا الزراعة ، والصناعة ، والموارد الكثيرة ، وهذا يساعد على تحقيق التنمية المتوازنة) وهذا هو السبب لعدم تعرضنا لهزات اقتصادية حادة .. صحيح إننا نوجه جزءا من مواردها نحو الدفاع ، وهذا أمر واجب لحماية الوطن من العدو الخارجي ، ولكن بالرغم من هذا الصعب فإن الاقتصاد السوري اقتصاد مخطط ، والسياسات الاقتصادية التي اتبعناها خلال السنوات الماضية استطاعت أن تجنب سورية الهزات الاقتصادية العنيفة .. التخطيط الاقتصادي الذي تسير عليه سورية الآن يبتعد عن التخطيط المركزي ويتجه الى التخطيط التوجيهي ، وهو يعطى دورا كبيرا للقطاع الخاص في التنمية وتدعيم القطاع العام ، وإصلاح بعض سلبياته حتى يستطيع أن يقوم بدوره في التنمية ، ولكي يكون قطاعا رابحا بمعنى أن يعتمد على أساس الربح أيضا ، وأن يعمل في جوتنافسي ، وألا يعتمد على الدولة في كل شيء ، باختصار الجهود تتجه لكي يكون القطاع العام سليما معافا ويعمل على أساس الربح ، والمنافسة ، وبدون أن يُكَبَّد الدولة أى خسائر ، كذلك فإن التنافس بين القطاع العام ، والقطاع الخاص ، والقطاع المشترك ، قد أدى إلى نتائج إيجابية كثيرة .

ويضيف الدكتور نبيل سكر : الباب الآن أصبح مفتوحا للقطاع الخاص لكي يعمل في كافة المجالات في السياحة ، والزراعة ، والصناعة ، والمزايا التي تعطيها الدولة للقطاع الخاص كثيرة ، وقد صدر مؤخرا قانون الاستثمار وهو القانون رقم (١٠) لسنة ١٩٩١ والذي أعطت الدولة بموجبه للقطاع الخاص المحلي ، والعربي ، والأجنبي امتيازات كثيرة منها الاستيراد دون ضرائب ، ومنها الإعفاءات الضريبية على الدخل ، وهذه الإعفاءات تتغير فيما إذا كانت الشركة قطاعا مشتركا ، أو قطاعا خاصا ، والحافز الأكبر هو أن الجو العام للاستثمار أصبح مهيأ بشكل كبير ، والوضع الاقتصادي جيد جدا ، وهذا الجو في حد ذاته حافز قوى للقطاع الخاص للاستثمار .

الدولة تشجع التصدير من قِبَل القطاع العام ، والقطاع الخاص بصورة كبيرة وتسمح للقطاعين الخاص ، والعام بالاحتفاظ بجزء كبير (٧٥ ٪) من الناتج في التصدير للاستفادة منها في مستلزمات الإنتاج ، والاقتصاد ، القطاع الخاص الآن يشغل دورا اقتصاديا أكبر ، وسورية تسير الآن نحو مزيد من التنمية في القطاعات الخدمية والاستهلاكية دون أن تنسى الدور الأساسي للقطاع العام ، وهو الدور التخطيطي في المقام الأول إلى جانب المساهمة في بناء البنية التحتية وفي مجالات الانتاجية ، وعلى أساس أن يعمل القطاع العام على أسس الربح ، والمنافسة مع القطاع الخاص ، والقطاع المشترك .

ويضيف الدكتور نبيل سكر أيضا ان القطاع المشترك في سورية بين الدولة والقطاع

■ حركة التنمية ■

الخاص ليس جديدا ، وقد بدأ تجربته في أواخر السبعينات خاصة في المجال السياحي حيث أقيمت شركتان سياحيتان كبيرتان في هذا المجال ، وكانتا ناجحتين ، وفي منتصف الثمانينات شجعت الدولة القطاع المشترك في الزراعة فأصدرت المرسوم التشريعي رقم ١٠ لعام ١٩٨٦ حيث أعطى بعض المزايا للشركات المشتركة التي تقام في مجال الزراعة ، وأقيمت فعلا شركات ناجحة تعمل بشكل جيد ، وتمثل مشاركة الدولة عادة في تملك ٢٥٪ من رأس مال المشروع ، ويمتلك القطاع الخاص (الحصة الأكبر ٧٥٪) ، ويقوم القطاع الخاص بإدارة هذه الشركات المشتركة ، وهذه هي الصيغة التي تسير عليها سورية الآن ، وقد بدأت تقام مشاريع في القطاع المشترك في الصناعة في ظل القانون رقم ١٠ لعام ١٩٩١ ، وهو قانون الاستثمار .

وبشكل عام فإن قانون الاستثمار الذي تم اصداره عام ١٩٩١ أعطى نفس الحوافز للمستثمر المحلي ، والعربي ، والأجنبي ، وشمل قطاعات الزراعة ، والصناعة ، والنقل بشكل أساسي ، ولكن يمكن أن تقام مشاريع أخرى خارج هذه القطاعات الثلاثة اذا وافق عليها المجلس الأعلى للاستثمار .

وقد أقيمت بالفعل عدة مشاريع منذ عام ١٩٩١ عند اصدار هذا القانون ، ولا زالت طلبات المشاريع تتوالى على المجلس الأعلى للاستثمار ، ومن المؤكد انه مع مزيد من التوضيح في هذا التوجه الجديد ستتضاعف المشاريع التي تقام في المجالات الزراعية ، والصناعية وستتضاعف عدد المستثمرين العرب ، والأجانب لأن الموارد في سورية كثيرة ، والجر العام مهيأ للاستثمار .

فلسفة الأسد

فلسفة الرئيس الأسد في التنمية تعطي القطاعات الثلاثة كما أشرنا دورا كبيرا في الاقتصاد ، وقد حقق الشعار الذي رفعه الرئيس حافظ الأسد شعار التعددية الاقتصادية نتائج باهرة .

والرئيس حافظ الأسد يحرص على أن يكون لكل قطاع دور في هذه العملية ، هذا منطلق أساسي من منطلقات الفلسفة الاقتصادية في الوقت الحاضر ، والتعددية الاقتصادية تعني انه يوجد أكثر من قطاع واحد له دور أساسي في الاقتصاد ، أي تعدد القطاعات المشتركة في عملية التنمية .

ولاشك ان سورية التي تضم موارد كثيرة ، ومتنوعة ، والتي لا تعتمد على مورد واحد حيث النفط ، والزراعة ، والصناعة الى جانب اليد العاملة المدربة ، ورواد الاقتصاد ، في ظل هذه الموارد والامكانيات ، وفي ظل التوجه لزيادة الانتاج ورفع سويته ومردوده سيكون

الفصل الرابع

المستقبل مشرقا، وأمولا، لكن المشكلة الأساسية التي ستواجه سورية في المستقبل هي الزيادة السكانية، فالسكان كما قلنا ينمو عددهم بنسبة ٢٥٧٪ سنويا، وهي نسبة عالية جدا، ومعنى ذلك انه يجب ان تنمو سورية اقتصاديا بسرعة، وبمعدل أعلى من معدل النمو السكاني، ولكي تتحقق هذه التنمية المرتفعة يجب تجنيد كل الطاقات لعملية التنمية، وهذا ما يشرف عليه الرئيس حافظ الأسد الآن، ويتابعه بشكل يومي الى جانب الاستفادة من القطاع المغترب، وامكانياته البشرية، والمالية للمساهمة في تحقيق معدل النمو الذي يفوق معدل النمو السكاني.

في سورية يدركون حجم التحديات الأساسية التي تواجههم في عملية التنمية، وفي عملية التطور، ويضعون الحلول التي تكفل التصدي لهذه التحديات، التي تتمثل في: ضرورة الانفتاح على القطاع الخاص واعطائه دورا أكبر في التنمية دون أن يؤدي هذا الوضع الى خلق تفاوت في الدخل، أي يقومون بتوسيع دور القطاع الخاص، ويحافظون في الوقت نفسه على اعطاء الفرص المتكافئة للجميع، وعدم ظهور مظاهر للتفاوت الكبير في الدخل، وعدم بروز الاحتكارات الكبيرة، ويحاولون قدر جهدهم توسيع قاعدة الملكية في القطاع الخاص، وعدم تركز الثروة في أيدي قليلة.

والتحدي الثاني، الذي يسيرون فيه بنجاح واضح هو القيام بعملية اصلاح القطاع العام لكي يكون قطاعا رابحا، ومنتجا، ويتم عملية نقل العمالة الفائضة الموجودة في القطاع العام نحو القطاعات المنتجة، ويوجدون لها فرص عمل منتجة.. صحيح ان هذه العملية صعبة، وصحيح انها تتطلب وقتا طويلا، ولكنها تجري في سورية بنجاح واضح، وإلى جانب عمليات الاصلاح هناك أيضا مجالات التدريب المستمرة، ومواكبة التطورات التقنية الحديثة، والملاحظ في التجربة السورية انها نجحت في منع التضخمات المالية التي تنتج عادة من الانفتاح، والخطوة السورية في اصلاح القطاع العام، ومواجهة عملية العمالة الفائضة، ومشكلة التضخم المالي أعطت القطاع العام حريته، واستقلاليته في اتخاذ القرارات، وفي العمل المريح، والمجدي، ولكن في ظل الحفاظ على حقوق الشريعة العمالية.

الاعتماد على الذات وماذا حقق؟

منذ السنوات الأولى لتوليه دفة القيادة أطلق الرئيس الأسد شعار (الاعتماد على الذات) الذي أصبح القاعدة الأساسية في صلب الخطط الخمسية التي حققت تطور الانتاج بقدر كبير في مختلف القطاعات الزراعية، والصناعية، والعمرائية، وكما يؤكد المهندس محمود الزعبي رئيس مجلس الوزراء فإن قاعدة الاعتماد على الذات حققت

■ حركة التصحيح ■

بتوجيهات الرئيس حافظ الأسد الكثير من النتائج الايجابية على مسيرة الاقتصاد الوطنى خلال السبعينات ، والثمانينات .

وأشار السيد الزعبي الى أن الحكومة السورية وضعت برنامجا للأولويات فى إطار خطة شاملة للنهوض بالانتاج الوطنى ، وخاصة فى قطاعى الصناعة ، والزراعة اللذين شهدا نهضة كبيرة فى السنوات الأخيرة .

وحدد السيد الزعبي المحطات الرئيسية فى تطور حركة الاقتصاد الوطنى على النحو التالى :

* من المهم فى هذا المجال أن أقدم صورة واقعية للوضع العام على الصعيد الاقتصادى الذى عملت الحكومة خلال الفترة الماضية على تطويره ، وعلى تجسيد مقررات مؤتمرات الحزب ، وخصوصا مقررات المؤتمر القطرى الثامن ، وعلى تنفيذ توجيهات السيد الرئيس حافظ الأسد ، ومتابعة الأهداف التى رسمتها الحكومة فى بيانها الوزارى ، وقد كان أول هدف للحكومة هو اعطاء الأولوية للزراعة ، والاستثمار الزراعى ، وجعل هذه الأولوية معززة بالوقائع التى تجعل من الزراعة العمود الفقرى للاقتصاد الوطنى .

* لقد جرى فى هذا الاتجاه حشد لجميع الطاقات ، والامكانيات العاملة فى الميدان الزراعى ، وانصب الاهتمام على توفير مستلزمات الانتاج الزراعى فى أوقاتها ، وبكمياتها المطلوبة ، وشهد عام ١٩٨٨ وعام ١٩٨٩ تركيزا على توفير هذه المستلزمات بصورة شاملة ، وكان هذا يتطلب اصدار الخطة السنوية الانتاجية بصورة مبكرة لتكون الرؤية واضحة ، والمهام محددة ، والأهداف مرسومة ، والجهود محشودة فى القطاع الزراعى ، وكان هذا أيضا يتطلب تطويرا أفضل لتمويل الفلاحين ، والمزارعين بالقروض التى تساعدهم على مضاعفة أعمالهم ، واستثمارهم .

وبمراجعة بسيطة لسقوف القروض التى قدمها المصرف الزراعى التعاونى يتبين لنا انها كانت فى عام ١٩٨٠ لا تتجاوز مبلغ ٤٥٠ مليون ليرة سورية فى حين انها أصبحت فى عام ١٩٨٨ بما يعادل أربعة مليارات ليرة سورية ، ونيفا ، وفى الوقت الحاضر سيكون هذا الرقم أكثر من ذلك .

* وهذا التطور فى التمويل المصرفى للاستثمار الزراعى يدل على المدى الذى بلغه حجم الاستثمار الزراعى ، وكان هذا يتطلب أيضا تحريك أسعار المنتجات الزراعية . فجمود السياسة السعرية كان يشكل عائقا كبيرا ، وبدأ تحريك الأسعار لزيادة دخول الفلاحين ، ولجعل الريعية الجيدة فى الزراعة مرتكزا لإعادة الانسان الى الأرض ، وتأمين حياة حرة كريمة فى الريف ، وتوفير أقصى استقرار اقتصادى ، واجتماعى .

■ الفصل الرابع

* لقد رافق هذا تنفيذ برامج زمنية لاستصلاح الأراضي ، وبناء السدود ، وشبكات الأبنية المائية وكان لابد من مواجهة سوء المواسم أحيانا نتيجة شح الأمطار بادخال مساحات جديدة في الأرواء الزراعى .

لقد ادخلنا عام ١٩٨٨ / ما بلغ ٢٤ ألف هكتار ، وفى عام ١٩٨٩ / ما بلغ ٦٠ ألف هكتار من الأراضي في الأرواء الزراعى ، وبدانا بتشجيع الاستثمارات الخاصة في الزراعة ، وتم تأسيس ١٠ شركات مشتركة زراعية ناجحة بالاضافة الى تعزيز البحث العلمى ، والارشاد الزراعى وتوفير جميع الخدمات الاساسية للريف .

* وفى اطار عملنا في القطاع الصناعى فقد أكدت الحكومة أن القطاع العام الصناعى يحتاج الى دراسة ، وإلى معالجة صعوباته ، وقد نهض القطاع العام الصناعى الرائد بمهمة التصنيع ، وأن هذا القطاع العملاق القوى يعتبر صمام الأمن الاقتصادى الذى يمتص جميع الصدمات ، وهو القوة التى تحمى اقتصادنا الوطنى من جميع الاضطرابات ، والتقلبات العالمية .

وبالفعل بدانا بعقد اجتماعات نوعية لكل مؤسسة على حدة ، وتم من خلالها معالجة مشاكلها ، وإزالة صعوباتها ، وتوفير مستلزماتها كما ألزمت كل مؤسسة بخطة ذاتية لتصدير منتجاتها ، وتأمين مستلزماتها من عائدات تصديرها لمنتجاتها من القطع الأجنبى ، وأصبحت المؤسسات الهندسية ، والنسجية ، والغذائية ، والزجاجية ، والاسمنت ، وغيرها تؤمن مستلزماتها من عائدات تصديرها .

* أن القطاع العام الصناعى انطلق قويا مؤهلا لمواجهة كل الظروف ، قادرا على اختزال الأخطاء ، وعلى المساهمة بفائض اقتصادى متزايد باستمرار ، كما أن القطاع الخاص اتسع دوره أيضا في مجال الاستثمار الصناعى الرافد للقطاع العام .

* أما عن وضع الطاقة الكهربائية فإنه تم تحويل محطات توليد الطاقة الكهربائية من العمل على الفيول الى العمل على الغاز لتخفيف كلفتها ، كما أن محطات التوليد البخارية والغازية تكفى بإنتاجها احتياجات سورية ، ولكن التقنين المحدود انما لجأت اليها الحكومة من أجل استكمال المشاريع المستقبلية وأعمال الصيانة الضرورية لهذه المحطات ، من أجل عدم الزج بالطاقة القصوى تخفيفا لكلفتها الاقتصادية ، علما بأن المشاريع الكهربائية التى ستنجز ستجعل من سورية بعد عام ١٩٩٢ دولة مصدرة للطاقة الكهربائية .

* إن أعمال المسح ، والتنقيب ، والاكتشاف ، والإنتاج في الحقول النفطية الجديدة ، وتزايد إنتاج هذه الحقول يُعزز المستقبل الجيد لسورية في هذا المجال ، وأن الشركات الأجنبية تنشر معلومات عن سورية بأنها أصبحت بلدا نفطيا هاما ، ونحن لا نحاول الاسراف في الاعلان معتمدين على الوقائع ، وأن نتحدث بنفسها عن ذاتها ، ولكن من

■ حركة التصحيح ■

المؤكد أن كميات الغاز المكتشفة تجعل سورية من أوائل البلدان المستثمرة للغاز ، ومن البلدان النفطية في المستقبل .

■ لقد انعكست السياسة الاقتصادية المتطورة في مجالات الزراعة ، والصناعة ، واستثمار النفط ، والغاز على الوضع الاقتصادي العام ، وبرزت نتائج ايجابية كبرى لها دلالاتها ، فقد أمكن في عام ١٩٨٨ وفي عام ١٩٨٩ تحقيق توازن مالى هام ، وكبير اذ غطت الإيرادات المحلية النفقات الاستثمارية ، والجارية في الموازنة العامة ، كما تم تحقيق التوازن في ميزان المدفوعات التجاري ، ورجحت كلفة الصادرات على المستوردات . وهذان المؤشران أشارا بوضوح الى التوازن المالى ، والاقتصادى العام ، وأكدوا بأن سورية حققت بالفعل الاعتماد على الذات بالاعتماد على مواردها ، وامكاناتها المحلية ، وانه بممارسة سياسة جريئة ، وموضوعية أصبح الاقتصاد الوطنى قائما على الاكتفاء الذاتى بما يعنيه هذا من استقلالية سياسية ، واقتصادية حققتها سورية لنفسها بالاعتماد على امكاناتها ، وعلى سواعد أبنائها ، وعلى جهود منتجبيها ، وعلى حسن استثمارها لمواردها ، وخيراتها .

■ لقد لاحظت خلال متابعتى لشئون المؤسسات أن الآراء المالية ، والقانونية تعتبر مدخلا إلى تنظيم علاقات العمل ، والانتاج لأن ترجمة الخطط ، ووسائل العمل التى تنظم علاقات الانتاج ترجمة مالية ، وقانونية صحيحة سوف تؤدي إلى توفير الصيغة المتكاملة من جميع الوجوه الانتاجية ، والتنظيمية ، والمالية ، والقانونية .

أن أهم مؤشر كشف لنا مدى خطواتنا السليمة التى تحققت على الصعيد الاقتصادى هو مؤشر التوازن المالى في الموازنة العامة ، لقد اعتمدنا كما ذكرت من قبل على تغطية نفقاتنا من موازناتنا المحلية ، وهذا أدى إلى جانب ايجابياته المختلفة إلى استقرار نقدى وكبح للتضخم ، نعم واجهتنا صعوبات ، ولكنها كانت ذات فائدة لأنها دفعتنا إلى المبادرة ، وإلى توفير المواد الأولية ، وتصنيع قطع تبديل ، والاستغناء عن الاستيراد ، ويمكننا أن نخطو خطوة أخرى هى اجراء تعاون بين القطاع العام ، والقطاع الخاص في تصنيع كثير من قطع التبديل ، وأجزاء الآلات ، وهذا التعاون يضع امكانات جميع أبناء الوطن في خدمة المسألة الاقتصادية ، والانتاجية ، ومن المهم أن نستفيد من كل امكانية في هذا الوطن لأن ذلك يؤدي إلى الزج بجميع الطاقات ، والمواهب في عملية البناء الاقتصادي والانتاج .

■ إن النتائج المثمرة التى يحققها الاقتصاد الوطنى تنعكس خيرا وعطاء على جميع المواطنين ، ولم يكن من السهل نقل شعار الاعتماد على الذات من دائرة القول إلى دائرة الفعل المؤثر ، بل انها كانت حصيلة سياسية ، واقتصادية ، وانتاجية ، وادارية وتنظيمية ، ومتابعة .. كانت الحكومة فيها حريصة بأساليبها على استقصاء النتائج الملموسة في الزراعة ، وفي الصناعة ، وفي كل مؤسسة ، وفي كل قطاع .

■ الفصل الرابع

* إن كل إنسان لديه طاقة ، وكل منتج يجب أن يكون في خدمة الوطن . لقد تعلمنا خلال الفترة الماضية كيف نستنبط الأساليب الناجحة في مواجهة العقبات ، والصعوبات ، وتذليلها ، وعلينا أن نحذف من قاموسنا الاقتصادي ، والانتاجي كلمة الصعوبات والعقوبات ، فمتى كانت الإرادة المتوافرة فالامكانات موجودة ، وقد أثبتت تجربتنا في الزراعة ، والصناعة كيف أمكن تجاوز كل عقبة ، والتوصل إلى النتائج الايجابية المتزايدة ، فالتعاون بين الادارة ، والنقابة ، والعاملين ، وتحمل المسؤولية المشتركة سيكون له الأثر الحاسم في تحقيق المستوى الأمثل .

الرئيس الأسد.. كيف يرى المسار الاقتصادي ؟

في خطابه أمام مجلس الشعب في ٢ مارس آذار ١٩٩٢ ، وبمناسبة أداء القسم للولاية الدستورية الرابعة تحدث الرئيس حافظ الأسد عن بناء سورية في المجال الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي ، والخدمي ، وتناول الانجازات الكبيرة ، والهامة التي مكنت من الاستمرار في عملية البناء ، وتأمين الاحتياجات الأساسية للمواطنين ، ومتطلبات الدفاع عن الوطن فقال : (ولقد كان لبناء الاقتصاد الوطني إهتمام كبير لأن بناء القاعدة الاقتصادية ، وتحقيق الازدهار الاقتصادي ، وتأمين احتياجات المواطنين ، وتوفير فرص العمل هي من المسؤوليات الكبرى الملقاة على عاتق الدولة ، وضمن هذا الفهم فإن تحقيق التنمية الاقتصادية مسنوية تقع على عاتق الدولة ، كما هي واجب وطني يجب أن يقوم به جميع المواطنين كل في حدود إمكانياته ، وقدراته .

إن العملية الاقتصادية بالنسبة لشعبنا هي عملية وطنية ، فالعامل المجد في عمله يقوم بعمل وطني عندما يساهم في زيادة الانتاج ، والمواطن الذي يساهم في بناء مصنع ، أو مزرعة إنما يقوم بعمل وطني لأنه يزيد موارد البلاد .. إذن يجب أن يقوم به جميع المواطنين كل في حدود إمكانياته ، وقدراته .

ان اقرارنا للتعددية الاقتصادية جاء لاعتبارات وطنية ، لان البلاد يجب أن تكون ورشة عمل كبيرة كلنا يعمل في هذه الورشة وفق إمكانياته ، وطاقاته .

لقد أخذت الدولة على عاتقها خلال السنوات الماضية بناء المؤسسات ، والمنشآت الاقتصادية التي لم يكن في طاقة الأفراد بناؤها ، فتكونت لدينا قاعدة اقتصادية هامة وفرت لنا القسم الكبير مما نحتاجه ، ولولا ذلك لكانت البلاد قد عانت ظروفها في غاية القسوة ، والصعوبة .

لقد تجاوزت توظيفات الدولة في التنمية الاقتصادية مئات المليارات ، فكان لنا هذه

■ حركة التصحيح ■

المنشآت الكبرى في الكهرباء ، والنفط ، والغاز ، والمواصلات ، والصناعات الميكانيكية ، والكيميائية ، والغذائية ، والنسيجية ، وكان من الصعب على بلد نام يحتاج كل شيء أن تقف الدولة مكتوفة الأيدي تنتظر المجهول .

التشجيع على الاستثمار

وفي إطار حرص الدولة على القيام بواجبها في دفع عملية التنمية الاقتصادية ، وفي إطار التعددية الاقتصادية التي تبنتها الدولة ، ومؤسساتها بعد حركة التصحيح ، فقد فتحت الطريق واسعا أمام المواطنين للاسهام في بناء البلاد ، فسان الدستور حق الملكية ، وصدرت تشريعات من شأنها التشجيع على الاستثمار ، وصدر قانون الاستثمار الذي أعطى مزايا كثيرة للمواطنين الذين يريدون الاسهام في البناء الاقتصادي .

كما صدر قانون ضريبة الدخل إذ تم تحديد معدلات ضريبة الدخل لتشجيع المواطنين على التوجه بمدخراتهم نحو الاستثمار .

كل هذا أدى إلى نشاط اقتصادي كبير في القطاع الخاص ، فقامت مئات الشركات مما يبشر بمزيد من الخير ، والنجاح للاقتصاد الوطني .

وفي إطار التعددية الاقتصادية ، ومن أجل تشجيع المواطنين للاسهام في التنمية الاقتصادية نشأ القطاع المشترك ، وتم تأسيس عدد من الشركات المشتركة بين الدولة والمواطنين ، وعندما قررت الدولة التعددية الاقتصادية ، فقد قررت تقديم الدعم ، والتسهيلات للقطاعات الثلاثة . القطاع العام ، والقطاع الخاص ، والقطاع المشترك ، لأن هذه التعددية تفتح أمام كل مواطن الباب لممارسة النشاط الاقتصادي وفق رغبته ، وحسب القطاع الاقتصادي الذي يختار العمل فيه ، لأن الوطن بحاجة إلى جهود جميع أبنائه ليظل عزيزا قويا ، وليعيش أبنائه جميعا في العزة ، والرفاهية .

وفي إطار الحديث المختصر ، والمكثف على الساحة الاقتصادية يبدو منصف القول أن الدولة بذلت جهودا كبيرة لتطوير قطاع الزراعة ، وتشجيع المزارعين ، والعمل لتطوير القطاع الزراعي ، وتشجيع الفلاحين ، والعمل على توفير متطلباتهم ، وحقت إنجازات هامة ، ولا بد من الاستمرار في هذا المنحى ، ومتابعة الاهتمام بشكل خاص بما يلي :

أولا : تطوير وسائل الانتاج ، وتصنيع مستلزماته .

ثانيا : استمرار استصلاح الاراضى ، وتسريع الانجاز برفع وتيرة العمل .

ثالثا : الاستثمار في عملية التشجير الحراجي ، والتمري ، وتسريع الانجاز .

رابعا : تسريع ، وتكثيف عملية تشييد السدود لكي لا تبقى في البلاد مياه مهدورة سواء كانت نهريه ، أو مطرية .

■ الفصل الرابع

خامسا: الاهتمام بالثروة الحيوانية ، وتوفير متطلباتها ..

ويضيف الرئيس الأسد:

يجب أن نستمر في البناء الواسع الشامل ، وسوف نستمر ، وعلينا أن نشحذ الهمم التي بدونها لا تنهض الشعوب ، وأن نستأصل من حياتنا الإهمال ، والتواكل ، وإهدار الوقت ، وهى الأمراض التي تفتك بمحاولات النهوض التي جرت ، وتجرى في بلدان العالم الثالث .

إن الإهمال مرض ، والتواكل مرض ، وإهدار الوقت مرض ، والوعى والارادة وحدهما قادران على تخليص الإنسانية من هذه الأمراض .

هدر الوقت أفة خطيرة يجب أن نكافحها ، وإذا كان الهدر بجوانبه مُعلًا ، فأكثر جوانبه اضرارا ، واعلا لا هو اهدار الوقت .

إن الإنسان يتقدم ، ويرتقى ، وينجح باستغلال الوقت .. إن الشعوب تتقدم ، وتتطور باستثمار الوقت .

تنمية الإحساس بالزمن

نحن بحاجة إلى تنمية الإحساس بالزمن ، وأداة ذلك الوعى ، والارادة . عندما نستطيع أن نملأ الوقت بالعمل فسنجد الحياة أكثر غنى ، وبهجة ، فهذا لا يعنى أنه لا وقت للراحة ، بل يجب أن يكون للراحة وقتها المحدد والمعروف الذي نملؤه ، وللعمل وقته المحدد المعروف الذى يملؤه .

والا نشابك بينهما - أى بين وقت الراحة ، ووقت العمل ، وعندما نشابك بينهما تضيق الراحة ويضيق العمل ، أى أن كلا منهما يصبح ضرورة للآخر ، وتصبح الراحة عملا في حقيقتها ، وهدفها ، كما يصبح العمل راحة في حقيقته ، وهدفه ، وهكذا فالراحة بشكلها هذا ومحتواها شيء ، وهدر الوقت واضاعته ، وتدنى الإحساس بالزمن ، أو من الزمن شيء آخر تماما .

أننى واثق أننا سندحر في النهاية - وأمل أن تكون قريبة - سندحر كل معوقات التقدم التي تعترض طريقنا ، وتحد من مردود جهودنا ، وهى عوائق حملناها ، أو حملتها إلينا المعاناة ، وسياسات التجهيل والظلم التي مورست علينا خلال العصور الاستعمارية المظلمة .

الانسان في فكر الأسد

عندما يهتم الرئيس ، أى رئيس بالتعليم ، وبالثقافة ، وبالإعلام ، فإن هذا الاهتمام يعنى الكثير ، فهو يعنى أولا : أن هذا الرئيس قد وضع يده على البداية الحقيقية ، والجادة للارتقاء بالمجتمع ، والحياة ، ويعنى ثانيا : إنه فى قياداته لمسار التطور ، والتنمية يريد أن يبني لأمة حاضرا مجيدا لا يكون فقط موازيا لماضيها التليد إذا كان لهذه الدولة مثل هذا الماضى وإنما يخطو خطوات جديدة وأبعد تأثيرا ، فهو لا يكتفى بالقول بأن الأجداد صنعوا كذا .. وكذا وإنما يضيف للقول أننا صنعنا وبنينا وشيدنا .. الخ .

مثل هذا الرئيس يدرك أن المواطن المثقف المتعلم ، المستنير هو فى النهاية مواطن مبدع ، وهو مواطن يستطيع أن يحمل على كتفيه الانجازات المطلوبة ، ويحقق لمجتمعه التقدم المنشود ، والتجارب تثبت كل يوم أنه لا خير فى أمة لا تمنح حق الثقافة ، والتعليم ، والإعلام للمواطنين بحيث يبقى المواطن يعيش فى جهالة منعزلا عن العصر ، وعن الفكر ، وعن كل ما يمكن أن يساعد أو يسهم فى عملية التطور بمختلف أشكاله .

أولا : الثقافة

بداية لابد أن نشير إلى مقولة الرئيس حافظ الأسد بأن الثقافة هى (الحاجة العليا للبشرية) ، ودائما ينبه الرئيس الأسد إلى ضرورة التأكيد على الأصالة ، والحفاظ على الهوية ، والقدرة على التفاعل ، والفعل مع الثقافة العالمية ، ولقد كانت عملية بناء الانسان هى المركز الاساسى للنهوض بالمجتمع ، وتطويره ، وأحداث التغيير الجذرى فى بنيته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية منذ الايام الاولى التى تلت قيام الحركة التصحيحية ، ومن الطبيعى أن تكون المسألة الثقافية فى مقدمة المسائل التى تتأسس عليها عملية بناء الإنسان ، وترتقى من خلالها لأن الثقافة تساعد الإنسان فى تجاوز واقع الجهل ، والتخلف ، وفى بناء ذاته ، والدفاع عنها ، وفهم ما يحيط به فى هذا العالم ، فضلا عما تمنحه من قدرة على مواكبة النهضة الحضارية ، والثورة التكنولوجية ، وتحدى البناء الذى يشهده العالم فى نهاية القرن الحالى .

بعد قيام الحركة التصحيحية تهيأت ظروف الارتقاء ، والتقدم ، والنهضة التى تحققها الثقافة وشهدت المسألة الثقافية اهتماما كبيرا أكد دورها فى بناء الإنسان ، وتوسيع مجال أنشطتها المتعددة الإبداعية ، وقد تزايد دور وزارة الثقافة منذ قيام الحركة التصحيحية ، وتعمق هذا الدور ، ونما نتيجة للخدمات الثقافية التى تقدمها الدولة .

وإذا كان من الممكن أن نعقد مقارنة بين واقع الثقافة قبل حكم الرئيس الأسد ، وواقع

■ الفصل الرابع

هذه الثقافة الآن ، وإذا كانت هذه المقارنة ممكنة في عجلة سريعة فإنه يمكن القول بأن أهم ما جرى في عهد الرئيس الأسد هو تغيير مفهوم الثقافة ، وبالتالي الاستراتيجية الثقافية .

قبل حكم الرئيس الأسد كانت الثقافة تعتبر صورة من صور الترف ، والرفاهية ، في عهد الرئيس الأسد صارت شيئا آخر .. صارت خبز الناس اليومي .. صارت حقا لكل مواطن ، وهذا الكلام ليس نظريا ، وإنما تجسد على الواقع الفعلي على الأرض ، حيث صار لدى سورية ما يقرب من ٩٢ مركزا ثقافيا بعضها قصور للثقافة مجهزة بالمكتبات بالإضافة الى محطات مكتبية مختلفة .

الفارق كبير بين ما كان ، وبين ما صار ..

صار من الأشياء المعروفة - كما سبق التبيان - أن الدولة موجودة في قطاع الثقافة لخدمة المثقفين ، ولخدمة الجمهور في العلاقة المتبادلة بين الطرفين بتأمين كل الوسائل للمثقفين .. للفنانين .. للكتاب .. للمحاضرين .. للسينمائيين ، وقبل ذلك كله يوفر الأسلوب الذي يمكن أن تصل به هذه الأمور إلى عامة الناس في المحافظات ومن أقصى قرية في القطر إلى أدنى قرية .

الانتشار الأفقي للتعليم في سورية ظاهرة جديرة بالتقدير والاحترام لم تعد تجد في سورية قرية واحدة لم يدخلها التعليم الابتدائي الإلزامي ، بالإضافة الى برنامج ، وخطة لمحو الأمية حتى وصلت نسبة الأمية الى ٢١٪ بعد أن كانت قبل حكم الرئيس الأسد ٥٦٪ ، وفي بعض المناطق وصلت ٧٠٪ .. الآن لدى سورية كل ما تحتاجه من مدارس تعليمية للأطفال الصغار .. ثم بعد ذلك صفوف محو الأمية الموجودة في كل مكان ، بالنسبة للنساء ، والرجال مع صفوف للمتابعة ، مع أحداث مراكز متواصلة لتأهيل الأميين الذين يرغبون رجالا ، ونساء ، حتى يستطيعوا أن يجدوا المهنة التي تقيمهم العوز ، التعليم انتشر أفقيا ، ولكنه أيضا تصاعد ، ففي سورية الآن أربع جامعات بالإضافة الى وحدات جامعية عديدة .. فلقد وصل عدد طلاب الجامعة في دمشق الى أكثر من ٩٠ ألف طالب ، وكذلك في الجامعات المختلفة التي تقدم للطلاب التعليم الجامعي ، بالإضافة الى العمل الجاد من أجل أحداث مراكز للبحوث ، ونشاطات تتولاها المنظمات الشعبية في نشر التعليم ..

المراكز الثقافية تزامن معها انشاء معاهد للثقافة الشعبية مرتبطة بها ، وفيها يتعلم الآلاف في كل محافظة ، وفي كل مركز يتعلمون الى جانب الثقافة العامة مهنة من المهن التي يريدونها ، بالإضافة الى المعاهد التشكيلية ، والتطبيقية الملحق بالمراكز الثقافية ، ومنها يبدأ الطفل تعلم الرسم ، ومعظم الذين تخرجوا من كلية الفنون الجميلة كانوا طلابا في هذه المعاهد .

■ حركة التصحيح ■

إذن الثقافة أصبحت حقاً للجميع تعليماً ، وممارسة ثم توفيراً لوسائلها المختلفة ، ففي المراكز الثقافية هناك المسرح ، وهناك شاشات العرض السينمائي ، وهناك العروض الموسيقية ، وهناك حلقات قراءة الكتاب ، ومناقشة هذه الكتب ، وهذا يتوافر للجميع عبر المراكز ، ومن خلال المنظمات الشعبية المختلفة في بعض الأحيان ، والمعسكرات المتتالية ، والتي هي معسكرات تثقيفية من الدرجة الأولى خصوصاً بالنسبة للطلّاع الصغار الذين يسمون (طلائع البحث) .

أي كاتب جيد ، أو إذا كان شاباً واعداً يجد السبيل لنشر الكتب ، وأخذ المكافأة والتشجيع الكامل ، الموسيقيون كذلك ، وقد أنشئ في عهد الرئيس الأسد ، ولأول مرة المعهد العالي للفنون المسرحية ، والمعهد العالي للموسيقى ، وكان هذا خطوة متقدمة جداً بالإضافة إلى المعاهد الموسيقية العادية ، وتكونت الفرق الفنية وحدثت أشياء كثيرة وتذكر منها الدكتور نجاح العطار وزيرة الثقافة أن سورية أصبحت الآن قادرة على إنتاج عشرات الكتب في العام ، وضمن مستوى رفيع من الحرية ، ترجمة وتأليف ، وبما يقدم ثقافة عالية للقارئ العام ، وثقافة متخصصة للمتخصصين عبر سلاسل مختلفة ، بالإضافة إلى العناية الفائقة برعاية ، وحماية التراث ، وتحقيق الكتب ، ونشر سلاسل ذات أهمية بالوطن العربي مثل سلسلة المختار من التراث لأنها تقدم التراث إلى جميع الناس ، وتقول الدكتورة نجاح العطار أيضاً فإنه لا يمكن أن ننسى ، عند الحديث عن حماية التراث النشاط الأثري الذي يجري الآن في سورية برعاية خاصة ، وفي سورية كل عام على الأقل من ٤ إلى ٥٠ بعثة أثرية تنقيبية ، والبعثات الأجنبية فيها مشرفون سوريون أيضاً ، وهناك بعثات مشتركة ، وبعثات سورية ، تكتشف سنوياً الكثير من الآثار الجديدة بالاكشاف .

وفي كل عام تُقام ندوة أثرية دولية يحضرها كبار العلماء من كافة أنحاء العالم ، وتنشر الأبحاث في الحوليات الأثرية كما تنشر الكتب حول المكتشفات الأثرية المختلفة ، وبعض هذه المكتشفات غيرت الكثير من معالم التاريخ القديم مثل اكتشاف (إيبلا) ، ورقمها التي أصبح عددها ١٧ ألف لوحة (إيبلا تقع في شمال محافظة إدلب) ولدى سورية مشاريع ترميمية كثيرة ، ومتابعة .

والموسيقى بدورها شهدت تطوراً كبيراً ، كذلك الحال بالنسبة للفن التشكيلي حيث تقام معارض أسبوعية بالإضافة إلى المعارض السنوية المختلفة ، والمهرجانات التي تقام على المدرجات الأثرية مثل مدرج « بصرى » الدولي ، وهذا حدث بعد الحركة التصحيحية ، وهو أكبر مدرج أثيرى في العالم كله ويستوعب من ٢٠ إلى ٢٥ ألف متفرج ، وعمره ألف عام ولكنه يمتاز بأنه غير مُحَرَّب ، وقد أجريت عليه بعض الترميمات ، والآن يقام المهرجان

■ الفصل الرابع

عليه ، ثم يذهب الى مدرج « جبّله » الأثرى وهو يستوعب حوالى عشرة آلاف متفرج والى « قلا حلب الأثرية » والى « تدمر » احياا ، وبعد أن كانت سورية تعاني من قلة المتاحف ، ولم يأت لديها سوى متحف واحد هو المتحف الوطنى ، أصبح عندها الآن ٣٥ متحفا حديثا جدا

الذى يثير الاحترام حقا ان انشغال سورية ، وهى دولة مواجهة لم تسقط من حساب الخيارات العسكرية لانه ينبغي أن يكون قائما ، وان عمليات التنمية الاقتصادية ، والتنم الثقافية تأخذ دورها ، ويُنفق عليها الكثير ، ولولا ذلك لما رأينا مكتبة الأسد ، وهى مكت من أحدث مكتبات الشرق الأوسط ، وأكبرها ، وفيها تصان المخطوطات .

أيضا دار الأوبرا تبني ، تنفيذا لقرار الرئيس ببنائها مع مجموعة مسارح بالاضاء الى البناء الجاهز للمعهدين .. معهد عال للموسيقى ، ومعهد عال للفنون المسرحية والمدينة السينمائية على طريق مطار دمشق ، والاعداد المتواصل لإنشاء متحف الفن الحديث كل هذه العناية ، والرعاية يوجهها الرئيس الأسد للثقافة ، وهو يقول : إن أى مشروع ثقافى هو مشروع اقتصادى من الدرجة الأولى ، الاقتصاد لخدمة الانسان ، والثقافة ه الانسان فى النهاية ، ولاشئ دون الانسان ، والانسان لا تنمو انسانيته بدون ثقاه تجعله يدرك ماذا يريد ، وكما يقول الرئيس الأسد دائما فإن الانسان لا يستطيع أن يبني ، وأن ينتج ، وأن يصنع إلا اذا كان انسانا مثقفا ، والثقافة اذن هى فى الأساس وفى الكلمة الجميلة التى كتبها الرئيس الأسد فى دفتر الشرف للمكتبة قال : « الثقافة ه الحاجة العليا للبشرية » وهو يوصى دائما بالدفاع عن كل ما هو ثقافى .

اهتمام الرئيس الأسد بالثقافة مرجعه ادراكه لما قادت ثقافته الرفيعة فى مختلف مراحل عمره ، وكل من يعرف الرئيس الأسد يعرف أنه ذو ثقافة متعددة ، يبدو ذلك من اجادته للغة العربية ، يخطب ارتجالا كما يخطب كتابة فلا يلحن ، ويقول أعمق الكلام ، وأكثره تركيزا ، لا فرق بين ارتجاله ، وكتابته .. هو مثلا لا يكتفى بقراءة التراث ، وانما يقرأ كل ما يتصل بالتراث ، يتابع الأبحاث ، ويناقش المختصين فى أصعب ما يستطيعه المختصون فى كثير من الأحيان ، ويدهش الذى يجلس اليه حينما يجد هذا الحجم من المعلومات ، ومن القدرة على وضع الأشياء فى سياقها ، يقرأ الكثير عن العالم .. يتابع النتاج الثقافى العربى ، والعالمى ، ويهتم بقضايا الفكر بشكل عام ، ومن هنا تأتى حمايته للثقافة لانه لا يعتبرها ترفا ، ويريد لها حق لكل مواطن ، ويريد أن يقدم وسائلها للمتقنين ثم يقدم نتاج المثقفين الى الجمهور ، وحين تستعصى الأمور ، وتحتاج الى دعم يقدم هذا الدعم دون تردد .

وتقول الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة : كنا فى الماضى نقذف بالثقافة الى آخر

■ حركة التصحيح ■

سلم الأولويات ، ولا أحد يضعها في رأس السلم كما ينبغي أن تكون .. في عهد الرئيس الأسد أخذت وضعها الطبيعي في المقدمة ونحن نقول : إن الرئيس الأسد هو سيد الكلمة البليغة ، ولأنه كذلك فهو يرفع كل أصحاب الكلمة .. يقدم كل ما يستطيع لكل الكتاب ، ولا يتركهم للصدفة ، ولم نسأله شيئاً في يوم من الأيام إلا وقدمه ، وكذلك يحظى اتحاد الكتاب ، وحتى الكتاب الذين ليسوا داخل هذا الاتحاد برعاية خاصة ، ومحبة خاصة ، وهو يتابع الحركة الأدبية في الوطن العربي ، ونظراً لأنه يؤمن بالامة العربية الواحدة ، والقومية العربية الواحدة ، فهو يؤمن بالثقافة الواحدة الموحدة ، وباربابها ، وبالعاملين في اطارها ، ويقدم لهم الرعاية حين يلتصقون بها منه .

وتقول الدكتورة نجاح : إن هذا التطور الثقافي كان له انعكاسه على الإنسان السوري .. لا أريد أن أبالغ أو أن أقول كلاماً ينتمى الى الغرور ، لكن ستجد أينما ذهبت أثر هذا التطور الثقافي ، والتعليمي في حياة كل مواطن .. كل مواطن في سورية يستطيع أن يتابع الاحاديث السياسية ، والفكرية ، والثقافية التي تلقى باللغة العربية الفصحى ويفهمها ، ويناقشها ، وهذا يعنى مستوى من تطور الوعي .. تجد كل انسان تقريباً مُتسِّساً .. واعياً ، وليس مسيساً عادياً ، يناقش في كل القضايا ، ليس فقط القضايا المرتبطة بحياته اليومية فحسب ، وانما أيضاً المرتبطة بوعيه العام لما هو أكبر لقضايا الامة العربية السياسية ، والفكرية ، وكل الاشياء المطروحة على بساط البحث ، ويحاول أن يسهم بشكل أو بآخر في موضوع التنمية ..

الوعي العام واضح جداً في المجتمع العربي السوري ، وخاصة في مجتمع المرأة الذي كان معزولاً في يوم من الأيام ، وهنا لابد أن نذكر للرئيس الأسد انه أعطى للمرأة حقوقاً كبيرة جداً ، وتضرب الدكتورة نجاح العطار مثلاً بنفسها ، عام ١٩٦٠ .. كانت أول سيدة تحمل الدكتوراه في الآداب ، ومع ذلك فقد حيل بين دخولها لقسم اللغة العربية لأنهم أرادوا في ذلك الحين ألا تدخل امرأة ، الآن النساء في كل مكان .. هناك وزيرة للتعليم العالي وهناك وزيرة للثقافة .. عدد الطالبات يبدو أكثر من عدد الطلاب .. المرأة موجودة في كل مكان ، والمرأة الآن تتسم بوعي لم تكن تحصل عليه لولا تدخل الرئيس الأسد .. أصبحت موجودة في كل مكان .. في المنظمات الشعبية ، في اتحاد الطلبة ، في نقابات العمال . في مجلس الشعب .. الخ .

قبل الرئيس الأسد كان خروج المرأة للعمل تقليد غير مرحب به ، وكانت المرأة اما محبوسة في البيت لا تعرف إلا أمور المنزل وإما هي سيدة صالون .. الآن أصبحت تحمل رسالة ، وتؤدي مسئوليتها في البيت ، وفي خارج البيت في نفس الوقت .. لأنها كما يقول الرئيس الأسد ليست نصف المجتمع فقط ، وانما هي مربية للنصف الآخر ، ولذلك فمن الضروري جداً أن تكون واعية .

■ الفصل الرابع

ولقد ارتكزت الاستراتيجية الثقافية في سورية على هذا الاتساع الكبير في تثقيف الجماهير، وفي تعليمها، وفي تخصيص المرأة بحظ وافر من كل ما يمكن أن يُقدم، وهذا الانعكاس يبدو واضحا.. يكفي أن تذهب لأي مكان، تخاطب أي إنسان في الشارع، في المدرسة، في القرية، في أي مكان، ستجد الناس يفهمون، وبأكثر مما هو متوقع، وسورية تدعم الكتاب كما تدعم رغيف الخبز، والكثيرون يقبلون على القراءة ويشتررون من المراكز الثقافية ومن المحطات المكتبية المتناثرة في كل مكان، والتي تقدم الكتاب اعارة، ومبيعا، وكذلك فلقد تنوعت المجالات الثقافية في عهد الرئيس حافظ الأسد..

هناك مجالات في الحياة المسرحية، والحياة السينمائية، والموسيقى، وهي مجالات رفيعة المستوى، ومتخصصة، كما أن الندوات، والتي تقام دائما بدعم بشكل ممتاز وتوفر لها كل الامكانيات، بالإضافة الى معرض الكتاب السنوي الذي يستقطب العديد من المحاضرين.

واهتمام الرئيس الأسد بالثقافة يعني كما أشرنا ان الرئيس الأسد يدرك معنى الثقافة، وأهميتها في كل عمليات التطور، والتنمية، والارتقاء بالمجتمع، والحياة، ويعنى هذا الاهتمام انه يريد لبلاده أن تهض ثقافيا، وأن تتطرق في آفاق الفكر، وتبنى حضارتها، ويعنى انه يريد أن يبنى حضارا مجيدا متجاوزا للماضي المجيد.

دور الثقافة في تعميق العلاقات العربية

إذا كان الرئيس الأسد يؤمن بأن الوحدة العربية هي حقيقة، وبأن الأمة العربية هي أمة واحدة، وبأن ما فعلته ظروف متعددة منها الاستعمار أمر غير طبيعي، ولا بد من تجاوزه، إذن لابد أن يكون توجيهه الأساسي هو تنمية العلاقات العربية بكافة أشكالها، وبوجهها الثقافي أولا.

ويوجه الرئيس حافظ الأسد دائما بفعل كل ما يمكن لتوطيد العلاقات الثقافية العربية بأشكالها الرسمية، وغير الرسمية، وبفتح الحوار الحر مع كافة المفكرين، والكتاب، والمتقنين، واشتراكيهم في ندوات تليفزيونية وفي المراكز الثقافية كي يزداد عمق هذه الروابط، والأواصر، وتبدو أكثر حميمية، هذا جزء من استراتيجية الثقافة بالنسبة للعلاقات العربية، وهو توجيه مستمر، ومتواصل من الرئيس الأسد لإيمانه بأن الوحدة الثقافية هي حقيقة واقعة، وضرورة مستمرة، ويكفي أن تذهب لزيارة أي بلد عربي، وتقارن الإنسان في أي قرية عربية بالإنسان في منطقة أخرى لتجد أثر الثقافة

■ حركة التصحيح ■

الواحدة الموحدة ، وأثر اللغة العربية العظيمة ، والمجيدة في جمع الشمل ، وفي تحقيق الوحدة حتى في أسوأ الظروف ، وفي أقسى الظروف التي تعنى الشتات ، والتمزق ، والبعد ، وتحول الأقطار العربية إلى جزر دون رابط ، وجامع .

أما في الداخل فإن توجيه الرئيس الأسد المستمر هو العناية بالفكر ، وبالثقافة بشكل عام ، وتقديم كل المستلزمات لمفكرين ومثقفين وتعميم الثقافة وجعلها في متناول الجميع ، وتوفير كل الوسائل لدخول البيوت عبر أجهزة الاعلام أحيانا ببرامج خاصة معينة عبر الكتاب .. عبر المحاضرة .. عبر الأقنية الثقافية المرئية والمقروءة والمسموعة وعبر الأقلام والمسرحيات ، ولا تدخر سورية وسعا في تعميم هذه الثقافة ، وتوفير الوسائل التي تمكن الناس من الاستفادة منها ، مثلا حين يقام مهرجان ، وتأتي أحسن الفرق تكون البطاقات مجانية بالنسبة لمعظم الناس ، وذات سعر رمزي جدا بالنسبة للقادرين ، المتاحف السورية مفتوحة للطلاب ، والجنود بشكل مجاني .. الكتاب مدعوم .. دور السينما أسعارها منخفضة جدا ، كذلك المسارح ، وهناك ملاحقة دعوية كي تتسامى الأعمال الثقافية ، وكى تبرز مشروعات جديدة ، وحين يطرح أى مشروع مثل توفير الأبنية الثقافية للمسارح ، وغيرها .. والانفاق ضرورى للبعثات الدراسية على عمليات التنقيب ، وعمليات الترميم ، وحتى شراء اللوحات الفنية لدعم الفنانين ، كل هذا يحدث بأمر وبتوجيه خاص من الرئيس الأسد .

وباختصار فإن العمل الدعوى المتواصل .. وتوفير التعليم للجميع .. وافتتاح المدارس في كل مكان .. ودعم مشاريع محو الأمية .. أمور يُولِيها الرئيس اهتماما كبيرا .

وتجدر الإشارة إلى أن الرئيس الأسد أصدر في بداية عهده قانون محو الأمية ، وشكل مجلسا أعلى لتوفير كل الامكانيات للقضاء على الأمية ، الامر الذي أدى إلى تقليص نسبة الأمية إلى ٢١٪ ، وإلى جانب ذلك فإن الرئيس يدعو إلى الاهتمام أيضا بالنبذة المتميزة فكريا ، ولكن ليس على حساب الجماهير الواسعة .

قراءة التاريخ وإعادة الاعتبار للقادة التاريخيين

يوجه الرئيس حافظ الأسد دائما أهمية ، وضرورة العودة للتاريخ للتزود بالثقافة المساعدة على حفظ الهوية ، ومعرفة الهوية .. التاريخ ليس بحزازاته واشكالاته ، فالحزازات دائما تكون موجودة ، وكذلك الاشكالات ، وإنما بإنصاف البارزين من المفكرين والعلماء الذين قَدَّموا واعطوا وساعدوا واثروا التاريخ الحضارى وهذا يعنى كما يقول أحد المفكرين : إننا لسنامة منفصلة .. نحن أمة يتواصل

■ الفصل الرابع

تاريخها عبر إبداعاتها المستمرة .. وتتواصل أجيالها جيلا بعد جيل . ماضينا مجيد ، وحاضرنا ينبغي أن يكون مجيدا أيضا . ومن الخطأ ، والخطر أن نتجاهل ما كان ، ونقول ما سيكون هو الشيء الجيد .. لا شيء يكون من لا شيء ، لو لم يكن لنا هذا الماضي لاستعصى علينا أن نفكر في أشياء كثيرة ، وليس من حقنا ، وليس مقيدا أن نتناسى هذا التاريخ .. نحن الآن رمنا مقام الخليفة الاموي العظيم عمر بن عبدالعزيز المدفون قرب « معرة النعمان » قرب مدينة حلب في الجزء الشمالي من سورية ، وكذلك أعدنا بناء العديد من الأضرحة للشخصيات التاريخية التي تُعرف أين هي موجودة ، ونحن لا نكتفى ببناء الأضرحة ، وإنما نقيم الندوات الدائمة حول أبطال التاريخ ، وحين أقمنا ندوة حطين العربية ، افتتحها الدكتور / عصمت عبد المجيد الأمين العام للجامعة العربية ، وكما هو معروف فإن للبطل صلاح الدين ، ولمعركة حطين تأثير بالغ في تاريخنا ، وكانت هذه الندوة بتوجيه من الرئيس الأسد .

إن الحفاظ على التاريخ أمر بالغ الضرورة ، وينبغي على كل أمة أن تحفظه بنور العيون ، لأنه موصول بالحاضر ، وإذا أردنا أن نبني هذا الحاضر بناء ليس فيه الانخلاع من الهوية ، الحضارية ، وللقبض على أشياء لسنا حتى الآن من صانعيها ، وإذا كنا نريد أن نبني ، فالمفروض أن نعرف وأن نركز على ما هو مجيد في تاريخنا ، وأن ندخل العصر من بابه الواسع بعد ذلك .

وسمع الرئيس حافظ الأسد يقول : « لا يجوز أن ننظر إلى الحكام في التاريخ فقط من زاوية سلوكهم الشخصي ، وإنما ينبغي أن ننظر إلى انجازاتهم بشكل عام لصالح الأمة أو لصالح الشعب » ، ربما يكون هناك بعض الظلم وقع على حاكم معين مثل هارون الرشيد ، ولكن من يقرأ تاريخه يرى أن ظلما كبيرا وقع عليه لأن الدولة عرفت في عهد الرشيد عصرا ذهبيا ، وهو الذي كان يقود الجيوش للجهاد في كل عام ، وهجر بغداد واتخذ من الرقة مقراً لكي يقوم بالدفاع عن الثغور ضد الروم ، وهو الذي كان يرمي الأدب والأدباء ، ولذلك إذا أخذنا تاريخ الرشيد من خلال شعر أبي نواس فقط نكون قد ظلمناه .

ولذلك فإن الرئيس الأسد أعاد الاعتبار لكثير من القادة التاريخيين الذين كانوا منسيين سواء في التاريخ القديم ، أو الحديث ، كما أمر الرئيس باطلاق أسماء المناضلين الذين أسهموا في نهضة الأمة سواء كانت نهضة علمية ، أو غيرها على الشوارع ، وفي جامعة دمشق مثلاً هناك مدرج باسم جابر بن حيان ، وأيضا مستشفى ابن النفيس ، ومستشفى الرازي وشارع ابن سينا .. الخ .

صديق للكتاب

يُفتخر المثقفون، والأدباء في سورية بأن الرئيس حافظ الأسد مع شواغله العديدة ظل صديقا للكتاب .. يقرأ في كثير من الأحيان حول قضية ما أكثر مما يقرأ المتخصصون في هذه القضية ، ويتابع حركة الثقافة في سورية ، وفي الاقطار العربية ، وفي العالم ، وهو مُعنى بالتاريخ ، ويكتب التراث ، وبالأدب ، وبالشعر .. يتذوق وينتقد أيضا ، معنى بالثقافة المعاصرة اقتصادا ، وعلمًا ، وهموما مختلفة ، وهو ذواق متحسس للموسيقى ، ولغيرها ، ولكل ما يرتبط بالشئون الثقافية من مسرح ، وسينما ، ومتابعته ليست مقصورة على القطر السوري ، وإنما هي على حد تعبير الأديب المصري العالمى المرحوم الدكتور يوسف ادريس ذات أفق عربى شمولي .

ومكتبة الرئيس الأسد الخاصة مكتبة غنية مليئة بكتب الآثار، والحضارات القديمة، والأدب، والشعر، معرفته الكاملة بالشعر، والشعراء تغنى أنه يقرأ الشعر، قديمه وحديثه ويتعمق في الحضارة الاغريقية القديمة، التاريخ الاسلامى، وحين يحاور ضيوفه تجد أنه على علم بهذا الكتاب، أو ذاك، تقدر أنه لا يدخر وسعا في قراءة أشياء كثيرة مرتبطة بكل أفاق الثقافة، حين تناقشه في بعض نظريات الاقتصاد تكتشف أنه لابد أن يكون قد قرأ مؤلفات عديدة في علم الاقتصاد، على سبيل المثال يعرف كل ما يتصل بالمؤلفات التي كان يكتبها عباقرة الفكر، والأدب في مصر مثل الدكتور طه حسين، وعباس محمود العقاد، وتوفيق الحكيم، وغيرهم، وقد قرأ الرئيس الأسد لمعظم الكتاب المصريين والعرب، وحين يتسع وقته فإنه لا يدخر وسعا في مقابلة الكتاب، والمثقفين من أى قطر، ويقول الرئيس الأسد: إنه يجد متعة في الحديث إلى الكتاب، والمفكرين، ولكتاب مصر مكانة خاصة لديه، وقد أكد هذه الحقيقة الأديب يوسف ادريس عندما جاء إلى سورية، وقابل الرئيس الأسد.. ويعطى الرئيس الأسد اهتماما كبيرا للعلاقات المصرية السورية في المجال الثقافي، والواقع أن العلاقات بين البلدين في هذا المجال لم تنقطع قط، وعبر السنوات الطويلة، وكان الكتاب، والفيلم السينمائى، واللحن، والموسيقى، والأغنية هي الرسل الأوائل، ولم ينقطع الحضور المصرى في مهرجانات سورية المختلفة سواء المهرجانات المسرحية، أو السينمائية عبر كل هذه السنوات حتى حين كانت هناك قطيعة سياسية، ولعل الجميع يذكرون أنه قد تم تشكيل اتحاد الفنانين العرب في دمشق، وشارك في حضوره، وفي تشكيله عدد من الأخوة المصريين برئاسة سعد الدين وهبة، وكما أشرنا فإن مصر في قلب الرئيس الأسد مكانة خاصة، ربما لأنه عاش فيها قليلا، وتعرف على الكثير من كتابها، وأدبائها، ومثقفها، وساساتها، وتوجيه الرئيس الأسد الدائم كما يذكر العاملون في الحقول الثقافية هو: تمتين العلاقات العربية عموما، ومع مصر بوجه خاص، التى نكنّ لها

الكثير من الاحترام ، والتقدير ، مصر الايام الرائعة المشتركة خلال فترة الوحدة ، وصور العلاقة الثقافية بين مصر وسورية عديدة ، ومتنوعة ، العلاقة بين الادباء والكتاب علاقة وطيدة .

وصور العلاقة الثقافية بين مصر وسورية عديدة ومتنوعة ، العلاقة بين الادباء والكتاب علاقة وطيدة ، والمشاركة مستمرة .. معظم الكتاب المصريين مقروءون في سورية ، وقد يكون الكتاب السوري مقروءا بشكل اقل ، ولكن هناك جهوداً تبذل الآن لكي يصل الكتاب السوري إلى مصر بطريقة أفضل ، ثم هناك السينما والمسارح ، والمهرجانات المتتابة ، وتكاد لا تخلو أى ندوة تعقد في سورية من دعوة كتاب مصريين للمشاركة في نشاطاتها المختلفة، ودعوة الفنانين والكتاب والمثقفين السوريين للمشاركة في الندوات والنشاطات والمهرجانات الدورية التي تعقد في القاهرة . لقد توطدت العلاقات الثقافية وتعمقت بين الكتاب ، والفكرين ، والاعلاميين ، والعاملين في الصحافة ، لان الأرضية واحدة والثقافة مشتركة ، والقناعات واحدة ، وتضع الحركة الثقافية في سورية على رأس أهدافها تحقيق أقصى صور التعاون الثقافي العربي ، باعتبار أن الوحدة الثقافية تخلق الأرضية الصالحة ، والمشاركة للعمل الوجدوى العربى المشترك ، وبشتى أشكاله ووجوهه .

الحياة الثقافية في مصر وكيف يتابعها الرئيس الأسد ؟

يبقى أن نشير إلى أن الرئيس الأسد يتابع وباهتمام شديد الثقافة المصرية ، أو الثقافة العربية بوجه عام لأن الثقافة العربية في مصر والشام هي ثقافة أصيلة وراسخة ، والعلاقات الثقافية بين مصر وسورية قديمة ، وكانت ممثلة في الذين جاءوا من بلاد الشام سواء من لبنان ، وسورية ، وأقاموا الصحافة مثل جورجى زيدان ، وبشارة تقلا ومن الممثلين جورج أبيض ، وأبو خليل القباني ، ولذلك فإن هناك تفاعلاً ثقافياً قديماً ، وتبادلاً ثقافياً مستمراً بين مصر ، وسورية .

والرئيس الأسد يقرأ للأدباء ، والكتاب ، وعندما اصطحب الرئيس مبارك الرئيس الأسد في زيارة لمنطقة الساحل الشمالى في صيف ١٩٩٠ قابل في منطقة (مراقيا) الاديب المرحوم يوسف ادريس ، وأمضى معه وقتاً في حوار ثقافى ممتع أكد اهتمام الرئيس الأسد بالثقافة والمثقفين ، وقد أرسل الرئيس الأسد دعوة ليوسف ادريس ، ولكن القدر لم يسمح له بتحقيق هذه الأمنية ، وقد حزن الرئيس الأسد عليه حزناً كبيراً ، وخلال مرضه اتصل مدير مكتب الاسد عدة مرات لكي يطمئن على صحة الدكتور ادريس خلال مرضه ، وكان ينقل له تطورات وضعه الصحى يوماً بيوم اثناء وجوده في مصر .

■ هزقة التصحيح ■

وعندما ذهب الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء المصري إلى سورية في يوليو ١٩٩١ تحدث الرئيس الأسد معه عن أدب يوسف ادريس ، وروى الكثير عن صداقته ليوسف ادريس وقازن بين أدبه وأدب نجيب محفوظ ، مؤكدا أن الجمهور في سورية ، يهتم بالقصة القصيرة أكثر من اهتمامه بالرواية ، وهذا سبب شعبية يوسف ادريس في سورية ، وقد تحدث المرحوم يوسف ادريس بعد عودة الرئيس الأسد من مصر وأكد أن هناك صداقة تربطه به وذكرنا قبل قليل أن الرئيس الأسد وجه الدعوة للاديب الكبير يوسف ادريس لزيارة سورية.

الرئيس الأسد تكلم أيضا عن أدب الروائي العالمي نجيب محفوظ ، وعن عمالقة الفكر المصري الراحلين مثل طه حسين ، وعباس العقاد ، وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، وغيرهم ، وتكلم أيضا عن دور الموسيقار الراحل محمد عبدالوهاب ، والمرحومة أم كلثوم في الغناء العربي ، وكيف أن هذين العملاقين كانا عاملا من عوامل الوحدة العربية لدرجة أن الانسان العربي من الخليج إلى المحيط كان يفتح الراديو يوم الخميس للاستماع إلى أم كلثوم .

وتحدث أيضا عن محمد عبدالوهاب ، وروى حادثة أن عبدالوهاب عندما جاء إلى حلب في سورية ليغنى في العشرينات لم يجد جمهورا ، وفي اليوم التالي سأل عبدالوهاب المتعهد عن سبب عدم وجود جمهور كبير ، فأجابه المتعهد بأن أهل حلب يرسلون أولا الذواقة لسماع المطرب ، فإذا وجدوا أنه يستحق ، فإن الجمهور يأتي بعدهم ، وطلب منه الانتظار إلى اليوم التالي ، وإذا بالجمهور يتدفق من كل مكان ، لأن عبدالوهاب نجح في امتحان الذواقة ، ولأن حلب تمتاز بالمواهب الكبيرة في الغناء ، والموسيقى ، وفيها مدرسة حلبية مشهورة على امتداد التاريخ .

وروى الرئيس الأسد أن الموسيقار خالد الذكر سيد درويش جاء إلى حلب ، وبقي ستة أشهر ليتعلم النغمات ، والمقامات ، والموشحات الحلبية ، وتكلم الرئيس الأسد أيضا في هذه الجلسة عن قراءاته لمذكرات المشير الجُمس ، والوزير اسماعيل فهمي ، وبعض الكتاب الذين كتبوا عن حرب أكتوبر ، وكان ينتقل من فكر إلى فكر ، ومن كتاب إلى كتاب ، وظل الوزراء المصريون ، والسوريون الذين يستمعون إلى الرئيس الأسد مندهشين لقوة الذاكرة ، وقدرة الرئيس على الاستدكار ، وإدارة النقاشات الفكرية .

ولذلك فإن الرئيس الأسد بحكم تكوينه الثقافي ، وبحكم قراءاته الكثيرة يعطى الثقافة المصرية جزءا كبيرا من اهتمامه ، ومن المؤكد أن جيل الرئيس الأسد كان على صلة وثيقة بالمولفات المصرية ، التي كانت تصدر سواء أكانت روايات جورجى زيدان ، أو الرسالة للدكتور أحمد أمين أم غير ذلك من المجالات الثقافية ، بالإضافة إلى المجالات الفكرية ، التي تصدر أيام الوحدة سواء مجلة الفكر المعاصر التي كان يرشرف عليها

الدكتور زكى نجيب محمود أو مجلة الكاتب التى كان يشرف عليها أحمد عباس صالح ، أو مجلة الطليعة التى كان يشرف عليها لطفى الخولى ، وغير ذلك من المجلات المصرية الأخرى مثل آخر ساعة ، وروزاليوسف ، وأكتوبر ، والهلال .. وما الى ذلك .

ثانيا : التعليم

وضعت الحركة التصحيحية على رأس أهدافها العاجلة تحقيق تنمية شاملة فى مجال التعليم ، وربطه بمتطلبات المستقبل ، ولم تقف النهضة التعليمية فى سورية عند حد تخريج أعداد من المتعلمين فحسب إنما الى تربية الأجيال وتخريجها من المؤسسات التربوية والتعليمية بالكفاءات المطلوبة ، وتحقيق الاتجاهات السليمة نحو العمل ، والبناء .

الرئيس حافظ الأسد أعطى اهتماما بالغا للتربية ، ورعى العلم ، والعلماء رعاية كبيرة ، وقدم الدعم الكامل للتربية ، والتعليم عبر مؤسساتها التنفيذية ، والنقابية هاديا ، ومعنويا ، وأخذت المؤسسات التربوية منحى متصاعدا نحو توسيع قاعدتها لوضع مبادئ الحزب ، والدستور موضع التحقيق الفعل بدءا بديموقراطية التعليم ومجانيته لكل المراحل ، والتعليم الإلزامى ، والتعليم المهنى ، والفنى الخ .

ولم تقتصر عند هذا الحد ، فأدخلت مبادئ ، وعناصر جديدة على العملية التربوية لتساهم فى عملية بناء الانسان ، واعداده ، وتهيئته الكوادر الفنية ، والمهنية لقيادة عملية التنمية ، والتى يعتبر الانسان عنصرها الأساسى .

ونظرا لكون التربية استجابة لحاجة التنمية الشاملة ، فإنها تشكل حافزا مثيرا لفعاليات المجتمع الفكرية والاجتماعية ، والاقتصادية ، وربطها بحاجات المستقبل ، ومتطلباته ، ولذلك فإن مرتكزات العملية التربوية اعتمدت على تحقيق ديموقراطية التعليم ، وربط التربية بالتنمية ، وتطوير مضمون التربية ، وتحسين كفاياتها ، وفعاليتها بما يحقق اعداد الجيل العربى الاشتراكى المزود بالمعارف ، والخبرات ، والمهارات ، ولتحقيق ديموقراطية التعليم ، فقد عملت المؤسسات التربوية على تهيئة الفرص التعليمية للملائة أمام ابناء المواطنين أينما تواجدوا فى المحافظات مدنا ، وريفا ، وأنشأت المدارس فى كل حى ، وقرية حتى أصغر مجمع سكانى ، الى التجمعات الرعوية المتنقلة (البدو) .

وفى ظل الحركة التصحيحية أيضا شهدت سورية تقدما ، وتطورا فى المؤسسات التعليمية ، والتربوية كخطوة فى سبيل تحقيق التقدم الاقتصادى ، والاجتماعى وصولا الى تغيير البيئة الاجتماعية الكفيلة بتحقيق التطور ، والتقدم الحضارى فى كافة المجالات .

■ حركة التصحيح ■

وقد أدركت الحركة التصحيحية أهمية التعليم في بناء الانسان ، وتربيته ، وخاصة التعليم العالي (المعاهد والجامعات) في خلق الكوادر العلمية التي تركز إليها اسس التطور والتقدم وبناء المجتمع الذي يساهم في مسيرة الحضارة الانسانية .

تطورت الجامعات في أيام الرئيس الأسد ، وبدأت تمنح بالإضافة إلى الإجازة الشهادات العليا ، دبلوم ، ماجستير ، دكتوراه ، وأقيم بعد الحركة التصحيحية العديد من المعاهد ، ومراكز البحث ، منها معهد تاريخ العلوم عند العرب في حلب الذي حرص على اصدار عدد كبير من الكتب العلمية العربية ، واعتاد أن يعقد كل سنة مؤتمراً يناقش الباحثون فيه إحدى المنجزات العلمية العربية العلمية ، ولم يعطل عمل هذا المعهد ما اعتادت عليه جامعة دمشق من توجيه الدعوة سنوياً لعقد أسبوع العلم ، وتصدر الجامعات السورية المجالات التي تبحث في العلوم الانسانية ، والعلوم التطبيقية ، حاضراً وتراثياً .

ونستذكر هنا قول الرئيس حافظ الأسد (الدولة تسعى بدأب لربط مناهج التعليم العالي بمتطلبات التنمية ، وتهتم باستمرار بقطاع التعليم العالي ، والتخطيط له ، ونحن اذنبطق ديمقراطية التعليم نحرص في الوقت ذاته على أن نحافظ على سوية التعليم ، وأن نرفعها ، وقد سبق أن اشرنا الى أن التطور الحاصل في ظل الحركة التصحيحية في مجال التعليم يتمثل في تلك الانجازات التي تحققت في حقبة كبيرة من الزمن ، فإينما ذهبنا ، وفي أى جهة تطالعنا تلك الصروح التي شيدتها الدولة بتوجيه من الرئيس الأسد بإحداث الجامعات ، وزيادة عدد الكليات ، والمعاهد ، وتوفير الأبنية المناسبة للكليات ، والمعاهد ، والتي تضم القاعات ، والمدرجات ، وقاعات المطالعة ، والمكتبات .

ثالثاً : الإعلام

بداية لابد أن نشير الى حقيقة هامة ، وهي ان السمة البارزة للإعلام السوري منذ الحركة التصحيحية هي تركيزه على القضايا القومية . وكما يقول وزير الاعلام محمد سلمان فإن من أبرز أهداف حزب البعث الوحدة العربية ، وهذا يعنى ان التزامنا بالقضايا العربية مسألة تنبع من التزامنا ، ومسئولياتنا القومية ، وإن قوة العرب في وحدتهم ، كما أكد الرئيس حافظ الأسد .

ويكفى أن نشير في هذا المجال الى أن ماحقه العرب من انتصار في حرب تشرين ، أكتوبر المجيدة ، ماكان ليتم لولا توافر التضامن العربى ، وإرادة القرار الواحد في سورية ومصر .. ان وحدة القرار ، والرؤية ، والعمل حيال التحديات التي تجابهها أمتنا العربية ، وفي مقدمتها الغزوة الصهيونية الاستيطانية كفيلة بإيجاد معادلة جديدة في المنطقة تتحقق من خلالها أهداف العرب في الوحدة ، وبناء المستقبل المتحرر من كل أشكال العدوان ، والتخلف ، ويدهى أنه كلما كان العرب موحدي القرار ، والرؤية ،

■ الفصل الرابع

والعمل ، فإن مكانتهم الدولية تتعزز ، وفاعليتهم تكبر خاصة في هذا العصر الذي يشهد تحولات جوهرية في اتجاه التكتلات ، والتجمعات الدولية .

اهتمام الرئيس حافظ الأسد بالاعلام منذ الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ تناول الشكل ، والمضمون ، فعلى صعيد الشكل أقيمت مؤسسات عديدة ، وحديثة سواء على مستوى الوسائل الاعلامية ، أو المرئية ، أو المسموعة ، أو المكتوبة ، فتأسست صحيفة مركزية جديدة في عهد الرئيس حافظ الأسد هي مؤسسة تشرين ، وعلى صعيد الاذاعة تطورت تطورا كبيرا ، وأصبحت تمتلك محطات واسعة على كافة الموجات ، وبالنسبة للتلفزيون أصبحت له محطات تغطي كل سورية ، وبعض الاقطار المجاورة ، وبالنسبة للمؤسسات الاعلانية التي تخدم المؤسسات الاعلامية الأساسية أيضا وجدت كمؤسسة الاعلان ، ومعاهد لاعداد الصحفيين ، واستحدثت قسم في كلية الآداب بجامعة دمشق ، هو قسم الصحافة لتخريج الكوادر الصحفية .

كما تم الاهتمام من حيث المضمون بالرسالة الاعلامية الى المواطنين ، فكان هناك مايساعد على أن يكون الخطاب السياسي الى الناس مقنعا لأن الانجازات كانت موجودة ، وساعد الاعلام خاصة في السنوات الأخيرة في نشر التوعيات الثقافية والسياسية ، كما لعب الاعلام في سورية دورا كبيرا أثناء حرب تشرين ، والانجازات التي تحققت في تلك المعارك ساعدت كثيرا على الارتقاء بالاعلام السوري الى مستوى جيد ، وايضا ارتقاء الاعلام الحزبي بمصداقيته ، وأصبح هناك مصداقية للأخبار التي تصدر عن وكالة الانباء السورية ، وعن الصحف السورية ، والاعلام في عهد الرئيس الأسد ازدهر ازدهارا كبيرا ، وبالطبع فإن هناك مجالات ، وأفاقا واسعة يطمح اليها الاعلاميون مع ماتحقق ، لأن الاعلام وبفعل تطور وسائل الاتصال والتقنية الحديثة هو دائما عملية الثورة الأسرع في العالم ، ومواكبتها ليست بالمسألة الهينة .

دور الاعلام

يقول الرئيس حافظ الأسد « إن دور الاعلام أهم وأشمل .. فهو وسيلة تثقيف تحتاجها الغالبية العظمى من جماهير الأمة العربية ، ولذلك نؤكد على أن يكون دور الاعلام في خدمة أوسع الجماهير ، ولكي يستطيع ان يكون كذلك فلا بد أن يرتفع بأجهزته ، والعاملين فيه الى مستوى هذه المسئولية ، وهكذا فنحن نريد الاعلام أداة تغيير ، وتطوير نحو الأفضل في كل مجالات الحياة » .

أدراك الرئيس حافظ الأسد لمكانة الاعلام ، ودوره في المجتمع السوري ، خاصة في هذا العصر الذي شهد ثورة علمية ضخمة ، كان له أكبر الأثر في الارتقاء بمهمة الاعلام بالمجتمع ، وتعزيز دوره في البناء الانساني .

■ حركة التصحيح ■

وقد استطاع الاعلام السوري ان يواكب التطورات التي تحققت في سورية شكلا ، ومضمونا .

شكلا : بامتلاكه لاحداث ماتوصلت اليه الحضارة المعاصرة من انجازات علمية ، وتكنولوجية اختصرت الزمان ، والمكان ، وحولت العالم الى قرية صغيرة ، ومضمونا بالتزامه بأهداف الثورة ليكون أداة بناء في يد لا سلاحا خطيرا في يد اعداء الثورة .

استند الاعلام السوري في انطلاقته بعد الحركة التصحيحية على المكانة التي احتلها في فكر الرئيس حافظ الأسد الذي يرى « ان دور الاعلام في هذه المرحلة التاريخية دور كبير ، ويكاد يكون المحرك الأهم للجماهير ، وربما من أهم وسائل الثقافة أيضا » .

وكان توجيه الرئيس الأسد الدائم هو تأكيد المصادقية والاعتماد على التحليل العلمي ، والدقيق ، وفهم التاريخ ، واستيعابه ، والإيمان المطلق بأهداف الأمة العربية ، والاخلاص لها ، والنضال من أجل تحقيقها ..

الشيء المبهر أيضا أن الرئيس حافظ الأسد ، ومن خلال إيمانه بالاعلام السوري يحرص على تزويد الاعلام بالحقائق المجردة ، وقد تجل ذلك بشكل واضح خلال حرب تشرين أكتوبر التحريرية ، التي تعتبر من أهم المعارك التي خاضتها الأمة العربية ، حيث كان الاعلام مواكبا لها خبرا ، وتعليقا ، وتحليلا ، ودراسة استراتيجية عسكرية ، وبنفس الدرجة في الحكمة ، والوعي ، والفهم يتعامل الاعلام السوري مع مختلف القضايا العربية ، والدولية ، ويعتز الصحفيون العرب بنفس درجة اعتزاز الصحفيين السوريين بأن وزارة الاعلام في سورية المصدر الأساسي لتزويدهم بكافة المعلومات المتصلة بسورية ، كما أن وزارة الاعلام وضعت الخطط ، والبرامج المختلفة للنهوض بالمؤسسات الاعلامية المقروءة ، والمسموعة ، والمرئية ، وقد حققت وزارة الاعلام خلال السنوات الأخيرة علاقات تعاون ، وصداقة مع العديد من المؤسسات الصحفية العربية ، والاعلامية ، وأقامت جسور تواصل مع جميع الدول الشقيقة ، والصديقة من خلال بروتوكولات التعاون الاعلامي التي أبرمتها معها ، وتستقبل الوزارة دورا البعثات الاعلامية كما توفد الى الدول الشقيقة ، والصديقة البعثات الاعلامية لتحقيق المزيد من علاقات التعاون ، وتبادل الآراء حول مختلف القضايا التي تهم سورية ، أو التي تتعلق بالدول الشقيقة ، والصديقة ، وتنطلق الوزارة في عملها من توجيهات الرئيس حافظ الأسد الذي يرى أن الاعلام السوري جزء لا يتجزأ من الاعلام العربي ، بل هو اعلام تحمل مسئولية الدفاع عن قضايا الأمة العربية ، كما تحملت سورية مسئولياتها تجاه تلك القضايا .

جماهيرية الاعلام السورى

خلاصة القول فإن الاعلام السورى ، وخاصة فى السنوات الاخيرة قد شهد انطلاقه كبرى ، حيث جرى تنشيط واسع لأجهزة الاعلام والتلفزيون ، وكانت فى المقدمة توسيع محطات الارسل ومحطات التقوية ، وحدثت أجهزة التلفزيون ، ووسعت برامجها ، كما وسعت مديرية تبادل البرامج ، والأخبار مع الدول العربية الشقيقة المجاورة ومع كل دول العالم ككل ، ووسعت دائرة الاتصال مع الأقمار الصناعية ، كل هذا ساهم فى تنويع وتطوير وسائل الاعلام المرئية خاصة ، والمسموعة .. والذى ساهم فى تحقيق مصداقية الاعلام السورى أيضا هو القدرة الفائقة لمؤسسات الاعلام فى إيصال الرأى والموقف والصورة ، والخبر بكامل تفصيلاته من الخارج والداخل بحياد تام ، الأمر الذى أعطى مصداقية كبيرة للاعلام السورى وأعطى انتشارا أكثر لهذا الاعلام ، الذى حاول أن يستفيد من تقنيات العصر ومستجداته بعقل مفتوح ، ومتوازن ، وفى ظل سياسة هادئة أخذت فى الاعتبار بالدرجة الأولى مصلحة الشعب السورى والأمة العربية ، وفى ظل الحرص على التفاعل بين الحضارة العربية مع الحضارات الأخرى ، ومعروف أن الفن والاعلام هما المرآة التى يمكن أن تعكس مثل هذا التلاقى الحضارى ومثل هذه المواقف بهدوء ، وتشويق ، ولقد حاول الاعلام السورى أن يوظف كل هذه الأمور ، وكل هذه التقنيات الجديدة بما يحقق وصولا أسرع الى المشاهد والقارىء ، ويحقق مصداقية أيضا فى نقل ما يجرى فى العالم بتوازنه ، وبصدق ، وكل هذا أيضا ساهم فى انتشار الاعلام السورى ، وفى الموقف السياسى المتوازن للقيادة السورية .

ولكن الى أى مدى نجح الاعلام السورى فى توضيح الخطاب السياسى ، وما هى المقومات التى اعتمد عليها ؟ وهل يمكن القول بأن الهدف القومى الذى استهدفه الرئيس الأسد ، استطاعت أجهزة الاعلام أن تعكسه محليا ، وعربيا ، وعالميا بشكل جيد ؟!!

فى البداية لابد أن نشير الى أن الاعلام السورى آمن فى وقت مبكر بضرورة التكامل بينه وبين كل أجهزة الاعلام العربى على اعتبار أن القضية القومية هى هاجس الجميع ، وسعى للتنسيق لمواجهة حملات التشويش ولغة التزوير للواقع والحقائق ، وخاصة حقائق التاريخ والحياة معا ، لأن محاولات التشويش والتزوير استهدفت بمجموعها زلزلة المواطن العربى ، وفكره ، وقطع الطريق بين الأجيال العربية ومستقبلها ، ولذلك حرص الاعلام السورى كما حرص الاعلام المصرى على أن تكون صورة المستقبل الذى تمشى اليه الأجيال الصاعدة واضحة ، وواحدة ، وتحقيق أقصى درجات التقدم الذى يستوعب حركة العصر ومتغيرات هذا العصر ، والقيم المنشورة ككل ، وكان واضحا أمام

■ حركة التصحيح ■

الاعلام في مصر وسورية أن وظيفته يجب أن تأخذ في الاعتبار الى جانب سرعة المعلومة والخبر ، وعنصر التشويق الذي يوصل الموقف والخبر والحدث ، التوازن المستمر بين المضمون والشكل في المجال السياسي ، وأيضا في مجال المنوعات والدراما ، ومن المؤكد ان الاعلام قد وفق في هذه الرؤية ، ولعل ما ساعد الاعلام أن الرئيس حافظ الأسد كان موفقا في ايصال رؤية واضحة لما يريد بلغة محددة ، وبعمق ، وبانتماء كامل لكرامة الأمة ومستقبلها .

ولقد عمل الاعلام السوري على أن ينقل هذه السياسة ، وأن يعكسها في مجالها المباشر ، وفي البرامج السياسية المباشرة ، وأيضا في المجال الدرامي ، وفي المجال التوثيقي ، وحقق نجاحات لا بأس بها ، ولازال يواصل دوره في تطوير وسائل الاتصال ، وفي تطوير لغة التواصل مع القارئ والمشاهد والمستمع ، وبما يعكس هذه السياسة التي تهدف إلى حضور عربي فاعل ومؤثر يعيد إلى هذه الأمة مجدها ، ودورها الحضاري الثري الذي تستطيع من خلاله أن تقف في وجه كل الاطماع والتحديات والاطار التي تهدد هذه الأمة بكامل أجهزتها .

شيء آخر لابد من الإشارة اليه وهو أن أجهزة الاعلام السورية من خلال الندوات التي أقامتها ، والمهرجانات التي نظمتها نجحت في نقل الفكر القومي للرئيس السوري عربيا وعالميا والدليل على ذلك التعليقات التي تكتب هنا وهناك ، والدراسات التي تنشر في مختلف أرجاء العالم ، وتصل أصداؤها إلى دمشق ، والنجاحات في كل عام تزداد في هذا المجال عن العام الذي سبقه .

التكامل الإعلامي بين دمشق والقاهرة

يجيء الاعلام الحديث في مقدمة العناصر ذات الفاعلية في تحقيق الربط ، والتقارب بين الشعوب ، وكوسيلة متطورة للاتصال الجماهيري في عصر المتغيرات التكنولوجية ، والسياسية ، والثقافية ، وهذا يتطلب من رجاله خبرة ، ودراية ، وحسا سياسيا متميزا ، ومعرفة واسعة تؤهلهم لإدارة هذا الجهاز البالغ الحيوية بألياته البالغة الأهمية من مسموعة ، ومقروعة .. ومرئية ..

ومنذ حركة التصحيح في سورية الشقيقة عام ١٩٧٠ والتي قادها الرئيس حافظ الأسد ، وقطاع الاعلام يشهد طفرة هائلة يقودها الآن الدكتور محمد سلمان وزير الاعلام وقراءة متعمقة في تاريخ العلاقات المصرية السورية فهو تاريخ متفرد يترجم وحدة المصير ، والهدف ، والنضال بين شعبين شقيقين لهما مكانتهما المرموقة على خريطة الوطن العربي .. هذه الرؤية يطرحها وزير الاعلام في النقاط التالية :

■ الفصل الرابع

عندما قال السيد الرئيس حافظ الأسد بأن مصر ، وسورية ما اجتمعتا مرة الا وكان ذلك لمصلحة شعبيهما ، والأمة العربية .. فإن صدق هذه المقولة يتأكد من خلال التاريخ ، وفي معركتى عين جالوت ، وحطين ، ثم حرب أكتوبر « تشرين » حيث سجل التاريخ الحديث قدرة ، واقتدار الانسان العربى فى استخدام وسائل الحرب الحديثة .

إن العلاقات المصرية السورية قد تطورت تطورا ملحوظا فى المجالات السياسية ، والاقتصادية ، والاعلامية ، وهى علاقة تضرب بجذورها فى عمق التاريخ ، وتترجم حرصهما على وحدة الأمة العربية ، والدفاع عن مقدساتها ، وهذا ما يتعزز الآن فى ظل قيادة الرئيسين حافظ الأسد ، وحسنى مبارك ، وقد تبدى هذا التعاون الكبير فيما جرى من تشكيل موقف عربى موحد لرد الخطر عن الأمة ، وفى مقدمة هذه القضايا الغزو العراقى للكويت ، والهجرة السوفيتية المكثفة إلى الأرض المحتلة .

وإذا كان العرب قد بدأوا منذ أكتوبر سنة ١٩٩١ عندما عقد مؤتمر مدريد بخوض معركة السلام فلا بد هنا من الاشارة بدور مصر الاساسى فى هذا المجال ، لما تتمتع به من ثقل سياسى عربى ، ودولى ، ومن الالتزام بقضية السلام وفق قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ وعلى أساس مبادلة الأرض بالسلام ، وهذا يعنى استعادة جميع الاراضى العربية المحتلة ، وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى ، وتعرية النهج الاسرائيلى التوسعى العدوانى ، ورفضها الانصياع للشرعية الدولية .. وبالرغم من رغبتنا فى اقامة السلام العادل ، والشامل الذى عبرنا عنه بمشاركة وفدنا فى مؤتمر مدريد ، وبما قلناه فى المؤتمر والمحادثات الثنائية فى واشنطن حيث قدمنا ورقة عمل سورية متكاملة تنطلق من شمولية الحل على جميع جبهات الصراع ، فإن اسرائيل مازالت تناور وتتهرب من استحقاق السلام .

ويؤكد وزير الاعلام فى اجابته عن سؤال حول العلاقات بين مصر ، وسورية أنها جيدة ، ويضيف الدكتور محمد سلمان أنه من خلال اللقاءات التى جرت بينه ، وبين صفوت الشريف وزير الاعلام المصرى جرى الحوار حول العديد من الأمور بشأن تنسيق المواقف المشتركة ، وتشكيل لجان لوضع أسس تطوير هذه العلاقات ، وتبادل الخبرات ، والتعاون بين وكالتي الانباء ، والاستفادة من الانتاج المصرى ، والسورى الفنى ، والثقافى ، مع تكثيف تبادل زيارات الوفود الرسمية ، والفنية فى المهرجانات ، واللقاءات الثقافية ، والفنية بين البلدين .

ومع التطور الكبير فى وسائل الاتصال المرئية ، والمسموعة ، والمقروءة يقول وزير

■ حركة التصحيح ■

الاعلام السوري : إن الوزارة تواصل تحديث الأجهزة لتواكب التطور العلمى ، كما تنسق مع الدول العربية الشقيقة بشأن الاستفادة من الأقمار الصناعية فى تبادل الرسائل الاخبارية ، والبرامج الثقافية ، والسياحية ، والرياضية ، وتطوير هذه المجالات بشكل أفضل يتطلب التعاون ، والتنسيق لتحقيق التقارب بين المواطنين العرب ، وتجربة الشقيقة مصر فى هذا القطاع غنية ، ويمكن أن تكون مصدرا رئيسيا فى تزويدنا بمختلف الخبرات التى تعزز علاقتنا الاخوية المشتركة .

السياسة السورية عربيا ودوليا بعد الحركة التصحيحية

كثيرة جدا هى الشواهد التى تؤكد أن البعد القومى كان ولا يزال المكون الاساسى للسياسة العربية السورية بأبعادها المختلفة ، فالقرار السورى ، قومى عربى فى أساسه ، ومنبعه ، وفى مسراه ، وفى مجراه ، وفى وسائله ، وفى أهدافه .

والحديث عن السياسة السورية عربيا هو الحديث عن المضمون السياسى القومى بمعنى أن استخدام هذا العنوان انما يستهدف الحديث فى المنطلق ، والفهم العربى السورى فى المسائل ، والقضايا ، والتحديات المطروحة فى الساحة العربية ، وسبل تحقيق الامن القومى العربى ، والأهداف القومية التى تسعى إلى تحقيقها الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، وفى مقدمتها الوحدة العربية ، عربوية السياسة السورية فى منطلقاتها ، ووسائلها ، وأهدافها هى المزية الجوهريّة التى تميز السياسة السورية تاريخيا عن غيرها من السياسات فى الأقطار العربية ، وهى التى جعلت سورية هدفا دائما للقوى المعادية للأمة العربية ، وفى مقدمتها الكيان الصهيونى العدوانى ، لقد عُرِفَت سورية دوما بأنها قلعة الصمود القومى لمواجهة كل التحديات ، والأخطار ، وبأنها راية ، وشراع الوحدة العربية المنشودة ، وانطلاقا من ذلك فقد كانت كل قضية قومية هى قضية سورية بالدرجة الاولى ، فى وجدان ، ووعى ، ونضال ، وتطلعات الشعب العربى ، إلى المستقبل ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى بدءا من قضية الكفاح الوطنى ضد المستعمر من أجل استقلال أقطار المغرب العربى ، إلى قضية الكفاح الوطنى من أجل استقلال أقطار الخليج العربى ، ومن هذه إلى الوقوف بحزم فى وجه العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وإلى التمسك بالحزم بوحدة السودان شمالا ، وجنوبا .

كذلك فإن قضية فلسطين هى قضية سورية بقدر ما هى قضية فلسطينية ، وقضية لبنان هى قضية سورية .

■ الفصل الرابع

ومنذ قيام الحركة التصحيحية بقيادة الرئيس حافظ الأسد انتقلت سورية من حالة العزلة والتشنج والصراع الداخلي إلى ميدان الفعل والتأثير اقليمياً ، وعربياً ، وعالمياً ، نقول : منذ قيام الحركة التصحيحية ، والتضحيات التي تقدمها سورية من أجل الحفاظ على وحدة ، واستقلال ، وعروبة لبنان لا تحصى ، تكفى الإشارة إلى صمود سورية ، وتصديها البطولى للغزو الاسرائيلي على لبنان ١٩٨٢ ودعمها غير المحدود لرجال المقاومة الوطنية اللبنانية الذى كان من نتائجه ارغام الغزاة الاسرائيليين على الانسحاب من معظم الاراضى اللبنانية التى احتلت آنذاك ، واجبار قوات المارينز ، وقوات حلف شمال الاطلسي ، على الانسحاب من بيروت ، واسقاط اتفاق السابع عشر من مايو / أيار الذى وقع مع اسرائيل ، والذى كان يهدف إلى تحويل لبنان إلى محمية اسرائيلية كما سيلي ، وما هى ذى سورية تواصل دعمها غير المحدود للمقاومين اللبنانيين من أجل تحرير ما بقى من أجزاء محتلة في الجنوب اللبناني ، وكما يقول الرئيس حافظ الأسد: لو لم ننطلق من أرضية قومية لما كان الاستعداد لبذل ما بذلناه من جهود ، وتضحيات خلال سنوات عديدة من أجل لبنان ، وما كان باستطاعة أى بلد غير سورية أن يفعل ما فعلناه ، وأن يضحي كما ضحينا من أجله .

يكفى أن نشير إلى وقوف الرئيس الأسد بحزم ، وصلابة في وجه المخططات المستهدفة تقسيم العراق ، والتأكيد على وحدة العراق الجغرافية ووحدة شعبه .

يكفى أن نشير أيضاً إلى أن سياسة سورية لازالت تتجه سلماً ، أو ايجاباً مع أى دولة تبعا لموقف هذه الدولة من القضية الفلسطينية ، فالرئيس الأسد مع القضية الفلسطينية ، ومع الذين يدعمونها ، وهو عدو لدود لمن يقف ضد هذه القضية .

بصمات الرئيس حافظ الأسد على الوحدة العربية ، والتضامن العربى واضحة ، ولذلك لم يكن غريباً أن يبادر بعد تسلمه رئاسة الجمهورية بأيام إلى إعلان اتحاد الجمهوريات العربية مع مصر ، وليبيا تجسيدا لإيمانه العميق بالوحدة العربية ، وإعادة اللحمة الوطنية ، يكفى أن نشير أيضاً إلى الجهود الكبيرة التى بذلها من أجل تجنب العراق الكارثة التى حاقت به من جراء مؤامرة صدام حسين في احتلال الكويت ، حيث بذل مع الرئيس حسنى مبارك ، وحكام العرب الآخرين الكثير لتجنب العراق الكارثة التى حلت به ، ولقد بذل ، وببذل الكثير لمساعدة الشعب الليبي على اجتياز محنته بعد قضية « لوكربى » ، وجهوده المبذولة الآن من أجل تطويق النزاع بين المملكة العربية السعودية وقطر ، والنزاع الذى نشب مؤخراً بين ايران ، والامارات العربية .

بصمات الرئيس الأسد في العمل العربى دفعت بعض الزعماء ، والصحفيين

■ حركة التصحيح ■

العرب إلى وصفه « بحكيم العرب » لما له من بعد نظر ، ومن إيمان بحتمية انتصار الأمة العربية ، وبإمكانات النهوض المتوافرة لدى تجتاز الأزمات التي تتعرض لها الآن .

سياسة واحدة في التعامل مع الشرق والغرب

ما يميز الرئيس حافظ الأسد في مباحثاته الخارجية انها سياسة واقعية مبنية على فهم تاريخي لقدرة القطر السوري ، وقدرة المنطقة العربية وعلى قراءة تاريخية للسياسة الدولية ذات العلاقة في الشرق والغرب ، والرئيس في سياسته يطرح دائما أننا يجب أن نتحاور مع الجميع ضمن الاحترام المتبادل لسيادتنا ، واستقلالنا الوطني ، ولأسيما وأن سورية تحترم سيادة ، واستقلال الآخرين أيضا ..

الرئيس الأسد لم يحاول في يوم من الأيام أن يجعل القرار السوري رهنا بيد قوى عظمى أخرى ، وعلى الرغم من العلاقة الوثيقة مع الاتحاد السوفيتي سابقا ومع كتلته ، فقد كان القرار قراراً عربياً سوريا يتوخى المصلحة العربية السورية والعربية أصلاً وكان هذا واضحاً منذ البداية لدى القوى العظمى ، ولذلك كان يتعامل مع الآخرين بوضوح ، وكان الآخرون يتعاملون معه من خلال فهم هذا المنطلق ، لم يقل الرئيس حافظ الأسد شيئاً إلا اجتهد لكي يعمل به ويحافظ عليه ويقي به ، ولذلك كانت سياسته تتسم دائماً بالصراحة ، والموضوعية ، ومن خلال الفهم الجيد للمصلحة العربية ، والفهم الجيد للظروف التاريخية في العلاقات الدولية ، كان الرئيس الأسد يتقدم للحوار مع الدول الأجنبية ، ومع القيادات المتعاقبة على الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان يردد دائماً نحن نحترم الشعوب الأخرى ونحترم إنجازاتها ، ولذلك فإن الشعوب إذا كانت صديقة فيما تطرحه بشأن حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وحقوق الإنسان ، والتعاون المتكافئ المبني على الاحترام المتبادل ، سوف تجد كل الترحيب بالتعامل معها .

وكما يقول الرئيس الأسد : نحن ليس لدينا مشكلة مع الآخرين ، مشكلتنا مع الآخرين هي أن إسرائيل جاءت تحتل أرضاً لنا ، وجاءت تطرد شعباً شقيقاً من أرضه ، وجاءت تحاول أن تتوسع بالعدوان ، فهل ينسجم هذا مع حقوق الإنسان ، ومع حق تقرير المصير ، ومع مبادئ ، وميثاق الأمم المتحدة !!!

نحن لا نريد أن نعتدى على أحد ، ولا نريد أن نُلجأ إلى الأذى بأحد ، ونحن أصحاب عقول متحضرة ، وسورية لها دور حضاري ، وتعامل مع الآخرين بهذا المنطق ، وعندما التقى الرئيس حافظ الأسد مع قادة فرنسا الذين تعاقبوا على الحكم مثل « فاليري جيسكار دستان » « وفرانسوا ميتران » وغيرهما كان يقول لهما : إن لبنان

■ الفصل الرابع

عربى ، ولذلك لا يجوز أن تكونوا أوصياء عليه ، ولو حاولتم ذلك ، فإنكم ستخسرون لأن اللبنانيين أنفسهم لا يريدون لأحد من خارج لبنان أن يكون وصيا عليهم ، وسورية عندما تفعل أى شيء فى لبنان لا تفعله كالغريب ، وإنما تفعله بحكم الجوار الجغرافى ، وبحكم التضامن العربى ، ووفق قرارات الجامعة العربية ، وبطلب من الشرعية اللبنانية ، فضلا عن أن السوريين ، واللبنانيين أقرباء ، فكيف يمكن أن تكونوا أوصياء علينا ، هذا شيء لن يكون لمصلحتكم ، ولا لمصلحة لبنان ..

عندما جاء مندوب البابا يقول للرئيس حافظ الأسد : إن المسيحيين فى لبنان يجب أن يكونوا تحت الوصاية ، أو الولاية ، كان الرئيس الأسد يقول : المسيحيون هم عرب منذ أقدم العهود ، حتى السيد المسيح عاش معنا هنا ، ومعظم السوريين كانوا يدينون بالمسيحية حتى جاء الاسلام:وقد استقبلوا المسلمين كأولاد عمومة ، وفضلوهم على الرومان من بنى دينهم ، وأنتم تتعاملون بمنطق لا يمكن أن يسود عندنا ، المسيحى العربى لا يقبل وصايتكم ، ونحن نؤكد أن لهم مالنا ، وعليهم ما علينا ، ولذلك لا نقبل أن تحدثونا وكأننا نحن فى موقف التعارض مع المسيحية ، بالعكس نحن نرى أن العرب المسيحيين ساهموا فى صنع الحضارة العربية جنبا إلى جنب مع اخوانهم المسلمين، ولذلك عندما رأوا هذه الموضوعية ، وهذه الصراحة ، وعندما كانوا يتصلون بالآخرين ، كانوا يجدون مصداقية لكلام الرئيس الأسد على الواقع ..

وعندما تحدث الرئيس حافظ الأسد مع الأمريكان قال لهم : « نحن لسنا تبعا أو شيوعيين ، نحن نسعى وراء مصالحنا الوطنية ، ونحن نريد أن نحتفظ بعلاقة جيدة معكم ، ومع كل الدول ، ولكن أنتم تنظرون إلينا نظرة أعداء ، نحن لسنا معادين للشعب الأمريكى ، ونحن نعتز بالانجازات الحضارية التى أنجزها الشعب الأمريكى ، ولكن إذا أردتم أن تكون علاقتنا واضحة فعليكم أن تفهموا مشاعرنا الوطنية .. كيف يمكن أن تقبلوا دولة تعتدى ، وتضم أراضى الغير ، ولا تقفون منها موقفا يؤدى إلى نشوء العدالة ، وانتصار الحق ، بل تتخذون المواقف المغايرة ؟! ، إذا كنتم تريدون فعلا السلام ، والعدل ، والبحث عن الحق ، فسوف تقفون الى جانب الحق العربى ..

الصراحة فى مقابلات حافظ الأسد - مع نيكسون فى دمشق ، ومع الرئيس بوش ، ومع الذين تعاقبوا على الخارجية الأمريكية والذين قابلوه . جعلتهم يؤمنون بأنه رجل مثقف وطنى صادق المشاعر ، يجيد الدفاع عن قضيته ، ولا ينكر حقوق الآخرين ، ولذلك كتبوا عنه ما كتبوه فى مذكراتهم ، سواء فى مذكرات نيكسون ، وكيسنجر ، وفانس ، وكارتر ، وجميع من كتبوا عن الشرق الأوسط تكلموا بموضوعية عن الرئيس حافظ الأسد .

المصلحة العربية محرك أساسي للسياسة الخارجية السورية

في ظروف الحرب الباردة كان هناك السعى الدائم من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية على دعم إسرائيل ، وتقويتها على حساب العرب ، ونستطيع أن نستشهد بما جرى في حرب ١٩٤٨ ، حيث مكنت إسرائيل من الانتصار على العرب بدعم المعسكر الغربي الذي نهض بعد الحرب العالمية الثانية ، وفي عام ١٩٥٦ شاركت دولتان مهمتان من المعسكر الغربي ، وهما فرنسا ، وبريطانيا ، بالإضافة إلى إسرائيل في غزو مصر ، وفي عام ١٩٦٧ ، عندما اعتدت إسرائيل على الدول العربية ، وحقت ماحققت فقد ساعدها على ذلك التسليح الأمريكي ، والفرنسي ، والبريطاني ، الأمر الذي مكن إسرائيل من تحقيق التفوق التكنولوجي ، والتسليحي ، ومن احتلال أجزاء جديدة من الأراضي ، الأمر الذي اضطر العرب اضطراراً لكي يعقدوا معاهدات ، أو صداقات مع المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي القائم آنذاك كما فعلت مصر وسورية اللتين وجدتا الأبواب الغربية موصدة بوجهيهما للحصول على السلاح مالم يقدمتا تنازلات جوهرية لإسرائيل ، وسلكتا طريق التعامل مع الدول التي تعتبر نضال العرب نضالاً مشروعاً وعادلاً وتحريضاً .

الرئيس الأسد في هذه الفترة كقائد من القادة العرب الذين عاشوا فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وساهموا إسهاماً كبيراً في النضال في فترة الخمسينات ، والستينات ضمن الأحداث الكبيرة للأمة العربية .. طرح مقولة أنه يجب أن ننظر في سياستنا نحو العالم الخارجى إلى موقف هذا العالم من قضايانا العادلة ، وعلى رأسها قضية شعب فلسطين ، ولذلك فإن موقف سورية بقيادة الأسد كان يتأثر سلباً ، أو إيجاباً بموقف هذه الدول من القضايا العادلة للأمة العربية .

وكان الرئيس حافظ الأسد يقول دائماً : ليس المهم أن تعقد معاهدات بين دولة ، وأخرى .. نحن لم نعقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتي حتى فترة الثمانينات .. في الخمسينات ، والستينات ، والسبعينات لم يكن بيننا ، وبين الاتحاد السوفيتي أى معاهدات صداقة ، ومع ذلك كنا نلقى منه الدعم والمساندة السياسية والعسكرية وفق مصالحنا المشتركة ، ووفقاً لاحترام متبادل لسيادة كل دولة واستقلالها .. ولذلك تعامل الرئيس الأسد مع الاتحاد السوفيتي دون تبعية .

يكفى دليلاً على ذلك أن الاتحاد السوفيتي كان له رأى مغاير لرأى سورية في لبنان ، وفي حرب الخليج ، وفيما يجب أن يكون عليه حل مشكلة الشرق الأوسط .. وسورية تؤمن بالسلام القائم على العدل ، ولكن تؤمن أيضاً بالدرجة نفسها بحق كل الشعوب في

■ الفصل الرابع

أن تكافح من أجل الحرية والاستقلال ، وفي فترة من الفترات كان الاتحاد السوفيتي يُقتر على سورية في الأسلحة ، ويسعى إلى خلق هدوء يمهد للتفاوض ، ومع ذلك كانت سورية تقول للاتحاد السوفيتي أن الولايات المتحدة تسلح إسرائيل بكل الأسلحة التي تمكنها بأن تكون دولة أكثر قوة في المنطقة ، والتي يعادل تسليحها تسليح العرب مجتمعين ، بل وتتفوق عليهم .

يضاف إلى ذلك أن الرئيس حافظ الأسد كان على خلاف مع الدول الغربية بالنسبة لقضايا كثيرة مثل قضية لبنان ، وقضية فلسطين ، وقضايا اقليمية أخرى ، ولكن ذلك لم يمنع من أن تكون هناك علاقة جيدة بين الرئيس الأسد ، وقادة دول المعسكر الغربي ، والمعسكر الشرقي ، كانت هناك أوجه خلاف كثيرة ، وكانت تصل إلى حد الصدام بين سورية ، والولايات المتحدة ، وحدث هذا الصدام في لبنان فعلا عندما أسقطت القوات السورية طائرات أمريكية ، وأسرت بعض الطيارين ، وكان الرئيس الأسد يقول : إذا أردنا أن نتعامل فيجب أن نتعامل من موقع الند للند ، ومن موقع الاحترام المتبادل ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة ، ولذلك فإن الإدارات الأمريكية المتعاقبة كانت تحاور الرئيس ، وترى أن موقفه الوطني موقف متميز ، وليس تابعا للاتحاد السوفيتي كما كانت تصوره الصهيونية .

بعض الناس في الغرب كانوا ينطلقون من ادعاء يقول : بأن سورية دولة ارامية ، وقد أثبتت الأحداث أن الأمر ليس كذلك ، وأن سورية دولة تدين الارهاب وتقاومه بقوة وانها دولة ترغب في تحقيق السلام العادل والشامل وفق قرارات الشرعية الدولية .. وبعد الزيارات المتكررة التي قام بها جيمس بيكر ، في سبيل الاعداد لمؤتمر مدريد ومشاركة سورية في هذا المؤتمر على أساس تنفيذ المبادرة الأمريكية التي اعتبرت ان قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ يشكلان الأساس في تحقيق سلام عادل وشامل للصراع العربى الاسرائيلى .

ولقد تأكد للجميع أن السلام هو منطلق من منطلقات السياسة السورية ، ولكنه للسلام القائم على العدل ، على احترام الشرعية الدولية ، دون تفريط في حبة تراب من الارض العربية المحتلة .

وعلى الرغم من تطورات الأحداث السياسية المختلفة ، فقد استطاع الرئيس الأسد وببراعة تُحسب له أن يحتفظ بعلاقات عربية متينة ، على سبيل المثال ، برغم خلاف الرئيس الاسد مع نظام صدام حسين في العراق ظل يتعاطف مع شعب العراق ، وكانت ولا تزال الاراضى السورية بيتا للمعارضة العراقية التي وجدت لدى الرئيس الاسد التفهم الكامل للوضع في العراق وحرص الرئيس الاسد على العراق وايران دفعه بعد الحرب العراقية ضد ايران الى العمل لمنع توسيع رقعة هذه الحرب وانهاؤها. وفي خلال حرب الخليج

■ حركة النصيب ■

فقد كان هو المدافع بغير تردد ، بل والمدافع للتأكيد مع الرئيس مبارك على أنهما لن يسمحا لأحد أن يهدد وحدة العراق الجغرافية ويقسم شعبه .

الوحدة العربية

في أحد مؤتمرات القمة لاحظ الذين استمعوا إلى الرئيس حافظ الأسد أنه خرج عن النص الذي كان قد أعدّه ، وأضاف بعض الفقرات الهامة حول موضوع التضامن العربي ، والحرب العراقية - الإيرانية .

الفقرات التي خرج فيها الرئيس الأسد عن النص جاء فيها : « سورية تقول دائما لأشء من دون محتوى ، التضامن ليس كلمة مجردة ، والوحدة ليست كلمة مجردة ، هذه كلمات لها مضامين ، نحن مع هذه المضامين نتصكك بها ، ولا نستطيع أن نتنازل عنها ، في كل وقت سورية تريد التضامن أولا : على أساس الميثاق العربي ، كل الميثاق العربي سورية تتقيد بها حرفيا ، ثانيا : على أساس قرارات القمة العربية وكل قرارات القمة العربية سورية تتقيد بها ثالثا : على أساس الميثاق الثلاثي وكل الميثاق الثلاثي سورية تتقيد بها حرفيا وأرجو من الأخوة أن يتحدثوني ، أو يتحدثوا بلدهم سورية في هذا الاتجاه ، في الإسراع .. في المسارعة .. في تطبيق قراراتنا ، ومواثيقنا التي وقعنا عليها ، والتزمنا بها طواعية ، واعتبرناها ومازلنا نراها معبرة عن إرادة شعوبنا . فلنلتزم بها لتضامن على أساسها ، لنفهم ، ولنفهم المواطنون العرب ، ولنفهم اخواننا المسلمون غير العرب على ماذا نحن متضامنون » .

وفي خطاب آخر للرئيس حافظ الأسد قال : الوحدة العربية هدف أسمى باعتبارها ضرورة حياتية بخوابها السياسية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والدفاعية .

الوحدة هدف قائم بذاته .. يتطلب شرف النضال في سبيل تحقيقه ، أما من يتحدث عنها ، ويضع أمامها العراقيل ، والمصاعب ، فإنه يضع نفسه بقصد ، أو بغير قصد في موضع الانعزال ، والتقوقع ، وحيث الانفصاليون ، والتجزئيين أعداء الوحدة ، وعندما ينتكس أي عمل وجدوى بعد تحقيقه فلا يدل على علة في هدف الوحدة ، ولا يجوز ، ولا يمكن أن يُبدى في نفوسنا القلق ، واليأس ، بل يحفزنا على تصعيد الكفاح ، ومواصلة الجهد لتحقيق الوحدة .. نحن سنستمر في نضالنا من أجل الوحدة ، ولا شروط لنا على من يريد أن يحاورنا في هذا الأمر إلا شرط تحقيق الوحدة « لذلك فإن هذا الإيمان ، وهذه الفلسفة تعتبر مواقف للحكم في سورية .. والفلسفة ليست لها عوامل متغيرة بعكس الكثير من المواقف التي يمكن أن نقول بأنها مواقف للحكم في بلد أو آخر .. الفلسفة التي يتبنّاها

■ الفصل الرابع

الرئيس الأسد هي فلسفة الوحدة ، وبالتالي عندما ينطلق في العلاقات مع أى قطر عربى شقيق ، فهو ينطلق من النظرة إلى المستقبل بأن مصلحة العرب في هذا القطر ، أو ذاك هي مصلحة واحدة ، وبالتالي لا يجوز إطلاقاً أن يكون الخلاف بين الحاكم والحاكم ، أو أى خلاف في وجهات النظر بين هذا ، أو ذاك ، لا يجوز أن يكون عاملاً للاحباط ، أو اليأس في تحقيق الوحدة العربية لأن هذا الخلاف الطارئ ، والمؤقت ليس خلافاً حول قضية الوحدة ، أو حول الجماهير العربية لأنها بطبيعتها وحدوية ، وإنما مرجعه وجود خلل في هذا النظام ، أو ذاك ، وعلينا أن نسعى لازالة هذا الخلل ، ولذلك لم ينظر الرئيس الأسد لموضوع العلاقات العربية بنظرة قصيرة المدى تفرضها مصلحة حاكم ، وإنما كان ينظر إليها بعقل الفيلسوف الذى ينظر الى المستقبل على ما يجب أن يكون ، ولذلك فهو كثير الصبر ، والناة عندما كان يتعامل مع القضية الفلسطينية باعتبارها القضية المركزية الأولى. ان الرئيس الاسد ينظر الى التاريخ والجغرافيا ، ويكسوهما بطابع الفلسفة القومية التى ترى ان مصلحة الفلسطينيين هي مصلحة العرب ، وأن قضية فلسطين هي قضية عربية بالدرجة الأولى وإذا انسلخت القضية الفلسطينية عن جسدها العربى ، أو عن مجالها العربى أصبحت قضية قطرية منعزلة قد تتعرض للانقسامات ، والتجزئة ، وقد تتعرض لإجهاز الأعداء عليها إذا ما خرجت قومياً عن اطار موقفها النضالى .

كان يخشى الرئيس الاسد على ما تؤول إليه القضية الفلسطينية من خلال النزاعات التى كانت تتم بين منظمة التحرير الفلسطينية على سبيل المثال ، وبين أى قطر عربى آخر ، كما حدث في الخلاف الأردنى - الفلسطينى عام ١٩٧٠ ، أو الخلاف الفلسطينى - اللبناني أو الخلاف الفلسطينى - الكويتى ، بعد غزو العراق للكويت ، أو الخلاف الفلسطينى - السورى ، كان الأسد يرى بحكمة القائد الفيلسوف أنه يجب النظر للقضية من حيث أهميتها الاستراتيجية بالنسبة للمستقبل العربى ، ولذلك كان يقول (إنه لا يجوز إطلاقاً أن يكون هذا الخلاف ، أو ذاك عاملاً ، أو سبباً لكى ندير ظهورنا لبعضنا البعض ، أو نقتتل على مجرد خلافات هامشية ، يجب أن ننظر للمستقبل ، وبعمق لكى نستطيع أن نصنع في الحاضر ما يجب أن يؤدى ، أو يصل بنا إلى هذا المستقبل ، الذى يمكن أن يكون فيه خلاصنا من الاحتلال ، والسير على طريق الحرية ولذلك عندما اختلفت سورية مع النظام الأردنى نتيجة دعم الحكومة الأردنية للأخوان المسلمين في مرحلة من مراحل السبعينات ، وبرغم ما مارسه من مساعدة لهم ومن إلحاق الأذى بالمواطن والمؤسسات السورية ، وبالرغم من أنه كان لدى سورية القدرة على توقيع العقاب ، كان الرئيس الأسد يرى بحكمته انه لا يجوز أن نعاقب شعب الأردن الشقيق على هذا ، ولذلك لم يغلق الحدود بين البلدين ، وظل التبادل التجارى

■ حركة التصحيح ■

مستمرا بل وظلت المشاريع المشتركة قائمة ، ولم يفلق باب الحوار مع الملك حسين حتى اضطر الملك حسين في يوم من الايام إلى الاعتذار ، وعبر شاشة التلفزيون مؤكدا أنه لم يكن على علم بما جرى ، وبأن سورية الشقيقة والرئيس الاسد يتمتعان عنده بكل الحب وعظيم الاحترام والتقدير .

في الحرب العراقية الايرانية كان لبعض دول الخليج نظرة تختلف عن نظرة سورية لهذه الحرب .. كان الرئيس الأسد يرى « بحكمته انه لا تناقض بين العروبة والاسلام » ولا يمكن اطلاقا لى مسلم أن يكون عدوا للعرب ولا يمكن لى عربى أن يخرج من روجه الاسلامية ، ولذلك كان يرى بأن ايران اذا كانت صادقة في ثورتها يجب أن تظل احتياطيا استراتيجيا للعرب ، ولا يصح أن تكون نقيضا للعرب ، بينما كان صدام حسين يقول أن هذه الحرب عربية فارسية وكان يتهم الايرانيين بالمجوس ، وهم مسلمون منذ دخول العقود الاولى للهجرة بعد الفتوحات التي تمت ببلاد فارس ، وكان بينهم صحابيون أجلاء في الاسلام مثل سلمان الفارسي ، وكان الرئيس الاسد ينظر الى التاريخ بأن استمرار الحرب فاجعة لا يمكن أن تتم إلا على حساب العرب والمسلمين ، وكان ينادى بأعلى صوت ليتوقف هذا الحريق المدمر وهذه النار .

وان الرئيس حافظ الأسد يسعى دائما للحوار والاتصال لكي تكون العلاقات العربية الاسلامية في أزهى صورها لأنه كان يؤمن ولايزال بأن المصلحة العربية والمصلحة الاسلامية واحدة ، وقد تحققت توقعاته ووجهة نظره بما جرى من نتائج مدمرة على البلدين وفي هذه الحرب التي دامت ثمانى سنوات بين العراق وايران ، ورغم ان النظام العراقي لم يترك وسيلة إلا وتآمر بها على سورية، ومع ذلك التقى الرئيس الاسد مع الرئيس العراقي صدام حسين في مؤتمر قمة عمان ، ومن ثم ومن خلال هذا المؤتمر تمت لقاءات كثيرة بين وزيرى الخارجية في البلدين بحثا عن أى وسيلة تنهى الخلاف بين الدولتين الشقيقتين حتى اثناء غزو العراق للكويت ، وبالرغم من تهجم صدام حسين وأجهزته الاعلامية على الرئيس الاسد ، وكبجرياء الفارس العربى أرسل له رسالة تعتبر من عيون الأدب السياسى ليثنيه عن بقائه في الكويت ويطلبه بالانسحاب حرصا على الجيش العراقى الشقيق وعلى الشعب العراقى الشقيق من الدمار، ويتعهد له بالوقوف معه في خندق واحد لمجابهة أى اعتداء يتعرض له العراق بعد انتهاء غزوه للكويت، وكما قلنا فإن الرئيس الاسد في نظريته للمستقبل ، ينظر من خلال بعد فلسفى في التاريخ لأن هذا هو ما يجب أن يكون ، والحالة المرضية لبعض الأنظمة العربية لا يمكن أن تثبت إلى ما لا نهاية لأن المناعة في الجسد كالتبيعة عند الإنسان تخلق ظروفا ضد المرض وتتخلص من عوامل الداء، ومابالنا بأمة يتجاوز عدد سكانها ٢٥٠ مليوناً وتعتمد على قارتين

■ الفصل الرابع

من الأرض..مساحة وامكانيات وثروات ، بالاضافة الى التراث والروح الحضارية الوثابة للامة العربية التي صمدت في وجه التحديات منذ آلاف السنين .

إذن الرئيس الاسد لا ينظر للسياسة بأنها صدى عقلية حاكم ما ، وانما ينظر لها باعتبارها صدى لنبض شعب ولفكر شعب ، وهذا الشعب ليس فقط في سورية وانما في كل البلاد العربية ولدى الانسان العربى على امتداد الوطن العربى .

لذلك ، فإنه اذا كانت السياسة هى فن الممكن ، فإنها عند الرئيس حافظ الأسد هى السير في الامكانيات المتاحة لايجاد امكانيات أكبر من واقع الفهم الموضوعى والتحليلي للامكانيات الكامنة في الأمة .

السياسة السورية في المجال العربى

وبعد :

فإن النماذج التى تؤكد أن البعد القومى هو المكون الأساسى للسياسة العربية السورية بأبعادها المختلفة كثيرة ومتنوعة ، ونعرض في الفصول القادمة لنماذج تؤكد هذه الحقيقة وتدعمها ، نماذج من لبنان ومن الخليج ومن قضية العرب المركزية وهى القضية الفلسطينية .



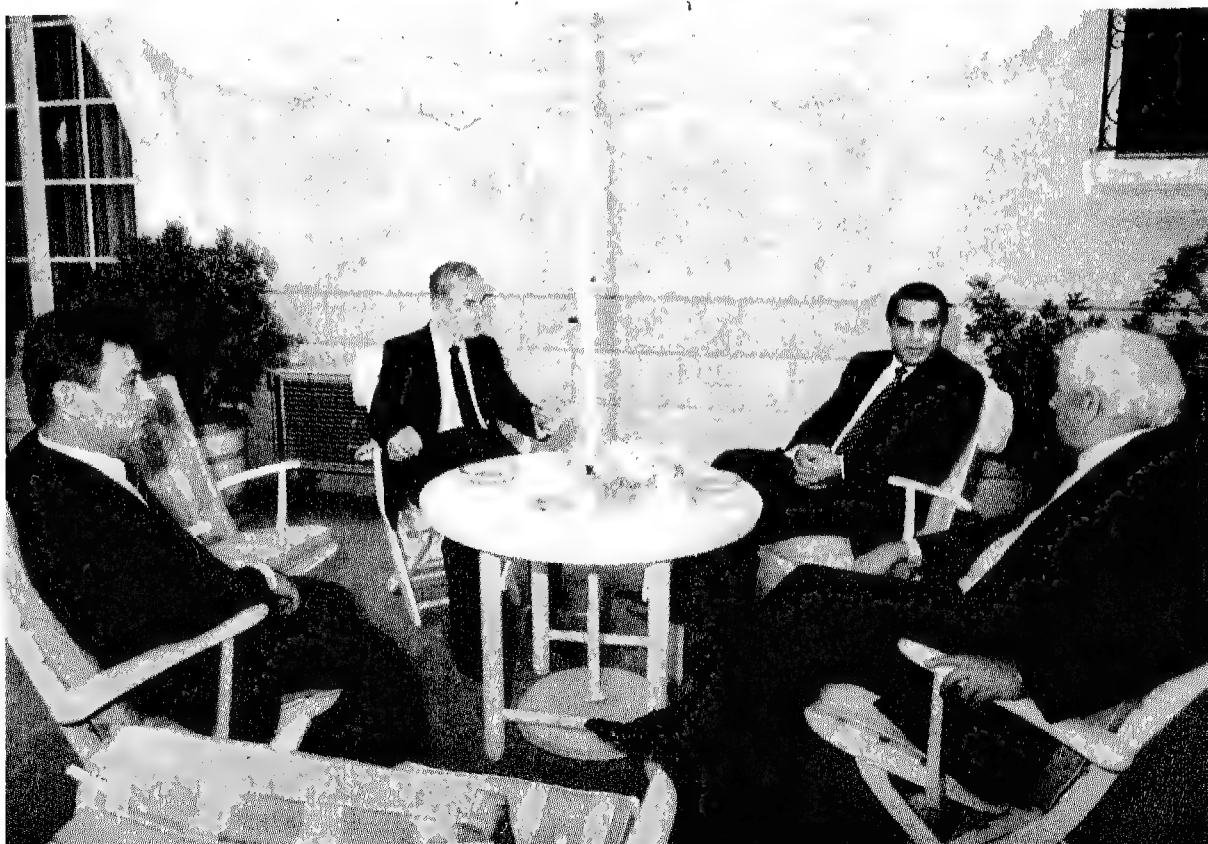


□□ بولي الرئيس حافظ الاسد اهتماما كبير لروح التسامح الديني في سورية وكثيرا ما يلتقي بمثل هؤلاء رجال الدين المسيحي « في الأعلى » ورجال الدين الاسلامي « في الاسفل » في جامع بني امية بمناسبة صلاة عيد الفطر المبارك ..



□□ الصورة في الاعلى : الرئيس حافظ الاسد ووزير الدفاع مصطفى طلاس يتفقدان الخطوط الامامية في الجبهة
المواجهة لجيش العدو .
□□ الصورة في الاسفل : الرئيس حافظ الاسد يغادر المسجد الاموى في ٢٧ تشرين الاول واكتوبر عام ١٩٧٣ ،
اول ايام عيد الفطر المبارك .













□□ الصورة في الأعلى : احد الاجتماعات الحزبية ويبدو فيها من اليسار الرئيس حافظ الاسد ، عبدالله الاحمر ثم محمود الزعبي ، وزهير مشاركة الى اليسار من الحلف ..

□□ الصورة في الاسفل : من الجزائر في ٢٦ تشرين الثاني ونوفمبر، عام ١٩٧٣ الرئيس حافظ الاسد يحضر القمة العربية السادسة مع وزير الخارجية عبدالحليم محدام ..



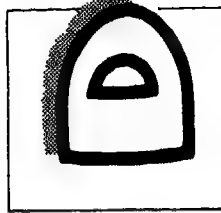








■ التاريخ لاشركة الأسد ■



قراءة في فكر الأسد

العلاقات السورية البنانية

- أرض واحدة وتاريخ مشترك .
- المبادرة السورية في لبنان .
- إلغاء اتفاق ١٧ ايار .
- ايقاف الحرب الأهلية واتفاق الطائف .

■ العلاقات السورية اللبنانية

جرى على لبنان من الأحداث ما جرى على سورية، فقد كان تابعا للدولة العثمانية، باعتباره جزءا من بلاد الشام، وبعد الحرب الكونية الأولى قسمت بلاد الشام، وكان لبنان أحد هذه الأقسام وخضع للانتداب الفرنسي.

ومنذ اللحظة الأولى للانتداب. أخذ الفرنسيون يعملون بمختلف الطرق على توطيد أقدامهم، وتحقيق منهجهم الاستعماري، والذي كان في مقدمة أهدافه الحيلولة بين لبنان، وبين تيار الحركة العربية، وحصره في نطاقه الإقليمي الخاص ليكون موطئ قدم ثابت لهم.

وقد ضاعفت فرنسا وقتذاك من جهودها في سبيل منع أي حركة قومية أصيلة في لبنان، وحالت دون قيام أي دعوة عربية، وفرضت رقابة شديدة على الصحف، ومنعت قيام الأحزاب، وحرمت عقد الاجتماعات وأشهرت سيف الإرهاب في وجه القوى الوطنية، والقومية حتى ينكمشوا في مواطنهم فلا يفكروا في العروبة ولا في القومية العربية، وبدأت فرنسا تستغل مسألة الطائفية المنتشرة في لبنان بصورة واضحة.

(ومن أمثلة هذه الطوائف نذكر السنين، والشيعة والدروز، والعلويين، والمارونيين، وطوائف أخرى من المسيحيين الأرمن) وحرصت فرنسا على تدعيم فكرة

■ الفصل الخامس

الطائفية والتعصب لها ، وأزكت روح التنافس بين مختلف الطوائف ، وأوهمت بعض الطوائف بدعاياتها الكاذبة المسمومة بأن فكرة القومية العربية من شأنها أن تُغلب طائفة على طائفة ، وأن محاربة هذه الفكرة تمكن الطوائف من الحفاظ على مصالحها ، وشخصيتها وتقاليدها الخاصة ، وقد كان من أنكى تصرفات فرنسا وإشرسها في لبنان تعميقاً لبذور الشقاق بين الطوائف جعل وظائف الحكومة ، والمناصب العليا قائمة على أساس الطائفية ، وقد وضع أساس الطائفية بصورة رسمية في المادة ٩٥ من الدستور اللبناني الذي وضعته فرنسا في عام ١٩٢٦ إذ نصت المادة المذكورة على : (بصورة مؤقتة والتماساً للعدل ، والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة ، وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك الى الاضرار بمصلحة الدولة) ، وبالإضافة الى هذا النص الخبيث في معناه نلاحظ أن الدستور في مجموعه لم يتضمن أى معنى من معانى السيادة للبنان .

على الرغم من نصه في المادة الأولى أن لبنان دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ ، وسيادة تامة ، وكانت مواد الدستور تهدف الى تخليد طابع الانتداب اذ كان ينص على اعتبار اللغة الفرنسية لغة رسمية ثابتة في البلاد (كانت المادة ١١ من الدستور تنص على أن القانون يحدد الأحوال التى تُستعمل فيها اللغة الفرنسية ، وكانت ألوان العلم اللبناني هى ألوان العلم الفرنسى، وفي وسطه شجرة الارز كرمز للبنان) وعلى الرغم من هذه السياسة الهدامة ، والضغط الشديد على أبناء لبنان فإن نفراً من أبنائه الأحرار ذوي المبادئ السامية والعقيدة العربية الراسخة صمموا على تعديل الدستور ، وحذف المواد التى تتعارض مع استقلال لبنان وسيادته وكان ذلك عام ١٩٤٣ إذ أعلن استقلال لبنان في ذلك التاريخ وتولى الشيخ بشارة الخورى رئاسة الجمهورية ورياض الصلح رئاسة الوزراء وأعلن المرحوم رياض الصلح في بيان تاريخى ألقاه أمام مجلس النواب اللبناني في ١٧ سبتمبر ١٩٤٣ أن لبنان بلد عربى يمت الى العروبة بأوثق المظاهر والصفات ، وأنه يجب أن يتعاون مع البلاد العربية الأخرى على أساس هذا الاعتبار .

ولبنان من أحوج الدول الى التعاون مع العرب ، وموقعه الجغرافى ولغة قومه وثقافته ، وتاريخه وظروفه الاقتصادية تجعله يضع علاقته بالدول العربية الشقيقة في طليعة اهتمامه ، وإقامة علاقات معها على أسس معينة تكفل احترام الدول العربية لاستقلال لبنان وسيادته التامة وسلامة حدوده ، ولكن هذه الانتفاضة التى ظهرت في لبنان ، وتمثلت فيها الروح العربية الصميمة التى تجلت في المطالبة بوجوب استعمال اللغة العربية وحدها - دون غيرها - في وزارات الدولة ومصالحها وفى ربط لبنان بالبلاد العربية ربطاً وثيقاً على اعتبار انه جزء من الوطن العربى ..

نقول إن هذه الوثيقة التى حمل لواءها الأحرار وعلى رأسهم المرحوم رياض الصلح

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

والشيخ بشارة الخوري لم ترق للفرنسيين المستعمرين ، وأثارت حفيظتهم فاعتقلوا رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء وعددا من الوزراء والنواب ، وقد أدى هذا التصرف الاستفزازي الى انفجار بركان الثورة في لبنان ، وكانت ثورة عارمة شاملة ضمت مختلف الطوائف من مسيحيين ومسلمين ، واشترك فيها المارونيون المسيحيون ، وبادرت الدول العربية حكوماتها وشعوبها الى تأييد لبنان وتعضيده في كفاحه المستمر ، وقد أدى هذا الوضع الى انبعاث لبنان من جديد وظهوره بوجهه العربي الصحيح ، وسار في ركب العروبة ، وانضم الى جامعة الدول العربية عضوا. فيها وذلك في عام ١٩٤٥ ، واندمج في مختلف القضايا العربية على أساس انه قطر عربي ، وجزء من الوطن العربي الكبير ، ولم يتهيب اللبنانيون جبروت الفرنسيين ، وعسفهم ، واجتمع قادتهم في جبل لبنان الذي اتخذوه مقرا للحكم ، وأعلنوا تأليف حكومة وطنية معارضة للحكومة التي ألّفها الفرنسيون ، وجعلوا رئاستها للسيد إميل أدّه الذي انفرد وحده بمعارضة قرار البرلمان مؤيداً حكومة رياض الصلح ، ولما تأزم الموقف عرضت الحكومة الوطنية قضية لبنان على مجلس الأمن ، وكان لبنان قد قبل عضوا في الأمم المتحدة في أكتوبر سنة ١٩٤٤ فأصدر مجلس الأمن قراره بوجوب جلاء القوات الفرنسية المحتلة عن لبنان ، وقد تم الجلاء فعلا في سنة ١٩٤٦ .

وهكذا كُتلت جهود الوطنيين الأحرار ، وطويت صفحة اليمّة من تاريخ لبنان ، التي سوّدها المستعمرون الفرنسيون بسياساتهم الهدامة ، وبدأ عهد جديد يطل على لبنان أمل الجميع فيه كل خير للبلاد وللعروبة ، وكان ميثاق الاستقلال الذي أعلن عند رياض الصلح ، وتعاهد الجميع على تنفيذه بأمانة وإخلاص حتى يشعر كل فرد بنعمة الاستقلال ومزاياه في كل مرافق الحياة ، ويلمس نتائجها في حسن الإدارة واستقامة العمل ، وشيوع المساواة وازدهار الحالة الاقتصادية ..

نقول كان ميثاق الاستقلال يتضمن محاربة الطائفية إذ جاء في بيان حكومة رياض الصلح أن من أهم أسس الإصلاح التي تقتضيها مصلحة لبنان العليا معالجة الطائفية ، والقضاء على مساوئها ، لأن الطائفية تعوق التقدم الوطني من جهة ، وتسبب الى سمعة لبنان من جهة أخرى فضلا عن أنها تسمم روح العلاقات بين الجماعات الروحية المتعددة التي يتألف منها الشعب اللبناني ، وتضعف وحدة الوطن ، فالغاء الطائفية يعد من الإصلاحات الوطنية الخطيرة ذات الأثر المحمود بالنسبة للبنان ، ولكن على الرغم من هذه المواثيق والعهود فإن نفرا ممن تُسَيِّرُهُم مصالحهم الشخصية ، ولا يعترفون اطلاقا بالمصلحة الوطنية دأبوا على ايقاظ الفتنة الطائفية ونفث سمومها ونشر أباطيلها ليستفيدوا من وراء ذلك ، ويصلوا عن هذا الطريق الدنس ، وتلك الأساليب الشائنة الى منصب الرئاسة حيث تُتاح لهم فرصة الاستغلال والاثراء غير المشروع على حساب الوطن .

■ الفصل الخامس

والغريب في الأمر أن زعيم الداعين الى الفتنة والفرقة هو كميل شمعون ، كان وزيرا في وزارة رياض الصلح التي أعلنت وثيقة الاستقلال ، وأعلنت الحرب على الطائفية ، ولكنه تنكر لموقفه القديم في سبيل صالحه الشخصي واستطاع أن يصل الى كرسى رئاسة الجمهورية . وعندما رشع نفسه لهذا المنصب في سنة ١٩٥٢ كان يتهم منافسه حميد فرنجيه بأنه مسيحي متعصب يكره العرب والمسلمين هادفا من وراء ذلك الى كسب ثقة المسلمين في المعركة الانتخابية ، ولما فاز بالرئاسة أراد في نهاية مدته أن يعدل الدستور ليتسنى له تجديد الرئاسة في سنة ١٩٥٨ ، وفي سبيل ذلك زعم أنه حامى المسيحيين والمدافع عن سيادة لبنان ضد الخطر العربي ، وأخذ ينتهج سياسة استفزازية بالنسبة للعرب ، وناصر حلف بغداد مقابل مبالغ مالية حصل عليها من العراق ، ولكن الأمور صارت في لبنان على غير ما يتوقع إذ قامت ثورة في لبنان تطالب باستقالته وترفض تعديل الدستور ، ونجحت الثورة في الاطاحة به ، وتم ترشيح فؤاد شهاب للرئاسة في عام ١٩٥٨ .

كما قلنا فإن لبنان كان يقوم وحتى مرحلة ما قبل ميثاق الطائف على صيغة ١٩٤٣ وهى صيغة توافقية تمت برعاية الانتداب الفرنسى ، ولم يكن أى طرف من الاطراف يرى أنها تحقق له مطالبه ، وكان هذا السبب في عدم قيام لبنان على أساس المواطنة الصحيحة بين اللبنانيين ، وتعميق شعور الانتماء الى الطائفية والقبلية أكثر من الانتماء الى الوطن . العربويون ومعهم الاسلاميون كانوا على اقتناع بأن صيغة سنة ١٩٤٣ صيغة مؤقتة ، وأن لبنان كيان مصطنع وأن الاراضى اللبنانية جزء من الارض السورية ، وإذا كانوا قبلوا العيش في اطار هذه الصيغة فلأن ظروف لبنان لم تكن تسمح بأى اخلال بها ، ولم تنجح ثورة سنة ١٩٥٨ في بلورة صيغة جديدة ، أما المارونية السياسية فقد رأت في الصيغة اللبنانية النموذج الأمثل لتحقيق أطماعها .. فأرادت أن يكون لبنان وطنها لها بوجه خاص وأن تكون الاقليات الأخرى في خدمتها .

وقد أشار الدكتور الياس سابا في دراسة له بعنوان (العلاقات العربية العربية والأزمة اللبنانية) ، أشار الى أن قيادات المارونية السياسية أصرت على الا يضم لبنان الكبير مناطق سورية الساحلية الغربية ذات الكثرة المسيحية الارثوذكسية ، وفضلت في المقابل أن يضاف اليها الجنوب ذو الاكثرية الشيعية حتى لا يزيد عدد الارثوذكس ، بشكل يهدد الموقع المميز للطائفة المارونية ، بل لقد بالغت المارونية في تأكيد أهميتها ، وتلازم بقاء لبنان ببقائها هى ، وجاء في وثيقة للجبهة اللبنانية نُشرت بتاريخ ١٩٨٠/١٢/٢٣ (إن سلام الشرق الأوسط مرتبط بسلام لبنان ، و سلام لبنان مرتبط بسلام المسيحية أى المارونية) .

والواقع أننا لى ندرك أبعاد المسألة اللبنانية بشكل جيد ، فإنه من الأهمية بمكان أن

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

نعود الى نشأة طائفة الموارنة ، ومن المعروف أن الكنيسة المارونية تنسب الى الراهب مار مارون الذى توفى عام ٤١٠ ميلادية ، وكان هذا الراهب قد اتخذ من المنطقة الواقعة إلى الغرب من مدينة حمه مقرا له .

أن أصول هذه الطائفة سورية بحتة ، وظل الموارنة في هذه المنطقة حتى القرن السابع الميلادى عندما نشب خلاف بينهم وبين الاكثرية في الكنيسة الارثوذكسية وكان من نتيجة هذا الخلاف هجرة الموارنة الى جبال لبنان الشمالية ، ورغم التسامح العربى الذى أبدته الدولة الاموية تجاه الموارنة ، الأمر الذى ساعد هذه الطائفة على النمو والاستقرار في جبال لبنان الشمالية فقد ظلت مصدر متاعب وقلق للحكم العربى الاسلامى في دمشق بين الحين والآخر .

ويذكر الأستاذ كمال صليبي في كتابه (الكيان اللبناني بين التصور والواقع) أن بلاد الشام كانت مسرحا أساسيا للحروب الصليبية ، فقد استغلت المارونية السياسية والعسكرية الحملات الصليبية لتؤكد تمايزها عن محيطها العربى الاسلامى ، ويذكر أيضا انه عندما وصل الفرنجة الى بلاد الشام في نهاية القرن الحادى عشر فيما يسمى بالحملة الصليبية الاولى التف حولها قسم من الموارنة الموجودين في جبل شمال لبنان .

ويؤكد الدكتور محمد على مكى في كتابه (لبنان من الفتح العربى الى الفتح العثمانى) التعاون الصليبي المارونى فيقول : « مر الصليبيون عبر الساحل الشمالى من لبنان دون أن يجدوا مقاومة ، وقد وجدوا متطوعين من الموارنة في جهات البترون فمشوا في ركابهم » ، ومن المؤكد أن المسيحية ككل والمارونية احدى مذاهبها لم تحتضن الحملات الصليبية بشكل عام ، ولكن كما يشير الأستاذ فؤاد العشا في مؤلفه (حافظ الأسد قائد ورسالة) فإن تيارا سياسيا وعسكريا من المارونية كان باستمرار ومايزال حتى الآن يحاول الاستفادة من الأخطار التى تهدد العروبة والاسلام ، هذا التيار الذى تعاون مع الحملة الصليبية سابقا ، تعاون في مرحلة ما مع اسرائيل لضرب الاتجاه العربى في لبنان ، ومع بداية القرن العشرين وانهايار السلطنة العثمانية إثر هزيمتها في الحرب العالمية الاولى اقتسم الانجليز والفرنسيون البلاد العربية وفتتوا بلاد الشام ، وقام الفرنسيون عام ١٩٢٠ استجابة لضغوط أصدقائهم الموارنة بضم أجزاء عديدة من الولايات العثمانية التى كانت في السابق تابعة لبيروت ودمشق الى أراضى المتصرفية اللبنانية القديمة ، وخلقوا بذلك دولة لبنان الكبير بحدوده الحالية .

واقع الأمر أن فرنسا اعتبرت نفسها حامية للتيار المسيحى بشكل عام ، وقد غزت وعمقت الخلافات الطائفية ، وقد نجم عن هذا الموقف اثارة خلافات طائفية عميقة أدت الى اضرار النار وارتكاب مذابح وتدمير في جميع أنحاء لبنان .

العلاقات اللبنانية السورية

العلاقة اللبنانية السورية قديمة قدم التاريخ وإذا كانت أقوى من أن تطمسها رغبة انعزالي أو طائفى ، فإن الازمات تبلورها حيث يظهر في أوقات الشدة أن المواطن العربى فى سورية هو الذى يتحسس آلام إخوانه فى لبنان ، ذلك أن اللبنانيين والسوريين هم أبناء شعب واحد فى دولتين مستقلتين . كما قال الرئيس الأسد . ومع قيام الانتداب الفرنسى على سورية ولبنان بعد الحرب الكونية الثانية نشأ تحديد لحدود الجمهورية اللبنانية ، فقام الكيان اللبناى الحديث وأنشأ الانتداب فى منطقة سورية الحالية دويلات منها دويلة جبل العلويين ، ودويلة حلب ، ودويلة دمشق ، ودويلة جبل الدروز ، وكان الشيء المتضمن فى هذه الخطوات التى قام بها الانتداب أنه لكل طائفة ولكل مجموعة بشرية متجانسة طائفياً دويلة ، ولكن الشعب السورى والنضال السورى ضد الانتداب رفض هذه الدويلات واستقر الأمر فى النهاية على أن سورية دولة واحدة ، أما فى لبنان فقد تم القبول بحدوده وبتنازل المسلمين عن رغبتهم فى الانضمام الى سورية فى مقابل تولى المسيحيين عن فكرة الضمانه الممنوحة من فرنسا ..

وهكذا قام جاران . سورية واحدة موحدة لفظت فكرة الدويلات وأصبحت جسماً موحداً ، والجار الثانى لبنان ، الذى استطاع من خلال ميثاق ١٩٤٣ أن يجعل المسلمين يقبلون بالاستقلال عن سورية مقابل تولى المسيحيين عن فرنسا ، وعندما ذهب الانتداب نشأت مشكلة بين لبنان وسورية ، فبين هذين البلدين وهما كيانان منفصلان وحدة الشئون النقدية ، والجمارك ، وفى اصدار العملة ووحدة فى الجيش أيضاً ، لأن الجيش اللبناى والسورى كليهما جزء من جيش الشرق ، فماذا يكون التصرف فى حالة وجود وحدة اقتصادية ونقدية .. الخ .

الاستقلال فى سورية ولبنان نظم علاقة جديدة .. حلّ الوحدة الاقتصادية والجمركية السابقة وأصبح لكل دولة وضعها المستقل بالإضافة الى الاستقلال السياسى .

نشأت فى سورية دعوة لحماية الاقتصاد الوطنى ، وتشبث اللبنانيون بالاستيراد الحر ، فنشأ نوعان من الاقتصاد .. الاقتصاد فى سورية متجه نحو الاقتصاد الموجه ، والاقتصاد اللبناى ليبرالى بشكل صريح . نشأت خلافات بعد ذلك حيث كان رياض الصلح يتصل بحكام لبنان فى ذلك الوقت وأغلبهم ممن درسوا معه فى تركيا ، ومن الذين جاهدوا معاً ضد الانتداب 'الفرنسى' كان يتصل بهم ويقول لهم لا تجعلوا اللبنانيين يستندون لغير سورية فى الاقتصاد ، وقد حدث فى ذلك الوقت خلاف .. فمنع السوريون تصدير القمح الى لبنان ، فاتصل رياض الصلح برئيس الوزراء السورى مؤكدا حرصه

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

على بقاء العلاقة مع سورية على ما هي عليه، ورغبته في عدم تعويد اللبنانيين عن الاستقلال عنهم، وقال له: هم حتى الآن يعتقدون أنهم إذا استغنوا عن القمح السوري سيموتون جوعاً وإذا استمر المنع فسيفسكتشفون أن في كندا وأستراليا قمحا ويبدأون في استيراد القمح من هناك ويصبح من المتعذر إعادتهم إلى القمح السوري.. والحكمة أيها الأخوة السوريون تقتضي ألا تدفعوا باللبنانيين بعيداً عنكم بحيث يبدأون في ترتيب أمورهم على أساس خاص.

المهم أن نشوء اقتصاديين ليبرالي، وآخر موجه: ووجود فئات في لبنان وسورية تستفيد من التباعد رسخت أحوالاً لم تكن موجودة من قبل.. لبنان وسورية كانا وحدة اقتصادية.. ولكن نظم الاستقلال الاقتصادي بدأت منذ عام ١٩٤٣ ثم يولغ في فهم هذا الاستقلال حتى وصل إلى وضع التناحر.. الحادثة الأهم في تاريخ العلاقات اللبنانية السورية بعد تلك الأيام التي تحدثنا عنها كانت ثورة ١٩٥٨.

يقول (روبرت مورفي) الذي جاء إلى لبنان بشأن الحرب، وقد اتصل بعبد الناصر لهذا السبب يقول: جئت إلى لبنان فوجدت العلم اللبناني مرفوعاً على تلك الأرض اللبنانية أما الثلثان الآخران فكانا بدون علم لبنان، ومعنى ذلك أن قوة سورية برزت عام ١٩٥٨ على هذين الثلثين. ويضيف (مورفي) إن المناطق المرتفع فيها العلم اللبناني كانت هي المناطق المزدهرة، أما المناطق غير المزدهرة فهي التي لا يوجد فيها العلم، أي أنه كان يقصد أن الحرمان في ثلثي الأراضي اللبنانية هو الذي أوصلها إلى سورية. ولقد جاء فؤاد شهاب في أعقاب ثورة ١٩٥٨ وكان حكمه فيه نوع من التشابه القليل مع نظام عبد الناصر سواء من الناحية الاقتصادية أو نوع الحكم حيث وضع تأثير الجيش وبدأ يحكى عن التنمية والخطط الاقتصادية.

المرحلة الثالثة في تطور العلاقات السورية اللبنانية كانت مع الدخول السوري إلى لبنان عام ١٩٧٦، وكان هذا الدخول بكل المقاييس حتمياً لأن الصورة كانت كما يلي:

الفلسطينيون مسلمون وأقوياء، ودولة لبنانية غير قادرة ومسلمون ومسيحيون، لبنان عام ١٩٧٦، وكان هذا الدخول بكل المقاييس حتمياً لأن الصورة كانت كما يلي:

الفلسطينيون مسلمون وأقوياء، ودولة لبنانية غير قادرة ومسلمون ومسيحيون، لا أحد منهم قادر على الانتصار أمام الآخر، أو قابل بالانهزام أمام الآخر.

جاء الرئيس الأسد من منطلق عربي يمثل الحكم القومي بين قطريتين متناحرتين، القطرية الفلسطينية والقطرية اللبنانية المتضررة من التحرك الفلسطيني، وكان بينهما تناحر، وليس اتفاق اتفاق.. هنا كان لابد من وجود قومي يفصل بين القطريتين

■ الفصل الخامس

المتناحرتين ، والقادر على ذلك هو الجار والقريب هو سورية والرئيس الأسد ، فدخلت سورية كحكم بين قطريتين متناحرتين لا أمل لأحدهما في الانتصار على الآخر ، هذا هو أساس الدور السوري في لبنان ، كان واضحا أن اللبناني المحشور من قبل القوى الفلسطينية مضطر لأن يُعَنَّف ، والفلسطيني الذي يبحث عن طريق القدس مضطرا لا يقيم اعتبارات للحساسيات اللبنانية ، فجاء الدور السوري يمثل التحكيم العربي للخلاف ، وهذا الدور اقتضى جرأة كبيرة من الرئيس الأسد حتى يقوم به ، وجعل سورية تواصل هذه المهمة الصعبة لمدة ١٧ عاما ، مهمة محاولة أن تكون حكما بين فئات ذات نزاعات ، وذات اتجاهات مختلفة .

لقد كان حافظ الأسد هو أكثر الزعماء السوريين على الإطلاق استيعابا وفهما لحقيقة لبنان وطوائفه وخصوصيته ، ودور الطائفة المارونية فيه .

الرئيس الأسد ومعاونوه أثبتوا قدرة سياسية في التصرف في لبنان ، والمعاهدة التي قامت بين سورية ولبنان شيء طبيعي من شأنه أن يسد فراغا كبيرا . وإذا كانت أسباب الصراع في لبنان عميقة الجذور ، فإن السبب المحوري كان وما يزال يتركز حول حسم موضوع الانتماء العربي الواضح الذي يسعى بعض الانعزالين لطمس مستفيدين من نكسات كانت تصيب المد القومي العربي في بعض الأحيان .

وتاريخيا فإنه مع قيام الحركة التصحيحية بدأت العلاقات السورية اللبنانية تأخذ منحاهما الطبيعي في إطارها التاريخي والجغرافي والحضاري .

وجاءت حرب تشرين / أكتوبر التحريرية المجيدة لتؤكد متانة هذه العلاقة خصوصا أن هذه الحرب أفرزت معطيات لصالح المد القومي العربي ، الأمر الذي جعل قوى الامبريالية والصهيونية والانعزال تتكاتف لاعادة التوازن الذي اختل ، فكان لبنان هو الساحة التي أُختيرت للرد على الانتصار العربي ، الذي تحقق بحيث يمكن القول إن أحداث لبنان جاءت بمثابة ثأر من حرب تشرين ، كما أكدت ذلك تصريحات قادة إسرائيل أنفسهم .

وقد استدعى هذا الأمر انتباه القيادة السورية التي بدأت العمل بسرعة لتدارك الأوضاع في لبنان فكان أن عقدت لهذه الغاية قمة سورية لبنانية في شتوره في ٧ يناير كانون الثاني سنة ١٩٧٥ ، انتهت ببيان مشترك يعلن استعداد سورية لتلبية كل طلب للبنان .

ومنذ ذلك الحين لم تتوقف سورية لحظة واحدة عن تقديم كل عون ممكن للبنان

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

لانتفاذه من المؤامرة التي يتعرض لها ، والتي جعلت الرئيس الأسد يقول في ٢ آب / أغسطس ١٩٧٥ : إن سورية معنية في الدفاع عن لبنان ، كما أن لبنان معني للدفاع عن سورية .

الوثيقة الدستورية

استطاعت سورية واستطاع حافظ الأسد أن يساند بكل طاقته الوفاق الوطني اللبناني واستطاع ببراعة سياسية مشهود له بها حتى من خصومه أن يشغل دور الحكم الحيادي في الخلافات اللبنانية وأن تمثل سورية دور المنطق العربي في حل المشكلة اللبنانية ، وأكد الرئيس الأسد أن سورية هي الدولة الوحيدة القادرة على اعطاء المنطق العربي قوته المادية .. كيف ؟ .

بداية لابد من الإشارة إلى أن الرئيس حافظ الأسد هو أول رئيس سوري يتعامل مع لبنان على أساس أنه دولة مستقلة ، ولقد حسم الخلاف التاريخي الذي ظل قائماً حتى توقيع الوثيقة الدستورية ، وقد عقدت قمة سورية لبنانية في فبراير شباط ١٩٧٦ مهدت لإعلان الرئيس سليمان فرنجية بالاتفاق مع الرئيس رشيد الصلح ، الوثيقة الدستورية التي تضمنت ١٧ بنداً للإصلاح ونصت على هوية لبنان العربية . والواقع أن الوثيقة التي أكدت هوية لبنان العربية وأقرت بحاجة المؤسسات إلى إصلاح جوهري أبرزت مدى الفائدة التي حققتها الجماهير العربية في لبنان للمبادرة العربية السورية الأخوية التي جاءت تعبيراً عن إرادتها وتحقيقاً لتطلعاتها .

دائماً كان في السياسة السورية السالفة للرئيس حافظ الأسد ونتيجة الميوعة السياسية ووجود فرقاء عديدين في الساحة عدم وضوح في النظرة العقائدية السورية إلى لبنان .. مع مجيء حافظ الأسد ووجود دولة ذات رأي ووضوح رؤية ، كان هناك وضوح نظري فيما يتعلق بأن لبنان كيان مستقل . وعلينا أن نتعامل معه على هذا الأساس ، ونعامله من منطلق احترام سيادته على حل مشاكله ، وهذا ما حدث في الوثيقة الدستورية التي وقعها الرئيس حافظ الأسد مع الرئيس الأسبق سليمان فرنجية . ويروى السياسي والمفكر .. (مُنَح الصلح) أنه حدث في يوم من الأيام أن ذهب إلى الولايات المتحدة واجتمع بمسئولة الشرق الأوسط في الخارجية الأمريكية (المسئولة عن الشؤون اللبنانية وهي السفارة جلاسبي) وفي نهاية حوار طويل بينهما قالت : إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تشك لحظة واحدة في أن سورية لا تريد شبراً واحداً من الأراضي اللبنانية .

■ الفصل الخامس

في ٨ مايو / أيار ١٩٧٦ انتخب الياس سركيس رئيساً للجمهورية ، وفي ٢٠ يوليو / تموز ألقى الرئيس حافظ الأسد خطاباً هاماً تحدث فيه عن مراحل الأزمة اللبنانية وأشار إلى أن أحداث لبنان هي نتيجة مخطط استعماري يهدف إلى توريث المقاومة الفلسطينية وضربها وتصفية المخيمات وإرباك سورية وأخيراً تقسيم لبنان .

واننا نتصدى لهذه المؤامرة لأن سورية ولبنان عبر التاريخ بلد واحد وشعب واحد .. الشعب في سورية ولبنان عبر التاريخ شعب واحد ، وقد ترتب على هذا مصالح حقيقية مشتركة ، وأمن حقيقي مشترك ووشائج قرى مشتركة وهي الشواهد التي تؤكد أن حافظ الأسد كان ولا يزال من أكثر الزعماء فهماً لحقيقة لبنان وطوائفه ودور الطائفة المارونية بوجه خاص

في مرحلة من المراحل رفعت بعض الأطراف اللبنانية ضرورة الحسم العسكري وإنهاء الوجود المسيحي في لبنان ، ولقد تصدى الرئيس حافظ الأسد لمخاطبة هذه الأطراف علناً قائلاً: من أي منطق تتكلمون ؟ من منطق الاسلام ؟!

الاسلام أبعد ما يكون عن هذه المنطلقات ... الاسلام إصلاح ومحبة . إخوان المسلم الحقيقي هو مَنْ أحب الآخرين ، والمسلم الحقيقي هو مَنْ أحب المسيحي الحقيقي ، نحن في هذا البلد مستعدون لأن نتحرك إلى لبنان لنقف بوجه كل معتد وضد كل ظالم بغض النظر عن ادعاءاته الدينية .

يجب أن يفهم المتاجرون في لبنان أن الاسلام والمسيحية انبعثا من أرضنا ، وهذا ليس عبثاً علينا وإنما هوفخرواعتزاز لكل جماهيرنا ، علينا أن نكون الأمة الجديرة بالحياة .. الجديرة بالمسيحية والاسلام ، علينا أن نكون عند مستوى هذه القيم .

إن حافظ الأسد أثبت لدعاة الحسم العسكري وإنهاء الوجود المسيحي في لبنان بأن الهدف الأساسي من الدعوة إلى تقسيم لبنان هو توجيه ضربة كبرى للإسلام باعتباره دين الأكثرية الساحقة من الأمة العربية ، لأنهم يريدون أن يقدموا الاسلام في هذا العصر على أنه الدين المتزمت الذي يمنع أنصاره من العيش مع الآخرين حتى وإن كانوا من أبناء الأمة الواحدة .

وفي خطاب ألقاه الرئيس الأسد بتاريخ ٢٠ / يوليو / تموز سنة ١٩٧٦ قال :
إن هذه مؤامرة على الاسلام ومؤامرة على المسيحيين ، وأنا أؤكد على هذا الموضوع ولا أريد أن اجامل به أحداً إطلاقاً ، عندما ينقسم لبنان سيقول الاسرائيليون

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

لا تصدقوا هؤلاء العرب إن لم يستطيعوا أن يعيشوا معا ، إذا لم يستطع المسلم العربي أن يعيش مع المسيحي العربي ، فكيف يمكن أن يعيشوا مع اليهود غير العرب الذين جاءوا من كل بقاع الأرض من الغرب والشرق ، سيسقط هذا الشعار . إسرائيل تريد التقسيم لكي تُسقط عنها تهمة العنصرية .

الطائفة المارونية حاولت باستمرار أن تؤكد أنها كيان متميز عن اللبنانيين الآخرين من مسلمين ومسيحيين ، ولذلك فإن هناك من يعتقد وبحق أن الأزمة اللبنانية في جذورها هي أزمة سياسية واقتصادية من جهة وصراع بين الاتجاه القومي العربي وأعداء هذا الاتجاه من جهة أخرى ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تعد أزمة دينية طائفية لأن الطائفة المارونية لم تتعرض لأي اضطهاد في محاولتها قيادة المجتمع اللبناني ، بل إنها لم توفر حتى للطوائف المسيحية الأخرى ضمانات العيش الكريم وممارسة استقلالها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا منظما واحتكرت مواقع السلطة الرئيسية من رئاسة الجمهورية إلى قيادة الجيش والقضاء والمصارف وأجهزة الأمن والمواقع التجارية ، فأصبحت بيروت مركزا اقتصاديا عالميا ، في حين برزت أحزمة البؤس ومدن التكتل في ضواحي المدن وبيروت ، وكما يشير الدكتور إلياس سبأ في بحث له بعنوان (العلاقات العربية والأزمة اللبنانية) فإن خطر السلبات الذي ترتب على هذا الوضع هي التبعية الاقتصادية المفرطة للخارج ، وهي التي تشكل بالتلازم مع ارتفاع نسبة انتاج الخدمات الى المجموع أهم نقاط الوهن في بنية الاقتصاد اللبناني ، وفي مستوى ونمط أدائه ، فكان لبنان قد تمكن من تحقيق مستوى معيشة مرتفع لابنائيه ودرجة متقدمة من النمو والتحديث على الرغم من افتقاره إلى الحجم الاقتصادي المناسب وإلى الموارد المادية الكافية .

خلاصة القول أن صيفة سنة ١٩٤٣ كانت السبب المباشر في كل ما شهده لبنان من تصدع بين الحين والحين حتى جاءت ثورة ١٩٥٨ والتي كادت تؤدي بهذه الصيفة ، لكن الغرب سارع الى نجدة المارونية السياسية وانزال قوات المارينز الأمريكية على الشواطئ اللبنانية ، ثم إيجاد أرضية من التفاهم المشترك بين فؤاد شهاب رئيس الجمهورية اللبنانية وجمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة سمحت باستمرار الصيفة نفسها لقاء امتيازات جديدة أعطيت لزعماء الطوائف المارونية والسنية والدرزية على حساب الوطن نفسه ، واستطاع لبنان المزدهر اقتصاديا أن يُبقى صيفة سنة ١٩٤٣ ، ولكن هذا الازدهار الاقتصادي كان أحد الاسباب الرئيسية لنشوب الحرب الاهلية عام ١٩٧٥ .

وكان بروز الوجود الفلسطيني المسلح على الأرض اللبنانية والذي اعتبرته الطائفة

■ الفصل الخامس

المارونية اخلاقا قد يؤدي إلى الاطاحة بالمعادلة اللبنانية التي تقوم على تفوقها السياسي والعسكري والاقتصادي ، بالإضافة إلى ما تردد عن مشاريع أعدها كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي آنذاك تقضى بتوطين الفلسطينيين في لبنان واعتباره وطننا بديلا عن فلسطين .

وواقع الأمر أن حادثة الاتوبيس في ١٣ نيسان / ابريل عام ١٩٧٥ لم تكن سوى الشرارة التي أشعلت أتون الحرب الذي استمر في لبنان طوال خمسة عشر عاما ونيف .

وفي كتاب (لعنة وطن) لكريم بقرادوني، وهو أحد قادة القوات اللبنانية الكتابية جاء قوله حول مايعده مؤامرة هنري كيسنجر على بلاده : (لقد تَكَوَّن في المرحلة الكيسنجرية تيار خفي صنف دول الشرق الأوسط دولا دائمة ، وجودها ضروري ، ودولا مؤقتة يمكن الاستغناء عنها ، ورأى في لبنان دولة غير مكتملة المقومات حدوده الجغرافية مصطنعة ، وتركيبته السياسية هشّة وغير قابلة للحياة ، ولم يتردد بعض صانعي القرار الأمريكي في طرح لبنان كأحد الحلول الممكنة للمشكلة الفلسطينية ولأزمة الشرق الأوسط ، في المقابل رأت المدرسة الكيسنجرية أن الفلسطينيين يقيمون فعلا في لبنان وقد أنشأوا مؤسساتهم العسكرية والسياسية، والإعلامية، والمالية، والاقتصادية، وأن المسلمين اللبنانيين يرحبون بهم ويرون فيهم عوناً لهم في مواجهة الحكم الماروني .

وهكذا ارتسم أمام العقل الأمريكي أن الحل الأمثل والأكثر واقعية ينطلق من توطين الفلسطينيين في لبنان مما يرضى إسرائيل ولا يخرب الأردن ويريح العرب ولو أدى ذلك إلى تقسيم لبنان أو تفكيكه ..

المبادرة السورية في لبنان

خصوصية العلاقة اللبنانية السورية أقوى من أن تطمسها رغبة انعزالي، واللبنانيون والسوريون هم أبناء شعب واحد في دولتين مستقلتين كما قال -وبحق- الرئيس حافظ الأسد معبرا بذلك عن هذه العلاقة المتميزة، ومؤكدا أن بين لبنان وسورية علاقة خاصة عبر التاريخ لا يستطيع أن يتجاهلها أي حكم قائم في سورية أو في لبنان فهي تفرض نفسها على الحكام، وكل من يتجاهل هذه العلاقات الأزلية الأبدية يسوء إلى مصلحة الشعب العربي في البلدين وإلى تاريخه ومستقبله . وفي أكثر من مناسبة قطع الرئيس حافظ الأسد على نفسه العهد بأن يأخذ بعين الاعتبار

■ العلاقات الحورية اللبنانية ■

مصلحة المواطن العربي في لبنان تماما كمصلحة المواطن العربي في سورية ، ولقد أشار في أكثر من موضع إلى أن المواطنين اللبنانيين مسلمين ومسيحيين ينضون دوما تحت لواء القومية العربية .

ومن هذا الفهم ننتقل في اهتمامنا ومعالجتنا لما يحدث في لبنان ، وعلى أساسه نسعى لوقف الاقتتال بالتفاهم والتعاون مع القوى السياسية المختلفة في لبنان ، ولخلق المناخ الملائم لأن يحلوا مشاكلهم الأخرى ديمقراطيا . ومن خلال الحوار فيما بينهم .. وواجباتنا إزاء لبنان سنؤديها دائما وفي كل وقت ، وسوف نبذل كل ما نستطيع لوقف القتال لأنه قتال بين فرقاء من أهلنا وذوينا ، وإذا رغب اخوتنا في لبنان أن يستعينوا بامكاناتنا العسكرية وبقواتنا المسلحة فسوف نضع تحت تصرفهم كل ما يريدون في أي بقعة في الأراضي اللبنانية ، ولن يمنعا من أداء هذا الواجب ما تنوى إسرائيل أن تفعله ، وسنكون جاهزين للتصدي لإسرائيل ليس على أرض سورية فحسب بل في أي مكان من الوطن العربي وأن الاعتبار الوحيد الذي حدد وسيحدد في المستقبل أبعاد التدخل السوري في لبنان بما في ذلك حجم ومواقع القوات السورية هو مصلحة شعب لبنان لأن تاريخنا واحد ومستقبلنا واحد ومصيرنا واحد .

الحرب الأهلية في لبنان

عرضنا فيما سبق لأسباب الصراع في لبنان ، وعرفنا أن السبب المحوري كان حول صيغة سنة ١٩٤٣ التي حكم لبنان بموجبها على امتداد نصف قرن وهي الصيغة التي أدت فيما بعد إلى اندلاع ثورة ١٩٥٨ وهي الثورة التي كانت مقدمة لما حدث بعد ذلك في عام ١٩٧٥ ، ولا شك أن التوازن اللبناني الذي ظل قائما لسنوات طويلة قد تعرض لاهتزازات ، ولخلل نتيجة لتركز بعض المنظمات الفلسطينية في جنوب لبنان ، وهو التركيز الذي أدى إلى انقسام في الأوساط السياسية بين مؤيد للوجود الفلسطيني ومعارض له كان يرى أن وجود المنظمات الفلسطينية في جنوب لبنان فيما اصطلح على تسميته في مرحلة لاحقة ، « فتح لاند » ، وقد تصاعد الانقسام في الرأي إلى درجة استدعت تدخل الرئيس الراحل جمال عبدالناصر الذي استضاف وفدتين ، وفدا لبنانيا يمثلته العماد اميل البستاني قائد الجيش اللبناني ، والوفد الثاني برئاسة ياسر عرفات ، وقد أسفرت اجتماعاتهما في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٩ على توقيع اتفاقية القاهرة التي نظمت الوجود الفلسطيني في لبنان .

وفي عام ١٩٧٠ شهدت الأردن أحداث ايلول الأسود بين الجيش الأردني والمنظمات الفلسطينية وترتب على هذا الوضع ابعاد المنظمات الفلسطينية عن الاردن ، وازداد

■ الفصل الخامس

الوجود الفلسطيني المسلح كثافة في لبنان ، وأصبحت منظمة التحرير دولة داخل الدولة اللبنانية ، وتورطت بعض فصائل المنظمات الفلسطينية في الشؤون الداخلية اللبنانية حيث ساندت بعض الساسة اللبنانيين الذين كانوا يتطلعون لنسف الصيغة اللبنانية القائمة من أساسها ، وكان واضحا أن لبنان على شفا حرب طاحنة بين الجيش اللبناني وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية .

وفي ٢ مايو/ أيار ١٩٧٠ اندلعت معارك عنيفة بين الجيش اللبناني وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها مصر لمنع اندلاع القتال إلا أن ملامح المواجهة الكبرى كانت تبدو في الأفق وتطورت الاشتباكات التي بدأت في ٢ مايو/ أيار ١٩٧٣ ، حيث عبأت القوى المسيحية ضد الوجود الفلسطيني في لبنان بحجة الاخلال بالتوازن الطائفي الديموقراطي ، وكان واضحا انها تحاول خلق حجة مناسبة لاستمرار هيمنتها ، ومع ان الخلاف في صورته العلنية كان بين الاحزاب مثل الكتائب ، والاحرار ، والتقدمي الاشتراكي ، وحركة أمل ، إلا أن منظمة التحرير وقعت في فخ نصب لها وأصبحت طرفا في هذا الصراع الذي لم يكن لها مصلحة فيه .

ولولا تدخل الرئيس حافظ الأسد لاعادة التوازن للفلسطينيين في لبنان لأخذت الأحداث مسارا آخر. وفي فبراير شباط ١٩٧٥ اغتيل المناضل اللبناني معروف سعد وكان اغتيال معروف سعد بداية لزيادة التوتر والاستعداد العسكري ، وفي يوم ١٣ ابريل/ نيسان اطلقت النيران على أتوبيس فلسطيني في حي عين الرمانة المسيحي ، وكان هذا الحادث الشرارة التي فجرت حربا أهلية دامية استمرت قرابة ١٦ عاما مورثة خلالها كل أنواع القتل المنظم والعشوائي .

وأدرك الرئيس حافظ الأسد أن مايجري في لبنان مقدمة لأحداث كبيرة ومؤامرة أكثر اتساعا، وفي إطار ادراكه لخصوصية العلاقة اللبنانية السورية، التي لايستطيع أى حاكم قائم في سورية أو في لبنان أن يتجاهلها، بادر إلى التأكيد بأن من يتصور أن تفجير الأزمة في لبنان سوف يسهل تمرير اتفاقيات منفردة مع إسرائيل يقع في خطأ كبير ، لأننا لن نترك هذا المخطط ينجح ، وأجرى الرئيس الأسد محادثات مع المسؤولين في لبنان كانت تنطلق من الحرص على مصلحة لبنان والمصالح المشتركة بالبلدين لاسيما مايتعلق منها بالاستقرار في لبنان مؤكدا أن سورية لا تستطيع أن تقف موقف المتفرج من الأحداث التي تدور في لبنان لأن سورية بشكل أو بآخر معنية بها .

وكان واضحا من تحليل الاحداث ، والاسباب التي أدت اليها انها ليست لبنانية

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

محضة ، ولكنها حصيلة الظروف العربية من جهة ، وحصيلة كل العوامل الدولية المتعلقة بالقضية الاساسية - قضية فلسطين - من جهة أخرى ، وادرك الرئيس ان استمرار الفئات المتقاتلة في التناحر سيؤدي الى تدمير لبنان وصولا الى سورية ، كما سيخل بصيغة التعايش اللبناني المشترك ، وسيؤدي الى تصاعد الوضع في منطقة الشرق الأوسط . وأن أول المتضررين سيكون سورية حيث انها المستهدف الأول من المخطط الاسرائيلي الصهيوني لاعادة رسم خريطة الشرق الأوسط . وتقدم الرئيس حافظ الأسد بأكثر من مبادرة لإعادة الحياة الطبيعية الى لبنان ووقف النزيف الدموي المستمر والرهيب فيه ، وأكد الرئيس الأسد ان بلاده مع وقف القتال وضد من يصر على استمرار القتال وضد المؤامرة التي تحاك ضد شعب لبنان ، وعلى الثورة الفلسطينية ، وعلى الأمة العربية ، ولكن مبادرات الرئيس الأسد ، وكل محاولاته للحوار مع الأطراف اللبنانية اصطدمت باصرار بعض القوى اللبنانية على شن حملة عسكرية شاملة لا تراجع فيها ضد القوات المسيحية .

وقد أوضح الرئيس حافظ الأسد انه كان رأى الجميع أن أحداث لبنان نتيجة مخطط استعماري يهدف الى توريث المقاومة ، وضربها ، وتصفية المخيّمات وأرباك سورية ، وتقسيم لبنان ، وإذا كانت المؤامرة تستهدف ضرب المقاومة الفلسطينية ، وتقسيم لبنان فإنه لا يمكن لسورية ان تقف موقف المتفرج على المؤامرة التي تستهدف تحقيق هذه الاهداف ونحن معنيون بإفشال هذه المؤامرة ، وعلينا ان نعد أنفسنا بالقدر الذي نستطيع فيه لأن نتصدى للمؤامرة والمتآمرين ، من ناحية ثانية فإن سورية ولبنان عبر التاريخ بلد واحد وشعب واحد ، وترتب على هذا الوضع مصالح مشتركة ، وأمن حقيقى مشترك ، وتاريخ وجغرافيا مشتركة ، يكفى أن نشير الى انه كان في لبنان قبيل الحوادث حوالى نصف مليون سوري يمارسون مختلف الأعمال ، وهؤلاء نتيجة للأحداث عادوا الى سورية والآن يوجد في سورية حوالى نصف مليون لاجئ من شعب لبنان جاءوا الى سورية ، ودخل الى سورية حوالى ١٥٠ ألف فلسطينى من الاخوة المقيمين في لبنان . نتيجة الأحداث دخل الى سورية حوالى مليون نسمة ، ونستطيع ان نتصور حجم المشكلة التي يسببها دخول مليون انسان في بلد عدد سكانه أقل من تسعة ملايين .

وأضاف الأسد يقول : وعندما ينقسم لبنان سيقول الاسرائيليون لا تصدقوا هؤلاء العرب ان لم يستطيعوا أن يعيشوا معا .. اذا لم يستطيع المسلم العربى ان يعيش مع المسيحي العربى فكيف يمكن ان يعيشوا مع اليهود غير العرب الذين جاءوا من كل بقاع الأرض !! من الغرب والشرق .. سيسقط هذا الشعار .. اسرائيل تريد التقسيم لكي تسقط تهمة العنصرية ، ستقول اسرائيل أين هي العنصرية ؟ اسرائيل تقوم على اساس الدين وفي لبنان دولة أودويلات تقوم على اساس الدين ، فإما ان نكون جميعا عنصريين ،

■ الفصل الخامس

وإما أن نكون جميعا لا عنصرين .. تقسيم لبنان يشكل طعنة لفكرة القومية العربية وكأننا نقدم الدليل على أن القومية العربية ليست الرباط الصالح الذى يربط بيننا جميعا بحيث نستطيع أن نعيش في ظل لواء القومية العربية .

عندما لا يستطيع العرب في لبنان أن يعيشوا معا في دولة واحدة رغم مرور السنين الطويلة على هذا العيش المشترك ، فهذا دليل على مدى يريدون تقديمه على بطلان فكرة القومية العربية .. أكثر من هذا أريد أن أقول :

إن تقسيم لبنان يشكل ضربة كبرى للاسلام باعتباره دين الأكثرية الساحقة من الامة العربية ، لانهم يريدون أن يقدموا الاسلام في هذا العصر على انه الدين المتجمد الذى يمنع انصاره من العيش مع الآخرين حتى اذا كانوا من ابناء الامة الواحدة ، ان هذه مؤامرة على الاسلام وعلى المسلمين ، وأنا أؤكد على هذا الوضع ولا أريد أن أجامل به أحدا إطلاقا ، وقد قلته في كثير من أحاديثي مع المعنيين في لبنان وخارج لبنان ، إنه مؤامرة على الاسلام ومؤامرة على العربية ، ولصالح العدو ، ولصالح الصهيونية .

وأكد الرئيس حافظ الأسد على أن العربية ستظل أقوى من هؤلاء المتآمرين ، والاسلام أقوى من هؤلاء المتآمرين ، ولن يستطيعوا تحت اسم العربية وتحت اسم الاسلام أن يضربوا العربية والاسلام لاننا لهم بالمرصاد ، ان المؤامرة في لبنان هي مؤامرة على الاسلام وعلى المسيحية .. والصراع في جوهره ليس بين المسيحية والاسلام ، وإنما بين الاسلام والمسيحية من جهة ، وبين أعدائهما من جهة أخرى . هذا هو تفسيرنا لأحداث لبنان ، وبقيننا ان هذه المؤامرة لا تستطيع أن تحقق أهدافها الا من خلال القتال ، ولكي نحبط المؤامرة لابد أن نوقف القتال ولذلك بذلنا جهدا سياسيا وعسكريا ، قدمنا السلاح والذخائر من أجل وقف القتال لان موازين القوى كانت غير متكافئة ولم يكن بالامكان وقف القتال ، ولذلك اضطررنا الى تقديم السلاح لهؤلاء الذين يهاجموننا وينكرون جهود هذا الشعب ، حاولنا تضيق رقعة المشكلة بقدر المستطاع لان توسيع هذه الرقعة في صالح المؤامرة ، وفي يوم من الأيام انهارت جبهة الأحزاب الوطنية وانهارت جبهة المقاومة الفلسطينية ، وانهارت جبهة الأحزاب في لبنان ، وانهارت جبهة المقاومة في لبنان ، وارسلوا لنا الصرخات وكرروا الاتصال وهم في حالة سيئة ، وقد سقطت بعض الاحياء ، ومسلحو الكتائب يجتاحون المنازل ويتساقط أمامهم كل شيء .

ويقول الرئيس الأسد في موضع آخر خلال مقابلاته لكمال جنبلاط في دمشق :
«استقبلنا كمال جنبلاط وكان لي معه لقاء أطول .. استعرضنا أحداث لبنان منذ بداية الازمة ، وقلت له : نحن متفقون وإياكم على تحليل أحداث لبنان وعملنا جميعا من أجل وقف القتال ، وساعدناكم سياسيا وعسكريا ومع هذا لم تستطيعوا أن تصمدوا

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

ودخلنا لبنان وغامرنا باحتمال مجابهة الحرب مع اسرائيل ، وحققنا للمقاومة كل الضمانات التي نريدها والكفيلة بحرية عمل المقاومة ثم ناقشنا الاصلاحات الوطنية واتفق على الوثيقة الدستورية ، وهذه الوثيقة تتضمن الكثير نسبة ٩٥٪ مما طرحتموه ، فما الذي تسعون اليه ؟ تحدث عن العلمنة يريد دولة علمانية في لبنان .

قلت له : ان الكتائب متحمسة للعلمنة ورجال الدين المسلمون وبعض رؤساء الوزارات ، ورؤساء مجلس النواب رفضوا العلمنة لان الامر يتعلق بجوهر الدين الاسلامي . قال : لا تهتموا بهم انهم لا يمثلون شيئا .

قلت له : ان الامر ليس أمر تمثيل انما هو أمر يتعلق بالدين الاسلامي ، وعندما يتعلق الامر بالاسلام فيجب عدم الاستهانة به .

قال : « خلونا نؤدبهم .. لابد من الحسم العسكري ».. كان كمال جنبلاط يريد التخلص من المسيحيين الذين مايزالون يحكمون منذ ١٤٠ سنة . ويقول الرئيس الأسد : « هنا رأيت ان كل قناع قد سقط .. اذن الامر ليس كما كنا نقول ، وليس كما كان يقال لنا ، الامر ليس بين يمين ويسار وليس بين تقدمي ورجعي ، ليس بين مسلم ومسيحي .. المسألة هي مسألة ثأر وانتقام تعود الى ١٤٠ سنة ، ولقد استدعيت ياسر عرفات في اليوم التالي وأعدت امامه ماقلته لكمال جنبلاط وناقشته في مخاطر الحسم العسكري بين فئتين في وطن واحد ، وقلت له : أمر غير ممكن ، وسيفتح الابواب على مصاريها لكل تدخل أجنبي وخاصة التدخل الاسرائيلي ، ولننصور جميعا حجم المسألة التي يمكن ان تنتج اذا ماتدخلت اسرائيل وانقذت بعض العرب من بعض العرب الآخرين ، وأنا ضد هذا التوجه لان الاسلام محبة وعدل ، وليس كراهية وبغضاء واذا كنت سأنتقل من كوني ثائرا فالثورة عدل للجميع .. الثورة ضد الظلم .. الثورة اصلاح وتصحيح .. الثائر لا يرفع الظلم عن نفسه ليقع به الآخرين ، انما يرفعه عنه ، وعن الآخرين ، هكذا الثائر ، وهكذا المسلم الحقيقي والمسلم الحقيقي هو الثائر الحقيقي .

الاسلام هو الثورة الكبرى في تاريخ أمتنا وفي تاريخ البشرية وبدافع الروابط الاخوية والقومية والعلاقة الخاصة بين سورية ولبنان وبدافع الشعور بالمسؤولية واستجابة لنداءات مختلف اطراف النزاع في لبنان يبذل كل جهد في سبيل وقف القتال ودفع الاطراف لايجاد قواسم مشتركة عن طريق الحوار ، لم يبق امام حافظ الأسد الا خيار واحد وهو الحيلولة دون تنفيذ مؤامرة تمزيق لبنان والالتفاف على سورية لضربها وتركيعها تنفيذا لمخطط كيسنجر . وتلبية لنداء الجماهير اللبنانية ودعوة السلطة الشرعية في لبنان عبرت الطوابير السورية المدرعة في صباح واحد

■ الفصل الخامس

حزيران/ يونيو ١٩٧٦ الحدود السورية اللبنانية الى البقاع والشمال ، وأخلف ياسر عرفات الذي حاول تطويق النجدة السورية في الجمع بين جنبلاط والجميل بعد أن أصبحت خلافتهما أقوى من امكانيات اللقاء .

ومع أن الرئيس حافظ الأسد أعطى تعليمات صارمة الى قادة قواته التي دخلت لبنان ان تتجنب العمل كفريق منحاز الى طرف ضد اخر مهما كانت الأسباب والمسوغات ، لأن هدفه الرئيسي كان الحفاظ على التعايش اللبناني الذي أراد كيسنجر تحطيمه ، وحقق دماء اللبنانيين من كافة الطوائف تحت شعار التوافق الوطني ، الا أن بعض قادة المنظمات الفلسطينية ارتكبوا سابقة ليس لها مثيل عندما نصبت قوات فلسطينية كمينا لوحدة من الدبابات السورية فقتلت أطقمها .

ان سورية قدمت نصائح كثيرة لقادة المقاومة بأنهم سيدمرون قضيتهم . ويتحولون عن هدفهم المقدس في تحرير وطنهم كلما انغمسوا في الشأن اللبناني ، وكان حافظ الأسد يتسامح بألم ومرارة ، ما هي العلاقة بين أن يقاتل الفلسطينيون في أعلى جبال لبنان وبين تحرير فلسطين . إن الذي يقاتل في جبل لبنان من الفلسطينيين لا يقاتل قطعاً من أجل فلسطين .

وفي خطاب ألقاه الرئيس حافظ الأسد في ١٢ ابريل / نيسان ١٩٧٦ أكد على أن ما يحدث في لبنان هو مؤامرة تستهدف الأمة العربية وفي أولوياتها القضية الفلسطينية .

قال : (اننا ضد أولئك الذين يصرون على استمرار القتال في لبنان . ان هناك مؤامرة كبيرة تحاك ضد الأمة العربية وعلى اخوتنا في القيادة الفلسطينية أن يفهموا ويعوا خطورة هذه المؤامرة فهي هدفهم الأول) . أدرك الأسد أن عدم تدخله لانقاذ المسيحيين من الدمار الذي كانوا على وشك الوقوع فيه سيطلق يد اسرائيل لاحتلال لبنان وتهديد سورية بحجة حماية المسيحيين وضرب المقاومة الفلسطينية ، ويتحدث الكاتب البريطاني « باتريك سيل » عن الدخول السوري إلى لبنان فيؤكد أنه جاء في اطار فهم استراتيجي لحجم المؤامرة المرسومة لكل من لبنان وسورية وفلسطين ، كما كانت رؤية الأسد الاستراتيجية وارادته تتمثلان في نزع فتيل مؤامرة كبيرة .

كان أكثر ما يقلق حافظ الأسد أن تتدهور الأمور في لبنان إذا حققت مؤامرة تقسيم لبنان هدفها ونشأت دولة يملؤها الحقد ويتوارث أبناؤها الحقد نتيجة للقهر الذي عانوه ، وأكد الرئيس الأسد في خطاب ألقاه في ٢٠ يوليو / تموز ١٩٧٦ أن الآثار والمخاطر التي قد تنجم عن وقوع مثل هذه الكارثة عديدة .. سيكفر هؤلاء بكل القيم العربية وبكل قيم الاسلام ، ستنشأ دولة وأقوالها صريحة واضحة أكثر خطراً وأشدّ عداءً من اسرائيل ،

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

وهؤلاء الناس الذين سيعيشون في هذه الدولة ستكون دولتهم أكثر خطرا وأشدّ عداء من إسرائيل نتيجة لمسلسل القهر الذي عانوه .

يقول فؤاد العشا في كتابه (حافظ الأسد قائد ورسالة) : وقد رأينا فيما بعد ، وبعبء اغتصب ميشيل عون السلطة في جزء من لبنان كيف أدى شكل واه من أشكال التقسيم غير المعلن ، عن قيام حكومتين متناحرتين وكيف أدى القصف الوحشي بين جزئي بيروت الشرقي ، والغربي إلى دمارها ، وكيف وصل التناقض ذروته عندما نشب الصراع في شرق بيروت نفسها بين فريقين من طائفة واحدة نتيجة نزاعهما للوصول إلى السلطة والاستئثار .

كان الرئيس حافظ الأسد يرى منذ أن بدأت الأحداث في لبنان الأخطار التي يمكن أن تنجم عن هذه الأحداث والتي تصوّرها أخطارا كبيرة على المقاومة ، وعلى لبنان ، وعلى شعب لبنان ، وعلى الأمة العربية ، ومن هنا كان قراره بأن يسارع إلى تحمل المسؤولية في لبنان في انتظار أن يدرك كل الأشقاء العرب نتيجة تفاقم الأحداث وتطورها .

ويقول الرئيس الأسد : لو نظرنا إلى التدخل السوري من زاوية سورية بحتة لوجدنا أن هذا التدخل لا ينسجم مع المصلحة القطرية السورية ، نحن لا نحقق ربحا ذاتيا من تدخلنا في لبنان ولكن يستطيع أي قارئ للأحداث الآن أن يقدر مدى النتائج الايجابية للتدخل السوري ومدى أهمية التضحيات السورية .

ويُضيف : نحن منذ بدء الأحداث طلبنا بشكل مباشر ، وثنائى من الكثير من الأشقاء العرب أن يأتوا للمساهمة معنا في تحمل المسؤولية في لبنان ، لدرء الخطر مشتركين ، هي الخطر الذي يعنيننا جميعا ، وقد أعلنت منذ زمن وللرئيس سركيس شخصيا ، وقبله للرئيس فرنجية أن هذه القوات لم تدخل لبنان لتفرض سلطة سورية بل دخلت إلى لبنان لتدافع عن العرب ، عن القيم العربية لتحول دون أن تستغل إسرائيل هذه الأحداث وتحقق ما تريد ، وفي إطار هذا الفهم نحن جاهزون في أي وقت لأن نضع هذه القوات السورية تحت سلطة رئيس الجمهورية اللبنانية وبإمرة السلطة الشرعية في لبنان ، هذا كان رأينا منذ بدء الأحداث وحتى الآن .. تدخلنا السريع في لبنان لم يمكن إسرائيل من تحقيق أهدافها وحال دون تدخل إسرائيل إلى لبنان لتنقذ بعض الفئات اللبنانية ، ولتظهر أنها حامية لبعض الفئات وأنها استطاعت أن تخلصهم من الذبح ، وتحتل قسما من لبنان ، وتقيم دولة ، أو دويلات عنصرية طائفية في لبنان ، وبهذا تتحقق للعرب كارثة جديدة هي أخطر من كارثة قيام إسرائيل ، فوجود القوات السورية داخل لبنان منع حصول هذه الكارثة ، ونحن كما نتوقع أن مرور الزمن سيجعل الجميع يدرك أهمية التدخل السوري في لبنان ، نحن في لبنان ندافع عن العروبة وعن الاسلام ونؤمن بوحدة لبنان .

لولم ندخل إلى لبنان لكانت نتيجة الصراع إما أن تنتهي المقاومة الفلسطينية في لبنان

وإما أن يُدمّر لبنان وتقوم دويلات طائفية وحتى الآن استطعنا أن نمنع تدمير المقاومة الفلسطينية واستطعنا أن نمنع تقسيم لبنان وقيام دويلات طائفية عنصرية لأننا استطعنا أن نحول دون تدخل إسرائيل وتحقيق هذه الأهداف وأكثر ما يتمناه الرئيس الأسد أن تنهض المؤسسات اللبنانية بمسئولياتها في أقرب وقت ممكن حتى تستطيع الاستغناء عن المساعدة السورية في تحقيق الأمن ، وكثيرا ما أكد على أن امكانية قيام هذه المؤسسات بمسئولياتها يتوقف بقاء القوات السورية التي تقدم المساعدة الى لبنان ، وكثيرا ما أكد الرئيس الأسد أن نواياه المقبلة هي النوايا التي أعلن عنها منذ أول يوم للقتال ثم منذ أول يوم لدخوله إلى لبنان وأنه يرغب في أن يستقر الأمن في لبنان وأن تقوم المؤسسات اللبنانية بمهامها كاملة وأن تستطيع السلطة الشرعية المعنية في لبنان الاستغناء عن المساعدة السورية بأسرع ما يمكن ، وعندئذ سيكون لدى سورية الرغبة في أن تسحب قواتها من لبنان لتستأنف مهامها الأساسية .

ان القوات السورية لا تحارب ضد أحد في لبنان ، وانما هي منذ دخولها لتتخذ اللبنانيين والفلسطينيين من الدمار الذي لم يكن باستطاعتهم أن يخرجوا منه ومن مستنقع الدم الإبمساعدة قوة كالمساعدة التي قدمتها القوات السورية .

ويؤكد الرئيس حافظ الأسد أننا نشعر بالرضا لأننا نشعر بما تعكسه الحقيقة التاريخية ، من أننا في البلدين شعب واحد ، ولهذا لا نستبعد أن نضحي من أجل المواطنين في لبنان كما نضحي من أجل المواطنين في سورية ، وأي متتبع لموضوعي للتطورات في لبنان خلال السنوات الأخيرة يستطيع أن يتأكد كم هي التضحيات سواء البشرية أو المادية أو السياسية التي قدمتها سورية من أجل لبنان ، ننطلق في هذا من إننا شعب واحد ، وعلينا واجب واحد نحو البلد الشقيق الذي وقع في مشكلة كبيرة ، مشكلة مأساة ، نعتقد أننا قدمنا خدمات كبرى ، وأن هذه التضحيات أدت إلى نتائج خففت كثيرا من الآلام عن المواطنين اللبنانيين ، وهذا ما كنا نطمح إليه ، نحن نساعد لبنان ، نساعد على إيصال هذا البلد الشقيق إلى وضع معين بحيث تستطيع قيادته وأطرافه أن تتابع الطريق ، وأن تمارس مسئولياتها ، كاملة ، وأن تحل المشاكل ، أو تعالج الأسباب التي أدت بلبنان إلى الوضع الذي وصل إليه ، وحتى في هذا القسم من المشكلة لابد أن نساعد وهذا ما فعلناه وما سنفعله ، ونحن نقول لأشقائنا اللبنانيين ، في القوى والأحزاب والسلطة نحن نساعدكم لكن لا نحل محلكم . الحرب الأهلية وقعت في لبنان بفضل القوات السورية ، وليس بفضل أي شيء آخر ، وهذه في نظر البعض هي مصيبة المصائب ، ولكن يجب أن نصل إلى وفاق ، إلى حالة السلام بين المقاتلين ، لابد أن يجتمعوا ، لابد أن يناقشوا خلافاتهم وهذا ما حدث فيما بعد .

ايقاف الحرب الأهلية

هناك حقيقة هامة كثيرا ما أوضحها الرئيس حافظ الأسد وهي أن القوات السورية لم تدخل إلى لبنان لتتأرب إسرائيل من هناك ، وإنما دخلت لايقاف حرب أهلية على أرض لبنان لها امتدادات دولية خارجية ، وبالتالي كانت القوات السورية موزعة تقوم بمهام الشرطة ، وليس بمهام جيش نظامي على الرغم من تغير المهام ، وعلى الرغم من أننا كما يقول الرئيس الأسد نتأرب في أرض ليست مهيأة من قبلنا لمواجهة العدو ، وليس لدينا في لبنان الحجم من القوات ، وأنواع الأسلحة المختلفة ، والاستعداد التعبوي ، والهندسي وغير ذلك لمواجهة هذا العدو ، فعندما فرض علينا القتال وقف جيشنا بعزة ، وقوة ، وكرامة ، وكانت ملاحم حقيقية ، ونحن نعرف ما لدى العدو من معدات تكنولوجية ، ونعرف ما لديه من طيران ، وكنا نعد أنفسنا ، وننتهي ، ولكن قرارنا هو أنه في أي وقت سواء كنا متوازنين مع العدو أم لم نكن ، في أي وقت يعتدى فيه هذا العدو نتصدى له بقوة ، ونجابهه بدون أي تردد ، لأنه في كل الأحوال ليس المهم فقط في المعارك والحروب النتائج ، النتائج مهمة ولكن المهم أولا هو أساليب الممارسة والسلوك ، فعندما نقاتل بشرف نقاتل حتى الشهادة ، وعندما لا يستطيع العدو أن يتقدم شبرا إلا على أجسادنا فلا نكون اطلاقا قد خسرنا المعركة ، ومهما تكن نتيجة المعركة فنحن الذين نربحها .

شروط إسرائيل

كثيرا ما أعلنت إسرائيل أنها لن تسحب قواتها من لبنان إلا عندما تسحب القوات السورية ، وقد سأل الرئيس الأسد متى وبأية شروط ستكونون على استعداد لسحب القوات السورية من لبنان فقال : إن إسرائيل تقول شيئا ، وتعمل شيئا آخر ، منذ أكثر من عام قلت : إن إسرائيل ليست هي المهددة كما تدعى ، بل نحن المهددون ، وقلت : أننا نعتقد بأن إسرائيل تنوى تحقيق نقلة توسعية جديدة ، سواء على شكل احتلال أرض لبنانية ، أو على شكل وضع الدولة اللبنانية تحت هيمنتها .

وهنا نحن الآن نرى إسرائيل وقد حققت بالفعل هذه النقطة التوسعية الجديدة.

عندما بدأت إسرائيل عدوانها على لبنان ، قالت : إنها تريد اخراج الفدائيين من منطقة يبلغ عرضها أربعين كيلو متراً ، وقد سمّتها عملية (سلامة الجليل) .

لم تقل في البداية أنها تريد اخراج منظمة التحرير من بيروت ، ولم تقل أنها تريد أن تخرج القوات السورية من لبنان ، بينما هي الآن تردد كل هذا .

فتأسيساً على ما سبق ألا يحق لنا أن نتوقع أن إسرائيل تريد أمورا أخرى كتوسع آخر ؟

نحن لسنا غزاة في لبنان .

نحن دخلنا لمساعدة اللبنانيين كأشقاء لنا ولايقاف الحرب الاهلية التي كان اللبنانيون يعانون منها وقد أوقفناها فعلا وتحملنا من أجلهم تضحيات كثيرة .
لقد دخلنا إلى لبنان بناء على طلب السلطة اللبنانية . وبقينا هذه السنوات أيضا بطلب السلطة اللبنانية الذي كان يتجدد كل ستة أشهر ، وبموافقة عربية .
ومن هنا فطريق خروجنا من لبنان مسألة ثنائية سورية - لبنانية ، ومسألة عربية داخلية .

الغزو الاسرائيلي

إدراك الرئيس حافظ الأسد لحقيقة الارتباط العضوي بين الأمنين السوري ، واللبناني ومعرفته الوثيقة بحقيقة الاطماع الصهيونية في لبنان ، وخاصة في جنوبه جعلته يبادر منذ اللحظة الأولى لتوليه المسؤولية لبناء قوة لسورية تستطيع أن تتصدى للخطر الاسرائيلي على البلدين ، وقد ساهمت قوة سورية في إنهاء أسطورة اسرائيل التي لا تقهر خلال حرب تشرين أكتوبر ١٩٧٣ ، وقد أدى التعاون الطبيعي ، والتاريخي بين مصر وسورية إلى إنجاح هذه الحرب نجاحا كبيرا ، ولولا تدخل الولايات المتحدة الأمريكية المباشر لما استطاعت اسرائيل أن تصمد في مواجهة تلك الحرب ، والكل يعرف ، ويذكر كيف عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إقامة جسر جوي وبحري لتزويد اسرائيل بأحدث الأسلحة المتطورة من أجل الوقوف أمام النتائج الباهرة التي حققها الجيشان المصري ، والسوري ، خلال حرب رمضان سنة ١٩٧٣ .

ولقد حاول الرئيس حافظ الأسد في اطار سعيه لايجاد سلام عادل يقوم على تأمين حقوق الجميع في العيش بسلام في المنطقة حاول أن يبنى رؤية جديدة ، يمكن معها إعادة صياغة العلاقات العربية . العربية صياغة سليمة بحيث يتم الاستغناء عن دور الشرطي الضامن للمصالح الغربية في المنطقة (اسرائيل) ، من هنا فإن الرئيس حافظ الأسد بادر إلى التدخل الفوري لوقف الحرب الأهلية : اللبنانية عام ١٩٧٥ والتي كان واضحا أن من بين أهدافها الرئيسية هدر الطاقات والامكانيات العربية بالثغرة اللبنانية بعد اثارة النعرات والفتن بين اللبنانيين ، ولم يكن خافيا دور اسرائيل ومحاولتها أن تكون مشاركتها في تأجيج الحرب اللبنانية رداً على حرب رمضان ١٩٧٣ .

ومن المؤكد أن احجام بعض الدول العربية عن تقديم الدعم اللازم لمصر وسورية باعتبارهما الجبهة الوحيدة أو الجبهة القادرة على المواجهة من خلال حرب رمضان ١٩٧٣ ، إلى جانب عدم استيعاب النتائج الهامة لهذه الحرب التحريرية أدى إلى نشوب الازمة اللبنانية من جهة وإلى ارتداد السلاح الذي استعمل خلال حرب ١٩٧٣ على

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

العرب وعلى مصر وسورية بالذات ، ولقد انعكست الخلافات العربية - العربية على الازمة ، وبدلا من أن تتجه جهود العرب إلى تحقيق المصالحة القومية بعد أن استطاع الرئيس حافظ الأسد انقاف الحرب الاهلية لكان قد أمكن تطويق هذه الحرب سريعا ، ولقد تطورت الاحداث على النحو المعروف ولولا التضحيات الكثيرة التي قدمتها سورية لكانت الامور قد وصلت إلى نتائج بالغة الخطورة ، وهناك من لا يعرف حتى الآن حجم هذه التضحيات ، يكفي أن نشير إلى أنه خلال الاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٨٢ للأراضي اللبنانية دفعت سورية دفعة واحدة أكثر من سبعة آلاف شهيد من جيشها على أرض لبنان وتكبدت خسائر عسكرية كبيرة ، ومع ذلك لم تتوان سورية عن دورها في دعم المقاومة الوطنية في لبنان التي أجبرت القوات الاسرائيلية على الانسحاب من أجزاء كثيرة كان قد احتلتها خلال اجتياحها للبنان عام ١٩٨٢ ، وانسحبت مرغمة تحت وطأة المقاومة المدعومة من سورية ، يكفي أن نشير أيضا إلى الدور السوري في دعم الشعب اللبناني لاسقاط اتفاق السابع عشر من مايو / أيار الذي كان سيؤدي إلى وضع لبنان تحت السيطرة الاسرائيلية كما سيهدد الأمن القومي العربي بشكل عام ، والأمن القومي اللبناني السوري بشكل خاص .

الرئيس حافظ الأسد هو أكثر الزعماء السوريين فهما لمتطلبات الارتباط العضوي بين الأمنيين السوريين واللبناني ذلك أن كل ضعف ينتاب لبنان هو في الحقيقة يستهدف سورية في عمقها نظرا لموقع لبنان ونظرا لحقيقة أن جميع الغزوات والاعتداءات التي قامت بها اسرائيل انما كانت من نقاط محددة من لبنان ، فلبنان الذي يقع في خاصرة سورية يؤثر تأثيرا بالغا على الأمن القومي السوري بشكل خاص ، وعلى الأمن القومي العربي بشكل عام ، وكذلك فإن أي ضعف لسورية يتأثر به لبنان ، ويجعله أقل مناعة في مواجهة الاعتداءات . وهنا لابد من القاء الضوء على طبيعة المخططات الاسرائيلية، في لبنان ، فهي ترى لبنان النقيض الحقيقي لتكوينها وليكيانها العنصري الطائفي ذلك أن الشعب اللبناني هو شعب واحد وإن تنوع بالانتماء إلى طوائف عدة ، وإلى أديان ، وإلى مذاهب ، وهذا التنوع يُغنى لبنان ويعطى لبنان معنى لرسالته الحضارية العالمية ، ذلك أنه يُشكل مؤسسة دائمة للحوار المسيحي الاسلامي خاصة عندما نعلم أن كل عائلة في لبنان تتوزع بانتوائها الطائفي بين عدة طوائف ، بينما الشعب اللبناني في مجموعه هو من أصل واحد وفي ظل تاريخ واحد وتراث واحد . وله لغة واحدة ، وتطلعات ، وأمال واحدة ، ومن هنا فإن لبنان يُشكل النموذج الحضاري الذي يشهد على بطلان التكوين الصهيوني العنصري الرافض للتعايش مع الطوائف أو الأديان الأخرى على أرض فلسطين ، ومن هنا فإن النموذج اللبناني والمثال اللبناني دليل على العروبة الحضارية التي لا تميز بين دين ودين وبين لون ولون ، اذن فالعروبة وحدها قادرة على المحافظة على هذا المثال والنموذج ومن هنا فإنه ليس مطلوبا اثبات عروبة لبنان بقدر ما هو مطلوب اثبات لبنانية العروبة الآن ، ولذلك فإن

■ الفصل الخامس

عظمة انجاز الأسد أن بلاده استطاعت أن تساعد لبنان ، الذي حقق انتصارا عربيا كبيرا هو الابقاء على الوحدة الوطنية اللبنانية التي تؤكد العروبة الحضارية ، وانتماء لبنان العربي . ولولا سورية وموقفها المبذئى لكنت حالة لبنان قائمة ولكانت اسرائيل قد تمكنت من تفتيت لبنان إلى عدة كيانات عنصرية طائفية ، وعند ذلك لن يقوى أى مجتمع عربى على مقاومة التفتيت خصوصا أن جميع المجتمعات العربية لديها هذا التنوع فى الانتماء الطائفى والمذهبي ، ومن هنا كانت أهمية النظرة إلى وحدة لبنان وإلى العيش المسيحى الاسلامى المشترك فى لبنان كضامن أساسى لمواجهة مخططات اسرائيل الرامية إلى تفتيت المنطقة العربية ، ولولا سورية لما تحقق اتفاق الطائف ، ولما خلا لبنان هذه الخطوات الهائلة لآخراجه من الحرب إلى حالة السلام ، وإزالة الحواجز بين اللبنانيين وبين المناطق اللبنانية ، وبالتالي العودة إلى مسيرة إعادة قيام الدولة وبناء مؤسسات داخل لبنان ، وهذا الوجود قد نصت عليه اتفاقية الطائف بقصد مساعدة لبنان على تحقيق وفاقه الداخلى ، وتعزيز سيادة واستقلال لبنان على أرضه وتمكين قواته المسلحة من القيام بدورها بحيث تستطيع عند ذلك القوات السورية الخروج من لبنان دون أى اضرار بالكيان اللبنانى وبسيادة واستقلال لبنان .

الأطماع الصهيونية فى جنوب لبنان وكيف فهمها الرئيس حافظ الأسد

قبل الحديث عن حقيقة الأطماع الاسرائيلية فى لبنان وكيف فهمها الرئيس حافظ الأسد ، وكيف تعامل معها . لابد من التمهيد لهذا الحديث بطرح الملاحظات الآتية :

أولا : أن لبنان رغم كثرة الاعتداءات الاسرائيلية عليه رفض ، ولايزال يرفض الاعتراف باسرائيل .

ثانيا : إن اتفاقية الهدنة التى وقّعت بين لبنان واسرائيل فى ٢٣ مارس آذار ١٩٤٩ وان كانت لم تضع حدا لحالة الحرب إلا أنها بموجب القانون الدولى توجب على اسرائيل كما توجب على لبنان التوقف عن كل اعتداء مسلح .

ثالثا : ان لبنان مرتبط بوحدة الحياة والمصير بالشام وفلسطين والاردن والعراق الواقعة فى محيطه الطبيعى ، ويمتد هذا الارتباط المصيرى إلى الجبهة المصرية الغربية وبقية الوطن العربى .

رابعا : ان وجود القوات السورية فى لبنان بأهدافه ، وبما له من شرعية يختلف اختلافا كليا عن وجود القوات الاسرائيلية التى دخلت الاراضى اللبنانية غازية ، وما تزال تحتل أجزاء واسعة منها لتحقيق أطماع توسعية ولا وجه للمقارنة بين الوجودين .

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

كذلك فإن القوات السورية دخلت إلى لبنان تلبية لنداءات مُلحة من اللبنانيين أنفسهم ، شخصيات وأحزاب وتجمعات سكانية ، وبناء على طلب السلطة الشرعية ، وإداء لواجب قومي وانها خلال وجودها في لبنان أدت مهمة نبيلة فقد أوقفت الحرب الأهلية التي كانت مستعرة في كل أنحاء لبنان ، وحافظت على وحدة لبنان أرضا وشعبا ، وحققت معجزة الوفاق الوطني في اتفاق الطائف ، كذلك فقد أوضحت على لسان قائدها حافظ الأسد انها مستعدة لسحب قواتها حالما يقول لها اللبنانيون انهم لم يعودوا في حاجة إلى العون الذي قدمته لهم في وقت المحنة .

خامسا: ان اسرائيل مارست ضد لبنان كل صور الاعتداء الوحشي والشرس والتخريبي برا ، وبحرا ، وجوا ، وليس جديدا . التأكيد على أن اعتداءاتها على لبنان هي مجرد ذريعة لتحقيق مطامعها في أرض لبنان وموارد لبنان المائية ، والزراعية ، والاستراتيجية ، وطابع الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان منذ عام ١٩٦٨ وحتى الآن طابع وحشي مروع ، فاسرائيل من الجو ، والبر . والبحر ، تفتك بالقرى اللبنانية الآمنة حتى وصلت إلى قصف المدن كمدينة طرابلس وصيدا ، ودخلت إلى قلب بيروت في ١٠ ابريل نيسان ١٩٧٣ .

أسباب الاعتداءات الاسرائيلية ودوافعها واستهدافاتها حددها حافظ الأسد في ثلاثة أمور:

★ دوافع دينية تاريخية .

★ استراتيجية عسكرية .

★ عوامل اقتصادية .

من الناحية التاريخية :

جاء في سفر يشوع ١: ٤ « وعد الله شعبه المختار باعطائه كل موضع تدوسه قدماه » ولبنان حسب هذا الوعد وتفسير أئمة الصهاينة ضمن هذا الوعد . داخل في أرض المعاد ، وجاء في سفر التكوين : « منح الله شعبه المختار كل الأرض الواقعة بين النيل والفرات » فمن الناحية الدينية التوراتية واضح كل الوضوح أن لبنان كله - لا الجنوب فقط - داخل فيما يسميه اليهود «اسرائيل الكبرى» .

من الناحية السياسية : فإن اسرائيل احتلت عام ١٩٤٨ جزءا من قضاء مرجعيون ، وبنت جبيل ، وأصبحت على مشارف اللطاني ، ولكنها لم تلبث أن انكفأت عن هذه الأراضي جيوشها تحت ضغط فرنسا ، ولكنها عادت واستولت بموجب اتفاقية الهدنة بينها وبين لبنان عام ١٩٤٩ على أراض زراعية واسعة من قرى الحدود الجنوبية ، يارون ، راميش ، عيترون ، بليدا ، حولا ، والعديسة ، وكفر كلا ، وميس الجبل ..

■ الفصل الخامس

وفي سنة ١٩٥٥ كرر بن جوريون مطامع اسرائيل التوسعية ، مؤكداً بأن حدود دولة ١٩٤٨ لاتحد بأى شكل من الاشكال من اتساع اسرائيل التاريخي ، وقد أيد الكنيست هذا الموقف وأسبغ عليه طابعا شرعيا إذ رفض اقرار دستور دائم لاسرائيل على اعتبار انها لم تكتمل بعد لا شعبا ولا أرضا .

وفي ٧ يوليو/ تموز ١٩٦٧ صرح ليفى أشكول رئيس الوزراء لجريدة لوموند الفرنسية قائلا : (لا يمكننا ونحن بأمس الحاجة إلى المياه أن نرى مياه الليطاني تذهب هدرا إلى البحر ، لقد أصبحت القنوات جاهزة في اسرائيل لاستقبال هذه المياه واستعمالها) ، وبعد حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧ صرح وزير الدفاع الاسرائيلي موشى ديان (أن حدود اسرائيل أصبحت طبيعية على جميع الجهات ، وأن الضفة الشرقية للأردن ولبنان وسورية ستكون الفريسة الثانية لاسرائيل) .

أما الأسباب الاستراتيجية للمطامع الاسرائيلية في لبنان كما حددها الرئيس حافظ الأسد : فمرجعها إلى حدود اسرائيل بطبيعة تكوينها العدوانى لا تستقر على تخوم محددة ، وأن للبنان أهميته ، من الناحية العسكرية حيث يمتاز لبنان بسطح جبلى تبرز فيه سلسلة جبال لبنان التى تفصل بين السهل الساحلى وسهل البقاع الذى يعتبر طريق الاقتراب الطبيعى من شمال الشام .

وأما الأسباب الاقتصادية : فمعروف أن اسرائيل يقلقها كثيرا ازدهار لبنان الاقتصادى ، وفي كل مرة تضرب اسرائيل يكون من أهدافها المباشرة تعطيل موسم الاصطياف فتقضى على المورد الرئيسى للبلاد ، كما أن اسرائيل تسعى للحصول على أراض جديدة لإقامة الكيبوتز واستيطان المهاجرين الذين قال عنهم بن جوريون : أنهم يكونون كفرة إذا لم يعودوا إلى اسرائيل (تراب الآباء والأجداد) .

وأرض جنوب لبنان الخصبة هى مطمح أبصارهم لاستيطان هؤلاء العائدين ، إلى جانب ذلك كله فإن المطامع الاسرائيلية في نهر الليطاني واضحة منذ عام ١٩١٩ ، (ان مطامع اسرائيل في الليطاني تنبع من طبيعة كيانها الاستعماري ، وهى بالنسبة لها حيوية لمشاريعها التوسعية كدولة هجرة استيطانية مفتوحة لاستيعاب الملايين من اليهود من كل أنحاء العالم ، ومنذ مؤتمر الصلح في عام ١٩١٩ والصهيونية تؤكد مطامعها في الليطاني) .

وفي ٦ كانون الأول/ يناير من عام ١٩٦٩ حددت الحركة الصهيونية أطماعها في جنوب لبنان على النحو التالى : (إن الحقيقة الأساسية فيما يتعلق بحدود فلسطين هى أنه لا بد من ادخال المياه الضرورية للرى وللقوى الكهربائية ضمن هذه الحدود ، وذلك يشمل مجرى نهر الليطاني ومنابع مياه الأردن وسفوح جبل الشيخ) .. الخ ، وإلى جانب هذه

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

الاطماع الصهيونية في لبنان فإن هناك أهدافا أخرى سعت إليها إسرائيل من غزوها للبنان في صيف ١٩٨٢ وفي مقدمتها التوسع على حساب الأرض العربية ، وقهر الانسان العربي ، وتجريده من روح المقاومة ، وضرب قوى التحرير المعادية لكل مظاهر الاستغلال والتخلف وصولا الى السيطرة المطلقة على المنطقة العربية والمشاركة في نهب ثرواتها المادية وتصفيته حضاريا وبناء إسرائيل الكبرى المتناقضة جذريا وصداميا مع أهداف الأمة العربية ، وطموحاتها ، وتطلعاتها نحو مستقبل أفضل .

أهداف الغزو الاسرائيلي للبنان

قبل الحديث عن الغزو الاسرائيلي للبنان لابد من الإشارة الى أن اهداف الغزو الاسرائيلي تمثلت في اخضاع لبنان لمشينة الاطماع الامريكية والمخططات الاسرائيلية تمهيدا لدفعه الى الارتقاء في الخندق المعادي للأمة العربية والانفراد بسورية وبقوى الثورة الفلسطينية وابقاء العرب على حالة من الضعف والتمزق .
ولقد تطورت الأحداث على الساحة اللبنانية بشكل مثير حيث بدأ مسلسل الاغتيالات والمجازر الدموية التي نفذها الكتائبون في عين الرمانة ، ومنطقة الدكوانة ضد الفلسطينيين ، ونشطت سورية لايقاف نزيف الدم العربي في لبنان ، ولكن المؤامرة عادت الى الظهور ونشب الاقتتال وتصاعد عام ١٩٧٥ وانفجرت حرب الكرتينية ثم حرب الدامور وسرعان ما شهدت بيروت اشتعال نار الفتنة حيث نشب القتال في كل مكان وظهرت بوادر الانقسام الطائفي في الجيش اللبناني ، وكان ذلك في أعقاب مجزرة بيروت المعروفة باسم السبت الاسود في ٨ آذار/ مارس ١٩٧٦ ، وفي ٢٠ يوليو/ تموز ١٩٧٦ قرر الرئيس حافظ الأسد في خطاب شرح فيه الموقف على الساحة اللبنانية وضع قوات الردع العربية تحت إمرة الرئيس الياس سركيس استنادا الى قرار مؤتمر القمة السادس في الرياض .

لقد دخلت القوات السورية لبنان دفاعا عنه وحفاظا على استقلاله وحققنا للدماء ومنعا للتقسيم ، وعندما استتب الأمن وعاد الهدوء الى لبنان خرجت إسرائيل من صمتها بعد استمرارها طيلة الحرب ، وأعلنت انها لن تسمح للقوات السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية بتجاوز الخط الأحمر وكشفت عن نياتها وفضحت أهدافها ، وتزامن مع هذا كمثل أعداء الكتائبون لقتل عناصر قوات الردع العربية ، وكان واضحا ان الآمال معلقة على دمشق لتحقيق الأمن وحقق الدماء في لبنان ، ولكن إسرائيل صعدت في عملياتها الاستفزازية متحدية بذلك العالم كله وكان أبرز هذا التصعيد اعلانها ضم الجولان في ١٤ كانون الأول يناير عام ١٩٨١ واعتبارها أرضا اسرائيلية ، ولكن هذه الخطوة لم تحقق لإسرائيل هدفها لجر سورية الى مجابهة عسكرية خططت لها بالتعاون مع الولايات المتحدة الامريكية ، وكانت ملامح هذه المؤامرة قد وضحت عندما شكل مناحيم

■ الفصل الخامس

بيجين رئيس وزراء اسرائيل حكومة جديدة شغل فيها الارهابى المتطرف اميريل شارون منصب وزير الحرب ، ولقد كان التواطؤ على أعلى مستوى بين الادارتين الامريكيتين والاسرائيلية على غزولبنان ، هذا الغزو الذى دفع ثمنه بعد افتضاحه الكسندر هيج وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية الاسبق ، ويعترف البريطانى باتريك سيل فى كتابه (الصراع على الشرق الاوسط) بوجود هذا التواطؤ الذى تعمدت كل من أمريكا واسرائيل عدم جعله صريحا للتمكنا من انكاره ، غير أن مجريات الغزو واتساع نطاقه ، وفظاعة حجم التدمير فى الارواح والممتلكات .. كل هذه الاسباب أدت الى هياج الرأى العام الأمريكى واقالة وزير خارجيته وتحمله مسؤولية الموافقة الامريكية وأدى الى تعثر الغزو وتخبطه فى المستنقعات اللبنانية القاتلة ، ولكن الاشتباكات الدموية والهجمات المتكررة ظلت تلاحق القوات السورية العاملة فى لبنان ، وتصدى الطيران العربى السورى بكل بسالة للطيران الاسرائيلى فى سماء لبنان ومنعه من تحقيق أهدافه العدوانية ، ونشطت القوات الكتائبية فى أعمال الاغتيال والتصفيات الجسدية . وتأزم الموقف فى زحلة ووقعت خسائر كبيرة فى صفوف المدنيين اللبنانيين ، والفلسطينيين على حد سواء ، وجرت تصفيات جسدية كان ضحيتها كمال جنبلاط وطونى فرنجية نجل الرئيس الراحل سليمان فرنجية والمناضل الفلسطينى زهير محسن منظمة الصاعقة .

ومرة أخرى تدخلت القوات السورية لوقف المعارك ، وايقاف التهجير ، وتابعت سورية مهمتها القومية على الساحة اللبنانية من أجل المحافظة على الكيان اللبنانى الموحد أرضا وشعبا ، والمحافظة على وحدة المقاومة الفلسطينية وأمنها وسلامتها . وعززت القوات السورية مواقعها الامنية ودفعت بوحدات من الصواريخ المضادة للطائرات الى منطقة البقاع لحماية القوات السورية هناك ، ولدفع العدوان الجوى الاسرائيلى عن لبنان ، ولكن الفئات اللبنانية المتأمرة على لبنان تابعت نشاطها الهدام ، وبالتعاون مع الولايات المتحدة واسرائيل ، وتزامن مع هذا كله تحركات أمريكية مشبوهة وفرت الظروف المواتية لشن عدوان اسرائيلى غادر واسع النطاق هدفه تقويض ما حاولت سورية بناءه خلال فترة وجودها فى لبنان وضرب البنية العسكرية الفلسطينية واجبار القوات السورية على الخروج من لبنان .

وفى صباح يوم ٤ يونيو/ حزيران ١٩٨٢ استفاق العالم كله ليستمع الى أخبار عن قيام الطائرات الحربية الاسرائيلية ، بقصف مواقع ومناطق مختلفة من لبنان قسفا كثيفا بزعم أن هذا الاعتداء هو رد انتقامى لحادث اغتيال سفير اسرائيل فى لندن شلوموارجوف ، وسرعان ما تكشف حقائق بالغة الاهمية من بينها أن القوات الاسرائيلية اجتاحت الجنوب اللبنانى تحت ستار كثيف من نيران البر والبحر والجو وتجاوزت حدود الأربعين كيلومترا التى أعلنت عنها ، كما تجاوزت صيدا ثم زجت بقوات جديدة فاقت كل التقديرات الاولى .

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

وفي نهاية الأسبوع الأول من العدوان كانت القوات الاسرائيلية قد توغلت أكثر من ٦٠ كيلومترا في عمق الأراضي اللبنانية بعد أن دفعت بحوالي ٧٥ ألف جندي على ثلاثة محاور، الأول على الساحل اللباني، والثاني في اتجاه البقاع ، والثالث نحو الجبال .

وفي كتاب (لعنة وطن) مؤلفه (كريم بقرادوني) أشار الى أن المارونية السياسية اشتركت في تهيئة المناخ لعملية سلام الجليل .. وروى الواقعة التالية :

« أطلعني بشير الجميل على مضمون اجتماع جرى مع شارون وزير الدفاع الاسرائيلي في بيروت خلال شهر كانون الثاني/ يناير عام ١٩٨٢ في بيت بشير بالأشرفية حضرة والده بيار ، وكميل شمعون ، وقال شارون : « إن ثمة قرارا اسرائيليا بتدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير ، وإن العملية الكبرى تفترض مشاركتكم في معارك بيروت أو تتوقف على مدى استعدادكم لتوقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل » .

ويعلق بشير على هذا اللقاء بقوله : « قبل الاجتماع كنت متخوفا من ردة فعل الشيخ بيار ومرتاحا لموقف شمعون ، وفوجئت كثيرا عندما أظهر الشيخ بيار خلال الاجتماع حماسا للعملية الكبرى أكثر من شمعون » ولجأت اسرائيل في سياق عملية الغزو الواسعة النطاق الى خبثها اليهودي المعتاد فأعلنت على لسان بيغن في خطاب ألقاه في الكنيسة « أننا نبذل كل جهد ممكن لتجنب المواجهة مع السوريين ، اننا لا نريد أن نوذى أحدا ، إننا نريد شيئا واحدا فقط ، هو ألا تُهاجم مستوطناتها في الجليل ، فإذا دفعنا الخط الى الوداء مسافة أربعين كيلومترا عن حدودنا فسوف تنتهي مهمتنا وينتهي القتال كليا » .

ومنذ اليوم الأول للغزو قصفت القوات السورية في البر والجو القوات الاسرائيلية الغازية وجسدت سورية هذا الموقف عمليا حين هبت الى نجدة لبنان ، ودفعت بقواتها الى ساحة المعركة برغم معرفتها حجم القوات الاسرائيلية الغازية ، وتحملت في سبيل ذلك الاعباء والتضحيات الكبيرة انطلاقا من واجبها القومي وادراكها العميق لمعانى الأواصر الاخوية التي تربط بين سورية ولبنان ، وعلى الرغم من تصدى القوات السورية والفلسطينية والقوى اللبنانية الوطنية بكل البطولة والشجاعة والاقترحام ، تابعت القوات الاسرائيلية تقدمها وفرضت الحصار على بيروت الغربية ، وفي اطار المخطط الاسرائيلي لتدمير القوات السورية والفلسطينية في بيروت الغربية فرضت الحصار من البر والجو والبحر مع تجويع السكان وحرمانهم من متطلبات الحياة اليومية والضغط النفسية ، ولقد شهدت بيروت أروع صور الصمود والتصدي ، وكما يقول باتريك سيل في كتابه (الصراع على الشرق الأوسط) : رغم أن القوات السورية كانت تقاتل في وضع خرج

■ الفصل الخامس

للغاية بعدما زجت اسرائيل بنخبة قواتها المدرعة وسلاحها الجوى والبحرى ، فإن هذه القوات استطاعت أن تُرغم اسرائيل على دفع ثمن كل متر كسبته عن طريق ايقاعها في كمائن .

ويشير فؤاد العشا في مؤلفه (حافظ الأسد قائد ورسالة) الى أن الفرقة الثانية المدرعة السورية قامت بخوض معركة في ١٠ يونيو/ حزيران مع لواء اسرائيلي مدرع في منطقة راشيا انتهت بتدمير معظم دبابات اللواء الاسرائيلي ، وأسر بضع دبابات صالحة للاستعمال من طراز م ٦٠ الأمريكية الصنع ، وفي الجبهة الوسطى تمكن لواء دبابات سورى وحيد من ايقاف الاسرائيليين عند قرية عين زحلنا لمدة تزيد على يومين ومنعهم من الاختراق باتجاه طريق بيروت - دمشق ، وعلى جبهة البقاع أوقفت الفرقة السورية الاولى هجوما اسرائيليا آخر ومنعته من الوصول الى الطريق الحيوى نحو الحدود السورية .

وعندما وجدت اسرائيل أن المعركة ليست كما وصفتها بأنها « عملية جراحة نظيفة » راحت تدفع بقوات جديدة للتغلب على المجابهة السورية العنيدة ووصل حجم القوات الاسرائيلية في لبنان الى رقم قياسى « حيث تجاوز ١٠٠ ألف جندى ، ١٢٠٠ دبابة ، ١٢٠٠٠ شاحنة للجند والمؤن » .

أكد ذلك تيمور جوكس الناطق باسم قوات الأمم المتحدة في الناقورة ، ومعلوماته مستقاة من قوات الأمم المتحدة التى كانت من خلال نقاط التفتيش التابعة لها تراقب الاسرائيليين وهم يعبرون الحدود دون أى اكتراث للرأى العام الدولى .

ورغم ان الولايات المتحدة توصلت لوقفين لاطلاق النار على الأقل بين القوات السورية والاسرائيلية إلا أن محور بيجن - شارون كان لايزال يطمح الى احتلال بيروت والسيطرة عليها ، وهكذا أمرت القوات الاسرائيلية بمحاصرة العاصمة اللبنانية وقصفها بالمدفعية والطيران تمهيدا لاجتياحها .

وصباح يوم ٢٥ حزيران أصاب الطيران الاسرائيلي عددا من المجمعات السكانية في عملية أبى شاكى في بيروت ، ولكى يجبر شارون بيروت على الاستسلام استخدمت قواته أسلحة محرمة دوليا فقامت القنابل الارتجاجية بهدم عمارات بأكملها ، كما استخدمت القنابل الفوسفورية والعنقودية الأمريكية الصنع ، وراحت اسرائيل تشن حرب تصفية منظمة ضد سكان بيروت المدنيين بقصد الارهاب وكسر شوكة المقاومة المدنية المسلحة ، وأدى ذلك الى قتل عدد يتراوح ما بين ١٧ ألفا الى ٢١ ألف لبنانى وفلسطينى وجرح حوالى ٤٠ ألف شخص ، كما اعترفت بذلك صحيفة واشنطن بوست فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٢/٩/٣ ، وكان ٤٠٪ من كل هذه الأعداد من الاطفال .

كلمات الأسد ودورها في رفع معنويات الجنود

كانت رسائل الأسد وتوجيهاته إلى أبنائه المقاتلين دافعا لهم لمواصلة صمود المقاتلين الرائع ، وقد اخترنا كنموذج تلك الرسالة التي كتبها بخط يده بتاريخ ٢١ يونيو/ حزيران ١٩٨٢ قال فيها : « أحببت أن اتصل بكم ولم أجد وسيلة أفضل من أن أكتب إليكم بخط يدي :

نحن لم نبدأ هذه المعركة بل العدو هو الذي بدأها وقد يستأنفها في أى وقت ، أنه يطمع في أرضنا ووطننا ، عندما بدأ العدو المعركة كان ردكم شجاعا ، وإذا استأنف العدو المعركة يجب أن يكون ردكم شجاعا بأسلا يتميز بالاصرار العنيد ، والتصميم ، والنفس الطويل الذي لا نهاية له والذي يحطم كل أمل للعدو في احراز نصر ، إذا بدأت المعركة يجب أن تستمر مهما طال الزمن ويجب أن يكون قتالكم عنيفا دؤوبا إلى الحد الذي يسجل التاريخ وتحدث البشرية أن شعبنا مارس أروع الشجاعة وأشدّها صلابة ، وأن شعبنا في مقدمة شعوب العالم بسالة وتضحية من أجل أرضه وكرامته . نعم ، يجب أن يسجل التاريخ هذا ، وتقرأه وتتحدث به شعوب الدنيا ، فإذا كان العدو الذي جمع شتاته من بلدان العالم المختلفة .. يقاتل ويضحي من أجل باطله وعدوانه ، من أجل أن يحتل أرضنا ، ويذل شعبنا ، ويقتل أطفالنا ونساءنا وشيوخنا ، فما أحرانا نحن أن نموت ميتة الشرف دفاعا عن الحق ، وضد الباطل ، دفاعا عن الحرية ، وضد العدوان دفاعا عن أرضنا ، وشعبنا ، ودفاعا عن أطفالنا ، ونسائنا ، وشيوخنا ، ومستقبل أجيالنا .

الحياة قصيرة ، أيها الأبناء ولا تستحق أن تُعاش إذا لم تكن أعزاء في وطننا . حياة المرء قصيرة بذاته ، طويلة مستمرة بعمله وحياة شعبه .. حياة المرء قصيرة ، فليقرر كل منا ألا تنتهي حياته إلا نهاية العز والشرف والرجولة ، وهل هناك أمر أشرف ، وأروع خلودا من نهاية أبيّة للحياة تتم في ميدان القتال دفاعا عن الشعب والوطن ، وتلك هي الشهادة .

الحياة قصيرة ، والسعيد الخالد من أدى خلالها عملاً كبيراً ينعكس خيرا وكرامة على الشعب وأجياله المقبلة ، ولا أكبر من الشهادة في مواجهة العدو .

فلنتحد العدو الذي يعمل على إذلالنا واحتلال أرضنا إذ ليس هناك ما يبعث الاعتزاز في النفس كوقفه التحدي التي يقفها الانسان في وجه نار العدو دفاعا عن الوطن .

لا مجد في مستوى مجد الشهيد من أجل الوطن فليطمح كل منا إلى نيل الشهادة .

■ الفصل الخامس

أنا الذى قلت فى الماضى وأقول الآن ، وفى المستقبل : الشهداء هم أكرم من فى الدنيا وأنبل بنى البشر مَنْ يربح المعركة هو الانسان لشجاعته وتصميمه ، وهذه حقيقة تظل ثابتة مهما تطور السلاح . يجب ألا يخيفنا تفوق طيران العدو . فهو يستطيع أن يلحق بنا خسائر خلال المعركة بالعتاد والرجال ، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يربح المعركة إذا صمم الرجال المقاتلون على القتال والصمود ، الرجال الشجعان الصامدون هم وحدهم الذين يحسمون المعركة ويربحونها فى نهاية الأمر وهم الذين يستحقون حب الوطن .. واعتزاز المواطنين .

وإذا استؤنف القتال ، علينا أن نقاتل دون أن نأبه لتفوق طيران العدو ، مع العلم أن طيارينا الأبطال قاموا وسوف يقومون بواجبهم فى مواجهة العدو .

يجب أن يقتنع العدو أن الزمن الذى كان يخيفنا فيه يهدير طائراته وقنابلها قد ولى ، ويجب أن نثبت له وللعالم أن مَنْ يكسب المعركة هو الانسان الشجاع الذى يرفض الذل ، ويحتقر الجبن والتخاذل ، والذى يعتبر أن حياته المثلئى فى استشهاد دفاعا عن كرامة الوطن والمواطنين .

يجب أن نثبت للعدو أن طيرانه لن يكسب المعركة لأن طيران أمريكا لم يستطع أن يهزم فيتنام بل لم يستطع أن يحمى أمريكا من الهزيمة .

أنتم الآن على أبواب ملحمة كبرى فاجعلوها ملحمة المجد ، أنتم الآن على أبواب أن تكتبوا فصلا خطيرا من فصول التاريخ فاكتبوه بالنور ليستضىء به شعبنا بأجياله المتعاقبة ، وليستضىء به كل شعب يتعرض للعدوان ، وما النور إلا قطرات دم الشجاع ، دم البطل ، دم الشهيد .

أيها الأبناء ...

قسما بالأجداد .. قسما بالأبناء والأحفاد ، قسما بالشعب قسما بكم أيها المقاتلون ، قسما بالله لن أدرع الفرصة تهرب منى عندما أجد ممكنا أن أكون معكم فى الميدان ، وأسير معكم على الطريق الذى أوصيتكم أن تسيروا عليه ، وإذا حدث ذلك فنعمة الفضل كل الفضل فيها لهذا الوطن .. لهذا الشعب .

فكل الامانى تصغر وتصغر أمام أمنية الشهادة ، وكل الفضائل تصغر وتصغر أمام فضيلة الشهيد . فإلى النصر أيها الأبناء العسكريون ، ضباطا وصف ضباط وجنوداً .

لنقاتل العدو وفى ذاكرتنا قول راسخ لا ننساه :

أنه لا تستطيع قوة فى الدنيا أن تهزم شعبا صمم أبناؤه على القتال حتى النصر ، ونحن المقاتلين السوريين صممنا على القتال حتى النصر .

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

تحيتي لكم ، حبي لكم ، أيها الأبناء العسكريون .

وجاءت تحية أخرى للرئيس حافظ الأسد لتزيد من صمود المقاتلين السوريين رغم فقدان عنصر التكافؤ ، وقال مخاطبا هذه القوات بنداء عاطفي حار :
أخواني وأبنائي :

« إنني أتابع باستمرار أنباء قتالكم المجيد وبطولاتكم الغذة وأدائكم الرائع ودحركم العدو في كل مرة يحاول النيل فيها من صمود وعروبة بيروت رغم بشاعة القصف الهجومي الذي ينغذه برا وبحرا ، وجوا عليكم وعلى أهلنا هناك ، لقد استطعتم بتضحياتكم وصمودكم تأمين الشروط اللازمة لثبات اخوانكم المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين في بيروت على مدى شهرين تقريبا ، بورك قتالكم الذي أثبتتم به أنه لا تستطيع قوة في الدنيا أن تهزم شعبا صمم أبناؤه على القتال حتى النصر . وانكم أيها المقاتلون العرب السوريون صمتم على القتال حتى النصر ، إن شعبنا العربي في كافة أقطاره يرنو إليكم ويرفع الرأس عاليا بكم ، يثق بصمودكم والتاريخ وأجبالنا القادمة ستحدث عنكم بكل عزة وفخار . »

ويختتم الرئيس الأسد رسالته المؤثرة بهذه الكلمات : « أيها الأحبة أن عروبة بيروت أمانة بين أيديكم فاحفظوا هذه الأمانة ودافعوا عن نسانها وشيوخها وأطفالها ضد همجية أعداء الانسانية واجعلوا معركة بيروت ملحمة مجد دافعا عن كرامة الأمة العربية ودرسا للمتخاذلين الجبناء . »

أحييكم وأشد على أيديكم وأقبلكم فردا فردا وأطلب إليكم الصمود ودحر العدو والتمسك بشعارنا الخالد الشهادة أو النصر لتكملوا طريقنا ، طريق الفداء طريق الشهادة طريق النصر . »

اغتيال بشير الجميل

ولقد تتابعت الأحداث السياسية وتلاحقت مع الأعمال القتالية التي نشبت في مناطق الجبل بين القوات السورية والاسرائيلية ، وجرى اغتيال (بشير الجميل) في انفجار وقع في مقر حزب الكتائب أدى إلى ارتكاب مذابح انتقامية في مخيمي صبرا وشاتيلا أشرف عليها الاسرائيليون بشكل مباشر ، كما أكدت الوثائق وجود تنسيق تام حتى تم يومى ١٦ ، ١٧ أيلول / سبتمبر ذبح أكثر من ألف رجل وامرأة في حين خرجت في اسرائيل مظاهرات صاخبة تطالب بالتحقيق في الدور الاسرائيلي في المجزاة ، وتحرك الجيش الاسرائيلي الذي استقدم قوات جديدة إلى بيروت الغربية واندفعت القوات الاسرائيلية إلى قلب المدينة من الشرق والجنوب ، وخلال ٢٤ ساعة سقطت عاصمة لبنان في أيدي

■ الفصل الخامس

الاسرائيليين وتمكن الجيش الاسرائيلي من تحقيق ما لم يجزؤ على محاولته اثناء وجود القوات السورية وقوات الثورة الفلسطينية .

اعتمدت اسرائيل خلال الغزو على الكذب لتضليل الرأي العام داخليا وخارجيا ، وشن الحرب النفسية ضد الحضور السوري في مواجهة الغزو ، ولكن بسلامة القوات السورية في نصديها . للقوات الاسرائيلية الغازية أبطلت مفعول هذه الحرب ، وتجدر الاشارة إلى أن الولايات المتحدة رفضت خلال الغزو ممارسة أى ضغوط على حكومة بيجن لوقف الغزو، وراحت تتحدث عن خلق ظروف اقامة سلام دائم في المنطقة ..

اللافت للنظر في التصريحات الامريكية إنها تؤكد أن الادارة الامريكية كانت على علم مسبق بالعدوان ، بل شاركت فيه لاستثمار نتائجه العسكرية ، وكانت واشنطن ترمى إلى منح اسرائيل الغطاء الدولي المتعدد الجنسيات لتبرير احتلال يراة له أن يبقى في لبنان أطول فترة ممكنة وكشف عدد من الكتاب والمفكرين أن الهدف من كل ما جرى ويجرى اجبار لبنان على تقديم تنازلات ضد المصلحة اللبنانية والمصالح العربية .

لقد ثبت بالفعل أن الشراكة الامريكية الاسرائيلية لم ينتج عنها سوى استمرار احتلال لبنان والضغط عليه من خلال مشاريع مصدرة وتحركات دبلوماسية مكوكية لحل النزاع ، وكل ما حدث لم يكن سوى دور من أدوار المناورات التي تقوم بها واشنطن لترويض العرب على هضم الغزو والقبول به كأمر واقع ، وكما يقول العماد مصطفى طلاس : فإنه في اطار متابعة تصعيد اسرائيل عدوانها على لبنان من جهة وتغطية اخفاق اسرائيل في وضع حد للعمليات الفدائية اللبنانية خلف الخطوط من جهة أخرى ، برزت حقائق عديدة أهمها أن العجز الصهيوني وصل إلى مرحلة الخوف في دفع فاتورة حساب ثمن الغزو ، ومن معاناة القوات الاسرائيلية في لبنان لذلك كان لابد من الاسراع في الامور للوصول إلى اتفاق مع لبنان يحقق المكاسب السياسية المطلوبة ، وتحقق ذلك عندما وافق المجلس النيابي اللبناني في ١٥/٦/١٩٨٢ على اتفاقية ١٧ ايار - مايو وهي الاتفاقية التي فندها الرئيس حافظ الأسد وشرح خطورتها الجسيمة على لبنان وسوريا والامة العربية .

وقد وصف الرئيس الأسد مشروع الاتفاق بأنه خطير خطير ، وأنه على سبيل المثال لا الحصر يقضى بانهاء حالة الحرب مع اسرائيل واقامة بعثات دبلوماسية تحت اسم مكاتب خاصة ويفرض قيودا سياسية وعسكرية واعلامية في كامل الأراضي اللبنانية ، وليس فقط في المناطق التي تحتلها اسرائيل ، كما يفرض هيمنة عسكرية اسرائيلية في الاجواء اللبنانية والمياه الاقليمية اللبنانية ، ويجعل لبنان امتداداً جغرافيا لاسرائيل ويحوّله إلى بلد حليف للكيان الاسرائيلي ...

الاتفاق كان يفرض على لبنان أن يتخذ اجراءات ضد أى عنصر عربي يوجد على

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

أرض لبنان ، ويمارس أى نوع من النشاط ضد إسرائيل حتى ولو كان نشاطا ثقافيا بل ويمنع أن تقوم أى مؤسسة عربية على أرض لبنان إذا كانت لها أهداف ضد إسرائيل ، كما ورد في الاتفاق أنه تعتبر الدولة عدوة إذا كانت لا تقيم علاقات دبلوماسية مع لبنان وإسرائيل ، كما فرض مشروع الاتفاق أن تقوم على الأراضي اللبنانية بما في ذلك المناطق القريبة من الأراضي السورية مراكز يتمركز فيها الاسرائيليون ، كما فرض أن تُعطى شرعية لقوات سعد حداد بما في ذلك الميليشيات التي ستتطوع في تنظيم الأنصار وتعتبر قوى مسلحة شرعية تقدم لها الدولة اللبنانية السلاح والتمويل والرواتب ، وأشار مشروع الاتفاق إلى أنه عند الخلاف حول أى تفسير أو موضوع جديد تبت الولايات المتحدة في الأمر وليس لجنة تحكيمية وأن يكون قرار الولايات المتحدة في أى خلاف ملزما للطرفين .

ومن البديهي أن قرار الولايات المتحدة في حل الخلاف مع إسرائيل وليس لبنان ، كما أن مشروع الاتفاق يفرض على لبنان أن يعدل كل قوانينه بما يتواءم مع النصوص الواردة فيه ، وأن يتخلى عن كل التزاماته تجاه الدول العربية التي تتعارض مع نصوص الاتفاق على أساس أن هذا اتفاق أقوى من أى اتفاق لبناني آخر مع أى جهة أخرى غير إسرائيل .

وهكذا فإن الاتفاق ينقل لبنان من موقعه العربي ليصبح على حد تعبير الرئيس الأسد محمية اسرائيلية ويجعل لبنان مستقرا لأعداء العرب ، ونظرا لأن مشروع الاتفاق ينتهك استقلال لبنان ويهدد أمن لبنان ومصالحه ، وبالتالي أمن سورية وأمن الوطن العربي .. أكد الرئيس حافظ الأسد أن بلاده ستقف إلى جانب الشعب اللبناني الشقيق في نضاله ضد محاولات الهيمنة الاسرائيلية وتأمين سيادته على كامل أراضيه ، وأكد الرئيس حافظ الأسد أنه يجب أن يخرج الصهاينة من لبنان وفق قرارات مجلس الأمن دون قيد أو شرط . وعلى هذا الأساس رفض الرئيس الأسد الاتفاق جملة وتفصيلا وأعلن موقفه منه بصراحة ، وأكد أنه خيانة للبنان وللامة العربية ، وأكد أن إسرائيل لن تستطيع أن تحقق أهدافها مهما تكن التضحيات .

اتفاق ١٧ مايو / أيار

رغم أن الكتائبين ارتكبوا مجازر صبرا وشاتيلا انتقاما لمقتل زعيمهم بشير الجميل إلا أنهم اعترفوا في وقت لاحق أن الاسرائيليين هم الذين قتلوا بشير الجميل لأنه رفض طلب بيجن بعقد معاهدة سلام رسمية مع إسرائيل .

لقد أحدث التصدد الذي أصاب البنية الأخلاقية والنفسية لدى قطاع كبير من سكان إسرائيل نتيجة غزو لبنان وما ارتكبته القوات الاسرائيلية من فظائع لم يكن لها أى مبرر

أحدث انعكاسات خطيرة داخل اسرائيل عبر عنها ياشيا هولوبورتز الأستاذ بالجامعة العبرية : « نحن ارتكبنا المجزرة والكتائبون مرتزقتنا كالمترقة الاوكرانيين والكرواتيين الذين نظمهم هتلر للقيام بما يريده وحذونا حذو هتلر فنظمنا القتل في لبنان لقتل الفلسطينيين » .

ولقد أحدثت مجازر الاسرائيليين في لبنان انقلابا بالغ الأهمية في صحافة الغرب التي وصفت جرائم اسرائيل وعناصر الكتائب في مجازر صبرا وشاتيلا بأنها جرائم إرهابية وقد ألحقت هذه المجازر العار بسمعة الولايات المتحدة . المهم أنه في أعقاب انسحاب القوات الاسرائيلية من بيروت أصبحت هذه القوات هدفا سهلا للقناصة والكمائن ، وكافة أشكال الحرب غير النظامية ، ونشطت المقاومة اللبنانية ضد اسرائيل إلى الحد الذي أثار الرأي العام ، وجعله يتسائل عن الثمن الذي تحصل عليه اسرائيل في لبنان مقابل قتل مزيد من جنودها ، وتوجت المقاومة اللبنانية نضالها بزلزال دكتة على رؤوس الاسرائيليين في صور بتاريخ ١١ تشرين الثاني نوفمبر عام ١٩٨٢ قُتل فيه ٦٧ إسرائيليا ، ومع انهيار المبنى الاسرائيلي المؤلف من ثمانية أدوار انهارت أيضا ثقة القوات الاسرائيلية في نفسها التي وصفت غزولبنان بأنه ليس أكثر من نزهة في عربة ، كذلك فقد تلقت الدولة العظمى الأولى في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية ضربة مروعة ، عندما نجحت المقاومة اللبنانية في نسف مقر السفارة الأمريكية في بيروت ، وكانت حصيلة العملية ٦٣ قتيلًا ومائة جريح . **وقد علق روبرت منيسك في كتابه (ويلات وطن) على .** **حادث انفجار السفارة الأمريكية بقوله : لقد أنهى هذا الحدث شهر العسل الأمريكي والسؤال الآن : كيف تم سقوط اتفاق ١٧ مايو/ أيار ؟**

بعدما أجبرت اسرائيل على الانسحاب من لبنان ادعى مناحم بيجن أن انتهاء القتال سوف يتيح لنا في السنوات القادمة عقد معاهدات سلام واقامة علاقات سليمة مع مختلف الدول العربية ، وعندما وعد بيجن شعبه بتحقيق معاهدات سلام مع الدول العربية كان يستند الى وعد قطعه له بشير الجميل قبل انتخابه رئيسا للجمهورية بأن يبرم معه اتفاق سلام اذا نجحت اسرائيل في اخراج السوريين والفلسطينيين من لبنان . وفي تنصيبه رئيسا للجمهورية ، عندما ورث أمين الجميل منصب شقيقه المقتول التزم بوعدده ، وشجعت الولايات المتحدة الأمريكية التفاوض بين لبنان واسرائيل ظنا منها بأنه لو أصبح لبنان حليفاً لاسرائيل بحيث تطمئن الى حدودها الشمالية ، وعقد اتفاق سلام تكون قد طوقت سورية وعزلتها ، وجرت مفاوضات بين الجانبين اللبناني واسرائيلي بالتناوب ، وجرت محاولات من جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي لاقناع الرئيس الاسد بالاتفاق المرتقب ، وفي أعقاب محادثات شهدتها كريات شيمونا الاسرائيلية ومنطقة خلده اللبنانية التي تحتلها القوات الاسرائيلية تم توقيع اتفاق في السابع عشر من مايو/ أيار ١٩٨٣ بين حكومة أمين الجميل وحكومة اسرائيل .

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

ولقد رأت سورية بقيادة حافظ الأسد ان الاتفاق يحد من سيادة لبنان ويفقده حرية القرار التي تتمتع بها الدولة المستقلة ، كما انه يشكل خطرا على سورية ، وبالتالي على البلاد العربية الأخرى ، كما انه يتناقض مع السياسة السورية الثابتة بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط التي تتلخص في أن كل قضايا المنطقة مرتبطة بأزمة الشرق الأوسط وأنه من غير المقبول حل أى من هذه القضايا بمعزل عن القضية المركزية وهي قضية شعب فلسطين ، ولقد تصور شولتز ان الرئيس الأسد سينحني أمام شيء محتوم ، لم يتصور أن بلدا من بلدان العالم الثالث كما يقول باتريك سيل في كتابه (الصراع على الشرق الأوسط) يستطيع أن يقف في وجهه ، وكما يقول المؤلف بأسلوبه المتميز أعطى الأسد الوزير الأمريكي درسا في التاريخ استغرق خمس ساعات شرح له نضال العرب لاحتواء اسرائيل وغضبهم من اللامبالاة الأمريكية تجاه تطلعاتهم ودعما الأعمى لعدوهم ، وأن الولايات المتحدة كانت تقترح أنذ ان تكافأ اسرائيل على عدوانها بسماعها لها بتغيير هوية لبنان العربية وتهديد أمن الدول العربية الأخرى كسورية .

ويصف باتريك سيل هذه المقابلة بأنها « كانت من بين أشد التجارب مرارة في حياة شولتز العملية ، فلم يكن معتادا على مثل هذه التوبيخات ، وعاد شولتز الى بيروت غاضبا شاعرا بالمهانة » كانت وجهة نظر سورية ان الاتفاق يحد من استقلال لبنان ويشكل خطرا على سورية وعلى البلاد العربية ، وقد ضرب الرئيس حافظ الأسد أمثلة مساوية الاتفاق اللبناني الاسرائيلي من وجهة نظره في النقاط الآتية :

أولا : لبنان لا يحق له بموجب الاتفاق أن يملك في أى مكان من أراضيه أى سلاح للدفاع الجوى يتجاوز مداه خمسة عشر الف قدم .

ثانيا : الطيران اللبناني لا يستطيع أن يطير فوق جنوب لبنان ، أى فوق الأرض اللبنانية الا بعد أن يعلم السلطات الاسرائيلية ، وهذا يعنى ان اسرائيل أخذت الاجواء اللبنانية .

ثالثا : لو أرادت أى دولة عربية أو غير عربية أن تنقل بطريق الترانزيت عبر لبنان صفقة أسلحة اشترتها من مكان ما فإنه لا يحق للحكومة اللبنانية بموجب الاتفاق اللبناني الاسرائيلي أن توافق على مرور هذه الصفقة لا في البر ولا في البحر ولا في الجو الا اذا كانت الدولة المستوردة تقيم علاقة دبلوماسية مع اسرائيل .

رابعا : القرار في جنوب لبنان يتخذ مشاركة بين العناصر الاسرائيلية واللبنانية .

خامسا : العناصر الاسرائيلية ستبقى في جنوب لبنان ولمدة غير محدودة ، وبالنسبة لسورية اكتفى بإيراد مثل واحد :

تل أبيب عاصمة اسرائيل بعيدة عن الحدود اللبنانية الاسرائيلية نحو مائتى كيلومتر

■ الفصل الخامس

ومع ذلك أضافت اسرائيل خمسين كيلو مترا منطقة أمنية داخل لبنان تتمركز فيها عناصر عسكرية اسرائيلية .. بينما حدود هذه المنطقة الامنية التي ستمركز فيها العناصر العسكرية الاسرائيلية لا تبعد عن دمشق عاصمة سورية أكثر من عشرين الى أربعة وعشرين كيلو مترا .

ومن هنا لا اظن أن أحدا يبحث هذه الأمور بموضوعية يتوقع أن توافق سورية على هذا الاتفاق لأن من يقرأه بامعان يفهم تماما لماذا سمّي في سورية اتفاق اذعان .

مثل هذا الاتفاق يحدث في ظرف واحد فقط هو عندما تحدث حروب كبيرة على غرار الحروب العالمية فيسحق طرف طرفا آخر ويفرض عليه الاستسلام، أما الواقع في لبنان فشيء غير هذا .

أولا: لم تقم حرب بين لبنان واسرائيل فتسحق اسرائيل في نهايتها لبنان .

ثانيا: لو قامت الحرب فعلا بين البلدين فلا تؤدي الى النتائج التي تؤدي اليها الحرب وعبات سورية نفسها لخوض معركة اسقاط اتفاق ١٧ مايو- أيار الذي يشكل عقدا من عقود الاذعان كما وصفه الرئيس حافظ الأسد وخطرا أمنيا واستراتيجيا ، وعاهد الرئيس الأسد الله والوطن والامة ان تقف بلاده مع القوى الوطنية اللبنانية في خندق قتال واحد لاسقاط الاتفاق .

ويقول باتريك سيل في كتابه الصراع على الشرق الأوسط: فإن من بين ما أكدته معركة اسقاط اتفاق ١٧ أيار انها أوضحت للعالم كله الخصائص المميزة لشخصية حافظ الأسد، وهي الاقتناع بصحة موقفه سياسيا وأخلاقيا ، وأعصاب باردة تحت النار ، عناد هائل .. استعداد للقتال ، وللمقاتل حتى بشراسة عاصفة في سبيل مايراه قضية قومية وفوق كل شيء كان لديه الصبر الذي يقتضيه النفس الطويل . كانت التقارير التي تجمعت لدى الادارة الأمريكية تقول : ان حافظ الأسد ليس كغيره من القادة فهو يتمتع بأعصاب فولاذية وارادة لا تلين وقدرة على المجابهة لا تبارى ، ومن هناك فقد أوفدت اليه روبرت ماكفرلين رغبة في ابقاء الباب مفتوحا مع دمشق .

ويروي المؤلف البريطاني باتريك سيل تفاصيل هذه المقابلة فيقول :

« كان الأسد عبر سنوات طويلة قد طور أسلوبا للتفاوض غالبا ماكان يستعمله مع الضيوف الاجانب ولم يكن ماكفرلين حالة استثنائية من بين هؤلاء ، فبعد تبادل عبارات المجاملة الودية كان الأسد في العادة يسأل : كيف الطقس في بلادكم ؟ فيجيب الضيف بما يفيد ان الطقس في بلاده أبرد منه في سورية ، وبذلك يعطى الأسد فرصته اذ يبادر الى القول : حار هنا لان الولايات المتحدة تذكي النار ، ويؤكد ان التوترات والحروب في

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

المنطقة يجب ان تتحمل واشنطن مسئوليتها جميعا ، وعندئذ يشعر الزائر الأمريكي بأن عليه أن يدافع عن نفسه فاقدا لاية ميزة ، واستعمل ماكفرين آخر سلاح لديه في ضوء العجز الذي أبداه في حضرة الرئيس فالح الى أن البارجة الأمريكية الضخمة نيوجرسي ستكون على مقربة من سواحل لبنان في غضون أربع وعشرين ساعة ، غير ان الولايات المتحدة الأمريكية وليس سورية هي التي دفعت ثمن هذا التهديد المبطن وأخفقت الاستراتيجية الأمريكية في تجريب لغة القوة والتهديد مع السوريين ففي الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٨٣ اقتحمت شاحنة مفخخة .. ثكنات مشاة البحرية الأمريكية في مطار بيروت .. وقتلت ٢٤١ جنديا أمريكيا . (ووفقا) لما ذكره فكتور أوشدوفسكى وهو عميل في جهاز الموساد الاسرائيلي فإن محطة تصنت تابعة للموساد الاسرائيلي ، توصلت لمعلومة تشير الى أن المقاومين الشيعة يعدون شاحنة مفخخة ذات حجم غير مألوف واستنتج عملاء المخابرات الاسرائيلية ان مشاة البحرية الأمريكية هدف محتمل، ولكنهم قرروا عدم تمرير المعلومة لكي يجعلوا الأمريكيين يتورطون أكثر فأكثر في القضية اللبنانية .

وانتهت هذه المجابهة التي تمت بمنتهى الدقة والشراسة والذهاب الى حافة الهاوية بانكفاء أمريكي تام فسحبت أمريكا قواتها من لبنان في شباط عام ١٩٨٤ متجنبة بالدرجة الأولى اذلالا مماثلا كالذي انتهى بهزيمتها العسكرية الواضحة في جنوب شرق آسيا وشكل لديها مايسمى بالعقدة الفيتنامية .

اما أمين الجميل الذي سبق له في يوليو/ تموز ١٩٨٣ ان هدد السوريين بأنهم اذا لم يتوقفوا عن قصف معاقل قواته ، فإن القنابل ستعود الى دمشق نفسها فإنه ادرك ان لعبة الكبار قد انتهت وان عليه أن يذهب الى دمشق معذرا نادما ، وتوج نجاح الأسد في اعلان الحكومة اللبنانية بعد مرور اقل من عام عن الغاء اتفاق ١٧ مايو/ ايار بشكل رسمي واعترف شولتز بان اتفاقية ١٧ أيار لم تجلب الا الخراب للبنان .

ان نتيجة المجابهة الكبيرة والقاسية بين الطرفين الأمريكي - الاسرائيلي من جهة والسوري والوطني اللبناني من جهة أخرى أكدت من جديد أن النجاح في معركة بهذا الحجم يحتاج إلى تخطيط هادئ ونفس صبورة وعزيمة لا تلين واردة لا تقهر ، وثبات في المواقف المبدئية مهما كان الثمن فادحا ، وقد أدار الرئيس هذه المعركة بكفاءة مذهلة متسلحا بكل المزايا المطلوبة لمثل هذا النجاح الباهر ، وفي نهاية ولاية أمين الجميل كان لبنان قد وصل إلى أقصى حالات اليأس والانهار والتفكك لاسيما بعد أن تسلم قيادة البلاد العماد ميشيل عون قائد الجيش حيث كلفه أمين الجميل في الايام الاخيرة من عمر رئاسته بتشكيل حكومة عسكرية رغم وجود حكومة شرعية قائمة برئاسة الدكتور سليم الحص ، ولم يكن يخطر على بال أي أحد أن يترك أمين الجميل الجمهورية في لبنان ممزقة

■ الفصل الخامس

وأن يقودها الى نفق مجهول ولكنه كشف عن نزعة الغدر والحقد تجاه سورية وإراد أن يخلق واقعا طائفيا عنصريا ينسجم مع التيارات المتطرفة التي حملها بعض زعماء الموارنة في لبنان منذ أن قام .

وعلى الفور اتخذ العماد ميشيل عون كل الاجراءات الممكنة لاستلام السلطة بانقلاب عسكري ماروني ، وقام عون بتجديد الاتصال مع سمير جعجع قائد القوات اللبنانية بعد قطيعة استمرت بينهما أكثر من سنتين ، كما استقطب داني شمعون وجورج عدوان وغيرهما من غلاة المراهنين على الخيار الاسرائيلي .

في أوساط الطائفة^١ ، كان عون قد أعلن قبل تكليفه بأيام بأنه فور انتهاء ولاية الجميل سيملا الفراغ الدستوري ، وفور أن غادر الجميل قصر بعدا وبتشجيع من اللوبي الماروني الاسرائيلي تم لميشيل عون ما أراد ، وبدأت المارونية السياسية تشعل حربها الكبيرة في لبنان بحجة أن الوجود الفلسطيني أخل بالتوازن الذي يعيشه لبنان ضمن طوائفه ومذاهبه المتعددة .

خلف هذا الشعار خاضت المارونية حرب السنتين الأولى ، ثم ما لبث بعد ذلك أن شهد لبنان العنف الماروني ، بعضه ضد بعض بعد أن انتهى شهر العسل بين العماد ميشيل عون وسمير جعجع ، وكان كلاهما يطمع في أن يكون صاحب القرار الاول على رأس المارونية السياسية ، وكان الوصول إلى نتيجة مرضية أمراً شبه مستحيل وانقسمت المارونية إلى فريقين : أحدهما مؤيد لعون والآخر موال لسمير جعجع ووقفت البطرياركية المارونية إلى جانب جعجع ضد عون وسرعان ما انفجرت حرب واسعة النطاق بين الطرفين أسفرت عن هزيمة سياسية ومعنوية لميشيل عون ، هذا الجنرال الذي كان يعتبر نفسه رمز القوى الانمزالية والتقسيمية والذي حول الجيش الذي كان يُفترض فيه أن يكون جيش الوطن يحمي حدوده إلى ميليشيا فتوية تعمل لمصلحة عون ، وعطل عون دور مجلس النواب وحول المنطقة الشرقية إلى سجن كبير ومنع النواب من التوجه إلى مبنى مجلس النواب لممارسة حقهم الدستوري ، والقانوني في انتخاب رئيس جديد لمجلس النواب وللجمهورية ، وذلك في محاولة يائسة لمنع وصول قيادات تؤمن بوحدة لبنان وعرويته ، وذلك بعد أن اكتشف رموز الانعزال عدم قدرتهم على الوصول إلى قصر الرئاسة في بعدا لتنفيذ مخططهم التأمري .

وجاءت النهاية الطبيعية لميشيل عون بعد أن تجاوزته الأحداث الاقليمية والدولية ، وفي صبيحة يوم ١٣ أكتوبر / تشرين أول ١٩٩٠ شنت قوات من الجيش اللبناني بقيادة العماد أميل لحود وبمؤازرة سورية هجوما برياً كاسحا انتهى بفرار عون ولجؤه إلى فرنسا .

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

واستمرت سورية في الحرص على تعهداتها التي قطعتها على نفسها في الحفاظ على وحدة لبنان وعروبته وتوفير الإصلاح لبنيته ، ولس جميع اللبنانيين اصرارها على الحفاظ على وحدة لبنان أرضا وشعبا ومؤسسات والتمسك بعروبته ، واعتبار الإصلاح مدخلا ومبدأ لانتهاء الاقتتال اللبناني ، كما ظهر أن مجلس النواب يشكل السلطة الشرعية الوحيدة ، التي تمثل طموحات اللبنانيين ، وهكذا دعى النواب إلى الطائف لوضع بنود ميثاق وطني جديد ينقذ لبنان من محنته وسط ترحيب لبناني ودعم عربي ومباركة دولية .

وعندما أحست المارونية السياسية انها دخلت في طريق مسدود أحنت رأسها وقررت الذهاب إلى الطائف ، وعندما أدركت كل القوى أن سورية تريد التوصل إلى حل نهائي في لبنان عبر حوار ديمقراطي وأنه يجب أفساح المجال أمام المؤسسات الشرعية اللبنانية للعمل ، وأن الرئيس الأسد مصر على الحفاظ على الوضعية الدستورية للمسيحيين في لبنان وعلى المناصفة في الحقوق والمركز بين المسيحيين والمسلمين ، كما تأكد للمارونية اخفاق مراميتها المجنونة على النظام العراقي الذي ذهب في دعمها إلى الحدود القصوى فأغدى عليها سلاحا كان من الوفرة والضخامة ما جعل سمير جعجع يعترف بأن النظام العراقي يغدق على الجيش والقوات بما يسمح بخوض معركة متكافئة .

ولقد كان موقف العراق في مناصرة طائفة الموارنة ضد القوى الوطنية من المسيحيين والمسلمين في لبنان مثار دهشة من العالم كله لاسيما وأن رئيس العراق بادر إلى غزو الكويت البلد العربي المجاور واحتله وأدخله ضمن حدوده .

وفي ٣٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٩ بدأت اجتماعات الطائف بالملكة العربية السعودية ، وبحضور أعضاء المجلس النيابي ممثلين لكل الطوائف والقوى السياسية والاجتماعية في لبنان ، وأسفرت اجتماعاتهم التي استمرت قرابة شهر عن توقيع ميثاق وطني عُرف باسم ميثاق الطائف ، وبالفعل تم اقرار اتفاق الطائف بالاجماع من قبل نواب البرلمان واعتبر هذا الاتفاق نصرا للبنان العربي الموحد .

صحيح أن أي طرف لبناني لم يجد فيه كل طموحاته ، ولكن الأصح هو أن الاتفاق شكل بداية منطقية لاعادة بناء الدولة اللبنانية وفق أسس واضحة يمكن تطويرها في المستقبل خصوصا أن أمورا كثيرة قد حُسمت فيه ، وفي مقدمتها وحدة لبنان وانتماؤه العربي واعتبار الإصلاح ضرورة لا بد منها والتأكد على العلاقة اللبنانية السورية المميزة ودور سورية في مساعدة السلطة الشرعية اللبنانية على بسط سلطتها على كامل التراب اللبناني واعتبار العدو الصهيوني الخطر الأساسي الذي يهدد لبنان والنضال من أجل لبنان ، كذلك فإن هذا الاتفاق أكد على مركزية الدولة اللبنانية باعتبارها دولة واحدة

■ الفصل الخامس

موحدة ذات سلطة مركزية قوية وأن أرض لبنان واحدة لكل اللبنانيين فلا فرز للشعب ولا تجزئة ولا تقسيم ولا توطين والالاحاح على وحدة الوطن كان أكثر من ضروري في وجه الدعوات التقسيمية المشبوهة ، ورغم أن رئاسة الجمهورية بقيت للطائفة المارونية إلا أن صلاحيات هذا الموقع أصبحت أقل من ذي قبل ، فالاتفاق نص صراحة على أن « **تتأط** السلطة الاجرائية بمجلس الوزراء » وهذا النص هو أكثر تقدما وديمقراطية من النص الدستوري كما ورد في المادة ١٧ من الدستور التي تنيط السلطة الاجرائية برئيس الجمهورية وحده ، كما أقر الميثاق من حيث المبدأ الغاء الطائفية حيث نص على « **هايلي** » ان الغاء الطائفية السياسية هدف وطني أساسي يقتضي العمل على تحقيقه ، وهذا انجاز واضح في بلد يحكم بالكامل من خلال المفهوم الطائفي وتوزيع المناصب والوظائف من خلال حصص طائفية ولكن الاتفاق اعتمد - مرحليا على الأقل - وحتى إشعار آخر على الاغلب (على الطائفية وليس المواطن كوحدة سياسية) .

ويعلق الدكتور الياسي سابا على ذلك بقوله : (وهكذا فالنظام الجمهوري الديمقراطي اللبناني هو نظام تشترك فيه الطوائف اللبنانية - أو المواطنون عبر طوائفهم - في الحكم) .

أن الانجاز الكبير الذي مثله اتفاق الطائف فكان في اندحار قوى الانعزال والتسلط والعداء لسورية ، واعتبر الاتفاق بحق بداية النهاية لميشيل عون ونهجه التأمري الذي انتهى . كما أسلفنا في المنفى .

كما حقق اتفاق الطائف انجازا آخر تمثل في اتفاق الاطراف على عودة الروح إلى المؤسسات الشرعية التي عطلها ميشيل عون فتم انتخاب رينيه معوض رئيسا للجمهورية ، إلا أن الاتفاق ولبنان نفسه أصيبا بضربة مؤلة جدا باغتيال الرئيس رينيه معوض في ٢٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٩ ، ولتفويت الفرصة على الذين راهنوا على سقوط لبنان والاتفاق بهذا الفعل الاجرامي الشنيع سارعت القوى اللبنانية الى انتخاب الياس الهراوي بسرعة قياسية (٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٩) .

وإذا كان هناك من يستمر في انتقاد اتفاق الطائف على اعتبار أنه جاء أرخص من دماء اللبنانيين التي سفكت من أجل لبنان لا طائفي وديمقراطي وعربي ، فإننا نقول إن هذا الاتفاق ليس نهاية المطاف ولم يعتبره أحد كذلك .

وبالفعل تقدمت السلطة اللبنانية خطوة نحو الامام عندما استجابت لارادة اللبنانيين وتوصلت إلى عقد اتفاقية مع سورية هي (معاهدة الاخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وسورية) ، وقد جدد الرئيس حافظ الأسد دعمه للشرعية ولوحدة وسيادة واستقلال لبنان ووضع كل الامكانيات السورية بما فيها الامكانيات العسكرية تحت

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

تصرف لبنان وحكومته الوطنية، ومما تجدر الإشارة إليه أن ميثاق الطائف أكد على خصوصية العلاقة السورية اللبنانية عندما قال: (إن سورية هي الشقيقة الأقرب إلى لبنان العربي، من هنا كانت العلاقة بينها وبين لبنان، علاقات تتميز عن علاقات لبنان بغيره من الدول حتى العربية وإن ما يجمع بين سورية ولبنان هو أكثر بكثير مما يفرق بينهما وأن من مصلحتهما المشتركة أن يسارعا إلى تنظيم وتأيير وتطوير علاقاتهما المميزة هذه.

وفي هذا الإطار جاء توقيع معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وهي الاتفاقية التي أكدت الحقيقة الثابتة بأن البلدين هما بلد واحد في مصالحهما وفي مصيرهما وفي تاريخهما وإن قامت الحدود بينهما، وقد تم توقيع هذه المعاهدة في ٢٢ مايو / أيار ١٩٩١.

لقد صرح الرئيس حافظ الأسد عقب توقيع هذه الاتفاقية بأن ما بين «سورية ولبنان لم نصنعه نحن إنما صنعه الله فكان التاريخ المشترك وكانت الجغرافيا المشتركة وكان الدم المشترك، وعلى ذلك فما نبنيه اليوم معا بين البلدين هو بعض ما تعكسه هذه الموروثات المشتركة والتي لا يمكن أن تزول أو تمحى بمرور الزمن، لأنها الحقيقة الحياتية التي لا ترتبط بكوننا نعيش في كيان سياسي واحد أو كيانين سياسيين منفصلين، فالأخوان اخوان، سواء عاشا معا في بيت واحد أو في بيتين منفصلين، معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وسورية ترجمت الروابط الأخوية المميزة التي تربط بين البلدين التي تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والانتماء الواحد والمصير المشترك والمصالح الأخوية الواحدة، ترجمتها في عدة مواد تكفل تحقيق أعلى درجات التعاون والتنسيق بينهما في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية والثقافية والعلمية وغيرها بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين في إطار سيادة واستقلال كل منهما وتؤكد الترابط بين أمن البلدين بما يكفل عدم جعل لبنان مصدرا لتهديد لأمن سورية، وسورية لأمن لبنان، كما أنها تنص على الالتزام بمبادئ الجامعة العربية ومعاهدة الدفاع المشترك ومساندة كل منهما للآخر في القضايا التي تتعلق بأمنه ومصالحه الوطنية».

الرئيس الهراوي يثمن اتفاق الطائف

في حوار أجرته مع الرئيس اللبناني الياس الهراوي، نُشر في جريدة الأخبار في عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٠/٦/٤ قال لي: جاءت وثيقة الوفاق الوطني التي أقرها مجلس النواب اللبناني بالاجماع في الطائف في أكتوبر ١٩٨٩ لتؤكد من جديد ما هو مؤكد من اصرار نواب الشعب على دعم الشرعية، ومع ذلك فلا تزال فئة في المنطقة الشرقية

تعارض ، ويتحدى إرادة الشعب اللبناني المدعومة بالتأييد العربي والدولى . عاش لبنان قبل مؤتمر الطائف وضعاً فريداً لم يشهده منذ الاستقلال وهو الفراغ في سدة رئاسة الجمهورية ترافق مع قيام حكومتين واحدة مسيحية ، وثانية اسلامية تتنافسان سياسياً ووطنياً حتى كاد اللبناني ييأس من رؤية وطنه موحداً من جديد .

وجاءت حرب التحرير المزعومة التي أعلنها العماد ميشيل عون في ١٤ آذار - مارس ١٩٨٩ بحجة فرض انسحاب الجيش السوري من لبنان بالقوة لتزويد من عمق الخلافات اللبنانية - اللبنانية العربية ، ولتزعج بدول إقليمية وعربية في صراع بدأ هدفه لأول وهلة كأنه وطني فإذا به يتفاهم إلى حد إعلان حروب غير لبنانية على الأرض اللبنانية وهذه الحروب لا تزال ماثلة على صفحة العلاقات المتوترة بين بعض الدول العربية ، وظهر ذلك جلياً في مؤتمر القمة الطارئة التي انعقدت في بغداد .

إن الشرعية التي انبثقت في لبنان بفضل اتفاق النواب في الطائف حققت في مرحلة أولى ملء الفراغ الدستوري ، وفور انتخابي رئيساً للجمهورية شكلت حكومة برئاسة الدكتور سليم الحص ، وأطلقت العمل الإداري والرسمي بعدما كاد الشلل يقضى على المؤسسات العامة . أما الأمر الأهم فكان بدء حوار صريح مع الشقيقة السورية انطلاقاً من موافقتها المعلنة على ما ورد في وثيقة الوفاق الوطني التي أقرت في الطائف ، والقاضي بأن تسهم سورية في مساعدة لبنان على بسط سلطته على كامل أراضيها بواسطة قواه الذاتية ، وأريد هنا أن أذكر الجميع بأننى حريص على ترسيخ علاقة لبنان بسورية في اتفاقات واضحة وثابتة لا تتبدل مع تبدل الرؤساء أو الظروف .

أما العناصر الخارجية على الاجماع الشعبى فهي تتذرع تارة بأن شق الاصلاحات الداخلية جاء على حساب المسيحيين وهو لا يحقق طموحاتهم ، بينما تدعى طورا بأن هذا الاتفاق يكرس بقاء الجيش السوري في لبنان علماً أن البند الرابع في وثيقة الوفاق الوطني يؤكد على أن هدف الدولة اللبنانية هو بسط سلطتها على كامل الاراضى اللبنانية بواسطة قواها الذاتية ، وأن القوات السورية ستساعد الشرعية على بسط هذه السلطة فتعيد تجميع القوات السورية تباعاً ، وفي فترة زمنية محددة بعيدة أقصاها سنتان تأتى بعدها خطوة تالية بالتوافق بين الحكومتين اللبنانية والسورية .

دعم الشرعية معروف تماماً

أن ما يطلبه لبنان لدعم الشرعية معروف تماماً ، فهو . داخليا . محاذرة تفويت الفرصة المتاحة لتطبيق بنود اتفاق الطائف لتستعيد البلاد وحدتها المجسدة في شرعية طامحة إلى ترسيخ الأمن والاستقرار واعادة اعمار ما تهدم ، ولذلك ندعو مجدداً إلى التعقل والاقلاع عن المشاريع الانتحارية التي تهدد لبنان وتُشَرِّع أبواب

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

الهجرة أمام الطاقات المنتجة والمبدعة ، فنقع في حالة الفقر والكساد على كافة المستويات . إن الذين سعوا إلى تكريس واقع الفرز الطائفي انجروا سريعا إلى التناحر المذهبي ثم إلى التقاتل بين أبناء المذهب الواحد مما انعكس هجرة جماعية لأصحاب الرساميل والكفاءات ونحن نسعى اليوم لتهدئة الأوضاع ودعوة كل اللبنانيين من أصحاب الطاقات ليعودوا ويسهموا في اعمار وطنهم ، أما عربيا فإننا قبل أى أمر آخر نطالب الفرقاء الخارجيين الذين يغذون الخلافات داخل لبنان أن يكفوا طوعا أو بضغط من باقى الأشقاء العرب عن وقف تدخلهم ، فيدعموا الشرعية ولا يعطوا الذريعة لأعداء لبنان في استمرار احتلالهم لجزء عزيز من أرضنا وهو الجنوب ، وعلى صعيد آخر ، فنحن شاكرون للأشقاء العرب موافقتهم بالاجماع على اقتراح اللجنة الثلاثية الذى تقدم به الملك فهد لإنشاء صندوق دعم لتمكين الدولة اللبنانية من بسط سيادتها على كامل الاراضى اللبنانية وإعادة اعمارها ، ونأمل من الأشقاء والأصدقاء الاسهام في هذا الصندوق .

وتحدث الرئيس الياس الهراوى عن ضرورة إرساء العلاقات السورية اللبنانية على قواعد ثابتة وواضحة فقال : (إننى شخصيا أعى أهمية تثبيت العلاقات اللبنانية السورية على أسس متينة وواضحة ، بحيث يتمكن أى حكم مستقبلا من الارتكاز على هذه الاسس لتطوير العلاقة وإنمائها .

لقد سبق للرئيس حافظ الأسد وخلال أول قمة عقدناها في دمشق أن أكد على التزام سورية باستقلال لبنان واحترام نظامه ، وعن اتفاق الطائف قال : إن الرئيس الاسد يتمنى أن تنهض قوى الأمن الذاتية وتقوى وتمتلك القدرة على ممارسة مهماتها ، فتبسط سلطتها على الارض اللبنانية في أسرع وقت ، كذلك شدد الرئيس الأسد أن لسورية مصلحة أساسية وعقائدية في استقلال لبنان ووحدته وازدهاره ، وقوته ، وتقدمه ، ومن هذا المنطلق يطور الحكم الحال علاقاته مع سورية الشقيقة على كافة الأصعدة أمنية كانت أم اقتصادية لتترجم لاحقا باتفاقات ثابتة وراسخة كى لا يبقى أى خلل في العلاقات بين جارين عضوين في جامعة الدول العربية .

وقال الرئيس الهراوى : اننى أؤمن بأن التضامن العربى هو السد المنيع في وجه المخططات التى تُحاك ضد دول المنطقة ، واعتقد أن القمة المصرية السورية حققت هذه الخطوة الأساسية على طريق هذا التضامن ، لأن الثقل المصرى والدور السورى يتكاملان في المنطقة ويمنحان العرب القدرة على المشاركة الفاعلة في البحث عن الحلول الشاملة لقضايا الشرق الأوسط .

رشيد الصلح : أصوات خاطئة مضللة

بالطبع فإن هناك بعض الأصوات هاجمت ، ولأسباب معروفة الاتفاقية الأمنية بين سورية ولبنان التي أشرنا إليها من قبل ، بزعم أنها تحد من حرية القرار اللبناني .. وكما قال لي رشيد الصلح رئيس وزراء لبنان السابق : فإن هذه الأصوات هي أصوات مخطئة ومضللة وتندرج بأسباب غير موجودة إذ أن هذه الاتفاقية الأمنية حافظت على استقلال كل من البلدين والحكومة اللبنانية كما ورد في اتفاق المعاهدة التي صادق عليها المجلس النيابي وأقرها بشكل اجماعي هي وحدها المسؤولة عن الأمن في الأراضي اللبنانية ، وهي تتصرف بتمام الاستقلال ، ولا علاقة لأى فريق آخر للمحافظة على الأمن والحجج والأسباب التي تدلى بها هذه الجهات هي أسباب وهمية ، لا تمت الى الواقع بصلة ولا أغالى اذا قلت : إنها أسباب تنطلق من سوء النية أكثر مما تنطلق من الواقع ، وأما بالنسبة لما تطالب به اسرائيل من انسحاب سورى أولا قبل خروجها فإني أقول بأن اسرائيل تخادع ولن تنسحب من لبنان إلا اذا حصل ضغط دولي عليها .

وقال : إن العلاقة بين لبنان وسورية علاقة مميزة والكل يعلم أن لبنان وسورية كانا في بدء استقلالهما يشكلان وحدة جمركية ومالية واقتصادية وأن الجيشين السوري واللبناني كانا يعتبران جيشا واحدا ، وأنتى أؤكد أن هذه العلاقة في أحسن صورها الآن وهي تشكل عنصرا أساسيا من عناصر السياسة اللبنانية التي يتمسك بها جميع اللبنانيين ويحرصون عليها لأنها لمصلحة لبنان أولا ولمصلحة الشعبين السوري واللبناني ، ثانيا ولمصلحة العرب ثالثا وقال رشيد الصلح : والأمر الذي لا شك فيه أن الرئيس حافظ الأسد هو من كبار رجالات العرب في القرن العشرين وقد قاد سورية لما فيه خيرها وخير أهلها وصان وحدتها وقوى سلاحها وأمن لها ازدهارا اقتصاديا وماليا جعل كل العرب يقدرون فضله على سورية وسائر الوطن العربى ، الرئيس الأسد يعرف وضعنا في لبنان ، عاشه وهو الذى تدخل مرارا لانقاذ لبنان من محنته ولعودة الحياة الطبيعية الى لبنان وتثبيت العلاقة المميزة بين لبنان وسورية ، بالإضافة الى أنه ساهم في حماية الجنوب اللبناني ومقاومة المحتل الاسرائيل لجزء من أراضى لبنان .

حسين الحسيني : الأسد وعروبة لبنان

المعاني نفسها أكدها حسين الحسيني رئيس مجلس النواب اللبناني السابق عندما قال : لقد حافظ الوجود السوري في لبنان على عروبتيه ، وساهم في الحيولة دون تقسيم لبنان ، . ومنع توجيه ضربة كبرى للإسلام باعتباره دين الاكثرية الساحقة من الأمة العربية ، ولولا الوجود السوري لكانت اسرائيل استطاعت أن تفتت لبنان الى كيانات

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

عنصرية طائفية ولن يكون بمقدور أي من المجتمعات العربية مقاومة التفتت لاسيما وأن المجتمعات العربية لديها هذا التنوع في الانتماء الطائفي والمذهبي ، ومن هنا كانت أهمية النظرة الى وحدة لبنان وإلى العيش المسيحي والاسلامي المشترك لضمان القدرة على مواجهة مخططات أسرائيل الرامية الى تفتيت المنطقة العربية ، ولولا دعم سورية ودورها لما تحقق اتفاق الطائف ولما خطونا هذه الخطوات الهائلة والمتمثلة في اخراج لبنان من حالة الحرب الى حالة السلام وازالة الحواجز بين اللبنانيين وبين بعض المناطق ، وبالتالي العودة الى مسيرة اعادة قيام الدولة وبناء مؤسسات الدولة في لبنان ، والوجود السوري نصت عليه اتفاقية الطائف وهو بقصد مساعدة لبنان على تحقيق وفاقه الداخلي وتعزيز سيادة واستقلال لبنان على أرضه ، وتمكين قواته المسلحة من القيام بدورها بحيث تستطيع عند ذلك القوات السورية الخروج من لبنان دون أية أضرار بالكيان اللبناني وسيادة واستقلال لبنان ، وليس مجاملة لمصر ولا لسورية أن تعمل الاستراتيجية اللبنانية على المساهمة في حلقات مصرية سورية جيدة لأن كل علاقة مصرية - سورية جيدة تنعكس ايجابا على مصلحة لبنان فضلا عن أن مصر وسورية هما تاريخيا الضامن لأمن المنطقة ، ومن يستقرئ التاريخ منذ صلاح الدين الأيوبي حتى يومنا يعرف مدى أهمية العلاقة المصرية السورية ووجوب صياغتها في أي ظرف من الظروف ، وكل اخلال بهذه العلاقة ينعكس سلبيا على الأمن القومي العربي .

ويتفق حسين الحسيني مع الرئيس حافظ الأسد في أن الأزمة اللبنانية في جذورها هي أزمة سياسية اقتصادية من جهة وصراع بين الاتجاه القومي العربي واعداء هذا الاتجاه .. ويقول : انه عند المرحلة الانتقالية بعد تحقيق الاستقلال ونقل الوطن من ظل الانتداب الفرنسي الى ظل الاستقلال كان يجب آنذاك حل المشاكل وازالة الخلل في التكوين الوطني اللبناني .

وهنا لابد من الإشارة الى أن الخلل في التكوين يكمن في نظرة الحكم في لبنان الى المناطق اللبنانية ، والطوائف اللبنانية والمواطنين في لبنان حيث اعتبرت مناطق لبنانية أصيلة في التكوين اللبناني ، بينما اعتبرت مناطق أخرى أقل أصالة وهي بمثابة مجال حيوي للمناطق التي اعتبرت أصيلة مما أدى مع الزمن الى التفاوت الفاضح بين المناطق ، ولذلك فإن الحرمان في لبنان هو حرمان مناطق وليس حرمان طوائف ، والخلل الثاني في التكوين كمن في عدم الوضوح في تحديد هوية الوطن وانتمائه بالقول بأن لبنان ذو وجه عربي مما أفسح المجال لاعطاء لبنان مفاهيم متعددة أدت بالنتيجة الى الخلل الثالث في التكوين ، والذي هو عدم تمكين لبنان من اقامة تربية وطنية واحدة تستطيع أن تؤمن مفهوم واحد للوطن لدى جميع اللبنانيين ، وهكذا بتنا أمام واقع بأن كل مدرسة في لبنان

■ الفصل الخامس

باتت وزارة تربية قائمة بذاتها لها مناهجها وبرامجها ومفاهيمها ، الأمر الذى انعكس سلبيا على البنية اللبنانية .

من هنا نرى أن عدم الاقدام على بناء الدولة ومؤسسات الدولة ، وبالتالي الدخول في النظام الجمهورى الديمقراطى البرلمانى والاقتصادى الحربى يوجب من قيام المؤسسات والقوانين ، هذا الأمر جعل الأرض اللبنانية صعبة وصالحه لقيام حالة عدم الاستقرار ، الأمر الذى استغلته اسرائيل لتنفيذ مخططاتها الرامى الى تفتيت وتأجيج الصراع بين طوائفه والى اظهار أن كل طائفة في لبنان تشكل شعبا قائما بذاته .

ويضيف حسين الحسینی : « الذين ساهموا في ميثاق ١٩٤٢ هم نخبة من خيرة اللبنانيين وقد ساهموا في نقل الوطن من الانتداب الى الاستقلال . وان فشلوا في الانتقال من المرحلة الانتقالية التى انتهجت صيغة الحكم الانتقالى والتى استندت الى الأشخاص تمهيدا لاقامة الدولة وبناء مؤسسات الدولة .. أما الآن فإن جميع الثغرات التى استغلّت ومنها اقامة التعارض بين لبنانية اللبناني وعروبه الامر الذى لا يوجد مثيل له لدى المصرى أو السوري أو المغربى وعروبه ، ومن هنا كان لابد من الوصول الى تحديد حقيقى لهذه المفاهيم بما يتيح لنا اقامة تربية وطنية واحدة ووفاء وطنى حقيقى نتجه فيه الى بناء الدولة ومؤسسات الدولة ، ولذلك جرى حل الاشكال الأساسى الذى هو مرحلية الوطن أم نهائية الوطن فكان أن تضمن الميثاق الوطنى بأن لبنان هو وطن نهائى لجميع أبنائه ، وبالتالي فإنه عربى الهوية والانتماء ، وهو ملتزم بقضايا أمته ، خطونا خطوات واسعة في ازالة هذا الخلل وحددنا النظام المعتمد في لبنان في صلب الدستور ، وفي اعتقادى انه بعد هذه الخطوات الواسعة لابد من اتمام المسيرة لنصل الى تجاوز الطائفية وشرورها ، ويمكن القول بأن جوهر الميثاق الوطنى انه جعل التجارة بالطائفية تجارة خاسرة علما بأنه ليس في لبنان أى صراع دينى أو طائفى على أساس دينى .. هناك صراعات سياسية اوقدت أثوابا دينية طائفية وفقا لتطورات الصراع .

يضيف حسين الحسینی : من المعروف أن التصور لحل الأزمة اللبنانية يركز على ثلاث ركائز الأولى : هى تحقيق وفاقه الداخلى ، والركيزة الثانية : هى ارساء العلاقات السورية اللبنانية على قواعد واضحة وثابتة في اطار سيادة واستقلال كل من البلدين ، والثالثة : هى تطبيق القرارات الدولية الكافية بانهاء الاحتلال الاسرائيلى للأراضي اللبنانية ، وانسحاب اسرائيل الى الحدود المعترف بها دوليا ، وقد خطونا خطوات واسعة بالنسبة للركيزة الأولى والركيزة الثانية ، حيث تم وضع اطار تنظيمى للعلاقة السورية اللبنانية في معاهدة الاخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وسورية يسمح بوضع جميع المشاكل والاشكالات السابقة على جدول أعمال الحل وبالتالي الحيلولة دون قيام اشكالات

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

جديدة في المستقبل عبر تنظيم العلاقات تنظيماً دقيقاً في شتى الحقول ، وعلى كل الأصعدة بواسطة اتفاقيات ثنائية يجري عقدها وفقاً لدراسات يتم إنجازها عبر اللجان المتخصصة التي تكونت في المعاهدة .

هذا الإطار التنظيمي الذي جعل القمة اللبنانية السورية تنعقد دورياً بين رئيس الجمهورية السورية ، ورئيس مجلس الشعب ورئيس مجلس الوزراء ونائب رئيس مجلس الوزراء ، ومن الجانب اللبناني رئيس الجمهورية ، ورئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء ، ونائب رئيس مجلس الوزراء فضلاً عن لجان وهيئة من أمانة عامة ، ولجان من وزراء مختصين يقومون بوضع الدراسات اللازمة حول كل حقل من الحقول التي يمكن عقد اتفاقيات ثنائية حولها يقدم إلى المجلس الأعلى الذي هو القمة اللبنانية السورية ، وهذا الإطار التنظيمي هو شبيه بالفكرة التي وضعت بين فرنسا وألمانيا ، ونجحت نجاحاً كبيراً بالرغم مما كان بينهما من مشاكل وحروب ، وكيف يمكن ألا تنجح بين شعبين هما في الأصل شعب واحد في دولتين ، هذا يحفظ سيادة واستقلال كل من البلدين ، وفي اعتقادي ما تم بين لبنان وسورية هو نموذج لعلاقات عربية بين بلدين يربطهما ما يربط بين لبنان وسورية ، ورغم أن لبنان وسورية قاما بما رتبته اتفاق الطائف إلا أن الأسرة الدولية والولايات المتحدة الأمريكية لم تقم بما رتبته عليها اتفاق الطائف وهو تطبيق القرار رقم ٤٢٥ ، بل إن الباب السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي يوجب على الولايات المتحدة أن تجبر إسرائيل على الانسحاب من الأراضي اللبنانية لم يتم حتى الآن ، الأمر الذي يهدد مصداقية الولايات المتحدة والأمم المتحدة حول الشرعية .

والسؤال المطروح الآن : كيف يمكن للشرعية الدولية أن تكون بهذه الشدة عندما يكون الأمر متصلاً بالكويت ، والعراق ، وليبيا ، ويوغسلافيا بينما تقف عاجزة أمام صلف إسرائيل وتعنيتها بخرقها المستمر للمواثيق الدولية ؟

وقال حسين الحسيني : طبعاً بعد هذا الشرح لم يعد هناك حاجة لتبيان رأي الرئيس الأسد لأنه بالأفعال ساهم في انقاذ لبنان ، وفي إعادة وحدته إلى أمته ما يمكن أن تكون فيها ، وبالتالي فإن لبنان بدعم من الرئيس الأسد ومن سورية ومن القوات العربية السورية استطاع أن يتجاوز العديد من مشاكله خصوصاً على صعيد حل الميليشيات وإزالة الأسلحة وسحب الأسلحة المتوسطة والثقيلة ، كما يساهم الجيش العربي السوري في مساعدة لبنان على تمكين قواته المسلحة من إعادة بسط سلطة الدولة اللبنانية لقواتها الذاتية على كامل الأراضي اللبنانية .

والرئيس الأسد يبذل كل الجهد في هذا السبيل ، وللمرئيس الأسد سياسة واقعية لا تفرط في الحق وتبقى على الأمل ، وهي السياسة التي حافظت على الأمل حتى الآن ، بينما هناك سياسات غير واقعية قد كبدتنا الكثير من الأثمان ، ولم تبق عني الأمل ،

■ الفصل الخامس

والرئيس الأسد هو أول رئيس دولة في الشقيقة سورية يؤكد على وحدتنا وتبعا للتأكيد على الوحدة .. هو يقول بسيادة واستقلال لبنان ، ذلك أن لبنان بدون وحدة لا سيادة له ولا استقلال ، ووحدة لبنان كما يقول الرئيس الأسد بحق هي الثروة الحقيقية لأنها تمثل العيش المشترك المسيحي - الاسلامي . الذي هو ثروة وطنية لبنانية وثروة عربية وثروة عالمية انسانية حضارية أيضا :

لقد استطاعت سورية أن توقف الحرب الأهلية اللبنانية ، ومع نجاح سورية في إيقاف هذه الحرب فقد أقيمت على الأمل في استعادة الوحدة والسيادة والاستقلال ، دائما كانت سورية تحول دون استمرار الحرب الأهلية اللبنانية ، ولكن التأخير كان بسبب عدم نضج الظروف التي تمكن اللبنانيين من ذلك لأن الوفاق من صنع اللبنانيين وليس مفروضاً عليهم .

انقاذ المسيحيين حال دون احتلال اسرائيل ، وعبر النقاش مع حسين الحسيني كان هناك سؤال : إلى أي مدى كان تدخل الرئيس الأسد في لبنان لانقاذ المسيحيين حالاً دون احتلال اسرائيل للبنان وتهديد سورية بحجة حماية المسيحيين ؟

وقال الحسيني : ليس عندنا في لبنان شيء يُجيز التفريط في المسيحيين أو المسلمين العيش المشترك المسيحي الاسلامي هو من ضمن الشعب الواحد والعائلة الواحدة والتاريخ الواحد والتراث الواحد .. وهذا لم توفق فيه اسرائيل .. إذا كنتم تذكرون ساعة اشتعال الحرب في لبنان كان شعار اسرائيل هو قبرصة لبنان على اعتبار أن في قبرص شعبين لكل شعب تاريخه وتراثه ولغته وعرقه ، وقد أرادت تصوير الطوائف اللبنانية وكأنها شعوب متنافرة متناحرة في حين أن الشعب اللبناني بأسره هو شعب واحد من أصل واحد ، من هنا كان تدخل سورية ليس لحماية المسيحيين فحسب ، بل لحماية الوحدة الوطنية اللبنانية وحماية النموذج والمثال اللبناني القائم على العيش المشترك المسيحي الاسلامي ، بينما اتخذت سورية هذا الموقف حاول العراق تصدير الخلافات العربية إلى لبنان ، ومن هنا كانت مساندته للجنرال ميشيل عون ليس حبا فيه بل نكاية بسورية في حين أن أي عربي منصف يعرف أن لبنان لا يمكن أن يحكم بواسطة أي حكم فردي أو عسكري ، أو ديني ، ولا يمكن أن ينسجم إلا مع نظام جمهوري ديمقراطي برلماني واقتصادي حر ، وقد دفع لبنان ثمن دعم العراق للجنرال عون من دم أبنائه ومن بنيانه وعمرانه الشيء الكثير ، ونموذج الجنرال عون هو نقيض لطبيعة لبنان وحقيقة لبنان ومعنى لبنان لأن أي سيطرة عسكرية يمكن أن تحقق نفسها في منطقة من المناطق لكنها لا تستطيع أن تسيطر على المناطق كلها لأن الحريات العامة في لبنان هي أساس وجوده وأساس وجود الطوائف المتنوعة في لبنان وأي مس في الحريات العامة سينتج حكما

■ المعلنات السورية اللبنانية ■

مرفوضا ، وبالضرورة الحروب الأهلية ، ومساعدة أى نظام عسكري فى لبنان يعنى ازالة لبنان .

يشير حسين الحسينى أيضا إلى أن اتفاق السابع عشر من أيار هو فى جوهره تشريع للاحتلال الاسرائيلى للأراضى اللبنانية وهو تعريض للأمن القومى بشكل عام ، وللأمن القومى السوري بشكل خاص ، وأبرز نصوص هذا الاتفاق أنه يضع لبنان كله تحت الحماية الاسرائيلية ، ويمكن اسرائيل من التمرکز على أرضه ومن اجتزاء عمق ٤٥ كم على طول خريطة لبنان بذريعة ضمان الأمن الاسرائيلى وهذا ما لا يمكن أن يتصوره أحد خصوصا وأن وجود القوات الاسرائيلية المحتلة على أرض لبنان سيجعل العاصمة السورية على مرمى المدفعية الاسرائيلية المباشرة وهذا ما لا يمكن أن يتصوره أحد أيضا ، ومن نصوص الاتفاق أن تبقى الأجزاء الكثيرة من الأراضى اللبنانية تحت الاحتلال الاسرائيلى وبالتالي يفقد لبنان سيادته واستقلاله ، يكفى أن نشير إلى أنه من نصوص اتفاق ١٧ أيار أنه ممنوع على الطيران اللبنانى أن يخلق فوق الأراضى اللبنانية إلا بإذن من اسرائيل ، يكفى هذا المثل ليدل على بقية الأمور الأخرى ، وعلى كل حال فقد رفض الشعب اللبنانى هذا الاتفاق وتصدى له ، وإذا كان الشعب اللبنانى هو البطل الحقيقى فى سقوط اتفاق ١٧ أيار فإن سورية كان لها دورها العظيم فى هذا العمل الوطنى ، فسورية هى عمق لبنان الاستراتيجى ، وهى التى دعمت لبنان ، ومكنته من أن يدافع عن أبسط حقوقه واستقلاله ضد هذا الاتفاق .

ويشير حسين الحسينى إلى حقيقة أن اتفاق الطائف الذى أصبح دستورا فيما بعد تضمن لأول مرة تحديد مرجعية لالغاء الطائفية السياسية وتحديد آلية المرجعية ، وهى الهيئة الوطنية المرتقب تشكيلها من قبل أول مجلس نيابى منتخب جديد ، وهى مؤلفة برئاسة رئيس الجمهورية وعضوية رئيس مجلس النواب ورئيس الوزراء وأعضاء من الشخصيات الفكرية والاجتماعية والسياسية ينتخبهم مجلس النواب للقيام بتقديم المقترحات إلى مجلس الوزراء والنواب بقصد إنهاء هيمنة أى طائفة سياسية فى لبنان والوصول إلى الحكم المدنى الذى يؤمن حماية الحريات العامة ومن ضمنها حرية العقيدة والشعائر الدينية لكل مواطن ، ولقد جرت بعد اتفاق الطائف عدة محاولات لاجهاضه ، منها مؤامرة اغتيال الرئيس رينيه معوض ، ولكن هذه المؤامرة فشلت بفضل إرادة الشعب اللبنانى وتصميمه على الخروج من المحنة ، وقد ساعدت سورية فى حماية لبنان ووقفت كل الدول العربية مع هذا الاتفاق الذى هو وليد الإرادة العربية التى تبلورت فى قمة الدار البيضاء ، وكان لمصر وسورية دور مؤثر فيها ، ويبقى لمصر أن تساعد لما لها من ثقل وقدر فى المحافل العالمية والدولية ، وأن تساعد فى اتمام المسيرة خصوصا فى حث الولايات المتحدة على القيام بما التزمت به من حيث تطبيق القرار ٤٢٥ وإجبار اسرائيل على الانسحاب إلى الحدود المعترف بها دوليا لأن جوهر الازمة اللبنانية يبقى فى جنوب لبنان ،

وما لم تنسحب اسرائيل جنوب الحدود المعترف بها دوليا ، لا يمكننا القول بأن لبنان قد عاد إلى حالته الطبيعية ، ولا يمكن القول بأن الازمة اللبنانية قد انتهت .

نبيه برى وخصوصية العلاقات اللبنانية السورية

ويقول الأستاذ نبيه برى رئيس مجلس النواب اللبناني في لقاء لي معه :

« واقع الامر أن الاتفاق السوري اللبناني الذي عقد بين البلدين لم يكرس الواقع كما ينبغي ، قد يكون خطوة متقدمة ، ولكنه بالتأكيد دون طموح الشعبين ، هناك واقع معاش على الأرض اللبنانية - والسورية لا سبيل لأحد أن ينكره ، إذا كان هناك من زور التاريخ فإنه بالتأكيد لا يوجد من يستطيع تزوير الجغرافيا .. لبنان محدود بثلاثة حدود ، حدود من اسرائيل جنوبا ، وهي حدود لا نستطيع أن نتعامل معها وحدود غربا هو البحر وحدود شرقا من سوريا ، وبالتالي نتعامل مع الوطن العربى ، والعالم كله من خلال سورية ، فلا بد أن يكون انفتاح لبنان على سورية قائما .. هناك وشائج قرى قائمة بين البلدين ، لا توجد عائلة في لبنان ليس لها ذات الاسم ، وذات القربى الموجودة في سورية ، تجد العائلة اللبنانية ، والعائلة السورية تحمل نفس الاسم ، هناك المصاهرة ، وهناك العلاقات الاقتصادية الوثيقة .

فالعلاقات بين سورية ولبنان تماما كالعلاقات بين مصر والسودان من قديم الزمن .. العلاقات القائمة بين لبنان وسورية الآن هي أقل من العلاقات القائمة بين أى دولتين أوروبيتين أو من العلاقة الموجودة بين دول السوق الأوروبية المشتركة .. هي أكثر تواضعا من العلاقة بين فرنسا وألمانيا ، هي لا تقاس بالعلاقة بين البلاد المنخفضة .. وبالتالي فإن ما أتت به اتفاقية الطائف ، وما تكرس من اتفاقيات بين البلدين أقل بكثير من الواقع الحقيقى القائم بين لبنان وسورية .

تتميز السياسة السورية في ظل قيادة الرئيس الأسد بأن دمشق اعترفت لأول مرة بسيادة لبنان ، واستقلال لبنان « نحن شعب واحد في دولتين مستقلتين كما قال الرئيس الأسد وبحق » طبعاً هناك بعض الفئات اللبنانية ذات الأهداف المعروفة تحاول الزعم بأن سورية تريد وضع يدها على لبنان ، أو ابتلاع لبنان ، وهذا غير صحيح على الإطلاق ، والتجارب علمتنا هذا الشيء ، هل تعلم أن المحاكم الروحية المسيحية سواء للطائفة الارثوذكسية أو للطائفة الكاثوليكية وغيرها موجودة بدمشق هي في نفس الوقت تتولى رعاية المسيحيين الموجودين في لبنان. باختصار كل الاتفاقيات التى وقعت حتى الآن بين البلدين أقل بكثير من الواقع القائم بين سورية ولبنان .

سورية دفعت ثمننا غاليا من دماء شعبها لحماية لبنان عام ١٩٨٢ ، دفعت مئات الشهداء ، آلاف الجرحى دون مقابل إلا الذود عن لبنان ، وبالرغم من غلاء هذا المهر فإن

■ العلاقات السورية اللبنانية ■

الدور السوري الاساسى فى لبنان ، ادى إلى منع التقسيم فى لبنان بعد أن كان لبنان يسير إلى التقسيم ، وفى مرحلة دولية واقلعية كانت تميل إلى التفتت .. أنظر إلى ما حدث فى الاتحاد السوفيتى . وفى يوغوسلافيا ، وفى تشيكوسلوفاكيا ، وقارن بين ما حدث فى هذه الدول لتعرف طبيعة الدور الذى قامت به سورية لحماية لبنان ، أهمية الدور السوري فى لبنان لا يتبلور فقط فى الحماية من اسرائيل بالرغم من التضحيات ، وإنما فى منع تقسيم لبنان .

لبنان لم يكن بلدا موحدا سيتم تقسيمه ، بل كان بلدا مقسما يطلب الوحدة ، حدثت كتنتونات بأرجحية شيعية ، وبأرجحية سنية ، وبأرجحية درزية ، وكتنتونات مسيحية الخ ، كانت المؤامرة تتفشى كل يوم ، وكان حلم اسرائيل أن يفتت لبنان ؛ لأن هذا التفتت كان سينقل إلى سورية ، والجزائر ، ومصر ، وكل مكان لأن الفئات الموجودة ، موجودة فى كل الوطن العربى ، هناك حقيقة أخرى لابد أن تكون معروفة دائما .. فى عام ١٩٧٦ لم نقرر دخول الجيش السوري إلى لبنان ، قررنا دخول الجيوش العربية ، ولكن مع الأسف فإن الجيوش العربية تركتنا ، وبقيت سورية معنا ، ولولا بقاء السوريين لتقسم لبنان .. أن بقاء لبنان بصيفته الحضارية التى هى النموذج المناقض للوجود اليهودى فى المنطقة . الفضل فيه لله عز وجل والدور الذى لعبه حافظ الأسد .

وقال الرئيس نبيه بري : « اتفاق الطائف حدث برضى عربى وشبه اتفاق دولى .. ولكن الصياغة شىء ، والتنفيذ شىء آخر .. الصياغة كانت فى الطائف ، وأنا لى ملاحظات عديدة على الطائف ، ولكنه الآن أصبح دستورا .. أصبح نصوصا ، وبالنصوص كما يقولون يختبئ الشيطان بين التطبيق والواقع ، والقرار ، والمحامون يقولون عليك أن تربح الدعوة مرتين مرة عندما تأخذ الحكم ، والأخرى عند تنفيذ الحكم ... العرب والعالم سعوا وعملوا لحل الأزمة اللبنانية ، وهناك فضل لعدة بلاد ، ولكن دور سورية الأعظم هو تنفيذ هذا الحكم كيف يتم تركيب الجيش اللبنانى ؟ بعض الدول قدمت مساعدات عسكرية ولكن الجيش اللبنانى قام بدعم من السوريين ، وبقي الجيش السوري ولا يزال موجودا فى لبنان حتى يقوى من ساعد ، وعضد الجيش اللبنانى ، حتى يستطيع هذا الجيش أن يحل محل السوريين ، وما يقال عن الجيش يقال عن القوى الأمنية ، وعن الوزارات ، وعن انتخاب الرؤساء .. لولا الوجود السوري لما نفذت بنود اتفاق الطائف ، ومن بنود هذا الاتفاق تلك الانتخابات التى تمت مؤخرا ، فسورية هى وحدها الراعى فى اتفاق الطائف ، وأى أمر فى لبنان يؤثر على سورية ، وأى أمر سوري يؤثر على لبنان ، وحفظ الأمنين اللبنانى والسوري مسئولية مشتركة بين سورية ولبنان .. أنا أتحدث عن الموضوع الاستراتيجى الذى يتعلق بجبل الشيخ وبالبقاع الغربى ، ويتعلق بأى اتفاق اسرائيلى يجعل سورية شبه مطوقة .

هناك قرى نصفها فى لبنان ، ونصفها الآخر فى الأراضى السورية ، باختصار فإن

■ الفصل الخامس

ما بين سورية ولبنان من علاقات أخوية ، وتاريخية أقوى بكثير من أى نص مكتوب ، وبالتالي فالاتفاقات التى وقعت هى تنظيم للعلاقات الحقيقية الكاملة بين البلدين لمصلحتهما وليس لسورية مطامع فى لبنان .. هدف سورية الأساسى هو إعادة السلم ، والأمن والاستقرار والاستقلال للبنان ، والحفاظ على وحدته ، وحرصنا على التعاون مع سورية هو حرص على التعاون بين أى بلدين عربيين شقيقين ، لذلك إن التعاون فى مصلحتهما المشتركة والمتبادلة ، وأن ما قدمته سورية للبنان من دعم جدى لتحقيق للأمن والاستقرار والطمأنينة فيه ، وإعادة وحدة الدولة ومؤسساتها يعطى الصورة الواضحة عن النوايا الأخوية تجاه لبنان .. ولو كان لسورية مطامع فى لبنان لما أقدمت على تقديم هذه المساعدات .. وعندما تسعى سورية لأن تقف الدولة اللبنانية على أقدامها ، وأن تستعيد مؤسساتها ، وتمارس سلطاتها وسيادتها ، فى هذا الأمر مصلحة كاملة للبنان وسورية ، وللعرب .

وبعد فإن دور الرئيس حافظ الأسد فى متابعة الأزمة اللبنانية ، وإيجاد حل جذرى لها هو دور رالد ، وغير مسبوق ، مارس فيه مهارته الفالقة ورصيده الوطنى والقومى ، ونجح فى إيجاد صيغة مقبولة من الجميع .

أن انجاز الرئيس الأسد فى لبنان سوف يبقى من المآثر الخالدة التى أبدعها هذا القائد الكبير .. يكفيه فخرا أنه أدخل لبنان مرحلة الدولة العصرية والحديثة بعد انجاز اتفاقية الطائف التى شكلت أساس الهدنة الداخلية ، ونقلت لبنان إلى السلام الكامل والثابت ، وألغت نظرية الأمن بالتراضى ، وبدأت الدولة فى استعادة ممتلكاتها وتنفيذ خططها الأمنية مباشرة ، دون العودة إلى موافقة أحد بصورة مسبقة ، كما كانت تجرى الأمور من قبل ، والانتخابات النيابية التى أجريت لأول مرة بعد عشرين عاما هى انجاز يبشر بتجديد البنية السياسية اللبنانية ، والمعروف أن اتفاق الطائف قد أقر بتسوية مؤقتة قضت بتوسيع أعضاء المجلس النيابى ، وإقامته على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين .



الرئيس الأسد

والقضية الفلسطينية

- حول فلسطين تمحور الشعور الوطني والقومي.
- الشرارة الأولى لمنظمة فتح انطلقت من سورية.
- بعد عام ١٩٧٠ سورية بيتا لقادة المقاومة.
- صور الدعم السوري للقضية الفلسطينية في عهد الأسد.

■ الرئيس الأسد والخطبة الفلسطينية ■

□□ كانت قضية فلسطين هي الهاجس الذي ظل يمثل فكر الشباب العربى في سورية ، وخارج سورية من جيل الرئيس حافظ الأسد .. هذا الجيل الذى وعى أبعاد وعد بلفور عام ١٩١٧ ، وثورة ١٩٣٦ ، وعملية التقسيم اللتين تمتا عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ .

حول فلسطين تمحور الشعور الوطنى والقومى في سورية ، وحول التاريخ والجغرافيا التى تعلمها جيل الرئيس حافظ الأسد ، وتعلمها الآباء ، والتى تقول : إن سورية الكبرى تمتد من جبال طوروس إلى خليج العقبة ، وبالتالي فإن فلسطين جزء من سورية ، ومعروف أنه لا يمكن للإنسان أن يفصل ذاكرته عن التاريخ ، لأن التاريخ هو ذاكرة الشعوب ، وإذا فقدت الشعوب ذاكرتها ، فقدت تاريخها .

في فترة الانتداب الفرنسى على سورية ، والانتداب البريطانى على فلسطين ، كان هناك مؤتمر تأسيسى سورى فلسطينى يطالب بالاستقلال الفورى عن البلدين ، ولو عدنا إلى وثائق أيام الحكم الملكى لفیصل على سورية والتى سبقت دخول غورو إلى دمشق لعرفنا الحقيقة التالية وهى : إنه كانت هناك وزارة لسورية عن فلسطين ، سورية الكبرى آنذاك ، وفي هذه الوزارة كان هناك مجلس تأسيسى عن جميع المناطق في فلسطين ، ولم يكن في هذا الامر أية غرابة ، فعز الدين القسام الذى قاد ثورة ١٩٣٦ في فلسطين هو

شيخ من مدينة « جبلة » على الساحل السوري .. لم يكن هناك فرق بين كيان اسمه فلسطين أو سورية في تاريخ النضال الشعبي لتحرير سورية من الانتدابين البريطانيين والفرنسي ، ولكن عندما صار التقسيم عام ١٩٤٧ ، وكانت سورية قد حصلت على استقلالها عام ١٩٤٦ ، كان تفكير الشباب من جيل الرئيس حافظ الأسد يدور حول فلسطين ، وجزء كبير من هؤلاء الشباب اختار الجندية لكي يكون له دور مشرف في تحرير فلسطين والبعض الآخر من الشباب الذين كانوا أكبر سنا من جيل الرئيس حافظ الأسد ذهبوا متطوعين في حرب ١٩٤٨ ، وفي جيش الانقاذ الذي قاده « فوزي القاوقجي » ، هذه الخلفية التاريخية السريعة عن العلاقة بين الشعبين ، أو الشعب الواحد في سورية وفلسطين ، شكلت في ذهن الرئيس حافظ الأسد هاجسا ، لأن هذا الشعب الفلسطيني الذي خرج من دياره/نتيجة ظلم دولي لم يسبق له مثل في التاريخ/عليه أن يسترد حقوقه في العودة ، وفي تحرير أرضه ، وفي بناء دولته المستقلة على تراب وطنه .

الشرارة الأولى لمنظمة فتح انطلقت من سورية

وعندما كان الرئيس حافظ الأسد وزيرا للدفاع في عام ١٩٦٥ ، انطلقت الشرارة الأولى لمنظمة فتح من سورية ضد المحتلين الصهاينة .

والرئيس حافظ الأسد هو الذي أشرف على الطلقة الأولى التي خاضتها أول منظمة رفعت الكفاح المسلح شعارا بالنسبة لتحرير فلسطين ، ولذلك فإن للرئيس حافظ الأسد بالإضافة الى ما سبق دورا تاريخيا ينهض به بكل أمانة المسؤولية في حماية الفلسطينيين وفي تقديم جميع ما يلزمهم من أجل قضيتهم العادلة ، وهي قضية استرداد وطنهم ، وحقوقهم المشروعة في فلسطين .

وفي عام ١٩٧٠ ، عندما تعرضت المقاومة الفلسطينية إلى الصدام مع الجيش الأردني - ونحن نحكي التاريخ ، ولا نَقُومُ بالأحداث - اضطر الرئيس حافظ الأسد أن يرسل القوات السورية لدخول الأردن لإيجاد مخرج ، ولفك الحصار عن المقاومة الوطنية الفلسطينية التي كان يطبق عليها الجيش الأردني من جميع الجوانب ، وقام بجهد كبير في سبيل إخراج القيادة دون تعرضها لأي أذى ، في الوقت نفسه كان هناك جهد داخل الجامعة العربية قاده الرئيس الراحل جمال عبدالناصر لإخراج ياسر عرفات من عمان ، وإيجاد مخرج سياسي لهذه الأزمة التي كادت تعصف بالمقاومة الفلسطينية الوطنية ، وبعد عام ١٩٧٠ ، والخروج من الأردن ، كان جميع قادة المقاومة يوجهون في سورية بدون استثناء وينتقلون بين سورية ولبنان معززين مكرمين .. أول خلاف في وجهات النظر وقع بين سورية ، وبعض أفراد من القيادة الفلسطينية ، كان خلافا حول التكتيك الذي يجب أن يتبع في سبيل الوصول إلى الهدف الاستراتيجي ..

■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية ■

لا نستطيع أن نقول بأن الخلافات كانت من صنع من ، ولكن نستطيع أن نقول إن هناك بكل أسف تناقضا بين الموقف التكتيكي ، والموقف الاستراتيجي لدى بعض القيادات الفلسطينية ، وكانت سورية تحذر من أنه لا شأن لهم بالوضع الداخلي في الأردن لأن قضيتهم كانت فلسطين ، ولكن للأسف حدث أيلول الأسود عام ١٩٧٠ .. بنفس الروحية كانت سورية تحذر بأنه لا مصلحة للمقاومة الفلسطينية أن تسيطر على لبنان وأن تغتال السلطة الدستورية ، أي تجردها من صلاحيتها ، وأن تعارس دور الدولة داخل الدولة .. داخل لبنان ، أن بعضهم كان يرى هذا الشيء وكأنه مطلب شرعي لحماية المقاومة الفلسطينية التي تورطت بالصدام مع اللبنانيين بجميع توجهاتهم واتجاهاتهم ، وبالدولة اللبنانية في عام ١٩٧٦ ، الأمر الذي اضطر سورية لأن تتدخل مرة ثانية للدفاع عن لبنان وعن الفلسطينيين في ذات الوقت .

ومهما كان من خلاف في هذه النظرة أو تلك فإن سورية لم تتزحزح قيد أنملة عن الإيمان بأحقية الشعب الفلسطيني في استرداد أرضه وبناء دولته المستقلة ولم تسحب اعترافها في يوم من الأيام بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وكانت سورية والرئيس حافظ الأسد باستمرار عاملا مهما جدا في رأب الصدع الفلسطيني وتوحيد جهودهم ونصيححتهم ، والأخذ بيدهم نحو الهدف الاستراتيجي وقد دار النقاش والحوار بين القيادة الفلسطينية والقيادة السورية مرارا بشأن وضع صيغة تحالف استراتيجي لأن القيادة السورية ترى بأنه لا يمكن تحقيق السلام العادل والدائم والشامل في المنطقة إلا بحل المشكلة الفلسطينية باعتبارها لب الصراع في الشرق الأوسط ، وظل الرئيس الأسد يحذر من أي موقف تكتيكي لا يراعي وحدة نضال الأمة في سبيل الوصول للهدف الاستراتيجي لأنه سيؤدي إلى عقبات على حساب النضال الفلسطيني وعلى حساب النضال العربي ، وكان الرئيس الأسد يرى ولا يزال يثاقب النظر .. أن أي معركة مع أي قطر عربي شقيق سوف تكون على حساب القضية وضد مصلحة الشعب الفلسطيني ، وأثبت التاريخ صحة هذه النظرية ، سواء كان بالخلافات الأردنية الفلسطينية في الأردن عام ١٩٧٠ أو بالخلاف اللبناني الفلسطيني الذي أدى إلى الحرب التي دامت خمسة عشر عاما في لبنان دفعها الشعب اللبناني الشقيق ثمنا غاليا في استضافته للفلسطينيين ، ومازال يدفع حتى الآن ثمن احتلال إسرائيل للجنوب بسبب انطلاق عمليات المقاومة من الأراضي اللبنانية ، وأيضا كانت سورية تقول بأنه حتى تأييد صدام في حرب الخليج أو الدخول في تحالفات عربية . عربية ليس من مصلحة القضية الفلسطينية أو الشعب الفلسطيني لأن ذلك يورط الفلسطينيين في صراعات على حساب صراعهم الأساسي مع إسرائيل .

ونستطيع أن نقول إن هناك تراثا ضخما من الفكر السياسي للرئيس حافظ الأسد

في خطبه الحزبية والجماعية حول قضية فلسطين يمكن أن تشكل دليلا نظريا واعيا لمسألة التعاون مع هذه القضية المعقدة والشائكة وكلها تنصب في مصلحة فلسطين ومصلحة الشعب الفلسطيني لاسيما وأن الرئيس حافظ الأسد وسورية دفعت وبمازالت تدفع الثمن الغالي من أجل نصرة القضية الفلسطينية ونصرة الشعب الفلسطيني ، وبالرغم من كل ما جرى وما يجري فإن سورية حريصة ان تكون علاقة الفلسطينيين معها وثيقة تؤدي بكلتا الطرفين إلى الوصول إلى الهدف الاستراتيجي وهو تحرير الاراضى العربية المحتلة .

صور الدعم السوري للقضية الفلسطينية في عهد الرئيس . حافظ الأسد

يمكن القول - وبغير تحفظات - أن القسم الأكبر من كوادر القيادة الفلسطينية ، قد عاش أو تعلم في سورية سواء كأفراد أو كجماعات وأن سورية تستضيف منذ عام ١٩٤٨ وبعد عام ١٩٦٧ عددا من الفلسطينيين يتراوح ما بين ٢٠٠ ألف و٤٠٠ ألف فلسطيني تقدم لهم جميع الخدمات التي تقدمها للمواطن السوري بدون تفرقة أو استثناء ، يتمتعون بحق الرعاية الصحية ، وبحق العمل والتساوى في الأجور ، وبحق الترشيح في الانتخابات في المناطق التي يمكن أن تكون مخصصة للسوريين في أماكن سكنهم ، وحتى أن قسما كبيرا من الفلسطينيين الذين دخلوا سورية عام ١٩٤٨ حصلوا على مناصب رفيعة منها الوزارة والسفارة ، لأنه لم يكن هناك تفرقة بين السوري والفلسطيني سوى في وثيقة السفر التي يحملها ، لأن سورية لا تفرق بين عربي وعربي .. وأن سورية هي بلد العرب أجمعين ، أكثر شعب عربي شقيق استفاد من هذه الوضعية هم الفلسطينيون الموجودون في سورية .. الناحية الثانية : إن سورية استضافت على أرضها القسم الأكبر من جيش التحرير الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨ وقدمت لهذا الجيش - وحتى يومنا هذا - التسهيلات والتدريبات والمعدات والأسلحة لهذا الجيش لأنها تعتبره دريفا في التحرير وريفا لأن يكون نواة لجيش فلسطيني عندما تتحرر فلسطين ويعود الحق إلى إلهه .. لم تبعد منظمة من المنظمات المنضوية وغير المنضوية تحت مظلة التحرير الفلسطينية هي قضية العرب ، وتحت شعار الحق المشروع في النضال من أجل تحرير الارض .. وكانت سورية دائما تعمل على أن تخصص جزءا كبيرا من ميزانياتها لخدمة فلسطين قضية فلسطين وكان لديها السفراء في الخارجية ممن يحملون الجنسية الفلسطينية .. الشيء الآخر .. أن سورية لم تأخذ هذا الموضوع فقط على أرض سورية وإنما قدمت الدعم في الجامعات ، وفي المدارس والمعاهد لأبناء فلسطين في غزة والاراضى العربية المحتلة ، وتقدم لهم في كل عام مئات

■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية ■

المنح الدراسية المجانية لكي يستطيعوا أن يتابعوا تحصيلهم العلمي ، وبالنسبة لسورية يكفي أن نقول أنها خاضت جميع حروبها من أجل قضية فلسطين وفقدت جزءا عزيزا وغاليا من أراضيها في سبيل الدفاع عن فلسطين وما زالت تقوم بالدور في لبنان خدمة للبنان وخدمة للقضية الفلسطينية .. نستطيع أيضا أن نقول إن القسم الأكبر من الشعب الفلسطيني قد تلقى دعما ومساندة مالية ومادية وثقافية وتعليمية من سورية وهذا الشيء كما يقول الرئيس الأسد ليس منه وإنما هو واجب تقتضيه الأخوة ، وتقتضيه وحدة المصير .

فور قيام الحركة التصحيحية بادر الرئيس حافظ الأسد بإصلاح أوضاع جميع قطاعات الحياة السياسية السورية ، لاسيما في مجال السياسة العربية ، والسياسة الخارجية ، وقد قادته حركته التصحيحية الى توضيح السياسة الخارجية السورية في المجال العربي توضيحا دقيقا ، وفتح صفحة جديدة لعلاقات قائمة على دعم كل صود التضامن العربي في كافة المجالات ، وبما يخدم قضية العرب المركزية ، وهي القضية الفلسطينية .

واذا رجعنا الى الأدبيات التي صدرت عن الرئيس حافظ الأسد ، أو عن حزب البعث العربي الاشتراكي ، نجد أن القضية الفلسطينية وما تفرع عنها ، وما نتج من احتلالات لأراض عربية من بينها الجولان السوري كانت ، وما زالت هي المحور التي تأسست عليه العلاقات العربية السورية ، وحتى في الاطار العربي كانت هذه القضية هي المحور الذي تدور عليه وحوله كل الأنشطة السورية ، حتى الصياغة الداخلية للدفاع عن سورية ولروافد الدفاع من تنمية ، وتخطيط ، واقتصاد ، وما الى ذلك ، كان دائما يصب ، ولو بصورة غير مباشرة في هذا الاتجاه .. اتجاه القضية الفلسطينية ، وما تفرع عنها على اعتبار أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية لكل العرب ، وعلى اعتبار أن الصراع العربي الاسرائيلي شغل هذه المنطقة أكثر من أربعين عاما ، وما زال يشغلها ، وهو الآن على طاولة المفاوضات بين الأطراف العربية ، وبين اسرائيل التي تقاوم تحقيق تسوية عادلة ومشرفة لهذا الصراع بشكل يؤدي إلى انسحاب اسرائيل من جميع الأراضي المحتلة والى استرجاع الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، وخاصة اقامة دولته المستقلة في فلسطين .. وهذا المحور الرئيسي للسياسة السورية الداخلية ، والعربية ، والخارجية مازال قائما حتى الآن مادام هناك احتلال اسرائيلي في أرض عربية ، ومادام هناك حق عربي لم يعد الى أيدي العرب حتى الآن .

الأدبيات التي صدرت عن الرئيس حافظ الأسد من خطب وتصريحات تنظر الى

الصراع العربي الاسرائيلي على انه احتلال ، وغزو لأرض عربية ، وهذا هو المنطلق الذي نظر فيه الى قضية فلسطين منذ نشوئها عام ١٩٤٨ ، ثم جرى على ذلك تطورات متعددة ، وكثيفة محلية ، ودولية ، وعربية ، وأدت الى مجموعة من الحروب دخلت فيها سورية كلها ، وأسهمت فيها بما استطاعت من قدرات عسكرية ، ثم نشأت متغيرات دولية وفرت لهذا الصراع أسلوبا آخر للحل ، هو الطريقة السلمية التفاوضية انطلاقا من قرارات مجلس الأمن ، ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة لحل الصراع العربي الاسرائيلي والمشكلة الفلسطينية بالطرق السلمية ، والواقع أن هذا التطور الذي تعرضت له القضية الفلسطينية كان تطورا ايجابيا تعامل مع العوامل ، والعناصر التي نشأت طوال أكثر من أربعين عاما مضت على هذا الصراع بمختلف أشكاله وما يأتي به .

ومن الطبيعي أن يستمر اهتمام الرئيس الأسد بالقضية الفلسطينية على الرغم من خلافه في وجهات النظر والأداء مع بعض القادة الفلسطينيين سواء كان هناك خلاف مع هذه القيادة الفلسطينية أو تلك أو لم يكن ، مادامت القضية الفلسطينية في فكر الرئيس الأسد وقلبه منذ أن كان طالبا وبعدمه عمل في اطار الخدمة الوطنية ، والقومية عضوا في حزب البعث العربي الاشتراكي ثم ضابطا في القوات المسلحة ثم رئيسا للجمهورية العربية السورية .

القضية الفلسطينية كانت معه منذ تفتح وعيه على القضايا العربية ، وعلى مبادئ القومية العربية ، وكان من الطبيعي أن يستمر اهتمامه ، وتعامله مع القضية الفلسطينية دون النظر الى أية اعتبارات أخرى .

الرئيس الأسد نظر دوما الى قضية فلسطين كقضية سورية تماما ، بذل كل جهوده منذ توليه المسؤولية لإعلاء شأن كلمة فلسطين ، وتحسين وضع الشعب الفلسطيني ، لتقوية موقفه النضالي ، والدفاعي لتحرير أرضه ، والحصول على حقوقه الوطنية الثابتة في العودة ، وتقرير المصير وقيام الدولة المستقلة .

ويقول خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني الفلسطيني السالف أرجو أن أعدد بعض المواضيع التي عرفت فيها عن كتيب الرئيس الأسد في تعامله مع قضية فلسطين .. بعد قيام ثورة ٨ مارس آذار عام ١٩٦٣ كانت الثورة ترفع شعارين كبيرين .. الشعار الاول الوحدة العربية ، وثورة الثامن من آذار كانت ردا قوميا على الانفصال الذي مزق الامة العربية وأضعفها ، وأضعف العلاقات بين مصر الدولة العربية الكبرى والشقيقة الكبرى ، وسورية ، والقطار العربية الأخرى .. هكذا اذن جاءت ثورة الثامن من آذار وحافظ الأسد من قياديتها الأساسيين ،

ثم نظرت ثورة الثامن من آذار الى قضية فلسطين على انها قضية العرب جميعا ، وان

■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية ■

هذه القضية لا يمكن أن تنسى ، ولا يمكن للأمة العربية أن تستقر دون تحريرها وعودة الحقوق الوطنية الثابتة لشعبها العربي الفلسطيني ، لذلك بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٧٠ كان الرئيس الأسد يشغل في معظم هذه الأعمال موقع وزير دفاع الجمهورية العربية السورية ، وقدم كل الدعم لحركة فتح عندما جاءت الى سورية في عام ١٩٦٥ قدم لها معسكرات تدريب ، قدم لها السلاح ، قدم لها مدربين ، ولم ييخل عليها بشيء ، وكانت حركة فتح في ذلك الوقت تمثل الكفاح المسلح ، وترفع شعار الكفاح المسلح لتحرير فلسطين ، فسورية ، وحافظ الأسد هما اللذان دعما هذه الحركة ، ومكناهما من العمل حتى قائمة العمليات العدائية الأولى والثانية في عام ١٩٦٥ انطلقت من سورية التي وفرت لها الدعم العسكري ، والمادي ، والمعنوي .. اذن حافظ الأسد تبني الكفاح المسلح بوصفه حركة تحرير وطنية ضد المحتلين الصهاينة .

ثانياً : في هذه الفترة بالذات - كما تعلم - دعا الرئيس الراحل جمال عبدالناصر الى مؤتمر قمة عربي من أجل البحث في انشاء كيان للفلسطينيين .. هذا الكيان أصبح ضروريا لمنع ذوبان القضية الفلسطينية ، ولمنع انتهائها وذوبان الفلسطينيين في المجتمعات التي حلوا ضيوفا عليها ، فدعا الى قمة عربية عقدت بالقاهرة في عام ١٩٦٤ ، ثم جاءت القمة العربية الثانية التي عقدت في الاسكندرية برئاسة الرئيس عبدالناصر ، والتي أعلن فيها عن انشاء منظمة التحرير ، وجيش التحرير الفلسطيني ، وسُئلت الدول العربية المشاركة مَنْ منها يسمح بقيام قوات أو كتائب فلسطينية مقاتلة على اراضيها ، فكان الجواب ايجابيا من مصر ومن سورية .. مصر عبدالناصر الذي وافق على أن يتجند الفلسطينيون في قطاع غزة ، وفي مصر في جيش التحرير الفلسطيني ، وأطلق على قواته آنذاك كتائب « عين جالوت » ، وكذلك في سورية حيث وافق الرئيس حافظ الأسد - عندما كان وزيرا للدفاع - على انشاء قوات فلسطينية نظامية كتائب والوية على أرض سورية ، وأطلق عليها اسم قوات « حطين » وهذه القوات المسماة بقوات حطين مازالت حتى الآن تعتمد على التجنيد الإلزامي لأبناء فلسطين في سورية ، ومازال القطر العربي السوري ، وبالذات الرئيس حافظ الأسد يقدم لها كل الدعم التسليحي والتدريبي ، والمادي ، ولا أبالغ اذا قلت انه حتى رواتبها ، ومصروفاتها تصرف من موازنة وزارة الدفاع في القطر العربي السوري ، لذلك كان للرئيس الأسد فضل كبير في انشاء جيش التحرير الفلسطيني .. هذا الجيش الذي يعتبر العمود الفقري لمنظمة التحرير ، ورمزا لتطلع الشعب الفلسطيني الى وطنه ، الى العودة ، وتقرير مصيره ، وإقامة دولته المستقلة .. هذان العملان .. أي السماح لحركة فتح ببدء نشاطها وعملياتها من أرض سورية ، وقيام جيش التحرير الفلسطيني يؤكد أن الرئيس حافظ الأسد لم ينظر الى فلسطين كقضية ثانية ، بل هي قضيته الأولى والأهم ، هذه هي روحه ، وهذه هي نفسه طوال معرفتي به من موقع المسؤولية الذي تبوأه وتسلمه ، ثم جاء عام ١٩٧٠ حيث قامت

■ الفصل السادس

الحركة التصحيحية ، وأصبح الرئيس الأسد رئيسا للوزارة ثم رئيسا للدولة .. للجمهورية العربية السورية ، وقد ازداد دعمه بعد تسلمه الرئاسة لجميع فصائل حركة المقاومة .. كان الدعم في عام ١٩٦٥ لحركة فتح ، ولكن في عام ١٩٧٠ ، عندما استلم الرئيس دُعَمَ جميع الحركات أى فتح ، والشعبية ، والصاعقة ، وكل فصائل المقاومة ، وقدم لها كل احتياجاتها .

وأخيرا وليس آخرا حدث في عام ١٩٧٠ حادث مؤسف للغاية .. حيث شن الجيش العربى الاردنى هجوما على الفلسطينيين في الأردن عام ١٩٧٠ ، وكان أيلول سبتمبر . أسود في الحقيقة ، وكان الفلسطينيون يذهبون في عمان وفي مختلف أماكن المملكة الاردنية الهاشمية .. اثنان هبّا للدفاع عن الفلسطينيين أولهما الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، حيث دعا الى قمة عربية حضرناها ، وكان الرئيس عبدالناصر يقيم في هيلتون كى يكون قريبا من القمة ويديرها ، وكنا معه هناك ، وكان لنا معه عدة لقاءات ، وبالفعل عرض علينا كل ما يستطيع لانتقاد اخواننا في الأردن ، وكان الرأى لنا ، ونحن الذين طلبنا منه أن يرسل وفدا أولا ثم وفدا ثانيا الى عمان لانتقاد الاخوة ، ووقف القتال ، لأن القتال هذا يضر بنا وبالاخوة الاردنيين ، والرجل الثانى الذى ساعدنا كثيرا هو الرئيس حافظ الأسد ، حيث انه بالرغم من شعوره العربى ، والقومى ، وبالرغم من نظرتة الى كل الدول العربية كدول شقيقة ، ومؤاخيه لسورية ، ولكنه لم يستطع أن يصبر على ذبح الفلسطينيين وابادتهم ، فحرك الجيش السورى - وكان وزيرا للدفاع آنذاك - الى الأردن ، وحدث صدام مؤسف جدا ، وأكثر الناس أسفا ، وحزنا على هذا الصدام كان الرئيس حافظ الأسد لأنه لم يكن أبدا يريد لجيش عربى أن يقاتل جيشا عربيا ، ولجندى عربى أن يقتل جنديا عربيا آخر ، كان ينظر الى الجندى الاردنى نظرتة الى الجندى السورى ، ولكن حرصه على الفلسطينيين دفعه لارسال قوات احتلت شمال الأردن ، وأربد ، وسلمها للحركة الوطنية الاردنية ، والفلسطينية آنذاك ، وسحب الجيش السورى ..

هذا الحادث يؤكد حرص الرئيس الأسد أيضا على قضية فلسطين وتقدمها وازدهارها ، وصعودها الى الامام ، والى الاعلى ، ثم جاءت الحركة التصحيحية في أكتوبر ١٩٧٠ ، وطيلة فترة العامين الأولين أو الاعوام الثلاثة الاولى كان كل جهده منصبا على فصائل حركة المقاومة ، وعلى توحيد هذه الفصائل بدلا من أن تكون فصائل متنافرة ، وغير متحابية ، وبالعكس يقاوم بعضها بعضا .. فعمل كثيرا على وحدة فصائل المقاومة ، واستمر في تقديم العون اللوجستى « المعلومات » والتدريبى والتسليحي ، وكان الدعم يخص جميع فصائل حركة المقاومة وليس فصيلا دون آخر .

مع أن حزب البعث العربى الاشتراكى شكل فصيلا مقاتلا ، هو منظمة طلائع حرب

■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية ■

التحرير الشعبية ، فرعايتها كانت مثل المنظمات الأخرى ، ولم تحظ بامتيازات عن بقية الفصائل ، فكان حافظ الأسد دوماً مع أبناء فلسطين ، مع وحدتهم ، مع تمسكهم بعقيدتهم ، ومبادئهم ، واقتناعهم بضرورة العودة ، وممارسة حق تقرير المصير ، ثم اقتربت حرب رمضان التحريرية أكتوبر ١٩٧٣ .

أذكر هنا حادثة ، مازلت أذكرها بوضوح .. اجتمعنا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير .. الاجتماع كان برئاسة الأخ ياسر عرفات ، وكنت عندئذ رئيس المجلس الوطني ، وكنت أحضر جميع اجتماعات اللجنة التنفيذية بهذه الصفة ، فقررت اللجنة التنفيذية في عام ١٩٧٣ في شهر يوليو إرسال وفد لمقابلة الرئيس الأسد ، وفداً آخر لمقابلة الرئيس السادات في مصر لشرح قضية فلسطين ، وطلب المزيد من العون ، والمزيد من الرأي ، والتوجه الذي يراه الرئيسان السادات والأسد في صالح قضية فلسطين ، فذهبنا إلى الرئيس الأسد - لأن الاجتماع كان في دمشق والرئيس الأسد كان الأقرب في دمشق - أنا على ما أذكر والأخ المرحوم زهير محسن ، فذهبنا ، وقابلنا الرئيس الأسد ، وشرحنا وضع فلسطين وكان متفهماً تماماً ، ولم يكن بحاجة لمن يعطيه مواعظ ، أو دروساً في الموضوع الفلسطيني ووعدنا بدعم منظمة التحرير كما كان الدعم قائماً في الماضي بأن يستمر هذا الدعم ، ويزداد لدعم نضال الشعب الفلسطيني ، وتطلعه لتحقيق حقوقه .. ثم قلت له : نحن أيضاً مكلفون بذهابنا إلى مصر ، واجتماعنا مع الرئيس السادات ، وبكل صراحة أقول لك : أنني أبدت بعض الملاحظات عن الرئيس السادات من أن تصميمه على الحرب ليس قوياً فالتفت إلى (بزعل) وقال لي : ثق تماماً إن الرئيس السادات ليس أقل رغبة في التحرير ، والقتال من الرئيس جمال عبدالناصر .. أذكر هذه الكلمات حرفياً .. اذهبوا إليه ، واكتبوا ثقته ، وفي هذا فائدة كبيرة لكم ، وللقضية الفلسطينية ، وللشعب الفلسطيني ، وبعد مدة طويلة علمت أنه كان هناك اتفاق على خوض حرب تشرين أكتوبر التحريرية .

ذهبنا إلى مصر ، وفور وصولنا اجتمعنا مع المرحوم المشير أحمد اسماعيل ، وكان آنذاك وزيراً للدفاع ، فتكلمنا بشكل عام معه ثم قال غداً نُسافر لنلتقي بالرئيس السادات ، في اليوم التالي التقينا في مطار حربي في القاهرة وركبنا الطائرة ، وكان معنا مجموعة كبيرة من كبار الضباط أذكر من بينهم الفريق سعد الشاذلي ، وأذكر أيضاً المشير عبدالغنى الجمسي ، وآخرين .. جلسنا في الطائرة المشير أحمد اسماعيل ، وزهير محسن ، وأنا في المقدمة وجلس الضباط ، وفردوا الطاولات في الطائرة ، ووضعوا على الطاولات خرائط فاستغربت ، وتعجبت ، وقلت : ألا يستطيعون الراحة ساعة واحدة مسافة الطيران من القاهرة إلى الاسكندرية !!؟

بعد ذلك علمت أنهم كانوا يعدون لحرب رمضان ، وكانوا يعملون في كل وقت ، وفي كل

■ الفصل السادس

لحظة لهذه الحرب ، وعلمت كم كان التحضير لهذه الحرب شاقا ومضنيا .. لم يكونوا يضيعون لحظة واحدة ، أو ثانية واحدة ، حتى اثناء ركوبنا الطائرة لمدة ساعة بين القاهرة والاسكندرية . ووصلنا الاسكندرية فوجدنا السيارات في انتظارنا ، فركب المشير أحمد اسماعيل ، وأنا سيارة .. الاخ زهير محسن ، والشاذلي ، والجمسى سيارة بالاضافة للسيارات الأخرى .

وذهبنا الى مكان لا أعرفه .. « الآن عرفت انه برج العرب » ووجدنا الرئيس السادات هناك ، وتحدثنا مطولا ولكن لم يلمح لا هو ، ولا حافظ الأسد ، أو المشير أحمد اسماعيل من قريب ، أو من بعيد الى ان هناك حربا قادمة ، الرئيس السادات قال لي جملة ما زلت أذكرها ولا انسها ، قال لي : « يا أخ خالد لازم أخوانك في الثورة الفلسطينية يعرفوا ان مصر تنفق أموالها على السلاح الحديث ، وليس عندنا أموال ننفقها على الصحف في لبنان .. نحن ننفق أموالنا على السلاح ، وأرجوك ان تخبر كل أخوانك بهذا » ، ووعده خيرا ..

كان لقائى مع الرئيس السادات جيدا ، تبنى منظمة التحرير ، ودافع عنها ، وأكد حرصه على قوتها ومتانتها واطراد النضال والكفاح .. وعدنا .. وفي طريق العودة بالسيارة كلمنى المشير أحمد اسماعيل وقال لي : « يا أخ خالد .. افرض ان حربا قامت .. ماذا يمكنكم فعله .. نقول ذلك بالفرض لانه كانت هناك حرب ١٩٥٦ ، وحرب ١٩٦٧ ، افرض ان حربا قامت بالفعل هل باستطاعتكم تدمير أهداف داخل اسرائيل ؟

فقلت له : ماذا تعنى بالاهداف ؟

قال : مثلا مصفاة النفط .. مطار اللد .. مطار نهبان .. مطار مجدو .

فقلت له : بكل صدق لا نستطيع ذلك ، ولم يزد كلمة واحدة على هذا ، وبعد شهرين اندلعت الحرب ، ولم أكن أعرف شيئا عن اندلاعها ، وعلمت بعد انتهاء الحرب ان اخوة لي بالثورة الفلسطينية لا يريد أن أذكر اسماءهم لانهم مازلوا قياديين ، قالوا لأحمد اسماعيل ان بإمكانهم ان يدمروا خمسين هدفا على الأقل في اليوم الاول للحرب ، (ولم يدمروا هدفا واحدا) .

لذلك سألتنى ، والحمد لله كنت صادقا معه ، وقلت : ان امكانياتنا لا تسمح بتدمير أهداف استراتيجية كبيرة من هذه الاهداف .. وبعد عودتنا الى دمشق عدنا الى عملنا في منظمة التحرير ، وقدمنا للاخوة تقريرا عن لقائنا مع الرئيس السادات ، وتقريراً عن لقائنا مع الرئيس حافظ الأسد ، وكان التقريران ايجابيين ، وارتاح الاخوة لهما كثيرا .. ثم جاءت الحرب التحريرية .. حرب أكتوبر ، وتقدم الجيش السوري مسافات كبيرة في الجولان ، وتقدم الجيش المصرى في العبور ، وفي سيناء كما نعلم جميعا ، ولكن لم يكتب

■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية ■

الله لهذه الحرب أن تستمر بالنجاح التام والكامل فحدثت الثغرات ، ثغرات الدفروسوار والكيلو ١٠١ .. الخ ، وعقدت قمة عربية عام ١٩٧٤ في المملكة المغربية « قمة الدار البيضاء المشهورة » .

في هذه القمة كان الفلسطينيون منتشين بانتصارات حرب أكتوبر سواء كان على الجبهة المصرية أو على الجبهة الشمالية « الجبهة السورية » لأول مرة أصبح العالم يدرك أن الجيش الاسرائيلي يمكن قهره ، وأنه ليس كما كانوا يقولون : جيش لا يقهر .. لأول مرة حقق فيها الجندى العربى المباداة ، والمبادرة .. قام بالهجوم ، لم ينتظر حتى يهاجم لكى يدافع عن نفسه .. لأول مرة حقق طلعات على الارض ، وانجازات كبيرة ، وأخذ عددا كبيرا من الأسرى .. فكانت الروح المعنوية الفلسطينية قوية جدا .. لذلك قرر الفلسطينيون في هذه القمة أن يطلبوا منها الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل شرعى ، ووحيد للشعب الفلسطينى .. قبل ذلك لم تكن عندنا هذه الصفة كممثل شرعى وحيد ، وفي هذه القمة علمت ، وبشكل مؤكد أن الرؤساء حافظ الأسد ، وأنور السادات ، وهوارى بومدين دافعوا دفاعا مستميتا عن حق الفلسطينيين في أن يكون لمنظمتهم « منظمة التحرير ، التمثيل الشرعى ، والوحيد للشعب الفلسطينى بينما كثير من الدول العربية لم ترض بذلك ، وبالذات الأردن وبعض الدول العربية الأخرى ، وقد اتخذت القمة قرارا ينص على أن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى الوحيد ، وتقرر ارسال رئيس عربى هو الرئيس الراحل سليمان فرنجية الى الامم المتحدة ليدافع عن قضية فلسطين امام الامم المتحدة باسم العرب جميعا وبعد ذلك ارتفع مستوى منظمة التحرير كثيرا .. حتى أصبحت لها مكاتب شرعية ومعترف بها في الدول العربية والعديد من الدول الأجنبية الصديقة أصبح معترفا بها كممثل شرعى وحيد .. أصبحت عضوا كامل العضوية في جامعة الدول العربية ، وفي المؤتمر الاسلامى ، وفي دول عدم الانحياز ، وأصبحت عضوا مراقبا في الامم المتحدة ، فارتفع الاسم الفلسطينى ، والكيان الفلسطينى حتى أصبح حقيقة واقعة في نظر الرأى العام العالمى ، وهذا انجاز كبير ، وتقدم كبير لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وفي ذلك الوقت أيضا وبعد أن انتصر الجيش السورى ، والجيش المصرى في حرب رمضان ، وحققا المعجزة ، جاء الرئيس الأسد ، وطرح علينا الوحدة النضالية بين سورية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وكان الرئيس يريد بذلك أن يصمد الفلسطينيون . أن يتمسكوا بقرارات مجالسهم الوطنية .. الا يتنازلوا في الامور الأساسية ، والامور المبدئية ، وأراد أن يضع امكانيات القطر العربى السورى كله تحت تصرف منظمة التحرير ، وهذه تضحية كبيرة ، لأن سورية - كما تعلم - دولة لها كيانها .. لها جيشها .. لها وزاراتها .. منظمتنا ليست كائى دولة .. ليس عندها أرض ، فإن يطرح الوحدة علينا - كمنظمة بدون أرض - مع دولة ، فهذه تضحية كبيرة من القطر العربى

■ الفصل السادس

السوري ، ولكن اخوانى لم يوافقوا على ذلك ، ولذلك اجهضت فكرة الوحدة الاستراتيجية بين سورية ، والمنظمة .

ثم انتقل النضال الفلسطيني .. فصائل حركة المقاومة بعد ضربها في الأردن انتقلت إلى لبنان ، وكانت كل أسلحتها تأتي عبر سورية ، كل مقاتليها يذهبون للتدريب في الاتحاد السوفيتي ، أو ألمانيا الشرقية ، أو بلغاريا عن طريق سورية ، أى كل قواعدها وقياداتها الأساسية موجودة في سورية ، ولم نجد من سورية إلا الدعم والتفهم لجميع الفصائل دون تمييز فضيل على فضيل آخر ، فبقى الرئيس الأسد مع منظمة التحرير طيلة هذا الوقت ، وطيلة هذه المدة ، وبدأت الصدمة الأولى ، والثغرة الأولى في هذه العلاقة عام ١٩٧٥ ، عندما دخل الجيش السوري لبنان .. عندما اشتد أوار القتال الطائفي الاسلامي - المسيحي في لبنان ، وحافظ الأسد يكره كلمة طائفية ، هو عربي .. هو قومي ، لا يريد أن يكون أى نضال ذا طابع طائفي .. إنه يعد الطائفية لعنة وسبة في جبين الأمة العربية باعتباره قائدا عربيا وحلويا قوميا ، ولبنان بالنسبة لسورية شيء مهم .. لبنان ليس بعيدا عن سورية .. أمن لبنان يمس أمن سورية .. أى ضرر في لبنان ينعكس على سورية .. أى تقسيم للبنان ينعكس على سورية ، وكثر الحديث في ذلك الوقت عام ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ عن تقسيم لبنان ، واذكر في ذلك الوقت أنه جاء مبعوث أمريكي اسمه « دين براون » إلى لبنان يدرس وينصح بما يمكن عمله .

أذكر أول ما وصل دين براون ذهب لمقابلة الرئيس اللبناني سليمان فرنجية ، وكميل شمعون ، وبيير الجميل .. « الثلاثة ماتوا الآن ، وعندما اجتمع بهم ، واستمع إلى أحاديثهم عن القتال الفلسطيني اللبناني قال له الثلاثة : ان التعايش بينهم وبين المسلمين أصبح صعبا ، وأن التعايش مع الفلسطينيين أصبح مستحيلا .

ذهب دين براون من اجتماعه هذا لمقابلة كمال جنبلاط فسمع منه أيضا أن التعايش مع الفريق الآخر أصبح مستحيلا ، فقال له براون كلمة واحدة : « يظهر أن تعايشكم أصبح مستحيلا ، ولذلك من الممكن أن تعيشوا في دولتين ، أى وكأنه يوحى لهم أنه يمكن تقسيم لبنان ، وانزعج الرئيس حافظ الأسد لذلك كثيرا لأنه لا يقبل تقسيم لبنان .. تقسيم لبنان ينعكس على سورية ، وعلى الأمة العربية ، وبالذات على قضية فلسطين ، فأرسل الجيش السوري لمنع التقسيم ، ولنع الاقتتال بين اللبنانيين .. مع الفلسطينيين .

في نهاية السبعينات ، كثر الاعتداء اليهودي ، أو الاعتداء الاسرائيلي على جنوب لبنان ، وفي عمق لبنان .. صار الاسرائيليين يقصفون المخيمات .. يقصفون قواعد منظمة التحرير يهاجمون ، ويحتلون أرضا لبنانية ، وينسحبون .. أى كانت منظمة التحرير تواجه الدولة الاسرائيلية القوية بإمكانياتها الضعيفة ، وعندئذ عرض الرئيس الأسد مرة أخرى على

■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية ■

منظمة التحرير التنسيق ، والتعاون الفعال ، والكامل ، والشامل ، وعقدت الاجتماعات في دمشق مع حركة فتح رأسها الشهيد أبو إياد ، ومعه سبعة من أعضاء اللجنة المركزية لفتح ، ومن الجانب السوري رأس الاجتماعات نائب الرئيس عبدالحليم خدام ومعه ثمانية من قيادة الجيش السوري ، والسياسيين السوريين .. اجتمع أعضاء الوفدين ثمانية أيام ، واتفقوا على اقامة علاقات تنسيقية استراتيجية بين سورية ، ومنظمة التحرير ، ووقعوا هذا الاتفاق ، ونشر في سانا (وكالة الانباء السورية) وفي اليوم التالي قالت وفا (وكالة الانباء الفلسطينية) إن هذا الاتفاق غير مقبول ، ويسر عرفات لن يوافق عليه ، وأن ما جاء في الوكالة السورية غير صحيح مما اضطر أبوأياد ان يقول : « إن ما جاء في سانا هو الصحيح ، ولكن أبوعمار رفض ، فتولد لدى السوريين اقتناع بأنه إن لم يوافق أبو عمار على أمر فمن الصعب أن ينفذ هذا الأمر في منظمة التحرير الفلسطينية ، وإن تتم علاقة تنسيقية ، واستراتيجية بين سورية ، ومنظمة التحرير ، حتى كان عدوان اسرائيل المشهور في عام ١٩٨٢ ، واحتل الاسرائيليون لبنان ، ووصلوا الى بيروت وطوقها ، وحوصرت المقاومة الفلسطينية ، وقطاعات من الجيش السوري برئاسة العميد محمد حلال داخل بيروت .. أذكر أنني وأخواني - وكنت في دمشق - ذهبنا لمقابلة الرئيس الأسد لنجدة أهلنا في لبنان ، وكانوا مطوقين من الجيش اللبناني ، والطيران السوري كان قد ضرب ضربة قوية . كانت خسائر سورية كبيرة .

ذهبنا إلى الرئيس الأسد أنا والقيادة الفلسطينية في دمشق .. وجاءوا له بورق طبعوه ، فقرأه ، وقال : هذه ورقة من قائد الجيش السوري في بيروت محمد حلال يقول فيها : إن الرئيس إلياس سركيس عرض عليه أن يؤمن له انسحابا سليما وأمنا بموافقة الاسرائيليين ، وأنه انذره إن لم ينسحب في خلال ٤٨ ساعة سيقوم الجيش الاسرائيلي بضرب هذه القوات .. وهو يطلب رأي الرئيس الأسد ، فانزعج الرئيس الأسد ، ورعى الورقة وقال له : قاتل حتى الموت « بلاش كلام فارغ عن الانسحاب » هذا بالحرف الواحد .. قاتل حتى الموت .. وطلب تبليغ ذلك إلى العميد محمد حلال ، وبقي السوريون يقاتلون جنبا إلى جنب مع المقاومة الفلسطينية ، حتى تم الاتفاق مع فيليب حبيب كما تذكر ، ووافق الاخ أبو عمار والقيادة الفلسطينية على الانسحاب ، وانسحبوا إلى الخارج ، وذهب أبو عمار كما يعلم الجميع إلى تونس ، وجاءت معظم القوات الفلسطينية إلى سورية ، وانتشر بعضها في البقاع الذي لم يكن قد احتل ، وكذلك في (منطقة طرابلس) وأبو عمار بقي في تونس ، كان أبو عمار يعتقد انه ببعده عن سورية سيأتي له بصداقة امريكية ، وبالود الأمريكي ، وأن أمريكا ستساعده كثيرا إذا ظل بعيدا عن سورية وثبت أن ذلك ليس صحيحا . وساءت العلاقة بين سورية ، ومنظمة التحرير وكل هذا الوقت وسورية ترفض قيام منظمة تحرير ثانية .. كان - وصدقني في ذلك -

بإمكان سورية أن تقوم بانشقاق اكبر ، وأن تشكل منظمتى تحرير ، ولكن سورية رفضت ذلك ، وقالت منظمة تحرير واحدة هي ممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى : والآن شارك الجميع فى عملية التسوية السلمية فى المحادثات الثنائية..سورية ومنظمة التحرير وأنا سعيد بذلك وأقول : إن التنسيق بينهم جيد مع مصر ، ومع الأردن أيضا جيد ومع لبنان وأمل أن يستمر هذا التنسيق ، لأنه الآن بدون التضامن العربى ، بدون موقف عربى موحد فلن يأخذوا شيئا من اسرائيل .. اسرائيل متعنتة بالأرض ، ويرفض الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، لذلك فالسلاح الوحيد فى يد العرب الآن لكى يحصلوا حقوقهم فى المفاوضات الثنائية ، ولكى يكون لهم موقع مناسب فى العالم الجديد الآن . لأنه لم يعد هناك اتحاد سوفيتى ، والعالم الجديد يتشكل ، والعالم الجديد يتعامل مع أمريكا ، فإذا لم يكن العرب متحدين فليس لهم موقع فى هذا العالم الجديد ، وأنا أؤكد لك أن الرئيس الأسد مازال حتى هذه الساعة وسيظل قائلة عربيا قوميا ، يرى فى فلسطين قضيته الأولى والأهم ، ويعد الوحدة العربية ، والعلاقات العربية ، وبشكل خاص مع مصر هى الأساس فى التحرك العربى السلمى للطريق إلى قيام وحدة عربية ، وتنسيق عربى كامل ، ومصر الدولة الشقيقة الكبرى بدونها ثبت أن العرب لا يستطيعون أن يتحركوا كثيرا إلى الاحسن .

الحل الانفرادى

أصبح واضحا للجميع أن الحل الانفرادى لا يمكن أن يأتى بسلام ، وهو مرفوض ، وأضرب مثلا على ذلك ، وهو كامب ديفيد .. مصر هى الدولة الكبيرة وافقت على اتفاقية كامب ديفيد مع اسرائيل وبقي الأردن ، وسورية ، ولبنان ، ومنظمة التحرير خارج هذه الموافقة .. فكانت النتيجة أنه لم يحدث سلام . ولذلك فإن الرئيس الأسد قال : إن السلام إن لم يكن شاملا للجميع فلن يكون هناك سلام ، وهذا مؤكد ، اسرائيل تحاول دوما الانفراد بالقوى العربية قوة قوة ، تريد الآن الانفراد بالفلسطينيين عن طريق حكم ادارى ، وليس حكما ذاتيا .. ما تعرضه اسرائيل هو حكم ادارى من ١٨ شخصا مُنتخبين يديرون أمور الصحة .. التعليم .. الشرطة .. الخ وليس حكما ذاتيا يؤدى إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة ، اسرائيل تريد الآن أن تنفرد بالفلسطينيين ، وهذا مزعج جدا .. لذلك سورية تنادى بالحل الشامل ، وأنا معها فى أن يكون الحل شاملا للجميع ، أى أن يشمل جميع جبهات الصراع اللبنانية ، والسورية ، والأردنية ، والفلسطينية ، وأن تستعاد الحقوق الوطنية العادلة ، والمشروعة ، وهى حقوق الحد الأدنى للشعب الفلسطينى « حق العودة ، تقرير المصير ، والدولة المستقلة » .

حافظ الأسد مع الحل الشامل حتى العظم . لا يمكن أن يقبل بحل منفرد مهما كان .

■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية ■

ولذلك كان قوله : القدس قبل الجولان ، وقوله بأن الحقوق الفلسطينية قبل الحقوق العربية ، وأهم ، ولذلك هو يعنى ما يقول لأن القدس قبل الجولان ، وأن القدس يجب أن تعود عربية ، وعاصمة للدولة الفلسطينية ، وهذا أهم له من أى شيء آخر ، مع اعتزازه الكبير ، وحرصه الكبير على الجولان كجزء لا يتجزأ من الأرض العربية السورية .

تقترب السياسة السورية أو تبتعد مع أى دولة بمدى اقتراب هذه الدولة ، أو بعدها عن القضية الفلسطينية .. ويدلل خالد الفاهوم على تأكيد هذه الحقيقة بقوله : العلاقة بين سورية ، وإيران كانت علاقة سيئة .. متوترة .. عندما كان يحكم إيران الشاه ؛ والسبب في ذلك بسيط لأن الشاه كان حليفاً ، وصديقاً لإسرائيل ، وكان يرى أن الموضوع الفلسطيني ، والموضوع العربي ليس على جدول أعماله ، ولكن عندما قامت الثورة الإسلامية في إيران تحسنت العلاقة بين سورية ، وإيران كثيراً لأن إيران اعتبرت قضية فلسطين أيضاً قضيتها .. هي قضية المسلمين ، والعرب ، فتحسنت العلاقة بسبب تغير الموقف الإيراني تجاه فلسطين .

ثانياً : في كل علاقاته مع أى دولة مهما كانت هذه الدولة يؤكد الرئيس الأسد دائماً على الحقوق الفلسطينية وإذا الدولة التي يتفاوض معها رفضت هذه الحقوق ، فإنه لم يكن ليقم معها أى علاقات ، ويرفض حتى استفادة القطر العربي السوري من التبادل التجاري ، والتبادل الاقتصادي مع بعض الدول لأنها كانت تدعم الكيان الصهيوني . سورية دائماً تغلب قضية فلسطين على أى قضية أخرى .

مصر هي القوة العربية الكبرى

الرئيس الأسد منذ أن كان طالباً في الدراسة الثانوية آمن بالوحدة العربية ، وبالعلاقات العربية ، وكان إيمانه بمصر لا يتزعزع ، وكان ينظر إلى مصر دوماً على أنها القوة العربية الكبرى التي بدونها لا يمكن للعرب أن يقطعوا مسافات واسعة إلى الأمام ، لذلك حرص على أن تكون علاقته بعبد الناصر جيدة جداً ، وأذكر هنا حادثة .. كنا مع عبد الناصر أثناء انعقاد القمة في فندق هيلتون بعد مذاييع الفلسطينيين في الأردن ، وكان حافظ الأسد وزيراً للدفاع ، فتكلمنا عن ضرورة وقف القتال في الأردن ، وإيجاد حل للخلاف الفلسطيني الأردني ، وقلت للرئيس عبد الناصر : إن في سورية حافظ الأسد وزير الدفاع ، وموقفه مثل موقفك ، وهو يدعو لإيجاد حل سلمى للخلاف الفلسطيني - الأردني ، وهو يؤمن بالهدف .. فقال لي عبد الناصر : مع الأسف سورية فيها رجل واحد متسلط هو صلاح جديد ، ونحن نعرف الكثير عن وطنية حافظ الأسد ، ولذلك نؤيده ، وأثبتت الأيام أن في سورية رجلاً قوياً للغاية هو حافظ الأسد .. الذي كان يريد دائماً

■ الفصل السادس

علاقات قوية مع مصر ، ويؤمن بهذه العلاقات ، وكان يريد حتى الوحدة مع مصر ، وما زالت حتي الآن - والحمد لله - العلاقات جيدة والعلاقات قوية ، والحقيقة بدون مصر ، وسورية لا يستطيع الفلسطينيون ، ولا العرب ان يحققوا شيئا من حقوقهم ، العادلة التي يقرها المجتمع الدولي .

سورية ، ومصر إذا ارتبطتا بعلاقات متينة ، وقوية تدفعان الأمة العربية قُدما إلى الأمام وإذا كانت علاقات سورية ، ومصر متعكرة فإنها تعكس بالسوء على قضايا العرب جميعها ، وبشكل خاص على قضية فلسطين .. الرئيس الأسد يحترم الرئيس مبارك كثيرا ، وهو على استعداد للتعاون معه إلى أبعد الحدود لخدمة القضايا القومية للأمة العربية .

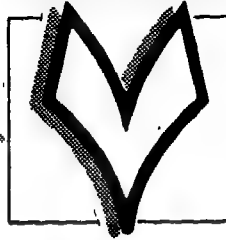
نماذج لإنسانيات الأسد

ويضيف الفاهوم : قبل أشهر تولى لنا مناضل فلسطيني، وصديق هو الأخ عبدالحسن أبو ميزر ، فما كان من الرئيس الأسد إلا أن وضع كل إمكانيات سورية تحت تصرفنا لاجراء الدفن والتأبين بشكل مناسب ، وأرسل مندوبه ، وقام بكل الدعم لعائلته ، وعرض عليهم كل ما يشاؤون ، وهذا لا يحدث فقط بالنسبة لعبدالحسن أبو ميزر ، بل بالنسبة لكثير من الفلسطينيين .

المعروف عن حافظ الأسد أنه رجل وفي لا يمكن أن ينسى اصدقاءه ولذلك يحافظ على الود ، وعلى الصداقة ، وهذا ينطبق على الفلسطينيين ، وأكبر ناحية إنسانية هي : إنه لا ينظر للفلسطينيين على أنهم شعب آخر ، نظرتة للفلسطينيين هي كنظرتة لابناء سورية لا يفرق بين سوري ، وفلسطيني .. الفلسطيني السيء مثل السوري السيء ، والفلسطيني الجيد مثل السوري الجيد ، وهو لا ينظر إليهم على أنهم شعب غريب ، أو كشعب ضيف بل أنه ينظر إليهم كأهل البلد مثل باقي السوريين تماما .

وكل هذه جوانب إنسانية نقدرها للرئيس الأسد أفضل تقدير ، فهو يساعد الكثير من العائلات الفقيرة سرا ، ويدعم الكثير من الناس الذين كانوا في وضع جيد ثم ساء وضعهم ، فهو لا يقصر أبدا ، وهو يتعامل معهم بشكل إنساني واسع .

الطريق الى الوحدة



قراءة في فكر الأسد

أزمة الخليج وكبرياء الفارس

- جهود الأسد في سبيل الوحدة والوفاق العربي.
- لقاء الأسد وبوش.
- رسالة الأسد الى صدام حسين.
- سورية في مواجهة نتائج كارثة حزب الخليج.
- اعلان دمشق.

■ أزمة الخليج وكبرى الفلاس ■

□□ في ظل الاحساس العميق بالمسئولية القومية ، ومتطلباتها ، وفي إطار المبادئ التي آمن بها في صدر شبابه ، وفي طليعتها الوحدة العربية تتابعت مبادرات الرئيس حافظ الأسد من أجل تحقيق الوحدة ، فالوحدة العربية هدف سقط دفاعا عنه مئات الشهداء الذين خضبوا بدمائهم الأرض العربية ، وصولا إلى هذا الهدف ، آمن حافظ الأسد بأن العرب أمة واحدة ، وبأن قوميتهم واحدة ، وهذه القومية في معناها البسيط الذي أدركه وقتئذ هي الشعور الذي يجمع شمل الشعوب التي تسكن الوطن العربي الكبير ، والتي تتكلم اللغة العربية ، والقومية العربية ليست خيالا ، ولا مبدءا مصطنعا مجردا من الدعائم والاسس التي تثبته وتؤيده ، وإنما هي حقيقة واقعة منذ أقدم العصور ، ولعل أكثر الشعارات التي جذبت حافظ الأسد للانخراط في حزب البعث ذلك الشعار الذي يقول (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) ، وكان إيمان حافظ الأسد ، ولا يزال بأن الأمة العربية هي أكثر أمم الأرض التي توافرت واجتمعت لها كل العناصر والاسس التي لا توجد القومية إلا بها ، فاللغة الواحدة ، والتاريخ المشترك قد توافرا بصورة واضحة للأمة العربية .

ولقد وحدت اللغة العربية الفصحى ، وربطت بين العرب قبل نزول القرآن الكريم ، ثم ظهر الاسلام ، ونزل القرآن بهذه اللغة ، وقد تضمن آيات كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة ،

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وفي موضع آخر يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿نُزِّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾

كذلك فإن من أهم عناصر القومية العربية بعد اللغة ، وهو التاريخ ، الذي يعد بمثابة شعور الأمة وذاكرتها ، هي تاريخ مشترك بالنسبة للعرب ، وكثيرا ما وجه الرئيس حافظ الأسد إلى ضرورة دراسة التاريخ مؤكدا إن الأمة التي لا تحرص على تاريخها ، وتُقلِّب الطرف دائما في ثنائها لتستمد منه القوة وتستفيد بما فيه من عبر ، مثل هذه الأمة التي تنسى ، أو تتجاهل تاريخها تفقد بهذا المسلك شعورها القومي ، ويتزعزع كيانها ، ولا يمكن أن تُسلم شخصيتها ، ويستقيم كيانها ، ويتوطد إلا إذا استعادت تاريخها ، وتذكرت أحداثه ، وهذا الذي وجه به حافظ الأسد يؤيده الواقع الملموس ، فالدول المستعمرة تحارب دائما تاريخ الأمة المحتلة ، وهدف هذه السياسة القضاء على تاريخ الأمة ، وبالتالي القضاء على تراثها القومي وشعورها بذاتها ، والحركات القومية تبدأ دوما بإحياء تاريخ الأمة القومي ، وتذكير أبنائها بماضيهم المشرق ، وأماجدهم القديمة ، لكي يتسنى دعوتهم إلى استعادة الثقة بأنفسهم والإيمان بقوميتهم ، والتخطيط لمستقبل كريم لأمتهم ، وهذه الدعوة إنما تستمد قوتها من تاريخ الأمة بما ينطوي عليه من أمجاد ومفاخر .

ويذكر زملاء الرئيس حافظ الأسد في مرحلة الدراسة العسكرية أنه أعد سلسلة من الدراسات ، والبحوث ناقشها مع زملائه ، والتقت كلها على حقيقة مؤكدة هي أنه لا نجاة للعرب مما يتهدهم إلا بالتمسك بقوميتهم ، وبالحفاظ عليها إذ أن هذه القومية تهدف إلى الوحدة ، وتحرير الوطن العربي الكبير من الاستعمار بمختلف أشكاله ، وبناء اقتصاد قومي فعال ، وتنظيم تعامل رأس المال الوطني مع رأس المال الأجنبي على أساس التبادل العادل من الخدمات ، والمنافع ، وبناء مجتمع تسوده الحرية وتسيطر عليه العدالة الاجتماعية ، وتتحقق فيه الكرامة الإنسانية .

كان الرئيس الأسد يرى في صدر شبابه أن طريق الوحدة مليء بالعقبات ، وهذه العقبات بعضها خارجي ، وبعضها داخلي كامن في الوطن ، والعقبات الخارجية تتمثل في الاستعمار ، والصهيونية ، والعقبات الداخلية تنحصر في النزعات الاقليمية ، والطائفية ، والاعتبارات الشخصية ، وكان يرى أن القضاء على العقبات الداخلية والخارجية يتطلب تضامن أبناء الأمة ، وتوحيد كفاحهم ، والنضال المستمر حتى النصر . كما يرى أن اتساع نطاق الوعي القومي المستنير هو الذي يقضي على مختلف النزعات (المعركة للوحدة) .

بصمات واضحة

وفي إطار هذه الحقائق فإن بصمات الرئيس الأسد على محاولات تحقيق الوحدة العربية ، والتضامن العربي واضحة ، ولذلك لم يكن غريباً أن يبادر بعد تسلمه رئاسة الجمهورية بأيام إلى إعلان اتحاد الجمهوريات العربية مع مصر ، وليبيا تجسيدا لإيمانه العميق بالوحدة العربية ، وإعادة التفاعل القومي الذي كان بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه في فترة السبعينات أعلن الرئيس حافظ الأسد : أنه مستعد أن يعلن أي شكل من أشكال الوحدة مع الأردن الشقيق ، مؤكداً أن اختلاف النظم بين البلدين لا يمكن أن يكون عائقاً ، ولقد أنشئت الكثير من الشركات المشتركة بين الأردن وسورية ، وبالرغم من الجراح التي كان يعانيها من النظام العراقي ، فلقد داس على هذه الجراح بكبرياء الفارس البطل ، وذهب إلى العراق ليلتقي بالرئيس السابق أحمد حسن البكر ، ويبحث معه التنسيق ، والوصول إلى ميثاق العمل الوطني عام ١٩٧٩ ، وهو الميثاق الذي انقضض عليه صدام حسين في انقلاب مشهور بعد أشهر قليلة من توقيعه ، لم يتوان الرئيس الأسد ، ولم يكل من الذهاب في مشرق الوطن العربي ، وفي مغربه للبحث عن أي وسيلة للتضامن العربي ، وتحت أي صيغة ممكنة ، صيغة تضع العرب في أي شكل من أشكال التضامن والوحدة ، لم ينطلق حافظ الأسد في مسعاها بحثاً عن مجرد شخصي ، أو مكسب مادي ، وكان يرى ، ولا يزال أن دوره كرئيس لسوريا سوف ينتهي عندما تتحقق الوحدة العربية ، وتكون هناك دولة عربية واحدة مؤكداً أنه لا يجوز إطلاقاً أن تكون مصلحة أي إقليم ، أو أي رئيس عقبة تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم ، والمجيد ، ولا يمكن لأحد أن ينسى مبادرات الرئيس الأسد وجهده المشهود به أثناء الحرب العراقية الإيرانية داعياً إلى إنهاء هذه الحرب واطفاء لهيبها ، لأنها كادت أن تودي بالخليج العربي كله ، واستطاع بجهد لازالت تفاصيله في طي الكتمان أن يحجم هذه الحرب تمهيداً لإنهائها ، لأنه كان يرى أن هذه الحرب لا تفيد إيران ، ولا العراق ، ولا الأمة العربية ، ولا الأمة الإسلامية ، ولقد صدقت نبوءته التاريخية عندما أكد على هذه الحقيقة ، حقيقة أنه لن يخسر من استمرار هذا الحرب إلا العرب ، والمسلمون ، ولن يستفيد منها إلا أعداء العرب والمسلمين ، وبالفعل فإن هذه الحرب الظالمة لم تحقق أية نتيجة ، وخسر البلدان خسارة كان يمكن أن تكون إضافة قوية وقدرة لصالح الأمة العربية ، والأمة الإسلامية .

ولقد بذل مع الرئيس حسني مبارك جهوداً كبيرة لتجنب العراق الكارثة التي حاققت به من جراء مغامرة صدام في احتلال الكويت ، كما بذل ، وببذل الكثير من الجهد لمساعدة الشعب الليبي على اجتياز محنته بعد قضية (لوكاربي) ، ونستطيع

أن نقول إن بصمات الرئيس الأسد على العمل العربي القومي والوحدوى واضحة حتى أن بعض الصحفيين العرب أطلقوا عليه (حكيم العرب) لبعده نظره ، وإيمانه بحتمية انتصار الأمة العربية .

الأسد وأزمة الخليج

في أعقاب اعلان وقف قرار الحرب العراقية الايرانية في ٢٠/٧/١٩٨٧ ، وهى الحرب التى استمرت ثمانى سنوات شغلت فيها العرب عن قضاياهم الاساسية ، وأهدرت في أتونها آلاف الأرواح ، ومليارات الدولارات ، وحطمت المنشآت العسكرية ، والاقتصادية تاركة غصة مؤلمة في الوجدان العربى لا يعرف احد متى ستنتهى آثارها ، في أعقاب هذا القرار ، بدأ النظام العراقى في اطلاق التصريحات الرنانة ، بدأ بادعائه أنه سيحرق نصف اسرائيل بالكيمياوى المزدوج ، ثم إعلانه عن امتلاكه لاسلحة فتاكة بصورة جعلت اسرائيل وأبواق دعايتها تتصنع الخوف من التصريحات العراقية الطنانة ، لجلب مزيد من المهاجرين اليهود ، والحصول على أهم المعدات العسكرية ، والمالية ، والتأييد الدولى الكثيف لها باعتبار انها (حمل وديع يعيش بين الذئاب العربية) ونجحت الدعاية العراقية في أن تمنع بعض العرب السذج بأن العراق بمفرده أصبح قادرا على انتزاع الحقوق العربية بالقوة ، وسرعان ما تبين أن هذه التصريحات التى كان لها دوى الطبول لم يكن لها من هدف إلا صرف الأنظار عما يُعد له من غزو الكويت ، واحتلالها في الثامن من آب / أغسطس عام ١٩٩٠ .

بالطبع فإن المجال لا يتسع إلى الحديث عن جذور الأزمة ، والنتائج التى ترتبت عليها لأن كل الحقائق حول هذه المسألة أصبحت معروفة لأبناء الشعب العربى في كل مكان ، ولكن هذه المعرفة لا تمنع من ضرورة الوقوف على بعض الحقائق المتصلة بالاجتياح العراقى للكويت .

فمن جهة جاء الاجتياح في وقت كان فيه المناخ الدولى الجديد المتمثل في انتهاء الحرب الباردة يغلق معطيات جديدة تتطلب من الأمة العربية التعامل معها بأسلوب وتفكير جديدين، فالمتغيرات التى جرت في أوروبا الشرقية ، ومناطق أخرى من العالم أخذت تشكل واقعا جديدا كان لا بد للعرب معه أن يفكروا في السير بحركة متوازنة دون أن يفقدوا خلالها الثوابت الاستراتيجية التى تحقق أهدافهم ، وعلى أساس هذا الوعى للعالم بدأ يظهر في الافق تباشير امكانية تحقيق شكل من أشكال التضامن العربى القادر على إيصال صوت عربى موحد إلى العالم سواء فيما يتعلق بقضية الصراع العربى الاسرائيلى ، أو فيما يتعلق في التعامل مع التكتلات الاقتصادية الجديدة ، وتوظيف هذه

■ أزمة الخليج ونهبها للفرس ■

التحركات في دعم الانتفاضة التي ظلت تتصاعد داخل الأراضي المحتلة ، ونجحت في إزالة الغشاوة التي جهدت اسرائيل في وضعها على أعين الرأي العام العالمي .
من جهة ثانية كانت الأزمة اللبنانية تسير في اتجاه الحل بعد أن تم توقيع وثيقة الوفاق الوطني بين الاطراف اللبنانية في الطائف ، وهي الوثيقة التي ما كان لها أن تصدر لولا التحرك السوري النشط ، والواعي بالتعاون مع دول عربية عديدة .. لقد استطاعت سورية التي كانت تدرك بدقة أبعاد اللعبة على الساحة اللبنانية أن تحافظ على عروية لبنان ، وأن تحبط كل المؤامرات الطائفية التي تجعل من اسرائيل أول المستفيدين من التمزق اللبناني ، وهذا الاقتراب نحو حل الأزمة اللبنانية أحدث قلقا بالغاً لدى صدام حسين الذي كان يرى أن الوصول إلى حل المسألة اللبنانية انتصار لسياسة الأسد ، فما كان منه إلا أن دعم الانفصالي العماد ميشيل عون ، وأرسل إليه كميات هائلة من الأسلحة المتنوعة لتخريب الوفاق اللبناني ، الذي يتبلور بشكل فعلى في ظل الرعاية السورية الأخوية للجار الشقيق لبنان .

ومن جانب ثالث كان صدام حسين قلقاً مما يحدث من محاولات لتفتية الأجواء العربية ، وانتهاء الخلافات بين الأشقاء ، ثم قرار بعض الدول العربية بإعادة علاقاتها مع إيران .

كل هذا بالإضافة إلى القلق من التقارب المصري السوري ، وعودة الجامعة العربية إلى مقرها الدائم بالقاهرة وفقاً للمادة العاشرة من ميثاق الجامعة العربية .
كل هذه البوادر الايجابية بدأت تعيد إلى المواطن العربي الشعور بالثقة بالنفس ، والامل في امكانية مواجهة المخاطر الناشئة عن المتغيرات الدولية التي أخذت اسرائيل تستثمرها على نحو يهدد مستقبل الأمن العربي برمته ، وذلك من خلال تنفيذ جريمة العصر بتهجير مئات الألوف من يهود الاتحاد السوفيتي ، والدول الشرقية بالإضافة إلى يهود الفلاشا ، وكان لتصاعد حمى الاستيطان لدى الاسرائيليين القدامى والمهاجرين الجدد أبلغ الأثر في جعل المسئولين الاسرائيليين يتحدثون صراحة عن اسرائيل الكبرى في ظل المناخ الدولي الجديد واعادة العلاقات الدبلوماسية بين اسرائيل ومعظم دول أوروبا الشرقية ، وبدء تسللها إلى المؤسسات الاعلامية ، والاقتصادية ، والسياسية لهذه الدول .

في إطار هذه المعطيات جاء اجتياح القوات العراقية للكويت ، وكان له وقع الصاعقة في نفوس جماهير الأمة العربية ، وكان لهذا الاجتياح في سورية صدى خاص ، فقد سبق أن تنبأت بحدوث مثل هذا الأمر ، وحذرت من المؤامرات الخبيثة التي يبيتها صدام حسين لجيرانه العرب ، وثبتت صحة الرؤية السورية ، وفور وقوع الاجتياح العراقي للكويت بدأ الرئيس حافظ الأسد يبذل جهوداً حثيثة لتطويق أبعاد المؤامرة الجديدة ، فوجه منذ الساعات الأولى للغزو دعوة للرؤساء ، والملوك ، والامراء العرب إلى

■ الفصل السابع

عقد اجتماع طارئ على مستوى القمة بهدف وقف التدهور بكل الوسائل الممكنة لتطويق كل أبعاد الأزمة التي افتعلها صدام ، والوصول إلى حل عربى لهذه المشكلة الخطيرة ، وبدأت الأحداث تتفاعل في منطقة الحدث ، وعلى المستوى الدولى ، وعقد اجتماع طارئ لمجلس الجامعة العربية في القاهرة حضره وزراء الخارجية العرب يومى الثانى والثالث من آب / أغسطس وتوصلوا بعد مناقشات طويلة إلى اصدار قرار يدين العدوان العراقى على الكويت ، ويطالب النظام العراقى بانسحاب غير مشروط لقواته من الكويت لتفويت الفرصة على الطامعين في الاراضى ، والثروات العراقية ، وحتى لا يكون هناك حجة لاستمرار القوات الاجنبية الى منطقة الصراع .

وفي العاشر من أغسطس / آب ١٩٩٠ انعقد مؤتمر القمة العربى ، حيث بذل الرئيس الأسد ، وبالتعاون مع الرئيس مبارك ، والقادة العرب جهدا استثنائيا للارتقاء إلى مستوى الحدث ، والتركيز على حفظ الخلافة ضمن الاسرة العربية ، واقناع النظام العراقى بالخطر الذى يهدد الجميع وضرورة إنجائه للغزو .

وقد ألقى الرئيس الأسد في مؤتمر القمة الذى انعقد في القاهرة بتاريخ ١٠ آب أغسطس ١٩٩٠ خطابا بين فيه أبعاد الخطر المحدق بالامة العربية كلها ، ودعا إلى حل المشكلة ضمن الاسرة العربية الواحدة انطلاقا من الحرص على مستقبل الأمة العربية كلها ، والخروج من المحنة بأقل الاضرار الممكنة ، انطلاقا من الانحياز للامة العربية بكل اجزائها ، وليس لبعض اجزائها ، وأوضح الرئيس الأسد أن سورية لم تبع ، ولم تساو ، ولا تنوى أن تفعل ذلك في المستقبل بالنسبة لقيمتها ، ومبادلها التي هي قيم العرب جميعا ، لانها قيم التراث ، قيم الماضى العريق ، بكل ما يحمله هذا الماضى من مفاهيم معنوية ، ومن مدلولات مادية .

وقد اختتم المؤتمر أعماله بإصدار القرار رقم (١٩٥) بأغلبية ١٣ صوتا ، ومعارضة صوتين ، وامتناع الباقي عن التصويت ، وتغيب تونس ، أدان فيه العدوان العراقى على دولة الكويت الشقيقة ، وعدم الاعتراف بضم الكويت ، والمطالبة بإعادة النظام الشرعى الذى كان قائما في الكويت قبل الغزو العراقى ، وتأكيد سيادة الكويت ، وسلامته الاقليمية .

لقد كانت مواقف الرئيس الأسد منسجمة مع الخطاب الذى ألقاه في المؤتمر ، وبتاريخ ١٩٩٠/٨/١٤ بدأت قوات سورية في الانتشار في الاراضى العربية السعودية ، وكانت مصر قد أرسلت قوات مصرية للهدف نفسه ، بعد ذلك كان الرئيس الأسد قد حضر حفل تخريج دورة المظليين في ١٩٩٠/٩/١٢ حيث ارتجل كلمة قدمت شرحاً وافياً لموقف سورية من الغزو العراقى للكويت وقد كانت هذه الكلمة في توقيتها ، ومضمونها رسالة إلى كل عربى تُبصّرُه بنذر الكارثة التى تنتظر العرب اذا لم تتم إزالة الغزو .

■ أزمة الخليج وكبرياء الفارس ■

وترشده إلى الطريق القويم في مواجهة هذه الاخطار . ونظرا لأهمية هذه الكلمة فإننا نورد بعض فقراتها :

« أن سورية بشعبها العظيم ستظل قلعة حصينة تدافع عن نفسها ، وعن أمتها .. تكشف الزيت حيثما راته ، وتكشف التضليل أينما وجدته لا تهتدى في سيرها إلا بالمصالح العامة للأمة ، أما المصالح الضيقة ، والنزوات الشخصية ، والدوافع الخفية فلم تحكم سير سورية في الماضي ، ولن تحكم سيرها في المستقبل ، لم نجامل في الماضي ، ولن نجامل في المستقبل ، ولن يستطيع أحد تضليل رؤيتنا أبدا عبر حياكات متداخلة الأشكال والألوان ، فشعبنا خبرته الأيام ، والتجارب ، خبرته الأزمات ، والمصاعب ، وامتلك القدرة على فرز الألوان والأشكال بعضها عن البعض الآخر ليتبين الغث من السمين ، وليرى العام ويميزه عن الخاص ، وليرى كما يرى اليوم التناقض بين المظهر والمضمون جليا تماما .

إن ما يحدث في الخليج مؤلم .. محزن لكل عربي .. ما يحدث عيش في الأذهان ، وعاش ويعيش مع العرب الآن في قيامهم ، وفي نومهم .. خوفهم بعضهم من البعض الآخر .. خوف العربي من العربي ، خوف الشقيق من الشقيق .. هو شاغل الناس .. هو شاغل الأساسي .. بل هو شاغل الأوجد عند الكثيرين .

أما القضية الفلسطينية فقد تراجعت ، ولم تعد أولى اهتمامات بعض العرب ، بل أغلب الظن أنها لم تعد في سلم اهتمامات بعض العرب ، ومما لاشك فيه أن من العوامل الهامة التي ساعدت في تراجع هذه القضية هو اقحام بعض القيادات الفلسطينية طرفا في الصراع بين العراق ، والكويت ، وبالتالي بين مؤيد للغزو ، والضم ، ومعارض لهما . في حدث خطير كهذا ، في حدث عربي خطير كهذا ، هل يمكن أن تقف سورية متفرجة لا رأى لها ، سورية التي لا رأى لها هي سورية غير موجودة ، وهذا لا نرضاه لأنفسنا ، ولا يتوقعه أحد منا ، خاصة أن القضية تعنينا وتعنينا في الصميم ، لأنها تهدد أمتنا بمبادئها ، وقيمها ، ومصالحها ، ومن هذه المبادئ ، والقيم ، والمصالح ، وعلى أساسها يكون الرأي السوري ، ويكون الموقف السوري .

« نحن لا ننحاز إلى هذا ، أو ذاك ، لا ننحاز إلى القوى ، أو الضعيف ، ولكننا ننحاز إلى الحق القومي ، والحق القومي كما أعنيه هو محصلة مبادئ ، وقيم ، ومصالح الأمة منسجمة ، ومتناغمة مع القوانين ، والأعراف الدولية العادلة التي أجمعت عليها الشعوب ، وكانت ثمرة كفاح طويل خاضته البشرية على امتداد حياة البشر ، وهذا الحق القومي يرتب أساسا للعلاقات العربية ، منها أن الخلافات العربية تحل بالحوار لا بالنار ، وهذا ما لم يحدث بين العراق ، والكويت بل العكس تماما . ولكن القول الذي استقر الرأي عليه أخيرا ، ويجرى ترديده بشكل مستمر ، ويُتَمَسَك

■ الفصل السابع

به من قبل اخواننا في العراق أن عملية الكويت ، واجتياح الكويت هي عملية تصحيح تاريخي ، أنه تصحيح للتاريخ لأن الكويت كما قالوا : كانت جزءا من العراق ، ويجب أن يعاد الجزء إلى الكل ، وأن يعاد الفرع إلى الأصل ، وقد اعيد الآن ، وانتهى الأمر . إن سورية ترى أن تصحيح ما اعوج من التاريخ العربي أمر مطلوب ، ومرغوب فيه ولكن ليس بالفرض ، ليس بالقسر ، ليس بالقهر ، بل بمشاركة الأطراف في الرؤية والفعل ، والا يكون الأمر اعوجاجا آخر أضيف إلى اعوجاج سابق أو أضيف إلى اعوجاجات سابقة ، من المؤسف أيها الرفاق هذا الواقع العربي الذي نرى فيه من يؤيد غزو دولة عربية .. دولة عربية أخرى ، من المؤسف أن نرى هذا الواقع العربي يبتعد عن المشكلة الحقيقية عندما يتحدث عن اللحظة الراهنة ، وعن الظروف الحاضرة ، وعندما يتحدث إلى ما كان وما يجب أن يكون ، فبدلا من أن يشير إلى المشكلة بعينها يحاول أن يبتعد ويتحدث عن نواتج المشكلة ، واهزاتاتها ، ويجعل من هذه النواتج والاهزات أصل المشكلة ، وهو يعرف بطبيعة الحال غير ذلك ، وإذ أقول أنه يعرف غير ذلك فإنني أشير إلى بعضهم ، وأنا أدرك أن الكثير من الذين يقعون في هذا الخطأ ، ويتحدثون عن المشكلة بغير حقيقتها ، وبغير أبعادها ، أكثر هؤلاء أبرياء تقود آراءهم بعض من مودة ، أو عواطف نحو هذا الطرف ، أو ذاك ، هؤلاء لا أركز اللوم عليهم الآن ، وإن كنت أطالبهم بمزيد من الروية ، والوعي والتبحر ، والتمعن ، والبحث عن الحقائق ، وعن الطرق المجدية القومية التي تخدم الأمة بمجموع أقطارها ، والتي ترسخ الانتماء القومي ، وتبعدنا عن التباعد القومي ، تساعد على التثام الجراح ، ولا تخلق ، وتعمق جراحا جديدة ، هذا ما أطالب به هؤلاء ، أما الذين يعرفون الحقائق ، والطرق المفيدة ، ويتحدثون بعكسها ، فهؤلاء الذين أقول لهم دعونا نحكم الضمائر ، وننظر إلى المستقبل ، يجب الاندع المصالح القريبية المباشرة الصغيرة تهزنا من الأعماق ، تغلق احساسات الضمير ، وتفتت الأمة أرضا ، وجماهيرا في المستقبل .

فالاطماع من كل صوب ، والطامعون من كل صوب ، فلنتجنب الجهل والجهالة ، ولنتجنب جاهليتتنا العربية ، والتي جاء الاسلام ليكافحها ، ويظهر نفوسنا منها .. وانني أرى ، وأحس ، ويحس كل مراقب عربي اننا نكاد نلج أبواب العودة إلى هذه الجاهلية ، مع ادراكنا أن جاهلية اليوم - ان عشناها - فهي بحكم التطور أبعد أثرا ، وأشد خطرا بكثير كثير من جاهلية الأمس .

نحن لسنا مع القوات الأجنبية ، سورية ليست مع وجود قوات أجنبية في أي مكان من الوطن العربي ، هكذا كانت في الماضي ، وهكذا سورية الآن ، ولكن مشكلتنا الملحة ليست القوات الأجنبية ، فقد بدأت المشكلة قبل أن تاتينا القوات الأجنبية ، والمشكلة هي التي جلبت لنا القوات الأجنبية . إذن لنحل مشكلتنا وهي مشكلة عربية . عربية ، وعندما نحل المشكلة العربية - العربية والتي هي احتلال الكويت ، وضم

■ أزمة الخليج وكبرىاء الفارس ■

الكويت ، بعد الغاء الدولة ، هي السبب الذى أعلنه الجميع من عرب وأجانب الذى بسببه ، ومن أجله ، وبناء عليه جاءت القوى الأجنبية إلى منطقتنا .

يجب ألا ينصرف ذهن أحد أبداً إلى أننا في سورية ننطلق من موقف العداء للعراق ، صحيح نحن مختلفون ، ومنذ زمن طويل ، ولكن موقفنا في مثل هذه الأمور - في أمور كالأمم الذى نحن بصدد - لا يمكن أن ينطلق من موقف خلاف ثنائى ، إنما ينطلق من رؤية تاريخية تبدأ في الماضى ، وتمتد إلى أعماق المستقبل ، تشمل المصالح العميقة ، والجزرية للأمة ، ونحن ، والعراق جزءان في هذه الأمة ، ومن هذه الأمة ، إنما ننطلق من الحرص على الأمة بكل أقطارها ، وأقول بكل وضوح إننا ما نظرنا إلى المصالح القطرية ، فإن في قولنا هذا تكمن مصلحة الشعب العراقى قبل مصلحة أى قطر آخر ، مهما يكن الخلاف فيما بيننا فنحن في النهاية أبناء أمة واحدة .

أننى أقول : أن الطريق أمام الغزو طريق مسدود ولا يمكن أن ينجح أبداً ، وطريق الغزو شئ ، وطريق الوحدة العربية شئ آخر ، وفي رأى أن طريق الوحدة مفتوح ولو جزئياً ، ومع ذلك أيضاً فهو طريق طويل ، طريق معبد بالتعب ، بالجهد ، ولكنه معبد أيضاً بالاخلاص ، والنوايا الحسنة ، وإرادة الجماهير ، فلنسر على طريق الوحدة العربية لا على طريق الضم العربى ، الأول سالك ولو بصعوبة ، ولكن الآخر مغلق بأية وسيلة ، بأى سبيل استخدمناه ، ويغض النظر عن نوايانا ، وعن الأسلحة التى نستخدمها في تحقيق هذه النوايا ، مادام الطريق هو طريق الغزو ، والضم .

نحن مؤمنون أنه في النهاية لابد من أن نكون جميعاً في دولة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط مادامنا أمة عربية واحدة .

وفي إطار التضييق ، أو في إطار الخطأ عند بعضهم ، يطرحون كيف يمكن لقوات عربية أن تكون على أرض العربية السعودية ، القوات الأجنبية موجودة في المملكة العربية السعودية ، تصوروا هذه المغالطة : كيف نكون نحن العرب على أرض العرب إذا كان على هذه الأرض أجانب !! لأن الأجانب موجودون على الأرض السعودية يجب أن يتركها العرب لهؤلاء الأجانب !! أليس غريباً أن يدعى البعض أن هذا المنطق هو المنطق القومى ؟!!!

إن الأمر كمن يمشى مقلوباً على رأسه ، يريدون منا أن نترك الخليج بكامله ، أن نترك عرب الخليج للأجانب الذين هم الآن على أرض الخليج ، أن وجود الأجانب هو حافز إضافي للعرب ، لكى يرسلوا قواتهم ، ومواطنيهم إلى هذه الأراضي العربية ، ولكن في كل الحالات ، العرب يجب أن يشاركوا في حماية أى شقيق عربى يشعر بالقلق ، والتهديد من قبل شقيق عربى آخر ، ليست الغاية هنا أن نحارب الشقيق الآخر المهدد ، وإنما أن نمنعه من العدوان ، وبهذا نساعدنا نحن في هذا ، ونحن فصيل ، أو مجموعة من

■ الفصل السابع

المجموعات العربية العسكرية الموجودة في المملكة العربية السعودية ، وفي الامارات المتحدة إلى جانب قوات عربية أخرى مصرية ، ومغربية ومن دول اسلامية ، نحن لهذا نقوم بعمل قومي ، وليس بعمل قطري إلا بقدر ارتباط العمل القطري بالعمل القومي ، أو ارتباط المصلحة القطرية بالمصلحة القومية ، فنحن قوميون ، نحن الذين نقوم بجراة وبدون موارد ، وبدون انتهاز ، بخدمة القومية العربية ، بالعمل القومي ، نحن نقوم بمساعدة الأخ عندما يكون في ضيق ، نحن نقوم بما يمكن أن يمنع الأخ من الاعتداء على أخيه ، وبالتالي نساعد الاثنين معا ، نحن نقوم بعمل يجعل هؤلاء المواطنين العرب الذين يعيشون في بلدان الخليج يشعرون أن الأجانب ليسوا هم حمايتهم إنما حمايتهم ، هم العرب ، حمايتهم هم الأقربون - نحن وغيرنا من العرب ، وليس الأجانب ، وبقدر ما نكون قوميين حقيقيين يجب أن ندفع بقوى عسكرية اضافية إلى العربية السعودية ، وإلى دول الخليج الأخرى ، إن أرادت ذلك ، لأن البلدان العربية هي التي يجب أن تحمي العرب ، وهي التي يجب أن تحل مع الوقت مع نمو هذه القوى ، وتطور الظروف ، هي التي يجب أن تحل محل القوى الأجنبية ، هذا هو الطريق ، وقد يكون أصعب الطرق لاجراء هذه القوى الأجنبية . هل نسي هؤلاء أن هذه الأرض التي يتحدثون عنها ، ويريدون منا ، ومن غيرنا من العرب أن نتركها أنها أرض عربية؟! هل نسي هؤلاء أن السكان الذين يعيشون على هذه الأرض أرض الخليج هم أيضا مواطنون عرب ، وعلينا أن نكون إلى جانبهم في حالتهم التي يشعرون فيها بصعوبة بالغة؟! هذا ، أكرر ليس كرها للآخرين ، ليس كرها لأحد من العرب الآخرين وليس حربا نعلنها على العرب الآخرين ، وإنما هي انتصار للجميع ، فنحن ننصر أخانا ظالما أو مظلوما ، ننصر الظالم بمنعه عن ارتكاب ومتابعة الظلم ، وننصر المظلوم بحيث ندفع عنه الظلم .

هذا ما تفعله سورية ، وهذا ما نطالب به كل عربي ، هذا ما يجب على كل عربي أن يفعله .

عندما كنا نقف في لبنان في وجه اسرائيل ، والولايات المتحدة ، وبريطانيا ، والقوات الفرنسية ، والايطالية ، وغيرها من قوات الأطلسي كان بعض أشقائنا شامتين ، وكانوا يقومون بأعمال تتناقض جذريا مع المصلحة العربية ، ومع التقاليد العربية ، ومع الخلق العربي ، ومع ذلك نحن لا تعشش في نفوسنا الاحقاد ، ونحن لن نقف عند هذه الأمور ، سنظل نعطف ، ونتعاطف مع الشقيق ، ونعمل من أجل مصلحته ، كما نعمل من أجل مصلحتنا ، ولكن باقتناعنا ، ووفق رؤيتنا ، لن يجزنا أحد أبدا إلى عكس ما نحن به قانعون ، اننى أدعو الجميع ، وأمد يدي باسمكم ، وباسم شعبنا للجميع أن نضع الاحقاد جانبا ، وأن نقف معا صفا واحدا يرفرف عليه الحب ، ويرفرف عليه وفوقه التعاون ، لنبنى تضامنا عربيا ، ونعمق الأخوة العربية ، وندفع الاعماق الوجدانية

■ أزمة الخليج وعبرياء الفارس ■

للوحدة العربية على أن ننطلق في كل هذا من مواقع صحيحة ، ومن خطى أولية صحيحة ، ومن أولى هذه الخطى ألا يكون بيننا معتد ، ومعتدى عليه ، وأمل وأرجو الله أن يهدينا جميعا إلى سواء السبيل .

مباحثات مع إيران

وكان لابد من تدارس أبعاد الخطر مع الجارة المسلمة إيران التي تقع وسط الأزمة فزارها الرئيس الأسد في ٢٢/٩/١٩٩٠ ، وأجرى خلالها مباحثات مطولة ، وواسعة مع المسئولين في الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، ثم صدر في ختام المباحثات بيان عكس رؤية الرئيسين للمخاطر التي تهدد العرب ، والمسلمين من جراء الأزمة ، كما أجرى الرئيس الأسد اتصالات ومشاورات دولية مع الرئيس « تورجوت أوزال » واستقبل « بريماكوف » المبعوث الشخصي للرئيس جورباتشوف ، وعلى الجانب الآخر كان الرئيس الأسد يُنبئ إلى الأساليب التي تلجأ إليها إسرائيل لاستغلال الأزمة ، والحصول على الدعم العسكري ، والاقتصادي ، والسياسي من الولايات المتحدة .

لقاء الأسد وبوش

وبتاريخ ٢١/١١/١٩٩٠ قام الرئيس الأمريكي جورج بوش بزيارة للمنطقة زار خلالها جدة ، وفي ختام جولته وصل إلى جنيف ليلتقي مع الرئيس الأسد ، ويقوم الرئيسان بمناقشة موضوع أزمة الخليج ، حيث أكد الرئيسان على تنفيذ قرار القمة العربية الطارئة وقرارات الأمم المتحدة القاضية بانسحاب العراق من الكويت ، كما ناقشنا موضوع الصراع العربي الإسرائيلي ، وأكدنا على ضرورة إيجاد حل شامل ، وعادل ، على أساس قرارات مجلس الأمن وخاصة القرارين ٢٤٢ و ٢٣٨ الصادرين عن مجلس الأمن ، ومع تفاقم الأزمة تابع الرئيس الأسد تحركاته المكثفة في كل الاتجاهات بهدف تجنب العراق ، والأمة العربية المخاطر المحتملة للحرب ، وكان من هذه التحركات انعقاد مؤتمر قمة رباعي بين رؤساء مصر ، وسورية ، وليبيا ، والسودان في ٤ يناير ١٩٩١ في مصراته بليليا حيث ركزت هذه القمة على هدف وحيد وهو الوصول إلى حل سلمي للأزمة يجنب الأمة العربية الخطر الوشيك ، في تلك القمة تأكد للجميع أن كل الجهود والوساطات العربية والدولية لم تُجد مع صدام حسين وأنه يقود بلاده والأمة العربية نحو كارثة مروعة خاصة أن مجلس الأمن كان قد أعطى العراق فرصة أخيرة لتنفيذ قراراته تنتهي في ١٥ يناير ١٩٩١ ، وكان لابد للرئيس الأسد أن يسمو فوق كل الجراح وفوق كل الخلافات لإنقاذ الأمة العربية من الخطر الداهم ، واتخذ الرئيس الأسد خطوة قومية وتاريخية حين وجه عبر الأثير رسالته مليئة بالمشاعر الأخوية الصافية ،

والأحاسيس القومية الصادقة إلى الرئيس العراقي ، وقد كان لهذه الرسالة أبلغ الأثر في نفوس أبناء الأمة العربية ، وكان الرد المؤسف والمحزن على الرسالة من جانب الرئيس العراقي ، صدام حسين ،

نص رسالة الرئيس الأسد إلى الرئيس العراقي صدام حسين

في الثاني عشر من كانون الثاني / يناير عام ١٩٩١ قبل انقضاء المهلة المتاحة بأكثر من يومين توجه الرئيس حافظ الأسد إلى الرئيس العراقي برسالة أخوية ملؤها المشاعر الصادقة داعيا إلى تجنب العراق والأمة العربية كارثة وشيكة ، وفيما يلي نص الرسالة :

« السيد الرئيس صدام حسين . رئيس الجمهورية العراقية : بمشاعر أخوية صافية ، وأحاسيس قومية صادقة ، ومن منطلق إدراك الأخطار المحدقة بالوطن العربي عامة ، وبالعراق الشقيق خاصة ، أتوجه إليكم بهذه الرسالة عبر الأثير حرصا على أن نجنب الأمة والعراق ما لا تحمد عقباه ، وكل أمل في أن تلقى رسالتي منكم التفهم لحقيقة دوافعي ، والاستجابة التي أتوخاها ، وفي هذا الظرف الدقيق الذي يجتازه الوطن العربي ، والذي ترصده وتتابع تطورات جواهر أمتنا ، وشعوب العالم ، وحكوماته باهتمام ، وقلق بالغين ، لا أجد مدخلا إلى مخاطبتكم أفضل من تأكيد وشائج الأخوة التي تجمع بين شعبينا في سورية والعراق ، وتأكيد اقتناعي بأن حرصنا الدائم في البلدين الشقيقين يجب أن يتركز في مواجهة التحديات ، والأخطار التي تتعرض لها الأمة العربية .

لقد عزمنا أن أتوجه إليكم بهذه الرسالة على رغم ما بيننا منذ سنوات عدة من خلافات في وجهات النظر وعلاقة غير ودية ، أمل في أن تتبدل إلى ما هو خير وأنفع لبلدينا وأمتنا ، فما نحن بصدد فرض علينا أن نتصارع وأن نتبادل الرأي ، فأى أذى يصيب العراق هو في نهاية الأمر أذى يصيب بشكل من الأشكال سورية والأمة العربية . وعندما نرى أن العراق يواجه خطرا جديا كما هو الحال الآن ، فإن الخلافات بين قطرين شقيقين تضحل وتزول ، لأن ما يجمع بيننا أكبر وأهم كثيرا من أية خلافات ومكاسب أنية تتراعى لنا ، هذا إذا صح أن نقول أننا أمام أية مكاسب . وإدراك جدية الخطر يدفع المرء إلى الحديث بالصراحة التي تمر بها الروابط الأخوية والقومية . بيد أنني أبادر من البداية إلى الاعراب عن أمل في ألا يفهم كلامي على أنني أريد الإحراج ، بل أن جل همي أن أخاطب الضمائر ، وغايتي أن تتفاعل العقول ، والعواطف ، وأن تسمو الأفكار ، والأفعال إلى ما يحقق المصلحة القومية العليا ، ويُقَوِّت

■ أزمة الخليج وكبرياء الفارس ■

على أعداء أمتنا فرصة لا يمكن أن يحلموا بأفضل منها ، لاسيما أن هذه الفرصة تأتيهم بفعلنا وبقرار منا ، ولذلك ينبغي أن نحذفها تماما ، بفعلنا وبقرار منا ، غير مكرهين ولا خائفين من أحد ، بل منطلقين من إيماننا بضرورة هذا الفعل وهذا القرار ، وهذا هو دور العراق الشجاع في هذه اللحظات . وهكذا لا نسمح لأعداء الأمة أن يجنوا أية فائدة عن طريق استغلال هذه الفرصة .

ومهما كان العربي يمر في ظروف يعتقد أنها حساسة ، فذلك لا يمنعه من الاستماع إلى صوت أخوانه الحريصين عليه .

إن المصلحة العربية تعنينا ، ومصصلحة العراق تعنينا ، فكلانا جزء من الأمة العربية ، ومن هنا تكون الشراكة في الرأي تنبثق من الشراكة في التاريخ ، والشراكة في التراث ، والشراكة في الحضارة ، والشراكة في اللغة ، والشراكة في القيم الروحية ، والشراكة في الآلام والأمال ، والشراكة في المصير ، والشراكة في كل ما يعنيه انتمائنا إلى الأمة العربية التي انطلقت من أرضها رسالات السماء وبهرت العالم بما قدمت من فكر وعلم ومثل ، وعلى ذلك فإن المشاركة فيما نحن فيه ، قولاً وفعلًا هي لنا وعلينا حق وواجب .

ومن هنا يصبح واجب الأخ أن يوصل كلمته إلى أخيه الذي بدوره يصبح من واجبه أن يسمع كلمة أخيه بأقوى احساساته وبذهن مفتوح ، لأن كليهما شريكان في المصير ومن سمع كلمة أخيه ما أصابه خسران ولا خاب عنده ظن .

وإذا كنت أشدد على الخطر الجدي الذي تواجهه الأمة عامة والعراق خاصة ، وادعو إلى تفويت الفرصة على الأعداء ، فلسيت في صدد مناقشة وجه الحق ووجه الباطل في اجتياح العراق للكوييت ، فهذه مسألة أخرى ليس هذا مكان ولا أوان مناقشتها ، وإنما المهم في الظرف الراهن هو ما نواجهه من وضع خطر وخطر يهدد العراق ، إن حرصنا على العراق بأرضه وشعبه كحرصنا على أنفسنا لأن العراق جزء عزيز غال من أرض العرب وأمة العرب .

إن المستفيد من الوضع في هذه اللحظات هي إسرائيل التي تحتل أراضى عربية وتخطط وتعمل للتوسع في أرض العرب ، وتستفيد من الوضع الدولي الحالي والتناقض العربي ، في حين أن العرب ، مجتمعين ومنفردين وفي مقدمتهم العراق هم الخاسرون ، ولا أرى أن لأحد من العرب مصلحة فيما يحدث الآن ولا أرى أن للعراق مصلحة فيه .

إن المصلحة الأساسية للأمة العربية ، وخاصة في هذه المرحلة التاريخية ، هي في التماسك والتضامن الحقيقي ، وأن يوفر كل بلد عربي الطمأنينة للبلد العربي الآخر ، حتى ولو كان بينهما خلافات في موضوع أو أكثر من الموضوعات العربية ، لا أريد أن أصدق أن الشعور عند العرب بوحدة المصير قد زال ، أو أن التضامن بين العرب قد صار في حيز المستحيل ، بل أريد أنؤكد أن فداحة الخطر كفيلة بأن تعزز الشعور بوحدة

■ الفصل السابع

المصير ، وكفيلة بأن تدفع إلى التضامن العربى ، وإلى حل الخلافات العربية بالحوار لا بالقسر .

واريد أن أؤكد خاصة أن مسئولية العراق ، وسوريا ، ودول عربية أخرى هي المساعدة في توفير الطمأنينة ، والشعور بالأمن للدول العربية المجاورة لها ، ولو برزت خلافات بين حين وآخر ، لأن هذه الخلافات يمكن معالجتها بالحوار ، وبما يعزز الثقة ويبعد خوف أى بلد عربى من الآخر ، وهذا يساعد في تعميق روح الأخوة وتحقيق التضامن العربى الفعال ، ويشكل خطوة هامة على الطريق نحو وحدة عربية مستقبلية ، تتحقق بالاقتناع ، وبالإيمان بأن خلاص الأمة في وحدتها .

إن المستقبل أمامنا مفتوح لتوحيد الأمة كلها ، وأمتنا أمة عظيمة بذاتها وبرسالتها وراثتها وبوفرة امكاناتها ، وهى قادرة على أن تقدم لنفسها ، وللعالم مثلما قدمت في الماضى من اشعاع روحى ، وفكرى اغتنت به البشرية .

السيد الرئيس صدام حسين :

إن صعوبة الواقع الراهن في الوطن العربى وتعقيده وما يحمله من أخطار ناجمة عن دخول العراق إلى الكويت ، وضمها بالقوة ، وإلغاء وجود الكويت كدولة مستقلة عضو في جامعة الدول العربية ، وفي منظمة الأمم المتحدة ، وهذا ما لا نعتقد أنه تصرف مشروع ، ولا يحق للعراق أن يقدم عليه ، ولو من وجهة نظر وحدوية لأن أسلوب القوة والعنف ليس بالأسلوب الصالح والملائم لتحقيق الوحدة بل هو سبب لعرقلة أى عمل وحدوى والنفور منه .

فليكن إذن انسحاب العراق من الكويت مقدمة لجو جديد تتلاشى فيه الاخطار الجدية ونقف فيه صفا واحدا ، وقوة واحدة في وجه كل من يهدد أرضنا ، ومصالحنا وكرامتنا ، ومصيرنا .

وقد يقول قائل ، إن العراق سيكون مستهدفا بهجوم حتى لو خرج من الكويت . اننى أريد أن أؤكد في هذا الشأن عهداً أخوياً لاشك فيه : أنه لو حدث ذلك بعد الخروج من الكويت فإن سورية ستقف بكل امكاناتها المادية والمعنوية إلى جانب العراق في خندق واحد ، تقاوم معه بكل شدة وبأس إلى أن يتحقق النصر .

السيد الرئيس صدام حسين :

مصلحة الأمة فوق كل مصلحة ، وفي سبيلها تهون كل تضحية ، ومواجهة الخطر تكون بالقرار الصائب ، وهذا ما هو منتظر منكم .

وإن قرارا تتخذونه الآن بنزع فتيل الأزمة وتجنب العراق والوطن العربى أخطار

■ أزمة الخليج وكبرىء الفارس ■

حرب مدمرة سيسجل لكم أنه عمل شجاع مناسب في لحظة مناسبة . والله نسأل أن يلهمنا الصواب ، ويهدينا سواء السبيل . والسلام عليكم ورحمة الله
دمشق في ١٢ كانون الثاني ١٩٩١ .

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

رد من صدام

وبتاريخ ١٣ كانون الثاني : يناير ١٩٩١ كان الرد المؤسف من الرئيس العراقي صدام حسين الذي أطلق على نفسه اسم (عبدالله المؤمن صدام حسين) ، والذي ادعى فيه أن جيش العراق هو المؤمن الذي لا يستطيع غيره أن ينازل جميع الكفار .

وإذا كانت رسالة الرئيس الأسد قد عكست واقعية وصوابية الموقف العربي فإن رسالة صدام حسين قد أكدت ديماء جوجيته وسوء التبصر والبصيرة لديه ، حيث أصم أذنيه إزاء نصيحة شقيق أسدى إليه النصح الأخوى ، ووقع في تناقضات قاتلة ..

أكاذيب كشفتها الحقائق

وبالنتيجة فإن رد صدام حسين تعامى عن كل الحقائق ، ولكن هذا لم يعرف سورية عن رؤيتها القومية ، ولم يغير موقفها من شعب العراق وأرض العراق ، والدليل على ذلك تصدى سورية لكل الاطماع الخارجية لدى بعض الدول مثل تركيا في اقتطاع أجزاء من العراق خلال الحرب أو ما بعدها ، ولم يتوقف جهد الرئيس الأسد لإنقاذ العراق وشعبه وجيشه عند حدود البيانات العلنية ، بل استمر عبر الألفية الدبلوماسية المختلفة في الاتصال مع الجهات الصانعة القرار في العالم بالإضافة إلى الجهود الدولية التي كانت تُبذل لتفادي حصول الكارثة في الخليج ، ومرة أخرى بعث الرئيس حافظ الأسد برسائل غير معلنة ، وعلى أعلى مستوى إلى صدام حسين يعرض فيها عليه استعداد سورية للعمل من أجل انقاذ العراق ، وإيجاد مخرج مشرف من الأزمة ، وذلك من أجل اغلاق الأبواب أمام الاحتمالات الأسوأ ، ولقد كشف عن هذه الرسائل بريماكوف المبعوث الشخصي للرئيس جورباتشوف في سلسلة المقالات التي كتبها عن المهمة التي قام بها في بغداد وغيرها خلال أزمة الخليج ، وبين هذه الرسائل رسالة هامة يدعو فيها إلى إعلان قبوله مبدأ الانسحاب من الكويت كي تعمل سورية على الدعوة

■ الفصل السابع

لقد مؤتمر قمة عربى يهيم الأجراء المناسبة للخروج من الكويت ، وحماية العراق من الخطر الداهم ، لكن صدام حسين لم يستجب لهذا المسعى القومى .

نتائج كارثية

ولقد تتابعت الأحداث المأسوية العاصفة حيث أدى تعنت صدام حسين ، واصراره على المضى فى طريق الكارثة الى رفض كل المساعى العربية والدولية لايجاد مخرج معقول . وتتابع أحداث العاصفة على النحو المعروف ، ولم يستطع أحد فى تلك الفترة عمل أى شئ ، وكان الهم ثقيلًا مدمرًا لكل عربى إلى أن كان يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٩١ حين أعلن وقف إطلاق النار ، وبدأت مرحلة استيعاب النتائج الكارثية لتلك الحرب المؤلمة التى دفع العراق فيها ، والأمة العربية ثمنًا باهظًا ، وبغير مقابل ، ولقد عبر الرئيس الأسد فى ذلك اللقاء عن مشاعره ازاء الوضع الذى آلت إليه الأمور نتيجة الأمور الطائشة لصدام حسين ، ولقد تناول الرئيس الأسد فى كلمته أثناء مأدبة الإفطار التى أقامها تكريمًا للعلماء وأرباب الشعائر الدينية بمناسبة شهر رمضان المبارك بتاريخ ١٣ إبريل ١٩٩١ الآثار والعبر التى خلفتها حرب الخليج ، والجهود التى بذلتها سورية لتجنيب العراق الذى هو عليه الآن ، وتجنيب سورية والأمة العربية ما كان أعداء العرب يريدونه لها ، مؤكداً أن اسرائيل ، ومن وراءها لم يكن ممكناً أن يحلموا بفرصة ذهبية كالتى قدمها حاكم عربى مسلم ، وبصورة مفاجئة .

عمالة صدام

وفى حوار أجريته مع العماد مصطفى طلاس نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع السوري إبان حرب الخليج ، ونُشر فى صحيفة أخبار اليوم فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦ يناير (كانون ثانى) ١٩٩١ قال وهو يتحدث عن دوافع صدام حسين من خلال معرفته به لاحتلال الكويت وتحدى العالم ، ومعاداة الدنيا كلها بهذا الشكل ، قال طلاس :

« أريد أن أوضح حقيقة هامة لله وللتاريخ وهى أن الرئيس الراحل جمال عبدالناصر كان أول من نبهنا إلى عمالة صدام حسين لأمريكا ، وأذكر أننى عندما جئت إلى مصر للمشاركة فى تعزيزية الشعب المصرى فى استشهاد عبدالمنعم رياض ، وكنت وقتها رئيساً لأركان الجيش السوري ، اننى قابلت الرئيس عبدالناصر بمنزله بمنشية البكرى ، وبعد تقديم العزاء مباشرة استبقانى الرئيس عبدالناصر قائلاً : سوف أقابل رئيس الأركان الأردنى لمدة خمس دقائق ثم أعود لكى أستمع منك عن الوضع فى سورية .

■ أزمة الخليج وكبرىاء الطراس ■

استمر اللقاء مع عبدالناصر خمس ساعات ونصف الساعة ، وفي نهاية اللقاء قال لي خلى الاخ حافظ الاسد « وكان وقتها وزيرا للدفاع » : يأخذ حذره من صدام حسين .. كان صدام حسين قد تسلم السلطة منذ ٨ شهور تقريبا في حركة ١٧ تموز .. قلت للرئيس عبدالناصر : صدام حسين رفيق حزبي ، وكان عندنا في سورية ، وعلى الفور قال عبدالناصر : وكان عندنا أيضا في مصر ، ومعلوماتي عنه أفضل من معلوماتك ، .. فقد كنا نراقبه في القاهرة عندما كان طالبا في كلية الحقوق ، وبعد أن حامت حوله الشبهات .. وأرجو أن تنبه الاخ حافظ الاسد بأن هذا المناضل الحزبي مُخترق من المخابرات الأمريكية ، وبالطبع نقلت هذا الكلام للرئيس حافظ الاسد .. إذن تعامل صدام مع الغرب تعامل قديم منذ عام ١٩٦٢ ، ولكن غلطة صدام أنه لم يعرف الحدود المسموح له بها » .

أضاف العماد طلاس يقول : « وكانت حرب الخليج لازالت مشتعلة وقت اجراء المقابلة) قد تدوم حرب الخليج اياما أو بضعة أسابيع ، لكنها لن تطول مثل حرب فيتنام حيث كان الامر مختلفا وأنا زرت فيتنام أثناء المعارك ، كان لهم أصدقاء يقدمون لهم السلاح مثل روسيا وكوريا والصين وكل الدول الاشتراكية وكان الروس يتولون تشغيل أطقم الدفاع ، أما صدام فإنه يعادى كل الدنيا ، حتى أكبر صديق له وهو الملك حسين لم يوافق على أن يؤجر له مطارا يضع فيه سربا من الطائرات .. كل الجيران يعادونه فكيف يستطيع أن ينتصر !!١٩.. لقد دخل معركة خاسرة منذ البداية ، خسرها عندما رفض أى كويتي أن يتعامل معه ، وخسرها عندما رفضت الدنيا بأسرها هذا الامر الذى حاول فرضه ، وكيف يمكن لكويتي أن يقبل بحكم صدام حسين الذى يقتل بنفسه كل من يعارضه .. خذ مثلا وزير الصحة العراقي لمجرد أنه رفض ادخال السموم للعراق ضمن ما تستورده من أدوية قتله في غرفة مكتبه ، وأنتم في مصر تعرفون كيف كان يرسل الشباب المصرى الذى ساهم في المصانع والمزارع خلال حربه مع ايران ، كيف كان يرسلهم في صناديق مغلقة ... القتل هوايته ، نسف طائرة وزير دفاعه عدنان خيرالله بخمسة أصابع ديناميت لمجرد أن البعض بدأ يُشير إلى دوره في المعارك مع ايران علما بأن الذى انتصر على ايران هو السلاح الأمريكى الذى ظل صدام حسين يزعم أمام العرب أنه لحماية البوابة الشرقية ، وبعد ٨ سنوات من القتال عاد للاتفاق مع ايران الذى سبق أن مزقه أمام التليفزيون عام ١٩٧٥ ...

صدام حسين باحتلاله الكويت أراد أن يغطي اخفاقه في ايران ، فقد طلبوا منه أن يتراجع في ايران عن كل شيء احتله لأن أمريكا لا تسمح له أن يغير توازنات المنطقة كيفما شاء ، ولقد اعتقد أنه بعد أن نفذ المطلوب ، وتراجع عن ايران ، فإنهم سيوافقون على ضم الكويت كمكافأة ، ولكن حساباته كانت خاطئة » .

استطرد العماد طلاس قائلا: « أقول بكل ألم لقد وضع صدام الجيش العراقي في محرقة لن يستفيد منها سوى اسرائيل ، ولكي يُبعد نفسه عن عشرات الاتهامات أراد أن يخلط الأوراق فأطلق بضعه صواريخ على اسرائيل .. إن صدام حسين الذي يقول : إنه يريد أن يحرر فلسطين أجرى إتصاليين مع اسرائيل سجلتهما أجهزتنا ، حاول خلالهما جس نبض رابين عن مدى الامكانية في دعم عون ، وطلب من رابين أن يمرر الأسلحة للجنرال عون ، وعندما سُئل رابين .. ألا يخشى من الأسلحة التي يقدمها صدام لعون ؟ قال : أبدا لأن صدام يقدم الأسلحة لعون لكي يقتل بها السوريين ، ولا ضرر على اسرائيل ... وهكذا يحاول صدام حسين أن يقنعنا بأنه يريد أن يحرر فلسطين في الوقت الذي وقف ويقف ضد كل مسعى جاد يستهدف راب الشرخ العربي . »

ولقد كشف لي العماد طلاس في معرض الحديث عن تعامل صدام القديم مع الغرب. كشف عنه عندما قامت ثورة ايران واعتقلت موظفين من السفارة الأمريكية أراد بضرته وكان متوهما أنه في عدة أيام « خمسة أيام » يستطيع « أن يصل إلى طهران ويأخذ المحتجزين الأمريكيين ويقدمهم هدية للرئيس كارتر في عيد الميلاد لكن ايران خيبت آماله ، ولم يستطيع في ٨ سنوات أن يفعل شيئا ، ولم يكن يستطيع ذلك لو كان الجيش الايراني قد ظل كما كان عليه الحال أيام الشاه .. ولكنه استغل أن الثورة حلت الجيش الايراني وأصبح الناس يقاتلون دون تجربة ثم لا تنس الدعم الأمريكي والغربي لصدام حسين .. خمسون طيارا فرنسيا شاركوا معه ، الطائرات السوبر أعيرت له من فرنسا .. إذن كانت معركة غربية والرئيس ميتران لم يخف هذا الشيء ، وعندما قالوا له كيف تقول عن صدام حسين أنه اراهبى وأنت بعت له أسلحة بستة وتسعين مليار فرنك فرنسى فقال ميتران للبرلمان الفرنسى : لقد بعت له هذه الأسلحة حتى أحى فرنسا ، وأحى الغرب من الثورة الاسلامية القادمة من الشرق .. إذن صدام حسين كان يريد أن يتولى دور الشرطى في المنطقة .. ربما يتبادر سؤال : هل كان هناك أمر خطى لصدام حسين أن يشن حربه على ايران ؟ والجواب لا يوجد مثل هذا الأمر ، ولكن صدام حسين يعرف ماذا يرضى أمريكا ، وحين يعلن الحرب على ايران فإنه ليس في حاجة لاستئذان أمريكا لأن ايران تحتجزهائن أمريكية ، وهى كل يوم تصف أمريكا بأنها الشيطان الأكبر ، أما الشيطان الأصغر فهو روسيا ، وكان الخميني يشتم الدولتين العظميين كل يوم .. إذن صدام حسين قام بعمله لصالح الغرب ، ولصالح الولايات المتحدة أساسا ، وإلا لما فتحت له كل أبواب التسليح . وإلى جانب كل الأسلحة التي حصل عليها صدام حسين من الولايات المتحدة فإن دول الغرب هى التي طورت له كل ما لديه من أسلحة ، ولكن غلطة صدام حسين الكبرى ، والتي لا تغتفر له أنه لم يفتن إلى أن .. أمريكا لن تسمح له باللعب حتى نهاية الشوط ، ولأنه إذا استولى على

■ أزمة الخليج وكبرى الطامس ■

الكويت وتطلع بعد ذلك إلى الساحل الشرقى للخليج العربى فسوف يصبح مسيطرا على ٧٠٪ من ثروات النفط العربى ، وهذا الشيء لا تسمح به أمريكا .

سورية كلها فى مواجهة الأزمة

نعود الآن فنقول :

إنه منذ أن تفاقم أزمة الخليج ، وحلت الكارثة سارعت الهيئات الحكومية ، والدوائر السياسية فى سورية إلى تأكيد الدعوة لموقف عربى متضامن على أساس مبدئى ، وبما يكفل حفظ الحق العربى لكل أفراد الشعب العربى ، وفى هذا الاطار كان دور مجلس الشعب ، ودور الحكومة ، ومختلف الدوائر السياسية دورا كبيرا فى التنبيه إلى مغبة التراخى والتعاس عن مواجهة الخطر فى حينه أو التقليل من شأنه .

فإذا كانت نتائج هذه الأزمة لاتزال فى تفاعل ، وتوالد مستمرين وقد يمضى وقت طويل حتى تتوقف هذه النتائج عن التوالد والتفاعل ، كذلك فإنه ليس من أهدافنا فى هذه الصفحات الخوض فى هذا الجانب لأن الخسائر المادية هائلة ولم تبلغ سقفها حتى الآن ، ويكفى كإشارة عابرة لهذا الجانب أن نقول أن الدراسات الغربية أكدت أن كلفة الحرب بالنسبة للعراق بما فى ذلك الخسائر فى العتاد الحربى والتبادل التجارى يصل إلى ٤٠٠ مليار دولار وأن عدد الجنود الذين قضوا فى المعركة يقترب من مائتى ألف جندى ، وحين تضاف إلى الأرقام خسائر الكويت وبقية دول الخليج والاقطار العربية فإن الأرقام ستكون خيالية ومروعة دون شك .

وإذا نظرنا إلى النتائج المعنوية ، والاستراتيجية التى هى أعمق ، وأخطر سنجد أن من أهداف أزمة الخليج ، والحرب التى نشبت بسببها إعادة رسم خرائط جديدة للمنطقة ، ولأن نتائج الحرب لم تنته بعد فإن هذه الحرب عمقت دون شك الفجوة بين أبناء الأمة العربية منعا لتحقيق أى شكل من أشكال التضامن العربى وسعيا وراء قتل أى تطلع شعبى للوحدة عن طريق القضاء على مفهوم القومية العربية ، وهكذا فإن هذه الحرب أرادت أن تثبت الهويات القطرية الى فترة ليست قصيرة ، وهو هدف استعمارى صهيونى قديم ، ومما يؤسف له حقا أن بوادر استجابة لهذا التوجه بدأت تظهر فى بعض الاقطار العربية بفعل الحرب وبتشجيع مبطن ومعلن أحيانا فى بعض الدوائر الغربية ، ومن الأمثلة على ذلك ما اقترحه بعض المسئولين الفرنسيين لالغاء مصطلح الوطن العربى واستبداله بمصطلح الدول العربية .

ولكى ندرك المستوى الذى بلغه هذا الهدف ، علينا أن نقارن بين حالة التضامن العربى على تواضعها قبل الحرب وبعدها ، ومن نتائج هذه الحرب أيضا على المستوى

الاستراتيجى هو أن الأمة العربية فقدت قوة عسكرية أساسية ضاربة ، وفى عصر تدوفيه القوة انها لا تزال هى الأساس فى تقرير مصائر الأمم ، وقد تكون سورية هى المتضرر الأكبر فى هذا المجال ، لأن العراق كان يشكل عمقا استراتيجيا هاما لسورية ، كان يمكن لهذا العمق أن يمتد ليشمل إيران بما تجسده من موقف اسلامى مخلص تجاه قضية الصراع مع الصهيونية .

أما فلسطين فهى دون شك أكثر المتضررين بعد العراق والكويت ، حيث فقدت الضفة الغربية وقطاع غزة الكثير من موارد التمويل التى كانت تأتىها من دول الخليج بسبب الحرب من جهة ، ومن جهة لأن عدداً كبيراً من الفلسطينيين تأثر بالاجراءات التى اتخذتها دول الخليج نتيجة تأييد بعض قادة منظمة التحرير لصدام حسين خلال الأزمة ، ومن الناحية السياسية فقد تعرضت الانتفاضة الباسلة لأضرار بالغة بعد أن شددت سلطات الاحتلال قبضتها خلال الأزمة على الأرض المحتلة ، ونجم عن ذلك تعطيل كبير للعمل ، نجمت عنه خسائر اقتصادية هامة ، كما أن اهتمام العالم بالانتفاضة تراجع كثيراً خلال الأزمة ، وفتر التعاطف الدولى معها للاعتقاد الذى ساد أثناء الأزمة بأن موقفها من حرب الخليج كان مستمداً من موقف قيادة المنظمة .

أما على صعيد التضامن العربى فقد تسببت هذه الأزمة وتداعياتها فى انهيارات عبرت عن نفسها رسمياً فى الانقسامات التى شهدتها الجامعة العربية أثناء الأزمة ، والتى أدت إلى استقالة الشاذلى القليبي الأمين العام السالف للجامعة . ومن المؤكد أن أكبر المتضررين هم الأشقاء العراقيون وجيشهم ذلك أن القوات الدولية لم تكتف بضرب الأهداف العسكرية بل والبنية التحتية للمدن العراقية ، وخاصة مدينة بغداد التى دمرت ، كما أن أهدافاً غير عسكرية مثل المتحف الوطنى العراقى قد ضربت ، ولاشك أن العقوبات الاقتصادية الدولية المستمرة وضعت الأشقاء العراقيين بين سندان الجوع والمرض ، ومطرقة النظام الذى لم يغير أساليبه القمعية .

احتضان المعارضة العراقية

واستمرارا للبور السورى فى دعم الشعب العراقى الشقيق ومساندته ، فقد كان من الطبيعى أن تكون سورية بيتاً للمعارضة العراقية لممارسة نشاطها بحرية كاملة ، ودون أى تدخل ، والأمثلة على هذا كثيرة ومتعددة ، والواقع كما يقول الكاتب العراقى حسن العلوى فإن من الحقائق التاريخية المعروفة إنه إذا تخاصم العراقى مع زوجته فإنه يتوجه إلى الشام ليستريح ، وإذا اختلف الوزير العراقى مع مجلس الوزراء فإنه يتركه ليتجه إلى سورية ، وهذه حقيقة معروفة منذ قيام الدولة العراقية عام ١٩٢١ ، وقد قال الشاعر الجواهري تأكيداً لهذه الحقيقة .

إنسى شامى إذا نُسب الهوى وإذا نُسبت لموطنى فمعراق

هناك هوى شامى عند العراقى ، ربما للقرب الجغرافى ، وربما لأن سورية لا تسأل القادم إليها عن هويته أو تطلب منه تأشيرة دخول ، وهذه المسألة موجودة قبل الرئيس الأسد .. أثناء الصراع بين العراق الملكى ، وبين عبد الناصر ، وهو الصراع الذى دخلت سورية طرفاً فيه مع عبد الناصر فى مواجهة حلف بغداد ، ودفعت الكثير ، وتعرضت لعدد من المحاولات الانقلابية .. إذن هناك عراقية فى العلاقات بين العراق وسورية سواء كمواطنين أو سياسيين .

الذين عارضوا نوري السعيد جاءوا إلى سورية .. الذين عارضوا عبد الكريم قاسم .. الذين عارضوا صدام حسين جاءوا إلى سورية ، والذى يأتى إلى سورية قد لا يكون بعثياً ، بل قد يكون من خصوم حزب البعث ، هناك وزراء من العهد الملكى ، وهناك وزراء قوميين ضد حزب البعث ، وهناك إسلاميون جاءوا إلى سورية ، ويوجد فى سورية حوالى ربع مليون عراقى ، وحين حوصر العراق أغضت السلطات السورية أعينها عن شاحنات الطعام التى تدخل العراق ، واعتبروا هذا واجباً قومياً يقومون به ..

الجوار الجغرافى يتسع وفقاً للنظرية القومية .. فى سورية حزب قومى ، وقيادة قومية وفى القيادة القومية هناك قيادة عراقية قطرية .. هناك مكتب لشئون العراق يربى العراقيين فى ظل إغلاق سفارتهم ، يقوم بكافة الأعمال القنصلية ، هذا الشيء غير موجود فى أى بلد عربى .

ولكن كيف فهم الرئيس حافظ الأسد العلاقات السورية - العراقية ، وكيف تعامل معها ؟ يجيب حسن العلوى بقوله : أجيب وأنا أعلم أن نقصاً فى مصداقيتى سيرتبط بجغرافية المنطقة ، وأنا أعيش فى سورية ، ومعنى هذا فإن أية إشارة إيجابية فى صالح سورية ، أو فى صالح الرئيس الأسد ستدخل فى سياق المجاملة ، أو النفاق ، أو حلف الرنق .. الواقع أن القادم لسورية من العراق يأخذ موقفاً ، ولا يأخذ أى امتياز ، بينما الذهاب من سورية إلى العراق ، يأخذ الامتياز والمواقع ، وتفتح له الخزائن ، نحن هنا ننفق من جيوبنا .. أنا مثلاً أحمل أكثر من جواز ، من أسبانيا ، ومن بريطانيا ، ومن السعودية ولدى إقامة فى كل هذه الدول لكنى أرتبط مع سورية على قاعدة أنها البقية الباقية من الأرض القومية التى تفتح المطار دون أن تسأل القادم إليها إذا كان يحمل تأشيرة أم لا ، يدخل القادم إلى المدرسة ، والجامعة ، ويمتلك السيارة ، والدار كأنه سورى .. الواقع القومى لسورية يشد الكثيرين من أمثالى ، ومن هنا فإن ما أذكره جواباً على سؤالك يدخل فى سياق التجرد الكامل من أى مصلحة ، ولدى شواهد ومعلومات ،

واستنتاجات ، الشواهد أن القيادة العراقية هي التي كانت تبدأ دائما العمل المضاد لسورية ، لم يحدث أن اكتشفت مؤامرة سورية في العراق ، بينما تتكشف في كل فترة مؤامرة عراقية ضد سورية .. الانقلابات الثلاثة الاولى في سورية من عام ١٩٤٩ حتى ١٩٥١ ، حسنى الزعيم ، وسامى الحناوى ، وأديب الشيشكلي كان العراق طرفا رئيسيا فيها ، الانقلاب الذى لم يتم عام ١٩٥٧ ، بعد أن رفض الشيشكلي المخطط الدموى لنورى السعيد ، الاتفاق العراقى التركى على مهاجمة سورية تحت غطاء حلف بغداد بين فترة وأخرى ، اكتشفت هذه المعلومات في محكمة الشعب بعد ثورة ١٤ يوليو / تموز عام ١٩٥٨ . وفي فترة أخرى تكشف فيها أسرار المؤامرة العراقية ضد سورية ، راجعت تاريخ الاستقلال السورى منذ ١٩٤٦ ، وحتى عام ١٩٩٠ ، وقد ظهر لى خلال ٤٤ عاما من الاستقلال أن العلاقة السورية العراقية لم تكن حسنة إلا لمدة ثلاث سنوات ، وباردة لمدة سبع سنوات ، وعلى امتداد ٤٤ عاما كانت حربا شعواء بين العراق وسورية .

وخلال هذه الفترة تحسنت نسبيا العلاقات بين العراق ، والأردن ، وبين العراق ، والسعودية ، وبين العراق ، وإيران ، وبين العراق ، وتركيا ، لكن العلاقة العراقية السورية ظلت على هذه الحال .

ولقد تساءلت : ما هو السر في بقائها على هذا النحو مدة ٣٤ عاما ؟ هل يعود ذلك إلى الخلافات الموجودة بين حافظ الأسد ، وصدام حسين ؟

حافظ الأسد لم يكن موجودا ، بالتحليل ، وعندما أعلن استقلال سورية عام ١٩٤٦ كانت الخطوات تتخذ لاقامة دولة اسرائيل التى أعلنت عام ١٩٤٨ ، والذين خططوا لاقامة دولة اسرائيل خططوا لى لا يكون هناك تنسيق ، أو تكامل ، أو تعاون بين العراق وسورية لى لا يتشكل الحزام الأمنى حولها ، وإلا فما هو تفسير وجود حزب واحد ، ومنطلقات فكرية واحدة ، وكلاهما جمهورى ، ولم تتم حتى الآن الوحدة .. من السبب ؟!

الواقع أن العراق هو الذى أوكل اليه تعميق الانشقاق مع سورية ، وسورية من مصلحتها أن تتفق مع العراق لعدة أسباب .. العراق غنى .. العراق عمق جغرافى وسوق لتصريف المنتجات .. سورية مصيف ممتاز من كل النواحي الجغرافية والاقتصادية والسياسية .. السوريون هم الذين يستفيدون من اتفاقهم مع العراق ، حافظ الأسد شخصيا كان يستجيب لأى نداء من الجانب العراقى ، واستطيع أن أقدر وقد كنت شامدا عيان فى التنظيم السابق ، ومن موقعى السياسى السابق إنه بمجرد أن يلوح العراقيون بالتفاهم كنا نجد أن الرئيس حافظ الأسد يحمل حقييته ويأتى إلى بغداد .. حين أعلنت الوحدة عام ١٩٧٨ بين العراق وسورية ، بعض القادة البعثيين

■ أزمة الخليج وكبرياء الفارس ■

نصحوا الرئيس الأسد بأن يترث وأن يحذر صدام حسين ، لكن الرئيس الأسد أجابهم انه لا حذر من المغامرة القومية أى المغامرة الوحشية مع العراق ، إذا حدثت فاهلاً وسهلاً وإذا لم تحدث فهذا أفضل من أن نبقى في الحالة الانفصالية لكن الحذر وقع ، وأعلن صدام حسين عن مؤامرة سورية ضد العراق ، مؤامرة لم تكن قائمة على الإطلاق ، ولو كانت قائمة لكنت أحد الأبطال العاملين في نظام صدام حسين لأننى اتهمت في هذه المؤامرة وسُجنت وأعطيت في السجن مواد سامة أدت إلى إصابتي بتصلب الشرايين واضطرت لزراعة شرايين جديدة في القلب .. الشاهد أنه حتى في ظل العلاقات الحسنة بين العراق وسورية ، وعندما كان صدام حسين هنا في سورية ، وكنت في الوفد المرافق له حيث أقام الرئيس الأسد دعوة عشاء في « القاعة الدمشقية » ، وصافحت الرئيس وأحيت رأسى كعادتى ، وطول حفل العشاء ، وصدام حسين يرمقنى ، ففهمت أنه قد حدث شيء واقتربت منه بعد انتهاء العشاء ، فبادرنى بقوله : لماذا أحيت رأسك لحافظ الأسد؟! قلت : لأنه رئيس دولة ، فقال لى : يجب أن لا تحنى رأسك لحافظ الأسد .. قال هذا ، ونحن في سورية لنقيم الوحدة ، وعندما عدنا إلى بغداد صدرت إلينا التعليمات من مكتب الاعلام بالألا يكتب أى شيء عن سورية سوى الكتابة عن الآثار ، والمتاحف وغيرها ، وعندما جاء الرئيس حافظ الأسد إلى العراق كتبت مقالا في مجلة (ألف باء) التى كنت أراس تحريرها وقلت فيه « ابن المعرة في كهف ابن زريق » وكنت أشير فيه إلى زيارة المعرى التاريخية لبغداد التى استقبله فيها الشاعر الشريف الرضى والتى قال فيها :

**شربنا مع دجلة خير ماء
وزرنا أشرف الشجر النخيل**

والشاعر الجواهري قال في عام ١٩٤٤ ، وفي ذكرى أبى العلاء المعرى أشار إلى تلك الزيارة حيث سرق أهل بغداد سفينة أبى العلاء المعرى .

**أجل قد خطفناها مخافة فرقة
وخشية ازمراع فضيق به ذرعا**

أى أن أهل بغداد سرقوا سفينة أبى العلاء كى لا يعود أبو العلاء المعرى إلى بلده ، فقلت : من يسرق سيارة حافظ الأسد حتى يبقى في بغداد تحت القبة الزرقاء؟؟ واقصد بها قبة القصر الجمهورى في بغداد ، ثارت ثائرة صدام حسين وانقلب الدنيا ، وحوكمت ، ولم يمض وقت طويل إلا وحدثت مجزرة حلب التى قتل فيها عدد كبير من شباب الكلية العسكرية في حلب ، وكتبت مقالا بعنوان (حلب يا ذبح الوحدة) ، وبعد أن صدر المقال انعقد مجلس انضباط برئاسة (طه ياسين جزراوى) الذى يسمى طه ياسين رمضان ، وعضوية وزير الاعلام وواحد من الحزب لحاكمتى بتهمة الكتابة عن هذه

■ الفصل السابع

المذبحة ، وتساعلت : نحن مع سورية في دولة واحدة وفي موقف واحد ، وإذا بطه ياسين رمضان يقول وما يدريك بأن رفاقك هم الذين قاموا بهذه العملية ضد سورية ؟! أى أن العراق هو الذى أشرف على مذبحة حلب في أثناء الاتفاق مع سورية على إقامة الوحدة عام ١٩٧٩ ، وبعد هذا يعلن صدام حسين عن وجود مؤامرة سورية ضد العراق .

هذه المقالات منشورة في مجلة (ألف باء) ، إذن فصدام حسين كان يحضر أثناء الاتفاق مع حافظ الأسد لضرب حافظ الأسد ، وليس العكس .

وفي ظل المفهوم الأسدى الاستراتيجى ، وفيما كان يسمى بالتوازن الاستراتيجى مع إسرائيل فإن من مصلحة سورية لكى تتوازن مع إسرائيل أن يتوافر لها عمق جغرافى واستراتيجى هو العراق ، بالإضافة إلى ذلك فإن نشأة حافظ الأسد ، وترتيبه القومية تجعله يؤمن بضرورة الوحدة ، ومصلحة السوريين اقتصاديا مع إقامة الوحدة مع العراق .

معروف أيضا أن (جورج براون) وزير خارجية بريطانيا الأسبق ، الذى كان يزور العراق ويقدم استشارات لصدام حسين أشار في أحد الاجتماعات السرية بعد قيام الثورة الإيرانية أنه ليس من مصلحة العراق الدخول في وحدة مع سورية لأن الوحدة مع سورية ستجعل العراق في مواجهة مع إسرائيل ، وهذا يستنزفها كما ستجعل العراق طرفا في المستنقع اللبناني لتورط سورية في لبنان ، ثم إن سورية متعبة اقتصاديا ، وتحتاج إلى دعم مالى . ومعنى هذا أنه لا مصلحة للعراق في هذه الوحدة .. هكذا أخبرنى صدام حسين بعد زيارة جورج براون للعراق وذهابه ، الزيارة التى سحب فيها براون صدام في رحلة استمرت اسبوعا على الحدود العراقية الإيرانية ..

غزو الكويت جاء بناء على استشارة قدمت لصدام حسين من جورج براون بأن حربا خاطفة لمدة أيام ستغير الوضع في إيران . وسيبقى العراق هو أقوى قوة في الخليج وبعد زوال الشاه بإمكانه أن يأخذ الكويت ، ويخرج بها ، والولايات المتحدة ستوافق على هذه الصفقة وكذلك دول الغرب مقابل ضرب الثورة الإيرانية ، ونحن لا نعلم حتى الآن من أوعد براون إلى العراق في هذه الفترة ، ولهذا فإن صدام حسين بعد غزو الكويت ذكر التصريح الشهير الذى لم يلتفت إليه أحد على الإطلاق حيث قال : إن الكويت ضمن الحرب وفي سياق الحرب العراقية الإيرانية .

رأى آخر لزعيم من زعماء المعارضة العراقية هو بيان جبر ممثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ، وعضو مكتب الأمانة العامة للجنة العمل المشتركة للمعارضة العراقية . حول رؤية الرئيس حافظ الأسد للعلاقات السورية العراقية يقول : « منذ تواجد المعارضة العراقية في الساحة السورية في نهاية السبعينات ، وبداية

■ أزمة الخليج وكبرياء الطرس ■

١٩٨٠ ، ونحن نجد كل تفهم من الحكومة السورية وبالأخص الرئيس الأسد لانطلاقة الشعب العراقي ، الذي يعاني من جود الحكم الديكتاتوري الذي يمثله صدام حسين منذ ذلك الوقت ، كانت معظم الدول العربية تقف إلى جانب صدام ، ولكن سورية بقيادة الرئيس الأسد كانت تتفهم طبيعة النظام الدموي الحاكم في بغداد ، وكانت تتفهم منطلقات الشعب العراقي ، وقواه الوطنية ، ولذلك فتحت أبوابها للعراقيين الذين أجبرهم النظام العراقي على الرحيل ، استقبلتهم دون أن تطلب معرفة هويتهم أو جواز سفرهم ، وأسكنتهم في المحافظات السورية المختلفة وزودتهم بجوازات سفر سورية ، وسمحت لهم بحرية العمل ، وبغير تدخل من جانبها ، ومارست المعارضة العراقية من كل الاتجاهات اليسارية ، والديمقراطية ، والقومية والكردية ، والاسلامية نشاطها بكل حرية ، والواقع أنه من الصعوبة بمكان الادعاء بأن النظام العراقي نظام بعثي أو قومي ، هو نظام يعتمد فقط على حكم صدام حسين وصدام حسين هو القانون وهو كل شيء .

والواقع أن سورية كانت البلد الوحيد الذي فضح صدام حسين في وقت مبكر لأنه يعرفه جيدا . وقد قلت مرة لأحد المراسلين الاجانب إنه .. لو حاول أى شخص ترتيب قاموس سياسى لكلمة اسمها صدام حسين لاحتاج إلى ألف صفحة لتحليل تركيبته النفسية وجرائمه العديدة والتي تعكس كراهيته لشعبه وعداوته لجيرانه ، يكفى أن نشير إلى استخدامه للأسلحة الكيماوية في قتل أبناء شعبه الكردي في الشمال واستخدامه لأبشع الأسلحة في تصفية خصومه من أصدقائه ومن أقاربه ومن الحزبيين ومن الوزراء ، وقال : هناك أكثر من مليون ونصف عراقي بين مشرد ومهجور وكثير من هؤلاء تدخل الرئيس الأسد لحل مشاكلهم ، والعراقي يدخل إلى سورية كما يدخل السوري ، ويحق له أن يتمتع بسهولة ، وتقدم له التسهيلات ، وهناك مكاتب للمعارضة العراقية في جميع المستويات ، وقد اتخذت سورية هذا الموقف المبدئى بالرغم من صور التآمر العراقي العديدة على سورية ، وجميعها من أتباع صدام حسين ، وحادثة الازبكية خير مثال ودليل على جرائم النظام العراقي حيث أرسل سيارة فيها كمية كبيرة من المتفجرات وأوقفها في أحد الشوارع المزدهمة في منطقة الازبكية في دمشق ، وفجرت بواسطة اللاسكى وأدت إلى قتل العشرات وجرح المئات ، كما أرسل شاحنة كبيرة جدا في منطقة التجارة ، وفجرت بعد بحدوث الازبكية بأربع سنوات .. وكثيرا ما حاول صدام تصفية المعارضة العراقية في دمشق ، لكن الجهات السورية كانت متنبهة ، وألقت القبض على كثير من المجرمين الذين كان يرسلهم .

اعلان دمشق

على الرغم من الآثار السلبية العميقة للكارثة الوطنية والقومية التي تسببت في غزو العراق للكويت ، فقد برزت بعض البوادر الايجابية كرد سريع على الكارثة سواء على المستوى الرسمي ، أو الشعبي العربي ، فعلى المستوى الرسمي تابعت سورية حركتها الانقاذية في لبنان الشقيق ، حققت الحكومة الشرعية خطوات هامة على طريق اعادة السلام وبناء الدولة والمجتمع ، كما تحركت سورية بقيادة الأسد لاحتواء نتائج الازمة وكانت أولى ثمار هذه الحركة التوصل الى اعلان دمشق للتنسيق والتعاون بين مصر وسورية ودول مجلس التعاون الخليجي الست .. ولكن .. كيف ؟ ولماذا ؟

بداية لابد من الاشارة الى أن الوحدة العربية في فكر الرئيس حافظ الأسد هي قدر هذه الأمة ، وهدفها الكبير ، وهو يرى أن العمل الوجدوى في المرحلة الراهنة من نضالنا يكتسب أهمية متزايدة لأن الوحدة مصدر قوة ، ولأنها السبيل الى حشد الطاقات العربية في المعركة ، وهى الطريق الى احباط كل المشاريع الرامية الى تصفية قضية العرب الكبرى .. قضية فلسطين ، ولقد واصلت سورية السير على طريق العمل الوجدوى بخطوات جدية ، وجديدة بعد أزمة الخليج مستهدفة تكوين جبهة عربية قادرة على التصدى للعدوان في كافة صوره ، وبحيث تكون قادرة على أن تصبح نواة الوحدة العربية الكبرى ، بهذه الروح كان انضمام سورية الى ميثاق طرابلس ، بعد نجاح الحركة التصحيحية ، وتشكيل القيادة الرباعية لدول الاتحاد مصر ، والسودان ، وليبيا ، وسورية كان يحدوها العزم ، والتصميم على أن تبذل كل الجهود لنصرة هذا الاتحاد بالتعاون مع الأشقاء على النحو الذى يحقق آمال الجماهير ، وبهذه الروح أيضا تابعت المحاولات الوجدوية ، واحتضنت دمشق جهود كل الشرفاء السائرة على طريق الوحدة ، وكان طبيعيا أن يقف الشعب السورى بكل قوة خلف قائده ، فهذا الشعب لم يعترف يوما بحدود التجزئة التى أوجدها الاستعمار ، ولا وهنت عزيمته في النضال لهدم الحواجز المصطنعة ، التى جعلت من الوطن الواحد أجزاء متباعدة ، ومن الأمة الواحدة دولا متعددة يحاول الاستعمار أن يستفرد بها ويقتنصها ، ليفرض عليها نفوذه ، وسيطرته ، ويخضعها لمشيئته ، ومصالحه .

وكثيرا .. ما أوضح الرئيس الأسد في لقاءاته مع كل الزعماء العرب ، وبغير استثناء ان طاقات الأمة العربية قادرة على تحقيق النصر ، وأن مسئولية القادة العرب هى بالدرجة الأولى إنجاز الصيغ التى تضمن وضع هذه الطاقات الضخمة في خدمة الأمة ، ومن أجل حرية هذه الأمة ، وكرامة هذه الأمة ، كان حافظ الأسد يرى ، وما يزال أن الصيغة التى تحقق كل ما تطمح اليه الأمة العربية هى صيغة الوحدة

■ أزمة الخليج وكبرى القواعد ■

العربية ، هذا الهدف الكبير الذي سعت اليه الاجيال المتعاقبة ، والذي ضحى من أجله الكثيرون ، واستشهد من أجله الكثيرون .

دولة الوحدة في رأي حافظ الأسد هي الطريق الى حل كل مشاكل الأمة العربية . الوحدة هي الطريق الى بناء النظام الذي يحقق العدالة الاجتماعية في المجتمع والذي يجعل ثروة الوطن ملكا لكل المواطنين ، ملكا لمجموع الشعب ، وأن أي جهد يبذل من أجل إقامة نظام العدل الاجتماعي من واقع التجزئة لن يكون إلا الحل الجزئي لمشاكل الانسان العربي ، وإن يكون متناسبا مع واقع التجزئة .

الوحدة في رأي حافظ الأسد هي الطريق نحو الحرية لأن دولة الوحدة هي القادرة على استرجاع ما احتل من الأرض ، وهي القادرة على صيانة كرامة المواطن العربي ، والدفاع عن الوطن العربي الكبير ، والحفاظ على حرية كل المواطنين العرب . وكثيرا ما أشار الرئيس حافظ الأسد بأن التيار الانفصالي في الوطن العربي والذي يحاول أن يجعل من الانعزال ومن الانفصال سياسة معاكسة لاتجاه التاريخ ، وضرورات الحياة في الوطن العربي لا يمكن أن يصمد ، لأن وحدة الجماهير العربية مسألة حتمية ، كذلك فإن الرئيس حافظ الأسد لم يمل من تكرار حقيقة أن الوحدة العربية هي الهدف الذي يفينا شر كل النكسات ، ويوفر كل الضرورات الأساسية لبناء حياة كريمة حرة مؤكدا أن الحرب التي تشنها الامبريالية ، واسرائيل على وحدة الأمة العربية لا يمكن أن تنتج .. خلاصة القول : إن الوحدة العربية في فكر وسياسة الرئيس حافظ الأسد تتقدم

على أي هدف آخر ، وهي هدف يناضل من أجله نضالا مستمرا ، ونادرا ، وهو يؤكد دائما أن كوننا لم نستطع تحقيق الكثير في هذا المجال حتى الآن لا يعني اليأس ، أو التشاؤم وأن تعثر بعض التجارب الوحدوية لا يدعو الى القلق والقنوط ، بل الى مزيد من النضال ، وتمثل تلك التجارب واستكشاف الحلول ، والاساليب الأكثر نجاعة والاكثر فاعلية والخطأ في انتكاس تجربة من تجارب الوحدة ليس في الوحدة موضع التجربة ، وإنما في صيغة العمل ، واسلوبه ، وكثيرا ما أكد الرئيس حافظ الأسد أيضا على أن الطريق الى الوحدة ليس طريقا محمدا ، واساليب العمل من أجل الوحدة متعددة متنوعة ، والتحرك نحو الوحدة لا يتم فقط بنوع من الخطى المحددة الجامدة ، وإنما للوحدة طرق متعددة يتم السير عليها بخطى متنوعة الاشكال ..

المهم في رأي الرئيس حافظ الأسد أن يتلاءم الطريق الذي نسلكه مع هدف الوحدة ، وأن تؤدى الخطوة التي انخطوها الى الوحدة ، فالجمود في الاساليب ، والصيغ ، والخطى عدو الوحدة لأن في الوحدة حياة الأمة والجمود عدو الحياة .

في اطار هذا الايمان العميق بالوحدة العربية جاء اعلان دمشق بين مصر وسورية ودول الخليج الست .

الرئيس حافظ الأسد يرى أن دور سورية يجب أن يكون دائما محرضا ، وفاعلا

■ الفصل السابع

نحو خلق تضامن عربي حقيقي ، ولذلك فإنه يقف دائما بكل قوة مع أى شكل من أشكال الوحدة بين الأقطار العربية أيا كان شكل هذا التضامن أو هذا الاتحاد ، وهو يرى أن التفرقة هي الضعف ، وأن القوى المعادية لسورية وللعرب تستغل دوما ضعف الانسان العربي ، وضعف الاقطار العربية للانقضاض عليها ، وبالتالي لمحاولة الحاق الاضرار بالوطن العربي .

ويتحدث الرئيس عن واقع الانفصال العربي القائم فيقول : ان اسرائيل على سبيل المثال لا تتحدث عنا كمواطنين تربطنا روابط المواطنين ضمن كل قطر بل تتحدث عنا كاقاليم ، وطوائف ، وتقول كل ما من شأنه أن يخدم أهدافها في تقسيم العرب لاصغر تجمعات ، وجماعات ممكنة ، وصياغة هذا الواقع التقسيمي لتصبح الدولة العظمى في هذه المنطقة ، وتحقق الدولة التوراتية ، ويرى الرئيس حافظ الأسد أن الرد على هذه الحملة الصهيونية الامبريالية يجب أن يكون نضالا أوسع مساحة ، وأكثر قوة ، وأشد عزيمة من أجل الوحدة العربية ، وإذا كانت القوى الصهيونية ، والامبريالية تظن أننا سنستلم لطروحاتها فقد أخطأت في هذا .. اننا نريد أن تكبر سورية لتشمل كل الوطن العربي . ونريد أن تكبر مصر لتشمل كل الوطن العربي ، ونريد أن تكبر ليبيا لتشمل كل الوطن العربي ، وتكبر الاردن ، والجزائر ، وقطر .. وهكذا ، ويكبر كل قطر ليشمل الوطن العربي ..

الرئيس الأسد يرى أن قوة العرب قوة كامنة لم تستغل بعد ، ولم يجرب العرب امكانياتهم ، والمنطلق القومي في السياسة التي يقودها الأسد واضح ، وهو يغلب دوما المصلحة القومية على المصلحة القطرية ، ولو أن سورية أدارت ظهرها لقضايا العرب الكبرى سواء قضية لبنان ، أو قضية فلسطين ، أو قضية الخليج ، ربما لم تكن قد تعرضت لما تعرضت اليه من خسائر .. السياسة السورية في عهد الرئيس حافظ الأسد تُنحى دائما المصلحة القطرية الضيقة ، وترى أن مصلحة سورية هي المصلحة القومية ، وهي تكبر بالعرب ، والعرب يكبرون بها ، واستقلالية القرار السياسي في سورية مبنى على اعتبارات أساسية أهمها الاعتبار الجماهيري ، وإرادة الانسان العربي .

حرب الخليج

ولقد بذل الرئيس حافظ الأسد كما أشرنا ، وبالتعاون مع الرئيس حسنى مبارك جهودا كبيرة من أجل تجنب العراق الكارثة التي حاقت به من جراء مغامرة صدام حسين لاحتلال الكويت .

اجتياح العراق للكويت قلب كثيرا من المفاهيم ، والأوضاع ، وأحدث شروخا في البنية العربية ، وسبب زلزالا في النظام العربي ، ولولا هذا الغزو الأثم لكان يتعين الحديث عن

■ أزمة الخليج وكبرياء العرب ■

أمن عربي شامل ، وأن نتحدث عن معاهدة الدفاع العربي المشترك ، ولكن هذا الغزو القبيح أدى الى أن تستشعر دول الخليج العربي قدرا غير قليل من الشك في اخوة ما كان يجوز الشك بالنسبة لهم ، وفي هذا المناخ ولد اعلان دمشق بين دول الخليج الست ، ومصر ، وسورية باعتبار أن الرئيسين مبارك ، والاسد وقفوا بغير تردد ، وبحزم في مواجهة العدوان العراقي على الكويت .

أهمية اعلان دمشق تكمن في قيام تنظيم عربي ، وأمنى ، واقتصادي ، ويعكس ارادة مجموعة من الدول تلاقى ارادتها السياسية على التعاون في هذه المجالات ، وهذا التنظيم كما نص لا يقتصر على الدول الموقعة عليه ، بل هو مفتوح لانضمام دول عربية أخرى تتفق سياستها مع سياسة الدول الموقعة على الاعلان ، ومع ما ورد فيه من مبادئ وأهداف ، كذلك فإن أهمية هذا الاعلان تأتي من كونه . لم يصدر بأسلوب مفتعل ، أو بطريقة عشوائية ، وبدون جذور عميقة كالاعلان الذي صدر عن قيام تجمع رباعي يضم مصر ، والعراق ، والأردن ، واليمن ثم تبين انه تجمع وهمي يقوم على أرض هشة بل على أرض من الخداع ، وبالتالي في ظل غياب الثقة بين أعضائه وهي أساس نجاح أى عمل .

وهذا الاعلان كما سيلي يحقق صالح دول الخليج ، ولا يؤدي الى أن يفرض عليها هيمنة خارجية ، وبعد أن صفت القوة العراقية لا يبقى في الوطن العربي قوة عسكرية حقيقية إلا في مصر وسورية ، حقيقة ان بعض دول الخليج تضم مخازن ضخمة للسلاح ، وهذا كله يمكن أن يشكل درعا لهذه الدول لا نقول في مواجهة العراق ، فالعراق قد دمر عسكريا ، وأصبح غير قادر على تهديد أحد تهديدا جديا ، وكل ما يصدر عن نظام صدام حسين هي الفاظ جوفاء ، ومن المؤكد أن الامر لن يطول بالنظام الديكتاتوري الموجود الآن في العراق لأن كل مقومات بقائه قد زالت ، ولابد بالضرورة أن يزول هو أيضا .. أن العلاقة بين دول الخليج ، وسورية ، ومصر لا يمكن أن تؤدي الى أى نوع من المخاطرة تحت أى ظرف من الظروف ، ومن المؤكد أن دول الخليج مهما كان ثراؤها لا يمكن أن يتحقق لها الأمن بهذا الثراء وحده ، بل أن الثراء في ذاته قد يكون سببا من أسباب العدوان ، والحقيقة الجغرافية التي لا يستطيع أحد نكرانها أن دول الخليج من دول الكثافة السكانية القليلة جدا ، ومن الدول القريبة من المطامع بالنسبة لكثير من الدول ، وهذا كله يفرض على دول الخليج أن تعمق علاقاتها العربية وهناك من يرى أنه أصبح من ضروريات الامور أن تصبح كل هذه الدول وحدات في نظام سياسي أشمل وأوثق بمعنى ضرورة تطوير مجلس التعاون الخليجي لكي يصبح لهذا المجلس قوة عسكرية واحدة ، وسياسة خارجية واحدة ، بل ونقد واحد وليس من المعقول في رأي هؤلاء انه في أواخر الخمسينات كان التفكير أن تكون دولة الامارات العربية المتحدة مكونة من الامارات السبع الموجودة حاليا ، ومعها البحرين ، والكويت

■ الفصل السابع

لتشكل الامارات العشر ، ثم لا يتطور التفكير منذ ذلك الوقت ، ولا بد أن تكون هناك وشائج وثيقة بين هذا الكيان ، وبين أقطار شمال الجزيرة العربية ، ثم يتواصل الحبل الى سائر أقطار الوطن العربي .

ونظرا لما أثاره اعلان دمشق من تساؤلات ، وما طرحه من علامات استفهام حائرة فإننا نعرض له بشيء من التفصيل .

عندما وقع اعلان دمشق يوم ٦ مارس ١٩٩١ ، أى بعد أسبوع واحد من تحرير الكويت كان يستهدف مجموعة من الغايات يمكن الإشارة إليها في النقاط التالية وبغير ترتيب :

أولا : الاسراع في ملء الفراغ الأمنى في منطقة الخليج ، وهو الفراغ الذى ترتب على نتائج العدوان العراقى السياسية ، والعسكرية من منظور عربى يتوازن مع الطروحات العربية والاقليمية لترتيبات الأمن في المنطقة بعد هذه الحرب ، ولعدم ترك الساحة خالية لأى طرف يرغب في ترتيبات أمنية تخل بالمصالح العربية العليا .

كذلك فقد استهدف هذا الميثاق الاجتهاد لوضع أسس ، وملامح جديدة للنظام العربى وللأمن القومى العربى من منطلق استيعاب تجربة العدوان العراقى ، وما نجم عن ذلك من تداعيات عربية ، واقليمية ، ودولية مع محاولة وضع تطورات ، ومبادئ ، وآليات عملية تلبي حاجات أمن الخليج التى انتاب دولها بعد العدوان العراقى ، وما زال احساس مشروع بالخطر ، ويلبى في الوقت نفسه احتياجات الأمن القومى العربى في إطاره الشامل باعتبار أن أمن الخليج جزء لا يتجزأ من الأمن القومى العربى .

ولقد كان الرئيس حافظ الأسد ، والرئيس حسنى مبارك ، وقادة دول الخليج هم الأسبق في التقدم بمبادرة عربية تسبق أى مبادرات دولية ، أو اقليمية يتم فرضها على المنطقة ، المبادرة استهدفت أن تكون نموذجا لأسلوب عمل جديد للعمل العربى المشترك ، ولبناء نظام عربى جديد ينظر للأمن القومى العربى بالمفهوم الشامل الذى يعنى ليس مجرد وضع الترتيبات الامنية ، والعسكرية المشتركة وإنما يعنى أيضا التنسيق السياسى ، والتكامل الاقتصادى ، وأن يكون هذا كله من خلال اطار الجامعة العربية ، ومواثيقها ، وليس انعزالا عن الجامعة العربية ، أو خروجا عنها ، ومن هنا كان طبيعيا أن نجد التأكيد على أن هذا الاعلان يأتى في اطار الجامعة العربية وفقا لأهدافها ومبادئها ، وليس محاولة لخلق محور بين مجموعة من الدول ، وإنما خلق نواة جديدة للعمل العربى المشترك ككل يطور عمل الجامعة العربية ، وبحيث يكون مفتوحا لمن يرغب من الدول الأخرى التى تؤمن بمبادئه أن تنضم إليه .

وإذا كان الاعلان حريصا على تأكيد معنى الارتباط بالجامعة العربية ، وعلى تأكيد معنى الشمولية في مفهوم الأمن القومى ، وعلى تأكيد معنى أن هذا الاعلان مفتوح لكل الدول فإنه من الملاحظ أن هذا الاعلان تجاوز الحديث عن أهمية التضامن العربى لاحتلال

■ أزمة الخليج وكبرى الممارس ■

عدد من المبادئ التي أفرزتها حرب الخليج ، والتي أصبحت هامة جدا في ظل المتغيرات الاقليمية ، والدولية ، وهي مبادئ أشار إليها الرئيس مبارك ، والأسد ، وأخا عليها ، وكذلك حكام الخليج ، من هذه المبادئ التأكيد على علاقات حسن الجوار ، والالتزام باحترام وحدة الأراضي والسلامة الاقليمية والمساواة في السيادة ، وعدم جواز اكتساب الأراضي بالقوة ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، والالتزام بتسوية أي نزاع بالطرق الودية ، واحترام مبدأ سيادة كل دولة عربية على مواردها الاقتصادية ، ثم النص على السعي لضمان أمن وسلامة المنطقة ، ولتكون نموذجا يحقق فاعلية نظام الأمن العربي القومي الشامل .

الكيان الجديد للدول التي اشتركت بالفعل في عملية تحرير الكويت ، والذي تبلور في إعلان دمشق دفعها إليه أن اتفاقية الدفاع المشترك التي عُقدت عام ١٩٥٠ بين دول الجامعة العربية ظلت حبرا على ورق ، أو مجرد كلمات حماسية لأن الدفاع المشترك يعنى تخصيص قوات بحرية ، وبرية ، وجوية ، وقوات خاصة للدول أعضاء الدفاع المشترك من كل الدول المكونة لهذا الحلف ، أو لهذه المنظمة ، والمثال هنا هو حلف الاطلنطي ، وهناك قوات مخصصة من دول الحلف ، وهذه القوات يتم بينها تنسيق فعال ، وهناك اتصال بين هذه القوات ، ومناورات مشتركة تجريها في الخريف ، والربيع لإمكان استخدام هذه القوات فورا بينما ميثاق معاهدة الدفاع المشترك والذي مضى عليه نحو ٤٢ عاما ظل حبرا على ورق فلا مناورات مشتركة سنوية ولا لغة اتصال مشتركة ولا أي صورة من صور التنسيق بين قوات الدول المشتركة .

إعلان دمشق اتخذ خطوة افورية في هذا الاتفاق بأن القوات المصرية والسورية الموجودة في السعودية ، ودول الخليج هي نواة لقوة السلام العربية المذكورة ، لكن بعد ان بدأت ايران تعتبر عن قلقها ، ومخاوفها من الاوضاع القائمة في مرحلة ما بعد حرب الخليج ، وبدأت تتحدث عن دورها في أمن المنطقة ، ورغبتها في مزيد من الاقتراب من الدول العربية أدى إلى موقفين جديدين :

الموقف الأول

الموقف الأول هو التعديل الذي تم ادخاله على اعلان دمشق فيما يتعلق بالأمن القومي العربي ، فقد ألقى هذا التعديل فكرة أن تكون القوات المصرية ، والسورية المشتركة في العمليات العسكرية إبان حرب الخليج نواة لقوات السلام ووضع بدلا عن ذلك نص يشيد بدور هذه القوات في حرب الكويت ، وإلى حق دول الخليج في الاستعانة بها في أي وقت من خلال اتفاقيات ثنائية .

والحقيقة أن التعديل لم يكن في حاجة إلى هذا النص الوارد في اتفاقية الدفاع

المشترك ؛ والذي بمقتضاه استعانت السعودية بالقوات المصرية ، والسورية في حرب تحرير الكويت ، عند تعرض أراضيها للخطر ، ويرى بعض المراقبين هنا أن العرب يعيشون دائما عكس التيار فبينما تتجمع دول أوروبا الموحدة ، وبينما تتوحد خمسين ولاية في الولايات المتحدة وتنشأ مجموعة دول الكمنولث بعد تفسخ الاتحاد السوفيتي ، نجد أن العرب لا يستوعبون طبيعة المتغيرات ، ولا يُجيدون التعامل مع المستجدات ، ومما زاد الطين بلة أن هناك كلمات من محكمة العدل الدولية التي يمكن أن تُنقل إليها المشكلات الناجمة عن الفترة الاستعمارية بمشكلة الحدود بين الدول العربية المختلفة ، الجزائر والمغرب ، السودان ومصر ، الكويت والعراق ... الخ لأن الدول الاستعمارية السالفة وضعت خطوطا بالسطرة والقلم كخطوط للحدود ، وبعد نهاية المرحلة الاستعمارية بزغت الوطنيات تعبر عن نفسها ويقدم كل طرف أدلته التاريخية .

ومن المؤكد أن محكمة العدل العربية يمكن أن تكون مساعدة في حل هذه المشكلات المتفاقمة بين الدول العربية ، وحتى لا يصل الأمر إلى الحرب ، والدمار ، كما وقع في حرب الخليج .

الموقف الثاني

أما الموقف الثاني فيتمثل في التباطؤ في تنفيذ اعلان دمشق ، وتحويله من مجرد أهداف ومبادئ إلى خطط وبرامج بزعم أن وضع هذه الخطط يحتاج إلى مزيد من التأمل ، والتفكير ، والدراسة .

والحقيقة أن هذا التباطؤ كان نتيجة الضغوط الخارجية من ناحية ، ونتيجة اتجاه قوات التحالف الغربية نحو عقد اتفاقيات أممية ثنائية مع دول الخليج ، وبالأدات مع الكويت ، وهذه الاتفاقيات الثنائية تعطي لهذه الدول الأجنبية نوعا من الاسهام المباشر في أمن الخليج ، وفي الوجود بصورة ، أو بأخرى في هذه المنطقة ، وعندما يستعين حكام الخليج بالقوات الأجنبية ، فإن هذا ينمى الغضب الجماهيري على من يتسبب في عودة المنطقة الى سياسة الاحلاف ، وتكون أيضا أداة في يد القوى المخارضة في الخليج ضد حكامها كما سيلي :

بالطبع هذا الوضع لم يجعل دون استمرار تمسك الدول بإعلان دمشق مع محاولة التركيز على الجوانب الاقتصادية أكثر من النواحي الأمنية ، والعسكرية ، الأمر الذي تحقق في اجتماع الدوحة في أوائل شهر سبتمبر ايلول عام ١٩٩٢ ، حيث تم الاتفاق على مجموعة من البرامج الاقتصادية ، وخطط التعاون الاقتصادي بين دول الاعلان في شكل اجراءات محددة ، وبرامج محددة ، وهذا شيء ايجابي تحقق مؤخرا لكنه لا يفي بالغرض

■ أزمة الخليج وكبرىء الطرس ■

المطلوب لأن النواحي الامنية بالمعنى الضيق .. اى ترتيبات الامن العسكرى ، والدفاع المشترك قد أرجىء اتخاذ خطوات بشأنها فى الوقت الحالى ، وبطبيعة الحال فإن هذا يمثل نكسة فى ترتيبات الامن القومى العربى كما كان مأمولا بعد تحرير الكويت وعما تم الاتفاق عليه يوم توقيع اعلان دمشق فى ٦ مارس عام ١٩٩١ ، وهكذا اصبحنا امام إعلان دمشق المصدق عليه من الدول الثمانى دون أن يجرى التوجه الفعلى نحو تطبيقه، ووجدنا الكثير من الاتفاقيات الامنية العسكرية تبرمها دول الخليج مع الدول الغربية التى ساهمت فى تحرير الكويت .

التدخل الأجنبى

اعلان دمشق مشروع عربى ممتاز بكل المقاييس لاستتباب الأمن فى المنطقة ، وخاصة فى الخليج ، والحيلولة دون تكرار ما حدث خلال حرب الخليج ، وفى الوقت نفسه حماية للمنطقة من الوجود الأجنبى الذى هو فى حقيقته رغم كل ما يقدمه شكل من أشكال السيطرة الخارجية .

المراقبون السياسيون يؤكدون أن حماية المنطقة العربية وخاصة منطقة الخليج ذات القدرات العسكرية المحدودة بوجود عربى لا يمكن أن يشكل أى خطر لأحد ، أو عدوان على أحد ، أو تدخل فى شئون أحد لأن الجميع آخر الأمر أخوة اشقاء متضامنون ، سياستهم واحدة ، ومصلحتهم واحدة ، وحاضرهم ومستقبلهم واحد ، وليس لأحد أطماع فى أحد ، وما دامت منطقة الخليج محتاجة إلى حماية ، فالصحيح ، والصواب أن تكون حماية عربية لأن البديل لهذه الحماية هو طلب التدخل الأجنبى حين يكون هناك تخوف من أى خطر ، وهذا التخوف قائم وإلى سنوات طويلة نتيجة لتفاوت القوى والأطماع فى منطقة الخليج .

إذن فإن اعلان دمشق ضرورة لا بديل منها إلا بأحد أمرين : إما التعرض للأخطار كما حدث فى الغزو العراقى للكويت ، وإما الوجود الأجنبى الذى تخلصنا منه بالتخلص من الاستعمار ، والاستعانة بالقوات الاجنبية فى تحرير الكويت كان استثناء لأنه لم يكن هناك بديل عربى .. الآن البديل موجود ، غيرما تضمنه اعلان دمشق من مبادئ وافكار لا تتعارض مع ميثاق الجامعة العربية وإنما تدعم هذا الميثاق بالخطوات العملية التى اتخذها ولكنها لم تأخذ بعد طريقها الى التحقيق الفعلى .

وفضلا عن ذلك كله فإن الوجود الأجنبى ينتقص من سيادة الدولة ، لأن الدولة الكاملة السيادة هى الدولة التى لا تخضع فى ادارة شئونها الداخلية ، او الخارجية لرقابة او هيمنة من دولة أخرى أى أنها مستقلة تماما فى الداخل والخارج ولا سلطان لدولة

أخرى عليها بل أن تدخل الدول في شئون الدولة المستقلة مهما كان نظام الحكم فيها يعتبر عملاً عدوانياً وفقاً لميثاق الأمم المتحدة ، وتحديدًا للفقرة السابعة من المادة الثانية من ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، والدول الناقصة السيادة هي التي لا تتمتع بالاختصاصات السياسية للدولة ، وذلك نتيجة خضوعها لدولة أجنبية . . أو تبعيتها لهيئة دولية تقوم بمشاورتها بعض الاختصاصات ، وتُوصف الدولة الخاضعة لنفوذ أجنبي بأنها ناقصة الأهلية ، وغالباً ما تكون مقيدة الحرية في شئونها الدستورية ، وشئونها الداخلية بصفة عامة بسبب تدخل دولة أجنبية ، أو أكثر في شئونها المختلفة .

ورغم ذلك كله فلا يعتقد المراقبون أن الفرصة قد ضاعت ، وإذا كان ثمة تردد في خلق هذا الكيان الإقليمي الجديد فإن الأمر يعود إلى قسوة تجربة الأزمة الكويتية العراقية ، ولكن مرور الوقت سيسمح بإعادة التفكير لإحياء هذا الميثاق ليكون بداية لوضع عربي يهدف أولاً وأخيراً إلى إقامة سياج من الأمن القومي العربي ، وهناك فرص لا نهائية لتجمع اقتصادي ضخم بين دول مجلس التعاون الخليجي ، وكل من مصر وسورية ، فهذه الدول جميعاً تعاني من مشكلة فائض الانتاج في كثير من صناعاتها ، بل إن أزمة فائض الانتاج تبدو أكثر وضوحاً في دول مجلس التعاون الخليجي عنها في بلد كمصر وسورية ، نظراً لاتساع سوقهما نسبياً ، ومن ثَمَّ فإن البداية في التفكير في خطوات متواضعة في إقامة اتحاد جمركي بين دول التجمع المنشود سيعود بالفائدة على كل دول اعلان اتفاق دمشق ، وعلى وجه الخصوص دول مجلس التعاون الخليجي .

ولنضرب مثلاً على ذلك في الصناعات البتروكيمياوية في المملكة العربية السعودية ذلك أن السوق المصري يسمح بامتصاص فائض انتاجها .

إذا قمنا سياجاً جمركياً موحداً حول هذا التجمع كما فعلت أوروبا في بداية تكتلها الاقتصادي والسياسي في أعقاب الحرب الكونية الثانية ستكون النتائج مبشرة ، ولكن البداية بتكتل محدود في عدد محدود من السلع لأن النجاح في هذا النطاق الضيق سيجسد المصلحة المشتركة في التعاون الاقتصادي العربي لدى كثير من الفعاليات والقوى الاقتصادية ، والسياسية في دول مجلس التعاون وفي كل من مصر وسورية ، ومثل هذا التجسيد سيساعد في اتخاذ خطوات أكثر اتساعاً .

وغنى عن البيان أن التعاون العسكري لا يمكن أن ينجح إلا بين بلاد ارتبطت مصالحها الاقتصادية بعضها ببعض ، ومن ثَمَّ يصبح من السهل أن تقوم دولة ببذل دماء أبنائها في سبيل حماية دولة أخرى ، ولعلنا نتذكر دروس أزمة الخليج ، فكثير من الجماعات السياسية ، والاقتصادية في الدول العربية كانت ضد المساهمة العسكرية المصرية والسورية في تحرير الكويت ، ويعود ذلك إلى عدم وضوح الرؤية السياسية

■ أزمة الخليج وكبرياء الفارس ■

القومية التي يساعد على تجسيدها وبروزها التعاون الاقتصادي فيما بين افراد ومؤسسات الدول اطراف الأمن القومي الاقليمي ، ومن المؤكد أن الوجود العسكري العربى في دول الخليج سيدعم المركز الاستراتيجى لدول الخليج في مواجهة اعدائها وفي الوقت نفسه سيكثر من أوراق التفاوض مع أصدقائها .

ويبقى أن نشير إلى أن سورية ومصر يمكن أن تقدم لدول الخليج الكثير والكثير ، يمكن أن تقدم لهم من الناحية الاقتصادية الأسواق المطلوبة سواء للسلع العربية أو للاستثمارات العربية ، ومن الناحية الاقتصادية فمن المؤكد أن توزيع الاستثمارات العربية بين الدول العربية والدول الغربية أمر تفرضه أبرز مقتضيات الحذر الاقتصادي البسيط بحيث لا يضع المرء كل أمواله في سلة واحدة ، بالإضافة إلى ذلك فإن الاستثمارات العربية داخل مصر وسورية ستكون أكثر ربحية من العالم الغربى لأن هذه الدول في المراحل الأولى للتنمية ، وبالتالي فإن مجالات الاستثمار مفتوحة أكثر في الدول العربية وستقدم كل من مصر ، وسورية في نهاية المطاف الحماية للأمن القومى الخليجى .

وإذا تم الاستقرار للمنطقة العربية فإن إعلان دمشق سيكون قوة هائلة للمنطقة يرد عنها كل الأطماع ، لأن الغرب له مصالحه المرتبطة بأطماعه .. أما مصر وسورية فلا تختلف مصالحهما عن مصالح دول الخليج .. أن الاعتماد الكامل على الغرب هو عودة مرة أخرى الى الهيمنة الاجنبية ودول الغرب لها أطماعها المعروفة في الدول العربية ولها تاريخ مرتبط بهذه الأطماع ، والاتفاقيات المتكافئة تكون بين طرف متماثلين في القوة ، وفي الاتجاهات السياسية .

ان مسئوليتنا اليوم ألا نفتتح الباب من جديد للاستعمار المقنع ليدخل من باب شرعى هو المعاهدات .

وإذا كنا نود إذابة الجليد بين القوى العربية المختلفة فلاننا نريد اقامة كيان عربى يواجه الأطماع المتكالبة على أرض العرب والنوايا التوسعية لدولة اسرائيل ، واقامة كيان اقتصادى يحقق التكامل الاقتصادى . وهذه الأمور باتت أكثر من ضرورية ، ونحن نتأهب لدخول القرن الواحد والعشرين ووسط كيانات عملاقة . وقديما قيل : إن العرق في السلم يوفر الدماء في الحرب .

إن دول الخليج لا تستطيع أن تنغلق على نفسها ولا تستطيع أن تكتفى بنفسها ، وهى في احتياج شديد لعنصر توازن أمنى ولو كان من دول خارج منطقة الجوار ، ويكفى أن نشير إلى أن يوغوسلافيا عندما كانت تواجه الاتحاد السوفيتى وحدت الاختلاف

■ الفصل السابع

الايديولوجى، أيام تيتو واتجهت إلى دول البلقان المجاورة ثم تخطت البحر المتوسط وبدأت تعتمد على مصر والهند ، وكان هذا هو السبب الذى دفع بتيتو لتنشيط دور دول عدم الانحياز .

ودول الخليج تملك ثروات ، وفيها أسباب القوة ، وأيضا أسباب الضعف وهذه الثروات تثير المطامع ، وبالتالي فلا بد أن يكون لأمن الخليج نظرة أوسع من الحدود الضيقة ، ومن هنا فإن إعلان دمشق يضع أسسا للتوازن الأمنى الذى يضمن لدول الخليج عدم التدخل فى شئونها الداخلية .

ودائما كانت نظرة القاهرة الى أمن الخليج بهذا المنطق ، ومنذ عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر كان المبدأ الأهم .. الحفاظ على عروبة الخليج ، ومنع أى عدوان والحيلولة دون تطور أى خلاف عربى - عربى الى هاوية الحرب ، وهذا ما حدث فى أزمة الستينات خلال حكم عبدالكريم قاسم .

إعلان دمشق الذى وقعته الرئيسان حسنى مبارك ، وحافظ الأسد هو استمرار لهذا المبدأ الجوهرى فى نظرية الأمن ، بمعنى أن أمن الخليج لا يمكن أن يكتفى بذاته ، وإذا كانت هناك ضرورة للاستعانة بالغير، فإنها ستكون فى إطار الحفاظ على العروبة ، ومنع العدوان . وفى العمل السياسى الناجح لابد من الحفاظ على الضمير القومى الذى يعنى الحفاظ على العروبة ، والعلاقات العربية ، والمبادئ العربية .

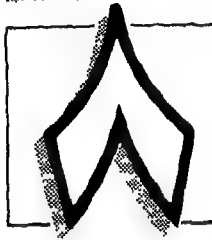
وإذا كانت مصر جغرافيا هى عنصر توازن بالنسبة للعرب فإنه لا أمن قومى لمصر بدون سورية ولا أمن قومى لسورية بدون مصر ، والنيل لا تحميه إلا مرتفعات سورية ، وعندما نتحدث عن مصر أمنيا لابد أن نضع فى الذهن ضرورة الربط بين أمن سورية ، وأمن مصر لأنهما بعيدا عن الحدود الجغرافية كتلة واحدة ، وهذا درس التاريخ القديم والوسيط والحديث . ولا يستطيع نهر النيل أن يدافع عن نفسه بدون البحر الأبيض المتوسط الذى تطل عليه سورية ، وليس ذنب الخليج أن كثافته السكانية بسيطة ، وبالتالي فإنه يصعب تكوين جيش وطنى كبير بسبب قلة عدد السكان ، فإن هذا النقص يمكن أن تعوضه الدول العربية ، ومصر وسورية فيهما الكوادر وقبل الكوادر فيهما دفء العلاقات الأخوية الصحيحة بغير طمع فى بترول ، ولا فى أرض وبغير استعلاء من كل الدول الغربية بالنسبة لكل ما هو عربى .

وإذا كنا نقول : انه لا بديل عن الأمن القومى العربى الشامل وان هذا الأمن لابد أن يكون عربيا ، فلا بد أن تظل كافة ترتيبات الأمن القومى العربى عربية فقط لا وجود للأجنبى فيها .

■ أزمة الخليج وكبرياء العرب ■

وكما يقول الرئيس حافظ الأسد فإن هذه المرحلة من أخطر مراحل التاريخ العربى واما أن يكتب لنا كعرب أننا نجحنا في تجاوز آثار كارثة حرب الخليج من خلال الاستفادة من تجربتها المرة بخلق نظام أمنى قومى عربى خالص لا سيطرة فيه لقوى أجنبية ، ولا وجود فيه لقوات أجنبية في أراضينا ، وإما أن نقع فريسة تهافت القوى الأجنبية الغربية ، والاقليمية أو غيرها نتيجة غياب وعينا الكامل لحقائق التاريخ فهنا تكون سقطة ما بعدها سقطة في تاريخ النضال العربى ، تنال من ازدهار هذه الأمة ، ووحدتها ، وسيادتها ، واستقلالها لسنوات لا يعلم مداها إلا الله ، ولن يغفر لنا التاريخ ، ولا الأجيال القادمة أننا قصرنا لسبب أو لآخر في الدفاع عن العروبة ، وحققنا في منع الوجود الأجنبى فيها ، أو السيطرة على مواردها .

في التاريخ النجمة المذلة



قراءة في فكر الأسد

التآمر على سورية

- القصة من البداية .
- محاولات تعطيل المسيرة التنموية والديمقراطية .
- رفض الارهاب والعنف والتطرف .

■ التاريخ على سورية ■

□□ الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد، شأن كل الحركات الثورية في التاريخ كان ولا يزال لها أعداؤها المتربصون بها .. هؤلاء الأعداء الذين توهّموا بالجهل والغباء، والغرور أنه بمقدورهم إعاقة مسيرة هذه الحركة الثورية .

يلفت النظر أن هؤلاء الأعداء كانوا ينشطون دائما كلما قويت سورية ، وكلما وضعت أقدامها على أعتاب نقلة حضارية معينة .

ومن يقرأ التاريخ القديم ، قبل الاسلام يجد سواء في عهد الامبراطورية الفارسية أو اليونانية أو الرومانية البيزنطية أو الممالك التي كانت قبل ذلك سواء كانت ممالك فينيقية أو آشورية أو صينية أو فرعونية أو ما إلى ذلك .. يجد أن هؤلاء الأعداء في الزمن القديم حاولوا ابقاء حالة الضعف والتأخر سائدة في سورية .. إدراكا منهم أن سورية القوية عنصراً خطراً داهم عليهم ، وأن مَنْ يستلمح أن يسيطر على سورية يكون بمقدوره وبسهولة السيطرة على الشرق الأوسط ، وبالتالي يمتلك الشرق الأوسط ، ولقد ظل هذا الاقتناع قائماً في العصور الاسلامية، ولذلك كانت جميع غزوات الصليبيين والتتر على الامة العربية تستهدف أولاً سورية للاعتقاد نفسه ، اعتقاد أن السيطرة على سورية يمكن أن تحقق الغاية المنشودة للطامحين ، في العصر الحديث بقي هذا الاقتناع ، وإن تغير التكتيك ، احتلال الصليبيين لمصر ، واخفاق حملتهم بالنسبة لمصر تكرر في العصر الحديث عندما جاء

■ الفصل الثامن

نابليون واحتل مصر ولكنه وقف عند عكا ، وأخفقت الحملة النابليونية لأنها لم تستطع أن تحتل سورية .. محمد علي عندما أراد أن يُقيم دولة عربية كبرى أيقن أن هذا لن يتحقق إلا إذا تحالف مع سورية، وأرسل ابراهيم باشا الذى احتل سورية، فعلا كانت الامبراطورية العثمانية مهددة لولا تدخل الامبراطوريات آنذاك لمنع امكانية تحقيق قيام دولة عربية واحدة .

التأمر قديما وحديثا كان يهدف إلى خلق فكر معين في دولة معينة لها موقع استراتيجى مُميز ولها تاريخ حضارى مميز أيضا موقع وتاريخ يمكنها من أن تشغل دور المحرض باعتبارها تقع موقع القلب من الأجزاء العربية ، سواء كان بالنسبة للأجزاء التى تتشكل منها بلاد الشام وهى لبنان وفلسطين والأردن أو بالنسبة للعراق والجزيرة العربية ، أو بالنسبة لمصر الشقيقة الكبرى ، على الرغم من الفاصل الاستعماري الذى زرعه الاستعمار مثلا فى اسرائيل لكى يعمق الانفصال بين جزئى الامة العربية المشرقى والمغربى .

عندما تسلم الرئيس حافظ الأسد مقاليد الحكم فى سورية أراد أن يفجر الطاقات الكامنة فى الشعب السوري ليضعه على طريق الوحدة العربية ، وطريق التضامن العربى ، وطريق تحقيق المصالح العربية ، ولذلك كان التأمر على سورية هدفه الحيلولة دون الاستمرار فى مواصلة هذا الدور ، كان هناك التأمر لاحباط دور سورية فى لبنان لأن هذا الدور يعنى تقسيم لبنان . الأمر الذى يشكل حلقة متقدمة لتقسيم الوطن العربى إلى دويلات ، ولذلك كان لابد أن يتواصل التأمر على سورية لمنعها من القيام بهذا الدور .

يكفى أن نستدل على ذلك بالدور المركزى الكبير الذى تقوم به سورية لدعم الثورة الفلسطينية .. الثورة الفلسطينية انطلقت من الاراضى السورية ، ولذلك كان بعضهم يرى أن التأمر على سورية وتجميعها يعنى إنهاء دورها الداعم بالنسبة للقضية الفلسطينية ، وكان هناك تأمر ثالث سببه أن سورية تمثل الفكر القومى العربى الذى يعمل على بعث روح الامة العربية ، واستنهاض حضارتها الجديدة وبناء شخصيتها القومية ، وتحقيق وحدة اقتصادية ، ووحدة سياسية على غرار ما حدث عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية ، ولذلك كان التأمر هدفه التصدى للفكر القومى العربى لكى تبقى العوامل القطرية والاعمال التجزئية السائدة ، وحتى تبقى مصالح الآخرين ، ولذلك كان من الطبيعى جدا هذا الحجم من المؤامرات المتناسب مع الحجم الكبير من الاهداف التى تقف وراء هذه المؤامرات ، ويبقى مبهرا فى التجربة السورية أن الشعب وحده هو الذى احبط جميع هذه المؤامرات ، ومن بينها مؤامرة الاخوان المسلمين التى بدأت فى أواخر السبعينات ، واستمرت حوالى خمس سنوات ، من عام ١٩٧٨ وحتى عام ١٩٨٣ هذه المؤامرة التى كان الهدف منها تقويض أى دور فاعل لسورية على الصعيد العربى ، وعلى الصعيد المحلى ، وبالتالي جَعَلَ امكانية أى دولة

■ شعار على سورية ■

قومية تقوم على فكر يستوحى الشخصية القومية ، وبروحها الاسلامية . جعلها امكانية مشلولة ، لاسيما وأن حزب البعث يستلهم الشخصية الاسلامية في الروح العربية لأن الحضارة العربية هي مزيج تفاعل العروبة مع الاسلام ، ونتاج هذه الحضارة تستلهمها سورية بأسلوب علمي معاصر لكي تأخذ كل ما في ايجابيات التراث وتجعله متعايشا مع العلم المعاصر دون اخلال بالعقيدة . وفي هذا المجال يمكن ملاحظة ان هناك اصرارا على أن العقيدة يجب أن تكون مُصانة ومحترمة ، وأن يكون روح الدين الاسلامي سائدا ، والرئيس الاسد يُدرك أن الحضارة الاسلامية هي حضارة ساهم فيها المسلم وغير المسلم باعتبارها الحضارة الأشمل ، والحضارة الأسمى ، كما يحترم أي إنسان على عقيدة طالما أن هذه العقيدة تنطلق من وحدانية الله وللايمان به والايان بالقيم والمثل ، ولذلك كانت بعض القوى الدولية والعربية تحاول أن تأخذ من أعداء التجربة السورية مغبلا لاعتقال النهضة القائمة في سورية والتي ترمي إلى تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي في البلد وإلى تحقيق فاعلية أكبر لدور سورية في النطاق القومي لكي تستطيع أن تأخذ دورها في الدفاع عن مصالح الأمة العربية وشرها وكرامتها .

ولكن كما ذكرنا من قبل فإن حجما كبيرا من الاهداف والمثل العليا في منطقة مهمة في الزمان والمكان ، لابد أن يواجه بهذا الحجم وليس هذا هو نهاية المطاف بل بالعكس ، إنك ترى أن الغرب قام بمؤامرة كبيرة على سورية متهما إياها بالارهاب ، وقد تزامنت هذه المؤامرة عندما كان الفلسطينيون يصعدون انتفاضتهم في الداخل ، وكانت المقاومة اللبنانية تقوم بما يمليه عليها واجبها الوطني في التصدي لتحرير لبنان والعاصمة اللبنانية من الاحتلال الاسرائيلي ، والاحتلال متعدد الجنسيات .

شيء آخر لا بد أن نقوله وهو : إنه في هذه الفترة بالذات قام الاتحاد السوفيتي بغزو افغانستان ، وقامت الثورة الاسلامية في ايران ، ولذلك كان لدى الأمريكيين ظن بأن سورية يجب أن لا تتحرر اقتصاديا واجتماعيا بالكامل ، فلما منهم أن هذا التحرر يصب في خانة الاتحاد السوفيتي ، وكان بريجنسكي ينشط كثيرا لاقامة الندوات التي رُغم بأنها ندوات اسلامية اعتقادا منه أن تنشيط الجماعات الاسلامية هو السد الذي يقف ضد انتشار الشيوعية في الشرق الأوسط ، لأن الشرق الأوسط منطقة مصالح ، ولذلك في عهد كارتر وبريجنسكي نظمت المخابرات المركزية الأمريكية أكثر من (٢٥٠ ندوة) فلما منهما بأن الاسلام هو الوحيد الذي سيقف في وجه الشيوعية إذا حاولت الاقتراب من الشرق الأوسط ، وحتى في بداية ثورة الخميني كانوا يظنون أن هذه الثورة ستكون معادية للاتحاد السوفيتي ، وستقوم بدعم الثوار في افغانستان ، ولذلك لم يتخذوا منها موقفا إلا في فترة لاحقة ، ولذلك فإن ما جرى في سورية وضد سورية كان بإرادة استعمارية لمنع سورية من تحقيق برنامجها في التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وبناء التوازن

الاستراتيجى مع اسرائيل والحيلولة دون إحياء الجبهة الشرقية لاعادة التوازن إلى العرب ، ولكن كيف بدأت مؤامرة الاخوان المسلمين ضد سورية وماذا استهدفت وماذا حققت ؟ وماهى الدروس المستفادة منها ؟
وقبل هذا كله كيف استطاعت قيادة الرئيس حافظ الأسد أن تحول دون مضى هذه المؤامرة في طريقها المرسوم ؟

القصة من البداية

في البداية لابد أن نُشير إلى النشأة الدينية التى شب عليها الرئيس حافظ الأسد ، والتى ساعدت على تكوين فهم عميق لديه لتعاليم الدين الاسلامى ، ومبادئ الشريعة الاسلامية .

كان والده يدرك عن ايمان راسخ أن من أعظم القربات الى الله تبارك وتعالى تعليم اولاده مبادئ الدين الاسلامى وبث الاحكام الدينية في نفوسهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم في عباداتهم وأعمالهم .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وانما العلم بالتعلم ، وان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر .. »

ولقد اعتمد والد الرئيس ووالدته - يرحمهما الله - على أكثر الاساليب نفعا وأقربها الى العقول والقلوب في بث تعاليم الدين الاسلامى ، لم يعتمدا كثيرا على المصطلحات الفنية التى قد تفوق قدرة الفتيان في سنواتهم الاولى ، وكذلك التفريعات الكثيرة الفرضية ، وانما حاولا توصيل ما أمكن من معلومات من خلال أدلة الكتاب والسنة في سهولة ويسر ، وحتى يشعر الابناء بأنهم موصولون بالله ورسوله ، وفي ذلك أكبر حافز لهم على الاستفادة من المعرفة والاقبال على العلم .

ولقد كان حافظ الأسد شليد النهم لمعرفة كل ما يتصل بدينه ، ولقد ساعد ثراء الفكر الاسلامى وعطاؤه الفنى المتدفق المتواصل ساعد على تعميق ايمانه بأن الدين الاسلامى هو الدين الخاتم وهو الدين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والشريعة الاسلامية شريعة من عند الله سبحانه وتعالى لا يستطيع بشر أو مجموعة أفراد أو أمم أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، الشريعة الاسلامية جعلت من عدة افراد في غرب الجزيرة العربية نواة لامة عظمية امتدت من أندونيسيا والصين شرقا الى جنوب فرنسا ومناطق جنوب أوروبا غربا . هذه الامة عاشت حياة أمان ورخاء وترجمت

■ التلميز على سورية ■

أمهات الكتب من الحضارات القديمة ، ولم تنغلغل على نفسها ، ثم أضافت الكثير لتخرج بحضارة لا يمكن تكرارها إلا بتطبيق الشريعة من جديد ، ويزخم علمى وتقنى هو نواة التقدم الهائل الذى يستفيد منه العالم المعاصر الآن .

هذه هى الحقيقة التى استوعبها . وفى وقت مبكر . حافظ الأسد عندما كان يرى من خلال قراءاته أنه تحت مظلة التشريع الإسلامى هنأت الشعوب التى كانت تشكل الأمة الإسلامية ، لافرق بين مسلم ومسلم ، ولا بين مسلم وغير مسلم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وكانت الأمة الإسلامية ملاذ المعذبين فى الأرض ففروا إليها ينعمون بخيراتها ويسعدون تحت لواء أمنها دونما ارغام على التحول إلى الإسلام ، فاللبداء القرآنى يؤكد « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ولقد استطاع هذا الفهم العميق للدين الإسلامى أن يجعل حافظ الأسد يصمد فى وجه التطرف الماركسى وأيضاً التطرف الإسلامى .. عندما حاول بعض المتطرفين الماركسيين أن يقيموا تنظيمات متطرفة لجأوا إلى العمل فى الظلام لم يتجأوا على الظهور لمناقشة أفكارهم مع الآخرين ولو خرجوا وظهروا وناقشوا فى ديمقراطية ربما كان الحال مختلف ، وربما كان يمكن أن يكون لهم موقف آخر .. الفهم العميق للإسلام جعل حافظ الأسد يؤمن ، ويطبق حرية كل الناس فى أفكارهم ، ولكن عندما لجأ الفكر الماركسى إلى الفكر القوضوى الذى ينبذ ويرفض فكر الآخرين رفضه الأسد وتصدى له .

بالفهم نفسه رفض حافظ الأسد التطرف الإسلامى أو التطرف باسم الإسلام ، الرئيس حافظ الأسد رعى ومازال يرعى بكل الإيمان الإسلام والمسلمين ، وفى عهده خلال العشرين عاماً بنى من المساجد ما يعادل ما بنى منذ مئات السنين .. لم يخل على قرية أو على حى فى أن يقدم لها الدعم الكامل لكى تقيم مسجداً أو مدرسة دينية تعلم الإسلام ، انطلاقاً من إيمان الرئيس الأسد بأن الرسالة العربية الخالدة التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتى كرم بها الحق سبحانه وتعالى العرب بأن جعل منهم رسولا ، هذه الرسالة الخالدة التى جعلت من العرب أمة واحدة جعلتهم أيضاً يصلون إلى أقصى درجات الرقى والتقدم ويشيدون حضارة بواسطته ، ولهذا فإنهم مطالبون الآن بأن يعيدوا مجد أمتهم ، ومادام عهد الأنبياء قد انتهى فإن المهمة أصبحت مهمة الشعوب المنظمة ، مهمة الفكر الذى لا يتخلل عن روح الأمة ولا يغمض عينيه عن تطور العلم المعاصر والفكر المعاصر ، ولذلك كان الرئيس حافظ الأسد يقول لمن أراد أن يفيض قلبه بهذا الإيمان . أهلاً وسهلاً ، وعلى الرحب والسعة ، لأن الإسلام هو دين التسامح والنصح والمشورة ، وأن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم سجل الفضائل والأحكام الخلقية التى دعت إليها المسيحية ، ثم خطا بالإنسانية خطوات بعيدة

■ الفصل الثامن

المدى الى الامام ، فدعا دعوة صحيحة الى الديمقراطية في اسمى وأرفع أوضاعها .

وكان الرئيس الأسد يردد دائما ان النظام الذي أتى به الاسلام دعا الى اختيار رئيس الدولة « الخليفة » بواسطة المجايعة « الانتخاب العام » ، وأن هذا الرئيس يتقيد في تصريح شفون الدولة بنظام الشورى وهو صورة النظام البرلماني الحديث الذي أكدته القرآن الكريم في بعض آياته اذ جاء به قوله تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ وقوله تعالى ايضا : ﴿ وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمتم فتوكل على الله ﴾ كما أن القرآن الكريم قرر مبادئ الحرية والاخاء والمساواة ، ولم يفت الدين الاسلامي الحنيف أن يقرر أيضا مبادئ أخرى تجعل من النظام الديمقراطي حقيقة وفعلًا وهذه المبادئ هي حرية القول والرأى والنقد - نقد الحكام في سبيل المصلحة العامة .

وقد وضع الاسلام أيضا مجموعة من المبادئ الأخلاقية لتكون وقاية وحصنا منيعا يحفظ البنيان الديمقراطي الرفيع الذي شيده ، وقد سادت الديمقراطية في أروع صورها بأصولها الحقبة السليمة التي قررها الدين الاسلامي في صدر الاسلام ، وفي عهد الخلفاء الراشدين الذين طبقوا مبادئ الدين الاسلامي تطبيقا سليما رائعا يحقق للبشر ما تصبو اليه نفوسهم من حرية ومساواة وعزة وكرامة ، وكثيرا ما استشهد الرئيس الأسد بمبادئ الدعوة السليمة الى الحق ﴿ ولو كنتم فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ الخ .

وكثيرا ما أشار الرئيس الأسد الى أن وزر اهمال هذه المبادئ يقع على من أساءوا ففهمها سواء لدى الأجيال المتلاحقة أو عند المتطرفين الذين عجزوا عن فهم ضرورة التوفيق بين الأصول العامة واحتياجات كل عصر وكل شعب ، وشوهوا المبادئ الاسلامية ، وإجأوا الى العبث والتزييف في تفسيرها بحيث أصبحت مطية ذلولا لبغي الطفافة وأداة للقضاء على الحريات .

وما حدث من نكسات في بعض العواصم الاسلامية ، انما يقع وزره على كاهل طائفة من المتطرفين الذين استهانوا بالمبادئ التي دعا اليها الاسلام واستعانوا بالخداع والتفريير والبطش لتحقيق مآرب مشبوهة فأعملوا القتل وسفك الدماء وخرجوا على قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ كانوا يعملون القتل في كل من يخالفهم الرأي .. رفضوا الحوار .. حاول الرئيس الأسد أن يؤكد لهم ولغيرهم أن الحوار هو الحل الممكن ، وهو الحل الوحيد ، ومن أراد أن يصلح فعلى الرحب والسعة ومن كان مؤمنا فالحوار يتسع لدينا ، يتسع لكل المؤمنين ، ومن أراد أن يتسلح بعقيدة الاسلام ، فالاسلام هو روح العروبة هذا ما قيل للناس في كل مكان ، في المدارس والجامعات في القرى وفي المصانع ،

■ الثامن على سورية ■

ولكن بعض المدفوعين بتيارات خارجية ، ولمصلحة تيارات خارجية امنعوا في القتل والتدمير ، ولذلك كان لابد لمجلس الشعب أن يضع قانونا لمكافحة الارهاب ، ويقيم عقابا رادعا لهؤلاء الذين يقتلون الانفس وينتهكون الحرمات ويحرقون المؤسسات ، ويقتالون علماء أجلاء من علماء الدين والطبيعة والرياضيات والطب والقانون ، ولكن وعى الشعب السوري حال بينهم وبين أهدافهم ، واستطاع أن يلفظ هذه الفئة ، وأن يفرق بين المسلم المؤمن ، ومدعى الاسلام والايمان ، وأكثر ما يعتز به السوريون وجود كوكبة من علماء المسلمين داخل مجلس الشعب ، وفي المساجد ، ومن عادة الرئيس الأسد أن يقيم حفل افطار كل عام يلتقى فيه بعلماء المسلمين ، ويتبادل معهم الرأي ، ويحرص حرصا كبيرا على أن يصلى في المسجد الأموى في مختلف المناسبات الدينية ، وخاصة المولد النبوى الشريف مستلهما في هذه الذكرى روح الاسلام ، وعظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وروح الجهاد والتضحية والايثار والايمان بالعروبة « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » وقول سيد الانام « اذا عز العرب عز الاسلام ».

ويحرص الرئيس على الصلاة مع جموع الشعب في عيد الاضحى وعيد الفطر حرصا على حرمة هذه الأيام ، وكثيرا ما كان يضرب القدوة والمثل كيف يمكن أن يكون الانسان مؤمنا حقا بينه وبين ربه ومع شعبه ، وكثيرا ما أكد الرئيس الأسد حقيقة الاسلام وفلسفته وطبيعته ، فهو روحانيات وماديات ، دين وسياسة ، والبراهين التاريخية تؤكد هذه الحقيقة التي استقرت عقيدة راسخة لدى المسلمين في مختلف العصور السالفة كما أدرك هذه الحقيقة وهذا الوضع جمهور كبير من العلماء المستشرقين الباحثين في الاسلام وفلسفته وأوضاعه .

الشيء المبهر في التجربة السورية أنها لا تعرف التعصب أو العنف ، ترفض لأي فريق أن يلجأ لغير الحكمة والموعظة الحسنة .. في سورية لا توجد انتماءات طائفية ، المسلمون غير المنتمين لأحزاب هم كالمسلمين المنتمين لأحزاب .. رجال الدين المسيحي مثل رجال الدين الاسلامي ، مثل رجال الطائفة اليهودية ، في سورية كلهم يتمكنون من التعبير عن رأيهم ، الصراعات الطائفية لم تعد موجودة ، ولا يمكن لأي فئة أن تدعى أن الرئيس الأسد مع هذه الفئة ضد هذه الفئة ، ولا مع هذه الطائفة ضد هذه الطائفة .. في عهد الرئيس الأسد لا يمكن الادعاء بأن هناك فئة متسلطة على باقى افراد الشعب .

رؤية لمفكر ومؤرخ كبير

ويلقى الأستاذ الدكتور سهيل زكار أستاذ التاريخ المعروف ونائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب ، يلقي الضوء على التجربة السورية في هذا المجال فيقول : نحن في

■ الفصل الثامن

سورية من قبل نهاية الحكم العثماني وقبل مجيء الاستعمار الفرنسي سعيينا لازالة الفوارق الطائفية وعندما حاول الحكم الفرنسي المستعمر تمزيق سورية الى دويلات اقليمية ووطنية ، وسعى بشكل مثير الى اقناع الدروز والعلويين بقبول فكرته بانشاء دولة درزية ودولة علوية جاء الرفض المباشر من الأماكن التي حاول اقناعها ، ومن جميع مناطق سورية .. يكفي أن نتذكر أن سلطان باشا الاطرش هو زعيم الثورة السورية .

وانتخب بالاجماع من قبل جميع قادة الثورة .. وهو من منطقة جبل الدروز .. وكل الناس تعد . صالح العلي وحسن الخراط وابراهيم هنانو أبطال ثوار قاوموا الاستعمار الفرنسي وسعوا لتحرير البلد .. وهنا نلاحظ أنه كان هناك تعاون بين صالح العلي وبين الحركات التحررية والثورة بحماة ومع المناطق السورية الأخرى .. بمعنى أن العامل الطائفي لم يكن له مكان في الحياة السورية ، وعندما سعت الادارة الأمريكية أيام كيسنجر أو قبل ذلك الى إحياء هذا التوجه رفض وأميت هذا المسعى وازدنا تماسكا .. الآن القرية التي لم يكن بها مسجد في الشمال والجنوب وفي الغرب فيها عدة مساجد .. القرية التي لم يكن فيها مؤذن صار فيها عدد كبير من المؤذنين وصار أى إنسان يستطيع أن يكون الامام ، والمشهد الذى شاهدناه في مسجد المرحومة السيدة ناعسة والدة السيد الرئيس في شهر أغسطس ١٩٩٢ وثيقة لا تدحض على الاجماع .. وأن هذه الأمة أمة واحدة لا تعرف التمييز المذهبي ولا الطائفي .. لا يوجد مسلم مهما كان انتمائه لأى مذهب أو فرقه إلا ويرى أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وبالنسبة لغير المسلمين فقد تعايشوا مع الحضارة والعقيدة العربية الاسلامية منذ عصور مضت وعندما ذهب إلى محل مسيحي وتناقشه في أى موضوع تجده يقول لك « صلى على النبي » .. وهذا مسيحي استخدم الاصطلاح لأنه ابن الحضارة وابن المجتمع .. وبالتالي هذا الانتماء وهذه الوحدة الوطنية كانت السبب المباشر في كثير من المكاسب والانجازات ويوما تلو الآخر تزداد قوة ، لم أتعامل مع أى إنسان في أى يوم من الأيام وفكرت أن أسأله من أى جهة وما هى عقيدته .. لأن هذا هو معيار المواطنة . وقديما قيل:النساج لا يستغنى عن منتج الصوف أو القطن أو الكتان وأيضا لا يستغنى عن التاجر الذى سيبيع السلعة أو عن الخياط

معنى ذلك أن المجتمع مجتمع متكامل .. وإذا كان كذلك فينبغى أن تسهم جميع فئاته في العطاء وفي الانتاج .. وطالما حكينا عن الهدف الأساسى والأسمى وهو صنع الانسان وبنائه .. وبناء الانسان يعنى أن تبني الفلاح والبدوى . وابن المدينة وكل مواطن .. والآن نحن في عصر التقنية والمكنكة واستخدام الآلات في العمل الصناعى والزراعى كثير من المواطنين من الريف هم الذين يقودون الحياة في جميع أوجه نشاطها.

■ العامر على سورية ■

على سبيل المثال أنا عضو بقسم التاريخ بجامعة دمشق قبل بضع سنوات ربما كان أعضاء هيئة التدريس يحددون انتماءاتهم لدمشق .

أما الآن لا توجد محافظة أو منطقة بالريف إلا ولها من يمثلها ومن أكفأ الاساتذة .. وربما كبار الأدباء وعباقره وشعراء ومتقنين سيخرجهم الريف .. في تاريخنا أبو تمام ولد في قرية جاسم بمنطقة حوران - جنوب سورية ، ولم يولد في مدينة دمشق ، والبحترى من منبج ولم يولد في المدينة ، أبو العلاء فيلسوف العرب وشاعرهم الكبير ولد في معرة النعمان فهؤلاء حسب اصطلاحات الوقت الحاضر كانوا فلاحين وأبناء فلاحين لكنهم هم الذين حملوا مشاعل الفكر والثقافة ، وعندما نزيل الفوارق ونعطي الفرص لكل مواطن نكسب أكثر ونفجر ثورة اجتماعية وفكرية وثقافية حقيقية وهذا ما نعيشه الآن - وطبعاً هذا أمر له بعض ردات الفعل ، ويكون له بعض الآثار الجانبية ولكن النهر الكبير يسير ولا يابيه بالتفرعات واللاقنية والجزر الصغيرة التي يخلفها وراءه .

هل تعطلت المسيرة الديمقراطية

وأذكر أنني في إحدى جلسات الحوار مع لقيف من المثقفين وكان بينهم الدكتور سهيل زكار أن سأله أحد المثقفين العرب عن مدى صحة ما يقال بأن المسيرة الديمقراطية في سورية تعطلت قليلاً عندما بدأ قطار الإخوان المسلمين يتحرك ، وعندما استعرض أمامه دلالات اغتيال الإخوان المسلمين لنوعيات معينة ، وماذا تعنى ، فالعميد عبدالكريم مرزوق هو أول من أطلق الصاروخ على إسرائيل سقط برصاص الإخوان المسلمين .

محمد الفاضل رئيس جامعة دمشق وعضو الجمعية الجنائية العالمية .. رجل علم وليس رجل سياسة . يوسف صايغ رئيس قسم في كلية الطب جامعة دمشق. بدأوا أيضاً مؤامراتهم بإحراق مؤسسات الدولة ووضع متفجرات في الشوارع .. حادثة الأزبكية .. حوادث حمص .. حوادث حلب .. تفجير القطار .. كل هذه الأعمال من ٧٦ حتى ١٩٨٢ هل عطلت كل التوجه الديمقراطي أو رؤوس الأموال لتوظيفها في البلد .. وهل صحيح أنه بعد التخلص من جماعة الإخوان المسلمين عادت المفاهيم الصحيحة لأن توضع موضع التنفيذ ، وجاءت الخطة الاقتصادية الخمسية .. هل لكم أن تحدثونا عن هذه الأمور التي طرحناها .

قال : الدكتور سهيل زكار :

أولاً : لست مع فكرة عطلت أو أوقفت لكن قد نقول أنها سببت التباطؤ في حركة النمو

■ الفصل الثامن

الديمقراطى .. إنما لم تعطل ولم توقف .. وقد قلت من قبل ان الادارة الأمريكية ومن مع هذه الادارة من أوساط أوربية أو غربية أو غيرها وأوساط عربية عميلة تورطت في تفجير الاداة الدينية وجعلها وسيلة للتمزيق ، وطرحنا ما تم في قبرص ، وما تم في لبنان وانظر إلى ما قام به الاخوان المسلمون أو من أطلقوا على أنفسهم اسم الاخوان المسلمين .. انظر إلى ما قاموا به ضمن هذا المنظور .. أولا لو كانوا مسلمين ما أقدموا على ذلك ولو آمنوا بمعنى كلمة أخوة ما أقدموا على ذلك .. هم بصريح العبارة عملاء .. قسم منهم دربه صدام وسلحه صدام ودفع لهم الاموال ، وقسم كبير منهم تدرب في معسكرات في الأردن ويتمويل من صدام حسين بموافقة من الملك حسين وبإشراف من الـ [CIA] وفيما أعلن الملك حسين اعتذاره عن هذا الموقف.

كل الذين قاموا بالعمليات باستثناء بعض الشباب المغر بهم أو الجريحين، أقصد كل الذين وقعوا في موقع القيادة هم عملاء ومنحرفون وأعرف كثيرا منهم وعاصرتهم من الذين مازالوا على قيد الحياة والذين توفوا أو في مكان آخر .. صدقا أنا لا أثق في أى منهم ولا أمنهم على كئس ماء .. هم عملاء بكل ما تعنيه الكلمة والاسلام برىء منهم .. ولدينا القاعدة القرآنية فيما قاله الله لنوح : إنه ليس من اهلك .. إنه عمل غير صالح والقاعدة الأخرى قاعدة مسجد الضرار .. في آخر غزوة للرسول صلى الله عليه وسلم نحو بلاد الشام تجمع المنافقون وقاموا بعمليتين أول عملية .. محاولة اغتيال الرسول عليه السلام فأخفقت والعملية الثانية هى أنهم بنوا مسجدا في أطراف المدينة وأرادوا أن يجمعوا أو أن يكون مقرا للمنافقين فنزلت آية في القرآن الكريم وحددته انه مسجد ضرار وأمر النبي صلى الله عليه وسلم من وحى ربانى بحرق المسجد على مَنْ فيه للتخلص من هذا الخبث . ونحن بحمد الله نجد قيادة حكيمة لم تفقد توازنها ولا بصيرتها في الفتنة العمياء لأن كثيرا من الناس - دائما - يفقدون توازنهم في الفتنة .. أما قيادتنا فاستطاعت ان تحصر الفتنة وبالاخير تطفئها بأقل خسائر ممكنة ، وحمداً لله اجتزنا المحنة وعدنا إلى زيادة وتيرة الاصلاح والعطاء في كافة الأوجه ، وبعض الناس يقولون إن ظاهرة الحكم وشكل الحكم .. ونحن لا يهمننا العناوين ولكن شكل التطبيق هو الذى يهمننا .

وأنا كباحث للتاريخ أنظر إلى التحول الاجتماعى والتحول الاقتصادى قبل أن أنظر إلى التغير السياسى وأرى أن الحدث السياسى محصلة لأسباب اجتماعية واقتصادية وثقافية ويهمنى التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وأرى عندما تحدث عملية البناء الاقتصادى والثقافى والصناعى والأمنى، تحدث عملية التغير السياسى بصورة آلية مثلما يحدث أثناء المرض تناول العلاج فبعد انتهائه ينال الانسان الصحة بشكل طبيعى ، ولا يجب أن تشغلنا بعض الحملات ..

■ التآمر على سورية ■

الانسان مثلما قال أحد الكتاب العرب يتغير من عقله وإن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

الفرق بين الاخوان المسلمين والأصوليين

هناك من يرى أنه من الأهمية بمكان التفرقة بين تنظيم الاخوان المسلمين والأصوليين ، فالأصوليون يعتمدون على الكتاب والسنة ويحافظون على التراث والاخلاق والبيئة ، ولكن الدكتور سهيل زكار لا يميل لكل هذه الاصطلاحات ويقول : إنني مسلم فقط إن الدين عند الله الاسلام ولا يوجد في الاسلام لا أصولية ولا غير أصولية والرسول صلى الله عليه وسلم سُئل عن المراتب في الاسلام قال فيه .. اسلام وايمان واحسان ولم يقل هناك أصولية وعدم أصولية فانا شخصا لا أقبل كل هذه الاصطلاحات إن الدين عند الله الاسلام ،والاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. والاسلام كل .

إنني أقوم بعبادتي لله ليس لكي أكون بين الناس مميزا ولكن هذه علاقة بين العبد وربّه ، وذلك للجزاء الآخروي وليس لعمل مستهلك في هذه الدنيا .. انني مسلم لانقاذ روعي ولايمانى بعقيدة الاسلام ، والاسلام نظام فيه حل لكل مشاكل بنى البشر .. وليس لكي أكون أصوليا أو محافظا أو غير ذلك .. ولا أقبل هذه الاصطلاحات لانها كلها مُصدّرة إلينا تصديرا ، وليست من صنع تاريخنا ، وإننى كباحث في تاريخ الاسلام لم أجد أحداً سَمّى العز بن عبد السلام أو الإمام الشافعى أو أبا حنيفة أو الإمام مالك بأى تسمية من هذه التسميات ولا هم سَمُّوا أَنْفُسَهُمْ بذلك . والاسلام يكفيننا شرف هذا الانتماء ولا نحتاج معه إلى تسمية أخرى .

الاخوان المسلمون خطأ البداية وخطيئة النهاية

قبل أن نبدا الحديث عن مؤامرة تنظيم الاخوان المسلمين وكيف خطط لها وكيف سار تنظيمها وكيف تطورت ، وكيف انتهت وعلى ضوء الوثائق التى أجابت بوضوح على هذه الأسئلة وغيرها ، فإنه من الأهمية بمكان أن نعرف لماذا اختيرت سورية مكانا لهذه المؤامرة التى جمعت بين ائتلاف من نوع مثير؟

وليس سرا ان الولايات المتحدة الأمريكية فى اطار سعيها لفرض هيمنتها على المنطقة العربية ، والتحكم بمقدراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية قد سعت الى ازالة كل العراقيل التى تعرقل تحقيق هذا الهدف ، ومن المعروف ان اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالمنطقة العربية ليس حديث عهد ، ولا يعود فقط كما يتصور بعضهم

الى اواسط الخمسينات يوم طرحت الادارة الامريكية نظرية ايزنهاور لملء الفراغ الذى تصورت الادارة الامريكية انه بمقدورها أن تحل محل اتباعها فى حلف الناتو بعد أن تقلص النفوذ البريطانى والفرنسى الاستعمارى فى منطقة الشرق الاوسط اثر اندحار وهزيمة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

تتبع مسار الأحداث منذ بدايات القرن الحالى يشير الى أن الاهتمام الأمريكى ترافق مع زرع الكيان الاسرائيلى فى فلسطين المحتلة ، ولقد أخذت مراحل هذا الاهتمام تتصاعد بشكل متصل حتى وصلت الى قمته بعد حرب تشرين - أكتوبر التى أحدثت زلزالا داخل اسرائيل وقهرت أسطورة اسرائيل التى لا تهزم ، ووضعت الأمة العربية على بداية طريق جاد وطويل لاسترجاع الحقوق المغتصبة ، ولقد شهدت المنطقة محاولات متصلة للالتفاف على حرب تشرين وفرض حلول لا تتسجم مع الامانى القومية من جهة وتلبى احتياجات اسرائيل من جهة أخرى ، وليس من قبيل المبالغة أن سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد ظلت تواجه بوجه خاص تحديات ضد محاولات متصلة للهيمنة على المنطقة العربية الامر الذى جعلها تستحق وبحق تسميتها بقلعة الصمود والتصدى فى زمن التداعى العربى ، ولقد أدى الصمود السورى إلى احباط محاولات عديدة للاطباق على المنطقة ، يكفى أن نشير الى اسقاط الرئيس حافظ الأسد لمشروع ريجان وقطع الطريق على اللاهثين وراءه ، يكفى أن نشير أيضا الى النصر التاريخى الذى حققته سورية فى نيسان عام ١٩٨٤ بإسقاطها اتفاق ١٧ ايار.

اتفاق ١٧ مايو - ايار الأمريكى الاسرائيلى الكتائبى الذى أريد فرضه على لبنان ، وسقط قبل أن يجف مداد الحبر الذى كتب به على حد تعبير الدكتور أسامة الباز وكيل أول وزارة الخارجية المصرية ، ومدير مكتب الرئيس للشئون السياسية ، هذه المواقف وغيرها جعلت القوى المعادية للأمة العربية تدرك حجم الخطر الذى تشكله سورية على اطماعها فى احتواء المنطقة ، وأن استمرار هذا الوضع سيحول دون تنفيذ المخططات الكثيرة التى تستهدف الهيمنة على المنطقة العربية ، ولقد تتابعت المؤامرات الخارجية التى كانت أحداث لبنان مظهرا لها ، إلا أن سورية ، وفى اطار مبادرة تاريخية وأخوية تجاه لبنان قامت بحماية لبنان والحفاظ على وحدته أرضا وشعبا بعد أن كانت مخططات تقسيم لبنان الى كيانات طائفية هزيلة قد أعدت فى اطار توفير المناخ المواتى للكيان الاسرائيلى للبقاء والاستمرار ، وفى نفس الوقت حافظت سورية بقيادة الأسد على وجود المقاومة الفلسطينية - على الرغم من اخطاء بعض اطراف قيادتها - لأن تصفيتها كانت من بين أهداف المخطط التامرى ، وسوف يتوقف التاريخ طويلا للتقدير والعرفان ، وهو يسجل تصدى سورية للمعتدين الصهاينة فى أوائل يونيو حزيران ١٩٨٢ عندما تعرض لبنان للعدوان الاسرائيلى الهمجى ووقفت وحدها تدافع عن لبنان وعن الأمة العربية ،

■ التعليم على سورية ■

وضرب رجالها البواسل أروع أمثلة البطولة والتضحية برا وجوا نيفا وسبعين يوما ،
وعندما أراد الاعداء استثمار نتائج الحرب بفرض اتفاق الاذعان على لبنان وققت سورية
بقيادة الرئيس الأسد بقوة وحزم ضد هذا الاتفاق الذى كان من شأنه أن يحول لبنان الى
حمية اسرائيلية ويقطع أواصرها بمحيطها العربى ، وانتصرت ارادة الحق وسقط اتفاق
١٧ ايار- مايو، وواصلت سورية جهودها الأخوية تجاه لبنان لتحقيق الوفاق الوطنى
على الساحة اللبنانية عبر حوار الأشقاء .

هنا فكر المتآمرون فى محاولة التأثير على صلابة الموقف السورى من الداخل ،
اعتقلوا ان سورية ستكون سهلة المنال ، وكان من الطبيعى أن يفتشوا عن احتياطيهم
لتنفيذ مؤامرة قذرة ترمى إلى اغراق سورية ببحر من الدم ، ووجدوا فى بعض قيادات
حزب الاخوان المسلمين ضالتهم فعمدوا الى تدريب بعض افرادها على أعمال القتل والغدر
وتخريب المؤسسات فى معسكرات اقيمت لهم خصيصا فى الأردن وفى العراق ، وأمدوهم
بكميات كبيرة من الأسلحة ، مسدسات ، بنادق ، رشاشات ، قاذفات أربى جى مدافع
هاون ، وكل ما يحتاجه النشاط التخريبى على صعيد سورية ، ووضعوا لهم الاموال التى
تمكنهم من تجنيد المزيد ، وكما كشفت الوثائق فقد كانت التوجيهات أن يعملوا القتل فى
الاطفال والنساء والشيوخ والعمال والفلاحين والطلبة والاساتذة والمهندس والمحامى
ورجال الشرطة . والجنود ورجال الدين ، وجميع فئات المجتمع بغير تمييز على النحو
الذى وضح فى المجازر التى ارتكبوها ضد فئات المواطنين كمجزرة مدرسة المدفعية بحلب ،
ومجزرة الازبكية فى دمشق ، ومجازرهم الأخرى فى حماة وغيرها ، ولقد امتدت جرائم هذه
الطفمة لتتناول المؤسسات الاقتصادية التى بنيت بعرق الجماهير الكادحة ، ولقد احتسب
هؤلاء وراء التستر بالدين ، وفاتهم ان الدين الاسلامى هو دين الرحمة والانسانية
والاخوة والمحبة والتسامح ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ ﴿صدق رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى حديثه «خلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله» ، وأحكام
الشريعة الاسلامية تحرم قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق﴾ ﴿من قتل نفسا بغير
نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس
جميعا﴾ ، ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه
ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما﴾ ولقد كانت أعمال هذه الفئة دافعا لصدور القانون رقم
٤٩ لعام ١٩٨٠ الذى حدد جزاء من ينتمى لهذه الفئة بعد أن أعطى المضللين والمغرر بهم
الفرصة الكافية ليتوبوا الى رشددهم .

تنظيم الاخوان المسلمين في سورية

ترجع هذه النشأة الى الفترة الممتدة من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٣٦ وهذه الفترة كانت كافية لامداد جوانب تنظيم الاخوان المسلمين الى خارج مصر وقد ساهم في ذلك بعض الطلبة الذين وفدوا الى معاهد الازهر للتخصص في العلوم الدينية ، فقد كان التجمع الاخواني الاول في سورية بين تنظيم طلاب مدرسة الشريعة في حلب باسم [دار الارقم] ثم أسسوا في دمشق جمعية الاخوان المسلمين ، وفي حمص الرابطة ، وفي حماة الاخوان المسلمون ، ثم انتشر التنظيم باسم جمعيات في كل من دير الزور واللاذقية وأنشئ للتنظيم فروع في بعض الدول الغربية ، وحيث كان يتابع الطلبة السوريون دراساتهم العليا ، ولم يستمر وضع الجمعيات المنتشرة في محافظات سورية طويلا بل انضموا في تنظيم واحد سمي تنظيم شباب محمد وعقد هؤلاء مؤتمرهم الاول والثاني في حمص ١٩٣٧ والثالث في دمشق عام ١٩٣٨ ، وتقرر فيه جعل مركز القيادة العامة في حلب لابتعادها عن مركز السلطة المركزية في دمشق ، وللاستفادة من قربها للاراضى التركية ، باعتبار أن الاستعمار العثماني كان امتدادا للخلافة الاسلامية حسب قولهم ، وعقد المؤتمر الرابع في حلب حيث اتخذ قرارات بانشاء تنظيمات شبه عسكرية عرفت باسم السرايا ، والفتوة وفي عام ١٩٤٤ عقد المؤتمر الخامس في حلب واتخذت فيه مقررات لتشكيل لجنة مركزية عليا من ممثلي كافة الفروع للمحافظات ، وتقرر أن يكون مقر اللجنة في دمشق ، كما تم انتخاب الشيخ مصطفى السباعي مراقبا عاما لتنظيم الاخوان المسلمين في سورية ، وتقرر تغيير اسم تنظيم «شباب محمد» باسم حزب الاخوان المسلمين ، وكان من أبرز زعمائهم مصطفى السباعي ، ومحمد المبارك ، ومعروف الدواليبي ، وكان من أبرز نشاطهم تأسيس المعهد الثانوي العربي في حلب ، ثم دار للطباعة والنشر العربية في دمشق ، ثم صحيفة المنار ، وكان واضحا أن التنظيم السوري للاخوان المسلمين يشمل سورية ولبنان ، وفي عام ١٩٤٦ عقد المؤتمر السادس للاخوان المسلمين في دمشق ، حيث كانت الحكومة آنذاك تبارك أى عمل يناهض الاحزاب الوطنية باسم الدين واتسم النشاط في هذه الفترة بالسعى نحو التوسع في التنظيم داخل المدارس والجمعيات العامة والمساجد بواسطة الصحف والمطبوعات بالاضافة الى اقامة المعسكرات التدريبية ، وفي عام ١٩٤٧ اشترك تنظيم الاخوان المسلمين في الانتخابات وفاز أحد مرشحيه عن دمشق ، وفي انتخابات الجمعية التأسيسية استطاع حزب الاخوان المسلمين الوصول الى مقعدين نيابيين وتمكن بواسطتهما من السيطرة على عدد من النواب داخل المجلس ، وكان أحد ممثلي هذا الحزب ويدعى محمد مبارك وزيرا في العديد من الوزارات المتعاقبة ، وفي عام ١٩٥٤ امتنع الاخوان المسلمون عن المشاركة في المعركة الانتخابية واستغلوا صدور احكام في مصر على بعض قادة حزب الاخوان المسلمون بالاعداء عبدالقادر عودة وجماعته حيث قاموا بمظاهرات احتجاج في عدد

■ التاريخ على سورية ■

من المدن السورية أدى الى سحب الحكومة المصرية لسفريها من دمشق احتجاجا على تزايد نشاط الاخوان المسلمين لأن المصريين في حينها كانوا يعانون من حملة يقوم بها الاخوان المسلمون في مصر ضد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، واستمرت حتى العدوان الثلاثي لمصر ١٩٥٦ ويقال ان الاخوان المسلمين نجحوا في احباط اللقاء بين القطريين المصري والسوري الذي توصلا اليه في العشرين من تشرين - أكتوبر ١٩٥٥ وكذلك تجميد الاتفاقية حول انشاء قيادة عسكرية موحدة لمواجهة حلف بغداد ، وفي عهد الوحدة المصرية السورية بين عامي ١٩٥٨ - ١٩٦١ انتقل حزب الاخوان الى مرحلة العمل السري حيث ساهم في ضرب الوحدة عام ١٩٦١ ، ثم شارك في حكومة الانفصال حتى قيام ثورة آذار ١٩٦٣ .

الاخوان المسلمون في مواجهة سورية منذ قيام ثورة آذار ١٩٦٣

تشير بعض المصادر السياسية الى أن حزب الاخوان المسلمين عارض ثورة مارس آذار منذ اليوم الأول لقيامها حيث تمكنت عناصر منهم في عدد من المحافظات في تحريض البعض ضدها ، واثارة حوادث شغب في بانياس وحمص في شهر فبراير - شباط ١٩٦٤ وفي حلب في شهر مارس - آذار ١٩٦٤ ، وفي حماة في شهر ابريل - نيسان ١٩٦٤ ، ومن خلال هذه الاحداث بدأ مروان حديد من حماة طرح فكرة العمل المسلح ضد السلطة . وأعقب ذلك اقامة دورات تدريبية في الأردن لتدريب عناصر الاخوان المسلمين على كيفية استخدام السلاح للاستفادة منهم مستقبلا ، وفي عام ١٩٧٣ ومن خلال الاحداث التي رافقت طرح الدستور الدائم على الاستفتاء الشعبي ظهر مرة ثانية : مروان حديد ودعا علنا الى تشكيل تنظيم مسلح من الاخوان المسلمين لمحاربة النظام القائم في سورية .

ولأن تتبع نشاط الحركة ليس بين أهداف هذا الكتاب فإننا نشير الى أن تنظيم الاخوان المسلمين وجد دعما واهتماما لدى بعض الأنظمة العربية وخاصة في الأردن والعراق حيث مكنتهم هذا الدعم من متابعة نشاطهم منذ عام ١٩٧٩ ، وتشير المصادر المشار إليها الى أن تنظيم الاخوان المسلمين وجد دعما أيضا مع القوى المعادية ، وأقام علاقة وثيقة مع الحكومتين البريطانية والأمريكية اللتين شجعتا على اقامة تنظيمات طائفية معادية للنضال القومي العربي ضد التحرر .

وكانت المخططات التي طرحتها القوى الاستعمارية آنذاك تقوم على أساس استغلال المشاعر الدينية عند الجماهير وتملقها وتحريضها وتحويلها الى قوة معادية للمصالح الحقيقية لهذه الجماهير ، ولكي تكون في خدمة أهداف السياسة الاستعمارية ،

■ الفصل الثامن

وليس سرا انه كان من السهل نسبيا وقتها اثاره النعرات الطائفية في سورية ولبنان وفلسطين بحكم تعدد الطوائف والمذاهب فيها .

وعلى الرغم من أن نشاط تنظيم الاخوان المسلمين يرجع الى النصف الثانى من الثلاثينات فإن نشاطهم الفعال لم يبدأ إلا في أواخر الأربعينات وبعد أن تولى تنظيمهم الشيخ مصطفى السباعي .

وقد برز دور التنظيم في معارضة السياسة السورية المعادية لحلف بغداد كما عارضوا التقارب المصرى السورى وبعد قيام الجمهورية العربية المتحدة لجأوا الى العمل السرى ، وعادوا الى الظهور بعد الانفصال بين مصر وسورية في سبتمبر أيلول ١٩٦١ ، وأسهموا في الحكومات التى تولت الحكم في تلك الفترة ، وبعد ثورة الثامن من مارس آذار ١٩٦٣ وقفوا موقف العداء منها ، ولكنهم عادوا الى التحرك بعد الردة التشريعية ونكسة حكومة الحزب في العراق في ١٨/١١/١٩٦٣ فقد اعتقدوا أن الفرصة قد سحلت لهم في سورية بسقوط حكم الحزب في العراق ولكن محاولتهم لاثارة العصيان في دمشق وحمص أخمدت ، ولكنهم ما لبثوا أن جددوا محاولتهم بعد شهرين فاستغلوا ذكرى قيام الوحدة المصرية السورية في ٢٢ شباط فبراير ١٩٦٤ لتجديد محاولات اثاره الفتنة في **بالياس** و**حمص** وحلب في شهر مارس آذار ١٩٦٤ ، وفي حماة في شهر نيسان ابريل ١٩٦٤ [حوادث جامع السلطان] التى يعتبرونها في دمشق بداية العنف المسلح الذى طوره الاخوان المسلمون فيما بعد ضد ثورة الثامن من آذار ، وخاصة بعد مغادرة عصام العطار مراقب عام تنظيم الاخوان المسلمين في سورية الى الخارج وظهور قيادات جديدة للتنظيم .

بعض المراقبين يشيرون بأصابع الاتهام الى تنظيم الاخوان المسلمين في مساندة مخطط السياسة الأمريكية بعد حرب ١٩٧٣ ، وهو المخطط الذى قاده هنرى كيسنجر بعد حرب تشرين أكتوبر والذى عمل على اجهاض منجزات هذه الحرب والتى تجلت في بروز أهمية التضامن العربى ، وزج جميع الطاقات العربية في المعركة ضد العدو ، كانت الاهداف التى يسعى اليها كيسنجر تقوم على تعريب الصراع في المنطقة واعادة العرب الى جو الهزيمة واليأس ، وعزل الاقطار العربية عن بعضها البعض ، وفرض الصلح مع اسرائيل على العرب ، الى جانب اثاره الصراعات الطائفية في المنطقة العربية وطرح سياسة الخطوة خطوة وتصفية القضية الفلسطينية .

غير أن التطورات التى جرت بعد ذلك أحبطت المحاولات الأمريكية ، وساعد انعقاد مؤتمر القمة العربى السابع في الرباط في ٢٦/١٢/١٩٧٤ على الوصول الى نتائج ايجابية أهمها الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى وحيد للشعب العربى

■ التآمر على سورية ■

الفلسطيني ، وطرح القضية الفلسطينية بجميع أبعادها ، وقد أدى اخفاق السياسة الأمريكية في تخريب مؤتمر القمة السابع الى تفجير الأزمة اللبنانية بدءاً من مجزرة عين الرمانة في ١٣/٤/١٩٧٥ ضد المقاومة الفلسطينية ثم تتابعت الاحداث بعد ذلك على النحو المعروف .

وتشير المراجع التاريخية الى أن تصعيد الاخوان المسلمين لتآمرهم على سورية يرجع الى هذه الفترة ، ويرتبط بالاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية التي طرحت بعد حرب أكتوبر تشرين التحررية لاثارة الفتنة الطائفية وازعاج تماسك الجبهة الداخلية . ويشير أيضا الى أن الاخوان المسلمين بدأوا محاولات اعادة تنظيمهم في سورية منذ بداية عام ١٩٦٨ ومطلع ١٩٦٩ عندما حضر عصام العطار من ألمانيا الغربية الى عمان ثم الاتفاق على تأسيس قيادة مؤقتة تضم ممثلين عن محافظات سورية ، وأقيمت اول دورة تدريبية لعناصر الاخوان المسلمين عام ١٩٧٠ .

وظهرت أعمال هذا التنظيم عام ١٩٧٣ في فترة الاستفتاء الدائم على الدستور وفي منتصف عام ١٩٧٥ بدأ الاخوان المسلمون في التنفيذ ضمن الدور المرسوم لهم في المخطط المستهدف نظام الحكم في سورية ، ويضيف المصدر المشار اليه أن المرحلة الأولى من المخطط استهدفت اغتياالات فردية للبارزين من المدنيين والعسكريين في سورية بهدف القاء الذعر في نفوس المواطنين واظهار الاوضاع الأمنية بمظهر عدم الاستقرار بالاضافة الى الايحاء بالطائفية وتغذيتها ، ولقد تصاعدت هذه الاغتيالات حتى بلغت ذروتها في مجزرة مدرسة المدفعية في حلب في يونيو/ حزيران ١٩٧٩ ، ثم بدأ بعد ذلك الانتقال من الاغتيالات الفردية الى الاغتيالات الجماعية ، وقد تمثلت هذه المرحلة في تخريب المؤسسات الاقتصادية وتدميرها لضعاف المجهود الاقتصادي للبلاد ، وكذلك الاعتداء على المواقع العسكرية والتخطيط لنسف بواخر وقود الطائرات في البحر ، ثم كانت المرحلة الثانية من المخطط تتمثل في اثارة الفتنة والعصيان المسلح في مدينة حماة عام ١٩٨٢ حيث أعمالوا القتل والمجازر الدموية ، وكاد هذا المخطط أن يصل الى الفتنة لولا أن تصدت السلطة لتصفية المتآمرين وصادرت جميع الأسلحة التي كانت بحوزتهم فأخفقت هذه الفتنة في تحقيق أهدافها ، وسقطت معها جميع الأهداف التي استهدف المتآمرون التوصل إليها ..

جوهر الخلاف

يكمن جوهر الخلاف بين السلطة السورية وتنظيم الاخوان المسلمين في اصرار التنظيم على استمرار العلاقة التناقضية بصورة شاملة بين الاسلام والحقائق الأخرى كالعروبة والمعاصرة والعلم والثورة .. السلطة ترى أن تنظيم الاخوان المسلمين يعتقد انه لكي يتمسك بالاسلام فلا بد أن نلغى كل الانتماءات الأخرى حيث يعتقدون أن

■ الفصل الثامن

الانتماءات الأخرى يمكن أن تخلق بعض أشكال التعثر أمام الاسلام كمادة نظرية وكنص عقائدى وكناء تنظيمى ، يضيفون أيضا أن القومية العربية ، نقيض للانتماء الاسلامى ، وواقع الحال ان الاسلام والعروبة جزءان عضويان فى مسيرة واحدة ، وأن الله سبحانه وتعالى أعز العروبة بالاسلام ؛ وأعز الاسلام بالعروبة ، وهو أمر معروف تاريخيا ومتداول علميا عند كل السلف الصالح ولدى كل الباحثين المسلمين عربيا أكانوا أم غير عرب ، والاساءة للعروبة والاسلام والمعاصرة والعدل انما تشكل فى جوهرها اساءة للاسلام ، وللمسلمين ، وهم فى سعيهم لبناء دولة الاسلام واقامة حدود الله وشرعه كما يقولون يعطون أنفسهم حقوقا يرفضها جوهر الاسلام ، فالاسلام منطلق حضارة وتفاعل أما التكفير والتحقير والعداء فأمر يرفضه القرآن الكريم وترفضه السنة المطهرة ، كذلك فإن العنف والقتل والارهاب تحت مظلة الاسلام مناقض للمبدأ القرآنى الذى يجعل قتل النفس البشرية عملية تعادل قتل الناس جميعا ، الاسلام ليس نقيضا للمعاصرة وللعلم ، ولتفجير الطاقات الكامنة فى الانسان فالؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، والاسلام وضع مبادئ عامة وأرسى قواعد للاجتهد والقياس والاجماع والمصالح المرسله .. الخ .. الاسلام وضع قواعد عامة ، وترك تفصيلات الحياة لاستباحتها ، من هذه القواعد العامة . ان القيمة المطلقة والكبرى فى الاسلام هى الانسان من جاءت لأجله الرسالات وأعدت الجنة والنار ، ولخدمته موجودات الأرض والسماء ، والانسان تطور وتواصل ، والزمن جوهر التطور والتواصل فكيف يجوز أن يدعى الاخوان المسلمون أنهم مع الاسلام كمبدأ كنعنى وأساس فى الحياة فى الوقت الذى يتجاهلون فيه بل ويتناقضون مع الانسان والعصر غاية الاسلام ومحور حركته ، ان تحدى التخلف والجهل والتراجع ليس إلا جانبا من المعركة الشاملة التى دعا اليها الاسلام لاحداث النهوض المطلوب ، السلطة ترى أن الاهداف التى يسعى اليها تنظيم الاخوان المسلمين من خلال أساليب القتل والتفجير والاغتيال وأن زرع الجو السياسى والاجتماعى والنفسى للجماهير بالاضطراب والقلق من خلال القتل والتفجير .. الخ هدفه اضعاف رؤية الجماهير لحقيقة ما يجرى على الساحة العربية .

أما الهدف الثانى فهو افساح المجال للبدائل المستوردة لتكون الطائفية بدل الوحدة الوطنية والتخلف والجهل والخرافة بدل العلم والتقدم والثورة والمعاصرة ، والتجزئة بدل الوحدة والانغلاق بدل التفتح والانفتاح .

ويقول المؤرخ الدكتور سهيل زكار : ان الاخوان المسلمين فى هذه المرحلة تسلبوا وقتا يحتاج الى عناية خاصة ، ويضرب مثلا لما حدث فى بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة ببضعة أشهر عندما جاء الذين تجمعوا حول النبى صلى الله عليه وسلم بالعقبة بمكة وكان عددهم قرابة المائة مسلح وأهل مكة نائمون والحجاج نائمون ليلا وكذلك قبائل العرب ، وقبائل

■ الاعراب على سورة ■

شبه الجزيرة .. قام واحد من الموجودين وقال : يا رسول الله ماذا لو ملنا على أهل الموسم وأهل مكة ميلاً رجل واحد ؟ فتبسم الرسول وقال ما بهذا أمرنا ، ما بهذا أمرنا .. فهو لم يؤمر بالقتل وعندما خاض معركة بدر طلب من المسلمين عدم ملاحقة الفارين من جيش قريش واستخدم الحرب كوسيلة ردع في المعركة ، ومنع مطاردة المهزومين وقتلهم في كل معارك النبي صلى الله عليه وسلم . وجاء النبي رحمة .. وعندما دخل مكة قال: ماذا ترون انى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم قال : فاذهبوا فانتم الطلقاء .

يضيف الدكتور زكار عندما جاء أحد المسلمين الى الرسول عليه السلام وقال له انتقلت لقتلى بئر معونة .. شاهدت اثنين تظاهرا بالاسلام فقتلتهم فقال له الرسول : هل كشفت عن قلوبهما ؟ وعاقبه الرسول لما اقترفه بحسن نية ودفع دية القتيلين .

من الذى يسوغ قتل المسلمين وترويع الأمنين ؟! هل الدين يؤيد القتل ، أو تفجير الطائرات وترويع الأمنين ؟!

لماذا تحرك الاخوان المسلمون ضد سورية ؟

ترى الدوائر السورية أن تحرك الاخوان المسلمين بهذه الشراسة ضد سورية مرحلة ما بعد أكتوبر تشرين هدفه تهيتة الطرف المناسب لتحقيق هدف خارجي ولإريك الجماهير واشغالها عن التصدى لهذا الهدف في هذه الفترة التى يعانى منها الوطن العربى من حالة التفكك والتناقض ، وواضح تماما أن سورية العربية التى قادت مشوارا دعويا فيه التضحيات الكبيرة والوعى المتقدم لاجهاض التحرك الاطلسي الاسرائيلي في لبنان ، والتى استطاعت أن تمنع أى احتمال لتشكيل طائفى تشكل عائقا أمام أهداف عديدة في المنطقة يساهم فيها تنظيم الاخوان المسلمين الذى يسعى بدوره لنسف مرتكزات الوجود القومى .

رفض الارهاب والعنف والتطرف

رؤية الرئيس الأسد للاسلام أنه دين واجه كل متطلبات الحياة ، وهو كما يقول : دين الانسانية ، فيه العقيدة ، وفيه الشريعة ، والأحكام التى جاء بها منظمة حياة الانسان الفرد والأسرة والجماعة .. نجد هذا واضحا ، إما مفصلا تفصيلا جزئيا في السُّنة ، وإما مُبَيَّنًا على وجه الاجمال في القرآن الكريم ، ورؤية الرئيس الأسد للاسلام أنه كان بداية فتح عهد جديد ، وكانت ولا تزال الدعوة الاسلامية وستبقى دعوة عامة لكل البشرية وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولقد مرت القرون تلو القرون بعد دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقيت صالحة لكل زمان ومكان .. فهى الرسالة

■ الفصل الثامن

الخاتمة ، ولم يأت رسول بعده على امتداد أربعة عشر قرناً مما يؤكد صلاحية هذه الدعوة لكل العصور ، ومن المعروف أن الرسائل السماوية كانت تتلو بعضها بعضاً ، بل كان بعضها يعاصر بعضها ، وبقي القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وبقي كذلك دون تحريف أو شبه تحريف ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولقد جاء الاسلام في وقت كانت البشرية فيه تترنح تحت ضربات الشك والخيرة والتردي ، فأوحى الله بالقرآن والاسلام إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليرد الخلق إلى الرب ، وليكشف عن غريزة التدين في النفس البشرية ، وما تغشاهما من ضلال وتحريف وأدى الاسلام هذه المهمة المقدسة بكل نجاح واقتدار ، فأيقظ في النفس البشرية الفطرة الكامنة التي فطر الله الناس عليها وجهها نحو الايمان بالله الذي لا يمكن أن يكون هذا الكون الهائل العجيب قد خلق ونسق في غيبة عن وجوده ، ووجه هذه الفطرة إلى الايمان بالغيب ، إيماناً يستطيع به العقل الانساني أن يستشرف عن طريق هذه الرؤية مصيره في هذا الكون ، والدين الاسلامي كما يقول الرئيس الاسد دائماً وبحق هو أكثر الديانات السماوية وضوحاً وتحديداً في تحريم القتل والعدوان وترويع الأمنين ، وهي جرائم يعاقب عليها الدين الاسلامي الحنيف أشد العقاب ، ولا يقبل لمرتكبيها توبة ، ويضرب في نار جهنم خالداً فيها أبداً .

الاسلام والاخوان

والسؤال الآن : إلى أي مدى تتفق أعمال وأقوال قيادات تنظيم الاخوان المسلمين في سورية مع تعاليم الدين الاسلامي ؟ وهل يمكن أن تعكس ممارستهم التي أشرنا إليها في الصفحات السالفة فهماً صحيحاً للاسلام ؟ وللإجابة على ذلك نطرح الحقائق التالية :

أولاً : قال تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً ، فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً﴾.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم - في النهي عن قتل النفس - « لو اجتمع أهل الأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار » وقال أيضاً : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » وهو القائل : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم بريء » .

ولذلك فالدين الاسلامي لا يعرف الغدر ولا يعرف إلا المواجهة الشريفة ، أما محاولة

■ الناصر على سورة ■

فرض الرأى بالسلاح فذلك أمر منكر شرعاً ، فما بالناس إذا وصل الأمر لحد الاغتيال ، فذلك أشد نكراً ، وهؤلاء الآثمون الذين يقيمون من أنفسهم قضاة على من يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله هم كفار مأواهم النار وبئس المصير .

ولأهمية هذا الموضوع والذي ثار حوله جدل طويل - في الفترة الأخيرة - نلخص بعض الأمور التي طرحها أمامنا فضيلة الامام الشيخ محمد متولى الشعراوى ، والتي يمكن أن تشكل محاولة للإجابة على موقف الاسلام من الارهاب :

١ - كلمة اغتيال معناها الأخذ غفلة ، والذي يُقدم على الاغتيال تكون له دوافعه ، فقد يكون سبب ذلك الانتقام ، أو الخوف من شر متوقع ، ومن الناحية النفسية فإن الذى يُقدم على الاغتيال يكون - باعترافه - غير قادر على مواجهة حركة حياته المواجهة الطبيعية .. أى مواجهة الرأى بالرأى .. ومقارعة الحجة بالحجة . ليصبح فى النهاية عاجزاً عن مسيطرة الحياة الانسانية الطبيعية . والشرعية الاسلامية تؤمن بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل اللين الذى يوصل إلى الحقيقة دون إرغام عليها ، لأن الارغام أو الاكراه لا يمكن أن يُنشئ عقيدة قلبية ، ولذلك فأساس الاسلام الثابت (لا إكراه فى الدين) الارهاب يدخل فى الفكر الاسلامى تحت عنوان (ترويع الأمنين) ، وترويع المؤمنين حرام بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تروعوالمؤمنين معاشر المسلمين » كما أن الرسول الكريم نهى أصحابه أن يدخل أحدهم السوق ونصاله - أى سيوفه - مكشوفة حتى لا تصيب أحداً من غير قصد ، وكان الصحابى أبوسعيد الخدرى يبكى كلما ذكر هذا الحديث قائلاً : « نُهينا أن ندخل فى السوق بنصالنا وهانحن اليوم يرمى بها بعضنا فى صدور بعض ، فإذا كان هذا ما يتصل بترويع الأمنين فما بالناس بالاغتيال ؟ فإن الدين الاسلامى يعتبره نوعاً من الغدر .

٢ - هناك من الوقائع ما يؤكد نهى رسول الله للمسلمين عن القتل غدراً ، فالمسلمون فى مكة عانوا أشد العذاب من كفار قريش ، لقد سُحبَ بلال على الرمل النارى الملتهب ووضع الصخر فوق صدره ، وهناك صورة أخرى وواقعة صارخة تمثلت فيما كان يلقاه ياسر وامراته حيث كان يعذبان عذاباً لا تقبله إنسانية إنسان لأن أبا جهل أدخل الحرب فى بطن زوج ياسر وفى فرجها واستخرج بالحربة أمعاءها حتى ماتت ، وضربوا ياسر حتى كاد يُغى على ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ، كان الرسول يأمرهم بالصبر مع أن فى أسرة ياسر شاباً قويا هو عمار بن ياسر ، وكان من الممكن أن يأمره الرسول بأن يثار لأمه أو لأبيه ، ولكن الرسول أمرهم بالصبر .

٣ - يحتاج بعض المنحرفين بكلمة للامام مالك تقول « إن الله يزغ بالسلطان

■ الفصل الثامن

ما لا يزعم بالقرآن ، ومعنى ذلك أن المجتمع يكون أفضل بنظام مستقر تهيمن عليه السكينة ، وإذا وجد في هذا المجتمع متمردون لا يخضعون لحكم القرآن فإن على السلطان (رأس الدولة) ترويعهم ، وعلى ذلك يكون الفرق بين أمرين أولاً : أن العقيدة يخلقها السيف وهذا أمر مستحيل لأن القوة لا تخلق عقيدة وأن الذي يخلق العقيدة هو القرآن والسنة ، ومهمة السيف هي تنقية المجتمع الاسلامي من المتمردين على القرآن والقانون .

٤ . قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقد حدد الله تبارك وتعالى طريق الدعوة إليه وإبداء الرأي بقوله: ﴿وَإِذَا دُعِيَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادَلْهُمْ بِالَّتِي أَحْسَنَ﴾ وأن من صغیر الحجة وضعف الدليل وفساد الرأي أن يلجأ الانسان إلى العنف ، والعنف ، ليس من خصائص الانسان ولا يعرفه الاسلام .

٥ . ليس في الاسلام أن يتآمر المسلم على قتل أخيه أو أن يخونه ويفدر به لأن ذلك من أخلاق المنافقين والدليل قول رسول الله الكريم: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من نفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا أوْتمن خان، وإذا خاصم فجر» وقد عظم الله تعالى قتل المؤمن عمداً حيث قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ركان من رأى ابن عباس أن من قتل مؤمناً ثم تاب لا تقبل توبته .

٦ . الاسلام يحرم القتل غيلة لأنه لا يعرف إلا المواجهة الشريفة وهو يوجب أن يتعامل المختلفون بالحوار المقنع ، وقد أدب القرآن الكريم المسلمين في الحوار إذ أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يكتفى بتشديد موقفه ، وأن يكف عن الجدل والمراء فيقول الله تعالى : « فاستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » ولذلك كان شعار المسلم الحقيقي : إن الله إليه المرجع ، وإن الإنسان ما عليه إلا البلاغ .

٧ . إذا كان الايمان مقره القلب فإنه من الصعوبة بمكان أن يدرك إنسان خفقات قلب إنسان آخر ، وبذلك وضع الاسلام المؤمن بمأمن من أن يرمى بالكفر ، أما حقيقة النوايا فتترك لله المطلع على السرائر ، وقد وضع القرآن الكريم والسنة الشريفة هذه النقطة ايضاحاً شافياً . ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ .

■ التآمر على سورية ■

وعن أسامة بن زيد في غزوة جهينة قال « لحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً من جهينة ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما بلغنا المدينة بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال : أسامة ، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ قلت : يارسول الله إنما كان متعوذاً » أى معتصماً بها من القتل لا معتقداً لها » قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم حقيقة ما به ؟

٨- لا يجوز تكفير الحاكم المسلم أو إحلال دمه لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ 》.

وحكم الرسول في الاجابة على سؤال : متى يعد العالم كافراً ؟ روى أبو داود عن انس قال : قال الرسول : ثلاث من أصل الايمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله لا تكفره بذنب ولا نخرجه من الاسلام بعمل ، وهذه واحدة من أصل الايمان .

وبمقتضى ذلك لا يكون لمسلم أن يكفر مسلماً ترك الصلاة إنما يدعوه لذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا يكون من منع الزكاة خارجاً عن الاسلام ، ولكن يُدعى إلى إخراجها ، وليس لدينا حاكم - فيما أعلم - لا يؤمن بضرورة الحكم بشرع الله ، ولكن هذه العقوبات وتلك تؤخر التنفيذ .

٩- حين نعود إلى القرآن الكريم لمعرفة كيفية إقامة الدولة الاسلامية نجد انه يرفض أن تتم عن طريق العنف وسفك الدماء لأنه أوضح طريق الدعوة ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ ونجده قد وصف الرسول بأعظم الصفات ﴿ واثق لكلى خلق عظيم ﴾ ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ هذا طراز الدعوة وبه وعليه أقيمت الدعوة ، فلم تقم بالسيف والعنف وسفك الدماء بل قامت بالاقناع « أفأنت تكره الناس حتى ، يكونوا مؤمنين » ، ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ، ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ ، ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ ، ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾.

١٠- لا يجوز في الاسلام قتل انسان لاختلافه في الدين مع المسلم أو سلب ماله .. الم يكن اليهود يقيمون في المدينة وعلى أطرافها على عهد الرسول والخلفاء ، فهل سلب المسلمون أموال اليهود ؟ هل قتل المسلمون اليهود .. المسلمون لم يتعرضوا لليهود إلا بعد أن نقضوا عهدهم معهم .. وفي هذا دليل على أن دم الانسان مصون ، وماله محترم ، وأن الاعتداء على الانسان أيا كان دينه والاعتداء على ماله الخاص أيا كان دينه .. أمر محرم ١٩

■ الفصل الثامن

هذا ما تقتضيه طبيعة المساواة مصداقا لقوله في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام.. إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

وقد أوصى الرسول بالقبض خيراً ، ليست الجزية إذلالاً ولكنها فى المقابل مثلما كانت فى مصر دفع مبلغ من النقود مقابل الاعفاء من (الجهادية) أى التجنيد وكان يطلق عليها « البدلية » فهل كانت هذه جزية تفرض على المسلمين ١١٩

١١- إن الاسلام نهى عن القتل بغير حق، ونهى عن الخروج على الحاكم إلا إذا أعلن الكفر الصريح، « ولم يحصل ذلك من حاكم مسلم ».

١٢- الأمن بنوعيه النفسى والمادى ضرورة كفلها الاسلام للفرد والمجتمع، وهو لا يشمل المسلمين فقط ولكنه يشمل الكتابيين أيضاً ما لم ينقضوا عهداً أو يرفعوا سيفاً ، وموضوع الأمن فى الاسلام بعد العقيدة مباشرة وذلك لأن الايمان من مادة أمن ، وقد ذكرت المادة فى المصحف الشريف حوالى ٨٥٠ مرة .

١٣- الذين يرون أن الاغتيال أقصر الطرق لتحقيق الأهداف بدلا من ضياع حركة الحياة فى مهاترات - وقد تطول - لا تمكن صاحب الفكر من نشر فكره .. أسلوب مرفوض وهذا يلاحظ ثمة فارق كبير بين الثورة والاغتيال ، فالثورة مجابهة ، والاغتيال غدر وغيلة ، ولا تقوم ثورة إلا إذا كانت الجماهير مشتركة فيها ويكون الراى لها .

الارهاب الدينى

مما تقدم تبين لنا أن الدين الاسلامى يمقت العنف ولا يقبل العدوان على حرية الانسان، ولذلك جاءت ايات كثيرة فى النهى عن قتل الانسان . ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذاباً عظيماً﴾ وأيضاً ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها﴾ وإذا كان هذا حكم من قتل مسلماً عادياً فكيف يكون الجزاء لمن يقتل قواد المسلمين وحكامهم ؟

روى الامام مسلم بسنده عن عرجه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انه ستكون هناك هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جمع ، فاضربوه بالسيف كأننا من كان » ، والقاتل السياسى يعتقد انه يفعل خيراً لكنه مرتد يجب أن يعامل معاملة المرتدين ، فهو كالخوارج القدماء الذين كانوا يقتلون أصحاب رسول الله وقد وصفهم رسول الله بالوحى قبل أن يراهم فقال لأصحابه :

■ النابز على مودة ■

« سخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام ، يقرأون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجرا » [حديث على بن أبي طالب في صحيح مسلم ج ١ ص ٢٩٣] ، الأحاديث في هذا المعنى كثيرة ومتوافرة .

وقد كان بين الزبير بن العوام ، وبين على بن أبي طالب ما كان من الخصومة السياسية التي انتهت بوقعة الجمل فجاء رجل الى الزبير بن العوام فقال اقتل لك عليا قال : لا وكيف تقتله معه الجنود ؟ قال : الحق به فافتك به ، قال : لا إن رسول الله قال « ان الايمان قيد القتل ، لا يقتل مؤمن » أى ان الايمان يقيد المؤمن عن أن يتردى في موة الردة ، فإن فعل لم يكن مؤمنا .

وعلى ما تقدم فإن الاسلام يوجب أن يتعامل المختلفون بالحوار المنع فإذا لم ينتهوا الى نتيجة فليس لأحد أن يحمل السلاح على الآخر ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » والاستقامة في الدين هى ما أمر الله به عباده : « فاستقم كما أمرت » ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . وإذا كانت القاعدة أنه لا اجتهاد في النص فقد أوضح الله تعالى منهج الدعوة في قوله : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، و« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر » .

وكانت آخر كلمات الرسول للمسلمين في حجة الوداع يوم الجمع الأكبر هى قوله : « أيها الناس ان دماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا .. ألا هل بلغت اللهم فاشهد » . « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

النهضة الدينية في عهد الرئيس الأسد

النهضة السورية نهضة تشمل جميع النواحي الاقتصادية والثقافية وكافة المجالات الأخرى ، وفيما يخص المجال الدينى ، فإن الجمهورية العربية السورية تصير بمراحل خصبة وغنية ولها أبعادها في مجال نشر الدعوة الاسلامية ذلك لأن الذين يقومون على نشر هذه الدعوة هم من الجيل المثقف ومن طلبة العلم المتعمقين في العلوم الشرعية ، يضاف الى ذلك تجاوب القيادة السياسية والجهات المسئولة مع التوجه الدينى الذى يقوم على أسس صحيحة وواضحة ومتزنة ويعتمد هذا التوجه الدينى في سورية بشكل خاص على تجاوز النقاط الصغيرة وبعض العثرات التي مرت سواء على الدعوة الاسلامية في

■ الفصل الثامن

سوريا أو على بقية الدعوات ، والشئ الايجابى فى هذه النهضة الدينية فى سورية انها تجاوزت الرعونات الشخصية ، والتفت حول محاور عريضة وأساسية تتبنى الدعوة الاسلامية فى كل مكان وبشكل متزايد ومتحسن .

والادلة التى تؤيد هذا الكلام كثيرة يمكن أن يراها أى انسان يدخل الى المساجد أو المعاهد الشرعية .. يرى الأعداد الكثيرة التى تتزايد فى الانتساب الى المعاهد الشرعية فى سورية ، وفى دمشق مركز الثقل بشكل خاص .

الرئيس حافظ الأسد مؤمن بالاسلام ايمانا كاملا ، ودائما وفى كل المناسبات يعلن عن هذا الايمان ويعتز بهذا الانتساب ، وعلى الصعيد الفعلى فإنه دائما جنبا الى جنب مع المؤمنين فى صلواتهم فى المساجد وفى كل المناسبات التى تدعم النشاط الدينى ، ورؤية الرئيس الأسد للمسجد انه الى جانب كونه مكانا لأداء العبادات والشعائر فإنه فى الوقت نفسه يأخذ دوره الكبير فى الدعوة والتوعية وتدعيم مسيرة القرآن الكريم ، والمعاهد الشرعية قبل حكم الرئيس الأسد كان عددها لا يتجاوز العشرة فى كل محافظات الجمهورية العربية السورية ، الآن يزيد عددها على الأربعين مدرسة ثانوية الى جانب المعاهد الشرعية .

لقاءات الرئيس الأسد مع العلماء والتى تستغرق ساعات طويلة تقوم على ثلاثة محاور:

● المحور الأول : محور المحبة والتقدير الذى يكنه الرئيس الأسد لاهل العلم والعلماء فى سوريا بشكل عام .

● المحور الثانى : الاقتناع الذاتى والتجاوب الايمانى العميق الموجود لدى الرئيس الأسد .

● أما المحور الثالث : فهو محور العمل البناء والتعاون الذى يطلب أن يكون مشتركا بين نواحي العلم وبين كافة الجهات المسئولة فى القطر العربى السورى ، ولذلك فإن الرئيس يتابع بنفسه تطبيق التوجهات الاسلامية التى تقوم على الوضوح وعلى الاخلاص والصدق ، ويؤكد دوما أن اهل العلم هم القدوة لغيرهم ، ولذلك فهم مطالبون بأن يؤدوا واجبههم نحو وطنهم وأمتهم العربية والاسلامية

مكانة لها دلالتها

قبل ولاية الرئيس الأسد للحكم فى سورية كان الجانب الدينى يعتمد على المنحى الخاص أكثر من اعتماده على المنحى الاسلامى العام وكان هناك بعض رجال العلم

■ التآمر على سورية ■

يسريون بخطى متزنة وهادئة ، وقد أثمرت جهود هؤلاء اليوم عطاء طيبا لم يكن لهم من قبل وذلك لكثرة الصخب الذي كانت تنحو نحوه الدعوات الدينية في الماضي

قبل ولاية الرئيس الأسد كانت الدعوات الاسلامية متفرقة حتى أن المساجد كانت تقدم فيها أحيانا بعض الدروس وكل مدرس يدعو الى جانب معين من الاسلام يبطن فيه بعض النواحي الخاصة والأمثلة في هذا ربما كان ذكرها محرجا ..

على سبيل المثال دعوة الاخوان المسلمين كانت تتجه اتجاهاين : اتجاها للتفريغ بعمامة الناس واتجاها آخر قائم على العنف والتطرف والقتل ، هذه الدعوة لاشك ان العقلاء كانوا يعرفون مراميها ولذلك لم يكونوا يتجاوبون معها ، أما الذين تجاوبوا معها فهم قلة من البسطاء المغرر بهم والذين منوا بأحلام وأمان من وراء ذلك ثم ظهر بعد ذلك انها هباء وانها زبد وانها جوفاء .

مثال آخر بعض الطرق الصوفية اذا استثنينا منها الطرق الصوفية المعقولة الخالصة كان من هذه الطرق من سار سيرا عاطفيا لم يتخذ أصول الاسلام منهجا لحركته ولعمله ، ولذلك فقد تفرق الناس من حولهم ، واتجهوا معهم اتجاهات لم تخدم الاسلام قط ، بل وزعت على الناس كثيرا من الأحلام والأوهام والخرافات ، وتسربت اليها بعض الافكار التي صارت فيما بعد مثار نقد لهذه الدعوات وبالتالي صارت نقدا للاسلام بشكل عام .

بعد الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد نشطت الحركة الدينية في سورية نشاطا ملحوظا وخاصة بالنسبة للمساجد الكثيرة التي توزعت على جميع المحافظات السورية ، ولقد بلغ عدد المساجد التي أنشئت منذ الحركة التصحيحية حوالي ألفين وخمسمائة مسجد ، وبذلك يكون عدد المساجد في سورية حوالي خمسة آلاف مسجد .

وكما قلنا فلقد أكد الرئيس على إطلاق الحريات الدينية وتنشيط المعاهد الشرعية ، ومعاهد الأسد لتحفيظ القرآن الكريم ، ومنذ بداية الثمانينات قامت وزارة الأوقاف بإحداث أول هذه المعاهد ، واختار القائمون عليها أن تسمى هذه المعاهد باسم معاهد الأسد لتحفيظ القرآن ، والمعاهد الدينية يتم أحداثها بناء على اقتراح يتقدم به أهل أي منطقة وتشكل لجنة للإشراف على هذه المعاهد في وزارة الأوقاف أو مديريات الأوقاف المختصة ويحال الاقتراح بالإشراف على هذه المعاهد الى لجنة متخصصة لدخول امتحان هدفه اثبات صلاحية من يشرفون على هذه المعاهد ثم تستكمل الإجراءات الادارية والقانونية لافتتاح هذه المعاهد ، وقد تخرج فيها العشرات من حفظة القرآن الكريم .

النهضة الاسلامية اتخذت مساراً جليداً بعد ولاية الرئيس الأسد ، وهنا ملاحظة ينبغي أن يراها كل متطلع متبصر في واقع الاسلام في سورية .. الشعب السوري لا يمكن أن يمنح ولاءه لزعيم بشكل يسير أو بغير اقتناع ، وفي بداية ولاية الرئيس الأسد توقف هذا الشعب لينظر ويراقب لأنه لم تكن لديه فكرة عن الرئيس بعد أن ظهر هذا التوجه من خلال لقاءات الرئيس والناس وبأهل العلم سواء في الأحياء الشعبية أو المنتديات أو المؤتمرات أو الاجتماعات المختلفة أو الخطابات ، إذا بهذا الشعب يمنح ولاءه عن اقتناع وكان على رأس هؤلاء أهل العلم والمدرسون ورجال الدين الذين جاء ولاءهم لما رأوه من عمق الايمان لدى الرئيس الأسد ، ومن هذا التناغم الرائع بينها وبينه نحو دفع مسيرة الاسلام بشكل واضح .

الأصولية والأصوليون في سورية

خلافًا للشائع في بعض البلاد فإن الأصولية بالمعنى الاسلامي الصحيح تعبير متداول في سورية ومرحب به ، فكل مسلم مثقف عاقل واع متزن ذى أخلاق فاضلة حسنة هو أصولي لكن الأصولية بالمعنى المتطرف تجاوزتها سورية منذ فترة طويلة حيث إنه لا يوجد في سورية شيء اسمه التطرف ، التطرف بمعنى الاسراف والتفريط ، والشعب السوري أصبح يرفض الأصولية بهذا المعنى لأنها لم تولد له سوى الآلام لما مر على سورية من تطرف أو أصولية تتكلم باسم الاسلام ، ولذلك فإن الشعب السوري تجاوز هذه الأصولية ، وطواها من ذهنه ومن حياته ، ونجد أن كل مواطن يسمع بأصولي متطرف يدعو إلى فكرة ما ، نجده ينتدب نفسه ليرد عليه وينذره ، ولذلك فإن سورية ربما تكون البلد الوحيد الذي تجاوز مسألة الأصولية ، ولم تعد الساحة الاسلامية هناك صالحة لأن تنبت على أرضها الخصبة هذه البذرة السيئة .

يقول الشيخ عبدالرزاق المؤنس مدير التوجيه والارشاد بوزارة الأوقاف : سمعت مرة في أحد اللقاءات مع الرئيس الأسد قوله : إذا نظرنا إلى كلمة الاخوان المسلمين بالمعنى الاسلامي الصحيح والموضوعي بمعنى أن المسلم إيجابى ومعطاء ومضح فمن هذا المنطلق كلنا إخوان مسلمون بمعنى أن كلنا في الاسلام أسرة واحدة ، لكن عندما يريدون لنا أن نفهم أن الاسلام اغتيال وترويع للآمنين واعتداء على المؤسسات والممتلكات العامة ، ومصالح الأمة ومصالح الأفراد فهذا لا يمكن أن يكون من الاسلام وإن تبرقع بألوان ذهبية .. الاخوان المسلمون بهذا المعنى دعوة مشبوهة ، دعوة ترفضها كل الأمة الاسلامية بشكل عام .. وفي سورية ترك الاخوان المسلمون بصمات سيئة ، ومؤلة بسبب تطرفهم: حاولوا أن يستغلوا الواقع الطيب الذي سارت عليه سورية خلال ولاية الرئيس الأسد .. استغلوا الانفتاح والازدهار الاقتصادي ، والنمو العمراني والثقافي الذي ترعرع في ظل

■ التعاليم على سورية ■

الاسد وتسلبوا من خلال هذا الانفتاح لييثوا سمومهم وليغفروا بالبسطاء وبالتالي يروعون الامنين .. فما كان من القيادة السياسية ومن الشعب إلا أن رفضهم في فترة قياسية صغيرة نسبياً ، إذا ما قيس ذلك ببقية بلدان العالم الثالث .. وفي فترة قصيرة جداً طويت صفحة الاخوان المسلمين ، وعاد الاسلام في سورية بمعنى الاسرة الواحدة المتعاطفة المتكاتفه المتعاونة ، المنفتحة التي تعطي والتي تضحي والتي تدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتي تؤكد أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

التعايش بين الديانات السماوية الثلاث

الرئيس حافظ الأسد في تأكيده على الوحدة الوطنية انطلق من خلال واقع اجتماعي يتمثل في تعايش الطوائف المتعددة في هذا البلد ، كما انطلق من الفهم الكامل للاسلام في تعامله مع هذه الطوائف ففي ظل الخلافة الاسلامية عاشت الطوائف المختلفة سواء اليهودية أو المسيحية أو غيرها عاشوا في ظل الخلافة ، وفي ظل الدولة الاسلامية ، وكلهم يتعاونون ، وكلهم يعمل ، وكان من بين أهل هذه الطوائف مَنْ له يد طولى في المسؤولية في زمن الخلافة الاسلامية وفي الدولة الاسلامية مادام ينتج ويعطى ، فهو في المسؤولية الوطنية كفاء مع غيره ، والآن في سورية تعيش الطوائف المختلفة في ظل وحدة اسلامية ينفتح بعضها على بعض ولكل طائفة معتقداتها وطقوسها وشعائرها الخاصة تعمل بها ضمن حدودها وضمن مفهومها وضمن اجتهاداتها وآرائها ، وهى بالتالي تتعامل مع المسلمين من حيث الجانب الاجتماعي حيث إننا في الاسلام وتعاليم الاسلام ننظر إلى بقية الطوائف وإلى أهل الكتاب نظرة خير ومحبة ماداموا في وضع اجتماعي متزن ، وماداموا ينتجون ويعملون ويتعاونون .. الاسلام ينظر إلى هذه الطوائف باعتبار معتنقيها يؤمنون بديانات سماوية يربعاها الاسلام فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ، والاسلام ينشر ظله على الجميع .. والاسلام كما أكد الرئيس الأسد سيبقى في سورية علماً خفياً متقدماً إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، ولهذا فإننا نجد الطوائف الأخرى في سورية حتى الطائفة اليهودية تدين بالولاء الكامل وتعترف بالجميل للاسلام وللرعاية التي تلقاها من الرئيس الأسد ، لم نسمع قط أن طائفة يهودية أو مسيحية وضعت أمامها عراقيل أو عقبات ، وبشهادة أبناء الطائفة اليهودية في سورية وبشهادة النصارى وأهل الكتاب فإنهم يجدون من المعاملة ورحابة الصدر ومن الحياة الاجتماعية ومن حقوق المواطنة ما لا يمكن أن نجد له مثيلاً في غيرها من البلاد ، وهذا يدل على الحكمة والاعتزان التي تقوم بها سياسة سورية بزعامة الأسد ، لذلك فهم جميعاً يوقعون بقلم واحد وفي ورقة واحدة على هذه الوحدة الوطنية وعلى هذا الولاء بعد الفهم العميق تصدى لاعداء الاسلام .

■ الفصل الثامن

وكما يقول الشيخ عبدالرزاق مؤنس: فإن هذه النعرة غير الاسلامية وإن تزيت بزى الاسلام قد أعان الله عز وجل على القضاء عليها سريعاً ، وذلك كما ذكرت من قبل بفضل التجاوب الكامل للشعب السوري مع حكمة الرئيس حافظ الأسد في طريقة القضاء على هؤلاء ..

النقطة الأخرى في هذا الأمر.. إن تلك الأحداث التي حصلت من جراء فتنة الاخوان المسلمين أرادت أن تززع مسيرة الاستقرار والتقدم والازدهار التي بدت بشائرها في بدايات الولاية الاولى لولاية الرئيس حافظ الأسد وبخاصة بعد حرب تشرين (أكتوبر) التحريرية .. يذكر ذلك كل المواطنين في الجمهورية العربية السورية ، ولهذا فقد أرادت قوى استعمارية أن تضع لها أصابع في بلادنا لتكبح التقدم والازدهار لأن سورية التي اتخذت الآن مساراً صحيحاً متقدماً ومتسارعاً بمعونة الله عز وجل وبصلة من لدنه إذا ظهرت فيها بوادر الازدهار والحضارة والتقدم فإن ذلك سيقضى على الكثير من الأحلام والأمال التي تعقدها اسرائيل ودول كبرى من ورائها على انجاح خططها في ضعف الأمة العربية ، وضعف دول المواجهة هو الذي يُعين على تنفيذ المخططات الاسرائيلية ، فإذا ما ظهرت بوادر التقدم .. بوادر القوة والحضارة في سورية وفي غيرها أيضاً من البلدان العربية ، فإن ذلك يعنى إضعاف طرق تنفيذ تلك المخططات والتآمر الاستعماري لاجهاض الدعوة الاسلامية ، وتفكيك كل رابطة من روابط الوحدة العربية .. **هذه النقطة الثانية** ، ولا تزال المسيرة الحضارية تعباً بها سورية ويتحملها كل أبناء الشعب ..

أما النقطة الثالثة فإن رموس الأموال التي أريد منها أن تهاجر إلى حيث الاستثمار الخصب في دول أخرى وبخاصة دول غربية ، هذه رموس الأموال كان توقفها توقفاً مؤقتاً وإذا بها الآن تعود ، وترجع المياه إلى مجاريها ، وتعود الأموال إلى نصابها بعقلانية أهلها ، وبحكمة القرارات في هذا البلد وبحكمة السياسة العامة في سورية لذلك فلا خشية في سورية من فتنة أبدأ ، لأن الواقع الشعبى أصبح فوق هذه التصرفات وأصبح يجهض مثل هذه الدعوة في مهدها بل لا يسمح بها ، وبالتالي فهو لا يفكر بها لأن الانسان الذى يعمل ويبنى ويجد لا يفكر في السلبيات ولا يسمح أبداً بأن تمر عشرات الاخفاق من أمامه مع أنه يطمح ، والشعب السوري ، وأظن أن هذا أيضاً طموح لدى الشعب العربى ، ولدى المسلمين ، وهذا مما يجب أن يكون لدى كل مسلم ، هو شعب دائماً يفكر بجدية ، يفكر في المستقبل .. شعب متحرك في عقله .. متحرك في نفسه .. متحرك في ذاتيته .. يجب دائماً أن يطوى السلبيات .. أن يفكر من جديد بالاجتهاد .. أن يفكر بكل شئ هو عطاء ، إضافة إلى ذلك فهو شعب طيب ومضياف .. يمد يده بكل سهولة لكل إنسان يمد إليه يد المحبة ، ويمد إليه خطط اللقاء ،

■ التعاون على سورية ■

والذى تحقق بعد التخلص من مؤامرة الاخوان المسلمين هو الذى نراه ، **والذى نراه هو شينين :**

الشيء الأول : هو الانسجام الكامل بين كل افراد الشعب العربى السورى .

الشيء الثانى : هو الانطلاقة الحرة الجميلة ، والمقصود بكلمة حرة الانطلاقة التى لا تتوقف أمام كوابيس أو عثرات ما ، وهذه الانطلاقة هى انطلاقة الدعوة الاسلامية فى سورية .. الذى تحقق أن الدعوة الاسلامية فى سورية ، وعلى رأسها أهل العلم ، والقضاة والمدرسون ، أصبحوا هم أيضا من المتعاونين مع النظام السورى تعاوناً قلبياً .. تعاوناً إيمانياً من أجل جعل الاسلام فى هذا البلد اسلاماً كما كان عليه الحال زمن السلف الصالح مع مراعاة التجديد ، ومع مراعاة اختلاف الأساليب فى ذلك جهد الاستطاعة ، وقدر الامكان ..

الشيء الملاحظ أيضا أن الإسلام بعد القضاء على حركة الاخوان المسلمين قد أخذ منحى يدخل إلى كل القلوب ، وإلى كل الفئات باختلاف سنتها باختلاف ألوانها .. باختلاف انتماءاتها .. باختلاف اتجاهاتها .. فقد أصبح الاسلام الضيف اللطيف .. وأصبح الكلمة الحلوة المقبولة من الجميع ، ولذلك أصبح لدى الناس اقتناع بأن ما فعله الاخوان المسلمون ليس من الاسلام .. كانوا فى الماضى يستغلون هذه الكلمة ليعصبوها على كل ما هو اسلامى ، لكن الواضح اليوم أن الاسلام شيء ، والاخوان المسلمون شيء آخر ، ولذلك فالشعب السورى يتعاون مع الاسلام ويتجاوب معه ويمد يده للعطاء والانتاج معه ، فى سورية إضافة إلى توحيد الافكار تجاه القضية العربية وهى قضية فلسطين وقضية الأمة فى النهضة وطى صفحات التخلف الماضى إضافة إلى هذا التوحيد الذى تنشده سورية من حيث تعاونها مع كل الدول العربية وبخاصة مصر الشقيقة حيث كان اللقاء بين مصر وسورية دائماً لقاءً فطرياً عفويماً لأن الأصول واحدة ومياه المحبة واحدة ، وهناك دائماً لغة للتفاهم والتعاون والمحبة .

وفى الجانب الاسلامى كان التعاون بين مصر وسورية فى الماضى بطيئاً جداً واليوم يتخذ منحى جديداً آخر وأيضاً فى طريقه إلى التقدم وإلى الازدهار ، وتظل الحاجة ماسة إلى مزيد من التعاون والتنسيق الاسلامى بين سورية ومصر ، وذلك للاستفادة من الأساليب التى أتت أكلها وأبنت ثمارها فى طريق الدعوة الاسلامية التى قامت فى البلدين ونجحت فى أن يتعاونوا جميعاً .. وكل ذلك يمكن أن تكون له قنوات متصلة أخرى أيضاً مع بقية بلدان العالم العربى والاسلامى ، هذا الامر هام جداً والحاجة ماسة أيضاً الى مزيد من التعاون الاسلامى لأن التعاون الاسلامى يُظل تحته التعاون العربى ، ويجمع تحته الشريحة الكبرى والطبقات الاجتماعية من كل أنواعها تحت لواء دولة اسلامية

■ الفصل الثامن

وحدة عربية منشودة لابد منها من أجل أن تقف صفاً واحداً منيعاً تجاه الأطماع الاستعمارية والصهيونية التي تتآمر كل ليل على مصير المسلمين وعلى وحدة العرب ، وعلى طريق إجهاض كل ما هو وحدة ، كل ما هو إيجابى كل ما هو التقاء بين المسلمين والعرب بعضهم مع بعض .

ويقول محمد زيادة معاون وزير الأوقاف السوري : من الأشياء التي تعطى وقعاً وإيجابية للعمل الاسلامى أن يحصل هناك تعاون فقهي بين كل بلدان الأمة العربية وذلك التعاون أمر ضرورى سواء من خلال الزيارات المتبادلة ، وتبادل الافكار والمعلومات والآراء والمقترحات ومن خلال عقد ندوات واجتماعات بين فقهاء الدول العربية ، وذلك من أجل تنشيط العمل الفقهي لتأصيل الحركة العلمية الثقافية الاسلامية ، فالملاحظ أن الاسلام في البلدان العربية يعتمد على الجوانب العاطفية .. على بعض المظاهر الاسلامية ، والأحكام القليلة .. لكن أن يوجد هناك تأصيل فقهي لدى شرائع أكبر من عامة الشعب العربى والاسلامى فهذا لا يزال ضعيفا لأن هناك الكثير من المسلمين ومن العرب من يجهلون أحكام الصلوات الخمس .. من يجهلون بعض الأحكام المتعلقة بالمعاملات وبشكل أخص موضوع الربا .. حيث هناك من يتعامل بالربا المحرم بنصوص قاطعة في القرآن الكريم وهو يظن أن الاسلام يسمح به .. مثل هذه النقاط كفى بأن يناقشها اجتماع الفقهاء فيما بين بعضهم بعضا من أجل نشر المحاضرات والكتب والأفكار ، وأن يعلن عن هذه الندوات عبر أجهزة الاعلام من أجل مزيد من التوعية .. يضاف إلى ذلك عمل آخر وهو جانب عملي في هذا اللقاء الفطرى وأن تنتشر دروس الفقه في المساجد إذ أن دروس الوعظ .. دروس التوجيه العامة دروس الاسلام الثقافى .. دروس الاسلام الحماسى ، الاسلام الخطابى التى لا تتبنى على أسس فقهية هذه لا تثمر إسلاماً صحيحاً بالمعنى المطلوب ، لا بد أولاً من التأصيل الفقهي في قلوب الناس بشكل عام . أن توجد دروس فقهية تخرج طلاب علم يفقهون أصول اللغة العربية ، يفقهون أصول الفقه .. يفقهون القرآن الكريم .. أسباب النزول .. ناسخه ومنسوخه .. دلالات الفاظه ومعانيه ، وما إلى ذلك من علوم القرآن الكريم .

وهذا الأمر قد أخذ ضوعاً أخضر من الرئيس الأسد لأهل العلم .. وهو يראה بكامله من جانب تشجيع علوم القرآن الكريم .. وتعاليمه ، ومعاهذه وليس المرجو من ذلك فقط قراءة النصوص وحفظ العبارات والآيات ، وإنما أن يُدرس القرآن الكريم من خلاله علوم وفقه واستنباط أحكام ، من خلال ناسخه ومنسوخه ويحتاج إلى جهدنا مع كل الجهود لبناء هذا العمل ، والرئيس الأسد جعل الطريق أمامهم مُعَبِّداً وفسح المجال لهذا إضافة إلى أن الرئيس إتجه إتجهاً آخراً ليتبنى جانب السنة النبوية المطهرة ، وهو قد راعى وأشرف على لجنة تتبنى جمع السنة المطهرة من كل مصادرها ودهى موسوعة

■ التآثر على سورية ■

السنة النبوية ، وهذه ستظهر إلى الضوء قريباً ، وقد قام عليها لجنة من كبار أهل العلم في سورية . .

وقد خصص الرئيس الأسد عشرات الملايين من الليرات لما يحتاجه بناء الجامع الأموي وهناك لجنة من كبار العلماء ، ومن كبار المشرفين سواء من المهندسين من علماء الآثار ومن علماء الدين .. علماء التاريخ وما إلى ذلك يشرفون على طريق ترميم وتجديد الجامع الأموي بالشكل الذي يخدم الجانب المقصود ببناء المساجد وهو توفير السعة اللازمة والتكثيف اللازم للمصلين ، وللوافدين وللزائرين ولدروس العلم الموجودة فيه ، وكذلك للذين يسمعون عن المسجد الأموي في جميع أنحاء العالم .. إذ الحقيقة أن المسجد الأموي هو في واقع الأمر من حيث الناحية التاريخية ، ومن حيث الناحية الجمالية من المساجد الرائعة والفريدة إن لم تكن الأولى المتقدمة بين مساجد العالم ، وهذا التجديد لا يزال اليوم يمر بفترات ناهضة ، ويعمر أيضا بتجديد واتساع إن شاء الله .

الطريق لحرية الشعب



قراءة في فكر الأسد

الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والارهاب

- ضرورة عدم طمس الحد الفاصل بين الارهاب والمقاومة الوطنية .
- العلاقة الجدلية لدرء الارهاب عن البلدان النامية وحركات التحرر .
- ظاهرة سياسة القوة والتدخل العسكري والعدوان المسلح لتحقيق أهداف سياسية .
- صمود سورية بقيادة الأسد في مواجهة الارهاب الدولي .

■ الأسد : التمييز بين الحكومة الوطنية والارهاب ■

□□ المتتبع المعايير لمسار الحركة التصحيحية ، يلحظ بسهولة ويسر مدى حرص الرئيس حافظ الأسد على تأكيد تمسكه - قولاً وعملاً - بقضايا نضال الشعوب وإيمانه الراسخ بضرورة مكافحة الأنظمة الاستعمارية ، وكافة صور الهيمنة والاستغلال بشتى السبل ، وفي الأشهر القليلة التي تلت الحركة التصحيحية برز الرئيس حافظ الأسد كواحد من أبرز قادة ثورات العالم الثالث ، وأصبح له وزنه الكبير في المجال الدولي لأنه لم يدع مناسبة تمر بدون أن يؤكد ويعمل على ضرورة عدم طمس الحد الفاصل بين الارهاب والمقاومة الوطنية ، ونتيجة لهذا الموقف المبدئي تعرضت سورية في الداخل وفي الخارج لازمات مفتعلة عديدة ، ومتعاقبة ، بدأت مع انتصار حزب تشرين أكتوبر التحريري عام ١٩٧٣ حيث ركزت الدوائر الغربية متعاونة مع الصهيونية العالمية هجومها على المكاسب العربية التي تحققت في سورية وبلغ التآمر ذروته عندما شهدت الاحداث اللبنانية خلال الفترة ما بين ١٩٧٦ - ١٩٨٢ أقصى صور التدهور الامر الذي صعدته الغزو الصهيوني - الاسرائيلي للجنوب اللبناني عام ١٩٨٢ ، واحتلال مدينة بيروت ، وتوقيع عقد الازعان في ١٧ مايو - أيار ١٩٨٣ ، والذي سقط بعد أقل من سنة بينما تفاقم الوضع في لبنان لدرجة أنه استمر منذ عام ١٩٨٣ وحتى مطلع عام ١٩٩٠ يتدهور من سيئ إلى أسوأ رغم التدخل الايجابي الذي قامت به الاطراف العربية والاجنبية المعنية بالمسألة اللبنانية ،

ورغم العمل على وضع اتفاقية الطائف الموقعة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٩ موضع التطبيق وانتخاب رئيس جمهورية جديد للبلاد وتشكيل حكومة جديدة بدأت العمل في كانون الثاني من عام ١٩٩٠ في جو داخلي مشحون على النحو المعروف .

وفي الداخل تعرض القطر العربي السوري إلى أعمال مفتعلة متعاقبة كان على رأسها الأعمال الإرهابية الشرسة التي قامت بها زمر من جماعات الإخوان المسلمين في الفترة ما بين ١٩٧٨ - ١٩٨٢، وأعمال القتل والتفجير التي افتعلتها أدوات القوى الأجنبية ضد المسيرة التقدمية والانجازات الجماهيرية داخل سورية .

ومنذ عام ١٩٧١، حدد الرئيس حافظ الأسد في بساطة . هي أقوى من كل فلسفة وحذقة وتعقيد . جوهر وأبعاد طرق معادلة الصراع ، وشرح كيفية تصعيد الإرهاب الدولي على خلفية العدوان ، وفي تربة الاحتلال والاستعمار ، وذلك من خلال الكلمة التاريخية الهامة التي ألقاها في افتتاح الدورة العاشرة للجنة التنفيذية لمنظمة الشعوب الأفرو-آسيوية في ١٤/٦/١٩٧١ ، حيث عبر عن هذه الحقائق عندما قال : « إن الرحلة الطويلة التي قطعتها مسيرة تضامن الشعوب الأفرو - آسيوية منذ ولادتها في منتصف الخمسينات وحتى الآن كانت مسيرة حافلة بمعارك النضال التي خاضتها شعوب القارتين دفاعا عن حريتها وعن حقها في الاستقلال وتقرير المصير والمساواة والتقدم ، ودفاعا عن السلام القائم على العدل ،

ولقد تميزت هذه الفترة باحتدام الصراع بين قوى الخير وقوى الشر ، بين الشعوب المناضلة في سبيل المثل العليا للبشرية ، وبين قوى الاستعمار والامبريالية التي ما فتئت تحاول بكل شراسة أن تتشبث بمواقع السيطرة والتسلط لتستعيد ما فقدتها تحت ضربات الشعوب ، وكان احتدام هذا الصراع نتيجة حتمية لطبائع الاستعمار العدوانية » .

التحليل العلمي لكلمات الرئيس الأسد يؤكد على مجموعة من الحقائق أبرزها ؟ أن الاستعمار والامبريالية يسببان الإرهاب باعتباره نتيجة حتمية للعدوان ، وأن الشعوب المغلوبة على أمرها تملك حق النضال المشروع ، وهي التي تعاني من الإرهاب ، ولا تقوم به أو تمارسه لأنها تدرك عدم جدواه في تحريرها ، وللقضاء على هذه الظاهرة لا بد من انتصار الحرية والتحرر السياسي والاجتماعي في العالم كله ، وهناك حقيقة لم يمل الرئيس حافظ الأسد من التأكيد عليها في كل مناسبة وهي :

« إن الشعوب بطبيعتها محبة للسلام ، ولكن قوى العدوان بطبيعتها أيضا لاتقبل التسليم طوعا بحقوق الشعوب ولاتقبل التنازل مختارة عن مواقع السيطرة التي تمكنها من مواصلة استغلال الشعوب ونهب خيراتهما ،

■ الفصل : التحرير بين المقاومة الوطنية والإرهاب ■

حقيقة أخرى لم يمل الرئيس الأسد أيضا من التنبيه إليها وهي طبيعة الخير المتأصلة في الشعوب التي هي في الأصل تهدف إلى العيش بسلام ، وطبيعة الشر المتأصلة في قوى العدوان التي ترفض الاعتراف للشعوب بحق تقرير المصير ، والتصرف الحر الخلاق في ثرواتها وخيراتنا ، الأمر الذي يفترض حتما الصراع ، والذي يأخذ تسميتين متعارضتين ، فهو نضال مشروع من جانب الشعوب ، وهو إرهاب قسري من جانب قوى الاستعمار والامبريالية .

هكذا حدد الرئيس حافظ الأسد الخطوط الأولى والضرورية لعملية الفصل بين الإرهاب الدولي الذي تمارسه الدول والدوائر الامبريالية وبين أعمال المقاومة الوطنية المشروعة التي تقوم بها الشعوب ، وحركات التحرر الوطني من أجل الاستقلال والتحرر التام .

وعلى سبيل المثال : كان الرئيس حافظ الأسد - ولا يزال - في طليعة المدافعين عن حق المقاومة الوطنية الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية ، وهو الحق الذي كانت تعتبره اسرائيل والدول الاستعمارية ظاهرة إرهابية رغم أن ميثاق الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولي يتيحان للشعوب الواقعة تحت الاحتلال بأن تتبع جميع الوسائل لتحرير أراضيها .

الرئيس حافظ الأسد قال ويقول دائما : نحن ضد الإرهاب ولكننا مع مقاومة أي شعب للمحتلين .. هذا السلوك الحضاري كان يقتضى من سورية معاونة شعب فيتنام ضد الاحتلال الأمريكي وتأييد شعب الجزائر في كفاحه ضد الاحتلال الفرنسي ، وتأييد شعب جنوب أفريقيا في تحديه للعنصرية والتحرر منها ، وكان الرئيس حافظ الأسد يقول دائما لصفيوه من الأجانب : عندما نقف مع شعب فلسطين ، فإن ذلك ليس تشجيعا للإرهاب ، وإنما تشجيع ومساندة للمقاومة الفلسطينية الوطنية ، ولأن لنا أرضا محتلة هي الجولان وهناك أراض عربية محتلة في جنوب لبنان .. وكان يتساءل : كيف يستطيع الإنسان العربي السوري أن يقف مكتوف اليدين ساكنا ومستكينا وأرضه محتلة ، ولا يحرك أي ساكن في سبيل تحرير هذه الأرض .. كيف يحكم على شعب ، ويحرمه حقا من حقوقه المشروعة في انتهاج كل الوسائل التي يمكن أن تؤدي إلى تحرير أرضه من المحتل .

كان الرئيس حافظ الأسد ينظر للمفارقة العجيبة عندما كان العالم بأسره يرى أن المقاومة الوطنية للنازية المحتلة في أوروبا وفي الاتحاد السوفيتي بأنها بطوثة ويُقصد الناس عليها الأوسمة والنياشين بعد الانتصار، ويُذكر ذلك في المراجع والكتب والأدبيات ويحكم الناس الذين قاموا بالاحتلال وقتل السكان المدنيين الأمنيين بأنهم مجرمو حرب ، في حين أنه في المقابل وفي الجانب الآخر يُحكم على الوطني الذي يحارب أو يكاغح أو يناضل ، وهو أعزل من السلاح - كما هو الحال في الانتفاضة - بأنه إرهابي ، والآخرين هم الذين ضد الإرهاب .

■ الفصل التاسع

الرئيس حافظ الأسد يقول : إذا لم نحدد بكل الوضوح الحد الفاصل بين الارهاب والمقاومة فكلنا نصبح ارهابيين ، كل مَنْ دافع أو يدافع عن وطنه يكون ارهابيا ، ومن هنا كان حرص الرئيس حافظ الأسد على اعطاء الاهتمام الكامل لهذا الامر عندما طلب أن تتقدم سورية رسميا لمجلس الامن بالدعوة لعقد مؤتمر دولي يدرس ظاهرة الكفاح الوطني ، والظاهرة الارهابية ، ويضع تقنيينا دوليا للتفريق بين الارهاب والمقاومة .

الرئيس حافظ الأسد يقول : نحن ضد الارهاب ومع المقاومة الوطنية ويقول على سبيل المثال : « بالأمس خطفوا طائرة مصرية - يقصد الطائرة التي نقلت أعضاء فلسطينيين كانوا قد خطفوا سفينة واعترضتهم المقاتلات وأنزلتهم في ايطاليا - وبالأمس جرى غزو جرينادا ، وجاءت الموافقة على غزو لبنان ، كما جرت المشاورات في عملية خطف الطائرة الليبية التي كانت تقل وفدا سياسيا سوريا على مستوى عال ، وقد أهين هذا الوفد ، وعومل بكل القسوة . . وعندما قدمت سورية شكوى إلى الأمم المتحدة ، اعترضت عليها الولايات المتحدة ، واستخدمت حق الفيتو في مجلس الأمن لصالح الجانب الاسرائيلي الذي خطف الطائرة ، وهذا يعنى أن الولايات المتحدة تؤيد خطف الطائرات .

مثال آخر : اسرائيل تمارس ارهابا مستمرا ، وهو ارهاب غير مرتبط بزمان معين أو مكان محدد .

اللافت للنظر أن سورية عندما قدمت الورقة التي طلبت فيها بحث الحد الفاصل بين المقاومة والارهاب حدثت ضغوط لاحصر لها حتى لا يناقش هذا الامر في الأمم المتحدة وإنما يناقش في لجان ، وحتى الآن لم تسفر هذه النقاشات عن شيء محدد ، ونذكر في هذا الصدد خطاب للرئيس الأسد القاه في ٢٦/٥/١٩٨٦ ، في حفل أقامه على شرفه الرئيس اليوناني .. قال فيه : « نحن في سورية ندين الارهاب بكل شدة وبكل قوة لاسباب كثيرة أهمها أن الارهاب مرفوض من حيث المبدأ وثانيها : لاننا من أكثر بلدان العالم تعرضا للارهاب ، وبالأمس القريب تعرضنا لعملية ارهابية جديدة منذ شهر فقط كان ضحاياها ١٤٤ شهيدا ، و١٤٩ جريحا ، - وكان يقصد بذلك الارهابيين الذين زرعوا في الاوتوبيسات ووسائل النقل السورية متفجرات - ثم تكلم الرئيس الأسد عما عانت سورية من الارهابيين في الداخل ، ولذلك يعرف الرئيس الأسد الارهابي بأنه مجرم ، ومرترق ومرتبطة في كثير من الأحيان بل في أغلبها بأفراد وقوى خارج شعبه وأمتة ، أما المحرر والمقاوم والمناضل فهو مؤمن بقضيته ، مناضل صلب من أجل الشعب ، مستعد في كل لحظة لأن يموت شهيدا من أجل بلاده ، وكثيرا ما تساءل الرئيس حافظ الأسد بمرارة : كيف يمكن أن تحاسب شخصا فردا على عمل ارهابي قام به ، ولانحاسب دولة على عمل أو أعمال ارهابية قامت بها ؟ لو تتبع المرء كلام الرئيس حافظ الأسد عن الارهاب لكان بمقدوره وبسهولة كبيرة أن

■ الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والإرهاب ■

يؤلف كتابا في ذلك ، ولكن ملخص القول أن الاطلالة على فكر الرئيس الأسد تجعل المرء يميز بين مبدئين أساسيين : المقاومة الوطنية ، وحق الشعوب المحتلة في مقاومة الاحتلال ، والمطالبة بالاستقلال وهو حق مشروع كفلته مواثيق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي ، أما الإرهاب وبكل أشكاله وصوره يُمارس الاجرام ، والقتل والابادة الفردية أو الجماعية والتخريب والتدمير .. وهذا الإرهاب أمر مُدان ، وسورية ضده ، ويعتبره الرئيس الأسد إجراما ، يتطلب التصدي له ومكافحته واستئصاله .

علاقة جدلية لدرء الإرهاب عن البلدان النامية وحركات التحرر

يلفت النظر أيضا أن الرئيس حافظ الأسد أكد أكثر من مرة على العلاقة الجدلية لدرء الإرهاب عن البلدان النامية وحركات التحرر ، يكنى للدلالة على ذلك أن نعود إلى مقالته :

نحن بدفاعنا عن حرياتنا وعن أرضنا ووجودنا لانمارس حقا طبيعيا فحسب بل نؤدى دورنا في الدفاع عن المبادئ والمثل التي تؤمن بها البشرية ونسعى أن نستعيد حرياتنا كاملة لكي ننهض بمسئولياتنا وبدورنا الانساني ، وبالشكل والاسلوب الذي يتفق وتراثنا الحضارى ، وهذا يعنى بصورة واضحة حتمية النضال في كل بلد ، ولكل حركة أو شعب ضد العدوان من جهة والتحالف المشترك لمجموع حركات التحرر الوطنى في مواجهة الامبريالية والصهيونية والعنصرية من جهة ثانية أو شرعية هذا النضال اخلاقيا وقانونيا من جهة ثالثة .

يقول الرئيس حافظ الأسد : « في عالم اليوم الذى تلو فيه يد القوة الفاشمة على المبادئ والقانون الدولي ، تتلمس البشرية طريقها إلى السلام الحقيقى ، فلا تجد طريقا إليه سوى طريق النضال ضد قوى الشر والعدوان ، وعلى امتداد الفترة من عام ١٩٧١ وحتى عام ١٩٨٥ ، كان الرئيس حافظ الأسد أميننا ثوريتة عندما خاض حرب أكتوبر تشرين ١٩٧٣ دفاعا عن الحق العربى ودرءاً للإرهاب الاسرائيلى الذى تدعمه الولايات المتحدة ، وعلى صخرة الصمود السوري تحطمت الاحلام الاستعمارية والاسرائيلية في تشتيت الجهد العربى والغاء الدور الفلسطينى ، ولن ينسى التاريخ العربى المعاصر قصدى الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٨٢ للعدوان على لبنان وعلى الثورة الفلسطينية ، ولن ينسى تاريخ النضال العربى كيف زج الرئيس حافظ الأسد بطاقات بلاده لصالح القضية القومية فأوقف الغزو الصهيونى المباشر ، ومنع التوغل الاطلسى في الارض العربية وفجر بركان المقاومة اللبنانية ضد اسرائيل وأوقف حمامات الدماء الذى سببه التحارب الداخلى في لبنان ، وحافظ على وحدة لبنان مقدما

الشروط ، والظروف المواتية للحل السلمى للمسألة اللبنانية ، وخلال سنوات هذه المرحلة تبوأ حافظ الأسد عن جدارة مكانه كأحد أعمدة الثورة الرئيسية في دول العالم الثالث . ومن موقع القوة والقدرة وليس من موقع الضعف ومنابر الاستجداء سارع الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٨٦ ، لطرح مبادرته عندما دعا الى عقد مؤتمر دولي لبحث ظاهرة الارهاب ، ومناقشة أسبابه ونتائج بهدف التوصل إلى رؤية عالمية مشتركة من شأنها تحديد الارهاب ، وتعريف مَنْ هو الارهابى فرداً أم منظمة أم مجموعة من الدول ، وماهو الحد الفاصل بين مَنْ يمارسون الارهاب وَمَنْ يرغبون في العيش بسلام وحل كل المنازعات بين الشعوب بالطرق السلمية ، لقد بدأت هذه المبادرة خلال زيارة الرئيس حافظ الأسد لليونان في مايو أيار ١٩٨٦ وتطورت عبر سلسلة من المواقف والأحداث واللقاءات الدولية ، ووجهت ضربة شديدة وقوية لمخططات الاستعمار الجديد ، وفضحت مواقف هؤلاء الذين تلطخت أيديهم بدماء الشعوب ، ويلصقون تهمة الارهاب بهذه الشعوب .

كشف الرئيس حافظ الأسد بهذه المبادرة العجز الدولي عن تقديم تعريف واضح متماسك للارهاب يقبل به القانون الدولي كما كشف عن ضرورة السعى للحد من انتشار ظاهرة الارهاب وضرورة ربط ظاهرة الارهاب بأسبابها والتفريق الواضح بين الارهاب كعمل مُدان أخلاقيا واجتماعيا وقانونيا ، وبين النضال التحرري والثوري المشروع أخلاقيا واجتماعيا وقانونيا .

وتظل الحاجة ماسة إلى تعريف الارهاب بعيدا عن التأثير بتقاليد القوى الاستعمارية ، وبأية قوانين تكون معبرة عن مصالح هذه القوى ، ولعل عدم رغبة بعض الدول في ايجاد الحد الفاصل بين ارهاب الافراد والجماعات المتطرفة والدول من جهة ، وبين أعمال النضال الوطني المشروع الذى قد تمارسه حركات التحرر الوطني في اطار الكفاح المسلح ، ولعل هذا هو السبب في عدم وضع تعريف قانونى مقبول للارهاب الدولي .

اتهام ظالم وباطل ومرفوض

في فترة من الفترات حاول بعض المسئولين الامريكيين أن يربط بين سورية وبين ارهابيين معينين تم اعتقالهم في برلين ولندن، وقد تصدى الرئيس حافظ الأسد لهذه الادعاءات وغيرها في رده على أسئلة بعثة صحيفتى « واشنطن بوست » وانترناشيونال هيرالد تريبيون ، الأمريكيتين في ١٩ مايو ١٩٨٦ عندما قال : « نحن نعتقد أن العملية بكاملها مركبة ومرتبطة في اطار حملة عامة على سورية ، وعلى دول أخرى في المنطقة ، وبالمحصلة على الأمة العربية ، القصد منها جعل العرب يستسلمون للمخططات الصهيونية ، ولما ترغب فيه اسرائيل ، فنتحول عن نهجنا ولانتمسك بقوة

■ الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والارهاب ■

بحقوقنا ، ولانستمر في دفاعنا المصمم عن قضايانا العادلة فيفتح بذلك الطريق أمام اسرائيل لتكون اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات .

وهذه هي حقيقة الأمر أولاً : لأن سورية من أكثر البلدان تعرضاً للارهاب ، ونشير هنا إلى أن بعض القوى الغربية كانت خلف هذا الارهاب ومحركة له .

ويقول الرئيس حافظ الأسد : لقد تناقشنا مع هذه القوى في حينه واتفقنا على أن تطوى الصفحة ، ونحن لم نعلن الحرب على هذه القوى بل اكتفينا بالتصدي للارهابيين انفسهم ، وكما هو معروف فقد تعرضت سورية لعمليات ارهابية كانت حصيلة احداها مائة وأربعة وأربعين شهيدا ، ومائة وتسعة وأربعين جريحا . **وثانياً :** لأن القوى التي توجه إلى سورية تهمة الارهاب هي آخر من يحق أن يواجهها أو إلى غيرها مثل هذا الاتهام بالنظر الى ماضيها ، ولو عدنا إلى ماضي هذه القوى لما اتسع الوقت لتعداد الاعمال الارهابية الكبيرة التي خططت لها ومارستها ، ولاتوجد منظمة ارهابية في العالم إلا وذراع المخابرات المركزية الامريكية موجودة في داخلها وكما أشرنا في السابق فقد خطفوا طائرة مصرية ، وبالأمس القريب جرى غزو جرينادا ، وجرى الموافقة على غزولبنان ، كما جرت المشاركة في عملية خطف الطائرة الليبية التي كانت تقل وفدا سياسيا سوريا على مستوى عال ، وقد أهين هذا الوفد ، وعومل معاملة قذرة .

نقول جرت المشاركة في هذه العملية لأنه عندما شكت سورية هذا الامر إلى الامم المتحدة فإن الولايات المتحدة لم تكتف بعدم تأييد الشكوى بل اعترضت عليها واستخدمت حق الفيتو في مجلس الأمن ضد إدانة اسرائيل لخطفها الطائرة ، وهذا يعني أن الولايات المتحدة تؤيد خطف الطائرات ، وعندما نقول الولايات المتحدة نقصد الادارة الامريكية والسياسة الامريكية ، أما الشعب الامريكي فهو شيء آخر ولانريد أن نعود إلى الخلف بشأن مامورس ضد زعماء ، ولانريد أن نعود أيضا إلى خطف الطائرات من كوبا إلى الولايات المتحدة ، وتشجيع الخاطفين على التوجه إلى الولايات المتحدة ، وأخيرا ضرب المدن الليبية .

ومن أغرب الأمور أن تلاحق دولة كبرى بأسطول جوى مقاتل رئيس دولة لتقتله ، أي أن تقر اغتيال رئيس دولة ، ماذا يمكن أن نسمى هذه العملية ؟

يقول الرئيس حافظ الأسد : أنا أعرف البيت الذي ضرب لأنه كان قد أعد مؤخراً بيتاً للضيافة ، ولأنى كنت أحد الضيوف الذين ناموا فيه .. هذا البيت هو الآن على الأرض ، لقد هُدم تماما ، هذا البيت كان في البداية للعقيد القذافي ثم انتقل منه إلى بيت أصغر منه قريب ، وحوله إلى بيت للضيافة ويبدو أن معلومات المخابرات الامريكية كانت مبنية على أساس أنه مايزال بيت العقيد القذافي ولهذا دمر هذا البيت وإلا لماذا يدمر بيت للضيافة **بالإضافة إلى قصف أهداف مدنية ؟**

على أية حال فإن تقرير لجنة تشرس التي شكلها الكونجرس الامريكي تحدثت بما فيه

الكفاية عن أعمال المخابرات الأمريكية والإدارة الأمريكية وهذا وضعها لايحوز لها أن توجه الاتهام بالارهاب لسورية على لسان بعض المسئولين بين وقت وآخر ، أما الاسرائيليون فيارهابهم مستمر ودائم وغير مرتبط بزمان معين .. انظروا ماذا فعلوا في لبنان منذ سنوات إنه من الصعب أن يعرف المرء الأرقام بدقة ، ولكن تقديرات الخسائر تحدث عن أرقام كبيرة من القتلى والجرحى . ولاشك فإنه من الصعب تحديد الرقم تماما . فإن عدد الضحايا كبير جداً .. إنهم ضربوا المدن والقرى والمخيمات بالطائرات ، وبعض هذا القصف جرى في حضور مبعوث الرئيس الأمريكي آنذاك فيليب حبيب ، كان عدد من مراسلي الصحف الأمريكية شهودا على هذا القصف ، ومع ذلك فإن هذا ليس ارهابا من وجهة نظر الادارة الأمريكية وإنما ضرورة أمنية .

واذا تحدثنا عن الأعمال الارهابية الفردية التي قامت بها اسرائيل فهي كثيرة ولاتجد ضرورة لذكرها لأنها معروفة بدءاً بقتل وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت مروراً بدخولهم إلى القرى العربية في فلسطين وقتل الأطفال والنساء لأرغام الفلسطينيين على الهرب ، وهذا أدى فعلاً إلى خروج مئات الآلاف من الفلسطينيين من فلسطين وهؤلاء هم اللاجئين الفلسطينيون ، ومرورا أيضا بقصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس ، والمفاعل النووي العراقي الذي أقيم لتوليد الطاقة ، وقصف مواقع منية في سورية مرات عديدة خلال السبعينات ، ووصولاً إلى خطف الطائرة الليبية التي كانت تقل الوفد السياسي السوري .

إن أعمالهم الارهابية كلها ليست أعمالا ارهابية من وجهة نظر الادارة الأمريكية ، أما سورية التي تعرضت للارهاب ، فلم تترك فرصة للذين تعرضوا للارهاب إلا واستغلتها في مساعدتهم وقد نجحت أحيانا وفشلت في أحيان أخرى وبين الذين ساعدتهم سورية مواطنون أمريكيون وركاب الطائرة الأمريكية T.W.A . ويقول الرئيس الأسد : ولا أظن أن أحدا غيرنا قد ساعد في تسوية مسألة هؤلاء الركاب ، ولم يكن في مقدور الادارة الأمريكية آنذاك أن تفعل أي شيء من أجل هؤلاء الرهائن ، بالعكس كان يمكن لاي خطأ ترتكبه الادارة الأمريكية أن يودي بحياة هؤلاء الرهائن .

نحن وهذا وضعنا نتعرض للارهاب بما في ذلك احتلال أرضنا من قبل اسرائيل ، ومع أننا تساعد في إنقاذ عدد من المخطوفين في أي وقت نستطيع أن نفعل ذلك نُتهم بالارهاب عبر تلفيق عمليات لاعلاقة لنا بها .

وفيما يتعلق بعملية لندن ، فعلی الرغم من اننا كنا نتمنى أن تنزل كل المصائب باسرائيل لأننا وإياها عدوان وفي حالة حرب منذ ثمانية وثلاثين عاما « وقت اجراء الحديث ، نحن نرفض أن يقوم غيرنا بأعمال ضد الطيران المدني ، نرفض أن نقوم نحن أو غيرنا بأعمال الخطف أو تفجير ضد الطيران المدني ، ونعتبر هذه الاعمال أعمالا جبانة

■ الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والارهاب ■

ولا انسانية ، وأنها ليست أعمالاً نضالية تستهدف تحرير أرض محتلة أو استرجاع شعب لحقوقه المغتصبة .

أنا واسرائيل عدوان ، وكل الاحتمالات قائمة بيننا ولكن في موضوع الطيران المدني لم نخطط له بالسوء سابقاً ولن نخطط له لاحقاً ، وعندما خطفت طائرة الوفد السياسي السوري قلنا أننا سنرد على اسرائيل ولكن لن نقرب أبداً من الطائرات المدنية ، وكانت ردودنا من المناطق التي يجري فيها العمل النضالي الشجاع على الأرض .
وأريد أن أضيف بأن المحققين البريطانيين والبوليس البريطانى يدركون أنه لو كانت لسورية علاقة بحادث لندن لكان باستطاعة سورية أن تخبئ الشخص المتهم وقتاً طويلاً ، أعنى لما كان باستطاعة البوليس البريطانى أن يمسك بهذا الشخص بهذه السرعة .

أقول هذا وفي ذاكرتى الآن الأشخاص الثلاثة الذين أخرجهم البريطانيون من لندن وأنا على ثقة بأن البريطانيين يجب أن يكونوا مقتنعين بأن هؤلاء الثلاثة لعلقة لهم بالأمر .. أنا أقول هذه الأحكام منطلقاً من الافتراض أن هناك بعض الناس يتعاملون مع مثل هذه القضايا بتجرد وموضوعية .

فيما يتعلق بحادث ألمانيا أنا لا أعرف عنه أكثر مما تعرفون عنه كصحفيين ، وإذا كنتم أنتم متورطون في هذا العمل فسورية متورطة به .. نحن لانؤمن بالارهاب ولانقول ذلك خوفاً من أحد ، وقد قلنا ذلك سابقاً ونقوله الآن وستقوله في المستقبل .
ان الارهاب شيء والنضال من أجل تحرير الأرض واستعادة الحقوق المغتصبة شيء آخر .. الارهاب يعمل بدافع الارتزاق ، بدافع القتل ، أما المناضل من أجل الحرية فيضع في رأسه قضية يؤمن بها بكل طاقته النفسية والمادية ويدافع عنها .. نحن نؤيد النضال والمناضلين من أجل الحرية ، ونعارض الارهاب والارهابيين ، الارهابي غالباً مايكون مرتبطاً بقوة خارجية ، بينما المناضل ليس كذلك . إذن لماذا تُوصف سورية من قبل بعض الجهات بالارهاب ؟

في تقديري يتراءى لنا : أن الموضوع واضح بالنظر للعلاقة بين هذه التهم وسياسة سورية التحررية .. لنرى من الذين يتهمون سورية بهذا .. بالدرجة الاولى هي اسرائيل والصهيونية العالمية ، وفي مراحل كثيرة وقفت معها بعض الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية .

قال لي مصدر سوري كبير . نحن دائماً نقول بأن سورية هي بلد مستقل وذات سيادة وأن استقلاله هذا من مصلحة شعبه ومن مصلحة الأمة العربية ولذلك فأي خطر يهدد سورية ، يدفع شعبها الأبى للدفاع عنها بكل الوسائل المشروعة ، وطالما أن الأمة العربية وخاصة الشعب الفلسطيني والبلاد العربية التي تخضع للاحتلال الاسرائيلي تتعرض لعمليات قتل وقمع مستمرة ، ومحاولات لانتزاع الشعب واقتلاعه من

جذوره ، ورميه خارج الأرض ، لذلك فإن سورية معنية بحكم المبادئ ، وبحكم الالتزام القومى ، وبحكم الالتزام الوطنى بقضية الشعب ، وأن تهب لنجدة هؤلاء والدفاع عنهم . ويضيف المصدر نحن اصطدنا بهذا الاتهام عندما وقفنا ندافع عن الشعب اللبنانى الشقيق في وجه الاجتياح الاسرائيلي والقوى متعددة الجنسية التي جاءت لتفرض الاحتلال الاسرائيلي وكأنه واقع مشروع للأراضي اللبنانية وعندما فشلت هذه القوى في أن تثني الشعب اللبنانى عن حقه المشروع في المقاومة ، واستطاعت المقاومة الوطنية أن تتصدى للاحتلال الاسرائيلي ، وأن ترغمه على الانسحاب من بيروت إلى الجنوب ، وتجبر القوات المتعددة الجنسية على الرحيل عن الأرض لأنها لم تأت لتحقيق السلام ، ولو كان السلام هدفها لأجبرت اسرائيل على الانسحاب من كل الأراضي اللبنانية المحتلة . كان هناك الاتهام لسورية بأنها تشجع الارهاب لدوافع ليست نضالية ، ولكن أثبت الواقع كذب هذه التهمة ، لأن من تصدى للجيش الاسرائيلي في احتلاله للبنان والقوات المتعددة الجنسية هو الشعب اللبنانى بدعم سورى طبيعى . لا تخفى سورية أنها تدعم أى شعب يخوض حرباً تحريرية أو كفاحاً وطنياً في سبيل استقلاله الوطنى ، وقد عبرت عن ذلك بالنسبة لثورة الجزائر وحرب فيتنام ، وجميع بلدان العالم الثالث التي ناضلت للتحرر من الاستعمار ..

● **النقطة الثانية** هناك دول لها مصالح في الوطن العربى ، وتريد أن تكون اسرائيل هى حامية هذه المصالح ، ولذلك فهي ترى أن أى عمل تحريري لخدمة المصالح العربية وحمايتها هو عمل ارهابى ، وأكثر من ذلك فإنها تطلب تجنيد العرب لأن يكونوا حراساً لمصالحها كما فعلت عندما كان هناك مسألة الرهائن الغربيين في لبنان ..

يضيف المصدر السورى نحن ضد الخطف وضد الاختطاف ، ولكن لا يمكن أن نطلب من دولة عربية بأن تقوم بحراسة المصالح الغربية إذا كان الشعور لدى الشعب العربى بأن مصالحه هى التي تهدد وهى التي تستباح ، ولذلك ثبت أيضاً كذب هذا الاتهام ، وقامت سورية بجهد كبير متعاونة مع جميع الأطراف في سبيل تحرير الرهائن الغربيين في لبنان ، وقد توصلت سورية بفعل دورها المؤثر ، ونشاطاتها ، وتنسيقها مع جميع الأطراف الراغبة في أن تكون المنطقة منطقة استقرار إلى تحرير هذه الرهائن .

أضاف معلى المسئول السورى الكبير: هناك مسألة ثالثة تتعلق بالشعب الفلسطينى .. بالنسبة لنا لا نستطيع أن نتخلى عن دعم نضال الشعب الفلسطينى وحقه المشروع في تحرير أرضه .. كيف يمكن لدولة عظمى كالولايات المتحدة أن تضعنا على لائحة الارهاب لمجرد أن تدعم حقاً فلسطينياً مشروعاً في تحرير الأرض الفلسطينىة من الاحتلال الاسرائيلي وخاصة أن الولايات المتحدة والجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى كل هؤلاء يقولون بالقرار ٢٤٢ ، وهو القرار الذى يؤكد عدم مشروعية هذا الاحتلال ، وعدم مشروعية الضم واللاحاق الذى تم في الجولان أو في القدس أو في الضفة

■ التمهيد : التعجيل بين المقاومة الوطنية والارهاب ■

الغربية أو في قطاع غزة ولكن وللأسف الشديد فإنه من النتائج السلبية لانتها الحرب الباردة محاولة اسرائيل استغلال الوضع الدولى لفرض مخططاتها ، كان هناك دائما ضحية ومبرر لاسرائيل والقوى الداعمة لها بأن تفتى سياستها العدوانية بتوجيه الاتهام لغيرها . وقد أثبت الواقع أن سورية في تاريخها لم تتعامل مع قضية ارهابية واحدة .. اتهمت سورية بأنها وراء محاولة نسف الطائرة الاسرائيلية في لندن من قبل شخص يُدعى الهنداوى ثم تبين أن هذا الشخص عميل للموساد الاسرائيلي ، واعتذرت بريطانيا رسميا في بيان علنى عند عودة العلاقات السورية البريطانية ، وتبرأت ساحة سورية ، ثم جاءت الصهيونية لتتهم سورية بقضية « لوكاربي » ، ثم جاءت الوثائق لتدل على أن سورية لا علاقة لها اطلاقا بهذه القضية ، ثم جاءت قضية دعم الارهاب ، وتشجيع منظمة أحمد جبريل الفلسطينية وغيرها ، وطلبت سورية أن يُقدم دليل واحد يؤيد هذا ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على الاطلاق .

والآن يحاولون الربط بين حزب الله وسورية ، وسورية تعتبر أن الحركة الوطنية في لبنان هي حركة مقاومة وطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي .. لماذا يقال عن حزب الله أو المقاومة الوطنية اللبنانية إنهم ارهابيون ، ولا يقال هذا عن اسرائيل التى قامت بطائرات هليكوبتر مسلحة بخطف رجال الدين ، وما زالت تحتفظ بهم حتى الآن سواء داخل الارض المحتلة كالشيخ ياسين أو خارج الارض المحتلة كالشيخ عبيد ، ثم تقوم كل يوم بابعاد أهل البلد عن بلدهم ، وقتل الناس الأبرياء في بيوتهم ، وقصف المنشآت والأهداف المدنية ، والاغتيالات الفردية . والجماعية ، ومع ذلك لا أحد يتحرك ، ويضيف المصدر السوري نحن نقول إننا متهمون لأننا أنصار حق ولأننا أنصار قضية عادلة ، ونحن شعب ضحية يُمارس عليه العدوان من خلال استمرار اسرائيل في احتلال الجولان ، وبقيّة الاراضى العربية المحتلة .

كان الرئيس حافظ الأسد هو الأسبق في كشف ظاهرة خطيرة بدت في الآونة الأخيرة على الصعيد الدولى وهى ظاهرة اتباع سياسة القوة والتدخل العسكرى والعدوان المسلح لتحقيق أهداف سياسية ، وهذا ما فعلته الولايات المتحدة بهجومها المسلح على الجماهيرية العربية الليبية وما فعله اسرائيل في جنوب لبنان وسائر الاراضى العربية المحتلة وما يفعله عنصرىو بريتوريا في جنوب أفريقيا .

ان هذه الظاهرة الخطيرة أصبحت تهدد العلاقات الدولية بخطر شديد وتندرج جعل العالم ساحة مستباحة لمن يرى في نفسه القدرة على الاعتداء والتملص من العقاب . وقد وصف الرئيس حافظ الأسد من يمارسون هذا النهج باسم مكافحة الارهاب بأنهم يفقدون صوابهم لعجزهم عن كبه ويفقدون صوابهم أكثر عندما يخلطون بين الارهاب والتحرير ، ويفقدون صوابهم أكثر فأكثر عندما يعتقدون أنهم قادرون على منع العمل من أجل التحرير بالتخويف من تهمة الارهاب .

يقول الرئيس حافظ الأسد : إننا نرفض الارهاب ونؤيدنه ونقاومه لاننا لانريده ، بل عانينا من بعض أعماله ولكننا نميز بوضوح بين الارهاب وبين أعمال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال ، والتي نؤيدها لأنها حق لكل شعب احتلت أرضه أو اغتصبت حقوقه ، وخاصة عندما يُمارس ذلك على ساحة نضاله الحقيقية .

اتهامات لاتقلق ولا تعبر عن الحقيقة

اتهام سورية بأنها مشتركة في نشاطات ارهابية أو بأنها تقدم مساعدات لجماعات ارهابية لاتقلق أحدا في سورية ولا يمكن أن تقلق أحدا في سورية لأنها لاتعبر عن الحقيقة ومن المفيد أن نذكر أن بعض الأشخاص والجهات والولايات المتحدة قادوا حملة التهم الموجهة إلى سورية ، ولكن هذه التهم لاتعبر كما قال الرئيس حافظ الأسد عن ارادة سياسة امريكية محضة وانما تجسد ارادة اسرائيلية صهيونية .. في حديثه إلى مجلة التايم الأمريكية في ١٤ أكتوبر ١٩٨٩ ، قال الرئيس حافظ الأسد رداً على سؤال : لو كانت هذه التهم أمراً امريكياً محضاً لما وجهت إلى سورية مثل هذه التهم ، وهي التي عملت أكثر من مرة على تخليص أعداد من الامريكيين من أخطار موت محتمل .

لو كان الامر امريكياً حراً ، لما وُجّه الاتهام بالارهاب إلى سورية بينما اسرائيل تحتل اراضى سورية وعربية منذ سنوات طويلة ، وهذا الاحتلال عمل ارهابى مستمر أمام بصر العالم كله ، ولو كان الامر امريكياً حراً لما وجهت تهمة الارهاب إلى سورية ، وسورية هي التي عانت من أعمال ارهابية كثيرة ، والولايات المتحدة على دراية عميقة بالأعمال الارهابية التي مورست ضد سورية .

ولو كان الاتهام - ولنقل قرار الاتهام القائم في بعض الدوائر الأمريكية - امريكياً حراً لكان وجه إلى اسرائيل ولو مرة واحدة على امتداد تاريخها الارهابى الطويل فاسرائيل هي التي بدأت أولى عمليات خطف الطائرات في هذه المنطقة عندما خطفت أول طائرة ركاب مدنية سورية في عام ١٩٥٤ واقتادتها إلى اسرائيل ، واحتجزتها هناك أياماً ، وحققت مع ركبائها ، وألحقت بهم اهانات مختلفة .

واسرائيل هي التي أسقطت الطائرة المدنية الليبية من طراز « بوينج ٧٢٧ » في عام ١٩٧٢ ، وقتلت أكثر من مائة راكب مدنى من بلدان مختلفة من بينهم وزير خارجية ليبيا السابق صالح بويصير كما قتل أفراد طاقم الطائرة وهم من الفرنسيين .

واسرائيل هي التي خطفت عام ١٩٧٣ أيضاً طائرة مدنية عراقية بعد اقلاعها من مطار بيروت واقتادتها إلى اسرائيل وحققت مع الركاب بحجة البحث عن فلسطينيين .

واسرائيل هي التي خطفت طائرة مدنية ليبية في فبراير شباط ١٩٨٦ ، وكانت تحمل وفداً سياسياً سورياً واقتادتها إلى اسرائيل وحققت مع ركبائها ووجهت اهانات إلى مختلف ركاب الطائرة بما في ذلك أعضاء الوفد السياسى السوري .

■ الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والارهاب ■

واسرائيل هي التي أدخلت مجموعات من قواتها في عام ١٩٧٢ الى شوارع بيروت واغتالت ثلاثة من القادة الفلسطينيين في غرف نومهم هم (محمد يوسف النجار ، وكمال عدوان والشاعر الفلسطيني المعروف كمال ناصر)

واسرائيل هي التي اغتالت الكونت برنادوت وهو مواطن سويدي كان يترأس لجنة الصليب الاحمر في بلاده ، واختير من قبل الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي والصين وبريطانيا وفرنسا ، بتفويض من الجمعية العامة للأمم المتحدة ليقوم بمساع حميدة والوصول إلى حل سلمى في فلسطين .

وقد ذكر كاتب أمريكي اسمه دان جوردنزمان في حديث نشرته جريدة (جيزواليم بوست) الاسرائيلية ان اسحق شامير قال له عام ١٩٥٦ ، أنه أعطى الأمر بالاشتراك مع اثنين آخرين من قادة عصابة شتيرن بقتل الكونت برنادوت ، واحد هذين الشخصين سماه ناتان مور ، ومور هذا قال في مذكراته وفي حديث نشر في صحيفة « هيرالد تريبيون » أنه كان واحدا من ثلاثة يقودون الأعمال الارهابية في عصابة شتيرن وأنهم - الثلاثة - خططوا لأعمال ارهابية كثيرة وحددوا أهداف هذه العمليات ومن بين هذه الأهداف كان انتوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا ، واسرائيل هي التي قتلت اغتيالا في القاهرة اللورد موين وزير الدولة البريطاني ، وقد أغضب ذلك تشرشل رغم ماهو معروف عن تشرشل من مناصرته للصهيونية ، وقد هاجم تشرشل آنذاك الصهيونية وقال عن الصهاينة : أنهم تنظيم من قطاع الطرق شبيه بالنازيين الألمان .

واسرائيل هي التي قادت عام ١٩٥٤ عمليات تخريب في القاهرة من أجل توجيه أصابع الاتهام إلى مصر ، وعرفت أعمال التخريب هذه في حينها بما سمي فضيحة لافون الذي كان آنذاك وزيرا للدفاع في اسرائيل .

ومن بين وثائق هذه القضية رسالة مشفرة أرسلت من المخابرات العسكرية في اسرائيل إلى الشبكة الارهابية الاسرائيلية الموجودة في مصر تقول فيها : « نفذوا الاعمال التي من شأنها ان تمنع الاتفاق الانجليزى - المصرى ، ويجب الا تظهر أصابع اسرائيل في هذه العملية » وحددوا لأفراد الشبكة الاهداف التي يجب ان يضربوها بالمراكز الثقافية والمؤسسات الاقتصادية وسيارات المندوبين البريطانيين والمواطنين البريطانيين عموماً وأى هدف آخر ، يرون أنه يساعد في الاتجاه العام الذى حدد لهم ويسألونهم في هذه الرسالة عن امكانية التخريب في قناة السويس التي لم تكن قد امتعت بعد ، ويطلبون إليهم الاستماع يوميا في ساعة معينة إلى إذاعة اسرائيل على موجة محددة وتردد محدد . وقد شرح الضابط الاسرائيلي الذى ذهب إلى القاهرة ، وكان مشرفا على هذه الشبكة بأن الغاية من هذه العمليات الارهابية هي تحطيم ثقة الغرب بالنظام في مصر .

طبعا هذه العمليات فشلت ، لان الشبكة اكتشفت وحكم أفرادها وعرف

■ الفصل التاسع

البريطانيون والرأى العام العالمى حقيقة الموضوع ، وتحدث شاريت في مذكراته حول هذا الموضوع .

وهناك أيضا رابطة الدفاع اليهودية في الولايات المتحدة ، التى تشرف عليها اسرائيل ، والتى تقوم بأعمال منها حرق الابنية ، ووضع العبوات الناسفة وملاحقة الامريكيين الذين هم من أصل عربى ، وتعرفون أنها قتلت السيد اسكندر عودة في مقر اللجنة العربية - الامريكية ضد التفرقة في ساننا أنا ، وكذلك فجرت مكتباً للجنة في مدينة امريكية أخرى وتتبنى رابطة الدفاع اليهودية هذه الاعمال علنا .

هذه بعض الاعمال الارهابية الاسرائيلية ، وهناك أعمال اسرائيلية أخرى كثيرة لايتسع المجال لذكرها هنا .. فأين موقف الولايات المتحدة الأمريكية من كل هذه الاعمال الارهابية وغيرها من أعمال ارهابية أخرى ؟

هل قالت السياسة الأمريكية كلمة شجب واحدة حول هذه الأعمال ؟ ، وهل وضعت الولايات المتحدة اسرائيل في قائمة الدول الارهابية ؟

على العكس من ذلك فالسياسة الأمريكية دافعت عن هذه الاعمال إلى حد أنها استخدمت الفيتو في مجلس الأمن ضد مشروع قرار بادانة خطف الطائرة المدنية الذى جرى في شهر شباط عام ١٩٨٦ .

هل يمكن أن نقول أن مواقف السلطات الأمريكية من هذه الأمور بمجملها ، هي تعبير سياسى أمريكى حر ، أم أنها هيمنة اسرائيلية ؟

محاولات فاشلة للارهابيين القدامى

في كلمته التى القاها في افتتاح المؤتمر الحادى والعشرين للاتحاد العام لنقابات العمال في ١٦ نوفمبر ١٩٨٦ ، كشف الرئيس السورى حافظ الأسد أبعاد التآمر ضد سورية والمحاولات الياسة بوصمها بالارهاب فقال :

إن معركة البناء والتحرير هي معركة طويلة ومعقدة ، ونحن مصممون بإرادتنا وعملنا وجهدنا وطاقتنا على الانتصار فيها ، وقرارنا هو الانتصار في معركة البناء وفي معركة التحرير . وقرارنا لايرضى القوى الامبريالية التى لاتزال رغم هزائمها التاريخية المتلاحقة تحلم باعادة عجلة التطور في العالم إلى الوراء ، ولذلك يوجهون اليوم اربابهم الينا ، ويسلطون علينا حربهم النفسية ، ويتعاملون معنا بأحقادهم الاستعمارية التاريخية . الارهابيون القدامى الملطخة أيديهم بدماء الشعوب يريدون الصاق تهمة الارهاب بالمناضلين من أجل تحرير الشعوب وتقدمها وأمنها وسلامها ، نحن ضد الارهاب . قلنا هذا في الماضى ونقوله اليوم ، ولكن الارهاب شيء والكفاح الوطنى ضد الاحتلال شيء آخر . نحن ضد الارهاب لانمارسه ولانسمح لأحد بأن يمارسه انطلاقاً من بلدنا ، ولكننا

■ تلشد : التمييز بين المقاومة الوطنية والارهاب ■

مع الكفاح ضد الاحتلال مع حركات التحرر الوطني للشعوب ، هذا موقف مبني لن نعيد عنه أبدا . انهم يريدون اربابنا بارهابهم . يريدون تصوير كل عمل ضد اسرائيل المعتدية - التي تحتل الارض العربية وتصادر الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني وتحتل جزءاً من ارض لبنان - اربابا .

إن الزيف في موقفهم من الارهاب يبدو واضحاً في موقفهم من ارباب اسرائيل الذي هو سياسة دولة عندها . إنهم يقيمون الدنيا ويستنفرون كامل قواهم لأي موضوع صغير يتعلق باسرائيل ، ويسكتون عن ارباب اسرائيل ، وإن خرق سيادتهم وانتكح قوانينهم على أرضهم .

لقد اختطفت المخابرات الاسرائيلية الفنى النووي . كما سموه . الاسرائيلي موردخاي فانونو من قلب العاصمة البريطانية لندن ونقلته إلى اسرائيل بعد أن فضح أسرار الانتاج النووي في اسرائيل ، ولكن حكومة تاتشر لم تقم الدنيا .. حتى انها لم ترفع صوتها بكلمة احتجاج واحدة رفضاً للارهاب وانتصاراً لسيادة بريطانيا وقوانينها التي انتكحت .

وفي عام ١٩٨٤ حاولت المخابرات الاسرائيلية اختطاف الوزير النيجيرى السابق عمر ديكو في قلب لندن بواسطة ثلاثة من عملائها ، أخرجوا الرجل من منزله في وضح النهار وخدروه ووضعوه في صندوق خشبي كتبوا عليه « حقيبة دبلوماسية » وانكشفت العملية ولكن طويت المسألة ، ولم تصرخ حكومة تاتشر لدى اسرائيل ولم تحتج على الارهاب وانتكح كرامة الانسان بأبشع الطرق على الارض البريطانية وفي عاصمتها . والذين يحملون زوراً اليوم راية مكافحة الارهاب دفاعاً عن اسرائيل يتجاهلون عمداً أن اسرائيل هي التي زرعت الارهاب الجماعي والفردى في الشرق الأوسط ، وأكبر عملية ارهابية شهدتها التاريخ في هذه المرحلة التاريخية أو شهدتها البشرية في هذه المرحلة التاريخية هي تشريد ملايين الأطفال من أرضهم وبيوتهم طيلة هذه السنين .

ومن أمثلة اربابها الفردى اغتيال الاديب الفلسطيني غسان كنفانى في بيروت عام ١٩٧٢ بوضع متفجرة في سيارته .

طبعا أنا أذكر هنا بعض الأمثلة لكي تسمعها تاتشر وتسمعها ريجان وغيرهما ، هم لو رجعوا إلى سجلاتهم يقرأون هذه الامثلة سيكرهون الاستماع اليها ، ولكن يجب أن نسمعهم ما يكرهون .

واغتيال والى زعيتري في روما باطلاق النار عليه عام ١٩٧٢ واغتيال محمود الهمشري في باريس عام ١٩٧٢ بوضع متفجرة في جهاز الهاتف في منزله ، واغتيال حسين أبو الخير في قبرص عام ١٩٧٣ بوضع متفجرة تحت سريريه في الفندق . واغتيال باسل كسيبي بإطلاق النار عليه في باريس عام ١٩٧٣ واغتيال القادة

■ الفصل التاسع

الفلسطينيين يوسف النجار وكمال ناصر وكمال عدوان في غرف نومهم ببيروت عام ١٩٧٣ .

واغتيال محمد بوضيا بوضع متفجرة في سيارته بالحي اللاتيني في باريس عام ١٩٧٣ .
واغتيال العامل المغربي بوشيكي في أوصلو عاصمة النزويج لاشتباهم بأنه مناضل فلسطيني .

واغتيال عالم الذرة المصري يحيى المشد في باريس .
هذه الجرائم الارهابية ارتكبتها اسرائيل بواسطة أجهزتها الحكومية الرسمية ولكن فرسان الحملة الكاذبة ضد الارهاب في لندن وواشنطن لم يحركوا ساكنا عندما قامت اسرائيل بعمليات قرصنة في الولايات المتحدة بالذات .

لقد سرقت اسرائيل في عام ١٩٦٨ مالتى رطل من اليورانيوم المغصّب من المفاعل النووى الأمريكى في مدينة أيولو بولاية بنسلفانيا واعترفت المخابرات الأمريكية بأن الكمية وصلت إلى اسرائيل . وسرقت أسرار وزارة الدفاع الأمريكية بواسطة الجاسوس جوناثان بولارد .

وسطت على أسرار الكونجرس ووزارة الدفاع بواسطة العميل ستيفن بريان الذى تسلّم وظيفة هامة في وزارة الدفاع الأمريكية بعد انكشاف امر تجسسه لحساب اسرائيل .

وسرقت اسرائيل ثمانمائة وعشر قطع من مفاتيح « كرايتون » الالكترونية المستخدمة للتوقيت في عمليات التفجير النووى ونقلها من الولايات المتحدة إلى اسرائيل .

ويقول جودج كارفر المسئول الكبير السابق في وكالة المخابرات الأمريكية أن الأسرار الرسمية الأمريكية تتسرب بسرعة الضوء إلى السفارة الاسرائيلية في واشنطن .

ولم يزعج حكام الولايات المتحدة أن يقترب أنصار اسرائيل الجرائم الارهابية ضد العرب الأمريكيين ومؤسساتهم على الأرض الأمريكية ، لقد قتلوا الكسى عودة ، وفجروا مقر اللجنة العربية الأمريكية ضد التمييز العنصرى ، وحاولوا قتل الصحفى الأمريكى من أصل سورى مصطفى الدباس صاحب صحيفة الراية الصادرة في فيلادلفيا بالولايات المتحدة ، كما نهبوا محتويات مكاتبه ومطبعته في المرة الثالثة .

هذه الجرائم الارهابية كلها لم تدفع الفرسان المزيفين لحملة مكافحة الارهاب إلى اتهام اسرائيل بالارهاب ، والى الدعوة لقطع العلاقات الدبلوماسية معها .

ولم يثر قلقهم وممارستهم ضد الارهاب ، ان تسطو اسرائيل في شهر تشرين الثانى عام ١٩٦٩ على مانتى طن من اليورانيوم كانت مرسله على سفينة ألمانية غربية من ميناء انتجيرب البلجيكي إلى ميناء جنوا الايطالى لحساب السوق الأوروبية المشتركة ولم يثر حماسهم ضد الارهاب أن تكون اسرائيل أول من أدخل اسلوب خطف الطائرات إلى الشرق الاوسط وأول من أسقط الطائرات المدنية وقتل أكثر من مائة من الركاب .

■ الله ، التعبير بين المقاومة الوطنية والارهاب ■

أما جرائم الارهاب الجماعى والابادة الجماعية ، فسجلها الاسرائيلي ضخم جداً في فلسطين ولبنان وسورية ومصر والأردن وتونس وغيرها ، ولا يمكن أن يتسع المجال أو تتسع الساعات والأيام لتعداد هذه الجرائم .

أردت أن أشير إلى هذا المثال لأدلل أن الغاية لدى الاسرائيليين تبرر الوسيلة . وقد ارتكبت كثيرا من المجازر بحق اليهود في الكثير من بلدان العالم ، وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذا الامر من أجل أن تدفع باليهود لأن يهاجروا إلى فلسطين أو من أجل أن تلصق تهمة قتل اليهود بشخص أو بأخر بدولة أو أخرى بقوة أو أخرى لكي تستنزف ماتريد استنزافه ، ولكي تحقق هدفا سياسيا تكون قد خططت له ، الامر الذي يجعلنا نستنتج وبثقة أنها هي التي خططت لنسف طائفة العال الاسرائيلية ، وخططت ووضعت سيناريو بحيث تصل العملية إلى ما قبل تفجير الطائرة وهذا ما حصل .

ولم تتورع المخابرات الاسرائيلية عن إلقاء المتفجرات على الكنيس اليهودية وأماكن تجمع اليهود ، وهذا ما فعلته في عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ في بغداد .

أحد الصحفيين الاسرائيليين يقول في صحيفة اسرائيلية عام ١٩٧٧ ان مردخاي بن ورات السياسى البارز في حزب العمل حاليا كان المنظم المباشر للأعمال الارهابية الاسرائيلية المعادية لليهود العراق عامي ١٩٥٠ - ١٩٥١ كما أكد وقوع هذه الجرائم الارهابية كاتب اسرائيلي آخر في صحيفة الفهود السود عام ١٩٧٢ .

ان المستعمرين حلفاء اسرائيل الطامعين في إعادة أيامهم السوداء الغابرة في منطقتنا يتخذون من مكافحة الارهاب وسيلة للضغط على المناضلين من أجل الحرية والتقدم والسلام .. وهم عندما يخططون ويحلمون بالعودة إلى الماضى ، علينا أن نفتح صفحة ماضيهم الاسود . إن حكومة بريطانيا تنطلق في موقفها المتجنى المستفز من حق تاريخى على الأمة العربية . وتاريخ بريطانيا الاسود مع الأمة العربية معروف . لقد خانت بريطانيا عهدها وحنثت بكلمتها .. بدل أن تساعد العرب على نيل حريتهم بعد الحرب العالمية الاولى وكما نعرف جميعا بدل أن تساعد على تحقيق وحدتهم القومية قسمت وطنهم ووضعت الحدود المصطنعة بين أجزاء الوطن الواحد . ولم تكف بهذا بل قسمت الجزء الواحد من هذا الوطن إلى أجزاء . في ظل الاستبداد العثمانى كان هناك شيء من الوحدة العربية جاموا وقسموا . تاريخيا كانت سورية تعنى من طوروس إلى غزة ، فجاء الانجليز والفرنسيون وراء أطماعهم ومصالحهم ففقدوا اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ وفرضوا احتلالهم بعد تقسيم أرض سورية الطبيعية إلى دويلات .

ومن منا لا يذكر رسائل ماكماهون ووعده بلفور ودور بريطانيا في إقامة الكيان الصهيونى العنصرى في فلسطين ، ومن منا لم يسمع بقصف الأسطول البريطانى للاسكندرية عام ١٨٨٢ بحجة أن المصريين يرممون أسوار الميناء ؟

لقد مات أحد الضباط البريطانيين بضربة شمس ، فسحقوا أهل القرية بتهمة تسببهم بموت الضابط البريطاني ؟ وكان الأمر الفظيع هو في سحق أهل القرية بين إطلاق النار وأعواد المشانق وجدران السجون ولسنين طويلة فإن أبناء الشعب المصرى يحتفلون بمناسبة حادثة دنشواى ويسجل التاريخ مجزرة بريطانيا في الاسماعيلية عام ١٩٥٢ التى ذهب ضحيتها مئات من المواطنين المصريين .

ومجازرهم في العراق وبلدان الخليج واليمن والسودان وعدد كبير من بلدان افريقيا والهند وبلدان آسيوية أخرى ، هذه المجازر لاتتسع لذكرها مجلدات عديدة ، وعلمنا الانسى قبل هذا وبعده أن بريطانيا قسمت بلادنا إلى دويلات وغدرت بنا وسلمت فلسطين لليهود الصهيونيين .

ومن السخرية أن ترفع حكومة لندن راية مكافحة الارهاب تغطية للدور الذى تقوم به ضد الشعب السورى وغيره من الشعوب ، وضد صمود هذا الشعب تنفيذا لأوامر سادتها في واشنطن لأن الجميع يعرفون أن حكومة لندن جعلت من بريطانيا القوية صغيرة ، دمية صغيرة ، تابعاً صغيراً يدور في الفلك الأمريكى وهى لاتستطيع ولا ترغب في الفكك من هذا القيد . ولم تكتف حكومة بريطانيا أنها أعلنت عداءها لنا ، بل عملت على أن تستعدى ضدنا دول أوروبا ، مجسدة بذلك أحقر أنواع الحقد وسلوكا استعماريا كان مألوفاً في عهود الاستعمار ، يوم كانت تجرى الدعوات لتكتلات ، وتحالفات بهدف الاعتداء على آخرين ، وقد اعتادت بريطانيا دائماً أن تعمل على توريث الآخرين معها كما حدث في العدوان على مصر عام ١٩٥٦ .

وإذا لم تكن حكومة لندن تعمل بوحى من التراث الاستعمارى فلماذا دعوة أوروبا لأن تتبنى موقفها ، وأوروبا مجموعة أمم وليست أمة واحدة ، لغات مختلفة ، تاريخ خاص لكل منها ، مصالح مختلفة ، تربط بينها رابطة القارة فقط ، كما تربط بيننا وبين دول آسيا جميعاً رابطة القارة الآسيوية .

وعلى كل حال .. كثير من المسؤولين الاوربيين يفهمون حقيقة الموقف ولم ينجروا تماماً إلى ماتريده حكومة لندن ، ونحن نحمل تقديراً لعدد من المسؤولين الاوربيين الذين حضروا أو مثلوا في مؤتمر لندن ونوجه لهم الشكر ، وإن كنا نستغرب ولا نستطيع أن نفهم كيف سايروا حكومة تاتشر إلى حد تبني البيان الذى صدر بغض النظر عما ورد فيه على أساس الحرص على التضامن الاوروبى .

لم يدع الرئيس الأسد مناسبة تمر دون أن يطالب بدراسة ظاهرة الارهاب وكان يقصد بذلك الارهاب الرسمى أى الارهاب عندما يصبح جزءاً لا يتجزأ عن سياسة الدولة الخارجية وعلاقاتها مع الدول الأخرى ، والارهاب على مستوى الدولة هو النشاط الارهابى الذى يتم برغبة الدولة ومشيتها سواء نفذته هى أو بواسطة دولة أخرى أو منظمة أو مجموعة من العملاء والمرتزقة أو أى طرف آخر ، والارهاب الدولى هو أخطر

■ الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والارهاب ■

أنواع الارهاب لأنه جريمة دولية في حق الانسانية وتشكل خطرا مباشرا على السلام العالمى ، واسرائيل تمثل في المنطقة العربية المصدر الأساسى للارهاب على مستوى الدولة والرئيس الأسد يرى أن اسرائيل تمثل البروز العنصرى المتقدم للصهيونية البغيضة التى استغلت منذ ظهورها ومازالت تستغل اليهودية كدين واليهود كأصحاب ديانة ، وتسخرهم في تنفيذ خططها التى تلتقى مع خطط الامبريالية بهدف استعباد الشعوب ونهب ثرواتها بل إنها لم تتورع عن ممارسة أبشع أساليب التمييز العنصرى ضد اليهود العرب والشرقيين الذين يثنون تحت وطأة الحكم الصهيونى الظالم .

وعبر عشرات الكلمات والاحاديث التى أدلى بها الرئيس حافظ الأسد حول ظاهرة الارهاب الدولى توصل إلى عدة استنتاجات جرى التسليم بها في مختلف الدوائر العلمية والسياسية العربية وفي مختلف دول العالم الثالث .

●● من هذه الاستنتاجات ما يلى :

١. أن اتهام حركات التحرر الوطنى بالارهاب يعتبر في حد ذاته مذهبا استعماريًا جديدًا من شأنه عدم الاقرار للبلدان النامية بأى موقع ، أو حق في القانون الدولى وعدم جواز مطالبتها بالمساواة السياسية مع الدول الكبيرة وبالتعاون على أرضية الاحترام المتبادل والحقوق المتساوية ، ورفض الاعتراف بحقها في ممارسة النضال للتخلص من كافة أشكال الاستعمار وهو أمر لا يمكن قبوله من جهة ويفترض النضال التحررى الوطنى المشروع من جهة أخرى .

٢. إن الارهاب على مستوى الدولة بطبيعته وخصائصه الحديثة الشرسة هو ظاهرة إجرامية ينظر إليها المجتمع ممثلا في القانون والمنظمات والشعوب والحكومات التقدمية ، نظرة الشجب والادانة القاطعة ، ولا يمكن أن يكون في مصلحة الشعوب النامية وحركات التحرر الوطنى القيام بأعمال ارهابية تلحق الضرر بها وتجعل رأى العام العالمى ينبذها ، بينما الدوائر الامبريالية هى التى تلجأ إلى أسلوب الارهاب لتسييم جو العلاقات الدولية واغتيال السلام العالمى ، ونشر الخوف والذعر من الحروب والجرائم الدولية في نفوس البشر .

٣. إن مصطلح الارهاب الدولى هو مفهوم واسع ومطاط بحيث يستغرق قطاعا واسعا من الجرائم الارهابية ، لكن ارهابية الدولة هى أخطر أنواع الارهاب ، وهى في الوقت نفسه تتجلى في أشكال عديدة أهمها الأشكال الثلاثة التالية :

● الشكل الأول : الارهاب الذى ينفذ بواسطة القوات المسلحة لدولة ما ضد دولة أخرى مستقلة ، ومثاله ارهاب الولايات المتحدة الأمريكية خاصة بعد ظهور مبدأ الهيمنة على

العالم حيث احتلت جرينادا عام ١٩٨٣ ، وقصفت ليبيا عام ١٩٨٦ وهددت كلا من نيكاراغوا وسورية بصورة متواصلة ، ومثاله أيضا اسرائيل التي احتلت الجنوب اللبناني عام ١٩٨٢ متابعة سياسة قضم واحتلال الاراضى العربية دونما احترام للمواثيق الدولية ، ومثاله أيضا جنوب أفريقيا العنصرية التي غلبا ماتشن الاعتداءات السفارة ضد أنجولا ، وموزمبيق ، وبتسوانا والتي تمثل عمليا جزءا من اراضى أنجولا المستقلة وترفض الجلاء عن الاراضى التاميلية المحتلة بالقوة .

● الشكل الثاني : الارهاب الرسمى الذى ينفذ على شكل عمليات تخريبية سرية تقوم بها وكالات الاستخبارات الأجنبية ضد أشخاص الدولة من السياسيين والاجتماعيين أو ضد حكومات وشعوب هذه أو تلك الدول ، وهذا الشكل يظهر جليا فى برامج أعمال وكالة الاستخبارات الأمريكية التى تستفيد من القوانين الأمريكية الخارجية التى تسمح للولايات المتحدة بالتدخل بواسطة العمليات السرية فى تلك المناطق من العالم التى تواجه المصالح القومية الأمريكية فيها أخطار كبيرة وخاصة بالنسبة لبلدان أمريكا اللاتينية ، بحيث يتم اسقاط تلك الانظمة غير المناسبة لها وضمان استمرار الانظمة الموالية لها ، وكبح جماح تطور وانتشار حركات التحرر الوطنى - كالتدخل الأمريكى السافر فى بنما وضد نيكاراغوا ، ولصالح النظام الرجعى فى شيلى .

● أما الشكل الثالث الذى يتجلى فيه الارهاب الرسمى ، فهو عبارة عن تلك الأعمال الاجرامية التى تقوم بها الانظمة الديكتاتورية ضد مواطنيها افرادا وجماعات ، ومثاله ما يجرى من قمع وتنكيل وملاحقة للشوار الشرفاء فى شيلى والسلفادور وبنما وغيرها من بلدان أمريكا اللاتينية ودول أفريقية وآسيوية أخرى ، الأمر الذى يدينه بشدة القانون الدولى .

صمود سورية بقيادة الأسد فى مواجهة الارهاب الدولى

كان صمود سورية بقيادة الرئيس الأسد فى وجه المؤامرات الامبريالية والصهيونية المتكررة التى تعرضت لها سورية منذ مطلع الثمانينات ، كان ظاهرة تستحق عظيم الاحترام والتقدير .

لقد وصلت المؤامرات إلى حد إتهام سورية بالارهاب ، وكان الرئيس الأسد يستند فى مواجهة هذه الحملة الشرسة ، إلى إيمانه بالحق وقناعته بأن ما يمارسه حق ، وما يكون حقا يجد القناعة لدى الآخرين فى الدفاع عنه ، سواء كان هؤلاء هم الشعب الذى أعطى بكل ثقة واختيار قيادته للرئيس حافظ الأسد ، أو الأمة التى ينتمى إليها شعب سورية

■ الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والفرهاب ■

بكل مظاهر التأييد في مراحل الكفاح أو الرأي العام العالمي الحر ، الذي يستند في تعاطيه مع المعطيات إلى الحق والقانون والضمير دون ضغط أو اكراه ، والشئء المبهري في تجربة الرئيس حافظ الأسد هو ذلك الإيمان الراسخ بحتمية انتصار الحق والعدالة مهما كان الثمن لأن هذا منطق التاريخ ولن يستمر أى ظالم إلى ما لا نهاية .. هناك شواهد وإثباتات على ذلك .. الرئيس حافظ الأسد عندما يلتحم مع شعب سورية على طريق الإيمان بقضيته ، وهى قضية حق وعدل ، فهذا الشعب يبادل قائده الجدارة والامكانات الكبيرة التى تفوق الوصف في تحمله شتى الضغوط .. فالشعب يُسكن القائد في وجدانه ولديه إيمان راسخ بحكم التاريخ ، وبحكم الأمل والمستقبل بأن قضيته ستنتصر .. ولنضرب على ذلك مثالا ، لقد قاطعت الدول الأوربية سورية ، وقطعت عنها بعض دول شقيقة أيضا مساعداتها في عامى ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ومع ذلك استطاع الشعب السورى أن يعتمد على الذات تجاوبا وإيمانا لمبدأ طرحه الرئيس الأسد وهو الاعتماد على الذات ، ومرت سورية من عنق الزجاجة وهى ذى الآن ينعم اقتصادها بالازدهار ، وشعبها بالراحة والطمأنينة ..

مثال آخر : خرج على شعب سورية الخارجيون داخل سورية من الذين ظنوا أن الدين هو التجارة ، وأن التجارة هى اللعب بالدين وأن الدين يمكن أن يُباع ويُشترى لأغراض ظاهرها حق وباطنها الباطل ، ولأن الاسلام هو دين السماحة ، ودين الحق ، ودين التعاضد والتساند خاصة في مرحلة من مراحل الكفاح ضد الأعداء من أجل تحرير الأرض ، ولكن إيمان القائد بشعبه ، وإيمان الشعب بالقائد استطاع أن يهزم هذه الظاهرة شعبيا .. الشعب السورى هو الذى هزم هذه الظاهرة ومنعها من أن تستشرى أو أن يُستغل أى شعار مقدس والحق بها الهزيمة .

مثال ثالث : عندما تعرضت سورية إلى ضغوط كبيرة من القوات الاسرائيلية والقوات متعددة الجنسية في لبنان لكى تنهيا عن حلقها في تأييد الشعب الفلسطينى واللبنانى ، وعندما تعرض الشعبان الشقيقان للاعتداء الاسرائيلى في عام ١٩٨٢ ولكن إيمان الأسد بالقضية اللبنانية والقضية الفلسطينية جعله يصر على موقف الكفاح ، وبالتالي فلقد وقف وقفة وطنية جعلت الولايات المتحدة عاجزة عن أن تفرض على الشعب اللبنانى تحت جنازير الدبابات الاسرائيلية اتفاقية ١٧ مايو أيار ، التى حاولت اسرائيل أن تفرضها على لبنان وهو تحت احتلالها ، وكان الرئيس حافظ الأسد يعبر عن ضمير الأمة العربية كلها في رفض توقيع أى وثيقة استسلام ، وكانت الولايات المتحدة ووزير خارجيتها شولتز يعتبر أن هذا الاتفاق سيمر .. لكن الرئيس حافظ الأسد بحكم بصيرته وإيمانه بشعبه قال : إنه لا يمكن لشعب أن يُفرض عليه الذل تحت جنازير الدبابات والاحتلال ، وبالتالي استطاع الشعب اللبنانى أن يمزق الوثيقة العار ، لأنها

■ الفصل التاسع

لا تحقق أى تكافؤ بين طرفين متفاوضين ، ولا تعطى أى حق للبنان فى استرداد أرضه .. كانت اسرائيل تريد فصل لبنان عن جسمه وتحويله إلى محمية . وعندما جاءت القوات متعددة الجنسية والاساطيل كان الرئيس الأسد يقول : انه إذا كانت هذه القوات جاءت لتفرض واقعا على لبنان فنحن لا نستطيع الحماية لها إذا هى عجزت عن أن تقدم الحماية عن نفسها، إذا كانت هذه القوات التى هى قوات الدول العظمى لم تستطع أن تحمى نفسها فكيف يطلب من سورية أن تحمى مصالح هذه القوات التى فشلت فى أن تحمى نفسها ..

ورغم محاولات الحصار الاقتصادي التى تعرضت لها سورية بآلية مساندة لها للارهاب فقد فند الرئيس الأسد هذه المحاولات ومؤكدا فى الوقت نفسه أن شعبه يستطيع أن يتحمل كل ضائقة ، لانه لا يمكن أن تقهر عزته الوطنية .

الرئيس الأسد فى هذا الموقف كان يعبر عن الكرامة الوطنية للإنسان السوري والإنسان العربى ، ليس فى هذا الموقع فقط وإنما استلهاها للتاريخ ، وإيماننا فى المستقبل بأن الشعوب لابد أن تنتصر إذا كانت تمتلك ارادتها الوطنية وقرارها المستقل ، ولذلك خرج الرئيس الأسد من جميع الظروف منتصرا لأنه كان يعتمد ليس على موقف شخصى منه ، وإنما على استلهاه الارادة الشعبية بكامل فئاتها وقطاعاتها ، وأيضا على دعم كبير جدا من أمته العربية لانه كان يعرف بأن هذا هو ضمير الإنسان العربى فعلا ، وكان يرى أيضا بأنه لابد أن يكون له نصير وظهير فى رأى العام الدولى لأن هناك مواقع كثيرة فى رأى العام الدولى تساند قضايا الحق ، وقضايا الحرية فى كل مكان فى العالم .

وفى ١٩٨٦/٥/٢٧ وضع الرئيس حافظ الأسد النقاط على الحروف فى مسألة الارهاب ، وقدم التحدى الحقيقى للدول الارهابية عندما طرح مبادرته بتشكيل لجنة دولية مختصة سياسية حقوقية لتحديد معنى الارهاب وتفريقه عن النضال الوطنى المشروع ، والدعوة إلى الضرورة الموضوعية لحظر الاعمال الارهابية ونشاطات المرتزقة من جهة ، وتشجيع اعمال المناضلين الثوار من جهة أخرى .

مسوغات هذه المبادرة فلسفها الرئيس حافظ الأسد عندما قال فى مجال شرحها : « نحن فى سورية ندين الإرهاب بكل شدة ، بكل قوة لأسباب كثيرة ، أهمها أن الإرهاب مرفوض من حيث المبدأ ، وثانيها لأننا بلد من بلدان العالم ، بل بلد من أكثر بلدان العالم تعرضاً للإرهاب .

نحن لم نكن ولن نكون إرهابيين . ولكننا لم نكن ولن نكون مستسلمين أبداً ، ولن نسمح للظلم أن يهيمن علينا وعلى حياتنا ، وسوف نتصدى له ونقهره مهما تكن القوى التى تدعّمه لأن تجارب التاريخ وتجارب الحياة أكدت أن لا قوة فوق قوة الشعوب . وإذا

■ الأسد ، التعهيل بين المقاومة الوطنية والإرهاب ■

كانوا يظنون - وهذا بعض ما هو مطلوب من قبلهم - أن الضغط علينا وتخويفنا سيجعل منا سياجاً نحميمهم به من الناقمين عليهم ، ومن المناضلين من أجل الحرية وحرر الظلم ، إذا كانوا يظنون أننا في سورية سنتحول إلى مثل هذا السياج فقد أخطأوا الهدف بكل تأكيد .

ولابد من الإشارة إلى أمر آخر تجدر الإشارة إليه وهو أن المحاسبة على الإرهاب لم يفوض بها أحد . الشعوب كلها ضد الإرهاب وقد ورد في كلامي حتى الآن ماذا يعنى الإرهاب ، ولكن هل فوضنا جميعاً دولة لتحاسب الإرهابيين ، وتلاحقهم في كل مكان ؟

هل يحق لدولة منفردة أن تصف الإرهاب كما تشاء ، وأن تقرر الإجراءات التي تتبع وفق مقاييسها ؟ لننتقل على حدود الإرهاب وحدود المقاومة والتحرير ، ولنناقش هذا الأمر في مؤسسة دولية ، ولیمارس بعد ذلك كل منا دوره وفق المقاييس التي تضعها هذه المؤسسة . وبهذا نكتسب الشرعية الدولية والأخلاقية ، عندما نمارس مكافحة الإرهاب وفق المقاييس التي تقرها البشرية عبر هذه المؤسسة الدولية المختصة .

صلى المبادرة

وبسرعة شديدة أصبحت هذه المبادرة محور اهتمام المنظمات الدولية ونوقشت في الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية ومنظمة التضامن الآسيوى الأفريقى ، والمؤتمرات الفرعية لمجموعة دول عدم الانحياز والمؤسسات الدولية السياسية ، ومؤسسات البحث العلمى والجامعات والمعاهد المتخصصة في قضايا السياسة والقانون الدولى وعلم الاجتماع السياسى .

حقائق هامة

ويبقى في نهاية هذا الفصل أن نشير إلى مجموعة من الحقائق الهامة التي تكشف من وراء الحملة الأمريكية والأوروبية لإرهاب سورية ، وهذه الحقائق يمكن أن نبزها في عدة أبواب :

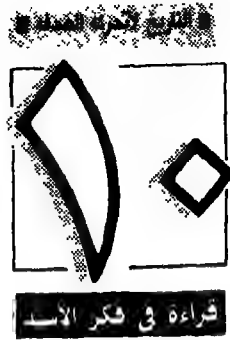
أولاً : أن منطقتنا العربية هي منطقة أطماع استعمارية منذ زمن طويل ، وأن سورية من البلدان التي عُرِفَتْ في تاريخها بمقاومة النفوذ الاستعماري بدءاً من استقلالها الوطنى وحتى يومنا هذا فسورية هي التي وقفت ضد الأحلاف الاستعمارية ، وهي التي ساندت مصر في كفاحها المشروع من أجل تأميم قناة السويس ، وفي كل المعارك المصرية الوطنية المشرفة .. كذلك فقد ساندت سورية استقلال الجزائر واليمن والخليج العربى ولبنان وتحملت الكثير من الضغوط في مرحلة الحرب الباردة وكان الغرض من

■ الفصل التاسع

هذه الضغوط هو تطويع القرار السوري الذي يرفض الرضوخ ويزداد صلابة وتمسكا باستقلاليتة وبيعه القومي كلما تعرض لضغوط أو تحديات .

● الناحية الثانية : هي قضية الصهيونية وسيطرتها على وسائل الاعلام الغربية وعلى قوى ومراكز القرار في الولايات المتحدة وفي الغرب الأوربي وتأجيرها أو تسخيرها لهذه القوى لصالحها مستغلة البرلمانات والصحافة والتجمعات لاثارة الكثير من التهم على سورية وعلى الرئيس حافظ الأسد ، وذلك في سبيل قطع الدعم ، وقطع المساندة لنظام وطني يمكن أن يشكل حالة نهوض ليس في سورية وحدها ، وإنما في الأمة العربية جمعاء ، ولذلك كانت هذه النظرة تمثل نظرة الغرب إلى الوطن العربي .

● الناحية الثالثة هي : أن سورية أخذت بنظام ديمقراطي يعتمد العدالة الاجتماعية ، وقد رأى النظام الغربي في سياسة سورية القومية خطراً على مصالحه في المنطقة ولذلك بدأ يشن حملات مكثفة عليها مستغلاً الرجعية الدينية حيناً والرجعية العربية أحياناً في سبيل أن تتحالف معه من أجل مصالحه . هذه الأمور مجتمعة هي التي أدت إلى هذه الظاهرة .. وطبعاً أن يخرج الرئيس حافظ الأسد من هذه المعارك منتصراً ، لأنه كان يعرف أنه يعبر عن ضمير أمته ، وعن مصلحة شعبه وعن حقه في الحياة .



العلاقات المصرية السورية في فكر الرئيس الأسد

- مبارك والأسد قائدان لشعب واحد.
- شهادة من المشير الجمسى.
- تجربة الوحدة المصرية السورية.
- وتحطمت الأسطورة عند الفجر.

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

□□ تحتل مصر وشعبها في فكر الرئيس حافظ الأسد مساحة كبيرة، واهتماما واضحا، وكثيرا ما ردد الرئيس حافظ الأسد أن أجمل سنوات عمره، هي تلك التي قضاها في مصر كضابط في جيش واحد لمصر وسورية وفي ظل قيادة واحدة، وتحت علم واحد، وهذا الشعور بالانتماء لهذه الدولة التي لم يطل عمرها « الجمهورية العربية المتحدة » خلق في وعي الرئيس حافظ الأسد شعورا بالاعتزاز والعنفوان ليس له مثيل . الرئيس حافظ الأسد كمناضل وحدوى كان يرى في هذه الوحدة حلما داعب مخيلته منذ الطفولة ، ولذلك كان يعيش على هذا الحلم ، وما زال يؤمن به ، وأمنيته أن يرى هذا الحلم وقد تحقق في وحدة عربية لا تضم مصر وسورية فقط ولكن كل الأقطار العربية .

وإذا كان قيام الجمهورية العربية المتحدة كان ولا يزال نقطة التحول الرائعة في التاريخ العربى الحديث ، والبداية الموفقة لمشرق فجر جديد على الأمة العربية ، فإن الرئيس حافظ الأسد يرى أن التاريخ قديمه وحديثه أثبت أن الأمن القومى العربى لا يكتمل إلا بجناحيه في مصر وفى سورية ، وأن مصر وسورية هما جناحا الأمة العربية التى تحلق بهما وإذا هوى أحدهما ، لا قدر الله ، وقف هذا الطائر بغير حراك .

الرئيس الأسد ينظر في التاريخ بعمق ، ويرى أن الأمن القومى لمصر يبقى منقوصا بدون سوريا ، كما أن سورية ترى أن أمنها القومى يظل بدوره منقوصا بعيدا عن مصر، وكثيرا ما ردد الرئيس حافظ الأسد أن الاتحاد المصرى السورى هو الذى أمن

حدود البلدين ضد الغارات المغولية والتركية والهجرات المختلفة من آسيا وأوروبا ، وأن وقوف سورية ومصر معا أمام الخطر عبر مراحل التاريخ المختلفة يناضلان عن كيانهما وعن كيان الأمة العربية هو الذى أبطل مفعول كل السهام التى صوبت ولا تزال تصوب اليها من كل مكان ، وقد تعرضت المنطقة لغزو الصليبيين وذلك فى أواخر القرن الحادى عشر وخلال القرن الثانى عشر ، ولكن صلاح الدين الأيوبي وحد العرب فى معركة حطين ورد الصليبيين على أعقابهم خاسرين مجللين بعار الهزيمة ، ثم جاءت جموع التتار الى الشام تريد احتلاله فتصدى لها الظاهر بيبرس بقوات مصرية وسورية ، واستطاع فى معركة « عين جالوت » أن يهزم جحافل التتار وينتصر عليها انتصارا عظيما ، وعبر التاريخ القديم والوسيط ، والحديث لم تتعرض الأمة العربية ، أو الأمة الاسلامية لخطر من الأخطار إلا وتصدت له مصر وسورية وأجهزت عليه ، وأرجعت الأمور الى وضعها الطبيعى كما سبيل فيما بعد وفى الزمن الراهن فإنه لولا الوفاق المصرى السورى ، والذى أرسى دعائمه الرئيسان حسنى مبارك وحافظ الأسد لما تحقق الوفاق العربى ولما قامت له قائمة ، ولقد كان من ثمار الوفاق المصرى الشامى قيام أول وحدة فى التاريخ الحديث عام ١٩٥٨ ، ولقد خاضت مصر والشام أول حرب تحريرية وهى حرب أكتوبر تشرين عام ١٩٧٣ ، ولولا التنسيق التام الذى قام بين الرئيسين مبارك والأسد خلال حرب الخليج عام ١٩٩٠ لما انتهت هذه الحرب الى النهاية التى نعرفها الآن .

هكذا فهم الرئيس حافظ الأسد العلاقة المصرية السورية ، وهكذا تعامل معها .

درس التاريخ

ولأن الرئيس حافظ الأسد قارئ ممتاز للتاريخ ، خدم فى سورية وأمضى فترة من خدمته فى مصر بالإضافة الى ما هو مشهود له به من عمق النظرة الاستراتيجية وإيمانه المطلق بحتمية الوحدة العربية ، كل هذه الاعتبارات جعلته يسلم بحقيقة أولية وبديهية وهى انه لا أمة عربية بغير الجسر الآسيوى الأفريقى أى بغير مصر والشام ، بغير مصر والشام لا يمكن أن تقوم الوحدة ، ولا يمكن أن تتوحد المواقف المشتركة أو يحدث الاتصال العربى أو الحضارى أو الثقافى .

الرئيس حافظ الأسد ، هذا القارئ الممتاز للتاريخ ، يعرف الدور العظيم والعملاق الذى شغلته مصر والذى حافظ على الثقافة العربية لاسيما فى العصر العثمانى وحتى اليوم ويعرف مكانة الأزهر وكافة المؤسسات الثقافية العربية التى منحت نفسها تسمية الأزهر تقليدا أو اقتباسا من تسمية الأزهر فى مصر ، وقبل ذلك كله فإن الرئيس حافظ الأسد كضابط من الضباط القيايين والمؤثرين ومن خلال موقعه القيادى منذ كان طالبا فى

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

المدرسة الثانوية في اللاذقية كما يؤكد زملاء دراسته ، شارك في صنع الوحدة الأولى بين مصر وسورية ، ووقف بكل الشجاعة والبسالة يقترح جدار مؤامرة الانفصال ويقاومه ويدفع عن طيب خاطر ثمن مقاومته ، وسرح من الجيش ووقف وقفة مجيدة ضد القيادة المنحرفة التي أيدت الانفصال ، وكلنا يذكر الحركات التي تمت للقضاء على الانفصال وإعادة الوحدة والتي كان حافظ الأسد من أبرز القياديين فيها ، وهو من أبرز القياديين والمنظمين لثورة الثامن من آذار ، وقد عرفنا من قبل كيف ناضل بعد قيام الثورة ، وقبل الحركة التصحيحية ، وبعدها من أجل عودة الوحدة المصرية - السورية ، وما هو مشهود للرئيس الأسد ، وموثق أن إيمانه وحب مصر جعله يناضل من أجل عودة الوحدة التي كان يرى أنها بداية لوحدة عربية شاملة لا بد أن تتحقق مهما طال أمد الوصول إليها ومهما غلت التضحيات في سبيلها .

إيمان الرئيس حافظ الأسد بالعلاقات المصرية السورية يأتي من خلال فهم عميق للتاريخ والجغرافيا ، وكما يقول الدكتور سهيل زكار : « صحيح أن سورية تقع في البر الآسيوي ، وأرض الكنانة تقع في القارة الأفريقية إلا أن الصحيح أنهما رغم ذلك امتداد جغرافي واحد ، ويسوق الدكتور سهيل زكار البراهين المؤكدة على هذه الحقيقة مما لا يتسع له المجال الآن .

ويقول : تأكيداً لكونهما امتداد جغرافي واحد أنه حتى المنخفضات والتركيبات وبعض الانهدامات الموجودة في مصر ، تنتهي جغرافياً وتركيباً على البحر الأحمر إلى داخل سوريا ، فالبلدان من حيث الواقع الجغرافي كتلة واحدة ، والمشهود أنه لا يوجد بين مصر وسوريا حاجز طبيعي جغرافي ، بل يشعر المرء أنهما امتداد واحد ، ورقة واحدة ، وإذا كانت الجغرافيا توجه التاريخ ، فتاريخ البلدين وجهته الجغرافيا وجعلت منه تاريخ بلد واحد ، ولا يمكن لأي فترة من تاريخ البلدين قديماً ووسيطاً وحديثاً أن تفصل بين ما كان يجري في مصر عما جرى في الشام ، وبالتالي فإن هذه الوحدة أعطت معطيات كثيرة .. أعطت الجسر والجسم أو الهيكل الذي قامت ويمكن أن تقوم عليه أي عملية وحدوية أو وفاق عربي . كما أعطت الحضارة العربية الإسلامية العادات والطبائع والتركيب الاجتماعي والاقتصادي ، بالإضافة إلى كل ذلك فإن التنسيق المصري السوري هو الذي مكن الأمة العربية وحقق لها استقرارها .

شهادة المشير الجمسى

□□ والواقع أن هذا الكلام الذي أشار إليه المؤرخ السوري الدكتور سهيل زكار أكده لنا في لقاء خاص المشير محمد عبدالغنى الجمسى نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية

والقائد العام للقوات المسلحة المصرية السالف عندما أشار إلى المقولة التي نقلت عن رمسيس (بأن أمن مصر إنما يتوطد بتأمين الحدود الشرقية والبلاد التي وراءها) وقال : اننى أوافق على هذه المقولة تماما لأن التاريخ القديم بالإضافة إلى التاريخ الحديث علمنا أن الباب الشرقى لمصر وسيناء (اتجاه فلسطين وسوريا ولبنان) هذا الباب الشرقى كان هو الباب الذى دخلت منه القوات التى حاولت أن تهاجم مصر فى جميع العهود ، ومن هنا ندرك أهمية الجبهة الشرقية ، وميدان مسرح العمليات الشرقية بالنسبة لنا يعتبر حيويا وأساسيا وأقصد سيناء بالذات الآن .

وأضاف المشير الجمسى يقول : اننى أؤمن تماما بأن العلاقة بين مصر وسورية يحتمل أن تكون قوية دائما ، وفى عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر عندما اتحدت مصر مع سوريا شكل هذا الاتحاد خطرا بالغا على الاستعمار الغربى فى المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط ، وكانت الخطورة الكبرى على إسرائيل التى لاتزال هى عدو العرب حتى الآن ، ولذلك لم تسمح هذه القوى للرئيس الراحل عبدالناصر أن يستمر فى الوحدة ووقع الانفصال نتيجة مؤامرة شاركت فيها دول أجنبية وقوى داخلية عميلة ومأجورة ، ولقد كان الانفصال نكسة كبرى لكل العرب ، وليس فقط لشعبى مصر وسوريا ، وفى رأى انه يجب أن يكون هناك دائما تعاون وثيق بين مصر وسورية وأن يكون هناك دائما هدف سياسى واحد وأن تتكامل السياسة والاستراتيجية للبلدين ، وكل الدول فى المنطقة العربية تتأثر بالإيجاب والسلب على ضوء قوة أو ضعف العلاقة بين مصر وسورية ، ولذلك فإن العلاقة المصرية السورية لها أهميتها وعمقها وحيويتها الآن ، وفى المستقبل ، لأنه ليس فى مقدورنا أن ننفصل عن تاريخنا وتراثنا وحاضرنا ومستقبلنا ..

وعندما تطرق الحديث مع المشير الجمسى عن ذكريات حرب أكتوبر باعتباره أحد رموز هذه الحرب قال : بعد حرب ١٩٦٧ كنا فى الوطن العربى كله وبصفة خاصة مصر وسورية والأردن نلحق جراحنا لأن إسرائيل استطاعت أن تفرض سياسة الأمر الواقع على الدول العربية التى احتلت أراضيتها فى حرب يونيو ١٩٦٧ بالقوة العسكرية وبتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية وكانت تتوهم انها ستبقى كذلك حتى يستسلم العرب ويقدموا بفروض الطاعة والولاء لها كما قال موسى ديان فى ذلك الوقت وكان من الضرورى على مصر أن تحرر سيناء ، وعلى سورية أن تحرر الجولان وعلى الأردن أن تحرر الضفة الغربية وقطاع غزة ، وكان على هذه الدول أن تضع الخطط اللازمة وأن تعتمد على القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية فى مواجهة إسرائيل ، ولقد استطاعت مصر وسورية أن تتحدى نظرية الأمن الاسرائيلى عندما اتصل الرئيس حافظ الأسد بالرئيس السادات وتقاربا وتعاونوا ونسقا فيما بينهما من الناحية السياسية أولا ، لكى يكون

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

التعاون العسكري مجدياً ، ولقد شاعت الظروف أن أخدم لمدة سنتين كرئيس لمجموعة عمليات الجبهة السورية وكان من ضمن اختصاصي أن أعمل على إيجاد نوع من التعاون العسكري بين مصر وسورية وكنت أسافر الى سورية مرة على الأقل كل شهر مع مجموعة صغيرة من الضباط في سرية مطلقة ، كما كان يحضر الى مصر القادة السوريون بهدف بحث سبل التعاون وتدعيمه الى أن وصل التعاون والتفاهم بيننا لدرجة أننا اقتنعنا في مصر وفي سورية بأن التعاون في العمل العسكري سيحقق الكثير وهذا ما حدث بالفعل والفضل في هذا أرجعه الى الرئيس حافظ الأسد والرئيس السادات لأنهما تعاونا كرئيسين الى أقصى درجات التعاون ولقد أتيت لي خلال هذه الفترة أن أتعرف على الرئيس حافظ الأسد وعلى عدد من قادة سورية مثل العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع والعماد حكمت الشهابي رئيس الأركان وقادة كثيرين أعز بصداقتهم منذ أن كنت في خدمة القوات المسلحة المصرية .

وأضاف المشير الجمسى يقول : في حرب أكتوبر ١٩٧٣ كنت رئيساً لهيئة عمليات القوات المسلحة المصرية ، أي الرجل الثالث في القوات المسلحة بعد رئيس أركان حرب القوات المسلحة والقائد العام للقوات المسلحة ، ومن المعروف أن المشير الراحل أحمد اسماعيل كان يتولى قيادة القوات في الجبهتين المصرية والسورية ، وكان التعاون بين مصر وسورية قائماً ومثالياً ، ولقد أعدت خطة الحرب بالاشتراك بين البلدين ، وتحدد يوم الهجوم في يوم واحد .. بحكم منصبى لم يكن لي اتصال مباشر بالرئيس حافظ الأسد ، ولكن جاءت لي الفرصة لكي أقابله أكثر من مرة كعضو في الوفد العسكري ، كما التقيت به وأنا رئيس أركان حرب القوات المسلحة بعد حرب أكتوبر ، وسافرت الى سورية من أجل اجراءات فك الاشتباكات على الجبهة السورية كما تم على الجبهة المصرية ، ولقد كونت رأياً عن الرئيس حافظ الأسد منذ ذلك التاريخ أكدته الأحداث فيما بعد ، وهذا الرأي هو : أن الرئيس حافظ الأسد زعيم وطني من طراز فريد ، وقائد عربى يحتل عن جدارة مكانة عالية ومرموقة بين القادة العرب ، ونظرتي للأمور تتسم بالعمق والشمول والموضوعية .

ومضى المشير الجمسى يقول : تسألني عن انطباعاتي عن الجبهة السورية خلال حرب أكتوبر ، وكما تعلم قد كان لهذه الجبهة رئيس هو العماد مصطفى طلاس ، وكان المشير أحمد اسماعيل قائد القوات في الجبهتين المصرية والسورية ، ولقد قاتلت القوات السورية مع القوات المصرية في الضربة الجوية الاولى في التوقيت نفسه وطبقاً لما كان مخططاً ، ولقد ضربت القوات الجوية الاهداف المخصصة لها في الجولان بعد أن مهدت المدفعية السورية بالتمهيد النيرانى في الوقت نفسه الذى مهدت فيه المدفعية المصرية بالتمهيد النيرانى في مصر وفي الوقت نفسه .. أى أن الهجوم بدأ في ميعاد صحيح وطبقاً

■ الفصل العاشر

للمعلومات التي كانت تصلنا في الأيام الأولى للحرب فقد حققت القوات السورية هجمات ناجحة ألحقت بالقوات الاسرائيلية هزائم فادحة حتى اليوم الثالث من الحرب ، ورغم الامدادات التي كانت تصل الى اسرائيل ورغم صعوبة الموقف بالنسبة للسوريين فقد قاتلوا بضراوة الأمر الذي جعل اسرائيل توجه ضربات انتقامية للمنشآت الاقتصادية والبترونية ، وفي يوم ١٠ / أكتوبر / ١٩٧٣ ضربت دمشق ، وفي يوم ١١ / ١٠ / ١٩٧٣ ضربت المنشآت المدنية ، الأمر الذي جعل الميزان ينقلب لصالح اسرائيل مؤقتا ، ودارت الأيام بعد ذلك ، وعندما اضطرت القوات السورية الى التقهقر للخلف شعر الرئيس الأسد ان الجبهة المصرية يتحتم عليها أن يزداد نشاطها لتخفيف الضغط على الجبهة السورية ، ويحث بمساعد وزير الدفاع الى الرئيس السادات ، وطلب منه تنشيط الجبهة المصرية لتخفيف الضغط على الجبهة السورية ، وكان ذلك يوم ١١ / ١٠ / ١٩٧٣ وقد وافق الرئيس السادات على هذا الطلب ، وطلب تطورا للهجوم يوم ١٢ / ١٠ / ١٩٧٣ ، كما أعطى المشير أحمد اسماعيل التعليمات لكي يتم التطوير يوم ١٣ / ١٠ / ١٩٧٣ ثم تأجل ليتم التطوير يوم ١٤ / ١٠ / ١٩٧٣ ، وذلك لتخفيف الضغط على الجبهة السورية ، وهذا كل ما حدث ، ومشى سير الأحداث حتى يوم ٢٨ / ١٠ / ١٩٧٣ ، حيث نجحت القوات الاسرائيلية في صنع ثغرة في اتجاه دمشق ، وبناء على ذلك أصبح الموقف شديد الحرج ، وبالنسبة لنا في مصر كنا أيضا في حرج على أساس التعاون بين بعضنا البعض .

استطاعت اسرائيل بمساعدة أمريكا ومن خلال الجسر الجوي الضخم الذي بدأ يوم ١٤ / ١٠ / ١٩٧٣ ، أن تحقق تقدما ، ومن المعروف أن الأسلحة والمعدات الأمريكية وصلت الى اسرائيل مباشرة بطائرات أمريكية الأمر الذي أثر في الجبهتين ، وأتذكر أنه خلال الجسر الجوي نقلت طائرات النقل الأمريكية ٢٤ ألف طن من السلاح الى اسرائيل ، وكانت هذه الطائرات تحمل العلم الأمريكي ، وتذهب الى اسرائيل بقرار من الرئيس الأسبق نيكسون لكي ينقذ اسرائيل ، وقد اعترف رئيس الأركان الاسرائيلي في ذلك الوقت (اليعازر) بأنه اذا لم تكن الأسلحة قد وصلت حتى يوم ١٢ / ١٠ / ١٩٧٣ لكانت القوات المصرية والسورية قد وصلت الى أماكن لا يتصورها أي اسرائيلي وكانت نهايتنا قريبة ، وذلك حتى يوم ١٢ / ١٠ / ١٩٧٣ .

وتجدر الإشارة الى أن الأسلحة التي أرسلتها أمريكا الى اسرائيل لم تستخدمها أمريكا نفسها حتى ذلك الوقت ، وردا على سؤال آخر قال المشير الجمسى : أعتقد أن سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد شغلت دورا رئيسيا في حماية لبنان من التهديدات الاسرائيلية وفي مرحلة كانت شديدة الخطورة بالنسبة الى لبنان خاصة أن جيش لبنان كما نعرف هو جيش ضعيف والقوات الاسرائيلية وصلت الى بيروت نفسها ، واحتلت الجزء الجنوبي [الخط الحدودي] أو المنطقة الجنوبية من لبنان بالكامل واعتبرتها منطقة أمن

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

لإسرائيل ووجود القوات السورية هو الذي أجبر الاسرائيليين على التحفظ وعدم العناد أكثر وأكثر مما تم وانسحبوا من بيروت حتى لا يتسع نطاق الحرب ، وتتدخل سورية ، ومن صالح لبنان أن يحتفظ بأقوى العلاقة مع سورية لأن سورية تلعب الدور الرئيسي في المنطقة حاليا بالنسبة لحل مشكلة لبنان ، وبدون سورية لا يمكن أن تجد مشكلة لبنان حلا ، وبدون سورية أيضا لا يمكن حل الصراع العربي الاسرائيلي في المرحلة الراهنة ، ولذلك فإن سورية كان لها دورها الرئيسي والحاسم في الفترة الحالية ، وفي مؤتمر السلام الذي بدأ في مدريد وتتواصل جلساته في واشنطن .

الاتفاقية الأمنية بين سورية ولبنان

حقيقة أخرى أشار إليها المشير الجمسى عندما أكد على الارتباط العضوى بين الأمن القومى اللبنانى ، والأمن القومى السورى مؤكدا ان هذه الاتفاقية هى التى تحفظ أمن البلدين وهى التى يمكن أن تؤدى الى اعادة بناء الجيش اللبنانى ، وهى التى تحمى لبنان بطوائفه المختلفة من الانقسامات المدمرة وأن الوجود السورى هو الأمان والضمان للبنان لكى يستعيد عافيته ، ومن هذا المنطلق قال المشير الجمسى : أن الأمن القومى لا يتجزأ ، ولهذا السبب فلقد أيدت بكل الاقتناع الخطوة الجريئة والصحيحة التى اتخذها كل من الرئيسين محمد حسنى مبارك وحافظ الأسد باشتراك القوات المسلحة من الدولتين في حرب الخليج لأن أمن الخليج جزء لا يتجزأ من الأمن القومى العربى ، ومن يهدد منطقة الخليج يهدد مصر وسورية ، ووجودنا نحن الاثنين معا في هذه الحرب من شأنه المحافظة على الأمن القومى العربى ، والأمل أن يكون اعلان دمشق أكثر ايجابية ، وأن تأخذ الناحية العسكرية في هذا الاعلان الأسبقية لأن الارتباط بالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا للدفاع عن دول الخليج من شأنه أن يعيد سياسة الأحلاف ، وأن يصنع تكتلا جديدا في المنطقة ويحدث انقسامات في الدول العربية نحن في غنى عنها .. المسألة مسألة قوة ، والسياسة تفرضها القوة ، ولعلنا نتذكر بوش عندما أرسل القوات الأمريكية الى منطقة الخليج في الأسبوع الأول من أغسطس عام ١٩٩٠ وحدد أربعة أهداف للسياسة الأمريكية وكان الهدف الثالث منها حماية أمن واستقرار منطقة الخليج وهى السياسة الأمريكية المقررة منذ عهد روزفلت الى عهد بوش ، وأنه - أى بوش - ينفذ سياسة حماية أمن واستقرار منطقة الخليج لمصلحة الولايات المتحدة الأمريكية أولا ، وأنا أعتقد ان أمن منطقة الخليج يجب أن ينبع من دول الخليج والأمن القومى العربى يجب أن ينبع من الدول العربية ، ولا يمكن أن يترك أمن الخليج أو الأمن القومى العربى للدول الأجنبية ، ونحن قادرون كدول عربية على الدفاع

■ الفصل العاشر

عن أنفسنا ، ومصر وسورية لديهما من الامكانيات البشرية وامكانيات التسليح ما يجعلهما قادرتين على الدفاع عن دول الخليج بكفاءة تامة .

وعاد المشير الجمسى يؤكد مرة أخرى على أن تجربة الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ كانت تلبية لشعور وطنى وقومى لدى الشعبين ، كما كان هناك هدف استراتيجى من وراء اقامتها ، والشعبان المصرى والسورى يعشق كل منهما الآخر ، وهذا ما دفع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر إلى اقامة الوحدة ولكنها كانت عملية متسعة ، ولم تكن محسوبة بدقة ، الامر الذى أدى الى الانفصال ، ومن المؤكد ان الوحدة آتية لا ريب فيها لأنها واقع موجود فى نفوس الناس .

وفى نهاية حواراه قال المشير الجمسى : ان موقف الرئيس حافظ الأسد وتمسكه بالحل العادل والشامل للقضية العربية موقف جدير بالاحترام والتأييد ، وموقف سورية هو الذى سيحدد مصير المفاوضات القائمة ، وعلى ضوء النتائج ستحدد سياسة سورية ، وسياسة الدول العربية لسنوات طويلة قادمة .

العلاقة بين الحضارات القديمة

□□ وإذا عدنا الى الحديث عن العلاقات المصرية السورية ، وكيف فهمها الرئيس حافظ الأسد ، وكيف تعامل معها فلا بد أن نشير الى أن أبرز ما اعتمد عليه الرئيس الأسد فى ايمانه بحتمية اللقاء السورى المصرى هو استيعابه ، كقارئ مدقق للتاريخ ، للدروس المستفادة من تأمل تاريخ حضارات العالم القديم ، وكذلك التاريخ الوسيط والحديث ..

كيف ؟

من المعروف أن سورية القديمة (بلاد الشام) امتازت بموقعها المتوسط بين مصر وبلاد العرب ، وعلى طول الطرق الرئيسية للتجارة بين الشرق والغرب ، ولذا قامت سورية الى جانب انشاء حضارتها بدور الوسيط فى نقل الحضارات بين الشعوب المجاورة ، وفضلا عما تقدم كان جنوب سورية (فلسطين) مهبط ديارتين سماويتين هما اليهودية والمسيحية ، ومن أرضها انتقلت الديانتان الى جهات أخرى ، وإلى جانب ذلك شغلت هذه البلاد دورا كبيرا فى نشر الدين الاسلامى ، ومن أوائل الشعوب التى سكنت هذه المنطقة الكنعانيون (الفينيقيون) الذين استقروا على الشريط الساحلى لسورية مكان لبنان وساحل فلسطين الشمالى الآن ، وقد أطلق على الكنعانيين هذا الاسم ومعناه الأرض الحمراء اللون ، ثم أطلق عليهم الاغريق اسم (فنكس) أى الشعب الأحمر اللون نسبة

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

الى الصبغة الحمراء التي أستخرجوها من الحيوانات البحرية التي تعيش قرب سواحلهم ، والتي اشتهروا بمهاراتهم في استخدامها في صبغ المنسوجات ومن كلمة (فنكس) اشتق لفظ فينيقيا ، ولقد قامت الاتصالات بين مصر وفينيقيًا منذ فجر التاريخ كما تدل على ذلك قصة أوزوريس وايزيس ، كما ذكرت هذه القصة كيف أن مياه البحر حملت تابوت أوزوريس من مصر الى فينيقية ، وكيف أعادته زوجته ايزيس الى أرض الوطن ، وقد قويت في عهد الدولة القديمة العلاقات والمعاملات التجارية بين مصر وفينيقيًا فأرسل الملك (سنفرو) والد (خوفو) الأساطيل لاحتضار الأخشاب من فينيقية ، كما ترك المصريون بعض الآثار هناك وازدادت مع الزمن العلاقات التجارية بين البلدين فسارت السفن تشق طريقها في البحر المتوسط تحمل البضائع الفينيقية الى مصر ، وتحمل البضائع المصرية الى فينيقية .

أما في عصر الدولة الحديثة : فلم تعد العلاقات مقصورة على النواحي التجارية والثقافية بل شملت الناحية السياسية وازداد الاختلاط بين المصريين والفينيقيين ، ووجدت حضارة كل من البلدين طريقها الى الأخرى ، وقد تأثر الفينيقيون كثيرا بأفكار المصريين ومعتقداتهم ، فلقد صور الفينيقيون الكفاح بين الخير والشر في قصة الإله (بعل) إله الخير عدو إله الموت ، وهي قصة تشبه في مغزاها وبعض أحداثها قصة أوزوريس وست المصرية ، وقد تصور الفينيقيون الأرض والسماء على شكل ذكر وأنثى كما فعل المصريون ، ولكن بينما تصور المصريون رب الأرض على شكل رجل وربة السماء على شكل أنثى تخيل الفينيقيون السماء كالأب والأرض كالأم ، وتدل عادات الدفن عند الفينيقيين ، وما عثر عليه من توابيت وما دفن مع الميت من أواني الطعام والشراب على وجود فكرة الحياة والبعث بعد الموت ، وقد ظلت علاقة مصر بفينيقيًا قوية حتى بعد انتهاء أيام الدولة الحديثة ، فإلى جانب النشاط التجارى اضطلع الفينيقيون مثلاً بتكليف من أحد فراعة مصر [نخاو] برحلة استكشافية سارت حول أفريقية ، كذلك فإنه عندما تعرضت بلاد الشام للغزو الأجنبي من قبل الحثيين فإن الذي أوقف موجة هذا الاجتياح التعاون المصري الشامى فلقد جاءت جيوش مصر لتقف وتقاتل قرب بحيرة (قطينة) ولتهزم الحثيين سنة ٢٠٠٠ ق.م .

اذن مصر هبت للمحافظة على طابع سورية العربى ، وعلى بقاء هذا البلد بلدا عربيا ، كذلك نجد عمليات التمازج الحضارى في عمليات التنقيب التى تمت في الساحل السوري «اوجاريت» وغيرها . وأعمال التنقيب التى تمت في الداخل وعمليات التبادل والأشكال المصرية - الشامية ، أو الشامية - المصرية بارزة بكل وضوح .

وقد روى لنا الدكتور سهيل زكار انه خلال عمله في ترميم الجامع الأموى وجد صورة سفنكس (أبو الهول) على أحد أحجار جدار الجامع الأموى مما يدل على وجود صلة

■ الفصل العاشر

وثيقة وقديمة ولذلك فمن الصعب الحديث عن تاريخ مصرى أو تاريخ شامى ، ولكن من السهل جدا أن نتحدث عن تاريخ شامى مصرى .

وإذا كان الإنسان الذى سكن سورية منذ أقدم العصور قد ترك شواهد وأثارا مادية تدل على نشاطه ووجوده فالهياكل العظمية البشرية التى اكتشفت حتى الآن ترجع الى حوالى مائة ألف سنة فى حين أن البقايا البشرية المكتشفة تعود الى ما قبل مائة وخمسين ألف سنة ، ويصف المؤرخون سورية بأنها « خلاصة لتاريخ العالم » فعلى شاطئها اخترعت أول أبجدية فى العالم .. أبجدية أوجاريت قرب اللاذقية التى أصبحت أما للأبجديات المعروفة كافة ، وكان لها أبلغ الأثر فى نشر العلم والثقافة ولذلك فإنها تعتبر من أعظم المكتسيات للإنسان ، وفيها دمشق أقدم مدينة ماتزال موجودة على الأرض .

والواقع أن الحضارة المصرية التى بدأت منذ آلاف السنين تزامنت مع ظهور الحضارة فى سورية والعراق وسواحل لبنان ، وفى جنوب الجزيرة العربية ، ولقد أسهمت كل هذه الحضارات فى نشر تجاربها الى الشعوب التى اتصلت بها وأخذت عنها ، ومنها شعوب فى الركن الجنوبي الشرقى من أوربا وفى الجزر المحيطة به وخاصة فى جزيرة « كريت » ، وتمكنت بفضل هذه الاتصالات من خلق حضارة نشأت فى بادئ الأمر فى جزيرة كريت وجزر « بحر إيجه » القريبة منها ، ثم ما لبثت بلاد الاغريق أن أصبحت مركز الإشعاع الحضارى فى المنطقة وأنشأ الاغريق [اليونان] حضارة أخذت عنها أوربا حضارتها الحالية .

ولقد أثر موقع بلاد الاغريق على حضارتها تأثيرا كبيرا ، فهى قريبة من منبع حضارات الشرق القديم مصر - سورية - العراق ، كما كانت جزيرتا كريت وقبرص بمثابة المعبر الرئيسى للاتصال الحضارى والتجارى بتلك الجهات ، وبآسيا الصغرى وبساحل افريقية الشمالى ، كذلك كان ساحل بلاد الاغريق الغربى والجزر القريبة منه بمثابة البوابة الغربية لبلاد الاغريق ، ومنها حمل التجار والمهاجرون الحضارة الى شبه الجزيرة الايطالية ، وبذلك نشأت حضارة الرومان ، وهكذا ساعد الموقع الجغرافى لبلاد الاغريق على القيام بدور المستورد لحضارات الشرق والموزع على بقية الدول الأوروبية .

وفى الفترة ما بين القرنين السادس والثانى عشر كان الفينيقيون يرتبطون بالحكم المصرى ارتباطا وثيقا بلغ حد الخضوع الفينيقى للحكم المصرى وبلغ من جراء هذا الاتصال للحضارة الفينيقية والفرعونية أن ارتفع معها التعاون وخاصة فى مجال الصناعة والتجارة ، فقد كان الفينيقيون سادة التجارة فى البحر المتوسط وكان الارتباط بين مدن صور وصيدا والاسكندرية وثيقا بحيث تبادل الطرفان التقدم الثقافى .

ومن الثابت تاريخيا أن الحضارة المصرية ، والحضارة الفينيقية قد اثرتا على

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

الآغريق ، وعندما غزا الآغريق جزيرة كريت وأخذوا منها الكثير من مظاهر حضارتها المتأثرة إلى حد ما بالحضارة المصرية ، كذلك نقل الفينيقيون الحضارة المصرية إلى البلاد التي تاجروا معها ومنها بلاد الآغريق ، ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ التجار الآغريق يفدون إلى مصر حيث أنشأوا مدنا خاصة بهم سارت على النظام الآغريقي ، كما التحق الكثيرون بجيش مصر كجنود مرتزقة .

وهكذا بدأ الاتصال المباشر بمصر وأذهلتهم حضارتها العظيمة وتوافد إلى مصر عشرات من علمائهم وطلابهم وطلاب المعرفة منهم نقلوا الكثير من مظاهر التقدم في الطب والفلك والرياضة والكيمياء والفنون والعمارة والصناعات المختلفة ، وقد أخذت علاقات الآغريق بمصر تزداد على مر السنين حتى وقت مجيء الإسكندر إلى مصر . كما نقل الآغريق عن الفينيقيين الحروف الهجائية وزادوا عليها حروفا متحركة ، وقد ساعدتهم ذلك في تسجيل الكثير من أعمالهم الأدبية التي نظموها شعرا ونثرا والتي تناولت موضوعات تتصل بوجه خاص بأخبار حروبهم وقصص أبطالهم وأساطيرهم الدينية ، وقد فقد جانب كبير من هذه الأعمال الأدبية ولم يبق سوى شذرات منها ، وكان من أشهر شعراء الآغريق وأقدمهم هوميروس الذي نظم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ملحمتين راعيتين هما الإلياذة والأوديسا وتدور أشعارهما حول شخصيات أسطورية قامت بأعمال بطولية في فترة حروب الآغريق .

مصر وسورية في عهد الإسكندر

عرفت مصر والشام الآغريق واختلطتا بهم منذ القرن السابع قبل الميلاد ، فقد عملوا في الجيش كجنود مرتزقة وجامعوا كتجار نجحوا في إقامة مستوطنة لهم في نقراتيس في شمال غرب الدلتا ، كما وفدوا إلى مصر والشام يبتغون الاستفادة حضاريا وثقافيا وعلميا ، ومن المعروف أن بلاد الآغريق توحدت تحت زعامة اقليم « مقدونيا » وأن ملكهم الإسكندر المقدوني الأكبر أحرز انتصارات باهرة على أعدائه الفرس ، وفي آسيا الصغرى ، وسورية وفلسطين ، وأن مصر أصبحت هدفه التالي في خطته إلى تحطيم الامبراطورية الفارسية تحطيمًا تامًا ، وتمكن من السيطرة على مصر بعد سقوط غزة في يده وأصبحت مصر بعد استيلائه على منف في قبضته تماما وقد ساعده المصريون الذين كانوا في ثورة ضد المحتلين الفرس ، وكان استيلاء الإسكندر على سورية ومصر والعراق وغيرها من بلاد الشرق القديم أكثر من مجرد سيطرة حربية وتوسع عسكري ، إذ أن هذه الأقاليم كانت صاحبة حضارة عريقة نمت وازدهرت على مر العصور وأفاد منها الآغريق ، وبعد معركة أيسوس عام ٣٣٣ ق . م سقطت سورية في يد الإسكندر الأكبر المقدوني وأصبحت إحدى الولايات التابعة لامبراطوريته ، وبعد موت الإسكندر استطاع

■ الفصل العاشر

سلوقس الأول أن يبسط سيطرته على القسم الأكبر من سورية ، وهكذا شهدت سورية النزاع الطويل الذى نشب بين السلوقيين والبطالمة حول امتلاك وسط سورية وجنوبها .

وفي عام ٦٤ ق.م جعل الرومان من سورية ولاية رومانية بعد أن أخضعوا المملكة السلوقية بصورة نهائية واستمرت سورية ولاية رومانية حتى انتقال العاصمة الرومانية الى القسطنطينية عام ٣٣٠ ميلادية ، وظلت سورية احدى بلدان الامبراطورية البيزنطية حتى الفتح العربى الاسلامى .

أما بالنسبة لمصر فقد تمكن الاسكندر - كما قلنا - من الاستيلاء على مصر بسهولة نظرا لترحيب سكان مصر به باعتباره منقذا ومخلصا لهم من الفرس ، وأمر بإنشاء مدينة الاسكندرية ، وبدأ الاسكندر ومن بعده البطالمة فى بناء حضارة تجمع مزايا الحضارات الشرقية ، والحضارة الاغريقية عرفت باسم الحضارة الهيلينستية وقد قسمت امبراطورية الاسكندر بعد وفاته وكانت مصر من نصيب القائد بطليموس الذى أسس دولة البطالمة التى استمرت فى حكم مصر قرابة ثلاثمائة عام ، وكان البطالمة اغريقيين فى معيشتهم ولكنهم لم يحاولوا التدخل فى شئون المصريين الدينية أو الاجتماعية فاحتفظ المصريون بمعظم ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، وقد انتهى عهد البطالمة فى مصر أيام كليوباترا السابعة بعد أن دمر القائد الرومانى (أكتافىوس) أسطولها وأسطول حليفها انطونيوس فى موقعة أكتيوم سنة ٣٢ قبل الميلاد .

وأصبحت مصر منذ ذلك الوقت ولاية رومانية . وظلت مصر تحت الحكم الرومانى حتى انقسمت الى قسمين : غربية وشرقية ، وحينئذ أصبحت مصر تابعة للدولة الرومانية الشرقية « البيزنطية » التى اتخذت القسطنطينية عاصمة لها .

وقد اتخذت مقاومة المصريين للرومان صورا مختلفة اما فى شكل ثورات مسلحة أو مقاومة شعبية أو باعتراقهم الديانة المسيحية فى تحد واضح لسيادة الامبراطورية الدينية الرومانية ، وقد أنزل الرومان بمسيحيى مصر ألوانا شديدة من الاضطهاد ، وقد انتهى

الصراع الدموى باصدار الامبراطور « ثيودسيوس » قرارا باعتبار المسيحية دين الدولة الرسمى ، وقد استمر الحكم البيزنطى لمصر مدة ثلاثمائة عام ، وانتهى بدخول العرب مصر ، فرحب المصريون بهم نتيجة للظلم والابتزاز ، وقد رحب أقباط مصر بالفتح العربى عام ٦٤١ باعتبار العرب مخلصين لهم من الحكم البيزنطى ، ومنذ ذلك الوقت بدأ عهد تاريخ جديد حملت مصر فيه راية الاسلام وأصبحت مركز اشعاع للحضارة العربية الاسلامية .

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

مصر وسورية بعد الفتح العربي الاسلامي

بالرغم من أن سورية قبل الفتح العربي الاسلامي كانت إحدى الولايات التابعة للدولة البيزنطية إلا أن سكانها كانوا عرباً ، وإذا كانت اللغة الرسمية هي اليونانية إلا أن لغة الشعب كانت اللغة العربية بلهجات متعددة ، وكذلك الحال في مصر حيث كانت تابعة للدولة البيزنطية التي اتخذت من القسطنطينية عاصمة لها ، وظلت تحت هذا الحكم حتى الفتح العربي الاسلامي .

والواقع أن تاريخ العرب قبل الاسلام يكتنفه الغموض الامر الذي دفع المحققين من الكتاب الى عدم ايفاء هذا التاريخ حقه من البحث والدراسة لوعورة مسالكه ، وتناقض الاقوال فيه ، بعكس تاريخ العرب بعد الاسلام ، فإنهم لم يتركوا خبراً من أخباره أو رواية ، أو واقعة إلا ودونها ، وفصلوا القول فيها ، وقد بدأت الفتوحات الاسلامية لسورية في مستهل خلافة أبي بكر الصديق ، ففي سنة ١٣ هـ [٦٣٤ ميلادية] توجهت الجيوش العربية لفتح بلاد الشام ، وتحريرها من السيطرة البيزنطية ، والتقت هذه الجيوش العربية مع نجدات قدمت اليها من العراق بقيادة خالد بن الوليد بالقوات البيزنطية في معركة اليرموك سنة ١٥ هـ ، ٦٣٦ م والتي تعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ العربي الاسلامي ، حيث انتهت بانتصار عظيم للجيش العربي رغم قلة عدده بالقياس الى جيش الروم وعدته .

استطاع خالد فتح بلاد الشام واخضاعها لسلطان العرب ، وكانت بالشام دولة الفساسنة وهي موالية للرومان وخاضعة لنفوذهم ، وقد توفي الخليفة أبو بكر ومعارك الشام مازالت دائرة الرحي ، وبذلك لم يشهد انتصار العرب وضم الشام الى دولتهم ، وكان أبو بكر قد أوصى بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب حتى يتجنب الخلافات والانقسامات ، وقد نفذت وصيته وخلفه عمر في الخلافة ، وفي عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر وأصبحت من أهم المراكز السياسية والفكرية في العالم الاسلامي ، وقد تولى عمر الخلافة [من سنة ٦٣٤ - ٦٤٤ م] ، وجيوش العرب تحارب الروم في الشام ، وتم النصر للعرب في عهده ، ودانت لهم ربوع الشام ورحب اهله بهم ، وتنسب الى أهالي حمص عبارة تصور لنا مشاعر أهل الشام الأصليين حيال الفاتحين العرب وهي [لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والجور] .

وهنا تجدر الإشارة الى أن العوامل التي ساعدت على الفتح الاسلامي لمصر وسورية أن كلتا البلدين كانت محتلة من الروم البيزنطيين ، وكان في هؤلاء غطرسة عالية ، فوضعوا أنفسهم موضع السادة بالنسبة لأهل البلاد ، وفي الوقت نفسه كان السكان في مصر وسورية يسمعون عن المسلمين وحسن سيرتهم ومعاملتهم ، كما أن جنود الروم لم يكونوا مخلصين في

■ الفصل العاشر

الحروب ، حيث كانوا يدركون انهم يحاربون عن نظام لا حق لهم فيه ، كما أن بعض المصريين ، وبعض السوريين قدموا مساعدات للجيش الزاحف كانت من أسبابه تيسير الفتح .

وقد وصل العرب مصر عن طريق سيناء ، وسيناء طريق عبره أكثر الذين زحفوا على مصر من الشرق أو زحفوا من مصر الى الشام ، فعن طريق سيناء جاء الهكسوس الى مصر وجاء الفرس والرومان والمسلمون العرب والأتراك ، وعن طريق سيناء تحرك الفراعنة الى الشام كما تحرك الطولونيون ، والأخشيديون ، والفاطميون ، والأيوبيون ، والمماليك ، ومحمد علي باشا ، لهذا كانت سيناء منطقة مهمة بالنسبة لتاريخ مصر وسورية .

ومن المعروف انه بعد فتح الشام ، ومصر أصبحت مصر والشام ولايتين طيلة ما تبقى من عهد الخلفاء الراشدين ، ولما جاء العصر الأموي أصبحت دمشق عاصمة الخلافة ، وظلت مصر ولاية تابعة للخلافة ، وجاء العصر العباسي فانتقلت الخلافة الى بغداد وأصبحت سورية ومصر ولايتين تابعتين لعاصمة الخلافة في بغداد وكان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، فقد هاجر العرب من الجزيرة العربية الى سورية ومصر قبل الاسلام بآلاف السنين . ولقد رأى المصريون ، والسوريون في الاسلام متنفسا وساحة أنقذتهم من الطغيان والاكراه والاستغلال ، وضمن لهم الاسلام حرية الأديان ، وترك المسلمون الأرض لأصحابها ، على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقيصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للأرض ، ولرقيق الأرض ، وأمن المسلمون لسكان مصر وسورية أموالهم ونساءهم وأولادهم ، وقد كان لرابطة الدم ورابطة التعاون والمساواة اكبر الأثر في خلق جو من القربى بين العرب وبين السوريين والمصريين في أغلب فترات التاريخ الاسلامي . وكان أبرز ولاية الشام في عهد الخلفاء الراشدين معاوية بن أبى سفيان ، وبعد مقتل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبى طالب انتزع معاوية لنفسه منصب الخلافة وأسس الخلافة الأموية في دمشق ، واتخذ من دمشق عاصمة لهذه الخلافة سنة ٦١ هـ (٦٦٢ م) ، وقد حققت الخلافة الأموية والتي كانت مصر بعد الفتح العربى احدى ولاياتها ، انجازات ضخمة . ففي ظل الأمويين أقيمت دولة العرب الأولى ووضعت أسس العمارة العربية الاسلامية وأبرز أوابدها جامع بنى أمية في دمشق وعدد من القصور ، وفي سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) سقطت الخلافة الأموية ، وقامت الخلافة العباسية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت بلاد الشام ومصر ولايتين عباسيتين .

وتجدر الإشارة هنا الى أن المؤرخين العرب المسلمين في العصور الوسطى لم يستخدموا كلمة سورية انما استخدموا بدلا عنها كلمة بلاد الشام ، والشام عندهم هي

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

المنطقة التي يحدها من الشرق الفرات ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ، ومن الشمال الثغور مع بيزنطة . وفي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري تعرضت بلاد الشام للغزو الفرنجي الصليبي ونجح الصليبيون الفرنجة في حملتهم الأولى [١٠٩٧ - ١٠٩٩ م] في اقامة أربع امارات صليبية في بلاد الشام ، وفي أواسط القرن الثاني عشر الميلادي [السادس الهجري] أخذ ميزان القوى في بلاد الشام يتحول الى صالح العرب ، ونجح صلاح الدين الأيوبي في توحيد بلاد الشام مع مصر وفتح باب الصراع على مصراعيه مع الصليبيين وتمكن عام ١١٨٧م من تحرير بيت المقدس واسترداد معظم الساحل من أيدي الصليبيين ، وذلك بعد معركة حطين الشهيرة ، وتعتبر موقعة حطين من أشهر المعارك في تاريخ العالم ، وقد وقعت في الثالث والرابع من يوليو ١١٨٧م ، وحطين سهل جبلي بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس وكان عسكر الفرنج يتكون من عشرين ألفا بقيادة ملك بيت المقدس ده لوسينيان ، وروجلاند [أرناط] أمير قلعة الكرك وقد قضى المسلمون على هذا الجيش كله ، فسقط بعض رجاله قتلى ووقع الباقون في الأسر وكان ملك بيت القدس ، وأمير قلعة الكرك بين الأسرى .

وهكذا يتضح انه بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية وانشطار العالم الاسلامي الى شطرين ، شطر عربي وشرط أعجمي ، وضح أن مركز الشطر العربي [أو ما نسميه الوطن العربي] هو مصر التي شغلت دورها القيادي بعد سقوط بغداد ، وكانت مصر مع بلاد الشام هي التي حافظت على الهوية العربية وردت الهجمات ، فالصليبيون بقوا فترة طويلة ، لكن بعد توحيد مصر والشام أمكن في عام ١١٨٧م خوض معركة حطين وكسب عملية تحرير الأرض ، والجيش المصرية الشامية بقيادة صلاح الدين هي التي حققت النصر ووجهت الضربة الأولى والحاسمة لعملية دحر الصليبيين .

وهكذا دمرت موقعة حطين قوى الصليبيين وتم تحرير بيت المقدس حيث اتجه صلاح الدين الى حصن طبرية فاستسلم له وسار الى عكا فاحتلها وأقام بها قليلا ومنها أرسل الجحافل فاستولت على الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، ثم اتجه الى صيدا فاستولى عليها وواصل سيره الى بيروت فاستسلمت له ، وهكذا سقطت كل المدن الكبرى وكل القلاع في يد صلاح الدين فباتجه الى بيت المقدس ليتوج بفتحه انتصاراته .

ومما يذكر انه عندما حل رمضان سنة ٥٨٤هـ كان صلاح الدين الأيوبي قد أحرز الانتصارات الكثيرة واستخلص من الصليبيين معظم البلاد التي كانوا قد استولوا عليها ، فلما دخل رمضان أشار رجال صلاح الدين عليه أن يرتاح في شهر الصوم ، ولكنه تخوف

من انقضاء الأجل قائلا : « ان العمر قصير والأجل غير مأمون وإبقاء أعداء الاسلام في أرض الاسلام لحظة مع القدرة على طردهم منكر لا أرتكبه » .

واصل زحفه حتى استولى على مزيد من الأرض حول بيت المقدس في منتصف رمضان ، وبتحرير بيت المقدس عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبل الحروب الصليبية فإن بيت المقدس كان الهدف الرئيسي الذي سعى الغرب للسيطرة عليه ، وقد عاد بيت المقدس للمسلمين لتبدأ المعركة من جديد .

الخطر المغولي

بعد ذلك تصدت مصر والشام لبقية المخاطر ومن جملتها الخطر المغولي .

والمغول هم قبائل رعوية همجية وثنية كانت تعيش في أواسط آسيا ، وتحت ضغط الظروف الاقتصادية التي كانت تعاني منها هاجرت هذه القبائل في صورة غزوات هدامة ضخمة تدمر كل ما يقابلها وتحرق المدن والقرى ولا يهمها سوى أن تنجو من خطر الموت ومن آلام الجوع ، وقد استطاع جنكيز خان زعيم المغول أن يوحد صفوفهم ثم نجح في الاستيلاء على الصين ، ولم يكتف بذلك بل وضع الخطط للتوسع على حساب المسلمين وبدأ يتجه نحو الشرق في محاولة منه للسيطرة على فارس والشام ، وفي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية وسيطروا على فارس ، وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمامهم الى بغداد حيث لم تستطع الخلافة العباسية وعلى رأسها الخليفة المستعصم أن تصمد في وجه المغول خاصة أنها كانت تعاني من الضعف . وفي فبراير عام ١٢٥٨ ميلادية اقتحم المغول بغداد ارتكبوا مذابح رهيبية على امتداد ٤٠ يوما ثم أشعلوا النيران في المدينة ، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم وحاولوا القضاء على جميع العباسيين .

وكان سقوط بغداد على أيدي المغول عام ١٢٥٨م نكبة كبيرة حلت بالعالم الاسلامي ، فقد سقطت عاصمة الخلافة بغداد في يد قبائل همجية قضت على تراث الحضارة الاسلامية ، وكان العالم الاسلامي منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يعيش في حمى الخلافة سواء كانت قاعدتها المدينة ، ثم دمشق ، ثم بغداد . وبعد سقوط بغداد ومصرع الخليفة العباسي على أيدي المغول أصبح العالم الاسلامي بلا خلافة ولا خليفة . وعندما أصبح خطر المغول على أبواب الشام لم يجد من يواجهه بل ان الناصر يوسف الايوبى صاحب حلب ودمشق أرسل ابنه العزيز الى هولاكو زعيم المغول يطلب مساعدته في الاستيلاء على مصر من أيدي المماليك ويعلن خضوعه للمغول ، وقرر هولاكو ارسال قوة من عشرين ألف فارس الى الشام واستولت هذه القوة على ميفارقين « في ديار بكر » وذبح

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

المغول المسلمين الموجودين بها ، وقطعوا رأس حاكمها الكامل محمد الأيوبي وطافوا به في جميع أنحاء الشام ، واعتبر هولاكو أن عدم حضور الناصر يوسف بنفسه والاكتفاء بارسال ابنه العزيز أهانة له واتخذ من ذلك ذريعة للاستيلاء على بلاد الشام فاستولى على حلب في عام ١٢٦٠م وقتل وأسر أهلها ، وتركها الناصر تسقط في أيدي المغول هي وسائر مدن الشام ، ووصل المغول بعد استيلائهم على بلاد الشام الى غزة ، ولم يعد أمامهم سوى مصر التي كان يتولى سلطنة المماليك فيها شاب صغير هو المنصور على ونيابة عنه الأمير سيف الدين قطز ، وظهر السلطان الطفل بصورة غير لائقة بسلطان مصر في وقت كانت تحاصرها الأخطار مما أغضب الأمراء وأحس نائب السلطنة بخطورة الموقف ودعا الأمراء للاجتماع في القلعة للتباحث حول ملاقاته المغول وتولى قطز عرش السلطنة لمواجهة خطر المغول ، ولم يكد قطز يعتلي عرش السلطنة حتى حضر اليه رسل هولاكو يحملون التهديد والوعيد ، ويطلبون منه ومن المماليك الاعتراف بالولاء والطاعة للمغول وبسيادتهم على مصر والشام ، ولم يعبأ قطز بتهديد المغول ، وقتل سفراء هولاكو معلقا رؤوسهم على أبواب القاهرة ، وبدأ يعد العدة لملاقاة المغول ، وبدأ قطز يستعد للدخول في معركة حاسمة ، فجمع المال واستنفر الجند ، كما حرص على استقطاب المماليك البحرية الى جواره لانهم قادة عسكريون ممتازون وكان هؤلاء قد فروا الى الشام ، ولكنهم عندما سمعوا بخطر المغول على الشام ومصر تناسوا أحقادهم وعادوا الى مصر ، وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقداري ورحب بهم قطز ، وبدأت عوامل الضعف تدب في صفوف المغول بعد وفاة قائدهم ، وتنازع أخوته على اقتسام الامبراطورية ، واضطر هولاكو الى العودة الى قراقورم عاصمة المغول .

وقسم قطز جيشه الى قسمين .. القسم الاول بقيادة بيبرس البندقداري ، حيث توجه الى غزة ، والتقى بمقدمة جيش المغول وألحق بهم الهزيمة ، واحتل المماليك غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصي ، وكان هذا النصر حافزا لمزيد من القتال ضد المغول ، وخرج قطز على رأس بقية الجيش ، واتجه نحو الشام في يوليو ١٢٦٠م مارا بمدينة عكا الصليبية لاختصار الطريق ، ولمفاجأة الجيش المغولي ، وفي محاولة من قطز لعدم استئثاره الصليبيين للشام حتى لا يقفوا الى جانب المغول أرسل اليهم رسله يستأذنهم في العبور بجيشه لقتال المغول فوافقوا وعبر الجيش المصري اقليم الجليل الى الأردن في الوقت الذي فر فيه المغول من غزة بعد أن علموا بالهزيمة التي حلت بهم ، وواصل قطز زحفه الى الشمال ، وعندما علم قطز بأن خصومه يستعدون للزحف وضع خطة عسكرية محكمة تتم عن ذكاء عسكري وتتخلص في أن تقوم طلائع الجيش ، وعلى رأسها بيبرس بمنأوى جيش المغول بقيادة كتبغا عند اقترابه ، بينما يختبئ الجزء الأكبر بين الغابات المحيطة بعين جالوت (قرية بين بيسان ونابلس) مشكلا بذلك كمينا لجيش المغول ، وما ان اقترب

■ الفصل العاشر

كتبغا المغولي حتى بدأت المناوشات بينه وبين جيش قطز بقيادة بيبرس في سبتمبر ١٢٦٠م ، وأعتقد كتبغا ان هذه المقدمة هي كل جيش المسلمين وأخذ بيبرس في التراجع - وفق الخطة المرسومة - أمام هجوم كتبغا ، وظل يتقهقر في اتجاه الكمين ، وفجأة خرج الجيش بقيادة قطز من الكمين من ثلاث جهات وحاصر جيش المغول ، غير أن كتبغا تماسك ، وأخذ يقاتل قتالا مستميتا ، وأثناء القتال اضطربت صفوف الجيش المملوكي نتيجة لما يتمتع به المغول من مقدرة حربية مما جعل قطز يلقي بخوذته على الأرض ويصرخ بأعلى صوته [واسلاماه] ثم حمل بنفسه على العدو حتى تم له القضاء على المغول وقتل قائدهم كتبغا ، ووقع بقية الجيش المغولي بين أسير وقتيل ، وبذلك تم النصر على المغول الذين لم يهزموا قط منذ خروجهم من اقاصى الصين ..

عملية النصر الذي تحقق في عين جالوت لم تنفذ بلاد الشام من الاحتلال المغولي فقط ، ولكنها حمت مصر والمغرب العربى من السقوط في يد المغول بل حمت أجزاء كبيرة من أوروبا الغربية من السقوط في أيدي المغول بعد أن كانت معظم أجزاء أوروبا الشرقية وعلى رأسها روسيا وأجزاء كبيرة من آسيا وعلى رأسها الصين قد سقطت في يد المغول ، فعملية عين جالوت ذات بعد انساني وعالمى وتعتبر من أهم معارك العالم الاسلامى والشرق الاسلامى والحضارة الاسلامية .

وفي الوقت نفسه فقد أكدت أن منافع الوحدة بين مصر والشام لا تقتصر على البلدين وانما تمتد لجميع أجزاء الوطن العربى ، وفي سنة ١٢٩١م تجمعت قوات بلاد الشام مع قوات مصرية بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون وحررت عكا وأزالت النفوذ الصليبي من منطقة الشرق وبعد عام ١٢٩٢م أعادت بناء المجتمع العربى . والعصر المملوكى معروف بانتاجه الثقافى ، وهو عصر الموسوعات انه عصر ابن فضل الله العمرى ، وعصر « النويرى » « لسان العرب لابن منظور » « والقلقشندي » « وصبح الأعشى » وأعداد أخرى كبيرة من الموسوعات ، وكبار الشخصيات والمثقفين اما ولدوا في مصر وعاشوا في الشام ، أو هم من أصل شامى وذهبوا الى مصر ، فمثلا مؤرخ مصر الاسلامية المقرئزى أصله من بعلبك ، وقد انتقلت أسرته الى القاهرة ، وقد أمضى المقرئزى جزءا كبيرا من حياته في دمشق ، وفي أجزاء أخرى من بلاد الشام .

واذا تتبعنا المراحل التاريخية المختلفة نجد أن القوات المصرية الشامية هي التي تصدت لتيمورلنك وهي التي حافظت على كيان بلاد الشام ، ومنعت عشائر التركمان من اجتياح المنطقة وأخر معركة خاضها المماليك كانت للدفاع عن بلاد الشام ، وفي المناطق الشمالية في بلاد الشام دفاعا ضد العثمانيين .

وعندما زحف الأتراك على البلاد العربية بقيادة السلطان سليم الاول كانت كل من

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

سورية ومصر تشكيلان دولة واحدة سكب الشعب العربى السوري والمصرى دماءهما معا على ربوع مرج دابق في شمال سورية بقيادة قنصوه الغورى ، ودخلت مصر وسورية تحت الحكم العثمانى ، حتى كانت نهضة محمد على في مصر قاتلت لمصر ما حرمت منه واستطاع محمد على أن يعطى لمصر قوة ومكانة ونهضة زراعية أزهبت السلطنة العثمانية ، وتطلعت سورية الى مصر ، وكأنها تسألها العون الذى سرعان ما جاء مع ابراهيم باشا ، فكان ترحيب الشعب السوري بقدمه . وعندما بدأت سياسة التتريك العنصرية للقضاء على القومية العربية ، ووقفت سورية لمقاومة هذه السياسة ، كانت مصر بيتا للأحرار السوريين الذين وجدوا في مصر الأمن والأمان ، ومع نهاية الحرب العالمية الاولى ، وانهارت السلطنة العثمانية ، مزق الحلفاء عبر معاهدة سايكس - بيكو الوطن العربى على النحو الذى أوضحناه .

وفي أواخر العصر العثمانى ، عندما بدأت حركة النهضة ومحاولات التحرر عن العثمانيين كانت هذه الحركة شامية - مصرية ، على بك الكبير كان شاميا مصرية ، محمد أبو الذهب شامى - مصرى . محمد على باشا شامى - مصرى ، أراد أن ينشئ دولة عظمى من الشام ومصر ، وبعد محمد على والنهضة المعاصرة كانت نشاطات الحركات والأحزاب السياسية شامية - مصرية حتى الصحافة في مصر ، الأهرام والمقطم وهى صحف مصرية أنشئت من قبل الشوام . وفي التاريخ الحديث ، واجهت مصر وسورية مشكلة الصراع مع الصهيونية وتحملت الدور الأكبر . ويكفى فخرا أن مصر سورية صنعتا أول وحدة قومية في التاريخ العربى المعاصر .

دواعى وبواعث الوحدة المصرية السورية

كان نشوء الجمهورية العربية المتحدة في شباط فبراير ١٩٥٨ ثمرة من ثمار القومية العربية التى تعتبر روحا لتاريخ طويل بين العرب في مختلف اقطارهم ، ولحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول لكل فرد من افرادهم ، وقد سبقت هذه الوحدة ليال طويلة حالكة امتدت مئات السنين عاشها العرب في صراع مستمر مع ظلام الاستعمار .

وعاشت في هذا الصراع الطويل المدى اجيال قبلنا ، وقاست احواله وتحملت مصاعبه ، وكافحت الطغاة واستتبسلت في كفاحها لتحمل تراثنا وتدافع عن كياننا وتحفظ مقومات وجودنا واسباب ارتباطنا ببعضنا كأمة واحدة لها ذاتها المستقلة .

ان التاريخ يحكى لنا ان مصر وسورية منذ قديم الأزل وطن واحد ، وانه ما من مرة ، وما من فترة اعتزلت فيها سورية عن مصر أو ابتعدت فيها مصر عن سورية إلا وحاققت بالعرب الكوارث والنكبات وما من مرة اجتمع فيها شمل الوطن الواحد

■ الفصل العاشر

في سورية ومصر إلا انتصر العرب وطردوا كل تلك القوى التي جاءت الى أرضهم لتفرض عليهم استعمارا أو سيطرة أو إذلالا .

كذلك فإن التاريخ يحكى لنا ان مصر في كل عصورها كانت تؤمن حدودها ضد الغارات المغولية والتركية والهجرات المختلفة من آسيا وأوروبا باتحادها مع الشام ووقوفهما امام الخطر الداهم يناضلان عن كيانهما وكيان الأمة العربية التي اخذت تصوب اليها السهام من كل مكان ، وقد رأينا عندما تعرضت هذه المنطقة لغزو الصليبيين في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وخلال القرن الثانى عشر وكيف وحد صلاح الدين الأيوبي الشام ومصر في معركة حطين ، ورد الصليبيين على أعقابهم خاسرين ، يحملون عار الهزيمة ، ثم جاءت جموع التتار الى الشام تريد احتلاله فتصدى لها القائد الظاهر بيبرس بقوات مصرية وشامية واستطاع في معركة عين جالوت ان يهزم جحافل التتار وانتصر عليها انتصارا عظيما .

إذن كانت وحدة سورية ومصر تستند الى ماض من الكفاح الطويل وإلى تاريخ مشترك قد يختلف في بعض تفصيلاته ولكنه متحد في خطواته العريضة ومعالمه البارزة .

في ذلك اليوم من فبراير ١٩٥٨ اتحد الشعب العربى في سورية مع الشعب العربى في مصر ، وقامت الجمهورية العربية المتحدة سندا للعرب جميعا ، قوة للعرب جميعا ، تعادى من يعاديهما ، وتسالم من يسالمها وتتبع سياسة تنبع من نفسها ومن ضميرها ..

ورغم انتكاسة الانفصال في اكتوبر تشرين الاول ١٩٦١ والتي تابعتها الشعب العربى بقلب جريح ، فقد كان جمال عبدالناصر نموذجا للقائد الشجاع والحكيم حين رفض ان تكون الحرب العسكرية - وذلك أمر كان في مقدوره - وسيلة لإعادة الوحدة .

وفي هذا الصدد يقول عبدالناصر :

اننى لا اقبل مهما كانت الظروف ان أرى الشعب هنا والشعب في سورية اطراف معركة ، واصحاب خلاف وشقاق ولا استطيع ان اتصور القاهرة ودمشق إلا اخوة كفاح وإلا زملاء معركة وإلا شركاء قدر ومصير ، مع كل عاصمة عربية أخرى ، مع كل مدينة عربية ، مع كل قرية عربية ، ولذلك اتخذت قرارا بألا تتحول الوحدة العربية بين مصر وسورية الى عملية عسكرية ، وبناء على ذلك فلقد اوقفت جميع العمليات العسكرية التي كانت قد بدأت لمناصرة الجموع الشعبية الثائرة ضد الحركة الانفصالية في سورية ، ولست اتصور ان اقبل بحال من الاحوال ان أرى فتنة تهدد الشعب السورى أو خطرا يترتبص به ، أو شاغلا يشده ويبعثر طاقته .. من أن تتجه كل امكاناته إلى حراسة المكاسب الشعبية التي حققها في عهد الوحدة ، التي ستبقى هدفا عربيا مستمرا . وهذه الحقيقة الساطعة التي تحققت على أرض الواقع سوف تحكمها في نهاية المطاف حتمية التاريخ،

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

وأعنى بها الوحدة ، وإن ثقتى بأن هذه التجربة الأولى للوحدة العربية لن تكون الأخيرة ، وإنما هي تجربة عملية رائدة استفدنا منها الكثير وسيكون ما استفدناه ذخيرة للمستقبل العربى وللوحدة العربية التى اشعر ان ايمانى بها يزداد قوة وصلابة .

حافظ الأسد وتجربة الوحدة

منذ ان خاضت سورية مع الدول العربية المستقلة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، إثر احتلال الصهيونية بدعم من الامبريالية جزءا من فلسطين ، وسورية تتعرض لمؤامرات استعمارية متصلة وكان للقوى الوطنية والتقدمية في سورية بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى دور أساسى فى النضال ضد المؤامرات الاستعمارية ، ولقد ساهمت هذه القوى فى قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ إلا ان التآمر على الوحدة كان كبيرا من اعداء الأمة العربية فى الداخل والخارج ، والتى نجحت فى فك عرى الوحدة بين سورية ومصر فى ٢٨ سبتمبر / ايلول ١٩٦١ .

ولكن ثورة ٨ مارس آذار ١٩٦٣ ، التى قادها حزب البعث العربى الاشتراكى أعادت الى سورية وجهها الوحيد العربى الاصيل ، بادئة فى ذلك عهدا جديدا فى تاريخ سورية المعاصر ، وقد عرضنا من قبل لدور الرئيس حافظ الأسد فى ثورة ٨ آذار ، وفى حركة شباط ١٩٦٦ عندما حاولت القيادة اليمينية فى حزب البعث الانحراف بالثورة ، ثم تتبعنا دوره فى الاحداث التى تلت ذلك ، ومن المعروف انه فى حرب ١٩٦٧ شنت اسرائيل بدعم من الامبريالية العالمية عدوانا على سورية ومصر ، والجزء المتبقى من الارض الفلسطينية ، ونتج عن ذلك احتلال القسم الاكبر من مرتفعات الجولان السورية ، وسيناء ، والضفة الغربية ، وقطاع غزة ، ولم تستقر الأمور فى سورية إلا مع قيام الحركة التصحيحية التى قادها الرئيس الأسد فى ١٦ نوفمبر / تشرين الثانى ١٩٧٠ والتى أعادت لحزب البعث العربى وجهه الجماهيرى الاصيل . وأعادت بناء الجسور المهتمة بين الحزب وجماهيره ، وخلقت الثقة بين الحاكم ، والشعب ، وأعادت سورية من جديد الى موقعها القيادى فى حركة التحرر العربى ومكنتها من القيام بدورها القيادى فى الوطن العربى ، وأعلنت سياسة الانفتاح على الشعب ، وتوطيد الحياة الديمقراطية .

وكان لحركة السادس عشر من تشرين الثانى الدور الرئيسى فى الاعداد مع مصر لحرب تشرين اكتوبر عام ١٩٧٣ ، هذه الحرب التى كانت معلما للانسانية كلها كنقطة تحول بين باطل ظن انه يملك القوة التى تدعم باطله ، وبين حق استعان بالصبر ثم استعان بالحكمة ، ثم تزود بالبسالة فصبر وانتصر ، لقد كانت حرب اكتوبر المجيدة التى خاضتها مصر وسورية انطلاقة عملية بالأمة العربية من وضع محكوم باستراتيجية عالمية

■ الفصل العاشر

إلى كيان قادر على ممارسة تأثيره العميق على العالم كله شرقه وغربه ، شماله وجنوبه .
ان الاقتحام الباسل لمرتفعات الجولان ، والعبور العظيم لقناة السويس لم يحققا للأمة العربية فرصة تجاوزت نكسة ١٩٦٧ فحسب ، وإنما كانا أداة تفجير لطاقت عربية ، واقتصادية ، وسياسية استطاعت عبر التعامل الواعي معها والاستثمار الحكيم لإمكاناتها ان تضع العالم للمرة الاولى امام اختيار لم يواجهه من قبل ، إما ان يكون مع الحق ومع مصالحه وإما ان يكون مع الباطل وضد مصالحه .

لقد كان العدو الاسرائيلي فيما قبل حرب اكتوبر المجيدة يحاول بالغرور والصلف ، بالحماقة والادعاء ان يجسد وهما كاد ان يستقر في الازهان ليستحيل الى حقيقة واقعة من ان الكيان الاسرائيلي المزروع بالغدر والقوة داخل الأمة العربية هو قوة الردع داخلها ، هو المتحكم في أقدارها ومصائرهما ثم هو المسيطر بالتهديد على مصادر الثروة فيها ثم هو الحامي لمصالح الآخرين داخلها .

ولقد كان العبور العظيم لقناة السويس ، ومعه الاقتحام العنيد والباسل لمرتفعات الجولان موعد سقوط الوهم الى الأبد وإلى غير رجعة .. ولقد واجه العالم بعد حرب اكتوبر تشرين ، كيانا مالكا لأمره مسيطرا على مقدراته ، قادرا على ان ينحاز بما يملك لمن يساند نضاله العادل ان يمنع وان يمنع ، ان يقول كلمته من منابر القدرة وليس من مواقع المناشدة والاستجداء .

ان الأمة العربية بعد حرب تشرين اكتوبر المجيدة قد دعمت حقيقة الحقائق ، من ان حقا بغیر قوة تساه وتدعمه لن يجد سوى مشاعر الاشفاق وحدها ، بينما الظلم المدعوم بالقهر يحولته التفرير والاعجاب بل والمساندة كذلك .

من هنا فإن « حرب اكتوبر / تشرين رغم النصر الذي تحقق لم تكن آخر الجولات ، بل هي خطوة على طريق هدف أمتنا العربية الكبير ، هدف التحرير الكامل للأرض العربية المحتلة ، والحقوق الكاملة لشعب فلسطين ، ومن المؤكد ان محاولات التسوية السياسية بكل تحركات القوى العالمية التي تواكبها لن تصل بالعرب الى السلام القائم على العدل إلا من خلال ما نملك من مقومات القوة وهي قوة يحققها التضامن العربى بقدر ما يؤكداه السلاح العربى والمقاتل العربى .

حرب اكتوبر تشرين ثمرة من ثمار التعاون المصرى السورى أنهت الاسطورة الصهيونية عن جيشها الذى لا يهزم ، وكان لاستبسال الجنود المصريين والسوريين قصص تضرب بها الامثال ، خاصة اذا عرفنا طبيعة خط بارليف ، وطبيعة أرض الجولان الصخرية الوعرة ذات المرتفعات والوديان التى تغطيها الحجارة البركانية مما يجعل سير المدرعات والمجنزرات صعبا للغاية ، ولقد قاتل الجيش الاسرائيلي بشراسة على مرتفعات

■ العلاقات المصرية السورية في نكر الأسد ■

ال جولان التي تعتبر بالنسبة لاسرائيل موقعا عسكريا واستراتيجيا هاما لانها تسيطر على مصادر المياه التي تزود اسرائيل والسيطرة على الجولان ، وخاصة الجهة الشمالية منه ، تجعل دمشق في مرمى مدفعية العدو البعيدة المدى، كما أن هدف سيطرة العدو على الجولان وخاصة من الخطوط السورية القديمة الحصينة ،وعلى سهل الحولة ، والجليل الأعلى ، وشمال فلسطين هدف قديم لاسرائيل .

ولقد خطط الأسد مع الرئيس الراحل أنور السادات للمعركة ، وبصرف النظر عما جرى بعد ذلك من خلاف حول رؤية كل منهما ، فقد اقتحمت القوات السورية بعد أربع ساعات فقط من بدء المعارك نقاط الدفاع والتحصينات الامامية للعدو ، وقامت قوات الكوماندوز وهي فرقة منتقاة من الجيش السوري بتحرير موقع جبل الشيخ « قصر عنتر » الذي يشرف على دمشق والبقاع ، وفلسطين وجنوبي لبنان بعد أن أنزلت طائرات مروحية الجنود وقدُنشبت بين القوات السورية وقوات العدو معارك ضارية وبالسلاح الأبيض ، وتمكنت القوات السورية من تنفيذ خطتها بنجاح ، وتم تحرير عدة مواقع ، وجرى استعادة بعض القرى في هضبة الجولان بعد أن تم أسر الكثير من قوات العدو ، وبعد بدء المعارك بساعات قليلة وجه الرئيس حافظ الأسد نداء الى الشعب يطالعه فيه على تفاصيل حرب السادس من تشرين / اكتوبر بثقة وهذوء وحزم .

وهذا هو نص الخطاب في ٦ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٧٣ : «أيها الاخوة المواطنون يا جنودنا وصف ضباطنا ، وضباطنا البواسل يا ابناء شعبنا الابى . مع تحية لكل فرد منكم اخاطب فيكم الروح العربية الاصيلة .. روح الشجاعة والبطولة .. روح البذل والتضحية .. روح الفداء والعطاء .

أخاطب فيكم محبة الوطن التي فطرت: عليها والايمان بالقضية ، منذ اسبوع ونيف والعدو يحشد قواته ويعد عدته وفي ظنه انه سينال منا بضربة غادرة ، وكنا يقظين ساهرين نرصد تحركاته وسكناته ونستعد ونتأهب لنرد عدوانه الجديد المحتمل ، فلم نسمح له ان يأخذنا على حين غرة ، واندفعت قواتنا المسلحة ترد عليه الرد المناسب ، ولم يسمح له اخوتنا في مصر ان يأخذونا على حين غرة ، فاندفع جيش مصر العظيم يدافع عن كرامة مصر وكرامة الامة العربية .

فتحية لجيشنا وشعبنا وتحية لجيش مصر ، وشعب مصر العظيم وليس لي في هذه اللحظات الحاسمة إلا ان أوجه تحية من القلب الى هؤلاء العسكريين البواسل الذين جاؤوا الى قطرنا من المغرب الشقيق ليشاركوا في معركة القوة والكرامة وليقدموا الدم سخيا الى جانب اخوانهم في سورية ومصر ، فجسدوا بذلك وحدة الامة ووحدة المصير وقدسية الهدف .

■ الفصل العاشر

اننا اليوم نخوض معركة الشرف والعزة دفاعا عن أرضنا الغالية عن تاريخنا المجيد، عن تراث الآباء والاجداد ونخوض المعركة بايماننا بالله وبانفسنا وبعزيمة صلبة وتصميم قاطع على ان يكون النصر حليفنا في ذلك .

لقد بغت اسرائيل وأصابها الغرور وملأت الفطسة رءوس المسنولين فيها فأوغلوا في الجريمة واستمرار اسلوب العدوان يملأ قلوبهم حقدا أسود على شعبنا وعلى البشرية ويستبد بهم تعطش سفك الدماء، ويوجه خطاهم استخفاف بمبادئ البشرية ومثلها العليا والقوانين والقرارات الدولية، مثل هؤلاء مثل من سبقهم من دعاة الحرب لا يوقفون عند حد ولا يردعون إذا لم تردعهم الشعوب المؤمنة بحقها المدافعة في سبيل حريتها ووجودها، واذ نؤدى واجبنا في الدفاع عن أرضنا وشرف أمتنا مستمرون لبذل كل تضحية وتقبل كل شدة في سبيل ان ينتصر الحق وتتصير المبادئ وفي سبيل ان يسود السلام العادل .

أيها الاخوة المواطنين .. ان الشدائد هي المحك لمعدن الشعوب وامتحان لاصالتها ، وكلما ازدادت الازمة شدة ظهر المعدن الصافي وتأكدت الاصاله الراسخة ، انكم ابناء أمة عرفت على مدى التاريخ بمواقف الرجولة والإباء ، بمواقف البطولة والفداء ، ابناء أمة حملت رسالة النور والايمان الى اصقاع الارض ، وشهد العالم قاطبة أسمى الصفات وانبل الاخلاق .

فيا أحفاد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، يا أحفاد خالد بن الوليد وأبى عبيدة وسعد وصلاح الدين إن ضمير أمتنا ينادينا وأرواح شهدائنا تستحثنا ان نتمثل معانى اليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت ، ان جماهير أمتنا من المحيط الى الخليج تشخص بعيونها وأفئدتها الى صمودنا العظيم .

يا جنودنا وصف ضباطنا وضباطنا البواسل : نحن اصحاب حق واصحاب قضية والله عادل نصير من كان على حق وكان عن حقه ذاذا مدافعا ، انكم اليوم تدافعون عن شرف الامة العربية ، وتصونون كرامتها ، وتحمون وجودها وتضحون كى تحيا الاجيال القادمة هانئة مطمئنة .

وتشاء إرادة العلى القدير ان يكون جهادكم في هذا اليوم من ايام الشهر الفضيل شهر رمضان ، شهر الجهاد .. شهر غزوة بدر .. شهر يوم الفتح .. شهر النصر .

صفحة ناصعة في تاريخ قواتنا المسلحة نضيفها الى العديد من صفحات البطولة والفداء .. التى سطرته دماء الشهداء الابرار في تاريخ قطرنا ووطننا ، لقد انتصر اجدادنا بالايمان والتضحية بالتسابق على الشهادة دفاعا عن دين الله ورسالة الحق ،

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

وانكم اليوم ببطولاتكم وشجاعتكم انما تستلهمون هذه الروح وتحيونها ، وتحيون بها تقاليد أمتنا المجيدة .

سلاحكم بين ايديكم وديعة فاحسنوا استعماله ، وشرف الجندى العربى فى اعناقكم امانة فصوصنوا الامانة ، ومستقبل شعبنا فى عهدتكم ، فابذلوا المستحيل دفاعا عنه ، وان شعبنا الذى تعمر صدور ابناؤه حماسة يقف وراءكم صفا واحدا يحمى خطوطكم الخلفية ويدعم جهادكم بكل ما يملك ومن ورائه جماهير أمتنا العربية التى لا أخالها إلا مرافقة الموقف الذى يمليه الواجب القومى فى هذه المرحلة الحاسمة وخلفها من بعد فى العالم اصدقاء عديدون يؤازرون حقنا ويدعمون قضيتنا ويؤيدون نضالنا ، لسنا مواة قتل وتدمير وإنما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير .

لسنا معتدين ولم نكن قط معتدين لكننا ولانزال ندفع العدوان عن أنفسنا ، نحن لا نريد الموت لأحد .. إنما ندفع الموت عن شعبنا .

اننا نعشق الحرية ونريدها لنا ولغيرنا وندافع اليوم كى ينعم شعبنا بحريته .. نحن دعاة سلام ، ونعمل من اجل السلام لشعبنا ، ولكل شعوب العالم ، وندافع اليوم من اجل ان نعيش بسلام .

فسيروا على بركة الله ..

ان ينصركم الله فلا غالب لكم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وتحطمت الأسطورة عند الفجر

وهكذا نجح العرب فى تحطيم الاسطورة الاسرائيلية على الجبهتين السورية والمصرية ، وتحطمت اسطورة اسرائيل التى لا تقهر ولم يكن هذا النصر راجعا الى السلاح الحديث الذى احسنوا استعماله ، بل كان مرده الى الايمان المطلق بعدالة القضية والثقة الكاملة فى الجندى الأول حافظ الاسد الذى كان معهم فى كل خندق وموقع والذى جعل من الجيش العربى السورى قوة يرهبها العدو .

واذا كانت القوات السورية استطاعت ان تحرر الكثير من قرى الجولان ، فإنها تواصل استعدادها لتطهير باقى الارض المحتلة فى ظل صمود رائع من الشعب والقوات المسلحة والتفاف واع نحو القيادة ، وعندما حققت سورية هذه الانتصارات سارع العدو الى الاستعانة بالقوى الخارجية يطلب منها العون بالرجال والعتاد والطائرات تعويضاً عن خسائره ، ويؤكد الرئيس حافظ الاسد ان للحرية والكرامة ثمنا غاليا ولكننا مستعدون

لدفعه في سبيل استكمال تحرير الارض وتوفير الحرية والأمن والطمأنينة والسلام
للأجيال القادمة .

خندق واحد في موقع واحد

الرئيس حافظ الأسد بعثى يؤمن بوحدة الأمة العربية وبمصيرها الواحد
المشترك ، ونظرة الرئيس الأسد الى العلاقات بين سورية ومصر كما يقول الاستاذ
محمود الزعبي رئيس وزراء سورية هي انها علاقة استراتيجية على مر الزمن ، ودائما
يشير الرئيس الاسد في حديثه سواء داخل اجتماعات القيادة أو الاجتماعات الرسمية
أو في احاديثه الصحفية الى اهمية اللقاء المصري - السوري ، واهمية ان تبقى سورية
ومصر دائماً على وئام وعلى وفاق انطلاقاً من استيعاب دروس التاريخ وعبره ، وهذه
الدروس والعبر تؤكد انه كلما كانت سورية ومصر في خندق واحد وموقع واحد متضامتين
كان ذلك يشكل خيراً ودفعاً وقوة وأمناً للوطن العربي ، وعلى النقيض من ذلك فإنه كلما
فترت هذه العلاقة فإن المردود السلبي لم يكن يقتصر على الشعبين المصري والسوري ،
ولنما يمتد ليشمل شعوب الأمة العربية ، ولذلك ينظر الرئيس الاسد الى هذه العلاقة على
ان لها اهميتها وعمقها ، وحيويتها الآن وفي المستقبل لانه ليس في مقدورنا ان ننفصل عن
تاريخنا وتراثنا وحاضرنا ومستقبلنا . ويضيف رئيس الوزراء السوري ان العلاقات
المصرية السورية شهدت في الفترة الاخيرة وبعد استئنافها مزيداً من التنسيق والتعاون
والتكامل ، وان توجيهات الرئيس الاسد الدائمة لنا في الحكومة ان العلاقات المصرية
السورية يجب ان تتطور وباستمرار والى الحد الذي يرسخ المصالح المشتركة بين
الشعبين السوري والمصري وهو الذي يطالب دوماً بأن تتطور العلاقات الاقتصادية
والتجارية بين البلدين ، وان تتشكل شركات مشتركة ، وان يحصل تواصل دائم بين
القطاعات الحكومية والمنظمات الشعبية في مصر وسورية ، وواقع الحال ان كل مواطن
سوري يشعر تجاه المواطن المصري بشعور خاص ، وتابع رئيس الوزراء السوري قائلاً :
إننا لا ننسى على الاطلاق اننا أصحاب تجربة وحدوية رائدة في التاريخ المعاصر ، ولولا
تأمر المتأمرين لاستمرت هذه الوحدة وأينعت ، ونحن لانزال نطمح الى ان نصل مع
اشقائنا في مصر الى صيغة وحدوية تتعالى الى خصوصية العلاقة المصرية السورية
وتميزها ، وكما تعلمون فقد تشكلت اللجنة العليا المشتركة المصرية - السورية برئاسة
رئيسي مجلس الوزراء ، وقد اعطيت هذه اللجنة من قبل الرئيسين حسني مبارك ،
وحافظ الأسد مهمات وصلاحيات واسعة للتنسيق السياسي وصولاً الى توحيد
المواقف في كل المجالات سواء على الصعيد الخارجي أو الصعيد العربي أو غيرهما ،
والمحاضر التي تصدر عن اجتماعات هذه اللجنة تشير الى ما أنجز في مجالات التعاون
وتحدد مجالات جديدة .. في الفترة الماضية وقبل تشكيل هذه اللجنة كان التبادل التجاري

■ العلاقات المصرية السورية في فكر الأسد ■

والاقتصادي يتم عن طريق طرف ثالث بشكل غير مبرمج وغير مقنن وايضا بشكل فردي .

الآن ومن خلال اللجنة العليا المشتركة تم وضع اتفاقيات تجارية ، وتم الاتفاق على صفقة متكافئة تسير بشكل لا بأس به . وسورية وفقا لهذه الصفقة تستورد من مصر بعض المواد البتروكيماوية والاتوبيسات وبعض المواد التي تلزم لتنفيذ مشاريع مياه الشرب وغيرها ، ونحن نشجع الشركات المصرية للدخول في مناقصات تنفيذ مشروعات سورية ، وهناك قائمة سلعية بين البلدين يجرى تنفيذها بشكل معقول ، كما تشكلت لجان متابعة في كل من البلدين للإشراف على تنفيذ الاتفاقيات بشكل سريع ، وبما يضمن إزالة العقبات التي قد تحدث بسبب الروتين أو الموانع الادارية والقانونية .. وهناك مشروعات كثيرة في مجالات النقل البحري والبري وصناعات اخرى ونحن نطمح في المستقبل ان نرى المشروعات السورية المصرية المشتركة تغزو كل المواقع وتوظف امكانيات البلدين لمصلحة خطط التنمية في القطرين ، وهناك دور للقطاع الخاص والمشارك في البلدين ، ونحن ويتوجهات من الرئيس حافظ الأسد نبارك استثمار رأس المال السوري في مصر واستثمار رأس المال المصري في سورية تحقيقا للمصلحة المشتركة ، ولدينا الآن خبراء مصريون في مجال النفط وغيره ، ونحن نستفيد من التجربة المصرية في استثمار النفط والغاز وفي اصلاح محطات الكهرباء ، وهناك طلاب سوريون يدرسون في مصر وطلاب مصريون في الجامعات السورية ، وهناك منح طلابية مشتركة وهناك تعاون ثقافي وزراعي ، وتوجيهات الرئيسين الأسد ومبارك للدكتور عاطف صدقي ولي الاسراع في تنمية وتطوير هذه العلاقات في كافة المجالات لكي ترتاد الافاق التي ترتقى الى مستوى خصوصيتها وتميزها ، ونحن نلمس الرغبة الاكيدة والصادقة لتعزيز التعاون المصري والسوري ونحن ماضون في تحقيق التكامل بين البلدين ، وتحويله الى واقع يومي معاش .

ونحن نعتقد انه كلما قويت مصر قويت سورية ، وكلما قويت سورية قويت مصر ، وكلما قويت مصر وسورية كان الوطن العربي قويا ، وهي حقيقة اثبتتها التاريخ القديم والأوسط ، والحديث . والازمات التي تعرضت لها الامة العربية في الفترة الاخيرة ، وخاصة الغزو العراقي للكويت ، ما كان له ان يندحر لولا التناغم والتنسيق والتفاهم المصري - السوري .

وقد كان التنسيق المشترك بين الرئيس مبارك والرئيس حافظ الأسد هو أساس الموقف العربي الذي سمح بتحرير الكويت وهذه حقيقة معروفة للقاصي والداني عربيا وعالميا ، ولقد كان اعلان دمشق هو الوثيقة العربية الوحيدة بعد مرحلة تحرير دولة الكويت ، وكان الرد الطبيعي لاعادة صياغة الواقع العربي صياغة تفتح الباب امام

■ الفصل العاشر

تضامن عربى حقيقى فاعل ، وروية عربية مستقبلية للأمن العربى المشترك ولتغليب المصالح العربية المشتركة على أى شىء آخر .

ومن المؤكد ان اعلان دمشق هو الذى يكفل تحقيق الأمن العربى السياسى والأمن الاقتصادى ، ونحن فى سورية مع أى خطوة أو قرار يؤدى الى ضمان الأمن العربى بشكل يساهم فيه الذين يؤمنون بالمصير الواحد للأمة العربية ، ونحن نؤمن بأن اعلان دمشق سيأخذ طريقه الى التنفيذ اليوم أو غدا مادامت الرؤية فى هذا البيان واضحة وطالما ان المصلحة العربية هى محور هذا البيان ، وتثبت الايام ان ما ورد فى اعلان دمشق هو الحد الأدنى والامثل لخلق تضامن عربى وأمن عربى واقتصاد عربى ومصلحة عربية عليا مشتركة ، وهذا ما يدركه ايضا الاشقاء فى مصر .

هناك حقيقة أخرى يؤكدتها محمود الزعبي رئيس وزراء سورية وهى ان من راجع تصريحات الرئيس الاسد وتوجيهاته فى اجتماعات القيادة القطرية ومجلس الوزراء يرى ان ما يهم الرئيس الاسد فى هذه المرحلة الوصول الى تضامن عربى حقيقى وفعال وايجاد قواسم مشتركة وخطوط دفاعية تدافع عن وجودنا كأمة عربية مستهدفة ، إننا فى سورية وبتوجيه من الرئيس الاسد نركز على التضامن العربى وتدعيم العلاقات الثنائية ونقف ضد أى محاولة لتخريب هذه العلاقات ونساند كل خطوة تستهدف إزالة عوامل الشقاق بين العرب .

والذين يراجمون اهداف اللقاءات المستمرة بين الرئيسين الاسد ومبارك يجدان انها تصب داله فى خانة ايجاد القواسم المشتركة لتصليب الموقف العربى وعقلنته لكى يخدم المصالح العربية ، ولكى يكون دوره ايجابيا ، لاسيما وان النظام العالمى الجديد لا يقيم بنا خيارا بديلا .. لقد وضعنا هذه الظروف امام قوة واحدة بعد ان كان هناك فى الماضى قوتان تتجاذبان مصالح العالم ، وما لم نكن متضامنين فإن غياب التضامن سيوقعنا فى مهالك لا قبل لنا بها . وهذا ما يؤكد عليه الرئيس الاسد ، لابد من التضامن لتحقيق تعاون عربى مشترك ، ولكى يكون امام العمل العربى المشترك آفاق واسعة للتكامل الاقتصادى وتحقيق النمو العربى الحقيقى ، والتعاون المصرى السورى هو العمود الفقرى للتضامن العربى ، وميثاق دمشق فرصة تاريخية نادرة اذا عرف العرب كيف يستفيدون منه .

تبقى بعد ذلك حقيقة ينبغى الإشارة اليها وهى ان هناك من يسعون الى تجميد وتعطيل وإعاقة تنفيذ إعلان دمشق ومازالت مصر وسورية تعالجان المسألة بكل دقة وبكل توازن وبغير فقدان للاعصاب لانهما الاكثر إدراكا بأن الأمن العربى مسئولية عربية

■ الملائكة المصرية السورية في فكر الأسد ■

بالدرجة الأولى والاحداث تؤكد ذلك كل يوم ، وان مصر وسورية يتبعان في سبيل التضامن والتعاون الآن اساليب غير تقليدية لايمانها ان ربط مصلحة الانسان العربى بخطط التنمية هو الذى يضمن استمرارها وان التنسيق الاقتصادى أساس الوحدة العربية الشاملة ، وان السياسة يجب ان تكون دوما في خدمة الاقتصاد ، وتعمل سورية بقيادة الرئيس الاسد على توظيف علاقاتها مع الشرق والغرب في خدمة هذه القضايا العربية وفي طليعتها قضية العرب الأولى وهي قضية فلسطين وتعزيز الجهود الدولية من اجل سلام عادل في المنطقة يرتكز الى انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ والاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وفي مقدمتها حقه في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة .



سورية ومسيرة السلام

- رؤية الأسد لمسعى احلال السلام .
- سورية تفتح الباب لمسعى السلام .
- السلام الشامل هو الهدف ولن نتخلى
عن شبر من الجولان .
- الحل الوسط في موضوع الأرض غير
وارد .
- الجغرافيا لا تحقق الأمن .
- صدام لن يدوم والعراق سيعود لأمته .
- الأسد يؤكد : ننظر بثقة الى المستقبل
ويجب أن نظل يقظين ولا يجوز أن تنال
منا غفلة .

■ سورية وسيرة السلام ■

□□ يبقى في النهاية ان نتعرف على الرؤية السورية لمسعى إحلال السلام الراهن في المنطقة .

في مجال الاجابة على هذا السؤال لابد ان نشير الى ذلك الخطاب التاريخي الذي القاه الرئيس حافظ الاسد في افتتاح الدورة العاشرة للعب البحر الابيض المتوسط وهي الدورة التي شهدتها مدينة اللاذقية في شهر سبتمبر ١٩٨٧ لكي نعرف ان مساندة سورية لمسعى إحلال السلام ليست وليدة الظروف الراهنة وإنما تعود الى قبل ذلك بكثير .

قال الرئيس حافظ الاسد في هذا الخطاب امام المشاركين الذين تجمعوا من دول البحر الابيض المتوسط في مظاهرة أخوة وصداقة وسلام مثلتها هذه الدورة التي جمعت بين وفود من مشرق البحر المتوسط ومن غربه ومن شماله ومن جنوبه .. من الساحلين العربي والاسلامي قال الرئيس حافظ الاسد :

« نحن جزء من الانسانية .. هذا البحر المتوسط عرف الثقافات وعرف الحضارات ، ومن هنا انتقلت الابجدية ، نحن نريد لشبابنا ان يحمل رسالة انسانية للعالم كله رسالة في المحبة والسلام وفي التعاون الذي يرفض العدوان والقتل ويرفض التدمير ويرفض احتلال أراضي الغير ، في بلادنا السورية عاش الانبياء .. المسيح عليه السلام عاش في سورية وتكلم اللغة السورية ، لانه في سورية الكبرى لم يكن هناك فلسطين والاردن ولبنان

■ الفصل الحادى عشر

وسورية إنما كانت هناك سورية الكبرى ، الى هذه الارض ايضا جاء الرسول صلى الله عليه وسلم الى دمشق وكىلا عن السيدة خديجة والتقى بالراهب « بحيرا » من هذه البلدة من دمشق انطلقت قواعد النضال الاسلامى لكى تصل الى الاندلس والصين حاملة رسالة الخير والمحبة للجميع ، ومن دمشق انطلق صلاح الدين الايوبى كى يضع حدا للحملة الصليبية ، والاحتلال وعامل الفرنجة معاملة انسانية يتكلم التاريخ عنها حتى الآن ، وطالما ان هذه الارض أرض النبوة ، والحضارة والابجديات فإنها يجب ان تظل أرض سلام .

• والرئيس الاسد لا يقصد فقط سورية فى كيانها الجغرافى وانما يقصد الارض العربية الممتدة من الحجاز الى مصر الى سورية لان جميع الانبياء عاشوا فيها ويشرفنا ان تكون بلادنا العربية مهد الانبياء ، ونحن كعرب علينا ان نؤدى هذه الرسالة الانسانية على خير وجه ، ولكن نريد من العالم ان يعترف بدورنا فى الانسانية .

الجامعات فى الاندلس التى تعتبر جسرا لنقل الحضارة بين الاندلس وأوروبا نحن الذين قدمنا لها الترجمات الاغريقية القديمة والرومانية واضفنا اليها وقمنا بكثير من الابحاث ، فلماذا يغفل العالم المعاصر دورنا على جميع الصعد ، ولماذا نعاقب بما لم نرتكب ذنبا فيه لا تعصبا ولا استعلاء ولا استعمارا ولا عدوانا .

ويضيف الرئيس الاسد : « نريد الارض .. أرض سلام وصداقة فلا عدوان ولا احتلال ، ولا مظهر من مظاهر العدوان والاحتلال وكذلك نريد ان يكون البحر بحر سلام وصداقة ، تحلق فى اجوائه طيور النورس ، لا طائرات القتل والتدمير ، وتمخر عبابه سفن التواصل بين الشعوب لا حاملات وسائل القتل والتدمير ، نريده بحرا لاهل هذا البحر خاليا من اساطيل الذين يريدون لشعوبنا شرا ، ونريد لحوض المتوسط منطقة سلام ، نواة السلام العالمى منها تنطلق حمامات السلام لتنتشر فى سماء الارض . ان شعوبنا حريصة على ان تكون الحياة مسيرة بناء وتقدم ورفى .. مسيرة يسودها العدل والمساواة .. مسيرة خالية من أسباب وعوامل الخوف والرعب والارهاب .

نحن جميعا نريد لاطفالنا ان يعيشوا طفولة سعيدة ، ونريد لشبابنا ان يحيا حياة هانئة ، نريد لجميع الاجيال ان تنعم بحياة لا تكدرها حاجة ولا مرض ولا تخلف بل تهنا كفاية وعافية وعلما ومعرفة .. ايها الرياضيون من مشرق المتوسط ومغربه وجنوبه وشماله انكم من جيل الشباب ، جيل الحياة المتفتحة ، الجيل الذى ستقع على عاتقه مسئوليات المستقبل ، لكم دور كبير فى صياغة المستقبل ، وفى إظهار هذا الدور تنهضون بمهمة كبرى عندما توجهون جهودكم وجهة خير البشرية وسعادتها وتقاومون كل الشرور المتمثلة فى العدوان على الغير واستلاب حقوق الآخرين ، واستغلال الكبير للصغير والقوى

■ سورية وسيرة السلام ■

للضعيف .. هذه الشرور هي مصدر الحروب وزوالها طريق السلام ، فما من شعب ، وبغض النظر عن مقاييس الحجم والعدة، إلا ويناضل مكافحا هذه الشرور عندما يتعرض لها ويظل يناضل حتى يقضى عليها .

في حديثه الى شعبه في سورية ، يقول الرئيس : «عليكم دور كبير هو دور الاجداد الذين حملوا هذا المشعل ، علينا دور لأن هذا العصر عصر الجماعات الكبيرة ، علينا ان نسعى لكي نخلق وحدة وطنية متناسبة متناسقة في قطرنا ، تكون نموذجا يحتذى به في جميع اقطارنا العربية وعلينا ان نخلق وحدة عربية تكون نموذجا لكيفية التفاعل والتعاون والمصالح المتبادلة حتى نستطيع ان نحمل مكاننا على وجه الأرض .

رسالة الاسد مقرونة بالعلم والموضوعية وبالقضايا المشحونة بالروح والتراث وبتفاعل خلاق مع المستقبل مؤكدا ان المستقبل لا ينيه إلا الشباب وابناء الأمة بنفحات من تاريخنا العظيم سواء كان تاريخ الأمة العربية في قديمه ، أو تاريخ الحضارة الإسلامية، أو التاريخ الحديث الذي أعطينا فيه من ثرواتنا ومن جهدنا ومن مكاننا الاستراتيجي المميز للانسانية كل شيء ، بهذه القيم والمعاني يوصي الاسد الشباب سواء في وطنه أو في أي بقعة من العالم .

السلام العادل

الرئيس حافظ الاسد منذ تسلمه السلطة وهو يطرح السلام العادل القائم على العدل والسلام الشامل والدائم ويؤكد أن رغبة العرب الحقيقية هي السلام .. كان يرى ان جميع القرارات التي صدرت عن الأمم المتحدة منذ التقسيم عام ١٩٤٧ وحتى يومنا هذا لم يصدر منها قرار يعطي صيغه التنفيذ الإلزامي سواء كان بقوة الشرعية الدولية أو بإحالتها الى مجلس الأمن ليتخذ قرارا وفق الفصل السابع من الميثاق .. رغبة الرئيس الاسد في السلام مبنية على أنه اذا كان هناك عدوان بالقوة ، واحتلال أرض الآخرين بالقوة ، فإن السبيل لتحقيق السلام هو انسحاب القوى المعتدية لانه من حيث المبدأ إذا أخذنا بوجهة نظر الحق الطبيعي ، لا يمكن لأي شعب ان يتنازل عن حقوقه ولا يمكن لبلد معتد أن يتمتع بثمار عدوانه، وإذا أخذنا المسألة من الناحية القانونية فإن هناك قرارات دولية كثيرة واجبة التنفيذ ، لاسيما وأن الولايات المتحدة الأمريكية أعلنت على لسان الرئيس بوش في خطاب ألقاه في السادس من مارس ١٩٩٠ « بأن عهدا جديدا يطل الآن على العالم بعد ان انتلفت الدول تحت راية الأمم المتحدة لاجرا العراق من الكويت ، وقد أعلن بوش بأنه قد أن الاوان لكي تحل الولايات المتحدة الأمريكية مشكلة الشرق الاوسط بنفس الروحية والموضوعية التي انتهت بها الاحتلال العراقي للكويت ، وبعد الزيارات العديدة التي قام بها جيمس بيكر للمنطقة وبعد لقاء الرئيس حافظ

■ الفصل الحادى عشر

الاسد مع الرئيس بوش فى جنيف حدث اقتناع لدى الرئيس الاسد بأن الادارة الامريكية جادة فى هذه المرحلة وانها ترغب فى تحقيق سلام عادل ودائم فى هذه المنطقة . وانطلاقاً من هذا استطاع الرئيس حافظ الاسد ان يدخل تعديلات كثيرة وكبيرة على المبادرة الامريكية لأن اسرائيل كانت لا تريد حتى للأمم المتحدة أن تلعب أى دور، حتى دور المراقب . وكانت تعترض على وجود المجموعة الاوربية فى مؤتمر السلام ، وقد أصرت سورية على وجود السوق الأوروبية المشتركة وكانت اسرائيل تناور وتعمل على عزل كل دولة على حدة بتبادل الزيارات بين كل بلد واسرائيل ، أى انها كانت تطلب الاعتراف المسبق قبل الدخول فى عملية السلام التى تركز الى قرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و ٣٣٨ وعلى مبدأ عدم جواز اكتساب اراضى الغير بالقوة وفق ما نصت عليه مبادرة بوش والضمانات الامريكية التى أعطيت قبل انعقاد مؤتمر السلام فى مدريد ..

الرئيس حافظ الاسد رجل مؤمن بالسلام ، السلام المبنى على العدل والذى يحقق الانسحاب الكامل من الاراضى العربية المحتلة، ويعطى للشعب الفلسطينى حقوقه المشروعة ويرفض الاستسلام ، ويرفض ان يستفيد العدو من أى مكسب يجنيه من خلال العدوان ، وهذا الموضوع ذكره الرئيس حافظ الاسد فى العديد من خطبه منذ سنوات عديدة ومن يعود الى خطاباته الاولى للقوات المسلحة قبل بدء العمليات القتالية عام ١٩٧٣ يتأكد من ذلك ، ومن يرجع الى هذه الفترة سيجد ان الرئيس حافظ الاسد يؤكد ان سورية ليست هاية حروب ولكنها تقاتل من أجل تحرير الاراضى العربية المحتلة . انها تدفع العدوان عنها ، وأن سورية طالبت وتطالب بالسلام ، ولكن اسرائيل لا تريد السلام .

وفى خلال حرب ١٩٧٣ ، وبعد الحرب حاولت سورية بكل الامكانيات المتاحة ان تحقق أو تسعى لتحقيق مؤتمر دولى للسلام يشارك فيه القطبان الكبريان آنذاك وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى سابقا ، ولكن بكل أسف فإن سياسة كيسنجر التى كانت ترمى الى الانفراد بكل دولة على حدة والجهود التى بذلها كيسنجر وإدارة كارتر فيما بعد استطاعت ان تحقق حلاً منفرداً ، ولذلك ضاعت فرصة السلام فى المنطقة والتى كان يمكن للولايات المتحدة لو أخلصت النوايا ولم تنحز لاسرائيل ان توجد فرصاً ملائمة للسلام الشامل ، ورغم كل ذلك فإن سورية ظلت تدعو الى السلام سواء فى زيارة الرئيس الاسد لأوروبا واجتماعه بالقادة الاوربيين فى المانيا وفرنسا أو فى استقباله للكثير من الشخصيات الاوربية الدولية ثم فى اجتماعه مع كارتر فى جنيف واستقباله لجميع الموفدين الامريكيين وبياراته المتكررة للاتحاد السوفيتى وفى استقباله لرئيس وزراء الصين ورئيس وزراء الهند الراحل راجيف غاندى وجميع المسؤولين من الشرق والغرب .

■ سورية وسيرة السلام ■

كان الأسد يردد دائما بأنه يجب علينا أن نبحث عن سلام دائم وعادل من خلال مؤتمر دولي يعقد للسلام في منطقة الشرق الأوسط وتطبق فيه قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية ، ولذلك وكما أسلفنا فإن إيمان الرئيس الأسد بالسلام مبنى على اقتناع راسخ ، وقد أشرنا فيما سبق إلى خطاب الرئيس الأسد في دورة البحر الأبيض المتوسط التي عقدت في اللاذقية عام ١٩٨٨ وإلحاحه على ضرورة إقامة سلام يشمل دول البحر المتوسط لأن هذا البحر عاشت على جوانبه الحضارات المتعددة وكان هناك تبادل لهذه الحضارات واختلاط لهذه الشعوب لكي تتساعد وتتعاون جميعا في ظل السلام لبناء الحضارة المعاصرة .

سورية فتحت الطريق للسلام

وفي خطابه الذي ألقاه بمناسبة أداء القسم للولاية الدستورية الرابعة في مجلس الشعب في ٢ مارس / آذار ١٩٩٢ قال الرئيس حافظ الأسد : « ان سورية هي التي فتحت طريق السلام عندما وافقت على المبادرة الأمريكية التي تقوم على تنفيذ قرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ ، ٣٣٨ ومبادلة الأرض بالسلام وهو ما تعنيه هذه القرارات بعد أن كانت حكومة إسرائيل قد رفضت المبادرة بموجب رسالة وجهتها إلى الإدارة الأمريكية ردا على مبادرتها ، وقد فعلت سورية ذلك رغبة منها في تحقيق السلام ولأنها التزمت بالقرار ٣٣٨ وضمنه القرار ٢٤٢ الذى هو جزء منه بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ وعندما أقول رغبة منها في السلام تؤكد ذلك كل الأحاديث والخطب والنقاشات التي قامت بيننا وبين كل الآخرين الذين ناقشونا من خارج بلادنا حول عملية السلام منذ أن وقفت حرب تشرين على أساس قرار مجلس الأمن ٣٣٨ المؤلف من ثلاث فقرات .

ان الفقرة الثانية والاساسية في القرار هي قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فعندما وافقنا على القرار ٣٣٨ وافقنا ضمننا وفعلنا على القرار ٢٤٢ ومنذ ذلك الوقت كنا نقول دوما إننا نريد السلام على أساس القرارين ٣٣٨ و٢٤٢ وعبر صيغ كذا وكذا وعبر صيغة مؤتمر دولي .

إن شروطنا ومطالبنا هي هي لم تتغير ولن تتغير لا اليوم ولا غدا ولا إلى الأبد .

إسرائيل لا تريد السلام

وقد قلت كثيرا للأجانب الذين جاءوا إلى بلادنا مهتمين بعملية السلام ان إسرائيل لا تريد السلام . خاصة ان حكامها يعتقدون ان الظرف الدولي مناسب لتحقيق

المزيد من الاطماع واحتلالات جديدة وليس للتخلّى عما احتلوه من أراضٍ في أوقات ماضية ، ولكنهم ما كانوا يصدقون ذلك. ان حكام اسرائيل وعبر زمن طويل غسلوا أدمغة اناس كثيرين وأوهموهم ان في اسرائيل اناسا (دراويش) يبحثون عن السلام والأمن والحرية أما العرب فلا يبحثون إلا عن الحرب والقتل والذبح والارهاب .

كشف الزيف الاسرائيلي

ومن حسنات عملية السلام أو من حسنات الأشهر الأربعة التي مرت والمحادثات التي جرت بين العرب والاسرائيليين انها كشفت هذا الزيف كشفاً واضحاً لكل الناس إلا من عمى في بصره وبصيرته ولا أحد الآن إلا ويعرف ان اسرائيل هي المعادية للسلام والمعركة للسلام .

لقد اجابت سورية على المبادرة الامريكية بالايجاب رغبة منها في تحقيق السلام ولانها التزمت منذ عام ١٩٧٣ بالقرار ٢٤٢ ومنذ ذلك الوقت وسورية تتحدث عن السلام على اساس هذا القرار وعندما وجدت حكومة اسرائيل ان سورية والعرب جميعاً وافقوا على مبادرة والمشاركة في عملية السلام قررت ان تشارك رغم انها اغلقت ابواب السلام في بداية إعلان المبادرة الامريكية لانه ليس من مصلحتها ان تقاطع مبادرة السلام أمام العالم اجمع خاصة والعالم يطالب بالسلام ويتنفذ القرارات الدولية في أى مكان وبدلاً من أن تعطل عملية السلام بالمقاطعة والتي لن ترضى المجتمع الدولي قررت كما هو واضح من السلوك في المباحثات ان تعطل عملية السلام بالمشاركة فيها ومنعها من النجاح .

وتصر الآن الشهور وكل شيء في مكانه إلا الصورة التي كان حكام اسرائيل يثبتونها في اذهان الآخرين وهي صورة الناس الذين يسعون ليلاً ونهاراً لتحقيق السلام بينهم وبين العرب ، ولكن العرب دائماً يتحدثون عن الحرب ولا يتحدثون عن السلام ، وكان العالم بأكثرية الساحقة وخاصة في الغرب يصدق هذه الصورة ويأخذ بهذه الصورة ويصدقها وهي الراسخة في الازهان هناك ، أما الآن فقد انعكست الصورة تماماً فالكل مقتنع الآن ان العرب يريدون السلام واسرائيل ترفضه .

العرب لن يتنازلوا عن أرضهم

بالنسبة لنا لم نفاجأ لأن لدينا اقتناعاً أن حكام اسرائيل لا يريدون السلام وقد عبرنا عن ذلك مراراً كثيرة قبل ان تبدأ عملية السلام الحالية وهامم الذين كانوا يقولون دائماً إننا لانريد السلام ومنذ زمن بعيد تقيمت اقتناعاتهم بأنه لم يكن في اذهانهم عندما كانوا

■ سورية وسيرة السلام ■

يحدثوننا عن السلام أن إسرائيل تريد السلام والأرض بالرغم من أننا كنا نقول لهم دائماً إن السلام الذي يريده حكام إسرائيل هو أن يأتي العرب ويوقعوا صكوك تسليم أراضيهم المحتلة وتسمى هذه الصكوك صكوك السلام . لقد تغيرت اقتناعات الآخرين في كل مكان ونأمل أن يتحدث الجميع علناً باقتناعاتهم الجديدة . إن الكثيرين منهم يتحدثون الآن علناً وبطبيعة الحال العالم كله يعرف أن العرب لن يتنازلوا عن أرضهم لا اليوم ولا في أى يوم في المستقبل القريب أو البعيد . ورئيس حكومة إسرائيل يصرح بشكل متكرر أنه متمسك بالسلام وأرض إسرائيل . وأرض إسرائيل التي يعينها في هذه المرحلة تشمل الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس والجولان فأى سلام هذا الذي يتمسكون به ؟ ! .

وقد أكد ذلك بنفسه عندما خطب في مؤتمر مدريد وخاطب الآخرين بأن ٢٨ ألف كم^٢ من الأراضي هي مساحة صغيرة بالنسبة لإسرائيل ولو بحثنا من أين جاءت هذه المساحة لوجدنا أن الـ ٢٨ ألف كم^٢ هي مساحة فلسطين كلها بما فيها غزة والضفة والقدس وكذلك الجولان . على كل حال ليكشفوا أنفسهم ومطامعهم التوسعية أكثر أمام العالم وهذا بحد ذاته في مصلحة العرب أما نحن العرب فنريد السلام عن طريق تنفيذ القرارات الدولية التي بدأت عملية السلام على أساسها فإن كان الأمر كذلك أردناه وإلا فلنترك وليتركوا الأمر للمستقبل فلسنا في عجلة من الأمر . إسرائيل هذه هي التي تعرقل السلام وتعطله تطالب الولايات المتحدة الأمريكية بأن تقوم بدور قرضائي في البحار وأن تعترض السفن القادمة إلى سورية وإلى بلدان أخرى لأنها تحمل أسلحة وصواريخ تهدد الأمن في الشرق الأوسط ، إسرائيل هذه هي التي تتصرف كدولة عظمى توجه الأوامر للدول العظمى الأخرى وليس العكس . إسرائيل تريد أن تأخذ بالقوة عشرة آلاف مليار دولار من الولايات المتحدة وتريد منها أن تفرض حصاراً على العرب بالنسبة لمواضيع تحددها وفي الوقت نفسه تبحث مع الولايات المتحدة عن تطوير وتمويل صناعة صواريخ جديدة مضادة للصواريخ دون أن تهتم بالكيفية التي ستنفذ فيها الولايات المتحدة هذا الأمر الذي وجهته إسرائيل إليها دون أن تهتم بواقع أن الولايات المتحدة هي صاحبة مبادرة السلام فكيف يستقيم الأمر في أن ترعى الولايات المتحدة محادثات السلام المستندة إلى مبادرتها المستندة بدورها إلى قرارات الأمم المتحدة وأن تضرب حصاراً حول سورية والدول العربية الأخرى . كيف يمكن أن توازن الولايات المتحدة بين ماترفعه شعاراً كبيراً من أن هناك عالماً جديداً هو عالم العدل وعالم الشرعية الدولية وعالم حرية الشعوب ومساواتها وبين أن تمنع صواريخ قادمة إلى سورية ، وأنا أقول لكم إن كل ماتسمعون حتى الآن ليس صحيحاً وهذه البواخر التي يتحدثون عنها لاتحمل صواريخ إلى سورية نحن لدينا صواريخ وسنجلب صواريخ حسب حاجتنا .

تجريد العرب من السلاح

كيف ستوازن الولايات المتحدة إذا افترضنا أنها ستنفذ الأمر الاسرائيلى بين أن تقوم بمصادرة أو منع سفن قادمة إلى سورية لأنها تحمل السلاح سواء أكان صواريخ أو غير ذلك بينما مصانع اسرائيل تصنع بشكل يومى كل أنواع السلاح، وبينما تصنع اسرائيل السلاح بأموال الولايات المتحدة، وبينما تستفيد اسرائيل من صناعة هذا السلاح والصواريخ في المقدمة وخاصة الصاروخ الذى سموه /ارو/ أى السهم بالتعاون والاستفادة من تكنولوجيا وأموال الولايات المتحدة ، كيف يمكن أن يفتح الباب للاسرائيليين كى يصنعوا السلاح بأنواعه وبدون أية حدود وتحاصر سورية ويمنع عنها الاستيراد، انظروا إلى هذا التخليل ، إلى هذا التزييف .. الحد من السلاح عنوان منع الصواريخ من القدوم إلى سورية ، الحد من السلاح، في هذه الحالة يعنى تجريد العرب من السلاح إذا كان هذا مايعنيه الحد من السلاح أى أن تمنع هذه الاجراءات السلاح عن العرب استيراداً والسماح للاسرائيليين تصنيعاً فهذا في نهايته تجريد للعرب من السلاح فكيف يستقيم هذا مع العالم الجديد الذى قيل إنه عالم الشرعية الدولية وأية شرعية هذه ، أنها شرعية الغاب ، شرعية الوحوش !

وإذا فرض هذا الأمر فهم يعملون على فرض الاستسلام وليس من أجل السلام ويعملون لفرض استسلام علينا وليس من أجل أن نحقق معا جميعا سلاماً عادلاً وشاملاً كما جرى الاتفاق عليه في حينه .

إذا كانوا يريدون الحد من السلاح فأول مايجب أن يفعلوه هو اغلاق المصانع الاسرائيلية التى تصنع القنبلة الذرية والصاروخ واللاكترون والبابة والمدافع والبارودة والمسدس وكل أنواع السلاح من صغيرها إلى كبيرها . إذا كانت كثرة السلاح تؤدى إلى الحرب والعالم لايريد هذا وكان الانسان بطبيعته ليس من هواة الحروب فإنه بطبيعته أيضا وبفريزته هاو ومحترف أن يعيد حقه وإذا كانت كثرة السلاح ضمن عملية السلام فيجب أن يبحثوا في موضوعية وعلمية ومنطقية، فليمنعوا التصنيع وليمنعوا الاستيراد ، عند ذلك قد يكون لنا ولغيرنا موقف آخر مختلف وقد تحترم هذه الشعارات التى نسمعها من أن العالم الجديد عالم عدل وإنصاف يتساوى فيه الناس في كل مكان، وتتعاون مع هذا العالم ولكن يخطيء من يعتقد أننا سنفرط بذرة من ارادتنا وقرارنا ، إننا نرفض أن تقسم الارادة والقرار إلى ذرات .

وأريد أن أذكر أننا تناولنا بحث السلاح في لقاء مع مسئولين أمريكيين في بداية الحركة التى قاموا بها وسميت آنذاك حركة سلمية من أجل تحقيق السلام ، وقلت للمسئول الأمريكى : نحن لانصنع مانحتاجه من السلاح واسرائيل تصنع ماتحتاجه

■ سورية وسيرة السلام ■

وفوق ماتحتاجه من السلاح ، فعندما يطرح الامر يجب أن يطرح بشمولية وسقري رأينا
أنداك .

فقال : هذا يجب أن يؤخذ في الاعتبار أنا لا أستطيع أن أقول حتى الآن إن الولايات المتحدة تتفق مع إسرائيل في مفاهيمها حول هذا الموضوع لأنه لاشيء ملموس لدينا ولكننا نرى وواضح أن إسرائيل تريد أن تدفع الولايات المتحدة والغرب عموماً إلى الموقع الذي سيعيد المنطقة زمناً طويلاً إلى الوراء في كل زاوية في زوايا الحياة والتاريخ المتعددة .

تحقيق السلام يحد من السلاح

نحن نريد الحد من السلاح وان كنت أعتقد أن الظرف الموضوعي المناسب للحد من السلاح هو تحقيق السلام ، وإذا أرادوه قبل تحقيق السلام فلنناقش على أساس شموليته وعدالته أما أن نمنع ، ولكي نمنع يجب أن لانعطي المصانع إلى الآخرين وقد يبدو هذا نظرياً تماماً ، إما أن يتاح لنا العرب وإسرائيل التصنيع كاملاً وإما أن يمنع التصنيع كاملاً عن الجميع .

الامر الآخر تسمعون كم تحدثوا عن سورية والسلاح الذي يأتيها ومن يسمع اذاعاتهم يتصور أننا استوردنا في هذه الفترة أكثر من كل ما استوردناه في تاريخنا من السلاح والامر ليس كذلك بطبيعة الحال .. إن أضعاف أضعاف ما استوردناه لايساوى ماتعطيه الولايات المتحدة عسكرياً لإسرائيل في سنة واحدة لأن أمريكا تعطي إسرائيل كل عام مساعدة عسكرية كانت قبل العام الماضي ١٨٠٠ مليون دولار فكيف يمكن أن يمنعوا استيراد الصاروخ ولايمنعوا ثمن هذا الصاروخ الذي يأتي إلى إسرائيل هذه الـ /١٨٠٠/ مليون دولار سنوياً هل هي استيراد أم تصدير من قبل الموازنة الأمريكية .. إن امكاناتنا لاتسمح بصرف هذه الأرقام الكبيرة . مهما صرفنا فقد نستطيع صرف مئات الملايين من جهدنا وعرقنا ، ومن جهد شعبنا وعرقه . أما هم فيصرفون من جهد المواطن الأمريكي وعرقه في الوقت الذي سمعتم فيه تصريحات علنية لمسؤولين أمريكيين زاروا المنطقة بما في ذلك إسرائيل يقولون فيها : إن في الولايات المتحدة ملايين الناس لا يحتاجون إلى الملايين بل يحتاجون إلى عدد قليل من الدولارات حتى أن روبرت دول، وهو عضو في الكونجرس الأمريكي، صرح في إسرائيل وكانت تطالب في ذلك الوقت بـ ٤٠٠ مليون دولار بأنه في الوقت الذي لدينا ملايين الأمريكيين ليس لهم بيوت . انهم يعطونهم من أجل أن يقيموا بيوتاً لمهاجرين في أوطانهم إلى المنطقة ويريدون اعطاءهم ثمن سلاح يستوردونه ويصنعونه في إسرائيل من جهد وعرق المواطنين الأمريكيين، هل هذه

■ الفصل الحادى عشر

ديمقراطية !؟ فى كل عام كانت المساعدة ثلاثة مليارات دولار . فى العام الماضى صرح الرئيس بوش انهم أعطوهم أربعة مليارات ، ولا أذكر تماما كم هو الرقم العسكرى لكننى أتصور أنه بحدود المليارين ونصف المليار مساعدة سنوية للمواد العسكرية ومع ذلك يقولون أن سورية استوردت وفعلت الكثير . إن موقف الاكثريّة فى الغرب يبدو أكثر تفهما وفهما من الماضى للواقع العربى وواقع سورية وأكثر فهما أيضا للواقع الاسرائيلى ولنوايا اسرائيل ، نحن أعلننا مرات كثيرة ونعلن الآن أننا نريد السلام .

السلام الذى يعيد الأرض ويعيد الحقوق وينشر الأمن فى المنطقة وأقل من ذلك هو استسلام ولن تستطيع قوة فى الدنيا أن تفرض علينا الاستسلام أبداً .

السلام ليس قضية بيع وشراء ولن يكون على حساب الأرض

لم يترك الرئيس حافظ الأسد مناسبة تمر دون أن يحدد رؤيته لمفهوم السلام المقبول ، فالسلام فى رأيه ليس قضية بيع وشراء ولن يكون أبداً على حساب الأرض .

الرئيس الأسد يرى أن عملية السلام التى بدأت مازالت تتعثر فى الطريق ، وهذا لم يكن غير متوقع ، وعندما طرحت مبادرة السلام الأمريكية وافق عليها لأنها تنسجم مع قرارات الأمم المتحدة ، وعلى أساس تنفيذها وهذا ماكان يؤكد ، وخاصة منذ عام ١٩٧٣ حيث كان يطالب باستمرار بتحقيق السلام العادل على أساس قرار مجلس الأمن رقم ٢٣٨ وقراره رقم ٢٤٢ ، والذى هو بند من بنود القرار ٢٣٨ ، وكثيرة هى الدول والجهات الأجنبية التى أظهرت اهتماما بالسلام خاصة فى هذه المنطقة فى السنين الماضية وكانت تتحدث بالأمر ، وكان الرئيس الأسد يؤكد أننا نريد السلام ونسعى إليه ، ولكن اقتناعاً بأن قادة اسرائيل لا يريدونه ، ولا يرغبون فيه بل يريدون احتلال الأرض العربية لتنفيذ مخططهم التوراتى ، كما أننا فى أحاديثنا وتصريحاتنا مع مسئولى الدول الذين زارونا أو زرناهم كنا نؤكد هذه المعانى ، وعندما طرحت الولايات المتحدة مبادرتها ، ونصت على أن الحل سيقوم على أساس القرارين الدوليين المعنيين ، ومبدأ الأرض مقابل السلام ، وعقد مؤتمر دولى ، برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى آنذاك ، وهو الذى عُقد فى مدريد ، وأكدت الإدارة الأمريكية على جديتها فى جميع المناقشات التى أجريت بيننا وبينها .. على أساس كل هذا قلنا نعم لهذه المبادرة ، وبدأت لقاءات الوفود العربية والاسرائيلية ، ومازالت قائمة ، ولكن حتى هذه اللحظة لم تقدم اسرائيل شيئاً جديداً يفتح طريق السلام ..

وما يقولونه اليوم ويسمونه جديداً سمعناه منذ زمن بعيد ، فهم يقولون إنهم يوافقون

■ سورية وسيرة السلام ■

الآن على القرار ٢٤٢ ويعتبرون ذلك جديدا في موقفهم ، وحقيقة الأمر أن هذا ليس جديدا ، فقد وافقوا عليه بعد صدوره في عام ١٩٦٧ وتعاملت إسرائيل مع مبادرات دولية ، ومع جهود دولية قامت على أساسه ، وعلى سبيل الذكر لا الحصر كان الوسيط الدولي « جونار يارنج » قد قام بعدة جولات واتصالات بتكليف من مجلس الأمن بين إسرائيل وعدد من دول المواجهة العربية لتنفيذ هذا القرار ، كما كانت هناك مبادرة « روجرز » ومبادرة « شولتز » وزيرو خارجية الولايات المتحدة في أوقات متباعدة ، كل هذه المبادرات والمساعى وغيرها كانت على أساس القرار ٢٤٢ ، فأين هو الجديد عندما يقولون نوافق الآن على القرار ٢٤٢ ؟ ثم قالوا : أنهم يمكن أن ينسحبوا جزئيا من الجولان ، وأن هذا جديد كما قالوا ، وكما تقول معهم ، وتردد بعض الدول ، ولكن هذا الجديد سمعناه قولا ، وطبقناه على الأرض منذ عام ١٩٧٤ في إطار اتفاق فصل القوات على الجبهة السورية بعد حرب الاستنزاف والتي كانت امتدادا لحرب تشرين وبنى هذا الاتفاق كما ورد في نصه على أساس قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ والذي يشكل القرار ٢٤٢ جزءا منه ، وبناء على هذا الاتفاق انسحبت القوات الإسرائيلية جزئيا من الأرض السورية المحتلة في الجولان مع العلم أن اتفاق فصل القوات ليس اتفاقية سلام بل هي خطوة نحو سلام عادل ودائم .. استنادا إلى قرار مجلس الأمن ذي الرقم ٣٣٨ المؤرخ في ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٧٣ ، مع العلم أن هذه الاتفاقية وقعت في ٣١ أيار ١٩٧٤ في جنيف تحت رعاية الأمم المتحدة وباشتراك ممثلين للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وهذا يوضح أن الانسحاب الجزئي ليس جديدا وأن الانسحاب الجزئي لا يحقق السلام وإنما هو خطوة نحو السلام كما نصت الاتفاقية ، فهل تجري المباحثات الآن حول تحقيق السلام أم حول خطوة أخرى نحو السلام ؟

الانسحاب الجزئي لا يحقق السلام

ويوضح نص اتفاقية الفصل أن السلام يتحقق على أساس القرار ٣٣٨ وضمنه القرار ٢٤٢ وهو لا يقضى بانسحاب جزئي يشكل خطوة نحو تحقيق السلام ، وإنما بانسحاب من جميع الأجزاء التي تشكل جميع الخطوات التي تحقق السلام ، وأن الانسحاب الجزئي يشكل خطوة نحو السلام ، ولا يحقق السلام .

بعد هذا أين هو الجديد فيما يطرحونه ؟ ويسأل الرئيس الأسد :

أين هو الجديد الذي يشير إلى جليتهم في السلام ؟ إنني لا أريد أن استطرد في مناقشة ما طرحوه وإن كنت قد أشرت إلى أهم نقطتين وردتا في طرحهم لكنني أقول إننا نريد السلام ، وكنا نقول ذلك ونردد منذ حوالي عشرين عاما ، ولكن السلام ليس قضية

■ الفصل الحادى عشر

بيع وشراء ، بل هو حقوق والتزامات ، حقوق يجب أن تعود إلى أصحابها كاملة دون أى تفریط ، والتزامات فى الأمن والسلام يجب أن يقوم بها جميع الأطراف على ألا يكون أمن أى طرف على حساب الطرف الآخر .

وعلى أية حال نحن سنتابع عملية السلام مادامنا قد بدأناها ، ولكن ليس بدون نهاية ، وإذا كانت إسرائيل جادة فى السلام فلابد أن تستجيب لقرارات الشرعية الدولية وميثاق الأمم المتحدة ، ورغم رغبتنا الأكيدة فى السلام على أن يكون أبداً على حساب الأرض لأن العرب - وشعب سورية فى الطليعة - ليسوا من يفرون بأرضهم مهما طالّت السنون ، وتعاقت العقود والأجيال ، لأن الأرض هى الأغلى ، هى الكرامة ، هى الوطن .

التضامن العربى ضرورة حيوية لاستمرارية الأمة

يرى الرئيس حافظ الأسد أن الظروف التى تمر بها الأمة العربية فى الوقت الراهن والتحديات الكبيرة التى تبرز أمامها تجعل من التضامن العربى الذى ينطلق من وحدة المصير ويستند على التعاون والتساند والتعاقد ، ضرورة حيوية لاستمرارية الأمة ، ومقارعة التحديات التى تهدد كيانها ووجودها ، وتهدف إخضاعها واستنزاف خيراتها وثرواتها ، وفى اعتقاد الرئيس حافظ الأسد أن من أكبر التحديات التى تهدد الكيان القومى هى مظاهر التبعر والتشتت والسعى الحثيث لتحقيق مصالح قربية وضيقة لا تتماشى والمصلحة القومية الواحدة ، وتأتى محاولات السيطرة والهيمنة على الثروات القومية العربية من قبل الآخرين لتضيف إلى مصادر التهديد مصادر جديدة لاشكال وأساليب جديدة قلما عرفت فى السابق . ويرى الرئيس الأسد أنه إذا أردنا أن نكون فى مستوى المسئولية ، وفى مستوى الطرف فإن فى التضامن العربى مسلكاً وطريقاً صحيحاً نجنى ثماره جميعاً .

الذى أشار إليه الرئيس حافظ الأسد يؤكد التاريخ ، حيث كانت انجازات العرب الكبرى فى تاريخهم مقرونة بمظاهر وفاعلية التضامن والتعاون والتماسك عبر المراحل التاريخية الطويلة ، بينما كانت ملامح التراجع والتقهقر جلية وواضحة كلما برزت مظاهر التشتت والتبعر ، وكل هذا يدعونا إلى التأكيد على أنه بالتضامن العربى يتم تجاوز الأزمة ويتم تجاوز الظروف الصعبة التى تجابه الأمة خاصة والعالم يسير اليوم فى طريق يختلف عما كان يسيره فى الماضى ، لقد أصبحت القضايا الدولية اليوم على غير ماكانت عليه فى السابق وإذا كان التضامن العربى ضرورة ملحة للعرب وضرورة حيوية للمصلحة القومية فإن هذه الضرورة تصبح أكثر إلحاحاً وأكثر حيوية عندما نعلم أن هذه التحديات تهدد فعلاً كياننا القومى ، ووجودنا بكليته ، وعلى جميع العرب أن يدركوا أنهم جميعاً فى خطر ولا استثناء فى ذلك قطعاً .

■ سورية وصورة السلام ■

المصير الواحد للأمة

يشير الرئيس حافظ الأسد إلى أنه عندما تتكلم سورية عن التضامن العربي فإنها تنطلق من رؤية متكاملة الأبعاد تعتمد بالدرجة الأولى على المصير الواحد للأمة العربية وتستند إلى تراث أصيل حقق فيه العرب عندما اتحدوا انتصارات ساهمت في تقدم الحضارة الانسانية ، وتلك العلاقة بين الماضي وما هو منشود في المستقبل يجب ألا تشوبها أزمات تعتبر في سياق التاريخ الانساني أزمات عارضة .

التضامن العربي كما يراه الرئيس الأسد .. فعل إيجابي دوره في السلم يعادل دوره في مرحلة التصدي للعدوان وهو في الحالتين ضرورة قومية وانسانية وحضارية ، فالأمة العربية ساهمت في الماضي في بناء صرح الحضارة الانسانية ، بل وضعت الأساس الذي قامت عليه حضارة اليوم ، وليس هناك ما يمنع لاجلهم المنطق ، ولا يحكم الواقع أن تنهض من جديد ، وتعزز اسهامها الخلاق ، بل يجب أن تفعل ذلك . لأن طاقة الأمة العربية كبيرة ومتنوعة فهي تملك طاقات روحية وطاقات مادية ، طاقات تستند إلى التاريخ والجغرافيا ، تستند إلى الأرض ماعليها ومافيهها ، تستند إلى الانسان العربي بجماهيره الواسعة والقادرة على العطاء والتضحية عندما يقتضى الأمر والايامن يتأكد يوما بعد يوم يتأكد ويتعمق بأن الأمة العربية ستعود ثانية لتبعث عزتها وتبنى حضارتها ، وتساهم بقوة في اغناء الحياة البشرية .

السلام الشامل هو الهدف

□□ في حديثه إلى بعثة مجلة « تايم » الامريكية والذي نُشر بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٩٢ ، أوضح الرئيس الأسد عدة حقائق تتصل برؤيته للسلام مؤكداً أن السلام الشامل هو الهدف ، وأن سورية لن تتخلى عن شبر من الجولان ، وأن الحل الوسط في موضوع الأرض غير وارد ، وأن الصواريخ السورية ليست جديدة ، ولدى اسرائيل كل يوم سلاح جديد ، كما أكد الرئيس الأسد أن اسرائيل تعرف أن الجغرافيا لا تحقق الأمن ، وأشار إلى أن الترتيبات الامنية يجب أن توفر الأمن لكلا الجانبين ، وأن السلام لا يقوم على حساب أراضي الآخرين ، وأن الاتفاقيات المنفردة لا تحقق السلام ، وأنه لا يوجد سورى واحد يقبل بسلام يترك جزءاً من الجولان بيد اسرائيل ، وأن اسرائيل سباقة في التسليح ، وقال : اننا مستعدون للسلام شرط التوازن ، مقدراً جهود الرئيس بوش والوزير بيكر ومتوقعا من الرئيس كلينتون دعم عملية السلام ، ونظراً لأهمية هذا الحديث فإننا نورد تلخيصاً وافياً لما جاء فيه .

● أولاً : عندما قيل للرئيس حافظ الأسد بأن هناك فرصة في الأفق لمصالحة أو عقد اتفاق

■ الفصل الحادى عشر

بين العرب واسرائيل أو بين سورية واسرائيل على وجه الخصوص وماهو رايه فى اقتراح اسحاق رابين باللقاء معه على مستوى القمة قال الرئيس الأسد : المطلوب هو السلام ، والهدف هو السلام والسلام يحتاج إلى مناقشات طويلة ومضنية وهذه لايمكن أن تقوم بها لقاءات القمة فى بلدان العالم .

ولذا يمكن القول بأن مثل هذه الاقتراحات والأمور ، إذا وقعت فتقع نتيجة للسلام ، فالسلام يأتى بها وليس هو التى تاتى بالسلام .

إن لقاء رؤساء الدول لمناقشة موضوع كالصراع العربى الاسرائيلى يحتمل أن يقود إلى حروب ، فاحتمال أن يقود إلى حروب هو احتمال يتساوى مع احتمال أن يقود إلى السلام بل ويزيد عليه .

وعندما قيل للرئيس الأسد ألا تشعر بالفضول للاجتماع برابين وأن تتقابلا عينا نعين ورجلا لرجل؟

أجاب الرئيس الأسد ضاحكا : « هل هناك صلات انسانية غير مرئية ؟ هل هناك شيء من الاشعاع مثلا يمكن أن يكون بين الاعداء ؟ نحن اعداء نتحارب منذ أكثر من أربعين عاما ولدينا ركام من الشهداء والأموال والدماء والممتلكات المدمرة ، وهناك اراض محتلة وملايين المهجرين من بيوتهم ، فى ظل هذه الصورة هل يمكن أن يتصور أن تكون هناك جاذبية مثل هذا اللقاء ، أنا لا تساورنى الرغبة أو عدم الرغبة فى اللقاء بل يحدد سلوكى أو قرارى الهدف ، والهدف هو السلام .»

وعندما سئل الرئيس الأسد : كيف يمكن للقاء مبكر سابق لاوانه مع رابين أن يؤدى إلى حرب .

قال الرئيس الأسد : « عندما نختلف على مستوى القمة فيمكن عندها أن نزد كل الاحتمالات السلبية . عندما يختلف المتفاوضون على مستويات أخرى ، فهناك قيادات وحكومات توجه ، ولكن عندما يكون الخلاف على مستوى الرئاسة فلايوجد من يُصلح هذا الامر .»

فرص السلام أفضل

عبر حديثه لمجلة «تايم» أكد الرئيس الأسد أيضا أن فرص السلام الآن أفضل مما كانت عليه قبل بضع سنوات بسبب المناخ الدولى ، ونمو وازدياد عدد الراغبين فى السلام داخل اسرائيل .

حقيقة أخرى : أوضحها الرئيس الأسد وهى « أن الأعمال الفردية والاتفاقات المنفردة لاتحقق السلام ، بل قد تحقق عكس السلام الذى نريده ، ويجب ألا ننسى أن جهودا

■ سورية وسيرة السلام ■

كبيرة ومضنية قد سبقت البدء في عملية السلام كما سبقتها أيضا مبادرة على أساسها حدثت كل المناقشات .

إن المبادرة وأسس العملية السلمية التي اتفق عليها هي التي يجب أن تكون مرشدة الأطراف المشتركة في عملية السلام كافة . أما إذا تركنا الأساس التي اتفق عليها ، وسرنا بمعزل عنها فإن الأخطاء ستكون كبيرة ولن نصل إلى السلام .

ومن أهم أسس عملية السلام أن نسعى جميعا إلى سلام شامل .. نحن نريد أن تنتهي من الحروب ، وأنا استغرب ، وما استغربه واقع ، استغرب أن يكون أحد الأطراف يريد أن يقطع السلام قطعا قطعا ، قطعة الآن ، وقطعة بعد عشر سنين .

ثانيا : لقد حدثت لاحقا بعد العملية المنفردة حروب في المنطقة ومنها غزو إسرائيل للبنان . ما الفائدة من أن نحل مشكلة يخلق حلها مشكلة قد تكون أكبر وأخطر منها ؟

عندما نقول سلاما شاملاً ، فذلك لا يعني أن يضع كل واحد كتفه على كتف الآخر ، وأن يسيرا معا كما يسير الجنود في العرض العسكري . ولذلك هناك لجان ثنائية ، فعلى كل جبهة توجد بعض الخصوصيات اقتضت تشكيل هذه اللجان ، ويمكن أن يتقدم الواحد قليلاً وأن يتأخر عنه الآخر قليلاً ، ولكن يجب ألا يكون هذا مقصودا بمعنى الا يُقال للآخر انتظر لأن يأتي دورك .

وعندما سئل الرئيس الأسد عن الخلاف بين فصائل المقاومة وبالتالي كيف يمكن الوصول إلى نقطة يكون فيها الجميع راضين ؟ .

قال الرئيس الأسد : « الحل الشامل هو الحل والعلاج لهذه المشكلة لأننا عندما نسير في الحل الشامل نقدر أن مجموعة الذين يريدون السلام ضمن هذه الشمولية من العرب هم أكثر من الآخرين ، وهذا في حد ذاته يفرض مرة أخرى أن يكون السلام شاملاً . وهناك شيء آخر ينبغي تعريفه فنحن العرب من أصول واحدة ولسنا أمما متفرقة ، ولغتنا واحدة ، وتاريخنا واحد ، وأمالنا واحدة . وعندما يقع حادث في الجزائر وعلى الرغم من البعد الجغرافي يكون له صدى مباشر في دمشق ، وكذلك في البلدان العربية الأخرى وبالتالي فعندما يُخطئ رئيس سورية مثلاً يتخذ المواطن العربي في الجزائر أو في المغرب وفق قناعاته مواقف من رئيس سورية ويتصرف وكان له الحق في أن يحاسب رئيس سورية وكأي مواطن سوري ، إن التأثير المتبادل بيننا نحن العرب كبير جداً .

وعندما وجه إلى الرئيس الأسد سؤال يقول : إذا لم تقدموا إلى الاسرائيليين شيئا فكيف تتوقعون منهم الموافقة على سلام شامل .

قال الرئيس الأسد : « الاسرائيليون منذ عام ١٩٤٨ يصرخون قائلين : انهم يريدون السلام ، ونحن نعطيهم السلام لذا فإنهم يأخذون الكثير إذ طالما كروا ويكربون أنهم طلاب سلام ثم ماذا يمكن أن نعطيهم ؟

■ الفصل الحادى عشر

إذا اختلفت الولايات المتحدة مع دولة ما وتحاربت معها ثم جاءت هذه الدولة تطلب السلام مع قطعة من أرض الولايات المتحدة . فهل تقبلون ذلك ؟
السلام لا يقوم ويجب ألا يقوم على حساب الغير ، وما الذى يحفز العرب للعمل من أجل السلام إذا كان السلام سيقدم أراضيهم لاسرائيل ، هناك نصف مليون مهجر من الجولان كيف يمكن أن تقنعهم بأنه يجب أن نعطي جزءاً من الجولان لاسرائيل . العالم كله ، والولايات المتحدة في المقدمة، يتحدث عن الشرعية الدولية ، ويقولون إن العالم الجديد هو عالم الشرعية .

إن القانون الدولي الاساسى ، أعنى ميثاق الأمم المتحدة يمنع إحتلال أراضى الغير ولا يوجد أى مبرر أخلاقى أو قانونى أو سياسى ولا أى مبرر آخر لأنه يقدم العرب أرضهم إلى اسرائيل كى توافق على السلام وإلا فكل دولة يكون عندها شيء من القوة في مرحلة من المراحل تأخذ أجزاء من دولة أخرى أو تأخذ الدولة كلها وإذا أريد إجراء مفاوضات فعلى أساس حل وسط عندها كل دولة تأخذ جارتها ويتحول العالم إلى غابة .

وعندما قيل للرئيس الأسد : هل معنى ذلك أن استعادة الجولان لا تكفى لإعطاء اسرائيل السلام . قال الرئيس الأسد : « لم ندخل في التفاصيل سابقا ، ولا نريد الدخول فيها الآن .. المهم هو أن يكون هناك اقرار من الجميع بما ورد في الاساسيات التى تقرر قبل بدء عملية السلام ، أن تقوم على أساسها عملية السلام ، ونعنى شمولية الحل .

يجب أن يكون لدى كل الأطراف اطمئنان إلى أننا سائرون إلى الحل الشامل ، بعد هذا كل لجنة من اللجان لها خصوصية عملها .

وجميع الأطراف العربية يهملها أن تظمنن إلى أن السلام الشامل هو الآتى .

وهذه الاطراف تدرك أن هناك بعض الخصوصيات لكل مسألة من المسائل .

إذا كان الاطمئنان موجودا فيمكن لطرف أن يتقدم بسرعة أكبر ، وآخر بسرعة أقل ، .

موضوع القدس خطير

ورداً على سؤال حول القدس قال الرئيس الأسد: « على الجميع أن يعلموا أن موضوع القدس بالذات هو موضوع خطير . إن القدس موضع اهتمام ألف مليون مسلم في العالم .. الايرانى والباكستانى يعتقد ولاسباب دينية أن له في القدس كما للفلسطينيين والعرب . إن المشكلة معقدة ، والوضع البشرى معقد أيضا .

ولو أراد بعض العرب التخل عن موضوع القدس - وهو أمر لم يبحثه أحد معنا - فسيكون هناك من يقف ضده بكل الوسائل المتوافرة ، وليس من العرب فقط بل كذلك من المسلمين في العالم ، ومن المسيحيين وخاصة من المسيحيين العرب ، وموقف المسيحيين في مصر معروف . لقد امتنعوا عن زيارة الأماكن المسيحية المقدسة أى امتنعوا عن الحج إلى القدس في ظل الاحتلال .

■ سورية وسيرة السلام ■

إن المشكلة معقدة ، والمفاوضون لم يصلوا بعد إلى هذه المرحلة إلا أن هذا لايعنى أن هناك شيئاً يستعصى على الحل ، هناك محادثات ، وقد تخلق ظروف تساعد على الوصول إلى حل ..

لاحل وسطا في موضوع الأرض

وردا على سؤال حول امكانية حصول تسوية أو حل وسط أثناء السير نحو الحل الشامل قال الرئيس الأسد: «ليس هناك امكانية لحل وسط في موضوع الأرض ، هذا أمر تعرفه الادارة الامريكية ومدون على الورق ، ويعرفه الاسرائيليون أيضا . وفي سورية لايستطيع أحد أن يتنازل عن شبر واحد من الأرض . إن من يتنازل عن جزء من أرضه أو يفرط في جزء من وطنه هو خائن للشعب ، وهذه بديهية يؤمن بها كل مواطن سوري ، وحينما يحكم الشعب على واحد بأنه خائن فمصيبه معروف . وأنا عندى هذه القناعة ، ولذلك أقول : إن الحل الوسط في موضوع الأرض غير قابل للنقاش ، وغير وارد عندنا .

ولو تجولتم في سورية من أقصاها إلى أدناها لما وجدتم سورياً واحداً يقبل بسلام يترك جزئية واحدة من الأرض في يد اسرائيل ، وفي أسس السلام أن الحل يجب أن يؤمن الأمن لجميع الاطراف ، وهذه النقطة من النقاط غير الكثيرة التي اتفق عليها في المحادثات أى أن الترتيبات الامنية يجب أن تؤمن الأمن لكلا الجانبين . وفيما يتعلق بالوسائل والطرق لتحقيق الأمن لا توجد صعوبات كبرى لايمكن تذليلها .

ومن ناحية الأمن .. الاسرائيليون أنفسهم يعرفون وعندهم قناعة بأن الجغرافيا لا تحقق الأمن ، وهذا ماجرى الحديث حوله بين الوفين ، ولا يوجد أحد لايعرف أن عمق عشرين كيلومترا من الأرض لا يحقق الأمن .

الاسرائيليون مقتنعون منذ زمن طويل بأن الجغرافيا لا تحقق الأمن لهم منذ أن احتلوا الجولان ووفدنا في المباحثات يسمع منهم كلاما بهذا المعنى . لقد قالوا سابقا بعد عام ١٩٦٧ أنهم أخذوا الجولان ليعيدوا السوريين عن المستوطنات الاسرائيلية فهل حققوا ذلك ؟ لقد تقدموا عشرين كيلومترا ولكن مدى المدافع ، ومنذ سنين طويلة هو أبعد من ذلك بكثير أى أنهم لم يحققوا الهدف الذى قالوا أنهم يسعون إليه . إن احتلال الجولان لم يحقق الأمن لهم . لقد احتلوا الجولان لابعادنا عن المستوطنات كما قالوا إلا أنهم جاءوا بمستوطنات جديدة ، وأقاموها على بعد كيلو متر واحد أو كيلو مترين عن القوات السورية ، وهذا يعنى أنهم لم يحتلوا لابعادنا عن المستوطنات ، ولو قبل منطقهم لكان لهم الحق

■ الفصل الحادى عشر

الآن فى أن يبعدونا عن هذه المستوطنات الجديدة ليينوا مستوطنات جديدة أخرى وهكذا إلى مالا نهاية ، وهذا المنطق مرفوض .

حرص الرئيس حافظ وهو يجيب على أحد الاسئلة عما إذا كان يساوره شيء من القلق بالنسبة لموقف الرئيس الأمريكى الجديد كلينتون من محادثات السلام فى المنطقة، حرص على أن يؤكد على أنه لا يشعر بالقلق لاعتقاده بأن أى رئيس أمريكى عندما يطلع بموضوعة على الوضع فى الشرق الأوسط ، ويدرك مصالح الولايات المتحدة ، ويكون نصيراً للسلام ، ويحس بمسئولية الولايات المتحدة، لابد أن يعمل من أجل السلام ، ويقدر ماتتنامى هذه العوامل ، تكون حماسة الرئيس الأمريكى للعملية السلمية ويقول الرئيس الأسد : لذلك افترض أنه عندما يأتى رئيس للولايات المتحدة فيجب أن يكون مع السلام إلا أن درجة الحماسة تختلف أحيانا ، وأشار الرئيس الأسد إلى تقديره لكل الجهود التى بذلتها ادارة الرئيس بوش بالرغم من أنها لم تصل إلى نهايتها بسبب إنتخابات الرئاسة الأمريكية مؤكدا أننا سنحتفظ فى المنطقة بتقدير للرئيس بوش والوزير بيكر .

ونحن نفهم الظروف التى تمكن من دفع عملية السلام بوتيرة أسرع . إنهم فيما عملوه كانوا يخدمون بالدرجة الأولى الولايات المتحدة الأمريكية وعملية السلام فى نفس الوقت تخدم الجميع ، وإذا كان الرئيس المنتخب بيل كلينتون فى مثل حماساتهم لعملية السلام فسوف يلقى تقدير شعوب المنطقة ، أما إذا لم يكن مع عملية السلام ، وهذا مانستبعده نظراً لتصريحاته التى يؤكد فيها حرصه على متابعة ودفع عملية السلام فسوف يقف كل شيء فى مكانه والمنطق يدفعنا للقول بأن عملية السلام يجب أن تلاقى الدعم وهذا ما نتوقعه .

وبعد

إن الرئيس حافظ الأسد بطبعه ، وبطبيعته يميل نحو التفاؤل، والسلام الشامل هدف سعى إليه منذ زمن طويل ، ولتأكيد هذه الحقيقة يمكن العودة إلى أحاديث الرئيس الأسد وخطاباته فى الزيارات المتبادلة مع رؤساء الدول .

كل خطاب كان فيه حديث عن الشرق الأوسط ولم يكن هناك خطاب لم يقل فيه أن سورية تريد السلام على أساس قرارى الأمم المتحدة ٣٣٨ و ٢٤٢ ومؤتمر سلام . منذ عام ١٩٧٣ وافقت سورية على قرار مجلس الأمن رقم ٢٣٨ وعلى أساس هذا القرار وقفت الحرب ، ومادامت قد وافقت على هذا القرار منذ ذلك الوقت فقد وافقت على السلام أيضا لأن هذا القرار ، وفى صلبه القرار ٢٤٢ يتحدث عن السلام . إذن الموقف السورى من السلام ليس جديداً .. قد تختلف اللهجة أحيانا ، ولكن المبدأ هو نفسه دائما ، ولذلك عندما جاءت مبادرة الرئيس الأمريكى جورج بوش مستندة

■ سورية وسيرة السلام ■

الى هذين القرارين ، ومبدأ الأرض مقابل السلام وافق الرئيس الأسد عليها ، بينما رفضت اسرائيل هذه المبادرة ..

لقد بعث شامير برسالة إلى الرئيس بوش قبل أن تجيب سورية على المبادرة ، يرفض فيها المبادرة بينما بعثت سورية برسالة أعلنت فيها قبول المبادرة .

واسرائيل لاتقول حتى الآن انها وافقت على المبادرة الأمريكية . ورغم الجهد الأمريكي الذى بذل لاقتناع شامير فإنه لم يعط للأمريكيين كلمة واحدة ، عدا أنه وافق على الذهاب إلى مدريد ، وهذا ماصرح به هو نفسه بعد الانتخابات .. إنه لم يكن يريد السلام ، بل كان يريد أن يسأله العرب وأن يبقى كل شيء على حاله ، أى أنه كان يريد من العرب أن يتركوا له أرضهم وأن يوقعوا على سلام مع اسرائيل .

ومن المؤكد أن الشهور القليلة القادمة سوف تكشف مدى جدية اسرائيل .. إن اسحاق رابين يتحدث عن السلام ، وعن انسحاب جزئى ، وبمنطق مختلف وبلهجة مختلفة عن لهجة شامير ، ولكن إذا بقى عند هذا المنطق فالنتيجة لن تكون السلام لأن سورية لايمكن أن تتنازل عن أرضها ، وكل الشواهد تؤكد أن رابين سيخسر ناخبه إذا لم يوافق على الانسحاب الكامل من الجولان . وهناك أحزاب وحاخامات فى اسرائيل وبينهم الحاخام الأكبر يدعون إلى الانسحاب من الجولان ويقولون إن الجولان ليس من أرض اسرائيل والحكومة الاسرائيلية اجتمعت عام ١٩٦٧ ، وقررت الانسحاب من سيناء والجولان وبقية الأراضي المحتلة إذا تحقق السلام .

ثوابت الشعب والقائد السوري

وأخيراً :

فإن سورية لم تكف فى يوم من الأيام عن توضيح وتأكيد موقفها تجاه السلام الذى التزمت به بعملية السلام القائمة على القبول بالمبادرة الأمريكية المستندة الى القرارين ٣٣٨ و ٢٤٢ ، بما يضمنانه من عدل وشمول فى الحل المنشود ، ولم يدع الرئيس حافظ الأسد مناسبة تمر إلا وتحدث فيها بكل الوضوح والثقة عن الموقف الذى يعبر عن ارادة شعبه السوري وأمة العربية ، والثوابت الوطنية والقومية التى لايمكن المحيد عنها ، وكما أكد من قبل أن الاستسلام بعيد عن مبادئه ، وأن السوريين طلاب سلام عادل وشامل يعيد الأرض والحقوق ، وأنه واهم أو متواهم كل من يظن أن سورية يمكن أن تتخلى عن شبر واحد من أرضها ، كما جدد ذلك الرئيس الأسد فى حديثه الشامل لمجلة تايم الأمريكية ثوابت الموقف السوري الذى يجسد ارادة الشعب السوري وتطلعات الأمة العربية .

■ الفصل الحادى عشر

السلام هو الهدف ، ولكنه السلام العادل والشامل وهو - كما سبق القول - موقف ليس جديدا بل يعود إلى تاريخ قبول سورية بالقرار ٢٣٨ الذى توقفت على أساسه الأعمال القتالية فى حرب أكتوبر/ تشرين ١٩٧٣ ، وهو المتضمن القرار ٢٤٢ ، وهما القراران اللذان انطلقت منهما مبادرة الرئيس الأمريكى جورج بوش ووافقت سورية عليها ودخلت على أساسها عملية السلام .

وكما سبق القول أيضا فإن شمولية الحل كانت ولا تزال وستبقى أساس عملية السلام ، وجميع الأطراف العربية يهملها ، بنفس درجة اهتمام الرئيس الأسد أن تطمئن إلى أن السلام الشامل هو الآتى ، كذلك فإن عدالة الحل كانت ولا تزال وستبقى أساس عملية السلام لأنه لا سلام مع استمرار احتلال الأراضى العربية ، والسلام - كما قال الرئيس الأسد - يجب ألا يقوم على حساب أراضى الآخرين ، فضلاً عن أنه لا يوجد مبرر أخلاقى أو قانونى أو سياسى ولا أى مسوغ آخر لأن يقدم العرب أرضهم إلى إسرائيل كى توافق على السلام .

والعدل والشمول هما أساس الحل لأن المواقف العربية الجماعية هى التى تحقق السلام عبر طريق يشعر المواطن أنه طريق يحفظ الكرامة .

وأما ما تناور إسرائيل من خلاله وتدعيه حول أمنها فهو لا يصح فى أى حل يستند إلى جوهرى العدل والشمول فأولاً « الترتيبات الأمنية يجب أن تؤمن الأمن لكلا الجانبين » لأن احتلال إسرائيل للأرض العربية هو عدوان ، ولا سلام مع استمرار العدوان ، فضلاً عن المغالطة التى تستند إليها الدعاية الإسرائيلية لتبرير الاستمرار فى احتلال الجولان فإسرائيل ادعت الدفاع عن المستوطنات الصهيونية لتسويق احتلال الجولان ، ولكنها - كما قال الرئيس الأسد - شيدت مستوطنات جديدة على أرض الجولان ، وعلى بعد عدة كيلو مترات من القوات السورية .

وفضلاً أيضاً عن الحقيقة التى بات الجميع يعرفها وهى أن الجغرافيا لا تحقق الأمن ، فإنه ليس هناك امكانية لحل وسط فى موضوع الأرض « فلا يستطيع أحد فى سورية أن يتنازل عن شبر واحد من الأرض » ، وه الحل الوسط فى موضوع الأرض غير وارد .

تلك هى سورية ، وتلك هى مواقفها الثابتة من عملية السلام ، لا تفريط فى ذرة تراب واحدة من أرض الوطن ولا مساومة على حق من حقوق الوطن والأمة والشعب السورى الأبقى هو شعب يتق فى قائده ، ويقف وراءه فى معارك الحرب والسلام لأنه القائد الذى يدرك هموم شعبه وأهدافه وتطلعاته وكل رهاناته نابعة من إرادة الشعب الصامد ، والتى

■ سورية ومسيرة السلام ■

صاغها الرئيس الأسد في حديثه إلى بعثة مجلة تايم الأمريكية عندما قال لهم :
لن تجدوا سوريا واحداً يقبل بسلام يترك جزءاً من الأرض في يد اسرائيل .
ولعل اسرائيل التي ماظلت وتعنتت ورقصت على الحبال خلال عام كامل لعلها تسمع
جيذا ما أعاد الرئيس حافظ الأسد تأكيده عن سلام المنطقة ، ولعلها تقتنع وتسارع
لإعادة حساباتها ، قبل أن تقف عارية أمام العالم وحيدة بعصيانها الشرعية الدولية .

أهم المراجع

- ١ - الشام في صدر الإسلام دكتورة نجده خماش
- ٢ - تاريخ سورية دكتور علي سلطان
- ٣ - سورية ١٩١٦ - ١٩٤٦ وليد المعلم
- ٤ - حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس د. سهيل زكار
- ٥ - تطور الحركة الوطنية في سورية ذوقان قرقوط
- ٦ - النظم السياسية د. كامل ليلة
- ٧ - الطريق إلى رمضان محمد حسنين هيكل
- ٨ - ملفات السويس محمد حسنين هيكل
- ٩ - يوم ميسلون ساطع الحصري
- ١٠ - ثورات العرب في القرن العشرين أمين سعيد
- ١١ - لبنان وسورية جوزيف أبو خليل
- ١٢ - الأسد الصراع على الشرق الأسط باتريك سيل
- ١٣ - حافظ الأسد مسيرة مناضل لوسيان بيترلان
- ١٤ - السلام المفقود كريم بقرادوني
- ١٥ - يوميات حرب أكتوبر المشير محمد عبدالغنى الجمسى
- ١٦ - حافظ الأسد وعالمه الرحيب صفوان قديسى
- ١٧ - العراق دولة المنظمة السرية حسن العلوى
- ١٨ - البطل والتاريخ صفوان قديسى
- ١٩ - التكامل بين مرحلتين أحمد الأسعد
- ٢٠ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين د. فيليب حتى
- ٢١ - تاريخ سورية ١٩١٨ - ١٩٢٠ د. علي سلطان
- ٢٢ - صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الايوبية) د. أحمد الشامي
- ٢٣ - الطريق إلى الوحدة العربية د. عصمت سيف الدولة
- ٢٤ - مسيرة الثورة في ربع قرن من منشورات دار النقب
- ٢٥ - الثورات السورية الكبرى في ربع القرن ١٩١٨ - ١٩٤٥ عبدالله يوركي حلاق
- ٢٦ - الانهيار الكبير.. أسباب قيام وسقوط وحدة مصر وسورية محمد عبدالمولى
- ٢٧ - وثائق وكالة الانباء السورية اشرف د. فايز صايغ
- ٢٨ - ناصر انتوني ناتنج
- ٢٩ - خطب وتصريحات الرئيس الاسد احمد قرنه
- ٣٠ - حافظ الأسد وتجربة الجبهة الوطنية التقدمية في سورية ... د. رياض سليمان عواد

- ٣١ - حافظ الأسد قيم فكرية انسانية د. اسكندر لوقا
- ٣٢ - حزب البعث في سبعة وثلاثين عاما منشورات دار النقب
- ٣٣ - المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس د. احمد عبد الكريم سليمان
- ٣٤ - حافظ الأسد.. الادانة التاريخية الثورية للارهاب الدولي هاني خليل
- ٣٥ - شعب وقائد الدكتور اسكندر لوقا
- ٣٦ - تاريخ الشرق العربي الحديث د. محمود حسني صالح منسى
- ٣٧ - الندوة الفكرية الثانية حول الحرية حزب البعث العربي الاشتراكي
- ٣٨ - دراسات فكرية ١٩٧٠ - ١٩٨٠ حزب البعث العربي الاشتراكي
- ٣٩ - السلام العلمى ونزع السلاح حزب البعث العربي الاشتراكي
- ٤٠ - حافظ الأسد قائد ورسالة فؤاد العشا
- ٤١ - النسيج الثورى بين آذار وتشرين د. نجاح العطار
- ٤٢ - السياسة الخارجية السورية بشار الجعفرى
- ٤٣ - حافظ الأسد الادانة التاريخية الثورية للارهاب الدولي هاني خليل
- ٤٤ - المسئولية الدولية د. محمد حافظ غانم
- ٤٥ - المشكلة الفلسطينية على ضوء احكام القانون الدولي د. محمد حافظ غانم
- ٤٦ - المنظمات الدولية والاقليمية المتخصصة د. محمد حافظ غانم
- ٤٧ - محاكمات نورمبرج للزعماء والقادة النازيين د. محمد حافظ غانم
- ٤٨ - الغزو الاسرائيلى للبنان تاليف : مجموعة من الباحثين السوريين
- ٤٩ - المذهب العسكرى الاسرائيلى د. هيثم كيلانى
- ٥٠ - الاحزاب الاسرائيلية والحركات السياسية
مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية اشرف/ حبيب قهوجى
- ٥١ - الحركة الوطنية اللبنانية سامى ديبان
- ٥٢ - العرب في اسرائيل تاليف : صبرى جريس

□□ كتب المؤلف □□

أولا: باللغة العربية

- (١) عمان والخليج .. قضايا ومناقشات .
الناشر: دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر عام ١٩٦٩ (نقد) .
- (٢) ثورة الجنوب - تجربة النضال وقضايا المستقبل .
الناشر: دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ (نقد) .
- (٣) تطور ومسار الحركة الوطنية في اليمن الديمقراطية .
الناشر: دار النصر بمصر عام ١٩٧١ (طبعتان نقدتا) .
- (٤) وصفى التل القاتل والقتيل .
الناشر: دار هيردوت بلبنان عام ١٩٧٢ (٣ طبعات نقدت) .
- (٥) الاغتيال في الفكر السياسى والقانونى .
الناشر: دار هيردوت بلبنان عام ١٩٧٢ (نقد) .
- (٦) محاولة لفهم الثورة اليمنية .
الناشر: المكتب المصرى الحديث بمصر عام ١٩٧٤ (نقد) .
- (٧) الرهان الاسرائيلى على جنوب السودان .
الناشر: المكتب المصرى الحديث بمصر عام ١٩٧٥ (نقد) .
- (٨) الرجل والتحدى .
الناشر: المكتب المصرى الحديث عام ١٩٦٩ (طبعتان نقدتا) .
- (٩) مع الاعتذار للامام موسى الصدر
الناشر: مكتبة مدبولى - القاهرة
- (١٠) التاريخ لا تحركه الصدفة (قراءة في فكر الاسد) .
الناشر: مؤسسة اخبار اليوم - القاهرة .

ثانيا: باللغة الانجليزية

THE MAN AND THE CHALLENGE
Publisher : The modern Egyptian Bureau

ثالثا : كتب تصدر قريبا

- ١ - مصر في قلب ثائر .
- ٢ - ذكريات صحفية .
- ٣ - حكاية الجزائر .
- ٤ - مازق اليمن .
- ٥ - مهددات الأمن القومي في التسعينات .
- ٦ - اسرائيل وحرب المياه .
- ٧ - لبنان .. الجمهورية الثانية .
- ٨ - التنظيمات السياسية في الوطن العربي .

الفهرس

صفحة

٣	■ الإهداء
٥	■ هذا الكتاب (بقلم ابراهيم سعده)
١٣	■ بداية
٤٥	■ فارس بنى يعرب
٨٩	■ عَيْزُ التاريخ ودروسه في فكر الأسد
١٢٧	■ ثورة آذار
١٦١	■ حركة التصحيح
٢٧٥	■ العلاقات السورية اللبنانية
٣٣١	■ الرئيس الأسد والقضية الفلسطينية
٣٤٩	■ أزمة الخليج وكبرياء الفارس
٣٨٩	■ القامر على سورية
٤٢٥	■ الأسد : التمييز بين المقاومة الوطنية والارهاب
٤٥١	■ العلاقات المصرية السورية في فكر الرئيس الأسد
٤٨٣	■ سورية ومسيرة السلام
٥٠٧	■ أهم المراجع
٥٠٩	■ كتب المؤلف

رقم الايداع ٣٨٣٥ / ٩٣
I. S. B. N
977 - 08 - 0430 - 4

طبعتم بمطابع دار اخبار اليوم.

□□ هذا الكتاب :

□□ موضوع الكتاب هو « التاريخ لا تحركه الصدفة .. قراءة في فكر الأسد » .. وهو محاولة عربية علمية جادة لدراسة التجربة السورية في ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد ، فيه فهم ونفاذ إلى فكر الرئيس الأسد ، وعقيدته الوجدانية ، وجهوده لبناء دولة المؤسسات .

وقد نجح المؤلف من خلال مجموعة هائلة من الوثائق والمعلومات والحقائق التي قدمها في شرح وتحليل تجربة الجبهة الوطنية التقدمية في سورية ، وهي تجربة رائدة ، كما نجح في إيضاح المنحى القومي للسياسة السورية بعد حركة التصحيح .

وقد أجاد المؤلف في عرض مواقف الرئيس الأسد من قضايا الأمة العربية والشعوب الإسلامية خاصة في لبنان ، وفلسطين ، والخليج ، والحرب العراقية الإيرانية .

كما يستعرض الكتاب محصلة التعاون المصري السوري عبر التاريخ وفي ظل قيادة الرئيسين حسنى مبارك وحافظ الأسد ، هذا وسيتعرف القارئ بشكل مفصل من خلال صفحات الكتاب على مختلف ما شغل العرب في الربع الأخير من هذا القرن .

الكتاب يعد من أعمق الدراسات العربية التي تناولت شخصية الرئيس الأسد وأكثرها توفيقاً ، وعلمية ، ووثائقية . وهو كتاب جدير بالمطالعة والاقتناء ، وطابعه الاسناد الكامل بالوثائق .

الناشر :

دار أخبار اليوم

توزيع الأخبار

١٢